جامعة الجزائر

معهد اللغة والأدب العربي

أثر الأندلسيين في الأدب المغربي

على عهد الموحدين

بحث أعده

محمد صالح الجوة

لنيل شهادة دكتوراه الدولة

بإشراف

الدكتور محمود الربداوي

أستاذ الأدب في جامعة دمشق

العام الجامعي: 1407 هـ، 1987 م

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يحظ التراث المغربي الأندلسي باهتمام الباحثين العرب اللازم الا في العقود الأخيرة من هذا القرن . وهذا رغم شعورهم بالفجوة الكبيرة التي خلفها فقدان هذا التراث في بعث الحضارة الاسلامية القديمة . ورغم احساسهم بافتقار المكتبة العربية لهذه الحلقة النفيسة لاستكمال عقدها .

والحق أن شعور الباحثين بفداحة هذه الخسارة قد أحسّوا به منذ أن بدأ العرب يلمون شعثهم ويرأبون صدعهم في أوائل عصر النهضة . الا أن انغلاق المسالك التاريخية بالنسبة لهذين القطرين ، وما أحيطت به تلك الفترة من عتمة ، خاصة ، فيما يتعلق بالعهدين : المرابطي والموحدي جعلت الباحثين يحجمون عن كلّ محاولة جادة لاقتحام الموضوع .

وزادهم نفورا ، ما وجدوه من عراقيل سياسية معقدة وقفت بينهم وما يريدون .

- فالأسبان كانوا ، الى عهد قريب ، يعتبرون الكلام عن الأندلس الاسلامية جريمة لا تغتفر ، فكانوا لا يسمحون لأيّ كان أن ينبش ماضيهم ، بله أن يلج مكتباتهم ليبعث تاريخ اسبانية الاسلامية .

- أما بلدان المغرب التي كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي فقد كانت عراقيلها أنكى وأشدّ . اذ ما فتيء المستعمرون ، منذ أن وطئت أقدامهم شمال افريقية ، يعملون على بثّ فكرتهم القائلة بأن "لا ماضي للمغرب ولا أصل له" حيث سعوا بكل ما لديهم من جهود لغرس هذه الفكرة في أذهان الناشئة بكل الوسائل الممكنة : بواسطة كتّابهم ، ومعلّميهم ، وأساتذتهم الجامعيين ، الى أن توصلوا

لخلق نوع من الذبذبة في نفوس بعض المواطنين ، فعطوا هم بدورهم على زرع تلك الشكوك ونشرها بين طبقات الشعب مدافعين عن صحتها أيّما دفاع .

فلم يكن من المعقول ، اذن ، — والحالة هذه — أن يفكر أيّ باحث مهما كانت غيرته ، وعصاميته ، أن يغامر بالتوغل في مسارات هذه المناطق التي يحدق بها الغموض وتكتنفها الصعوبات من كل جانب ومكان .

أما الآن — وبعد أن زالت كل العقبات ، وتيسرت أسباب الاتصال بفضل ماجدّ من أحداث سياسية مسّت كل مناطق شمال افريقية في العشريات الأخيرة — رأينا كثيرا من الباحثين المشهورين يولّون وجوههم شطر هذه المناطق النائية من الوطن العربي ، فيلكبون على دراسة تراثها ، باحثين ، منقبين عن كل ما يمكن أن يساعدهم على بعث تلك الحقب المشرقة من تاريخ هذه الأمة التي أتاح عليها الزمن حتى طمس كلّ أثر لها أو كاد ، وقد استطاعوا بفضل جهودهم المتواصلة أن يحققوا لنا كثيرا من المخطوطات النادرة ويقدموا عليها بحوثا ضافية ودراسات مستفيضة الاّ أن الفضل الأول في كلّ ذلك يعود لبعض المستشرقين الذين كان لهم شرف الأسبقية في اكتشاف كثير من الوثائق التاريخية الهامة ونشر بعض كتب السير والتراجم ، التي كانت بمثابة الصوى ، التي أرشدت الباحثين الذين جاءوا بعدهم ، حيث استطاعوا أن يستبينوا طريقهم لاكتشاف بقية التراث .

ورغم كل الدراسات الجادّة التي قام بنشرها أولائك العلماء الاجلاء من مستشرقين وعرب ، ورغم الكتب القيمة التي أصدروها في الموضوع ، الا أن هناك جوانب عديدة ، لا تزال مبهمة غامضة تحتاج الى مزيد من الشرح والبحث والتنقيب خاصة منها تلك التي تتصل

بفترتي : المرابطين والموحدين . اذ أن أغلب الدراسات التي صدرت عنها حتى الآن كانت تقتصر على تناول بعض الشخصيات العلمية أو الأدبية، دون أن تجرؤ يوما على تناول ثقافة العصر ككل، أو أن تقوم، على الأقل، ببحث جانب من جوانبها، لفترة تاريخية محددة .

وهذا التهيب من طرف الباحثين من تناول هذه المواضيع الشاملة راجع، ولا شك، لندرة المعلومات وقلة النصوص التي تجمعت لديهم عن هذه الفترة، من جهة، ولانعدام المصادر التي يمكن أن تكسبهم تصورا واضحا مشرقا وتساعدهم على تكوين فكرة شاملة عن الموضوع من جهة ثانية .

وقد كان أملي الكبير أن أوفق يوما للمساهمة في الكشف عن خفايا هذا الركن العزيز من الوطن العربي الكبير . فمن الله عليّ بتحقيق هذه الرغبة عندما أتاحت لي فرصة الاتصال بأستاذي الكريم الدكتور محمود الربداوي وتفضل عليّ بقبول الاشراف على رسالتي هذه التي سجلتها تحت عنوان " أثر الأندلسيين في الأدب المغربي على عهد الموحدين " كتتمة لدراسة موضوع الأدب المغربي القديم الذي كنت قد بدأته معه في أطروحتي الأولى التي تناولت فيها العهد المرابطي .

اختيار الموضوع :

أما ما جعلني أختار هذا الموضوع بعينه، فهناك دافعان : دافع قومي، وآخر شخصي .

أ) أما الدافع القومي، فلأني اعتقد، شخصيا، أن أعباء احياء تراث أي منطقة ما، من العالم الاسلامي، يقع على أبناء تلك المنطقة بالدرجة الأولى . وذلك — أولا — بحكم انتمائهم اليها — وثانيا —

بحكم عيشهم فيها . اذ أن ذلك ، سيساعدهم ـ أكثر من غيرهم ـ على اكتشاف الحقائق التاريخية وغيرها ، من أقرب السبل وأسلمها . وهذا بفضل احتكاكهم بالمنطقة المدروسة ، ومشاهدتهم لآثارها اذ "أهل مكة أدرى بشعابها" كما يقولون . من جهة ، ولما عساهم يحتفظون به من رواسب العادات والتقاليد التي كان يتحلى بها القوم الذين هم محل البحث ، وما ورثوه عنهم من بقايا اللهجات والأسماء ، والأشياء التي كانوا يستعملونها أيضا ، من جهة أخرى .

فكل ذلك مما يمكن أن يستنير به الباحث على ما عساه أن يشتبه عليه أو يغمض ، وهو بالنسبة لهؤلاء ـ سكان المنطقة ، شيء فطري .

ب) أما الدافع الشخصي فهو :

1) اعجابي البالغ بدولة الموحدين وما حققته من نهضة ثقافية شاملة في كل بلدان المغرب على الرغم من قصر عمرها اذ لم تعمر الا قرنا ونيفا ، وما ذلك بالشيء الكثير في عمر الدول وسير الزمن .

2) ملاحظتي للتشابه القوي الذى كان يجمع بين كل من الحضارتين المغربية والأندلسية في هذا العهد الذى وحد فيه المغاربة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط توحيدا كاملا تحت لواء واحد .

3) فضولي الجامح الذى كان يدفعني ، دوما ، لتتبع هذه الروافد الحضارية التي ما فتئت تصب في بلدان المغرب ، ورغبتي في اكتشاف منابعها وابراز ما نتج من تفاعل وتلاقح بين تينك الحضارتين من آثار في بلدان شمال افريقية .

لهذه الأسباب مجتمعة ، ولرغبتي الملحة في فهم هذا المجتمع الذى أعيش فيه فهما علميا ، قائما على أسس تاريخية وحضارية

صحيحة اخترت هذا الموضوع الذى قد استطيع بواسطته أن أتعرف على منابع الثقافة المغربية وأصولها الحضارية ، اذ لا سبيل لفهم حضارة شعب ما ، الا بالرجوع الى أصولها الأولى .

تحديد الموضوع :

عندما عزمت على تناول موضوع الأدب المغربي القديم كانت نيّتي أن ألزّ أدب العهدين : المرابطي والموحدى في بحث واحد . وكان ذلك منطقيا جدّا ، على الأقل ، من الناحية العملية . وهذا لتتابع فترتي الدولتين زمنيّا ، ولقصر عمريهما نسبيّا . وتشابههما في كثير من المظاهر والسمات العامة : فكلتا الدولتين تنتميان الى أرومة واحدة ، وكلتهما قامتا على الاصلاح الديني ، كما نعلم ، وقد أسستا في منطقة واحدة ، وبسطتا نفوذهما على نفس الأقطار تقريبا ، مع بعض التوسع الذى حققه الموحدون بالنسبة لأسلافهم . فهذا التشابه بين الدولتين في كل شيء يجعل ، من الصعب على الدارس ، أحيانا ، أن يفصل بينهما لشدة تداخلهما .

ولكني رغم ذلك آثرت أن أفرق بين الفترتين ، رضوخا لقواعد المنهجية ، اذ قد يصعب قبول دراسة موضوع واسع كهذا في أطروحة واحدة . فأفردت المرابطين لذلك برسالة خاصة ، وأرجيت موضوع الأدب الموحدى لاتساع مجاله ، لدكتوراه الدولة .

وكانت رسالتي في المرابطين بمثابة الخطوة الأولى التي مكنتني من تثبيت قدمي في الموضوع ، حيث ساعدتني على تكوين فكرة عامة عن الأدب المغربي ، فاستثمرت بما درسته فيها على اكتشاف معالم الثقافة الموحدية كما تمكنت من تتبع خط السير الذى درجت عليه في كل من المغرب والأندلس .

- والواقع أنه لم يدر بخلدى يوما أني سأواجه ما واجهته من صعوبات في دراسة هذه الفترة التي كنت أتصور أنها أقل غموضا من فترة المرابطين على الأقل من حيث توفر المصادر .
وكان الذى أرهقني أكثر في الموضوع ، هو التنقيب على النصوص الأدبية ، خاصة منها ما يتصل بانتاج المغاربة ، لأن أغلب الدراسات التي تناولت هذه الفترة كانت - أولا - تقتصر على تناول الأعلام دون أن تتوسع لدراسة شاملة للعصر من جهة . ثم أن أغلبها كانت تختار شخصياتها من بين الأندلسيين المشهورين الذين يتوفر لهم انتاج واسع ، كابن سهل ، وابن سعيد ، وابن الأبار وابن عميرة وغيرهم . من جهة ثانية ، أما الذين تناولوا المغاربة فقد كانوا قلة قليلة جدا .

- على أن صعوبة البحث لم تكن تكمن في قلة توفر النصوص وندرة المصادر والمراجع فحسب ، ولكن كانت هناك أيضا مشكلة اتساع الموضوع الذى سببه نمو الأجناس الأدبية وتعددها في هذا العصر ، حيث لم يبق النظم محصورا في الشعر التقليدى وحده ، كما كان في القديم ، ولكنه توسع الى ما سمي بالموشحات ، ثم الأزجال ، كما لم تبق الأغراض على ما كانت عليه من قبل بل تمططت هي الأخرى فأصبحت تضم مواضيع جديدة .
- وما يقال عن النظم يسرى على النثر أيضا حيث نمت أنواعه هو الآخر فتفرعت الى رسائل ديوانية ورسائل اخوانية ومقامات ، ومفاخرات ، ومناظرات ، وخطب ، ومواعظ ، وما سمي بالنثر التأليفي . وكل ذلك مما زاد في توسيع الموضوع وصعوبة بحثه .

- أضف الى كل هذا وذاك أن مفهوم الأدب في القديم لم يكن يعني الشعر والنثر وحدهما مفصولين عن كل ما سواهما . بل كان يعني كل ماله صلة مباشرة بهما كاللغة والنحو والبلاغة والتاريخ ،

وما الى ذلك . فالأدب عند القدماء هو "الأخذ من كل علم بطرق" كما نعلم . لذا كان على دارس الأدب القديم أن يقوي ثقافته العامة في كل هذه المواد وغيرها حتى يستطيع تعمق النصوص واتقان فهمها .

ـ والذي زاد من تعقيد دراسة الأدب الموحدي بالذات ـ اضافة الى كل ما تقدم ـ هو ذلك الطابع الديني الذي اتسم به نتيجة لتغلب الثقافة الاسلامية عليه ، حيث أصبح يخوف أغلب معانيه من العلوم الشرعية التي طغت على العصر .

فرغم أني قصرت دراستي هذه على النظم والنثر وحدهما الا أني كثيرا ما كنت أجد نفسي مضطر للخوض في علمي الأصول ، وعلم الحديث وعلم الكلام ، وعلم الجدل لتداخل هذه العلوم مع الأدب ، وتأثيرها فيه . وهذا ما جعلني أفيض فيها القول أحيانا ، باعتبارها جزء لا يتجزء من الثقافة العامة للأديب آنذاك .

مراحل العمل :

أما مراحل العمل ، فقد كانت كالتالي :

ـ أول ما ابتدأت به هو قراءة كتب التاريخ التي اعتنت بشمال افريقية والأندلس للتشبع بالموضوع . وقد أعانني هذا العمل على بلورة الفكرة وتوضيحها في ذهني ، كما اهتديت بفضلها للتعرف على الكتب القديمة ، فانتقيت منها كل ما قدرت أنه نافع لي .
وقد صنفت مراجعي الى أربعة أصناف رتبتها حسب أهميتها كما يلي :

1) كتب التاريخ والرحلات
2) كتب التراجم
3) الدراسات والدوريات
4) المصادر الأجنبية .

ـ أ ـ أما كتب التاريخ فلأنها مظان ما أبحث عنه ، فهي ـ وإن كانت تعنى غالبا بالنواحي السياسية والعسكرية ـ غير أنها تجود علينا في كثير من الأحيان ـ بفضل استطراداتها ـ بمعلومات قيمة لا نكاد نعثر عليها في غيرها ، نذكر من بين هذه الكتب على سبيل المثال روض القرطاس ، والمعجب في أخبار أهل المغرب والبيان المغرب ، والمسالك والممالك ونزهة المشتاق والاستبصار وغيرها كثير .

ـ ب ـ أما كتب التراجم فعليها العمدة خاصة فيما يتعلق بتتبع أخبار العلماء والأدباء وتنقلاتهم ، وآثارهم .
فمن أهم هذه الكتب التي استفدت منها في هذه الناحية أذكر : بغية الملتمس ، والتكملة ، والحلة السيراء ، والذيل والتكملة ، والمطرب ، والمغرب ، الغصون اليانعة ، والقدح المعلى ، والاحاطة ، ونفح الطيب ، وأزهار الرياض ، وعنوان الدراية ، وغيرها كثير حسبما سأذكر ذلك مفصلا في ثبت المراجع .

ـ جـ ـ أما الدوريات ، وأعني بها المجلات التي تهتم ، خاصة ، بالآثار المغربية الأندلسية كصحيفة المعهد المصري ، ومجلة الثقافة المغربية ودعوة الحق ، والأندلس ، وهسبرس الخ ...
فكثيرا ما تفتح أفاقا واسعة أمام الدارس بفضل ما تنشره من بحوث قيمة بأقلام مغربية وغيرها وأكثرها بحوث علمية نزيهة :

1) علمية لأنها أول دراسات قيمة تصدر بأقلام سكان هذه المناطق تقوم على منهجية سليمة ، وطريقة حديثة في البحث العلمي .
اذ أن كتابها يعدون البواكير الأولى للمدارس النظامية ، وخلاصة

الطلائع التي اتيحت لها فرصة اتمام دراستها ، وقد تفتحت عيونهم على أشياء جديدة بفضل تنقيبهم في بطون المكتبات العتيقة فأصدروا بحوثا قيمة ، اعتمدوا في نشرها على المجلات .

2) ونزيهة لأنها أول بحوث تصدر عن شباب تنسم الحرية الحقة ، وأصبح لا يخشى لومة لائم فيما يصدع به من حق .

ـ د ـ أما الكتب الأجنبية فاضطررت للاعتماد عليها لسببين :
أولا ـ لأن أول من اعتنى بالتنقيب على الآثار المغربية الأندلسية هم المستشرقون من أمثال ميولر ، ودوزى ، وليفي بروفنسال ، وربيرا ، وبالنثيا . وعلى هؤلاء الكتاب ، اعتمد الباحثون العرب الذين جاءوا من بعدهم .
ـ أما السبب الثاني فلأني أعتقد أن أغلب المصادر العربية القديمة قد ضاع ابان حركة الاسترداد أوبعدها بالاغراق او الاحراق وقسط كبير من البقية الباقية منها عفت عليه بريد الزمن فتبدد في الأقبئة وبطون المكتبات الخاصة ، فلم تستطع الهيئات الرسمية لمّ شتاته على الرغم مما (بذل) تبذله من جهود حتى الآن . لذا رأيت أن لا مفرّ من الاستعانة بالكتب الأجنبية الناقلة عن المصادر الاسبانية القديمة مع الحذر ـ طبعا ـ والتمحيص ، وعدم اللجوء اليها الا عند فقدان المراجع العربية .

هذا ولا يفوتني أن أذكر أني قد استفدت بكل ما كتبه السادة العلماء الأجلاء قبلي في هذا الباب من أمثال الاستاذ عبدالله قنون ، والأستاذ محمد بن تاويت ، والاستاذ ح ح . عبدالوهاب ، والأستاذ عثمان الكعاك ، ود / عباس الجراوي ، ود / محمد بنشريفة ، ود / عبدالعزيز الأهواني ، ود / إ . عباس . وغيرهم كثير ، واني لأدين لهم بفضل الأسبقية في كثير مما تعرضت له .

وانتهز هذه الفرصة لأقدم تشكراتي الخالصة لكل الأساتذة الكرام الذين مدّوا لي يد المساعدة سواء في جامعة الجزائر، او جامعة باريس، وأخص بالذكر منهم أستاذي الجليل د / محمود الربداوي الذي خص موضوع بكل اهتمام وتحمل معي مشاق هذا البحث الذي لولا فضل عنايته ما استطعت أن أتمه على هذا النحو . لقد كان لي نعم الموجه والمرشد والناصح فشكراً له على كل ما بذل من جهود . كما أشكر أستاذتي الجليلة د / رشيل آريه R. Arie التي سهلت عليّ كثيرا من الصعوبات بما قدمته لي من مساعدات ادارية، وعلمية وبخاصتي به من رعاية وتوجيه عند اقامتي بباريس .

خطة البحث

قسمت بحثي هذا الى : تمهيد ، وبابين ، فأفردت التمهيد - الذي عنونته " المغرب بين عهدين " - للحديث عن :

- الحياة الاجتماعية والثقافية قبل الموحدين .
- وعن الأوضاع السياسية لبلدان المغرب في القرن السادس .

وقد وزعت مادة هذا التمهيد على فقرتين (- أ - وب) . تكلمت في الفقرة الأولى عن حدود بلدان المغرب في القديم ، وعن القبائل التي كانت تسكنه ، وعن أنماط المعيشة التي اشتهرت بها كل شريحة من شرائحه الاجتماعية ، وما كانت تقوم به من أعمال ، وماكانت تستعمله من لغات وتتكلمه من لهجات محلية ، وقد استطردت من ذلك للكلام عن انتشار اللغة العربية ببلدان المغرب باعتبارها الأداة الأولى لنشر الثقافة التي خصصت بحثي هذا لدراستها فأفضت القول في تتبع خط السير الذي سلكته حركة التعريب ببلدان المغرب

منذ القدم ، لأبين - أولا - أن النهضة الثقافية التي عرفها المغرب في القرن السادس لم تكن نتيجة طفرة ، انما كانت مبنية على أصول تمتد جذورها الى الفجر الاسلامي الأول .

ولأبين - ثانيا - أن ما نسب للعهد الموحدي من تشجيع اللهجات المحلية على حساب العربية لمجرد فرض قادتها قراءة التوحيد بالبربرية على من لا يحسن العربية هو تفسير خاطئ ، ومغالطة محضة .

- كما تكلمت ، في هذا القسم الأول ، أيضا ، عن بواكير الثقافة الاسلامية وعن مساهمة الدول التي تعاقبت على بلدان المغرب في نشرها وترسيخها . وقد اتخذت ذلك كخلفية تاريخية للثقافة الموحدية التي تعتبر امتدادا لها ، حيث اتسمت ، هي الأخرى ، بذلك الطابع الديني الذى أثر على كل مظاهرها بما فيها الأدب .

- أما الفقرة الثانية من هذا التمهيد فقد تكلمت فيها عن سقوط الدولة المرابطية ، وقيام الموحدين ، وقد بسطت القول في زعيمها الروحي المهدى بن تومرت لما له من الفضل الأول في بعث النهضة الثقافية التي عرفها هذا العهد ، كما شرحت مراحل الدعوة بشيء من التفصيل لما كان لها من أثر عميق على الحركة الفكرية بصفة عامة .

وقد تكلمت أيضا عن دور زعيمها العسكري عبد المؤمن بن علي في توحيد بلدان المغرب ، وعما لاقاه تدخله بالجزيرة من رد فعل أندلسي . فلئن اتسمت هذه الفقرة ، بشيء من السرد التاريخي ، الا أن ذلك كان ضروريا لاستيفاء جوانب البحث وربط اطراف الموضوع . " وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب " .

أما بالنسبة للباب الأول فقد خصصته للحديث عن الازدهار الثقافي ببلدان المغرب في القرن السادس . وقد وزعت مادته على فصلين :
- تكلمت في الفصل الأول على عوامل انتشار التعليم ، وعن أهم الحواضر المغربية التي كانت تعد بمثابة مراكز اشعاع في ذلك العهد

بسطت القول في وصف المراكز الثقافية التي نشأت بها .
وتكلمت فيه أيضا عن المناهج التعليمية ، والبرامج المقررة ، والكتب المدروسة التي كانت متداولة آنذاك .

- وخصصت الفصل الثاني من هذا الباب لشرح عوامل انتشار الثقافة الأندلسية ببلدان المغرب وقد حصرتها في نقطتين أساسيتين :
- هجرة العلماء الأندلسيين الى العدوة وانتشارهم ببلدانها .
- رحلة المغاربة الى الأندلس التي اتخذت لها عدة مظاهر : منها الرحلة العلمية - والجهاد المقدس - والرحلة التجارية وما الى ذلك .
- أما بالنسبة للباب الثاني فقد افردته لدراسة أنواع الأدب المغربي وهو يحتوى على ثلاثة فصول .
- خصصت الفصل الأول لدراسة الشعر التقليدى بكل أغراضه ، وقد ركزت فيه على الشعراء المغاربة خاصة .
- وتكلمت في الفصل الثاني عن الموشحات والأزجال - كيف نشأت ومن اشتهر بها ، وما هي المواضيع التي تناولتها .
- أما الفصل الثالث فقد قصرته على انواع النثر الفني بكل ما تشتمل عليه من رسائل ديوانية ورسائل اخوانية ، ومقامات ومفاخرات ، ثم عرضت أربعة كتب كنماذج للتأليف المغربي في العهد الموحدى . وختمت كل ذلك بخاتمة عرضت فيها أهم ما توصلت اليه ، موضحا التشابه الكبير الذى نجده بين الأدبين : المغربي والأندلسي - معددا أشهر الأعلام الذين لمعت أسماؤهم في هذا العهد كدليل مادى على ماوصلت اليه الثقافة من الازدهار تحت الحكم الموحدى .

وبعد لقد طال البحث كثيرا - ولاشك - وتشعبت مسالكه ، كما كانت دراسته مضنية شاقة زاد في صعوبتها عدم وفرة المراجع وقلة الأضواء التي سلطت على هذه الفترة من تاريخ الثقافة المغربية .

فكلما أرجوه من عملي هذا أن أكون قد وفقت لاضافة شيء جديد للمكتبة المغربية الأندلسية يمكن لطلاب العلم أن يستنيروا به في المستقبل لتعميق دراساتهم لهذه الفترة اذ لاتزال هناك عدة جوانب تحتاج الى بحوث مستفيضة .

هذا ، ولقد جاهدت نفسي قدر الاستطاعة على المثابرة والكدّ في تحرّي الحقيقة ، كما حملتها على الموضوعية والنزاهة في الأحكام راجيا أن أبلغ ببحثي هذا درجة المجتهد المصيب . والله وليّ التوفيق .

أثـــر الأندلسيـــين في الأدب المغربـــي على عهـــد الموحديـــن .

المقـــدمـــة : المغـــرب بـــين عهـديـــن .

أ ـ I ـ الحياة الاجتماعية والثقافية بالمغرب قبل الموحديـن .

1) تحديـد بلدان المغـرب
2) عناصـر المجتمـع المغربـي
3) أنمـا ط المعيـشـة
4) اللغـات في المغرب الاسلامـي
5) الحيـاة الدينـيـة .

II ـ عوامل انـتـشـار اللغة العربـية ببـلدان المغرب

1) أثر الدول المغربيـة في نشر بواكير الثقافة الاسلامية ـ الرستميون ـ الأدارسـة ـ الأغالبـة ـ الفاطميون ـ الصنهاجيون (الزيريـون والحماديـون) المرابطـون .

2) الهجرات الهلاليـة وأثرها في تعـريب المناطق الداخـليـة .

الحـيـاة الاجـتـمـاعـيـة والـثـقـافـيـة بالمغـرب قـبل الموحديـــن

ــ أ ــ نـظرة عامـة عن تـاريخ وجغرافـية المغـر ب .

1) تـحديـد بلـدان المغـر ب

كان يطلـق اسم المغرب ، قديمـا ، على كلّ الأقاليم الواقعة غرب بلا د مصر ابتـداء ، من برقـة[1] الى المحيط الأطلسي . أي أنه كان يضمّ كلّ دول شمال افريقيا الحالية ، التي تتكوّن من المملكة المغربية ، والجزائر ، وتونـس ، والقسم الغربـي مـن دولـة لـيـبـيـا .

وتربط بين أجـزاء هذه الأقاليم الشاسعـة ، وحدة طبيعية ، وسمـات جغرافية مـشتركة ، حيث نجد جبال الأطلس[2] تخترقهـا من أقصى المغرب الـى غابـة جـبل نـفوسـة ، " بليبيـا " ، وهي تـتـألف من سلسلتـين مـتوازيتـين ، تـضمان بينهمـا ما يسمّـى ، بالهـضاب العلـيـا . وتـفـصل هذه الجـبال بـين سهـول التـلّ ، التي تمـتـدّ بينهـا وبين الـبحر الأبيض المتوسط ، والأقالـيم الصحراويـة ، التي تمـتدّ وراءهـا ، من ناحـيـة الجـنوب .

وعلى حافـة الصحراء الشماليـة ، نجد سلسلة ، أخرى ، من الواحات المتناثرة ، تتخـلل بلدان شمال افريـقيـة ، من الغرب الى الشرق ، وهذا ابتداء من " ترودانت " غربا بجنوب مراكش مرورا " بسجلماســة " نحو الشرق ، وتـشـمل مجموعـة كبــيرة من " بلدان الزاب " التي تبتـدىء من منتـصف المغرب الأوسط وتستمر حتى افريقية ، حيث تضمّ كلّ واحات " بسكرة " وواحات " وادي ريـغ " . ثم واحات بلا د الجريد بافريقـيـة ، وهي ماكان يطلـق عليها بـلا د قسطيلـة ، وتـضم : " نـفـطة " " وطوزر " و " قفـصـة " و " بلاد تـغـزة " ثم مـنها الى " زوارة " فـي القطر الليبي ، " فطرابلـس " وكل ما يليهـا شرقـا " ... " برقـة "[3] .

---

(1) برقة : هو الاسم العربي " سيرانايك "...renaique" " بنغازى " . ومن المعروف أن عمرو بن العاص ... وكان يسكنها من البربر قبيلـة لواتـة .

(2) يسميها ابن خلدون : "جبال درن "ويصفها بأنها ... من ساحل البحر المحيط عند أسفي "وما اليها ، و... أنها تنتهي الى قبـلة برنيق من أرض برقـة " . ــ انظر : العبر : ج . 6 . ص : 461 . انظر كذل...

(3) انظر ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 99

وقد تكونت حول هذه الواحات بعض المراكز التجارية ، تحولت بعد ذلك الى مدن هامة ، نشأت على تخوم الصحراء الكبرى ، لتجهيز القوافل التجارية التي كانت تربط المناطق الشمالية بما كان يطلق عليه بلاد السودان .

ثم يليها جنوبا الحاجز الرملي الكبير ، الذى كان يعرف عند العرب الرحالة " بالعرق " . وهو ، كما يقول ابن خلدون ، : " سياج على المغرب من جهة الجنوب ، مبتدىء من البحر المحيط ، وذاهب في جهة الشرق ، على سمت واحد ، الى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب الى مصر " (1).

ومن وراء هذا " العرق " توجد الصحراء الكبرى بفيافيها الشاسعة ، التي تفصل المغرب عن بقية البلدان الافريقية الأخرى .

ولعلّ هذه السمات المشتركة ، التي تحمل في ثناياها معنى وحدة هذه الأقاليم ، هي التي دعت الجغرافيين العرب الى تسمية هذه المنطقة الشمالية من القارة الافريقية ، " بجزيرة المغرب "(2). حيث يفصلها البحر الأبيض ، من الشمال ، والصحراء الكبرى من الجنوب .

وقد لاحظ " غوتييه " ، الذى يتفق مع القدماء على هذه التسمية ، أن الصحراء الكبرى ، تعزل " جزيرة المغرب " عما وراءها ، أكثر مما يفعل البحر من الشمال (3) . لذلك بقي المغرب دائما ، كجزء من البلدان الأوروبية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط . تجمعه بها سيمات مناخية ، وطبيعية ، وحضارية خاصة .

فشبه الجزيرة الايبيرية ، مثلا ، لا تكاد تفرق كثيرا عن بلدان المغرب في مناخها ، وتضاريسها ، وتكوينها الجغرافي العام ، حتى أن هناك من الأوروبيين من كان يقول : " من تجاوز جبال البرانس (نحو الجنوب) فقد دخل افريقية " (4).

---

(1) ابن خلدون العبر : ج ، 6 ، ص : 197 ـ 198 .
(2) نفس المصدر ، ص : 201 .

(3) Gautie E.F. Le Passé de l'Afrique du Nord. P.9 et 158, Paris 1952.
(4) Augustin B. Le Maroc. P.3. 8° Edition Librerie Felix Alcon. Paris, 1932.

والواقع ،أن دول هذه المنطقة قد عاشت متداخلة فيما بينها ، تداخلا يصعب معه — في بعض الأحيان — ارجاع سكان منطقة ما . الى أصل معين ،أو نسبة حضارة ،الى جنس بذاته . وذلك راجع — ولا شك — الى يسر أسباب الاتصال بين كل من أوروبا ، وجزيرة المغرب لوجود مضيقى : صقلية ، وجبل طارق ، حيث يفصل الأول منهما ايطاليا عن افريقية (تونس الحالية) بنحو مائة وثلاثين كلم . بينما يفصل الثاني اسبانيا عن المغرب بما لا يتجاوز التسعين كلم .

فقد كان المغرب ،على هذا الاعتبار ، ينقسم أفقيا ، الى ثلاثة أقاليم طبيعية : الاقليم الساحلي ، الذى يوالي البحر ، والاقليم الصحراوى ، ثم المناطق الجبلية التي تفصل بينهما .

وعندما جاء العرب ، وضعوا للمغرب تقسيمات أخرى ،أقاموها على أسس ادارية ، واعتبارات سياسية ، سايروا في بعضها من تقدمهم . فبقيت الحدود بين أقاليمها متداخلة بعض الشيء أول الأمر ، ثم استقرت مع بداية القرن الخامس على التقسيم التالي :

1— منطقة افريقية ، وهي كل مايلي بلاد برقة غربا ، مرورا بطرابلس والقيروان وقسنطينة .

2 — منطقة المغرب الأوسط ، وتشمل الجزائر الحالية وما يليها غربا الى وادى ملوية .

3 — ثم منطقة المغرب الأقصى وهي بقية شمال افريقية الى المحيط الأطلسي (1)

(2) عناصر المجتمع المغربي :

أما بالنسبة لسكان هذه المناطق فقد كان يعمرها — الى جانب العرب الذين بدءوا يتوافدون عليه منذ الفجر الاسلامي الأول — قبائل بربرية أطلقت

---

(1) وهذا ما يراه ابن خلدون في تحديد جغرافية المغرب في عهده ، حيث يقول : " وكان المغرب عندهم جزيرة أحاطت بها البحار على ثلاث جهات كما تراه . وأما العرف الجارى لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم ، فلا يدخل فيه اقليم مصر، ولا برقة . وانما يختص بطرابلس وما وراءها الى جهة المغرب . . . " العبر ، ج — 6 — ص : 201 .

على نفسها اسم " إ مازيغن " أي النبلاء الأحرار . وقد أرجع ابن خلدون نسبهم الى أصلين أساسيين ، تفرعت عنهما كل القبائل البربرية الأخرى ، وهما : البتر ، والبرانس .

أما الجذور السحيقة لهؤلاء السكان فيسودها كثير من الغموض ؛ مما أدى ببعض المؤرخين أحيانا لوضع افتراضات ، استنتجوا منها نتائج قد لا تقوم على أسس صحيحة . ولا مجال لذكرها هنا .. اذ ليس المقصود بهذه المقدمة الجغرافية البحث عن أصل سكان شمال افريقية ، بقدر ما هو المراد منها التعريف بهم وبمواطن سكناهم ، وظروف معاشهم لاعطاء صورة تقريبية عن الفيئات التي كان يتركب منها المجتمع المغربي . لهذا رأينا أن نقتصر في دراستنا هذه على ذكر القبائل الرئيسية التي ساهمت في بناء المجتمع المغربي في القرنين الخامس، والسادس الهجريين . ولن نتعرض لها الا بالقدر الذى نستنير به على تفهم الأحداث التي جرت في ذلك العهد .

ـ أ ـ فممن اشتهر من بين " البرانس " مجموعتان من القبائل البربرية، كانت لهما أدوار رئيسية في حياة المغرب السياسي والديني ، المصامدة والصنهاجيون .

(1) ـ أما بالنسبة للمصامدة ، فقد كانت منازلهم التقليدية " بجبال درن " ، حيث " اتخذوا لهم بها المعاقل والحصون ، وشيدوا المباني والقصور ، واستغنوا بقطرهم منها عن أقطار العالم . . . "(1)

وأهم قبائلهم ، حسبما ذكرها ابن خلدون هي : هرغة ، وهنتاتة ، وتنملل ، وكدميوة ، وكنفيسة ، ووريكة ، وركراكة ، وهزميرة ، ودكالة ، وحاحة ، وأصادن، وبنو وازكيت ، وبنو ماكر ، وايلانة ـ او هيلانة (2) .

(1) ابن خلدون : العبر : ج ، 6 ـ ص: 461 .
(2) المصدر السابق .

ولم ينحصر المصامدة " بجبال درن " وحدها ولكنهم انتشروا على طول الساحل الغربي ، من المغرب الأقصى الى حدود طنجة بالشمال .

ويقسم صاحب الموسوعة الإسلامية المناطق التي نزلوا بها الى ثلاثة أقسام :

- القسم الأول يبتدىء من ساحل البحر الأبيض شمالا الى " وادى سبو " وكانت تنزله قبيلة غمارة .
- والقسم الثاني من وسط " سبو " الى " وادى أم ربيع " وكانت تنزله قبيلة برغواطة
- أما القسم الثالث فيمتد من جنوب " أم ربيع " الى ما وراء الأطلس[1] .

وكل هؤلاء المصامدة حضر، يغلب عليهم طابع الاستقرار .

(2) — أما الصنهاجيون ، وهم " ازناجن " كما كانوا يسمون قديما ، فهم من أوفر قبائل البربر ، وأكثرها انتشارا في مناطق المغرب ، اذ لا يكاد يخلو قطر من أقطاره من بطن من بطونهم في جبل أو سهل ، حتى لقد زعم كثير من المؤرخين أنهم يكونون ثلث أمم البربر[2] . وقد قدر ابن أبي زرع القبائل التي تتفرع عن الصنهاجيين بسبعين قبيلة[3] وهم ينقسمون ، باعتبار مواطن سكناهم الى قسمين ، تمتد مواطن القسم الأول منهم على مسافات شاسعة ، مشتركة بين : افريقية ، والمغرب الأوسط . ويتمركزون ، خاصة ، بمنطقة " نوميديا " ، وحول أطلال الحضارة اليونانية . ومن أشهر قبائل هذا القسم قبيلة " كتامة " وقبيلة " تلكاتة " . التي كانت لها الرئاسة والملك في العهود الأولى . وهؤلاء كلهم من أهل الحضر .

أما القسم الثاني من القبائل الصنهاجية ، فهم بدو رحل ، لا يكاد يستقر بهم المقام في مكان معيّن . ومضاربهم التقليدية هي جنوب الصحراء المغربية ، وموريتانيا الحالية . وتقدر المساحات التي كانوا يعمرونها بسبعة أشهر طولا في أربعة عرضا ، على حدّ تعبير ابن أبي زرع[4] . وهي تمتد من نول لمطة في أقصى المغرب ، الى قبلة القيروان بافريقية .

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " المصامدة " .
(2) ابن خلدون : العبر : ج ، 6 — ص : 309 .
(3) ابن أبي زرع : القرطاس : ص : 120 .
(4) المصدر السابق .

" وقد هجروا التلول و جفوها ، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها . انتباذا عن العمران ، واستئناسا بالانفراد ، وتوحشا بالعزّ عن الغلبة والقهر "[1].

وقد كانوا لا يقيمون بمكان أكثر من الوقت الذى ترعى فيه مواشيهم العشب الذى يجدونه بالمنطقة .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يدينون بحكم معيّن ، ولا يخضعون لنظام بذاته ، الا أن لكل من هؤلاء الأقوام أميرا كانوا يؤدون له واجب الطاعة[2]، ومن أشهر هذه القبائل الصحراوية الصنهاجية : لمتونة ، وكدالة ، ومسوفه ، ولمطة . وهؤلاء هم الذين كان يطلق عليهم اسم الملثمين الذين أسسوا الدولة المرابطية في منتصف القرن الخامس الهجرى .

ب — أما القبائل البربرية التي تنتمي الى البتر " مدغيس " فقد اشتهر منهم مجموعة الزناتيين الذين قال عنهم ابن خلدون هم " شعوب أكثر من أن تحصى "[3]. تمتد مواطن سكناهم من"طرابلس " شرقا الى وادى ملوية غربا ، مرورا بجبال الأوراس وبلاد الزاب بالمغرب الأوسط الى قبلة تلمسان[4]. الا أن أغلبهم كانوا يتمركزون بالمغرب الأوسط ، حتى أنه أصبح ينسب اليهم ، ويعرف بهم[5] ، ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى ، حيث كونت لها فيه بعض الدويلات المحلية كإمارة بني يفرن" بسلا " وامارة المغراويين بفاس ، وهذا قبل نشأة دولة بني مرين العظمى ، بالمغرب الأقصى في منتصف القرن السابع الهجرى .

وتنتمي هذه المجموعات الزناتية الى فيئة البداة الرحل ، حيث كانت تسكن الخيام ، وتعتمد في حياتها على تربية الجمال والمواشي ، والخيول .. وكانت كثيرة الشبه بعرب الجزيرة ، في عاداتها ، وتقاليدها ، وطرق معاشها ، وايلافها

---

(1) الأدريسي : وصف افريقية ، ص : 36 — انظر كذلك ماقاله ، ليون الافريقي ، عن نمط معيشة الأفارقة في كتابه : وصف افريقية ، ص : 66— 71 .
(2) الأدريسي : وصف افريقية ، ص : 66 — 68 .
(3) ابن خلدون : العبر : ج ، 7 — ص : 14 .
(4) المصدر السابق ، ص : 15 .
(5) نفس المصدر ، ج ، 7 — ، ص : 4 .

لرحلتي الشتاء والصيف ، وشدة انفتها ، وعدم انصياعها ورضوخها لحكم معين[1]. وقد ازدادت هذه الصفات رسوخا فيهم ، خاصة بعد احتكاكهم بالعرب الهلاليين ومجاورتهم لهم في سكناهم وهذا منذ منتصف القرن الخامس .

ومن أشهر قبائل هذه المجموعة الزناتية : مغراوة ، وبنو يفرن ، وجراوة ، وبنو مرين ، وبنو عبد الواد ، وبنو برزال وغيرهم . وقد كانت الرئاسة فيهم ، قبل الاسلام لجراوة ثم لمغراوة ، وبني يفرن[2].

ورغم أن لكل من الأصلين : البرانس ، والبتر ، مواطن معينة يسكنونها ، ورغم أن الطابع الغالب على البرانس ، هو حياة الاستقرار والتمدن . والمشهور عن البتر ، حياة التنقل والبداوة ، الا أنهما كثيرا ما نجدهما يتداخلان في مواطن سكناهم ، وطرق معاشهم . لذلك نجد كثيرا من القبائل الصنهاجية التي تنتمي الى البرانس ، سكان المرتفعات ، والمدن ينتجعون الصحارى ، فينحدرون معها حتى منعطف النيجر والسنغال ، حيث أسست بعض القبائل منهم ممالك دامت مدة طويلة من الزمن .

كما نجد بعض القبائل الزناتية التي تنتمي الى البتر ، سكان النجود ، وهم رحالة كما نعلم ، يستقرون أحيانا ببعض المدن الشمالية وينشئون بها إمارات ، وممالك .

ويبدو أن القبائل الصنهاجية ، كانت ، في القديم ، منتشرة على كل صفحة المغرب ابتداء من طرابلس حتى المحيط الأطلسي . وعندما كتبت الغلبة لقبائل زناته ، أغارت على مواطنهم فقسمت الكتلة الصنهاجية قسمين : قسم شرقي في افريقية والمغرب الأوسط ، وقسم غربي في جنوب المغرب الأقصى[3]

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج — 7 ، ص : 3 .
(2) نفس المصدر ، ج — 7 ، ص : 15 .
(3) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص : 101 ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة 1957 .

وقد كانت الحروب بين هذه القبائل ، لا تكاد تخبو نارها ، حتى تشتعل من جديد ، لمابينها من عداء تقليدى قديم ، وكراهية موروثة ، زادتها المنافسات على السلطة ، والخلافات المذهبية تعقيدا واضطراما . وهذا حتى بعد أن جاء الاسلام ، وألف بين القلوب وأخضع الكل لشريعة واحدة .

والواقع يمكن أن تعتبر هذه الحروب التي كانت تدور رحاها بين المجموعات الصنهاجية والقبائل الزناتية هي حرب بين الحضارة من جهة والبداوة من جهة أخرى .

الا أنه رغم كل ذلك ، فان طابع الخشونة والتقشف كان بمثابة القاسم المشترك الذى جمع بين كل هؤلاء الأقوام ، لا فرق بين بداتهم ومتحضرهم .

(3) أنماط المعيشة :

أما بالنسبة للطرق المعاشية التي كانت تتبعها هذه القبائل البربرية فان أحسن من صور لنا حياتهم الاجتماعية في القرون الوسطى هم الرحالون والجغرافيون العرب . أما المؤرخون ، فهم على وفرتهم ، وكثرة استطراداتهم فيما كانوا يروونه لنا من أحداث ، لا يكادون يرضون فضولنا في شيء اذا ما تعلق الأمر بالحياة الاجتماعية أو الثقافية لقبيلة ما ، أو طائفة معينة . لأنهم ، في الواقع ، لا يهتمون فيما يسوقونه من أخبار الا بالجوانب السياسية . حتى أنهم كثيرا ماكانوا يوحون الينا ، من خلال تحليلاتهم السياسية ، بأفكار مشوهة عن الجوانب الاجتماعية بالنسبة للمواضيع التي يتناولونها بالدرس والتحليل . وهذا لانحيازهم المفرط للجوانب السياسية ، على حساب الجوانب الأخرى . أما الرحالون فقد كان المحور الرئيسي الذى تدور عليه كل دراساتهم هو حياة الشعوب التي كانوا يؤرخون لها . فمما استخلصناه مما كتبه كل من الجغرافيين : البكرى ثم الادريسي في هذا الموضوع ، أن القبائل البربرية التي كانت تسكن المناطق الصحراوية كانت تحي حياة قاسية في غاية التقشف والشظف . وأغلبها كان يعيش على الرعي ، وتربية المواشي التي كانت عماد ثروتهم . ومصدر قوتهم الذى كان يقتصر على اللحوم وما تدره عليهم انعامهم من ألبان . ولا يكادون يعرفون أكلا غير ما الا نادرا ، حتى أن الحنطة كانت تعد عندهم من الطرق النادرة [1].

وكانت هذه المجموعات البدوية تشكل الأغلبية العظمى لسكان الصحراء .

وهناك نوع ثان من هذه القبائل الصحراوية ، وهم خليط من المصامدة ، والصنهاجيين ، والزناتيين ، كانوا أوفر حظا ، وأرغد عيشا من بني عمومتهم السالفي الذكر . وهؤلاء هم سكان الواحات ، والمدن المتاخمة لشمال الصحراء الكبرى ، التي كانت بمثابة مراكز قديمة أنشئت لتجهيز ، واستقبال القوافل التجارية الآتية من أقصى الجنوب وبلاد السودان . فقد كان هؤلاء الصحراويون — انصاف الرحل — ان صح التعبير — يقومون بتجهيز هذه القوافل ، ويشرفون على ما تستلزمه من اعداد الرواحل وتجنيد الرجال ، وتوفير الأسلحة ، وكل ما يحتاج اليه من مؤن لقطع تلك المسافات الشاسعة . فاستفادوا من كل ذلك فوائدة مادية كبرى . وقد كان بعضهم يتعاطون الى جانب هذه الأعمال التجارية ، بعض الصناعات الخفيفة ، والحرف اليدوية التي اشتهرت بها تلك المدن " كتارودانت " عاصمة المصامدة ، التي كانت تقع على نهر السوس ، شرقي "أكادير " حيث كانت تعدّ من أهمّ المراكز التجارية قبل أن تبنى مدينة " مراكش "، فقد ذكر الأدريسي أنها كانت متخصصة في صناعة السكر الذى " يعم أكثر البلاد " . كما كانت مركزاً لصناعة الأكسية الرقيقة والثياب الرفيعة ، التي لا يقدر أحد على عملها بغيرها من البلاد "(1).

فنحن على هذا الاعتبار أمام صناعة متطورة راقية ، يتجاوز انتاجها حاجيات البلاد . بل هي صناعة قائمة أساسا على التصدير الى كل البلدان ، حتى تلك التي كانت تتمتع بالاكتفاء الذاتي بالنسبة لهذه المواد . ويعنى هذا أن سكر تارودانت كان مطلوبا — ولا شك — لجودة صناعته (2). وهذا يستلزم حتما افتراض تطور كبير في أجهزة الصنع وآلياته ، والمواد الكيمياوية اللازمة لتكريره وما شابه ذلك .

---

(1) الأدريسي : وصف افريقيا الشمالية : ص : 39 .

(2) يقول صاحب الاستبصار عن سكر تارودانت وهو المشهور بالطبرزد المذكور في كتب الطب " ، انظر الاستبصار ص : 212 ت . سعد زغلول ـ الاسكندرية سنة 1958 .

وما يقال عن صناعة السكر يسري أيضا ، على صناعة النسيج ، فلا شك أنها كانت صناعة يدوية ، الا أنها كانت راقية ، ومتخصصة " مما لا يقدر أحد على صنعه بغيرها من البلاد ".

ونحن ، على هذا ، نفترض أن كثيرا من أولائك الذين يسكنون هذه المدينة كانوا يشاركون في أغلب هذه الأعمال الى جانب الزراعة ، وتربية المواشي التي كانت حرفتهم التقليدية ، لأن الاقليم ، كان الى جانب ذلك ، زراعيا خصبا .

وما يقال عن سكان تارودانت ، ينطبق على " نول لمطة " ، التي اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية[1] ، التي كانت تصدر منها كميات هائلة الى كل أنحاء المغرب والأندلس . وقد كانت متخصصة أيضا في صناعة بعض الأسلحة ، الى جانب السروج ، ولجوم الخيل ، كما اشتهرت هي الأخرى في نسج نوع رفيع من الأكسية ، يسمى " السفسارية " وكذلك حياكة " البرانس " التي كانت ، ولا تزال ، تعد اللباس القومي الرفيع بالنسبة لكل أبناء المغرب[2] .

ويستشف من كل ما تقدم أن كثيرا من أفراد القبائل البربرية التي كانت تعمر المناطق الجنوبية كانوا يعيشون على نقل التجارة الى جانب اهتمامهم بالرعي وتربية الماشية . كما كان بعضهم ممن كانوا يقيمون بالمدن ، يقومون بانجاز بعض الصناعات التي أشرنا اليها آنفا ، وقد كانت — بلا شك — كثيرة ومتنوعة ، حسبما يستفاد من بعض النصوص القديمة . فقد ذكر الادريسي ، أن تجار هذه المدن كانوا يدخلون بلاد السودان بمئات القوافل المحملة بأنواع السلع والبضائع المختلفة والأواني المصنوعة من النحاس الأحمر ، وأصناف الزجاج ، والأصداف ، والأحجار الكريمة ، وضروب الأنسجة ، وثياب الصوف ، والأكسية ، والعمائم ، والمآزر ،

---

(1) نسبة الى الحيوان الذى يصنع من جلده هذه الدرق . انظر الاستبصار : ص : 214 .

(2) المرجع السابق ، ص : 37 .

— ويعد صاحب الاستبصار مدينة " ايجلي " من المدن التي كانت بها بعض الصناعات كسبك النحاس الذى يتجهز به الى بلاد السودان ، ومعاصر السكر واستخراج الزيت من " المرجان " نوع من النبات . انظر المرجع المذكور ، ص: 212 .

وأنواع العطور، والتوابل[1] . مما يدل على وفرة الصناعات والمنتوجات التي كانت تزخر بها بلدان المغرب آنذاك .

وكان الصحراويون يهتمون الى جانب ذلك بالفلاحة . وقد تخصصت بعض النواحي في زراعة أنواع من التوابل ،كانت عماد ثروتهم ، الى جانب ما كانوا ينتجونه من الحبوب ، والفواكه والخضر، وأنواع التمور الجيدة[2]، وما ينقله الادريسي عن خصوبة بعض المناطق الصحراوية : كسجلماسة ودرعة ، وأغمات ، ونول لمطة ، وتارودانت وايجلي وتامدلت يجعلنا نقف مندهشين أمام ماكانت تغله هذه المناطق من خيرات ، خاصة ، اذا ما قارناها بالحالة التي أصبحت عليها الآن من الجفاف والقحولة . وهذا يجعلنا نعتقد أن الاعداد البشرية التي كانت تعمر تلك المناطق الصحراوية ، كانت أوفر مما هي عليها اليوم بأضعاف المرات . كما يجعلنا نفترض أن سكان هذه المناطق ، بنوعيها : بداتها ، ومتحضريها ، كانوا على قدر من اليسر لايستهان به . على عكس ما يمكن أن يتصوره البعض منا[3]. وما روى لنا عن تقشفهم وشظف عيشهم لا يتنافى مع احتمال يسرهم وغناهم . لأن قساوة معيشتهم لم تكن ناتجة عن عوز أو خصاصة ، ولكن عن أمور طبيعية ، فرضتها عليهم ظروف الصحراء الجافة التي يجوبونها شرقا وغربا . فهم لايستطيعون أن يعيشوا حياة المقيمين المترفين ، وان توفرت له الاسباب لذلك . فظروف التنقل المستمر تحتم عليهم ألا يحملوا معهم من الاثاث الا ما خفّ وزنه ، ووفى بالغرض المطلوب . لذلك اقتصروا على سكنى الخيام وما يتلاءم معها من الفرش الضرورية . كما فرضت عليهم طبيعة الصحراء الحارة صيفا والقارسة شتاء أن يستغنوا بالاكسية الصوفية الخشنة لباسا عن كل ما سواها ، يأتزرون بها ويعتمون ، رجالا ونساء[4].

---

(1) الادريسي وصف افريقية ، ص : 38 — ياقوت معجم البلدان ، 2—3 ، ص: 45
(2) المرجع السابق ، ص : 38 .
(3) أنظر ما قاله صاحب الاستبصار عن خصوبة هذه الاقاليم وعمارتها ، ص : 211 وما بعدها .
(4) الادريسي : وصف افريقية ، ص : 36 .

ولم يكلفوا أنفسهم مشقة ثقل مؤنتهم معهم ، فهي محمولة في أنعامهم بالطبيعة . فقد اعتاضوا ، عن كل أنواع الأكل ، باللحوم على اختلاف أنواعها : طازجة ، ومملوحة ، ومقدودة ، ومطحونة . كما اكتفوا بالألبان شرابا عن كل ما سواها . وقد أضافوا الى هذين النوعين من الأكل نوعا ثالثا ، يعينهم على تحمل مشقة السفر ، ويدرأ عنهم عضة الجوع أوقاتا طويلة ، وهذا ، دون أن يكلفهم مؤنة الطبخ والأعداد كل يوم ، وذلك ما كانوا يسمونه بلغتهم البربرية " آسلو "(1) . وهو عبارة عن حنطة مقلوة ، تخلط على النار بشيء من السمن وما يوازيه عسل ، ويخزن في المزاود . اذا أخذ الرجل منها ملء الكف وشرب عليه بعض اللبن كفاه ذلك طول يومه (2) .

فالقساوة التي كان يتعرض لها سكان الجنوب ، لم تكن ، في الواقع ، في المأكل أو الملبس ، بقدر ما كانت تكمن في الظروف الطبيعية للصحارى التي كانوا يسكنونها ، وما كانت تفرضه عليهم حياة البداوة من حلّ وترحال وتعرض لمشاق السفر وأخطاره في مواطن غير آمنة ، وما الى ذلك . فان أقصى ما يمكن أن يقال عن حياتهم المعاشية هذه ، هو أنها كانت حياة بسيطة خالية من التنويع والتأنق ، بعيدة عن الزخرفة والأبهة . أما نمط المعيشة في حدّ ذاته ، واستساغة هؤلاء الأقوام له فذلك خاضع للتعود والألفة . وقد تعود هؤلاء الصحراويون على ذلك الأسلوب من الحياة ، وارتضوه لأنفسهم ، ولا نظن أنهم كانوا يبغون عنه بديلا ، حتى ولو توفرت لهم أسباب ذلك . فقد روى عن الأمير يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية ، وهو أحد رجال هؤلاء الصحراويين ، أنه لم يغير من أسلوب معيشته شيئا ، لا أكلا ، ولا لباسا ، وهذا حتى بعد أن استولى على الأندلس ، واختلط بملوكها وأمرائها ، بالرغم مما كانت تزخر به تلك البلدان من وسائل الاغراء ، والترف ، والتحضر .

---

(1) لايزال يوجد هذا النوع من السويق في بعض مناطق الجزائر والمغرب خاصة بنفس الاسم ، مع تحريف بسيط اقتضته صنعة التعريب وهو حذف الـف فهو يسمى الآن "سلو" ويقدم عادة في الأعياد الدينية كالمولد ، كما يقدم للنفساء .

(2) الادريسي : وصف افريقية : ص، 36 .

ونحن لا نشك أن سكان المدن الصحراوية التي ذكرنا بعضها آنفا ، كانوا على شيء من الرفاهية والترف في أسلوب معيشتهم ، سواء ذلك في المأكل أو الملبس ، وهذا بحكم استقرارهم وتمدنهم . الا أنه رغم مخايل التحضر النسبي الذي عرفته هذه القبائل الصحراوية . فان طبائعهم لا تكاد تفرق كثيرا عن طبائع بني عمومتهم في الخشونة ، كما أشرنا الى ذلك من قبل . الا أن الخشونة التي نقصدها هنا ليس معناها الفضاضة والغلظة ، ولكن الرجولة التي لم تفسدها ميوعة الحضارة ، يعني الأنفة والإباء ، والتمسك بالمبادئ والغيرة على الدين ، وقوة العزم وسلامة الطبع مع البساطة في المعيشة . وهذا ما أراده المؤرخون القدماء عندما وصفوا هؤلاء الناس بالخشونة ، لا الوحشية التي فهمها بعض المستشرقين وبنوا عليها نقدهم اللاذع المتحيز ضد هؤلاء الصحراويين عندما كتبت لهم الغلبة ، وأسسوا دولتهم بمراكش ، واستولوا على ما بقي من بلاد الأندلس بعد أن أزالوا عنها أمراءها "[1].

هذا بالنسبة للقبائل التي كانت تسكن المناطق الجنوبية من بلاد المغرب أما أولائك الذين كانوا يقطنون في الشمال فقد كانوا على نوعين :

— نوع يمكن أن يوصف بالرعويين أو شبه الرعويين ، وهؤلاء هم أولائك الزناتيون الذين كانوا يجوبون النجود الممتدة بين السوس الأقصى غربا وغدامس شرقا . وقد لاحظ ابن خلدون وجود طائفة منهم منتشرة بالتلول وجبال طرابلس ، وضواحي افريقية ، وجبال الأوراس حيث يوجد " وادي الزناتي " بشمال قسنطينة كشاهد عليهم حتى الآن . ومنهم قبائل تسرّبت الى المغرب الأقصى من وجدة على ممر تازا وفاس حتى وصلت الى سهول المحيط الأطلسي ، الا أن الأغلبية الساحقة منهم كانت تتمركز بالمغرب الأوسط الذي أصبح ينسب اليهم كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل[2].

---

(1) أنظر ماقاله كل من دوزي في Recherches,T.1. P.278 وغارسيا جوميز في كتابه الشعر الأندلسي ، ص : 57 عن المرابطين .

(2) انظره بالتفصيل عند ابن خلدون : العبر : ج ، 7 ، ص:3 وما بعدها .

وكان هؤلاء الرعويون كثيرا ما يغيرون على أهالي المدن والمداشر المزروعة فيسلبونهم محاصيلهم وحصد خراتهم ، ولا يكادون يرضخون لقانون منصف عادل [1]. وقد أصبحوا مع مرور الزمن من بعد اسلامهم من أكبر العشائر البربرية التي استعربت حساً ومعنى ، خاصة بعد أن عمّ الزحف الهلالي المناطق التي كانوا يسكنونها . وقد تهددن الكثيرون منهم بعد ما هدتهم الحروب القبلية ، والفتن المذهبية ، فلموا شتاتهم واستطاعت بعض القبائل القوية منهم أن تفرض وجودها على بقية القبائل الأخرى ، فأسست لها امارات في بعض المدن الشمالية ، ظلت قائمة الى عهد المرابطين [2].

ولم يكن هؤلاء الرعويون يختلفون كثيرا في طرق معاشهم عن أولائك الصحراويين سكان الجنوب . فقد كانت وجباتهم الرئيسية تعتمد على اللحوم والألبان أساسا ، وبما أضافوا اليها بعض التمر ، نظرا لتوفره بالمناطق التي يجوبونها ، وكذلك بعض الحبوب والبقول . أما الكسوة فقد كانت تقتصر على الكرازى والمآزر الصوفية المألوفة .

— أما النوع الثاني من سكان المناطق الشمالية فهو خليط من القبائل البربرية ، والعرب النازحين من المشرق وافريقية والأندلس ، وأقليات من اليهود جاءوا من هنا وهناك . وهؤلاء هم سكان المدن المتحضرون الذين تعيش عامتهم على التجارة والصناعة ، وتشغل خاصتهم مناصب الادارة والحكم ، كما يقومون على نشر الثقافة والعلوم .

وكان أغلب هذه المدن محصورا ، أول الأمر ، فيما يسمى بالساحل . منها ما أسس قديما في العهد البزنطي أو قبله بقليل ومنها ما أسس في العهود المتأخرة . الا أن المدن القديمة لم تكن حواضر متماسكة ، كالتي عرفها المغرب فيما بعد ، انما كانت عبارة عن مداشر ، وما يسمى بال " قصور " .

---

(1) أنظر ذلك بالتفصيل عند ابن خلدون : العبر : ج . 7 . ص 3 وما بعدها
Bausquet: Les Berberes. P.P. 51-55.

(2) ابن خلدون المصدر السابق . ص: 3 .
— عبدالعزيز بنعبدالله ، مظاهر الحضارة سنة 1958 .

وقد وصلت بعض هذه المدن الى درجة كبيرة من التحضر ، والرفاهية والعمران ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

ويكفي الانسان أن يلقي نظرة عما كتبه المؤرخون والرحالون عنها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ليدرك مدى ماوصلت اليه حياة سكانها من الرقة والرفاهية والبذخ .

(4) اللغات في المغرب الاسلامي :

أما بالنسبة للغات التي سادت بلاد المغرب في القرنين : الخامس والسادس الهجريين ، فقد كانت هناك عدة لهجات بربرية مستعملة ، لا على مستوى الاقطار الشمالية وحدها ، ولكن كانت تعم مساحات شاسعة من البلدان الصحراوية ، ابتداء من السنغال غربا الى واحة سوى بالقطر المصرى . الا أن اللهجات البربرية التي كانت تستعمل في المغرب خاصة ، كانت تنتمي الى مجموعتين رئيسيتين :

1 ـ الزناتية ، وتضم لهجات متعددة مختلفة بعض الشيء ، الا أنها ، على العموم ، متقاربة فيما بينها . وهي التي يتكلمها كل الزناتيون المنتشرون في كل أصقاع المغرب ، ويتميزون بها عن بقية البربر(1). وقد حافظت هذه اللهجات على خصوصياتها الى يومنا هذا ، وهي مستعملة ، حتى الآن ، ببعض الواحات الجزائرية ، وفي رؤوس بعض الجبال المحيطة بالمغرب الاوسط وفي بلاد الريف بالمغرب الاقصى .

2 ـ واللهجات الصنهاجية ، وهي التي تتكلمها بقية قبائل البربر ، وهي المجموعة الحضارية الكبرى التي كانت تقطن خاصة بجبال المغرب الاوسط بالزاوية الغربية لنوميديا الرومانية القديمة حيث تتلاقى أطلال الحضارة اللاتينية . ثم كتلة الصنهاجيين الرحل الذين توجد مضاربهم التقليدية بالصحراء المغربية(2).

---

(1) ابن خلدون : العبر ـ ج . 7 . ص : 3 .

(2) Bousquet. Les Berberes, P.P. 51-55.

فاللهجات التي تستعملها كل من الكتلتين متقاربة جدّا رغم ما يلاحظه الدارس أحيانا من بعض الفروق التي تتجلّى خاصة في طريقة النطق وصياغة بعض التعابير نشأت عن انعزال كل من المجموعتين عن الأخرى . وفيما عدا ذلك ، فان القواعد الأساسية تكاد تكون كلها واحدة .

وهناك من المؤرخين من يقسم سكان المغرب البيض الى خمسة مجموعات كبرى وهي مجموعات : صنهاجة ، ومصمودة ، وزناتة ، وهوارة ، ثم أغمارة . ويجعل لمجموع هذه الكتل لغة واحدة يسميها "أول أمازيغ" أي "اللغة النبيلة "(1).

الا أن أراء الباحثين المحدثين قد تضاربت تضاربا كبيرا حول أصل هذه اللهجات البربرية ، وهل كانت يوما ما لغة كاملة ، تتوفر على كل مميزات اللغات المقننة المكتوبة .

— يرى قوتيي " أن اللغة البربرية هي عبارة عن مجموعة من اللهجات المحلية المتنوعة ، والمتقاربة جدّ فيما بينها ، وهي تنتمي أساسا الى نفس المجموعة الليسانية المصرية القديمة ، يعني " القبطية " الا أنها لم ترق يوما من الأيام لتصحيح لغة كاملة بمعنى الكلمة . وذلك لأن اللغات المقننة — حسب نظره — لايمكن أن تكون الا من وضع اصطناعي ، تقوم به دولة ، أو جهاز اداري . أو نظام مدرسي . "أي أن تقنين اللغة وارساء قواعدها وتحديد معالمها هو عمل أكاديمي ، ان صحّ التعبير ، وذلك ما وقع بالنسبة لكل اللغات المكتوبة .

واللغة البربرية لم ترق لمستوى اللغات المكتوبة لأنها لم تنشأ لها دولة في الماضي تستطيع أن توفر لها الوسائل اللازمة لتقنينها واعطائها الصيغة الرسمية لتصبح لغة مكتوبة "(2).

— أما " بوسكي " فيتساءل عما اذا كانت البربرية هي اللغة الوحيدة التي بقيت حية من مجموعة لغات اندثرت نهائيا . أو عما اذا كانت تحتوي على

---

(1) ليون الافريقي : وصف افريقية ، ص : 47 .

(2) بتصرف . Gautier E.F. L'Afrique Blan . P. 169.

وشائج قربى تصلها ببعض اللغات الميتة أو الحية . فيقول : " لقد افترضت كل النظريات الغير المقبولة في هذا المجال (قرابة هذه اللغة باليونانية ، بالباسكية ، باللغات القوقازية) ، وهذه النظريات كلها ، لا تعبر في واقع أمرها الا على جانب فضولي . لكن النظرية الأكثر جدية ، والتي تعتبر بالنسبة لبعض الباحثين قاعدة صحيحة نظرا لثباتها ازاء كل الفحوص التي مرت بها ، هي تلك التي تقول بأن البربرية تنتمي الى فصيلة اللغات الحامية التي لها اتصال بالسامية (أي اللغات الكوشية Canchitique) لأن هناك وحدة بنيوية عميقة في المجال النحوى وتركيب الجمل ، بربط بين اللغات السامية وشبه السامية .

كما أن هناك مجموعة كبرى من أصول الأفعال نجدها أيضا مشتركة بينها . وتلك هي حالة " التوراقية " التي تعتبر اللغة البربرية المستعملة من طرف الكثيرين .

فالأبجدية البربرية (تفتاغ) التوراقية ، والكتابة الليبية التى تتصل بها) تظهر قرابة أكيدة مع الأبجدية المشابهة لها التي وجدت في تخوم الصحراء العربية .

لذى يرى بوسكي أن البربرية يجب أن تصنف — مع لغات أخرى كالمصرية القديمة التي ظلت تستعمل من طرف المسيحيين القبط في الطقوس الدينية ردحا من الزمن بالقطر المصرى — ضمن مجموعة اللغات التي يطلق عليها " الكوشية " (الموجودة بالقرن الشرقي للقارة الافريقية كالصومال وغيرها) وهذه المجموعة هي التي لها قرابة ما للغات السامية كالعبرية والعربية ولغات أخرى اضمحل أغلبها "(1).

هذا ويرى بوسكي ، هو الآخر ، أن اللغة البربرية لم ترق يوما الى مصاف اللغات الكاملة لتصبح لغة مكتوبة .

---

(1) بتصرف . Bousquet . Les Berberes. PP. 21-22 .

وحسب رأيه ، كان يمكن أن يقع هذا ، لو استطاعت قبيلة من القبائل البربرية القوية أن تفرض نفسها على بقية القبائل الأخرى لتكون معها دولة قومية ، تستطيع بواسطتها ، فرض لهجتها لتصبح اللغة المشتركة لكل قبائل البربر أو لمجموعة كبيرة منهم . أو أنه لوجاء بها كتاب سماوي ، كالقرآن أو الأنجيل مثلا . الا أن شيئا من هذا لم يقع ، لذلك لم يقدر لهذه اللغة أن تكون من بين اللغات المكتوبة[1].

أما فيما يتعلق بثقافة هؤلاء الأقوام ، فان أغلب الآراء متفقة على أنه كان هنالك ، الى جانب هذه اللهجات المحلية لغة أجنبية مكتوبة تستعمل في الشؤون الرسمية ، وهذا منذ فجر التاريخ . الا أن هذه اللغة المكتوبة ، كانت تستبدل كلما تغير المحتل أو تحولت تبعية هذه البلدان الى دولة جديدة .

فبواسطة هذه اللغات الأجنبية المكتوبة تثقفت الجماعات البربرية وسجلت أفكارها عبر العصور . بالبونيقية أول الأمر ، ثم باللاتينية التي دامت طوال فترة الامبراطورية الرومانية ، ثم بالعربية مع بداية القرن الثامن الهجري ، وأخيرا بالفرنسية في العصور الحديثة [2].

فان اللغة التي كانت مستعملة في بلاط مصينيسا ، مثلا ، حسب " استيفان اجزال " هي البونيقية ، وبها كان يكتب حنا بعل ويقول بوسكي : ان سادة البربر لم يجدوا أية غضاضة في تبني لغة أعلى من لغتهم .

ورغم نفي بوسكي القاطع لوجود أية لغة بربرية مكتوبة ، نراه يتكلم في موضوع آخر بنفس الكتاب عن أبجدية قديمة تركها لنا " الطوارق (الصنهاجيون) وهي عبارة عن رموز مكونة من نقط وجرات قصيرة ، ودوائر ، يقول عنها أنها تفرعت ، دون شك ، عن الأبجدية الليبية القديمة التي يعسر فهمها .

---

(1) بتصرف . Bousquet.Les Berberes.PP.83-84

(2) نفس المرجع ، ص : 83 .

والطوارقية هذه تكتب ـ أفقيا أو عمو ديا ـ في اتجاه أو في آخر، من اليمين الى الشمال، وبالعكس أو سطراً بسطر. وتسمى هذه الحروف تفناغ وهي غير عملية اطلاقا، حتى بالنسبة لأهلها، ولا تفك رموزها الا بصعوبة ولم تحقق أيّ تقدّم، ولم يصلنا بها أيّ نصّ متتابع متصل، اللهم الا بعض النتف القصيرة وبعض العبارات المنقوشة. وأغلب من كان يستعمل هذه الكتابة هم النساء[1].

الا أن ليون الافريقي، يرى، على العكس من ذلك، أن الافارقة كانت لهم لغة مكتوبة، خاصة بهم، وهي اللغة التي كانت تسمى " أول أماز يغ ". ويسميها العرب اللغة البربرية. وهي، في نظره، اللغة الوطنية الافريقية[2]. وقد ضاعت هذه اللغة المكتوبة، حسب رأيه، في أعقاب الحكم الروماني لبلاد البربر، وهذا لطول مدة الاستعمار الذى تعرضت له البلاد من العهد الروماني الى نهاية القوط. وما تعرضت له هذه اللغة من سياسة المحق وطمس الآثار على يد الشعوب المستعمرة، فاضطر السكان الاصليون الى تبني لغة المحتل باعتبارها لغة السادة، والناس كما يقولون، على دين ملوكهم. فمحى كل ذلك على أيّ أثر لهذه اللغة[3].

ونحن لا نستطيع، أمام هذه الآراء المتشعبة، والتكهنات المتضاربة أن نستخلص حكما مقنعا، فيما يتعلق بهذه النقطة، الا أننا نميل الى القول بوجود أصول قديمة للغة البربرية المكتوبة، الا انها كانت بدائية جدا، حيث بقيت مستكمشة لم يدركها أيّ تطور، لأنها لم تكن تستعمل من طرف أهلها، وهذا لمنافسة اللغات المتطورة لها، التي كانت تغزوها كلّ مرة في عقر دارها من المحتلين. وكان السكان الاصليون يجنحون دائما لاستعمال هذه اللغات الجاهزة للتعبير عن آرائهم. فلم يكلفوا أنفسهم عناء تطوير لغتهم الاصلية، فبقيت على بدائيتها الى أن اضمحلت.

---

(1) Bousquet . Les Berberes. P. 85.

(2) ليون الافريقي : وصف افريقية، ص: 47 ـ 48.

(3) المرجع السابق، ص: 81.

فقد وصلتنا بعض التسجيلات البربرية بالحروف اللاتينية ، كما وصلتنا وثائق بهذه اللغة ، كتبت بالحروف العربية ، أغلبها في الفقه التشريعي منها مدونة ابن غانم التي اكتشفها مونيلانسكي ، وقد كتبت في القرن السادس الهجرى ، وكتاب في التراجم لمؤلف مجهول يرجع لنفس الفترة تقريبا ، وبعض النصوص التي وردت ضمن كتاب الأنساب الذى نشره ليفي بروفنسال[1] . اضافة الى ما خلفه كل من المتنبئين : صالح بن طريف البرغواطي ، وحاميم المتنبي من سور قصيرة كتبت بالبربرية . وان لم يبق منها الا بعض النتف المفككة العديمة المعنى[2].

وقد كتب " أندرى باسي " مقالا ضافيا في المجلة الاسلامية عن هذا الموضوع تناول فيه بعض النصوص البربرية التي كتبت بالحروف العربية، استخرجها من بعض المؤلفات القديمة منها كتاب لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام اليزجني وهو كاتب مغربي من القرن السادس الهجرى ، كما استقى بعض النصوص من كتاب الطبقات للدرجيني وهو من كتّاب القرن السابع . وأخذ نصوصا أخرى من كتاب السير للشماخي من القرن العاشر . وهذا وان كان متأخراً بعض الشيء الا أن أغلب معلوماته مأخوذة من كتب بربرية قديمة تعتبر في حكم المفقودة[3].

وهناك مقال آخر كتب في نفس الموضوع من طرف كاتب بولوني تناول فيه كتاب " السير للوسياني " المخطوط[4].

أما فيما يتعلق بالمؤلفات البربرية الدينية التي صنفها المهدى بن تومرت الموحدى فانه لم يصلنا منها أى شيء حتى الآن .

ولعلّ في هذه الأمثلة التي سقناها آنفا ما يؤيد الفكرة التي تقول بميل سكان المغرب لاستعمال اللغات الجاهزة لتسجيل أفكارهم .

---

(1) A. Basset. Melanges Berberes. Revue Etudes Islamiques.1936.

(2) Bousquet. Les Berberes. P.P. 85-90.

(3) André Basset. Melanges Berberes—Ibadites- Revue des Etudes Islamiques Année 1936.

(4) انظر نفس المجلة سنة 1934 مقالا تحت عنوان: Les quelques Textes Inédits en vieux berbere

وهكـذا تكون اللغـة البربريـة اذن لغـة شـفويـة فقـط ، وليس لها إلاّ أدباً شفويـا ، وهـو محـلـي بطبيعة الحال .

وكانت توجـد الى جانب هذه اللهجات البربريـة لهجات عربية دارجـة انتـشرت في بعـض أصـقاع المغرب بالأماكن التي سكنتها القـبائل العربية الأولى التي نزحـت الى افريقيـا في الفجـر الاسلامـي الأول . وقد تـأثـر بها كثـير من القـبائل البربريـة ، خاصة تـلك التي كان لها احتـكاك مباشـر بهـا .

فـقد ذكـر ليون الأفريقـي ، أن كل أفـراد قبيلـة اغمـارة ، تقـريبا ، كانوا يتـكلمون العربيـة ، كما كان يتكلمهـا كثـير من عشائـر هوارة أيـضـا . الا أنّ عربيتهـم هذه محـرفـة وغـير سليمـة[1] أى أنهـا كانـت " دارجـة ".

والى جانـب هذه القبائـل ، نجد كل سكان المدن الساحليـة بالمغـرب يـتكلمون هذه اللغة ، هم الآخـرون[2] ، بالاضافـة الى العربيـة الفصحى الـتي يتـقـنها كل الخاصـة من الفـقهاء ، والكتّاب ، والعلمـاء ، والقضـاة ، لأنّ هـذه المدن هي التي كانـت تستـقطب كل الطبقـات المـثـقـفـة التي كانت تأتي مـن المشـرق أو الأنـدلـس .

وانـتـشـار هذه اللهجـات العربيـة بين بعـض القبائـل ، وفي المـدن الداخليـة ، هو الذى مهـد لتعريـب المغرب ، الذى سنتحـدث عنه بالتفصـيل ، في الصفحـات المـقبلـة ، عنـد كلامنـا عن الأوضاع الثـقافيـة ببلدان المغـرب في الـقـرون الوسـطـى .

5 — الحـيـاة الدينـيـة :

أما بالنسبـة للأديان التي كانت تسـود بلدان المغرب قبيل هذه الآونة ، فمن المعلـوم أن الاسلام قد عمّ كـلّ بلدان شمال افريقيـة منذ القرن الأول الهجرى . وقد كانت الحواضر الساحليـة وما اتـصل بها من مدن الداخل ، أكثـر المناطق تعمـقا في الايمـان ، ورسوخـا في الدين . أما الأقاليم الصحراويـة الضاربـة فـهـي

---

(1) ليون الافريقـي : وصف افريقيـة ، ص : 81 .
(2) المرجـع السابـق .

الجنوب ، التي لم تبلغها الجيوش الاسلامية الأولى ، فقد بقيت بعض المناطق بها على دياناتها القديمة من مجوسية ووثنية ، الى أن جاء المرابطون في منتصف القرن الخامس الهجرى ، فأخذوا على عاتقهم نشر الاسلام بها ، وتعميقه في كل مناطق الجنوب ، وما اتصل بها مما كان يسمى قديما ببلاد السودان كما اعتنوا خاصة بترسيخ الدين في القبائل الصنهاجية من لمتونة وجزولة ومسوفة وغيرها . حيث أن أغلبيتها كانت لا تعرف من الاسلام غير الشهادتين(1).

هذا وقد ظهرت بالمغرب الأقصى ، في العهود الأولى من اسلامه ، بعض الديانات المتحرفة روج لها زعماء روحيون تنبؤا في قومهم . منهم حاميم بن منّ الله الذى تنبأ في قبائل غمارة ، ووضع لأتباعه قرآنا بالبربرية ، وأنشأ لهم شريعة خاصة . فتبعه خلق كثير . وقد حاربه عبدالرحمن الناصر الأموى الى أن قضى عليه سنة 315 (2).

الا أن أخطر هذه الديانات ، وأكثرها انتشارا ، هي الديانة البرغواطية التي أنشأها صالح بن طريف(3) في مستهل القرن الثاني للهجرة . حيث وضع لقومه قرآنا بالبربرية هو الآخر وشرع لهم الشرائع . وقد ظهر أول ما ظهر في " تمسنا " ثم أخذ في بثّ دعوته بين القبائل المجاورة التي كانت تنزل بين " وادى سبو " و " وادى أم ربيع " على المحيط الأطلسي حتى استجاب له أتباع كثيرون . فتقوت هذه الحركة مع مرّ السنين حتى اتخذت

---

(1) ابن أبي زرع القرطاس ، ص : 124 .

(2) ذكر ابن أبي زرع في القرطاس ، ص : 98 ـ 99 . كما ذكره صاحب الاستبصار وأورد نتفا من قرآنه .

(3) قال عنه ابن أبي زرع : أصله من برباط ، حصن من عمل شذونة بالأندلس وتحرفت نسبته الى أن أصبحت " برغواطي " وهو يرى أن أصله يهودى رحل الى المشرق ، وقرأ على عبيدالله المعتزلي القدرى ، واشتغل بالسحر ، وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر جهالا ، فأظهر لهم الاسلام والزهد ، واستمالهم بسحره حتى قدموه على أنفسهم ، فادعى النبوءة فيهم ، ووضع لهم قرآنا في ثمانين سورة بالبربرية .
انظر القرطاس : ص : 130 وما بعدها .
ويرى ابن خلدون أن أصله بربرى من المغرب ، انظر العبر : ج . 6 . ص : 434 ـ 435 .

لهـا شكـل دولـة موهـبة الجانـب بما كونـتـه من جـيوش منـظمـة . وما جمعتـه من أموال وأ تـباع ، فاستـشـرى دينهـا ، وأخـذ يمـتد الـى بـقـيـة بـلدان المغـرب الأقصى . وقد حاربتـه كلّ الحكومـات الـتي تعـاقبت على هـذه المنـطـقـة أزيـد من ثلاثة قـرون ، دون أن تـستـطـيع القـضاء عليهـا الى أن جاء المرابـطون فـي مـنتـصف القرن الخامـس الـهجـري فـقـضوا عليهم نهائـيـا بعـد حـروب طاحنـة ، دامت مـدّة من الزمـن راح ضـحيتها خلـق كثـير ، منهم الزعـيم الروحي لدولـة المرابطـين عبداللّـه بن ياسـين . ولعلّ في هذا ما يعطيـنا صورة تـقريبية عن مستوى الوعـي الديني والـثـقافي اللذيـن كانا يسودان أغلب المناطـق المغربيـة قـبل مجـيء المرابطـين والموحـدين . اذ لولا الجهـل المطبق الذي كان يسـود الأمـة آنـذاك ما لقيـت هذه النزعـات البدائية الضـالة ذلك التجـاوب . ولا استـطاعـت أن تثـبـت ذلك الثـبـات .

ونستـطـيـع أن يستـدلّ من اعـتماد هذه الديانات على اللغة البربرية لنشـر تعاليمهـا على مدى جهـل الناس للغـة العربيـة التي كانت تعتـبر الأداة الضـرورية لنشـر المعرفـة وتعمـيم الثـقافة باعتـبارها اللغـة المكتوبـة الوحـيـدة التي كان المـفروض أن يعرفهـا السكان . وهذا يعني أن المعرفـة كانت ، حتى الـقرن الخامس الهجـري ، حكـرا على تلك المدن الساحليـة القليلـة التي شاء لها الحظ أن تـكون معبرا للعـرب نحو الأندلس ، ومـقـرا لبعـض العلمـاء منهـم ، وبعـض المهاجريـن من افريـقـيـة والأندلـس . كمـا سـنرى ذلك بعـد حـين .

II - عوامل انتشار اللغة العربية ببلدان المغرب.

تعاقبت على شعوب بلدان المغرب حضارات متعددة منذ الفينيقيين . غير أنها لم تترك آثارا ثقافية تذكر ، اذا ما قيست بأعمارها الطويلة التي قضتها في هذه المناطق . وذلك راجع لعدة أسباب ، أهمها ، أن العلاقات التي كانت تربط هؤلاء الناز حين بالأهالي ، كان ينقصها عنصر الالتحام الذى يذيب الكلّ في بوتقة واحدة ، ونعني بهذا العنصر : اللغة ، التي بفضلها استطاع العرب أن ينتصروا حيث أخفقت الأمم الأخرى التي سبقتهم .

فلا شك أن السهولة النسبية التي لاقاها الفينيقيون في توطيد علاقاتهم بالأهالي ، راجعة أولا وبالذات ، الى قرابة النسب التي توجد بين اللغتين : البربرية والفينيقية . اذن كلتاهما تنتميان الى أصل واحد وهو السامية . وقد أرجع استيفان جزال سبب اقبال البربر على اللغة العربية الى السهولة التي كانوا يلاقونها في تعلمهم لها . وذلك لسابق معرفتهم للغة الفينيقية[1].

ويتضح لنا ذلك جليا اذا ما قارنا الآثار الثقافية التي تركها الفينيقيون في البلاد ، بالتي تخلفت عن الاحتلال الروماني من بعدهم .

فالفينيقيون ، رغم ما قاسوه من محق واحراق ، وسياسة طمس الآثار ومحو الشخصية التي تعرضوا لها على يد أعدائهم الرومان . بقيت لغتهم سائدة بالمنطقة عهودا طويلة ، وهذا رغم انتشار المدارس الرومانية بكل أنحاء القطر[2]. حتى أن الكنائس الرومانية كانت

---

(1) أنظر Stephane Gsell.Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord. T. IV. P.498.

(2) علي عبد الوافي : فقه اللغة : ص : 40 ، القاهرة 1968.

تضطر ، أحيانا ، الى اقامة طقوسها الدينية باللغة الفينيقية التي يفهمها عامة المواطنين . وهذا معناه أن اللغة الرومانية ، لم تستطع أن تفرض وجودها بين سكان شمال افريقية لغرابتها ، بينما استطاعت أن تجد تجاوبا في البلدان التي احتلتها في أوروبا . وتفسير ذلك ، لاشك ، هو الأرومة الواحدة[1]. وعندما دخل العرب شمال افريقية جاءوا معززين بقوتين :

— الأولى تتمثل في الدين الاسلامي الذى رأى فيه الأفارقة خلاصهم من العبودية والاستغلال .

— والثانية كانت تكمن في لغة هذا الدين نفسه .

فلا تعجب ، اذا ، لمسارعة أفواج البربر الى اعتناق هذا الدين ، لمجرد أن وطئت أقدام العرب أرضهم . فقد جذبهم اليه ما توسموه فيه من عدل ومساواة ، من جهة ، كما تشدهم الى أصحابه وشائج القربى التي توجد بين لغتهم ، وطرق معاشهم ، من جهة أخرى .

فلا شك ، أن هناك من لم يسلم أول الأمر عن عقيدة ، وايمان ، ولكن هروبا من الرق ، أو خوفا من الحرب ، أو طمعا في الغنيمة . غير أنه ماكادت تمرّ بهم فترة حتى تمكن الايمان من قلوبهم بفضل انتشار اللغة بينهم نتيجة احتكاكهم بالعرب الفاتحين ومن جاءوا بعدهم .

وليس معنى هذا أن بربر شمال افريقية قد تعربوا بمجرد أن فتحت بلادهم منذ اليوم الأول . فقد ثبت أن الحملات العربية الأولى التي توالت على الأقطار المغربية ، قبل بناء عقبة بن نافع مدينة القيروان ، لم تترك أىّ أثر يذكر في تعريب أبناء هذه المناطق .

---

(1) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة . ص : 212 ، القاهرة 1968 .

ويعزوا أغلب الباحثين سبب ذلك لعدم استقرار هذه الجيوش في البلدان التي كانوا يفتحونها . فقد كانوا يأتون "غزاة مجاهدين، على ظهور خيولهم ، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار ، ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب"[1] دون أن يتركوا أية حامية أو يتخذوا لهم قاعدة أو مقرّاً في البلاد .

فقد ثبت أن أولى حملات الفتح التي قادها عبدالله بن سعد بن أبي السرح سنة 27 هـ . لم تزد اقامتها في افريقية على خمسة عشر شهراً[2] . كما لم تستقر حملة معاوية بن حديج التي تلتها سنة 45 هـ . أكثر من الوقت الذي تطلبته المعارك التي شنتها ضد البزنطيين واستلزمه جمع ما درّته تلك العمليات الحربية من الغنائم[3] والأسلاب . فهؤلاء الفاتحون الأوائل الذين اتسمت حياتهم بطابع التنقل الدائم وعدم الاستقرار، لم يتمكنوا من الاقامة اللازمة لتعليم السكان مبادئ اللغة العربية حتى يستطيعوا تفهّم المبادئ السامية التي جاء بها هذا الدين الجديد . ولعلّ ما يفسّر ارتداد سكان شمال افريقية عدّة مرات قبل أن يحسن اسلامهم[4] . فهذا يعني بعبارة أوضح ، أن التعريب لم يتماشى مع انتشار الاسلام جنباً الى جنب ، كما ألفنا أن نسمع من بعض المتحمسين .

بل لا نعدّ مبالغين ، اذا نحن قررنا أن التعريب ، بمعنى الكلمة، تخلف عن انتشار الاسلام ، في شمال كلّ من المغرب بين الأوسط والأقصى ، خاصة ، بعشرات السنين . أما في الجنوب ، والمناطق النائية الأخرى، فقد تخلف عنه بقرون .

---

(1) السلاوي : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى : ج . 1 . ص : 165، طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء 1954 .

(2) المرجع السابق ، ج . 1 . ص: 68 .

(3) نفس المرجع .

(4) راجع فتح المغرب الأقصى عند ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . ج . 1 . من ص : 23 الى 49 . تحقيق كلان وليفي بروفنسال .
— ذكر ابن خلدون في العبر : ج 6 . ص: 220 . ان البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة . . .

وليس أدل على ذلك مما يلاحظه الدارس للفترة التي سبقت عهد المرابطين من جهل سكّان هذه المناطق جهلا يكاد عاما. بل ان ابن تمرت نفسه ، وهو أحد رجال القرن السادس الهجري، كما نعلم، عندما أراد أن ينفذ الى أعماق سكان جبال درن ، لبثّ دعوته ، اتخذ البربرية وسيلة للاقناع[1]. لأنّ العربية ، كانت حتى ذلك الحين ، لغته الخاصة في تلك المناطق ، وهي تكاد تكون مجهولة تماما لدى الطبقات الشعبية.

وليس بدعا أن يتخلف ركب التعريب ، بعض الشيء ، عن انتشار الاسلام. فتلقين اللغة ليس كتلقين الشهادتين. فذلك يحتاج الى وقت طويل يتمّ فيه التفاعل والاحتكاك بالمجاورة ، والتعامل ، والمصاهرة ، وما الى ذلك. ولا يمكن لشعب ما أن يستوعب لغة غريبة عنه ، مهما وجدت بينهما من وشائج القربى والتجانس ، في ظرف أشهر ، أو بضعة سنوات ، حتى ولو بذلت كل الجهود لتسهيلها ، فما بالك ، وقد وقع العكس.

فالروايات التي كانت تساق عادة ، كدليل على سرعة تعريب المغرب في الفجر الاسلامي الاوّل ، على هذا النحو ، فيها كثيرة من المبالغة[2]. من ذلك مثلا مالاستشهاد بخطبة طارق بن زياد المشهورة ، التي ألقاها لتحميس جيشه البربري الذي كان يستعد لغزو شبه جزيرة الأندلس.

وكذلك ما يروى عن أمر تدوين موسى بن نصير للدواوين على نحو

---

(1) ذكر ابن أبي زرع في القرطاس. ص: 183 أن ابن تمرت لما " لم يقدر على طائفة المصامدة أن يتعلموا أم القرآن لشد عجمهم، عدد كلمات أم القرآن وسمى بكل كلمة منها رجلا ، ثم أقعدهم صفا واحدا، وقال للأوّل منهم: اسمك الحمد لله ، والثاني ، رب ، والثالث العالمين هكذا حتى تمت كلمات السورة فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن . . . "
— وهذا الذي دعاه لتأليف كتابه " التوحيد " بالبربرية أيضا. انظر ماقاله صاحب الحلل الموشية عن هذا الموضوع، ص: 109— 110.

(2) **انظر ماقاله كنون من سير عملية التعريب في الفجر الاسلامي الأوّل : الموضوع : ص. 42.**

ما فعل العرب في مصر والشام[1] وفرض العربية كلغة رسمية في البلاد . نحن لا نريد، بهذا، أن ننفي كل وجود لتعريب وقع في هذه المناطق أيام الفتح الأولى . فان العربية زيادة على كونها لغة الفاتح، فهي لغة الدين الذى اعتنقه سكّان شمال افريقية، وخاصة، لغة القرآن الذى كانوا يجلونه كل الاجلال . لذلك لا نشك أبدا في وقوع محاولات كبيرة لتعلمها من طرف المواطنين، كما وقعت محاولات مماثلة لبثها من طرف الفاتحين، لكنها كانت محاولات محدودة النتائج، زيادة على كونها، لم تقع الا في حدود محصورة .

فالتعريب الحقيقي لهذه المناطق، في نظرنا، انما وقع بالفعل، عندما توفرت له أسبابه اللازمة، ونعني بذلك : استقرار العرب في بلدان المغرب، واستتباب الأمن فيها . وهذا لم يبدأ يتحقق بالفعل الا مع بداية منتصف القرن الثاني للهجرة، عندما هدأت الثورات، وبدأت تتأسس فيه بعض الدول المحلية .

لاشك أن الفضل الأكبر في المحاولات الأولى لنشر اللغة العربية في هذه الأوساط يرجع، خاصة، الى أولائك الولاة، وبعض خلفاء بني أمية الذين اهتموا بتعميم الدعوة بواسطة توطيد اللغة . نذكر من بينهم عقبة ابن نافع الذى يعدّ أول من سلك هذا الاتجاه، حيث فكّر في اقامة مقرّ للعرب في افريقية يكون لهم بمثابة رباط، أو قاعدة أمامية، ينطلقون منها لفتح بقية بلدان المغرب، من جهة، ويمكّن العرب، خاصة من ترسيخ أقدامهم في هذه المناطق التي فتحوها، من جهة أخرى، لتتاح لهم فرصة الاتصال المباشر بالأهالي حتى يتمكنوا من توعيتهم وتعليمهم المبادئ السامية التي جاء بها هذا الدين الجديد[2].

---

(1) — نسب كل من مختار العبادى هذا العمل لحسان .
— انظر : اعمال الاعلام لابن الخطيب، ص: 4 . الهامش
وكذلك فنون في التسوغ، ص: 42.

(2) الاستبصار في عجائب الامصار، لمؤلف مجهول . ص: 113، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية 1958.

فقد ثبت عنه ، أنه عندما فتح بلاد المغرب ترك فيه بعض أصحابه يعلمون البربر القرآن وشرائع الاسلام ، منهم شاكر صاحب الرباط المشهور[1]. وجاء في البيان أيضا ، أن موسى بن نصير عندما فتح بقية بلاد المغرب ترك فيه سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن ، ويفقهونهم في الدين[2]، ونقل غيره أن موسى بن نصير ترك سبعين رجلا لا سبعة عشر فقط[3].

وعندما تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز ، أرسل بعثة دينية الى المغرب مؤلفة من عشرة رجال من التابعين مع اسماعيل بن أبي المهاجر ، منهم : عبدالرحمن ابن نافع ، وسعيد بن مسعود التجيبي ، بقصد تفقيه البربر[4]. وقد استقر كل منهم في ناحية ، بنى بها دارا لسكناه ، ومسجدا لأداء رسالته التعليمية[5].

غير أنه ، على صحة هذه الروايات ، فماذا عساها تفعل هذه العشرات من الفقهاء والمعلمين ، بالنسبة لمئات الآلاف من البربر التي كانت تسكن السواحل ، والمناطق الشمالية ؟ هذا بغض النظر عن سكان الجنوب والمناطق الداخلية الأخرى ، خاصة اذا صدقنا المؤرخ " جوتي " الذى يقول : ان سكان مغرب القرن الخامس كانوا أوفر منهم اليوم بكثير[6]. فتعريب بلدان المغرب الاسلامي ، في نظرنا ، مرّ أول الأمر بمرحلتين أساسيتين : مرحلة انتشار العرب واستقرارهم بها ، ثم مرحلة استتباب الأمن .

---

(1) ابن عذارى : البيان : ج . 1 . ص : 42 . انظر كذلك : حسن حسين عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، ج . 1 . ص : 78 ، مطبعة المنار تونس 1965 .
(2) ابن عذارى : البيان : ج . 1 . ص : 42 .
(3) حسن حسين عبدالوهاب : ورقات : ج . 1 . ص : 78 .
(4) ابن عذارى : البيان : ج 1 ، ص : 48 السلاوى : الاستقصاء . ج . 1 . ص : 90 .
(5) حسن حسين عبدالوهاب : ورقات : ج . 1 . ص : 78 .
(6) انظر : Gautier.E.F. Les Siecles Obscures du Maghreb.P.405.

وتبدأ المرحلة الأولى ، من منتصف القرن الأول ، أي منذ أن اختط عقبة ابن نافع مدينة القيروان قصد الاقامة بها مع من معه من العرب . وقد كانت الحملة التي يقودها آنذاك تضم ، وحدها ، عشرة آلاف عربي [1].

وعندما تولى أبو المهاجر دينار أمور افريقية بدلا من عقبة سنة 55 هـ . دخل المغرب على رأس جيش كثيف استولى به على المغرب الأوسط . وعاد عقبة للمرة الثانية سنة 61 هـ . صحبة عشرة آلاف عربي آخر ، استقر أكثر من نصفهم في القيروان ، وتوغل الباقي معه داخل المغرب الأقصى [2].

وفي هذه الأثناء ، تردت الأوضاع السياسية بالمشرق نتيجة الأحداث والفتن التي عاشها ، وانتهت بمقتل الحسين بن علي سنة 61هـ . فثار أهل المدينة لذلك ثورة عارمة سنة 63 هـ . فكان ردّ الفعل الأموى أن قمعوا ثورتهم بكلّ شدّة حتى اضطروهم لمغادرة المدينة فهاجر كثير منهم الى بلدان المغرب حيث انتظموا في الجيوش العربية المرابطة هناك .

وفي سنة 69 جاءت حملة عربية أخرى بقيادة زهير بن قيس البلوى تتكون من أربعة آلاف شامي منهم بعض زعماء العرب . وبعد أربع سنوات أو خمس سنوات في سنة 74 تلتها حملة أخرى ضمت أربعين ألف رجل [3]، جلهم من اليمنيين ، بقيادة حسان بن النعمان ، استقر بهم في المغرب . وهو الذي ابتنى مدينة تونس ، وجلب اليها ألف أسرة قبطية من مصر كفنيين لدار السفن التي أنشأها بها . والتحق بهم كثير من التجار ومن انضم اليهم من جند العرب مثل بني تميم وغيرهم .

---

(1) السلاوي : الاستقصاء : ج . 1 . ص : 69 — 70 .

(2) مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص : 85 — 86 . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

(3) الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية بالمغرب العربي . ص : 41 ، الدار التونسية للنشر 1968 .

ويعتبر حسان أول من أعطى افريقية طابعا عربيا اسلاميا .
وعندما جاء موسى بن نصير سنة 86 هـ . كان جيشه يتكون من سبعة عشر ألف عربي ، بالاضافة الى اثني عشر ألف من البربر الذين أسلموا وانضموا الى جيوش الفتح .

وقد انضافت الى هذه المجموعات الآنفة الذكر قبائل عربية أخرى توالى تدفقها على بلدان المغرب الى منتصف القرن الثاني الهجرى، خاصة عندما استفحلت العصبيات القبلية في المشرق ، وكان الخلفاء الأمويون ، الذين أضرموا نار هذه الفتنة ، يتأرجحون بين المضرية القيسية من جهة ، واليمنية الكلبية من جهة أخرى حفظا للتوازن . وكان لهذا التذبذب السياسي الذى سار عليه الحكم الأموى آنذاك أثره السيء على استقرار الوضع ، واستتباب الأمن في هذه المناطق الحديثة عهد بالاسلام .

فتغليب احدى الطائفتين على الأخرى كان معناه انتقال كل المناصب العليا في الادارة والجيش الى أبناء العصبية الجديدة ، وهذا يعني ملاحقة هؤلاء المنتصرين لأولائك الذين سبقوهم في الحكم ، وتسليط كل أنواع الاضطهاد عليهم ، من حبس ، وتغريب ، ومصادرة أملاك ، وما الى ذلك .

ويعدّ يزيد بن عبدالملك وأخوه هشام من أشهر الخلفاء الذين استغلوا هذه العصبيات .

والذى يهمنا من كل هذا هو ما سببته هذه الأوضاع من مضاعفة الامدادات العربية التي اضطر الخلفاء الأمويون الى ارسالها الى بلدان المغرب لتهدئة الاضطرابات أو لنصرة فريق عربي دون آخر .

فقد ثبت أن هشام ابن عبدالملك بن مروان آل على نفسه ، عندما بلغته ثورة البربر التي عمّت بلدان المغرب ضدّ الحكم الأموى ، قائلا : " والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى " . وقد برّ بقسمه ، فأرسل لهم جيشا من

سبعين ألف رجل من عرب الشام، بقيادة كلثوم بن عياض بهدف الاستقرار في بلاد المغرب. لأنه أقسم ألا يترك حصنا بربريا الا ويجعل الى جانبه خيمة قيسي أو تميمي (1).

وعندما آذنت الدولة الأموية بالسقوط سنة 132 هـ. وولى زمن سيادة العنصر العربي في الامبراطورية الاسلامية. كان المغرب، أيضا، ملاذا للأمويين. خاصة، عندما بدأ العباسيون يقتفون آثارهم تماما. كما كان ملاذا للعلويين والخوارج من قبل. ويبدو، حسب بعض المؤرخين العرب أنهم "كانوا من الكثرة حتى خشي بنو حبيب على ملكهم منهم، فطردوهم، فلجأوا الى القبائل البربرية المستقلة بجبال المغرب وشعابه"(2).

الا أن هذه العناصر العربية اقتصر تمركزها، خاصة، على المغرب الأدنى، وبعض المناطق من المغرب الأوسط، مثل: ميلة، وبلزمة، وسطيف، التي استقرت فيها بعض القبائل العربية المضرية. كما كانت بعض بلدان الزاب، مثل طبنة، ومقرة، مقرًّا لخليط من بعض القبائل اليمنية والمضرية معا. وقد أورد اليعقوبي أماكن هذه القبائل مفصلة في كتابه: "وصف افريقية".

أما بالنسبة للمغرب الأقصى، فلم يعرف عن قبائل عربية استقرت به قبل العهد الادريسي. اللّهم الا تلك الحاميات التي كانت ترابط في بعض ثغوره مثل: طنجة، وسبتة. أو تلك القبائل العربية التي صاحبت صالح ابن منصور الحميرى، واستقرت معه في بلاد الريف.

---

(1) مصطفى أبوضيف، القبائل العربية. ص: 39 (نقلا عن الرفيق القيرواني تاريخ افريقية).

(2) بنو حبيب هم حفدة الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهرى. يعد بيتهم من أشرف بيوتات الأرستقراطية العربية التي تكونت بعد سنوات الفتح الأولى في القيروان. وقد أكسبهم ماضي جدهم الحافل نوعا من التمييز بين بقية العرب. فكانوا يجلونهم ويحترمونهم، حتى أصبحت لهم كلمة نافذة في كل الأمور. وكان أشهرهم عبدالرحمن بن حبيب الذى استطاع أن يتغلب على افريقية في آواخر أيام الدولة الأموية سنة 127 هـ.

وقد كان هذا "العبد الصالح" كما كان يسمى قد انتقل الى بلاد المغرب مع عقبة بن نافع فنزل بمرسى "تمستامان" واستقر بها مع كثير من أتباعه ، ينشر الاسلام بين قبائل غمارة وصنهاجة المستقرة في الريف (1).

والذى يهمنا من كل هذا ، هو أن هذه العناصر العربية التي انتشرت في بلدان المغرب واستقرت به ، قد لعبت دورا تمهيديا هاما في تعريب هذه المناطق . الا أن أقاليم المغرب الأدنى كانت أوفر حظّا من بقية أقاليم المغرب . حيث توفرت لها أسباب التعريب بالاحتكاك ، والمجاورة للعرب ، أكثر من غيرها . وبقي المغربان : الأوسط والأقصى ، في شبه عزلة ، محرومين من كل ما يمكن أن يلمي انتشار العربية فيهما .

غير أن النتائج في هذا الميدان ، حتى بالنسبة للمغرب الأدنى ، تعدّ جدّ محدودة ، اذا ما قيست بالأعداد الهائلة من القبائل العربية التي تدفقت على المنطقة طوال هذه الفترة ، وهذا راجع ، في نظرنا ، لعامل أساسي ، هو ، عدم توفر الأمن الكافي الذى يبعث على الطمأنينة والاستقرار النفسي الذى هو أساس لنشر أى ثقافة . والذى نخلص اليه ، من كل ما تقدم ، هو أن هذه المرحلة التعريبية الأولى هي عبارة عن مرحلة اعدادية ، اقتصرت نتائجها على توفير أحد الشرطين الأساسيين لتحقيق عملية التعريب ، وهو انتشار القبائل العربية ، واقامتها في بلدان المغرب . أما انتشار التعريب الحقيقي فلم تظهر بواكيره بالفعل الا عندما توفر الشرط الأساسي الثاني ، وهو استتباب الأمن . وهذا لم يبدأ يتحقق بالفعل الا مع بداية ظهور الدول المغربية المستقلة .

---

(1) انظر أخباره مفصلة عند ابن خلدون :العبر.ج . 6.ص: 439 — 444.

1 — أثر الدول المغربية في نشر بواكير الثقافة الاسلامية .

أخذت الأمور في بلدان المغرب تميل نحو الاستقرار مع بداية منتصف القرن الثاني الهجري ، بعد أن عاشت جوًّا مشحونا بالاضطرابات والفتن ، والحروب سببتها النزعات القبلية ، والاتجاهات المذهبية المتضاربة . وقد مهّد هذا الهدوء النسبي الذي شهدته المنطقة لظهور بعض الدول المستقلة التي انتشرت على امتداد مساحة شمال افريقية كدليل للجنوح نحو حياة أكثر أمنا ، وأثبت استقرارا .

وقد نشأت أولى هذه الدول المستقلة في منطقة المغرب الأوسط ، وهي الدولة الرستمية التي قامت "بتهرت" سنة 160 هـ . ثم تلتها دولة الأدارسة التي نشأت بالمغرب الأقصى سنة 172 هـ ، وتأسست اثرهما دولة الأغالبة في المغرب الأدنى سنة 184 هـ . ثم جاءت الدولة الفاطمية التي أطاحت بكل هذه الدول التي سبقتها في محاولة لضمّ كلّ بلدان المغرب تحت لواء واحد .

والذي يهمنا نحن ، من قيام هذه الدول هو ما ساهمت به من جهود في ارساء أسس الثقافة المغربية التي تتمثل بواكيرها في نشر اللغة العربية أولا ، ثم الدراسات الأسلامية التي تعتبر نواة للدراسات الأدبية التي ظهرت بعد ذلك .

وسيعيننا هذا التمهيد — ولاشك — على تتبع خط السير الذي درجت عليه الثقافة المغربية في كل أطوارها المختلفة ، كما سيساعدنا على اكتشاف المؤثرات التي تحكمت في توجيهها تلك الوجهة الدينية التي اشتهرت بها منذ نشأتها الأولى .

— الرستميون :

كانت بلدان المغرب ملجأ لكل المضطهدين السياسيين وأصحاب النحل والمذاهب والفرق الدينية . ومن بين هذه النحل التي لاقت رواجا كبيرا بين سكان

المنطقة ، واستطاعت أن تثبت وتكون لها امارات ارتقى بعضها الى دول ، فرقة الخوارج ، التي أنشأها وأسس مذهبها عربي تميمي من شبه الجزيرة العربية ، وهو عبدالله بن أباض المري ، وهذا في حدود العقد السابع من القرن الأول[1] . وكان جابر بن زيد الذى خلف عبدالله بن أباض على رأس المذهب يعدّ المقنّن الحقيقي للمذهب الأباضي[2].

وعندما توفى جابر خلفه في الزعامة على المذهب أبو عبيدة مسلم[3] ابن أبي كريمة التميمي الذى يرجع اليه فضل انتشار المذهب في كل أصقاع الامبراطورية الاسلامية ، نتيجة الخطة السرية التي توخاها في تكوين مريديه وارسالهم بعد ذلك كمبشرين بمبادئ هذا المذهب الى مختلف البلدان ، وكان يسميهم " حملة العلم " . وقد لاقت هذه الخطة نجاحا باهرا بالنسبة لأولائك الذين قصدوا بلدان المغرب . خاصة ، وقد وفدوا عليه في وقت ضعفت فيه وسائل الاتصال بالمشرق ، نظرا لما كانت تتخبط فيه الدولة الأموية من مشاكل سياسية ، وحروب طاحنة ، ضد أصحاب " الدعوة لآل البيت " ، تاركة بلدان المغرب لمصيرها ، يتحكم فيها زعماء عرب ينتمي كل منهم الى أحد

---

(1) الواقع أن جذور هذا المذهب تمتد الى قبل ذلك بما يقرب من ربع قرن . أى الى أيام الخلاف الذى ثار بين عليّ وأصحابه في مسألة التحكيم . الا أن أبن أباض يكون حلقة هامة في تاريخ هذا المذهب لبلورته اياه ، واعطائه صبغة الاعتدال بالقياس الى جماعة الأزارقة المتطرفين .

(2) هو أحد الزعماء العرب المشهورين في عمان ، كان قد تتلمذ لابن عباس فحاز اعجاب الكثيرين من مشاهير المسلمين ، على رأسهم مالك بن أنس وهو الذي أرسى قواعد المذهب في شكلها النهائي .

(3) هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، تولى زعامة الأباضية بعد أن أفرج عنه من سجن الحجاج سنة 95 هـ . كان له الدور البارز في نشر هذا المذهب بالمغرب الاسلامي ، وقد عاصر عهد الامام الرستمي الأول عبدالرحمن بن رستم وجزء من عصر عبدالوهاب خليفته ، وتوفي في حدود 172 — انظر بحاز ابراهيم : الدولة الرستمية ، ص : 75 . الطبعة الأولى الجزائر 1985 .

كبار الفاتحين الأوائل . فعمت الدعوة الخارجية كل بلدان المغرب الاسلامي ، وقد سادتها نزعتان : الاباضية ، والصفرية ، عاشتا فترة في نزاع وتطاحن . ثم انتهى بهما الأمر الى اقتسام المغرب ، فاستولى الصفرية على جزء كبير من المغرب الأقصى ، واستقروا "بسجلماسة" حيث أسسوا دولتهم سنة 140 هـ . وقد ولّوا عليهم أول الأمر عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج ، ثم ولّوا بعده أبا القاسم سمكو المكناسي الملقب بالمدرار الذى تنسب الدولة اليه (1).

أما الأباضية فقد تمركزوا في المغرب الأوسط حيث أسّسوا دولتهم بتهرت على يد عبدالرحمن بن رستم سنة 160 هـ . وقد بدأت كل من الدولتين في نشر تعاليمها في الأوساط الشعبية المغربية ، معتمدة على الدّعاة الذين تكونهم بجوامعها المتعددة ، والمراكز العلمية التي أنشأتها من أجل ذلك . وكثيرا ما كانت تبعث بهم الى القيروان لاتمام دراستهم ، ثم للمشرق بعد ذلك للتشبع بروح المذهب والتفقه في الطرق الجدلية ، وعلوم المناظرة .

فذلك ما وقع لعبدالرحمن بن رستم مؤسس الدولة ، حيث تكوّن في البصرة مع أبي الخطاب عبدالعلاء بن السمح المعافرى ، وعاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وداود القيلي النفزاوى ، وهذا بعد أن اتموا تعليمهم في افريقية على يد مسلمة بن سعد الذى كان يعقد حلقات دروسه بمسجد القيروان (2).

وعندما اشتدّ عودُ الدولة الرستمية ، أخذت في مضاعفة انشاء دور العلم والمساجد التي كانت تعد بمثابة المعاهد العلمية لتثقيف الناشئة ، فأصبحت بذلك مركزا من أهم المراكز للدراسات العربية الاسلامية بالمغرب الأوسط .

---

(1) السلاوى : الاستقصاء : ج . 1 . ص : 111 ـ 112 .
(2) جودت عبدالكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص : 26 .

ولم يكتف المسؤولون في هذه الدولة بالتشجيع على العلم والحث على نشره ، بل كانوا هم أنفسهم علماء حيث كانت لأغلبهم مؤلفات معتبرة في شتى الفنون والمعارف . فقد ثبت أنه كان لعبدالرحمن مؤلفان : أحدهما في التفسير، والآخر في ما ألقاه من خطب[1]. أما عبدالوهاب فقد كان له مؤلف ضخم في الشؤون الدينية سماه " مسائل نفوسة الجبل"[2]، كما كان لابنه أفلح كتاب هو الآخر في الفقه الى جانب نبوغه في الآداب وقرض الشعر ، فمن قصائده الشمهورة التي قالها في تمجيد العلم وأهله تلك التي يستهلها بقوله :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ... يوريك اشخاصهم روحا وأبكارا
حيّ وان مات ذوعلم وذو ورع ... ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا [3]

وهي قصيدة تزيد على الأربعين بيتا : مما يدل على طول نفس صاحبها وقدرته على النظم ، كما تبرهن على قوة أسلوبه وتحكمه في اللغة ، وله عدّة خطب ، ورسائل غاية في القوة والرصانة .

وقد ذكر ابن الصغير أن " أبا بكر " أيضا كان عالما له اهتمام باللغة والآداب " يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضي "[4] ، كما ذكر أن أبا اليقظان كان هو الآخر من علماء ذلك العصر الذين اشتهروا بتهوت [5] .

فقد لعب هؤلاء العلماء ، باعتبارهم أئمة ، دورا كبيرا في الحياة الفكرية، واستقطاب العلماء والفقهاء من كل من المشرق وافريقية والأندلس .

---

(1) انظر ماقاله بحاز في كتابه الدولة الرستمية ص : 265ـ266 ـ عن بيع تفسير بن رستم في أسواق قلعة بني حماد .
ـ يقول ابن الصغير : لم يكن لعبدالرحمن كتابامعروف من تأليفه انظر : أخبار الأئمة الرستميين : ص : 39 ـ تحقيق محمد ناصر ، وابراهيم بحاز ، بدون تاريخ .
(2) المصدر السابق .
(3) بحاز : الدولة الرستمية ، ص : 270 .
(4) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ، ص : 62 .
(5) المصدر السابق : ص : 81 .

فازدهرت حركة التعليم في كبريات المدن حتى عمّت كل طبقات الشعب ، وكان ذلك من أهمّ أسباب نشر اللغة العربية ، وايصالها الى المناطق النائية .

ويكفي دليلا على ازدهار الثقافة وانتشارها في المغرب الأوسط في ذلك العهد أن تعد بين علماء هذا العصر أمثال : الشاعر التاهرتي سعد بن أشكل ، والشاعر أحمد بن فتح التاهرتي مادح الأدارسة ، والمؤرخ المشهور ابن الصغير ، والشاعر الفحل الذى ضاهى كبار شعراء المشرق بكر بن حماد .

ورغم ما اشتهر به الأباضية من التشدد ، الا أن مسلك أئمتهم تميّز بتسامح كبير ، فقد عاش في ظل رعايتهم واصلية معتزلة ، وبعض الشيعة ، ومجموعة مسيحية كان أفرادها يتولون وظائف ادارية ، وكان النقاش والجدال والحوار قائما ، دوما ، بين الأباضية والفرق الأخرى خاصة المعتزلة ، فلم يهملوه حتى في وقت الحرب بينهم[1] .

وقد رأى بعض الباحثين أن تسرب المذهب الخارجي الى المغرب في هذه الفترة كان " عاملا من أهم عوامل تأخر حركة التعريب عن أن تسايرنشر الاسلام . والسبب أن أمر الدين والمذهب غلب الخوارج وسيطر عليهم ، ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة . . ."[2]

الواقع ان الحركة الخارجية التي اجتاحت بلدان المغرب في العهود الأولى قد تسببت في اثارة اضطرابات كبيرة ، زادت من تعقيد الأمور الاجتماعية والسياسية في هذه المناطق الحديثة عهد بالاسلام . الا أنه ما كادت تستقر الأوضاع في منتصف القرن الثاني الهجرى مع نشوء الدول الثلاثة الآنفة الذكر ، حتى بدأ الجانب الايجابي لهذه الحركة يظهر

(1) أحمد بدر : تاريخ المغرب والأندلس : ص : 74 ، المطبعة الجديدة ، دمشق 1980 /81 .
(2) الجرارى عباس : القصيدة (الزجل في المغرب) ص : 87 الرباط 1965 .

فيما قامت به من نشر للعربية عن طريق نشر مبادئها .

فنحن نعلم أن الذين جاؤوا بهذه الآراء هم في الواقع ، عرب في مجموعهم ، حتى ولو كان بعضهم موالي في الأصل . الا أنهم عرب في المنشأ والثقافة . وكانت المبادئ التي جاؤوا بها تبحث ، أساسا ، في الدين الاسلامي العربي ، باللسان العربي . فكان من الطبيعي أن يعتمدوا على نشر دعوتهم هذه ، على اللغة التي يتقنونها ، وهي اللغة العربية . وذلك ما فعلوه . وكان حرصهم على اقناع خصومهم بالحجة المنطقية والبرهان العقلي من أهم الأسباب التي ساعدت على نشر المعرفة وتعميم الثقافة .

وهذا ما يفسر اهتمام الخوارج بتربية النشىء وحرصهم على تكوين مريديهم ودعاتهم منذ الطفولة الأولى . وقد تجلى ذلك في اعتنائهم بنشر الكتاتيب والمراكز الثقافية الأخرى التي كانت سببا في انتشار العربية ، خاصة ، في المدن الداخلية .

وقد كان للمناظرات التي كانت تقام في مساجد تهرت بين مختلف الفرق المتضاربة أكبر الأثر في تعريب المحيط ، ونشر الثقافة الاسلامية بين طبقات الشعب التي كانت تحضرها وتعجب بها أيما اعجاب . فقد كانت المناقشات والتعليقات تبقى بين هؤلاء المعجبين أياما طويلة بعد المناظرة . فقد قيل ان مجادلات أبي عبيدة وواصل بن عطاء ، شغلت علماء تهرت عدة أسابيع .

ولكي يصل البربر الذين اعتنقوا هذا المذهب لدرجة من الثقافة تسمح لهم بمتابعة تلك المجادلات المعقدة وتمكنهم من فهم تلك الآراء الفلسفية الدقيقة ، والتصورات الذهنية المجردة ، لا بد أن يكونوا قد تفقهوا قبل ذلك في اللغة العربية التي كانت الأداة الوحيدة لنقل تلك الأفكار .

نخلص من كل هـذا الى أن الخصومات الدينية التي بليت بهـا بلدان المغرب في هذه العهـود المبكرة كان من نتائجها أن عجلت بتعريبه ، بل ودفعت الناس الى التفقه في اللغة . فالذى عرقل التعريب ، حقا ، في الفجر الاسلامي الأول ، في نظرنا ، هو السياسة العنصرية التي انتهجها بعض الولاة تجاه البربر ورؤسائهم[1].
حيث كانوا يعاملونهم معاملة السبي ، وهذا رغم دخولهم في الاسلام .

— الأدارسة :

وكان لتأسيس الدولة الأدريسية الأثر الأكبر في نشر اللغة العربية بالمغرب الأقصى . فما أن بويع ادريس الثاني سنة 188 وشرع في تدعيم أسس دولته بوليلي حتى بدأت تتوافد عليه جموع من القبائل العربية من كل من افريقية والأندلس لتشد أزره وتعينه على تحمل أعباء الدولة ، ويقدر المؤرخون عدد العرب الوافدين على ادريس الثاني في سنة 189 وحدها بـ 500 فارس ينتمون الى قبائل متعددة فيهم من " القيسية ، والأزد ، والخزرج ، ومدلج وبني يحصب وغيرهم "[2].

وقد أكرم المولى ادريس وفادتهم واتخذ منهم بطانته الخاصة وأسند اليهم أهم المناصب في الدولة فاستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدى ، وولّى على القضاء عامر بن محمد بن سعيد القيسي وسمى على ديوان الكتابة أبا الحسن عبدالله بن الملك[3]. واستعان بكثير من خاصتهم غير هؤلاء على مصالح الدولة . كما أسند اليهم خاصة مهمة تعليم اللغة العربية للبربر ، فقاموا بنشرها في كل المناطق التي حلّوا بها بواسطة فتح الكتاتيب والرباطات التي كانوا ينشئونها لهذا الغرض ، وكانت هذه وتلك بمثابة المدارس الابتدائية التي تعدّ طلّابها للجلوس في حلقات جامعة القرويين التي بنيت فيما بعد بمدينة فاس وازدهرت فيها الدراسة على ذلك

---

(1) راجع فتح المغرب الأقصى عند ابن عذارى : ج . 1 . ص : 38 — 49 .

(2) ابن أبي زرع : القرطاس : ص : 14 . السلاوى : الاستقصاء . ج . 1 . ص : 148 .
— الجزنائي : زهرة الآس : ص : 13 (Levi Pro.La Fondation de Fes.P.28)

(3) اسماعيل العربي دولة الأدارسة : ص : 77 . السلاوى : الاستقصاء : ج . 1 . ص : 148 .

العهد حتى غدت من أكبر المراكز التي انطلقت منها اللغة والثقافة العربية بالمغرب [1].

وما أن شرع ادريس الثاني في بناء عاصمة ملكه فاس حتى توافدت عليه قبائل عربية أخرى مهاجرة من الأندلس قدرها ابن أبي زرع بثمانية آلاف بيت أرغمهم الحكم بن هشام الأموي على مغادرة الأندلس الى افريقية في أواخر القرن الثاني للهجرة إثر واقعة الربض . فآواهم ادريس وأنزلهم باحدى عدوتي فاس فنسبت اليهم منذ ذلك الحين فاشتهرت بعدوة الأندلسيين .

والذى يهمنا من هذه الهجرات العربية سواء منها تلك التي جاءت من الأندلس أو التي اقبلت من افريقية هو المد الثقافي الذى كانت تحمله معها من جوامع قرطبة ومساجد القيروان منارتي العلم والحضارة في كل من الأندلس والمغرب آنذاك خاصة وان هذه الهجرات كانت تحمل الطابع الثقافي رغم المظهر السياسي الذى اتسمت به ، فالذين جاءوا من القيروان وطبنة والمدن الافريقية الأخرى بمحض ارادتهم كان أغلبهم من العلماء والفقهاء الذين لم ينسجموا مع الوضع السياسي في العهود الأولى لدولة بني الأغلب وآثروا الابتعاد عن الفتن والقلاقل والعصبيات التي كانت تضطرم بها افريقية آنذاك .

وكانت وقعة الربض التي ثار فيها القرطبيون من تدبير الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا ينقمون على الحكم بن هشام سيرته وطغيانه . وقد كانوا من الكثرة ونفاذ الكلمة في أوساط الشعب قوة يحسب لها حسابها آنذاك ، ونحن نقدر أن الذين حكم عليهم الحكم بالنفي الى افريقية بعد فشل الثورة كانت تشتمل على كثير من الفقهاء مدبرى هذه الفتنة . فكانت هذه النقمة التي منيت بها الأندلس في علمائها نعمة منّ الله بها على المغرب .

---

(1) عباس الجرارى : أبو الربيع سليمان الموحدى . ص : 56—57 ، دار الثقافة الدار البيضاء 1974 .

ومما زاد دفعا لعجلة التعريب ونشر التعليم في المدن الساحلية في العهد الادريسي هو أن أمراء هذه الدولة أنفسهم كانوا علماء يشجعون العلم ويقربون الأدباء والشعراء، وقد كان من بينهم من كان يقرض الشعر. فقد نسبت أبيات كثيرة للمولى ادريس، كما نسبت قطع شعرية أخرى لابنه القاسم. ونحن نعلم أن هؤلاء الأدارسة قد ولدوا بالمغرب من أمهات مغربية وتربوا في أوساط بربرية لم ينتقلوا الى حواضر أخرى خارج قطرهم، وقد أدركوا، رغم ذلك، مستوى من الثقافة مكنهم من قرض الشعر والتراسل به أحيانا(1).

ولا نظن أن هذه الحالة كانت مقتصرة على الأمراء أبناء العائلة المالكة وحدهم، فهم لاشك قد تعلموا مع زملاء لهم من أبناء البلد وأبناء المهاجرين العرب في الكتاتيب والمساجد التي كانوا ينشؤنها في كل بلدة يفتحونها. وقد كانت هذه المراكز الثقافية المقياس الفعلي الذى يقاس به انتشار الثقافة في ذلك العهد. وكل هذا يدلنا على مدى ماساهمت به الدولة الادريسية في تركيز اللغة العربية وارساء أسس الثقافة الاسلامية التي أثرت عنهم منذ أن انشأوا عاصمة ملكهم فاس.

— الأغالبة :

عندما انتهت حركة الخوارج بتأسيس دولتي: سجلماسة، وتاهرت ونشأت عقبهما دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، بدأت تساور الخلافة العباسية بالمشرق بعض المخاوف من تحركات هؤلاء الثائرين! فاهتدت لفكرة اقتطاع ما تبقى من بلاد المغرب عن الامبراطورية الاسلامية، واسنادها لأحد رجالاتها الذين برهنوا لها على ولائهم المطلق، فأقطعوا كل بلاد افريقية لابراهيم بن الأغلب الذى أسندت اليه

---

(1) ابن الأبار: الحلة السيراء. ج. 1. ص: 55 — 56 — اسماعيل العربي دولة الأدارسة، ص: 116 — 117.

على أن تبقى الامارة في عقبه ، مكتفية هي باستلام الخراج والاعتراف لها بالولاء ، على أن يقف الاغالبة سدّا منيعا دون تسرب أخطار الدعوة العلوية الادريسية الى المشرق .

وكان لتأسيس الدولة الاغلبية بافريقية واستقلالها عن الحكومة المركزية الاثر الفعال لاستتباب الامن في كل أصقاع المغرب بصفة عامة . وكان هذا من أهم العوامل التي ساعدت على نشر الثقافة والتعليم بالبلاد في نظرنا .

وكانت القيروان ، عاصمة المغرب الادنى ، في الواقع ، من أهم مراكز الاشعاع الثقافي بالمغرب منذ نشأتها ، بما توفر لها من أسباب الاتصال المباشر بالمشرق ، مهد الثقافة العربية الاسلامية ، بحكم موقعها الاستراتيجي ، وباعتبارها مقر الوالي ممثل الخليفة الرسمي ، لذلك كانت نسبة انتشار التعريب بها أكثر من بقية البلدان الاخرى . ومن أهم العوامل التي ساعدت على نشر الثقافة وازدهارها بالقيروان والحواضر الافريقية الاخرى في العهد الاغلبي هو أن أمراء هذه الدولة كانوا كلهم علماء ، وأدباء سواء منهم من تولّى الحكم أو من لم يتولاه حتى أنه قيل عنهم لا يوجد واحد منهم لم يقرض الشعر الجيد في سائر أغراضه (1).

(2)
فقد كان ابراهيم بن الاغلب مؤسس الدولة " فقيها عالما ، شاعرا ، خطيبا " يشجع العلم ويقرب أهله . وكان ابنه زيادة الله " أفصح أهل بيته لسانا ، وأكثرهم أدبا ، وكان يعرب كلامه من غير تقعير " على حدّ تعبير ابن الخطيب(3) . فقد روي أن أباه كان يختار له أحسن العلماء في العربية ورواية الشعر .

---

(1) ح . ح . عبدالوهاب : ورقات : ج . 1 . ص : 85 .
(2) الحبيب الجنحاني : القيروان عصور وازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي ، ص : 155 ، الدار التونسية للنشر 1968 .
(3) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : قسم — 3 — ص : 14 .

وكان ابراهيم بن الأغلب الثاني الى جانب تضلعه في اللغة وحفظه لغريبها مولعا بالعلوم الرياضية والفلسفة والحكمة . وكان يتقن الى جانب ذلك اللغة اللاتينية التي تعلمها في صغره . وكان يتكلم بها مع فتيانه وجواريه الصقالبة[1].

كما كان الأمير محمد بن زيادة الله الثاني ، والي طرابلس ، من أشهر علماء عصره ، كان شاعرا وخطيبا . وكان لا ينادم الا أهل الأدب . وقد ألف كتبا كثيرة في الأدب والتاريخ منها " تاريخ بني الأغلب " . الا أنه لم يصلنا شيء منها[2].

ومما امتاز به ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة هو ما كان يتمتع به من سعة الأفق ، وقلة التزمت رغم العصبية الدينية التي كانت تسود العصر . فلم يثبت عنه أنه تعصب لاتجاه دون آخر ، أو حاول أن يغلب طائفة على أخرى طوال فترة حكمه ، وقد مهد هذا التسامح الذى أضفاه على كل العلماء على اختلاف آرائهم لانتعاش الحركة الفكرية في البلاد خاصة بعد دخول المذهبين المالكي والحنفي اليها ، وقد تجلت هذه الحركة في المجادلات الدينية بين الفرق والمذاهب المختلفة التي عمت كل مساجد القيروان ، وكان العلماء يتبارون فيها في الدفاع عن آرائهم والاحتجاج لها بالدليل المنطقي والبرهان الشرعي مستعملين الطرق الجدلية المعروفة آنذاك . وكانت أصداء بعض المجادلات الهامة تبقى محلّ اعجاب وتعليق مدة أسابيع بين الناس .

وقد كان لهذه المجادلات المذهبية أكبر الأثر في اثارة حماس الناشئة ودفعها نحو حلقات الدرس والتحصيل . فانتشرت بفضل ذلك اللغة العربية حتى عمّت بقية المدن الافريقية الأخرى . وقد كانت الثقافة

---

(1) ح.ح . عبدالوهاب : ورقات . ج . 1 . ص : 85 . (عن الزبيدى طبقات النحاة) .
(2) المرجع السابق .

الأغلبية في العهود الأولى تقتصر على العلوم الاسلامية بصفة عامة، حيث تخصص الرعيل الأول الذى تخرج على يدى العلماء المشارقة الذين أموا القيروان في منتصف القرن الثاني في العلوم الاسلامية المحضة من فقه وتفسير وحديث . من بين أقطاب هؤلاء العلماء الأفارقة نذكر : بهلول بن راشد ، ورباح بن يزيد ، وعبدالله بن فروخ ، وابن غانم الرعيني وأسد بن الفرات[1].

ثم بدأت تتسع ألوان المعرفة وتتنوع فنونها شيئا فشيئا بعد ذلك ، فلم تبق محصورة في الشرعيات وحدها بل تجاوزتها الى كل العلوم العقلية والنقلية الأخرى وعلى رأسها العلوم الأدبية . وقد نبغت مجموعة كبيرة من الأفارقة في علوم اللغة والأدب ، ذكر الزبيدى عددا كبيرا منهم في طبقات النحاة ، منهم أبوالوليد عبدالملك المهرى المتوفي سنة 256 ، قال عنه أنه من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارها[2]. ومنهم تلميذه الذى خلفه في تدريس دواوين الشعر الجاهلي محمد بن عبدالله المكفوف . فقد كانت تشد اليه الرحال من جميع بلدان افريقية والمغرب[3] وقد توفي سنة 308 هـ .

ومنهم الداروني[4] أبومحمد الحسن بن محمد التميمي العنبرى الذى كان إماما في اللغة والشعر هو الآخر . وكان مشغوفا بديوان ابن الرمة . ويعدّ أبوالقاسم ابراهيم الوزان امام الأفارقة في النحو ، وكبيرهم في اللغة ، وعظيمهم في العربية والعروض ، قيل عنه أنه كان يحفظ كتاب " العين " للخليل بن أحمد ، وكتاب سيبويه ، وكتاب الفراء ، وكتاب "غريب المصنف " لأبي عبيدة ، وكتاب ابن السكيت وغيرها ، توفي في سنة 346 هـ.[5].

(1) الحبيب الجنحاني : القيروان 155.
(2) ح ح . عبدالوهاب : ورقات . ج . 1 . ص : 101-102 (عن الزبيدى طبقات النحاة).
(3) المرجع السابق .
(4) نسبته الى " دارون " منزل كان لبني تميم في فحص القيروان .
(5) ح ح . عبدالوهاب : ورقات - ج . 1 . ص : 101 - 102 .

وكان عبد الله بن الصائغ ، وزير زيادة الله الثالث من مشاهير كتاب الدولة الأغلبية ، وتعد رسائله من أبلغ الرسائل الديوانية في ذلك العهد ، وقد تثقف في بلده القيروان على مهرة الأدباء والكتاب من أمثال أبي اليسر الشيباني ، وعبد الله المكفوف كبير اللغويين والنحويين الآنف الذكر . وقد ذكر له ابن الأبار نتفا من شعره تدل على تمكنه في القريض أيضا . وقد اشتهر من المترسلين أيضا في هذا العصر محمد بن حيون البريدي الذي قدمه ابراهيم الثاني لرئاسة ديوان الانشاء قبل أبي اليسر الشيباني ، ثم تنكر له فقتله (1).

وقد اشتهر من علماء المغرب الأوسط تحت حكم الأغالبة مجموعة لا بأس بها ، نذكر من بينهم اسحاق بن عبد الله الملشوني الذي نبغ في التاريخ ، وقد كان معاصرا لسحنون صاحب المدونة أخذ كل منهما على الآخر . وكان الملشوني من المقربين لدى الأغالبة ومن جلساء محمد بن الأغلب (2) ، ومنهم الفضل بن سلمة بن جرير البجائي الذي تخرج على يديه كثير من العلماء المغاربة والأندلسيين . وقد كانت له مؤلفات كثيرة توفي سنة 319 هـ .

وقد تطورت الحركة الفكرية في أواخر الدولة الأغلبية تطورا كبيرا خاصة أيام ابراهيم بن الأغلب الثاني ، وتجلى هذا التطور في تنوع المراكز الثقافية التي ما فتيء الأغالبة ينشئونها حتى عمت كل الحواضر الافريقية . وكان أشهر هذه المراكز مكتبة بيت الحكمة التي أنشأها ابراهيم الأصغر برقادة على غرار نظامية بغداد وذلك في سنة 264 هـ . أي قبل انقراض الدولة باثنين وثلاثين عاما . فجلب اليها العلماء المتخصصين في الطب والهندسة ، والرياضيات وعلوم الفلسفة من العراق ومصر والشام (3) . وكان أغلب محتوياتها من الكتب يتعلق بالعلوم

---

(1) ابن عذارى : الحلة السيراء : ج . 2 . ص : 192 .
(2) طمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص : 44 .
(3) ح . ح . عبد الوهاب : ورقات : ج . 1 . ص : 193 .

الدينية الاسلامية ، وكتب الجدل والخلاف وما كان له رواج في ذلك العصر بطبيعة الحال .

الا أنها كانت تشتمل على مجموعة ضخمة من الكتب العلمية المترجمة من اليونانية والسريانية ، والفارسية والهندية (السنسكرتية) مما له اتصال بالفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والطب والنبات وما الى ذلك[1] .

وقد نشطت هذه العلوم وكثر الاقبال عليها لخروجها عن الطابع التقليدى المألوف . الا أن الفقهاء كانوا لا ينظرون اليها بعين الارتياح ، بل كانوا يحاربونها بشتى الوسائل ، ويحاولون الحدّ من انتشارها كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . لذلك لم تكن تدرس بمساجد القيروان ولكن كانت محصورة بمدينة رقادة التي كانت في خلاف دائم مع القيروان للنزعة التحررية التي اشتهر بها أهل رقادة[2] .

والذى يهمنا من كل هذا هو ماسببته هذه الحركة الفكرية من تعميم للغة العربية في الأوساط البربرية ، ونحن نعدّ هذه العملية بمثابة اللبنة الأولى في نشأة الثقافة المغربية التي تجلت بواكيرها مع تأسيس هذه الدول الثلاثة التي تعرضنا لذكرها .

وقد بقيت أوليات هذه الثقافة محصورة ، كما رأينا ، في نشر اللغة أول الأمر مع تلقين بعض الشرعيات التي تتلخص في تحفيظ القرآن وشيء من الحديث وبعض الفقهيات الضرورية . ..

---

(1) ح . ح . عبدالوهاب : ورقات : ص : 195 — 196 .
(2) المرجع السابق . أنظر وصف مدينة رقادة في كتاب الاستبصار ، ص : 116 . مما يدل على تحرر أهل رقادة أن الخمرة كانت تباع علانية بها بينما كانت محرمة في القيروان حتى قال فيها شاعر مخاطبا ابراهيم بن الاغلب الاصغر :

ياسيد الناس وابن سيدهم ومن اليه القلوب منقادة
ما حرم الشرب في مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة .

ثم بدأ التمكن من اللغة والتضلع في الشرعيات يظهران بشكل واضح بفضل المجادلات والمناظرات التي عمت كل ساحة الحواضر المغربية آنذاك . وأخذت ميادين المعرفة تتطور وتتنوع شيئا فشيئا فظهر الاهتمام بعلوم اللغة وآدابها ، كما ظهر نوع من الاهتمام بالعلوم الوضعية الأخرى ، الا أن الثقافة المغربية في القرون الثلاثة الأولى بقيت متسمة بالطابع الديني المحض .

ـ الفاطميون :

عندما جاءت الدولة العبيدية في أواخر القرن الثالث ، كانت بلدان المغرب قد حققت تقدما لا بأس به في كثير من الميادين ، وهذا بفضل الاستقرار النسبي الذى عرفته المنطقة في ظل الدول التي نشأت بها .

وقد ألمحنا فيما مضى الى الانعكاسات الحميدة التي ظهرت آثارها في الميدان الثقافي ، نتيجة الصراعات الفكرية التي دارت رحاها بين مختلف المذاهب والفرق الدينية التي كانت تعج بها مساجد القيروان وتاهرت ، وسجلماسة .

وكانت الحركة الشيعية من جملة الفرق التي كانت تدافع على مبادئها بالحجة والبرهان أول الأمر ، عندما كانت مجرد مذهب ديني ، الا أنها لم تستطع الوقوف أمام قوة المذاهب الأخرى رغم دعاتها المحنكين المهرة ، ورغم دقة نظامها السياسي المحكم الذى كانت تعتمد عليه . فلم يستطع المذهب الشيعي أن يفرض نفسه في بلدان المغرب الا بالقوة ، ذلك عندما تم لأصحابه الاستلاء على الحكم . وقد حاربوا مناوئيهم بكل شدة ، وسلطوا عليهم كل أنواع الاضطهاد . فمرت على القيروان محنة لم تر مثلها من قبل ، دامت أكثر من قرن ، الى أن خلصت بلاد افريقية للصنهاجيين .

ونحن نعلم أن الدولة الشيعية ، عندما تم لها النصر على الأغالبة أطاحت بكل النظم التي تأسست قبلها في المنطقة ، وحاولت أن تبسط نفوذها على كل بلاد المغرب رغم أن الهدف الرئيسي الذى كانت تسعى اليه هو الاستيلاء على المشرق لا البقاء في المغرب . الا أن الدولة الأموية بالأندلس كانت تقف لها بالمرصاد .

ولم تعرقل هذه الأحداث السياسية رغم ذلك سير الحركة الثقافية التي بدأت تشق طريقها منذ منتصف القرن الثاني كما رأينا بل ساعدتها على النمو والانتشار بما سببته من هجرة علماء السنة من القيروان الى بقية المدن المغربية الأخرى نتيجة الضغوط التي كانت تسلط عليهم[1].

وقد اتخذت الثقافة لها مجرى آخر غير الذى ألفناه في العهد الأغلبي والرستمي ، فلم تعد تلك المجادلات العلنية في المساجد والمنتديات بنفس القوة والحدة وانما عوضت بحركة تأليف واسعة بدأت تظهر في شكل رسائل وبحوث وتآليف مطولة ، تدور أغلب مواضيعها حول مسائل الخلاف ، بطبيعة الحال ، ولكنها تتناول مواضع أخرى تمس جوانب ثانية من الحياة .

وهذا — ينم — ولا شك ، عن التطور الطبيعي الذى سارت عليه الحياة الثقافية في بلدان المغرب حيث أصبح الناس خاصة سكان الحواضر، قادرين على القراءة واستعاب ما يكتب بعد أن كانوا في الماضي القريب يكتفون بالسماع لانتشار الأمية بينهم .

وقد تنوعت ميادين الثقافة فلم تعد مقصورة على الشرعيات والعلوم العقلية وحدها بل تعدتها الى الفنون الأدبية خاصة . فبدأت الكتابة الفنية تظهر في الرسائل الديوانية ، وبدأ الشعر يزدهر لما لاقاه من

---

(1) حسن حسين عبدالوهاب : ورقات . ج .1. ص : 210 .

تشجيع من طرف بعض الحكام ، وقد تألق الشعر الدعائي خاصة حيث اتخذته المدارس المتناحرة وسيلة للدفاع عن آرائها المذهبية . وكان ابن هاني الأندلسي **أحد أقطاب شعراء الشيعة الذين خلدوا مآثرهم .**

فقد خلد المعز الفاطمي بقصائد رائعة . كما قال أحسن مدائحه في ولي نعمته الأول الذي استقدمه من الأندلس أول الأمر ، أمير المسيلة جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، وكان قد مدح أخاه يحيي أيضا .

واشتهر من شعراء الشيعة أيضا أبو القاسم الفزاري الذي استمالوه اليهم ، حيث كان من ألد أعدائهم أول الأمر . شهر بعيوبهم ، وزيف مذهبهم . ثم مال اليهم ، فأصبح من أخص شعراء المنصور .

كما مال اليهم أيضا الشاعر الأغلبي ، علي بن محمد الايادي الذي توفي سنة 365 هـ . وكان قد مدح كلا من : أبي عبيد الله الشيعي ، وأبي القاسم المنصور الذي كان هو نفسه شاعرا .

الصنهاجيون (الزيريون ــ والحماديون) :

بلغت الثقافة العربية في القرن الخامس الهجري مرحلة لا بأس بها من النضج ، وقد ازدهرت ازدهارا كبيرا في ظل الدولة الصنهاجية بافريقية خاصة ، وبلغ الأدب فيها أوج عزه أيام المعز بن باديس وابنه تميم حيث انتجع بلاطهما نخبة من أكبر شعراء الأندلس والمغرب[2] من أمثال أبي اسحاق ابن خفاجة الشاعر الأندلسي المشهور ، وأبي الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالفكيك . كما انقطعت اليهما نخبة من شعراء المغرب الأوسط

---

(1) مرمول محمد الصالح : السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي . ص : 279 ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1983 .

(2) ابن الأبار : الحلة : ج . 2 . ، ص : 21 ــ 26 .

فاستوطنوا القيروان منهم أبو الحسن على بن أبي الرجال الشيباني التهرتي، الذى كان يعدّ من دهاة السياسيين في عصره وقد استوزره المعز، وكان من ألمع أدباء عصره . وهو الذى أهدى اليه ابن رشيق القيرواني كتابه العمدة . ومنهم أيضا عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي المسلي الذى استكتبه تميم بن المعز، وقد اشتهر الى جانب شاعريته بآرائه النقدية في الأدب، ومنهم ابن قاضي ميلة عبدالله بن محمد التوخي الذى اشتهر بغزلياته الرقيقة . وقد نحا فيها منحى ابن أبي ربيعة، ومنهم الكاتب القدير ابن الربيب الحسن بن محمد بن أحمد التهري الذىكان يضرب بأسلوبه المثل في النثر الفني . يكفيه دليلا على قدرته وتمكنه في هذا الميدان رسالته التي وجهها لا بن حزم ينتقد فيها على الأندلسيين عدم نشرهم لمآثر بلدانهم وتقصيرهم في التعريف بانتاجهم رغم وفرته، وقد أوردها ابن بسام في ذخيرته كدليل على علو كعب هذا الأديب في النثر الترسلي (1). وقد اشتهر الى جانب هؤلاء الكتاب والشعراء، أدباء قيروانيون تألقت أسماؤهم في هذا العهد، منهم أبوعبدالله القفصي الأعمى، وأبوالحسن علي بن محمد الحداد الأقطع، وأبو الحسن ابن خصيب، بالاضافة الى شاعري المعز المقربين ابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن شرف، وأبي على حسن ابن رشيق .

وكان تميم بن المعز، من أشهر شعراء أمراء الدولة الصنهاجية يدل ديوانه على قدرته الفائقة على النظم، كما يدل على تمكنه من الشعر وطول نفسه فيه، بل كان الى جانب ذلك من أكبر نقاد الأدب في عصره، اذ كثيرا ماكان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، فلا يكاد يتخلص منه الا المهرة الأفذاذ .

وقد قيل أن بلاط المعز بن باديس كان يضم أكثر من مائة شاعر (2) مما يدل على الرعاية التي كان يحظى بها الأدب في بلاد المغرب، خاصة في افريقية الصنهاجية .

---

(1) ابن بسام : الذخيرة : ق 1/1/ ص: 133.
(2) طمار : ت . الأدب الجزائرى، ص: 78.

وكان لتأسيس المسيلة التي اختطها محمد بن عبيد الله المهدى سنة 315 هـ . أكبر الأثر في نشر الثقافة العربية في ربوع المغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري ، والفضل الأكبر في تنشيط هذه الحركة الثقافية يرجع ، خاصة ، الى القائد الشيعي أبي الحسن علي بن حمدون الأندلسي الذى أنجز مشروع بناء المدينة ، ونقل اليها ادارة كل بلدان الزاب عوضا عن طبنة . لقد كانت أبرز صفات هذا القائد هي حبه للعلم ، وتقريبه للعلماء . وعندما خلفه ابنه جعفر في منصبه سار على نهج أبيه في تنشيط الحركة العلمية . فقصده العلماء والشعراء من كل البلاد الاسلامية ، حتى أصبحت المسيلة أهم الحواضر الثقافية بالمغرب الأوسط .

وكانت بجاية الحمادية ، أيضا ، من المعاقل الثقافية المشهورة بالمغرب الأوسط ، حيث رشحها موقعها الجغرافي أن تكون ملتقى لمفترق الطرق التي تأتي من بلاد الصحراء وبلدان الشرق ومن الأندلس عبر المغرب ، فقد بلغ الأدب بها أوجه أيام الناصر بن علناس ، الذى اتسع نفوذه حتى بلغ القيروان وبايعه أهلها سنة 466 هـ . وقد قصده العلماء والشعراء من كل أنحاء المغرب والأندلس ، وفيه قال ابن فكاه القيرواني :

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا — مهلا عليك فأنت الرائح الغادى
فقلت : بالله لا انفك ذا سفر — تجرى بي الفلك أو يحدو بي الحادى
حتى أقبل ترب العز منتصرا — بالناصر بن علناس بن حماد

وكان ابنه المنصور الذى ولي بعده اديبا ، كاتبا وشاعرا(1) ، وقد قدم عليه معز الدولة بن صمادح من المرية في الأندلس لما أطاح المرابطون بعروش ملوك الطوائف . فآواه ، ونصره ، وأقطعه ولاية "تدلس" بكاملها . فأسكنه بها هو ومن معه . وكان من نتيجة

(1) لسان الدين الخطيب : اعمال الاعلام (القسم الثالث) ص : 96.

ذلك أن استعربت كل القبائل البربرية التي كانت تسكن بالمنطقة بفضل احتكاكها بتلك الجاليات الأندلسية التي رافقت ابن صمادح . والتي جاءت بعده[1] وقد كانت مساجد بجاية تزدحم بفطاحل العلماء الذين ورثتهم عن القلعة ، والمسيلة وطبتة واشير . كما كانت تزخر بالأدباء والشعراء الزائرين الذين كانوا ينتجعون بلاط الحماديين لمدحهم ونيل رفدهم .

— المرابطون :

وما يقال عن بجاية يسري على فاس العاصمة الثقافية للمغرب الأقصى ، وبقية الحواضر المغربية الأخرى مثل مراكش ، واغمات ، وسجلماسة ، وسبتة ، وطنجة ، التي عرفت ازدهارا ثقافيا لانظير له في ظل حكم المرابطين ، خاصة ، عندما تمّ لهم الاستلاء على الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري . ورغم ما اشتهر به حكام هذه الدولة من تفضيلهم للثقافة الدينية ، وتقديمهم لأهلها ، لما كانوا يولونه من أهمية قصوى للاصلاح الديني الذي كان يرتكز عليه حكمهم ، الا أنهم لم يقفوا ، أبدا ، حجر عثرة في سبيل انتشار العلوم الأخرى ، كما ادعى بعض الباحثين[2] .

فيكفي المرء أن يلقي نظرة عجلى على كتب التراجم المغربية والأندلسية التي ألفت في رجال القرنين : الخامس والسادس الهجريين ليدرك مدى ما وصلت اليه كل العلوم العقلية والنقلية من نضج في كل من المغرب والأندلس في ظل الحكم المرابطي .

---

(1) أنظر لسان الدين : المغرب العربي . ص : 97 — انظر أعمال الأعلام — ص : 191 .

(2) انظر عن هذا الموضوع : الوحدة المغربية الأندلسية وأثرها في الثقافة المغربية في عهد المرابطين . ص : 366 وما بعدها ، (اطروحة غير مطبوعة) .

فممن كان يضمهم بلاط المرابطين من مشاهير العلماء ، نذكر على سبيل المثال : أبا بكر محمد بن باجة المعروف بابن الصائغ ، الذى يعدّ بحق أحد جهابذة الفلاسفة ، والموسيقى في عصره ، الى جانب ما اشتهر به من تضلع في الأدب ، خاصة ، الموشحات ، وقد كان من كتاب المرابطين في الأندلس ثم استكتبه علي بن يوسف ابن تاشفين بمراكش . فهذا الفيلسوف الذى يفخر به عالم الفكر بما خلفه من آثار في الفلسفة والعلوم والآداب والموسيقى نشأ في البلاط المرابطي ، ولم تشهد الأندلس قبل ذلك فيلسوفا تمتع بنفس الحرية والاحترام اللذين توفرا لهذا الرجل . ولم تزدهر الفلسفة يوما بالأندلس ولا بالمغرب مثل ما فعلت في هذا العهد ، ففي هذا العهد أيضا نشأ ابن طفيل الذى ولد سنة 506 هـ . وتدرج في المناصب حتى أصبح الطبيب الخاص لأبي يوسف يعقوب المنصور ، وهو الذى قدم له الفيلسوف الناشيء ابن رشد الذى ولد سنة 526 ، وقد تتلمذ على أساتذة نشؤوا في العهد المرابطي .

ومن هؤلاء العلماء الفلاسفة الذى كان يضمهم البلاط مالك ابن وهب الاشبيلي الذى قال عنه المقرى : أنه كان من أهل الفلسفة ، وهو الذى ترأس جماعة العلماء الذين ناظروا المهدى بن تمرت منشيء الدولة الموحدية . بالاضافة الى أسرة بني زهر الذين تخصصوا في علم الطب والأدب والموسيقى ، وهم أبو مروان عبدالملك وابنه أبو العلاء ثم حفيده عبدالملك بن أبي العلاء .

هذا الى جانب ما كان يضمه من الأدباء والكتاب من أمثال : ابن القصيرة ، وابن الجد ، وأبي بكر بن عبدالعزيز ، وابن أبي الخصال ، وابن عبدون ، وابن الصيرفي ، ونحوهم كثيرون . وقد اشتهر من علماء وأدباء المغرب في هذا العصر ، العالم السبتي الشهير القاضي عياض الذى اعترف له كل علماء عصره بالتفوق ، والملجوم يوسف

بن عيسى الذى كان يجمع الى ثقافته الدينية ثقافة أدبية واسعة . وأبي الحسن علي الحصرى الشاعر (ابن خالة ابي اسحاق الحصرى صاحب زهر الأدب) . ومنهم الشاعر الفاسي ابن حبوس والأخويين الأديبين الناثرين : ابني عطية اللذين استكتبهما كل من المرابطين والموحدين .

وقد ازدهر الشعر ازدهارا كبيرا بالمغرب في هذا العهد بفضل هجرة كثيرة من شعراء الأندلس اليه ، وهذا بالرغم من أن الأمراء المرابطين الأوائل الذين عاشوا بالمغرب ، خاصة ، لم يكونوا يهشون للمديح كما كان يفعل ملوك الطوائف ، وذلك لا شك راجع لجديتهم ونفورهم من التزلف والتملق ، والاطراء ، غير أن ما اشتهروا به من تعفف وحسن سيرة واستقامة أبى الا أن يطلق السنة الشعراء بالمديح مشيدين بمواقفهم البطولية ، واصلاحاتهم الجذرية التي كرسوا كل حياتهم في سبيل تحقيقها .

ولم يقصر الشعراء مدائحهم على الحكام المرابطين وحدهم بل قصدوا بها القضاة ، أيضا ، والأعيان وذوى الجاه في كل أنحاء المغرب .

وقد جمع ولد القاضي عياض ما قيل في أبيه من مدائح فبلغ ما جمعه خمسة آلاف بيت لفحول الشعراء في ذلك العصر : كابن سارة وأبن بقي ، وابن جودى ، وابن الوزان ، وابن وهب وغيرهم.(1)

وكانت أسرة بني عشر في مدينة سلا منتجعا للشعراء الأندلسيين والمغاربة ، ومحط رجال الأدباء في العهد المرابطي ، يحج اليها أهل العلم والفضل ويقصدها الوافدون من أعلام الأندلسيين الى مراكش حاضرة المملكة يومئذ(2).

---

(1) ابن شريفة : اسرة بني عشرة : مجلة تطوان سنة 1965 ص : 214 .
(2) المصدر السابق ، صفحة 1983 .

فهذه هي الحياة الثقافية التي كانت تعيشها بلدان المغرب في هذا العهد بفضل من هاجر اليها من أعلام الأندلس وعلماء افريقية . الا أن الدولة المرابطية – كما نعلم – قامت من أجل تحقيق فكرة معينة هي انشاء دولة دينية على غرار دولة الخلفاء الراشدين ، فلا غرو اذن تتقمص روحها فتعطي الأهمية الأولى للثقافة الدينية كما كان يفعل السلف الصالح .

على أن الثقافة الأدبية والشعر بصفة خاصة يعدان شيئا كماليا بالنسبة لكل الدول التي تنشأ حديثا ، فلو استقرينا نشأة كل دولة في العالم لوجدنا أن اهتمامها بالأدبيات يأتي في المرحلة الثانية ، أي بعد أن تكون الدولة قد رسخت أقدامها وأرست دعائم المبادئ التي قامت من أجلها ، فليس عجيبا اذن اذا نحن لاحظنا بعض الانكماش في الثقافة الأدبية في أول عهد المرابطين ، على أن هذا الانكماش ، ان سلمنا بوجوده ، فهو لا ينطبق الا على الأندلس ، وفي السنوات الأولى للعهد المرابطي ، لأنها قد بلغت في ميدان الشعر حد الترف قبل ذلك ، أما المغرب فلم يعرف التخمة الأدبية التي عرفتها الأندلس .

وليس معنى هذا أن حواضر المغرب كانت خلوا من كل ثقافة أدبية ، بل قد أنجبت أعلاما ، كما رأينا ، تفوقوا في كل فنّ من فنون العربية ، وذلك بشهادة معاصريهم ولكنهم كانوا يهجرون البلاد ، اما الى الأندلس أو المشرق حيث امكانيات النبوغ والاستفادة أكثر توفرا ، وتلك آفة البلدان المتخلفة منذ القدم .

والحق أن الفصل بين الثقافتين الدينية والأدبية هو فصل شكلي لأنهما في واقع الأمر متداخلتين ومتلازمتين تعيش كل منهما في كنف الأخرى ، وان نحن لاحظنا رجحان أحداهما على الأخرى في عصر ما من العصور فهو تغلب وقتي لا يفتأ أن يزول بزوال أسبابه .
الا أن هذه الثقافة الأدبية التي سادت بلدان المغرب منذ نشأتها الى نهاية القرن الخامس ، وان نمت وتطورت من حيث الكمّ فقد بقيت من حيث الكيف

مشرقية في أغلب سماتها، كما لبثت محصورة في الحواضر الكبرى دون غيرها من المدن . والامر يبدو طبيعيا جدّا، اذا اعتبرنا كل الظروف والملابسات التي أحاطت بنشأة هذه الثقافة .

فقد رأينا كيف كانت بلدان المغرب في المرحلة الاولى من حياتها الاسلامية، تابعة للمشرق، معتمدة عليه، في كل ما يتصل بتسييرها السياسي، واستقرار أمنها، وتوجيهها الثقافي خاصة، حيث كانت تتلقى كل حكامها، وقادة جيشها، ومفقهيها من العواصم المشرقية، وقد دامت بعض هذه الحالات حتى بعد أن ضعفت أسباب الاتصال بين بلدان المغرب والحكومة المركزية، اثر نشأة بعض الدول المحلية بها، مع نهاية القرن الثاني الهجرى، اذ بقيت، رغم استقلالها، في مد وجزر تتأرجح بين حكومتي العباسيين بالمشرق والامويين بالاندلس، وهذا لضعف هذه الدول المغربية وحداثتها من ناحية، وخضوعها، خاصة، لاتجاهات مؤسسيها الاجانب من ناحية أخرى، اذ أن منشيء كل الدول المغربية التي ظهرت به قبل القرن الخامس الهجرى كانوا ينتمون الى أسر عربية نزحت من المشرق، كبني رستم، والادارسة، وبني الاغلب، والعبيديين . فمن الطبيعي اذن أن يبقى تأثير المشرق قويا وفعالا في كل مظاهر الحياة الاجتماعية المغربية خاصة في الميدان الثقافي .

ورغم ما نلمسه من رسوخ في اللغة العربية وتطور الثقافة في الحواضر المغربية الكبرى التي يحصر أغلبها في الشمال الا أن الاقاليم الجوفية والمناطق الصحراوية بقيت على بداوتها وبربريتها بعيدة عن كل تعريب ومعزولة عن أى تيار ثقافي، وهذا رغم اسلام أهلها، وخضوعهم للدول المغربية الاسلامية التي تعاقبت على هذه المناطق طوال القرون الاربعة الاولى التي سبقت المرابطين .

فقد ذكر ابن أبي زرع أن أغلب القبائل الصنهاجية التي كانت تقطن في جنوب المغرب بنواحي موريطانيا الحالية كانت جاهلة تماما ، ولا تكاد تعرف من الاسلام الا الشهادتين[1] ، وهذا ولاشك راجع لعدم معرفتها للغة العربية لعزلتها ، وعدم تمكنها من الاحتكاك بالعرب الذين كان لهم كل الفضل في تعريب مدن الشمال ، كما لاحظنا من خلال هذا الفصل .

2 — الهجرات الهلالية وأثرها في تعريب المناطق الداخلية .

ولعل أهم عامل ساعد على نشر اللغة العربية في هذه المناطق النائية ويسر تعميق الثقافة بكل بلدان المغرب حدثان وقعا في فترتين متقاربتين نسبيا .

يتمثل الحدث الأول في الهجرات الهلالية التي اجتاحت شمال افريقية اثر خروج الزيريين — امراء المهدية — عن طاعة الفاطميين حكام مصر الذين كانوا يدينون لهم بالولاء ، وهذا في منتصف القرن الخامس الهجرى . فقد كانت هذه القبائل البدوية معزولة في صعيد مصر لتوحشها ، فسلطها الفاطميون على افريقية لينتقموا من الزيريين ، من جهة ، ويبعدوا شرّ هؤلاء الأعراب عنهم من جهة أخرى .

ولقد أتت هذه القبائل العربية على كل معالم الحضارة في افريقية[2] . ولم تجن منهم بلدان المغرب الا اللغة العربية التي عملوا على نشرها في كل المناطق التي حلّوا بها[3] .

---

(1) ابن أبي زرع : القرطاس ، ص : 124 (ط . ع . بلمنصور) .
(2) الادريسي : وصف افريقية : ص : 89 — 90 .
ح . ح . عبدالوهاب : ورقات : ق . 3 . ص : 258 .
(3) Marçais (W) Comment l'Afrique du Nord a été arabisée. Annales de l'Institut d'études Orientales. T.IV. PP.42-43. Année 1938.

لقد كانت منازلهم التقليدية محصورة أول الأمر في منطقة افريقية التي اقتسموا كل أقاليمها فيما بينهم[1]، بعد أن هزموا المعز في عقر داره، وحصروا نفوذه في المناطق الساحلية المحيطة بعاصمة ملكه المهدية. وقد أقاموا هناك عدة امارات صغيرة تابعة لكبريات الأسر منهم كأسرة بني جامع التي أقامت امارتها بقابس وأسرة بني حبارة الذين أسسوا امارتهم بسوسة، وأسرة بني الرند التي استقرت في قفصة الى غير ذلك[2].

وبدأ الزحف الهلالي بعد ذلك يمتد شيئا فشيئا منتجعا مناطق النجود الممتد جنوبي دولة بني حماد تجاه المسيلة وبقية بلدان الزاب وعلى مناطق السهول التي كان يعمرها الزناتيون وكان من نتيجة ذلك أن تعربت كل هذه المناطق تعريبا كاملا.

وقد تطلع الهلاليون لبلاد المغرب الأقصى وحاولوا الزحف اليه الا أن المرابطين كانوا لهم بالمرصاد.

ورغم ذلك فقد استطاعت بعض القبائل العربية أن تتسرب الى الأندلس عبر المغرب في هذا العهد المبكر. فقد ثبت أنهم شاركوا المرابطين في ردّ الغزو المسيحي في الحملة التي قادها يوسف بن تاشفين سنة 490 هـ.[3]. كما شاركوا في وقعة اقليش سنة 501 هـ.[4] وشاركوا أيضا في الدفاع عن قلعة أيوب مع علي بن يوسف سنة 513.[5]

---

(1) ح.ح. عبدالوهاب: ورقات: ق. 3: ص: 260 ـ 261.

(2) المرجع السابق، ق: 3: ص: 261.

(3) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس. ص: 107. ت. أحمد مختار العبادي مدريد 1971.

(4) ابن القطان: نظم الجمان: ص: 9. (أنظر عن هذا الموضوع كلاًّ من: حسين مؤنس: (الثغر الأعلى الأندلسي في أيام المرابطين، مجلة كلية الآداب بالقاهرة، المجلد 11 ديسمبر 1949. ص: 129 ـ حاشية 2) وكذلك محمود مكي عند نشره لأحداث وقعةاقليش سنة 1108 م ـ 501 هـ. عن بلاء فرسان العرب في تلك الوقعة.

(5) السلاوي: الاستقصاء ج. 2. ص: 61 ـ ابن أبي زرع القرطاس. ص: 164.

وأول من أدخل الهلاليين الى المغرب الأقصى في العهد الموحدي هو عبدالمؤمن بن علي وذلك سنة 555 هـ . عند ما استولى على افريقية الزيرية وأزاح الهلاليين عن اماراتهم التي كونوها بها ، وقد اصطحب معه الى المغرب منهم ألف أسرة من كل قبيلة كرمائن ، حتى يضمن كف شغبهم ، ويتمكن من استغلالهم في حروبه بالأندلس ضد النصارى الأسبان . فقد كانت هذه الجموع من الكثرة حتى ضاق بهم الفضاء على حد تعبير ابن صاحب الصلاة[1] ، وكانت هذه القبائل تضم عربا من بني رباح وبني جشم ، وبني عدي[2] . أما بنو سليم فلم يتعرض لهم الموحدون حيث استقروا من أول يوم بنواحي طرابلس[3].

وقد تتابع الزحف الهلالي على المغرب في عهد كل من يوسف بن عبدالمؤمن ، ويعقوب المنصور بتشجيع منهما ، وقد أشار ابن خلدون الى الكتب التي كان يبعث بها المنصور الى رؤساء القبائل الهلالية ، وذكر القصائد التي كان ينظمها لهم شعراؤه يستحثونهم فيها ويستنهضون هممهم للجهاد في الأندلس .

وكان الموحدون يستغلون انتسابهم المزعوم الى قيس عيلان للتقرب من القبائل الهلالية . فينادونهم بأبناء العلم تذكيرا لهم بوشائج القربى التي تربطهم بهم ، فهذا ابن طفيل مثلا يقول في قصيدته المشهورة التي استنجد فيها بالقبائل العربية :

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن : ص: 136.
(2) المرجع السابق : ص: 136.
(3) السلاوى : الاستقصاء : ج.2. ص: 151.

أفرسان قيس بن هلال بن عامر / وما جمعت من ضاعن ومضارب
وقد جعل الله النبيء وآله / ومهديه منكم بلا عيب عائب
وفز تم بتخصيص الخليفة بعده / ونسبته الدنيا بز لفى الأقارب

كما نجد لابن عياش قصيدة أخرى في هذا المجال يستحث فيها العرب بقوله :

بني العم من عليا هلال بن عامر / وما جمعت من باسل وابن باسل (1)

وقد استجاب كثير من القبائل العربية لهذه النداءات فانتقلت الى بلدان المغرب على دفعات وانتشر في السهول التي كان يعمرها الزناتيون لتلاؤم طقسها مع طبيعتهم ، كما استقرت الجماعات التي هجرها يعقوب المنصور من افريقيا سنة 584 هـ.(2) لإعانتهم بني غانية للاستيلاء على قفصة، في كل من بلاد الهبط فيما يلي قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير الى أزغار البسيط الأفيح ، وبلاد تامسنا ، البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش(3).

وقد انظم الى هؤلاء العرب قبيلة معقل التي انتجعت صحراء المغرب وجاورت بني عامر من زغبة الهلاليين في منازلهم من قبلة تلمسان الى المحيط الأطلنطي وهم ثلاثة بطون حسب ابن خلدون(4).

— ذوي عبيد الله ، ومواطنهم بين تلمسان وتوريرت
— ذوي منصور وتمتد مواطنهم من توريرت الى بلاد درعة مرورا بملوية الى سجلماسة .
— وذوي حسان ، وهم الذين يقطنون بين درعة والبحر المحيط ، وينزل شيوخهم في بلاد نول ، ويشمل سلطانهم كل بلاد السوس الى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة(5).

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن : ص: 437 ـ 443 .
(2) ابن أبي زرع : القرطاس : 218 ـ السلاوي :الاستقصاء .ج . 2 .ص: 144 .
(3) الاستقصاء : ج . 2 . ص : 151 .
(4) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 118 .
(5) السلاوي : الاستقصاء : ج . 2 . ص : 159 .

والذى نسعى اليه من وراء كل هذا السرد التاريخي لانتشار هذه القبائل هو اظهار الجانب الايجابي لهذه الهجرات الهلالية التي عمت كل بلدان المغرب كما رأينا ، وابراز ما ساهمت به من نشر اللغة العربية في المناطق التي حلت بها حيث كانت لهجاتها قريبة جدا من اللغة العربية الفصحى ، وقد كملت بذلك نتائج المجهودات التي قام بها اسلافهم العرب الفاتحين الأول والذين جاءوا بعدهم . وهذه هي المرحلة الثالثة التي مرت بها عملية التعريب ببلدان المغرب في نظرنا والتي تجلت نتائجها خاصة في تعريب المناطق الداخلية والصحراوية .

ويتمثل الحدث الثاني الذى هو في نظرنا أهم كل العوامل الآنفة الذكر ، في الهجرات الأندلسية الى المغرب ، وما قام به المرابطون من توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية ، حيث سهلوا حركة التنقل ويسروا أسباب الاتصال بين القطرين وشجعوا ، خاصة ، هجرة العلماء الأندلسيين الى المغرب . وقد كانت بوادر حركة الاسترداد الاسبانية بدأت تلوح في الأفق خاصة بعد أن أطاح المرابطون بعروش ملوك الطوائف مما زاد في تقوية حركة الهجرة الأندلسية الى بلدان المغرب فالتقت بذلك الثقافة المشرقية التي حملها الأفارقة بعد تخرب القيروان ، والثقافة الأندلسية التي حملها هؤلاء المهاجرون الأندلسيون معهم فكان ذلك بمثابة النواة الأولى للثقافة المغربية التي نشأت في ظل المرابطين والموحدين فيما سنوضح ذلك بالتفصيل في الباب الثاني من هذه الرسالة .

ب — I — الأوضاع السياسية لبلدان المغرب في القرن السادس.

1) سقوط الدولة المرابطية
2) قيام الدولة الموحدية
3) ابن تومرت — الزعيم الروحي
4) انتشار الدعوة الموحدية
5) موقف المذهب المالكي منها
6) مآخذ ابن تومرت على المرابطين

II — توحيد المغرب الاسلامي على يد الموحدين.
— الدخل الموحدى بشبه الجزيرة الأيبيرية وموقف الأندلسيين منه .

— ب — الأوضاع السياسية لبلدان المغرب في القرن السادس .

— سقوط الدولة المرابطية

لم يعرف المغرب الاسلامي استقرارا سياسيا بمعنى الكلمة ، الا عندما جاء المرابطون في منتصف القرن الخامس الهجري . أما قبل ذلك ، فقد عاشت بلدانه حياة مليئة بالاضطرابات والفوضى ، نتيجة الجهل والتخلف . لاشك أن هناك فترات أمن واستقرار ، تخللت هذه القرون الطويلة . غير أنه كان أمنا غير شامل ، واستقرارا يشوبه كثير من الاضطراب .

حقا لقد عرفت افريقية (تونس) مثلا ؟ نوعا من الاستقرار في ظل الدولة الأغلبية ثم في عهد العبيديين ، وتحت حكم الزيريين أصحاب المهدية بعد ذلك . كما عرف المغرب الأوسط شيئا من هذا الاستقرار في عهد الرستميين والعهد الحمادي . ونعم المغرب الأقصى ، هو الآخر تحت الراية الادريسية بفترة أمن دامت مدة ، قبل مجيء بني أبي العافية ثم المغراويين واليفرانيين . لكن المتصفح لتاريخ هذه الدول التي تعاقبت على بلدان شمال افريقية قبل مجيء المرابطين يندهش لكثرة الحوادث والاضطرابات التي عاشتها هذه المنطقة آنذاك .

وكل هذه الفتن والقلاقل التي مني بها المغرب الاسلامي في ذلك العهد كانت ، في رأينا ، نتيجة الاهمال والفوضى اللذين أصيب بهما في العهد الاسلامي الأول . وذلك لأنه :

1) لم يحظ بالاهتمام اللازم من طرف الخلفاء ، لبعده عن مقرّ السلطة المركزية بالمشرق . وقد بقي المغربان : الأوسط والأقصى ، خاصة طوال تلك الفترة عبارة عن جسر يربط "القيروان" التي كانت المقر الرسمي للوالي — ممثل الخليفة — والأندلس التي استقطبت اهتمام كل الولاة ، والنازحين من المشرق ، على اختلاف طبقاتهم ، سواء ، أكانوا علماء ، أم جنودا ، أم تجارا . وذلك لما كانت تشتهر به من خصب ورفاهية وغنى . فقد كان توسط بلدان المغرب هذه إذن ، بين قرطبة والقيروان — مناري العلم آنذاك — هو الذى قضى عليه حضاريا وجعله منطقة تكاد تكون منسيّة تماما . اللهم الا بعض أطرافه الساحلية التي شاء لها القدر أن تكون المنافذ الوحيدة نحو الأندلس ، "كسبتة" و "طنجة" وبعض المناطق من "بلاد النكور" .

2) وقد ساعد على هذا الاهمال الذى أصيب به المغرب من طرف الخلفاء ، انشغال الولاة والحكام المباشرين الموفدين من طرف الخليفة ، عن أمور الرعية ، بالعصبيات القبلية التي تأججت نارها آنذاك بالمشرق ، وسرت عدواها الى المغرب مع العرب الفاتحين . وقد ألهاهم ذلك عن أداء رسالتهم الحضارية كما يجب ، نحو هذه المنطقة الحديثة عهد بالاسلام . كما أساء بعض الولاة التصرف مع شعوب المنطقة نتيجة سوء فهم نفسياتهم ، فامتهنوهم وأذلوا رؤساءهم ، رغم اعتناقهم للاسلام[1] فكان من نتيجة ذلك أن ثاروا عليهم ، وكفروا بكل القيم ، حتى ان كثيرا من القبائل البربرية ارتدت عدة مرات قبل أن يحسن اسلامها[2] .

3) ونتيجة لهذا البعد الذى كان يفصل بين الحكومة المركزية بالمشرق وبلدان المغرب ، ونتيجة لذلك الاهمال الذى اتصف به أغلبية الحكام

---

(1) راجع فتح المغرب عند ابن عذارى : البيان : ج . 1 . ص : 23 — 49 .

(2) ابن خلدون : العبر — ج . 6 . ص : 220 .

المحليين آنذاك ، وجدت كثير من النزعات المذهبية — كالخوارج والشيعة — التي اضطهدت بالمشرق ، مجالا لائقا لنموها . فترعرعت ، واستفحل أمرها ، فزادت في انشقاق المغاربة ، وتفكيك أو صرهم أكثر مما كانوا عليه .

4) ضف الى كل هذا وذاك ، ماكانت تسببه العصبيات القبلية من حروب طاحنة بين " البتر " و " البرانس" منذ الأزل . وقد تجلت هذه الحروب في العهد الاسلامي ، خاصة ، بين الصنهاجيين والزناتيين . وكان المفروض أن يخفف الاسلام من حدّة هذا التوتر غير أن الاحن ، والعداوات ، كانت فيما يبدو أعمق بكثير من الجهود التي بذلها الولاة الاول لمحو الفوارق الطبقية ، ونشر المواخاة بين القبائل التي كانت مبدأ من المبادئ الرئيسية التي جاء بها الاسلام .

وكان من نتيجة كل هذا الذى ذكرناه آنفا ، أن تعودت بلدان المغرب على عدم الرضوخ لسلطة واحدة . فبقيت طوال هذه المدة التي سبقت المرابطين تعيش في شبه نظام قبلي حتى في الوقت الذى تكونت فيه بعض الدويلات المحلية . لذلك كانت بلدانهم دائما ، منطقة نزاع بين المشرق من جهة ، والأندلس من جهة أخرى . تدين بالطاعة للشيعيين اذا ما زحفوا عليها من المشرق ، وتميل لأمويي الأندلس اذا ما انسلخوا عنها .

فعندما جاء المرابطون ، اذن ، وجدوا المغرب تحكمه قبائل متنافرة ، متحاربة ، فالصنهاجيون ، أصحاب " المهدية " ، ضد الصنهاجيين أصحاب " القلعة " . وهم أبناء عمومة كما نعلم . وهؤلاء ضد الزناتيين أصحاب " فاس " ، ومغراويو " فاس " ضد يفرانيي " سلا " وبرزليبي "درعة" وهم كلهم زناتيون . وباقي بلدان المغرب تحكمها نزعات مذهبية من خارجية وروافض ، وزعامات فردية كماكان الحال بالنسبة لبرغواطة

أصحاب صالح بن طريف الذى تنبأ في قومه وشرع لهم الشرائع . أما المناطق الصحراوية الضاربة في الجنوب ، فقد كان أهلها على بدائيتهم كثير منهم على دين المجوسية ، وأغلب مسلميهم ، لا يعرفون من الاسلام سوى الشهادتين .

تلك هي الأوضاع التي سادت بلدان المغرب في القرون الأربعة الأولى . فلا أظنني مبالغا اذا ما اعتبرت نهضة المغرب الكبير تأتي مع بروز الدولة المرابطية في منتصف القرن الخامس الهجرى . وقد كان الفضل في بعث هذه النهضة يرجع الى رجلين اثنين : زعيم روحي وهو عبدالله بن ياسين . وقائد عسكرى وهو يوسف بن تاشفين .

لقد استطاع ابن ياسين بفضل حنكته أن يلم شتات هذه الشعوب ، وأن يؤلف بين قلوبها رغم ما زرعته فيها الفتن من أحقاد وإحن ، بفضل خطته الاصلاحية الدينية التي جاء بها .

ولم يكن ذلك في الواقع بالشيء السهل على ابن ياسين . فقد عانى الأمرين للبلوغ الى غايته ، حتى كاد ييأس . غير أن حدة عزمه ، جعلته يتغلب على كل الصعوبات التي اعترضت سبيله ، بالدعوة السلمية والوعظ الديني أول الأمر . ثم بالقوة والسلاح بعد ذلك .

وكان الفضل في انجاح هذه المرحلة الثانية يرجع ، خاصة ، للقائد العسكرى يوسف بن تاشفين ، حيث استطاع هذا الرجل ، بما أوتي من مواهب ، لا فقط ، أن يؤلف بين جزئي المغرب : الأوسط والأقصى . رغم ما بين قبائلها من تناحر ، ولكن أن يضم اليهما كل الأندلس الاسلامية التي ابتدأت تتقلص رقعتها . وكاد يأفل لجمها لولا تداركه لها . والذى يستدعي الاعجاب في نشأة هذه الدولة ، هو سرعة بروزها وازدهارها . والذى يستدعي التعجب أكثر ، هو سرعة تدهورها

وانطفائهـا . فالدولة المرابطيـة — في الواقع — لم تكن شيئا مذكـورا قبل ابن تاشفين . لقد شهـد مولدها ، كهلا ، فنشـأت في ظلـه ، وترعرعـت ، وبلغت أوج قمـة ازدهارها وهو لا يزال حيا . وهذا كلـه في ظرف نصـف قرن . ولا يعد ذلك بشيء في عمـر الدول ، وسير الزمان . وما أن انتقلـت الخلافة الى ولده علي بن يوسف ، حتى رأينا بوادر التفكك والانحلال تظهـر في أطراف الدولة ، ولم تمض بضع سنوات حتى بدأت الدولة تتداعى للسقوط . فما السـرّ في سرعة هذا الانطفاء والدولة لا تزال في عنفوان شبابها ؟ !

يرجع الباحثون ذلك لأسباب أهمها :

1) ضعف شخصية علي بن يوسف . والواقع ، أن هذا الخليفة ، رغم ما كان يتمتـع به من صلاح وزهـد وتقوى ، الا أنه ساهم بنصيب وافـر في القضاء على الدولة بمواقفه السلبيـة التي أثـرت عنـه ، خاصة ، في النصف الثاني من مدة حكمـه .

لقد حاول علي في سنواتـه الأولى أن يقتدي بأبيه في طريقـة الحكـم . وكانت تحدوه رغبـة صادقـة في المحافظة على هيبة الدولـة داخل المغرب وخارجـه . وقد استطاع بالفعل أن يحقق أعمالا جليلـة ، في المجالين : العسكري والحضاري ، فاقتفى أثر أبيـه وسلك سبيلـه في عضد الحق ، وانصاف المظلوم وتأمين الخائف ، وقمع المظالم ، وسدّ الثغـور ، ونكيد العدو ، فلم يعـدم التوفيق في أعمالـه ، والتسديد في حسن أفعاله .[1]

غير أن هذا العزم سرعان ما خبت شعلته في قلب علي ، وحلّت محلّه موجة زهد جارف ، صدّته عن كل ما سوى العبادة ، والتبتـل ، فانقطـع لهما . وجعلت أزمّة الأمور تتفلت من بين يديه ، شيئا فشيئا . الى أن فقـد السيطرة على الحكم تماما . فكان من نتيجة ذلك أن تجرأ كثيـر من ذوي الاطماع من أبناء العائلة المالكة على الظهور على مسرح السياسة ، والكل يدعي أنه أقدر من الأمير ، وأحق منه بتسيير أمور الدولة[2] .

---

(1) ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص : 253 .
ابن أبي زرع : القرطاس ، ص : 151 .

(2) المراكشي : المعجب ، ص : 241 .

وزاد من تعفن الوضع تدخل كثير من النساء المرابطيات في الشؤون السياسية للدولة . وذلك بتسلطهن على الحكام ومحاولة استغلال مناصبهم لأغراضهن الشخصية ، وقد كوّن الكثير منهن شبه عصابات تشتمل على كل مفسد وشرير وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور (1).

2) أما السبب الثاني الذي عجل بتقويض الدولة المرابطية ، فهو قصور كثير من القادة والولاة بالأندلس عن مستوى مسؤولياتهم ، وذلك لعدم خبرتهم الادارية ، وقد أدى بهم هذا القصور ، وقلة التجربة ، مع ما اشتهر به كثير منهم من الغلظة والفضاضة ، الى اثارة الرعية بالأندلس ضدهم .

وقد تجلى هذا السخط ، أول ما ظهر ، في الثورة التي قامت بقرطبة سنة 514 هـ. ضد واليها الأمير أبي بكر يحي بن رواد ، وذلك عندما حاول بعض أتباعه أن يتعدّى على امرأة ، فاستغاثت ، فأغاثها الناس بتأديب المتعدى . فتدخل المرابطون لحمايته . فاشتعلت الفتنة بينهم وبين الأهالي ، انتهت بحرق جميع دور المرابطين ، ونهبت أموالهم . و " اخرجوهم من البلد على أقبح صورة "(2).

ولم تكن هذه الثورة ، في الواقع ، الا تعبيرا صارخا لما يكنّه الأندلسيون من سخط ، وحفيظة للحكم المرابطي . ومحاولة للتحرر والاستقلال .

وذلك ما فهمه علي بن يوسف ، عند ما سمع بالحادث . ولأجل ذلك عجل بالجواز الى الأندلس ، وفي نيته تأديب المتمردين حسب رواية ابن الأثير (3).

وقد حاول القاضي ابن رشد (الجد) الذى استمات في الدفاع عن مواطنيه أمام علي بن يوسف أن يبرئ ساحة القرطبيين من كل ما يوحي بالعصيان

(1) المراكشي : المعجب ، ص : 241 .
(2) ابن الأثير : الكامل ـ ج . 1 ، ص : 558 ، دار صادر بيروت 1966 .
ـ انظر كذلك الحلل الموشية : ص : 86 ، الرباط 1936 . تت. علوش.
(3) المرجع السابق .

أو خلع الطاعة . وانهم لم يقوموا بما فعلوه الا ذبّا عن الحرم والدماء والأموال . واستمالة بتذكيره بوصية أبيه في حق القرطبيين وهي : أن يقبل من أحسن منهم ، ويتجاوز عن مسيئهم . ثم ترضاه بفرض غرامة على القرطبيين تعوض المرابطين ما فقدوه من أموال في هذه الفتنة[1]. فقد كانت هذه الحادثة بمثابة الشظية التي الهبت شعلة السخط في بقية أنحاء الأندلس ضد المرابطين بعد ذلك .

3) وكان تزمت فقهاء البلاط المالكي وتحجرهم على الأفكار والعقائد، واقتصارهم على علم الفروع ، ومحاربتهم لكل ما سواها ، من أهم الأسباب التي ساهمت في اثارة الرأي العام ضدّ الدولة المرابطية التي نصبت نفسها من أول نشأتها لحماية هؤلاء الفقهاء "حتى أنه لم يكن يقرب من أمير المسلمين (علي بن يوسف) ويحظى عنده الا من عَلِمَ علمَ الفروع، أعني فروع مذهب مالك"[2].

وقد ازدادت طبقة الفقهاء طغيانا بهذه الحظوة التي نالتها في عهد علي بن يوسف، حتى أنهم تسلطوا على الخليفة نفسه ، الذى انصاع لقيادتهم ، وأصبح لا يصدع الا عن أوامرهم في كل صغيرة وكبيرة [3]. وكان أبوه يوسف قبل ذلك يقف عند حدّ استشارتهم ، ويحتفظ لنفسه بحق النقض والابرام .

---

(1) الحلل الموشية ، ص : 86 ـ 87 .
(2) المراكشي : المعجب، ص : 236 .
(3) وصف المراكشي الحظوة التي نالها الفقهاء في بلاط علي بن يوسف والنفوذ الذى وصلوا اليه بقوله : " وكان لا يقطع (علي بن يوسف) أمرا في جميع مملكته ، دون مشورة الفقهاء . وكان اذا ولّى أحدا من قضاته ، كان فيما يعهد اليه ، ألا يقطع أمرا ولا يبت حكومة ، في صغير من الأمور ولا كبير ، الا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور الناس راجعة اليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس اليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم . . . . " انظر المعجب ، ص : 235 .

ومما يلفت النظر أن الذين قادوا الثورة ضد الحكم المرابطي بالأندلس خاصة ، كانوا كلهم فقهاء ، وقضاة ، وأدباء متفقهين ومنتحلين لبعض المذاهب الصوفية . يعني بعبارة أوضح ، تلك الطبقة المحظوظة التي كانت تتمتع بكل الامتيازات . ولا شك ان الذي جرأهم على كفر النعمة ، وخلع الطاعة هو ماكانوا يتمتعون به من سلطة ونفوذ مكنهم منهما علي بن يوسف نفسه .

ففي " قرطبة " ، مثلا ، كان الذي تزعم الثورة بها ضد المرابطين قاضيها أبو جعفر بن حمدين[1] وفي غرناطة كان القاضي ابا الحسن علي بن أضحى[2] وفي مالقة كان قاضيها ابن حسون[3]. وفي بلنسية كان قاضيها مروان بن عبد العزيز[4]. وفي مرسية كان القاضي ابو جعفر الخشني[5].

هذا في شرق الأندلس ووسطها . أما في غربها فكان الذين تزعموا ثورة المريدين المشهورة هم أيضا من الطبقة المتفقهة .

---

(1) هو : حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي ، ترجم له الضبي في البغية رقم 385 كما ترجم له ابن الأبار في التكملة رقم 119.
أنظر كذلك : يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص : 209 .

(2) علي بن عمر بن محمد بن مشرف بن أحمد بن أضحى ولد بالمرية سنة 492 وثار بها سنة 539 ضد أميرها علي بن أبي بكر المعروف "بابن قنو" بدعوة من ابن حمد بن قاضي قرطبة : أنظر تفاصيل ذلك عند ابن الأبار في " الحلة " ، ج . 2 . ص : 211 ـ 217 ، ت . حسين مؤنس بالقاهرة : 1964 .

(3) **أنظر ترجمته لدى ابن الأبار : في الحلة : ج . 2 . ص : 218 وما بعدها .**

(4) هو مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد ـ انظر تفاصيل ثورته عند ابن الأبار في الحلة السيراء ، ج . 2 . ص : 218 ـ 226 .

(5) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الخشني . ترجم له ابن الأبار في التكملة رقم 1285 ، وذكر قصة ثورته بمرسية ضد المرابطين في الحلة السيراء ، ج . 2 . ص : 228 وما بعدها .

فابن قسي أحمد بن الحسين تلميذ أبي العباس بن العريف[1]. هو أول من ثار في الأندلس عند اختلال الدولة المرابطية . وكان من الشعراء المجيدين ، ثم عكف على الوعظ والارشاد الى أن كثر أتباعه ، فادعي "الهداية". فطلب ليقتص منه ، فاختفى ، ثم تاب بعد ذلك ، ودخل في طاعة الموحدين سنة 540 هـ.[2]

ومنهم ابن المنذر محمد بن عمر ، من شعراء شلب واعيانها ، تزهد أول أمره وتصدق بجميع ماله ، ثم لازم ابن قسي في ثورته على الملثمين[3]. ومنهم أبو بكر محمد بن ابراهيم بن المنخل . كان شاعرا أيضا من أهل شلب[4]. فلئن دلّ هذا على شيء فانما يدل على ماكان يطوى عليه هؤلاء الفقهاء من نوايا فاسدة ، وأطماع دنيوية محضة . فكل التحركات التي كانوا يقومون بها باسم المحافظة على الدين كانت مشبوهة ، بدافع مصلحي فهم لم يقفوا ضد الغزالي إلّا لأنه طعن في بضاعتهم التي كانوا يسترزقون بها وهي " علم الفروع "[5].

وهم لم يقفوا ضد علم الكلام ، بدعوى[6] أنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثرهم الى اختلال في العقائد " الا لأنهم خافوا من منافسة أهل الكلام لهم . وهم لا يقوون على الوقوف أمامهم لجهلهم لهذه العلوم النظرية .

---

(1) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله بن العريف الصنهاجي . أصل أبيه من طنجة ، وسمي بالعريف لأنه كان صاحب حرس الليل ، وقد ولد أبو العباس بالميرية ونشأ بها ، ونبغ في العلوم الشرعية والأدبية ، ولكنه مال الى التصوف وطريق الزهد . وكانت الميرية آنذاك مركز الصوفية بالأندلس . فأنشأ له طريقة ، والتفت حوله طبقة كبيرة من المريدين ، انزعج لها البلاط المرابطي ، فاستدعى أبا العباس مع صاحبيه : ابي بكر محمد بن الحسين الميورقي ، وابي الحكم بن برجان ثم أطلق سراحهم .

(2) انظر تفاصيل ثورته عند ابن الأبار : الحلة . ج . 2 . ص : 197 ـ 202 . ـ انظر كذلك يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس ص : 206 .

(3) انظر تفاصيل ثورته لدى ابن الأبار ، في الحلة ، ج . 2 . ص : 202 ـ 211 .

(4) انظر عن ثورة المريدين : حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، بحث نشرة في مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية سنة 1955 ـ ص : 97 ـ 140 .

(5) انظر المراكشي : المعجب ، ص : 236 ـ 237 .

(6) نفس المصدر .

وهم لم يقفوا ضد أبي العباس ابن العريف ومريديه ، ويشنعوا عليه ذلك التشنيع الذى أجبر الخليفة على استدعائه من المرية الى مراكش لاستفساره ، إلا لأنهم توجسوا خيفة من طريقته على مراكزهم في البلاط ، ولدى العامة .

لقد كان هذا التعصب المذهبي الذى فرضه هؤلاء الفقهاء على الدولة المرابطية ، والذى تجلّى في كبت كل الحركات الفكرية وتعطيلها ، اما باحراق الانتاج ، أو تكفير المنتج ، من أهم العوامل التي عجلت بتقويض الصرح المرابطي . حيث أن كثيرا من أحرار الفكر في المغرب والأندلس ، كانوا يعانون من قوة هذا الضغط ، ويترقبون زواله بفارغ صبر . وقد رأوا في الدعوة الموحدية — رغم عدم ايمانهم بكل ما جاء فيها — متنفسا ، وفكّا للقيود التي فرضها عليهم الفقهاء المرابطون .

والفقهاء الذين نقصدهم بكلامنا هذا هم فقهاء البلاط المرابطي أي أولائك الذين أسندت لهم وظائف رسمية في الدولة يتقاضون عليها مقابلا . فهؤلاء كانوا ، في واقع الأمر ، سياسيين بحكم تلك المراكز التي كانوا يشغلونها ، وما كانت تخوله لهم من سلطة ، فقد كانوا بمثابة رجال القانون الذين أسندت لهم مهام ادارية عليا في الدولة .

فلا غرو اذن ، أن نجد منهم كل هذه الاستماتة في سبيل ما يسمونه بالدفاع عن الدين ، وهو في واقع الأمر ليس الا مظهرا من مظاهر ما يسمى " بالتنازع على البقاء " .

ومقابل هذه الطبقة من الفقهاء السياسيين ، كانت توجد طبقة أخرى من الفقهاء ، لم يتخذ أفرادها فقههم مطية الى المناصب الحكومية ولكنهم تجردوا من كل المصالح الدنيوية في سبيل العلم ، وهذا ما يفسر انتشار بعض العلوم النظرية التي كانت تدرس في كثير من جوامع بلدان المغرب كما سنوضح ذلك في حينه .

4) وكانت دعوة ابن تمرت الضربة القاصمة التي قوضت أركان الدولة المرابطية ، بعد أن استنزفتها الحروب الاسبانية المتوالية ، خاصة ، في هذه الفترة التي جاء فيها علي بن يوسف ، فقد عدّ المؤرخون الجيوش التي جهزتها الدولة المرابطية في الفترة ما بين 503 و 515 وحدها فكانت تنيف على العشرة[1] ، وقد حصدت هذه الحروب خيرة قادة لمتونة ومسوفة من أمثال : الأمير سير بن أبي بكر 507 ، ومحمد بن الحاج 508 وأبي بكر بن ابراهيم بن تيفلوت 510 أو 511 ، ومحمد بن فاطمة 510. وعبدالله بن مزدلي 512.[2]

وقد علق ابن عذارى على هذه الحوادث التي أصابت المرابطين بالأندلس خاصة في وقعة "قتندة" التي جرت احداثها سنة 514 هـ . بقوله : " ومات من الأمراء نحو الثمانين من وجوه المرابطين ، وجملة كبيرة من الحشم وأهل الأندلس"[3].

ورغم كل هذا ، لم يكن لابن تمرت أن يدرك ما أدرك ، لو أن عليا قابله بما يليق من الحزم والشدة، يوم أن استقبله وجمع له العلماء لمناقشته . فقد كان الموقف يستدعي الجدّ والصرامة ، لا اللين والدموع ! ...

زيادة على أن التهم التي وجهها له ابن تمرت – ان صحت – لم يكد يخلو منها مجتمع اسلامي ما . وابن تمرت نفسه يعرف هذا حق المعرفة ، والدليل على ذلك ما حكاه المؤرخون عمّا تعرض له من الأذى منذ أن ابتدأ حملة " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بكل البلدان التي مرّ بها ، وهو في طريق العودة الى المغرب . مما يدلك على انتشار الموبقات في كثير من البلدان الاسلامية الأخرى .

---

(1) انظر في هذا الموضوع بحث حسين مؤنس تحت عنوان : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين . مجلة كلية الآداب القاهرية – م – 11 – ج . 2 . ص : 106 وما يليها ، ديسمبر 1949.

(2) ابن أبي زرع القرطاس : ص : 162 – 164.

(3) ابن عذارى : البيان : ج . 4 . ص : 61 ، وقال ابن القطان مات في هذه الواقعة نحو عشرين الف : نظم الجمان ، ص : 19.

لكن الذى كان يسعى اليه ابن تمرت من وراء كل هذا الشغب هو التشنيع على الملثمين وتشكيك الأمة في صلاحية حكمهم . وقد استغل العاطفة الدينية للوصول الى غايته من أقرب السبل وأسلمها ، كما سنوضح هذا بالتفصيل عند كلامنا عن نشأة الدولة الموحدية .

(5) ومن أهم الأسباب التي ساهمت في تقويض الدولة المرابطية تلك المنافسات التي لم تكد تخبو نارها بين المصامدة والصنهاجيين منذ القدم . وقد أشار ابن خلدون عند كلامه عن المصامد لذلك بقوله : " وكان منهم (أي المصامدة) قبل الاسلام ملوك وأمراء ، ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم . حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكان لهم دولة عظيمة ادالت من لمتونة بالعدوتين ومن صنهاجة بافريقية ، حسبما هو مشهور "(1).

وقد كان المرابطون يقرؤن حساب قوة المصامدة ولذلك اختط اميرهم يوسف بن تاشفين قاعدة ملكه بمراكش ، على مقربة من منازلهم ، ليسهل عليه مراقبتهم عن كثب .

وقد كانت أولى وصاياه لابنه علي هي : الاّ يهيج أهل جبال درن ومَنْ مِنْ ورائه من المصامدة وأهل القبلة ".

والوصية الثانية " أن يهادن بني هود بالأندلس ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم " .

أما الثالثة " فان يقبل من محسن أهل قرطبة ، ويتجاوز عن مسيئهم(2)" وكأني بيوسف بن تاشفين قد حدد بهذه الوصايا الثلاث مناطق الخطر التي يمكن أن تساهم في القضاء على دولته يوما ما . وقد تجلى بُعْدُ نظره فيما بعد ، وصحت الأحداث ماكان يتوقعه . اذ ما كاد يستولي المرابطون سنة 503 على سرقسطة مملكة بني هود التي كانت تقف سدّا منيعا بينهم وبين النصارى في الشمال ، حتى تعاونت عليهم جيوش مملكة

---

(1) ابن خلدون : العبر ، ج . 6 . ص : 463 .
(2) الحلل الموشية ، ص : 82 — 83 .

أرجون من الشرق ، ومملكة قشتالة من الغرب فاستردت منهم سرقسطة ، وابتدأت تستولى على قواعد المسلمين تباعا . فكان ذلك بداية نهاية المرابطين في الأندلس(1).

كما كانت ثورة مصامدة جبال درن بداية نهايتهم بالمغرب . وقد تزعمت قرطبة — التي أمر يوسف بالتسامح مع أهلها — حركة التمرد ضدهم كما بينا ذلك من قبل .

وكانت كل هذه الأحداث التي توالت على المرابطين بالأندلس والمغرب ، وما ترتب عنها من تجهيز الجيوش الجرارة لقمع الثورات ، قد تسببت في نقص المؤن والذخائر وصادف ذلك جَدْبٌ أصاب البلاد سنوات متصلة فزاد في شدة الأزمة الاقتصادية (2) ، وقد صور صاحب الحلل هذا الاختلال الذى أصاب دولة علي بن يوسف بعد ظهور المهدى بقوله " وتأججت نار الفتنة بالمغرب واصطلى بحرها طلاب العافية ورضيها كل من ذهب الى الفساد . وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحروب وغلت الأسعار ، وتوالت الفتن وعم الجدب ، وقلت المجابي وكثر على أهل الاسلام المحن بالعدوتين ، ووجه كثير من حماة الأندلس الى العدوة ونقل اليها كثير من أسلحتها ، وعددها ، فكان ذلك من أعظم فساد حلّ بالأندلس ، واختل أمرها عليهم ، والحّ النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الامارة بالمغرب عن الدفاع لما هم فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها . . . "(3)

أما ابن خلدون فقد وصف الحالة بالمغرب بعد أن فشل تاشفين في القضاء على ثورة الموحدين بقوله : " واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب ، وامتنعت الرعايا من المغرم والح الطاغية على المسلمين بالعدوة "(4).

---

(1) انظر تفاصيل ذلك عند عنان ، في عصر المرابطين والموحدين ص : 86 ومابعدها .
(2) ابن عذارى : البيان . ج . 3 . ص : 12 — 13 .
(3) الحلل الموشية ، ص : 119 — 120 .
(4) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 474 .

وزاد الطين بلة ، ما ظهر من اختلال في وحدة صف المرابطين ، حيث انقسموا على أنفسهم بعد ولاية تاشفين بن علي سنة 537 . وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله : " وجدت بعد موت ابيه (يعنى تاشفين) فتنة بين لمتونة ومسوفة ففزع أمراء مسوفة مثل : براز بن محمد ويحي بن تاكفت ، ويحي بن اسحاق المعروف بإِنَكَمَار ، وكان والي تلمسان . ولحقوا بعبد المؤمن فيمن اليهم من الجملة ، ودخلوا في دعوته ... "(1) كما انشقت عنه بعض قبائل زناتة منهم " بنو ومانو " . تلك هي الأوضاع السياسية التي كان عليها المغرب في أواخر الدولة المرابطية في منتصف القرن السادس .(2)

١ – قيام الدولة الموحدية بالمغرب :

يلاحظ الدارس لتاريخ المرابطين والموحدين أوجه شبه كثيرة تربط بين الدولتين من حيث النشأة : فقد كان الموقع الذى نشأت فيه كل منهما واحد ، حيث قامت الدولة المرابطية في جنوب المغرب الأقصى ، وتأسست الدولة الموحدية بنفس المنطقة تقريبا .

وكانت المساحة التي بسط عليها المرابطون حكمهم في كل من المغرب والأندلس ، هي نفسها التي استولى عليها الموحدون بعد ذلك مضيفين اليها بقية المغرب الأوسط وافريقية .

وحتى الجنسية التي ينتمي اليها المرابطون هي نفسها التي ينتسب اليها الموحدون ، فكلا الفريقين من البربر وكلا هما ينتميان الى البرانس أصل الأمازيغ سكان بلدان المغرب القدماء .

(1) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 474 .
(2) عبدالله عنان : عصر المرابطين ، ص : 245 .

وكانت المبادئ التي ارتكزت عليها كل من الدولتين عند النشأة واحدة ، حيث اعتمدت كل منهما على فكرة الاصلاح الديني أولا ثم السياسي بعد ذلك .

وكما كان الفضل في نشأة الدولة المرابطية يرجع أساسا الى زعيميها : الروحي ثم العسكرى ، ابن ياسين وابن تاشفين ، كان الفضل في نشأة الدولة الموحدية وتركيز دعائمها يرجع أولا وبالذات الى رجلين من رجالاتها ، وهما : ابن تمرت رائدها الروحي ، وعبد المؤمن بن علي زعيمها العسكرى .

وما دمنا سنتكلم عن الحياة الفكرية في العهد الموحدى بصفة عامة فلا بد لنا من بسط القول في هذين الزعيمين اللذين طبعا الثقافة الموحدية بطابعهما الخاص وحرراها من التحجر الذى أصاب بعض فروعها في العهد المرابطي واستطاعا أن يلمّا شتات كل بلدان المغرب الاسلامي وما تبقى من شبه الجزيرة الأيبيرية تحت راية واحدة . وهذا لنتصور بوضوح التطورات الثقافية التي طرأت على بلدان المغرب في هذه الآونة نتيجة انتقال الحكم ، ولنفهم بسهولة التيارات الفكرية والعقائدية التي واكبت نشأة هذه الدولة والتي عمل مؤسسها الروحي خاصة على غرسها في الطبقات الشعبية وفي نفوس الناشئة في كل من العدوتين ، ومدى تجاوب الطبقات المثقفة معها .

1 — ابن تمرت :

تضاربت أقوال المؤرخين في نسب ابن تمرت تضاربا كبيرا . فبينما نجد بعضهم يرجعه الى أصل عربي ويصعد بنسبه الى الحسن بن علي ابن أبي طالب ، نجد البعض الآخر يذكر له نسبا بربريا يغاير النسب الأول تمام المغايرة ويشكك فيه .

فعبد الواحد المراكشي يقول عنه : " ومحمد هذا من أهل السوس ومولده بها بضيعة منها تعرف " بإِجِّلي أَنْ وَارْغَنْ " وهو من

قبيلة تسمى " هرغة " ، من قوم يعرفون " بإِسَرْغِينَّنْ " ، وهم الشرفاء بلسان المصامدة ، ولمحمد بن تمرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وجدت بخطه "(1).

أما ابن خلكان فقد ذكره في الوفيات ، نقلا عن كتاب النسب للشريف العابد بقوله : " هو محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحي بن عطاء بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب "(2).

وقد أورد له ابن أبي زرع نفس النسب غير أنه أردف ذلك بقوله : "وقيل هو دعيّ في ذلك النسب الشريف، ثم قال : " ذكره ابن مطروح القيسي في تاريخه وقال : هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة، يعرف بمحمد بن تمرت الهرغي وقيل هو من جنفيسة والله أعلم بذلك كله "(3).

ويوافق صاحب الحلل كلّا من ابن خلكان وابن أبي زرع في شجرة النسب الا أنه يشير الى أن هذا قد " أثبته أبو علي بن رشيف في شجرة نسب الخلفاء والأمراء وحققه ابن القطان "(4).

لكن ابن خلدون يقول عنه : " هو محمد بن عبدالله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكره ابن رشيق وحققه ابن القطان "(5) وهذا مغاير تماما لرواية صاحب الحلل .

---

(1) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص : 245 .
— انظر كذلك أبا بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق : أخبار المهدى بن تمرت ص : 21 . ت. ليفي بروفنسال .
(2) ابن خلكان : الوفيات : ج . 5 . ص : 46 .
(3) ابن أبي زرع : روض القرطاس . ص : 172 . ت. عبدالوهاب بلمنصور .
(4) الحلل الموشية : ص : 103 . الدار البيضاء .
(5) ابن خلدون : العبر . ج . 6 . ص : 464 .

ثم يذكر ابن خلدون رواية ثانية عن بعض مؤرخي المغرب في نسب ابن تمرت ، فيقول : " انه محمد بن تمرت بن تيطاويسن بن سافلا بن مسيغون بن اكليديس بن خالد "(1).

وأخيرا ، يورد رواية ثالثة غير أنها محمولة على محمل الزعم فيقول : " وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت ، وأنه محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي ادريس الاكبر الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامدة وأهل السوس "(2).

فتعدد هذه الروايات مع تناقضها يدل دلالة واضحة على أن النسب الذي ذكر له في آل البيت نسب موضوع من غير شك . ولا يبعد أن يكون الذي وضع هذه السلسلة المزعومة هو ابن تمرت نفسه . فما دام قد ادعى الهداية ، والمعروف عن المهدي المنتظر ، أنه لا يكون الا من آل البيت ، وكان وجبا عليه أن يختلق لنفسه هذا النسب ليصح ادعاءه .

ولم يقتصر خلاف الرواة على نسب ابن تمرت وحده بل تضاربت أقوالهم حتى في سنّ ولادته ، فقد جعلوها تتراوح ما بين

---

(1) ابن خلدون : العبر . ج ، 6 . ص : 464 .
(2) المصدر السابق . ص : 465 .
— انظر كذلك ابن القطان : نظم الجمان ، ص : 34 . ذكر له نفس السلسلة الا أنه أسقط منها : سليمان وعبدالله والحسن . أما الزركشي فقد ذكر في تاريخ الدولتين نفس الترجمة التي أوردها ابن خلدون وقد نقل كل منهما عن تاريخ ابن نخيل كاتب الدولة الحفصية المتوفي سنة 618 . وقد ترجم له ابن الابار في كتابه : إعتاب الكُتّاب .

469 و 491 هـ . فابن الأثير يحدد وفاته بسنة 524 هـ . دون أن يذكر تاريخا لولادته الا أنه [1] يحدد سنه عند الوفاة باحدى وخمسين سنة أو خمسة وخمسين سنة فهو على الرواية الأولى يكون تاريخ ميلاده سنة 473 وعلى الرواية الثانية سنة 469.

أما ابن خلكان فيضع تاريخ ميلاده في عاشوراء سنة 485 [2]. وابن سعيد في سنة 491 . وأما الغرناطي ففي سنة 471 [3].

وهذا الغموض والتضارب في الروايات لا يقتصر في الواقع على نسب ابن تومرت وسن ولادته وحدهما ولكنه يشمل كل ما يحيط بالرجل ويسري على كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال تعمد هو نفسه تعقيدها وابهامها بما كان يلجأ اليه من ضروب الشعوذة ، زادتها العامة غموضا بما حاكته حوله من خرافات شأن كل شخصية دخلت عالم الأسطورة .

والذي يسمى الى دراسته من وراء كل هذا هو الحياة الثقافية الأولى لابن تومرت الا أن كتب التراجم لم تهتم بطفولته اهتمامها به ، وقد اكتملت رجولته وبدأ في نشر دعوته . فالمعلومات التي أوردتها له كتب التاريخ عن نشأته في المغرب معلومات عامة لا تكاد تفي بحاجة الباحث الذي يريد أن يستكشف مكونات شخصيته العلمية من طفولته الأولى .

فهو عند أغلب الذين ذكروه ، قد نشأ في بيت نسك وعبادة محبا للعلم شغوفا به . قد أطلق عليه اسم " أسفو "

---

(1) ابن الأثير : الكامل : ج. 10. ص: 578 — ذكر ابن خلدون أن وفاته كانت سنة 522 — انظر العبر : ج. 6. ص: 260 وص: 472 ، وذكر في مكان آخر انه توفي سنة 524 . انظر ص: 388 من نفس المصدر .

(2) ابن خلكان : الوفيات : ج. 5. ص: 53.

(3) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص: 4 .ت.محمد ماضور تونس 1966.

الذى هو بمعنى الضياء بمبربرية المصامدة ، وهذا لكثرة ما كان يسرجه من قناديل في المساجد التي كان يعتكف بها للدرس والعبادة [1].

هذا كل ما ذكره المترجمون من طفولته الأولى ، ثم استأنفوا يؤرخون لحياته منذ سنة 501 هـ . وهي السنة التي ابتدأ فيها رحلته العلمية نحو الشرق :

على انهم حتى في هذه الرحلة لم يكونوا واضحين فيما أوردوه عنه .

فعبد الواحد المراكشي ، الذى يعد بحق أول مؤرخي الدولة الموحدية (— 581) لايذكر لنا أية تفاصيل عن هذه الرحلة العلمية التي قام بها ابن تومرت . فهو يقول : "رحل الى المشرق في شهور سنة 501 في طلب العلم وانتهى الى بغداد "[2] دون أن يذكر لنا الطريق الذى سلكه في هذه الرحلة الطويلة ، والمدن التي زارها ، أو التي أقام بها في طريقه للدراسة ، قبل أن يصل بغداد .

ويذكر ابن القطان — رواية عن أبي يحيي زكرياء بن يحيي ابن وسنار — (من أهل الخمسين) [3] أن ابن تومرت شرع في رحلته سنة 501 هـ . "فجاز البحر الى الأندلس طالبا للعلم ، ووصل قرطبة ، ثم مشى من قرطبة الى ألمرية ، ودخل منها في مركب الى الشرق ، وغاب في رحلته في طلب العلم خمسة عشر عاما "[4].

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 465 .
(2) المراكشي : المعجب . ص : 245 .
(3) أى : من الطبقة الثانية حيث قسم المهدى اصحابه الى طبقات أ يت عشرة أ يت خمسين ، الخ . . . كما سنوضح ذلك في مكانه .
(4) ابن القطان : نظم الجمان : ص : 4 .

وتتفق روايات كل من ابن الأثير [1] وابن خلكان [2] في هذه النقطة مع رواية المراكشي الآنفة الذكر .

أما صاحب القرطاس فروايته كانت أشد اختصارا ، حيث لم يذكر لنا أي بلد نزل به ابن تمرت لا في المغرب ولا في المشرق [3].

ومن هؤلاء المؤرخين الذين تعرضوا لذكر رحلة ابن تمرت العلمية ابن خلدون ، فهو عنده قد "ارتحل في طلب العلم الى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومر بالأندلس ، ودخل قرطبة ، وهي اذ ذاك دار علم ، ثم أجاز الى الاسكندرية ، وحج ودخل العراق" [4].

لكنه ، لا يوضح لنا ان كان ابن تمرت قد أقام بالأندلس بعض الوقت للدراسة ، ولا عمن درس بقرطبة ، ان كان قد فعل ، والا ما الذي دعاه الى أن يتجشم كل هذه المشاق ، والطريق — كما هو بديهي — أقصر مسافة من سواحل المغرب الى مقصده .

غير ان ابن خلدون ، رغم ذلك ، كان أكثر وضوحا من سابقيه ، حيث رسم لنا الخطة التي اتبعها ابن اتمرت في سفرته هذه . فهو قد ابتدأ بالأندلس حيث زار قرطبة وألميرية ، ثم ثنى بالاسكندرية ثم أدى فريضة الحج ، وبعدها تفرغ للدراسة بالعراق .

ولعل أكمل رواية وصلتنا في هذه النقطة ، تلك التي أوردها الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين حيث قال وهو بصدد الحديث عن ابن تمرت : " وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدون ، ثم ارتحل الى المهدية وأخذ عن الامام المازري ثم انتقل الى الاسكندرية

---

(1) ابن الأثير : الكامل : ج . 10 . ص : 569 — 570 .

(2) ابن خلكان : الوفيات : ج . 5 . ص : 46 .

(3) ابن أبي زرع : روض القرطاس : ص : 172 .

(4) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 465 .

وهو ابن ثمانية عشر سنة ، وأخذ عن الامام أبي بكر الطرطوشي ، ثم انتقل الى بغداد وأخذ عن الامام الغزالي "[1].

غير أن كل هذه الروايات المقتضبة على تنوعها لا تكاد تعطينا فكرة واضحة عن نشأة ابن تمرت الثقافية . فنحن ، وان استطعنا أن نتبين ، على وجه التقريب ، خط السير الذى اتبعه في رحلته العلمية الى المشرق ، الا أننا لم نستطع أن نتعرف على كل المدن التي تلقى فيها دراسته تباعا ، كما لم نستطع أن نتعرف على كل مشائخه الذين تلقى عنهم هذه المعلومات خاصة مشائخه بالمغرب والأندلس وافريقية ، فهم كثيرون ولا شك ، ولكن الروايات التي بين أيدينا لا تجود علينا الا بذكر اسمين منهم .

والمهم عندنا هو أن نتعرف على هؤلاء المشائخ الذين ساهموا في تكوين ابن تمرت العالم المنظر وأن نعرف خاصة هذه المعلومات التي تلقاها عنهم ، وأثرت فيه كل هذا التأثير حتى خلقت منه " بحرا متفجرا من العلم ، وشهابا واريا من الدين "[2] على حد تعبير ابن خلدون .

نستخلص من كل ما تقدم أن ابن تمرت خرج من بلاده بالسوس الأقصى في طلب العلم سنة 500 أو 501 هـ . فابتدأ ، في المرحلة الأولى ، بزيارة الأندلس ، حيث اتجه الى قرطبة التي كانت تعد بحق من أشهر المراكز الثقافية آنذاك . وقد قرأ فيها على القاضي ابن حمدين[3]. ولاشك أنه درس فيها على غيره ، وان لم تفصح المصادر على أسمائهم .

---

(1) الزركشي ابوعبدالله محمد بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية : ص : 4. ت . محمد ماضور تونس 1966.

(2) ابن خلدون : العبر . ج . 6. ص : 465.

(3) لم نعثر على هذا الاسم في التراجم التي بين أيدينا ، ويرى الأستاذ محمد ماضور ، محقق " تاريخ الدولتين " للزركشي ، انه ربما يكون " أبا حسن " شيخ القاضي عياض الذى توفي سنة 508. انظر ذلك في المرجع المذكور ص : 2 (هـ 2) ونحن نرى ربما يكون القاضي ابن حمدين ووقع تحريف في كتابة الاسم .

ومنها توجه الى الميرية بلد ابن العريف الزاهد المشهور التي كانت مركزا هاما من مراكز الصوفية بالأندلس، ونحن لا نستبعد أن يكون قد تلقى فيها بعض الدروس . ومنها استقل مركبا نحو الشرق فنزل بالمهدية وأقام بها مدة للدراسة حيث قرأ على أشهر فقهاء المالكية بها وهو أبو عبدالله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري[1]، وقد كان ايضا من المحدثين والأصوليين في نفس الوقت اشتهر بكتابيه : " الاكمال في شرح كتاب مسلم و " المحصول في برهان الأصول ".

فقد كانت افريقية ، على هذا النحو ، تمثل المرحلة الثانية بعد الأندلس ، في رحلة ابن تمرت العلمية .

ومن المهدية توجه الى الاسكندرية حيث درس على أحد أساطين المالكية ايضا بالديار المصرية ، وهو أبو بكر الطرطوشي الأندلسي . وقد أثر فيه ، خاصة ، بزهده وتقشفه[2].

وفي المرحلة الرابعة توجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج . وأقام بمكة مدة درس فيها علوم الشريعة والحديث وأصول الفقه ، وأصول الدين[3] ، غير أننا لانعلم عمن تلقى هذه العلوم .

---

(1) هو الفقيه المالكي : ابو عبدالله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري الصقلي المتوفي سنة 536 ، انظر ترجمته وافية عند الأستاذ ح .ح . عبد الوهاب في كتابه " الامام المازري " : منشورات لجنة البعث الثقافي تونس 1955 — انظر كذلك : ابن خلكان : الوفيات :ج . 4 . ص : 285 .

(2) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الأندلسي الطرطوشي ، تفقه بالأندلس على أبي الوليد الباجي ، وتأدب على أبي محمد بن حزم . ثم رحل الى المشرق فقرأ على أبي بكر الشاشي الفقيه الشافعي المشهور ، وقيل انه سكن الشام مدة ودرس بها . من مؤلفاته المشهورة " سراج الملوك " وكتاب الفتن . ولد سنة 451 و توفي بالاسكندرية سنة 522 هـ . أنظر ترجمته عند ابن بشكوال : الصلة : ج . 2 . ص : 545 ، وابن خلكان : الوفيات : ج . 4 . ص : 262 .

(3) ابن خلكان : الوفيات : ج . 5 . ص : 46 .

ثم ألقى عصا الترحال ، أخيرا ، بمدينة بغداد حيث التقى فيها . بفطاحل علماء الاسلام أنذاك وفحول علوم النظر ، فأخذ منهم علما واسعا في هذا الميدان .

فمن بين هؤلاء العلماء ، نذكر أبا بكر الشاشي [1] الفقيه الشافعي المشهور الذى أخذ عنه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين ، ومنهم الكيا الهراسي [2] أحد فقهاء الشافعية الكبار أيضا . كان مدرسا بالمدرسة النظامية ببغداد الى أن توفي سنة 504 هـ . وكان يعد الثاني في الشهرة بعد أبي حامد الغزالي .

ويقال انه أخذ الحديث عن المبارك بن عبدالجبار [3] الذى كان يعد من أشهر المحدثين في وقته .

---

(1) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي (429/507) تفقه أولا على محمد بن بيان الكزروني ، وأبي منصور الطوسي صاحب الجويني ، ثم رحل الى بغداد فلازم أبا اسحاق الشيرازى ، وقرأ عليه ، كما قرأ كتاب " الشامل " على مؤلفه ابي نصر بن الصباغ . وتولى التدريس بعد ذلك بالمدرسة النظامية ببغداد سنة 504 الى أن توفي سنة 507 . من مؤلفاته : " حلية العلماء " ذكر فيه مذهب الشافعي .
أنظر ترجمته عند ابن خلكان في الوفيات : ج . 4 . ص : 219_222 .
— وذكره ابن الأثير في الكامل وقال عنه انه ولد سنة 527 وتوفي سنة 507 ، انظر ج . 10 . ص : 500 .

(2) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبرى الملقب بعماد الدين المشهور بالكيا الهراسي . تفقه على امام الحرمين : الجويني . ترجم له ابن خلكان في الوفيات : ج . 3 . ص : 286 _ 290 . وذكره ابن الأثير في الكامل ج . 10 . ص : 484 .

(3) هو المبارك بن عبدالجبار بن أحمد ابو الحسن الأزدى ترجم له كل من ابن الاثير في الكامل : ج . 10 . ص : 439 — وابن حجر العسقلاني في كتابه : لسان الميزان : ج . 5 . ص : 9 — 11 . وقد ذكر كل منهما انه ولد سنة 411 ، وتوفي سنة 500 . وعلى هذا النحو لايمكن أن نصدق خبر التقاء ابن تمرت به وأخذه عنه ، لأننا نقدر أن هذا الأخير لم يصل الى المشرق الا في حدود 503 أو 504 .

هؤلاء هم كل المشائخ الذين ذكرتهم الروايات على أنهم أساتذة ابن تمرت الذين ساهموا في تكوينه الثقافي والعقائدى ، ونحن نشك في هذا العدد المحدود ونقدر أن الذين تتلمذ عليهم يفوقون هذا العدد بكثير .

بيد أن هنالك عالم من أجل علماء المشرق يقترن ذكره دائما برحلة ابن تمرت العلمية وتجعله أغلب الروايات التي تكلمت عن هذه الرحلة من أبرز أساتذته الذين تأثر بهم . لكننا لم نستطع أن نجاری هؤلاء في اثبات هذا الرأى لظروف وملابسات لا تتفق مع ما أوردوه من أخبار ، ونقصد بهذا العالم الجليل الامام أبا حامد الغزالي .

فلقد حيكت حول التقاء ابن تمرت بالامام قصص وأخبار هي أقرب ما تكون الى الاسطورة منها الى الواقع المعقول لما يشوبها من عناصر الخرافة والغموض . ولهذا نرى لزاما علينا أن نقف عند هذه النقطة حتى نستبين مقدار ما لها من الصحة . ولنبدأ أولا بعرض الروايات التي أثبتت هذا اللقاء .

أورد ابن القطان خبر التقاء ابن تمرت بالغزالي في شبه قصة مفادها : أن أحد المغاربة دخل على الغزالي بالمدرسة النظامية ببغداد وهو أمام حلقة درسه فسأله هذا الأخير عن كتابه " الاحياء " وكيفية استقبال فقهاء المغرب له فأخبره ، بعد تردد ، بأنهم نبذوه وطلبوا من السلطان أن يأمر بأحراقه ، فأصدر أمره بذلك . فمد الغزالي يديه للدعاء والطلبة يؤمنون على دعائه فقال : " اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما حرقوه " وكان فيهم أبو عبدالله السوسي ، أى ابن تمرت فقال : " على يدى ان شاء الله " .

ولما كان بعد أسبوع فاذا بمغربي آخر يؤكد له ما قاله الأول فيدعو الامام مرة ثانية بدعائه الأول . وكان ابن تمرت حاضرا فقال :

" على يدى ان شاء الله " فقال الغزالي : " اللهم اجعله على يديه "[1].

وقد أورد صاحب الحلل أيضا نفس القصة رواية عن ابن صاحب الصلاة[2]. كما أثبت هذا اللقاء كل من ابن خلكان[3] والزركشي[4]. اما ابن أبي زرع[5]، وابن أبي دينار[6] فيحددان المدة التي لازم فيها ابن تومرت الامام الغزالي بثلاث سنوات كاملة.

الى جانب هذه الروايات التي تثبت قصة اللقاء نجد روايات أخرى تورد خبر هذا اللقاء بصيغة، تفيد أن أصحابها غير مقتنعين بحصوله أومتشككين في صحته.

فالمراكشي مثلا، يورد الخبر بصيغة " وقيل انه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده " ثم يختم ذلك بقوله " فالله أعلم "[7] مما يدل على عدم اقتناعه بصحة هذا اللقاء.

وابن خلدون يورده محمولا على محمل الزعم، مما يدل على تشككه هو الآخر فيقول : " ولقي، فيما زعموا، أبا حامد الغزالي "[8]، مع أن المشهور عن ابن خلدون انه كان من المتحيزين لابن تومرت، فقد دافع عن دعوته دفاعا كبيرا في مقدمته المشهورة[9].

---

(1) ابن القطان : نظم الجمان. ص : 16 — 18.
(2) الحلل الموشية. ص : 104 — 105.
(3) ابن خلكان : الوفيات : ج. 5. ص : 46.
(4) الزركشي : تاريخ الدولتين. ص : 4.
(5) ابن ابي زرع : القرطاس. ص : 245.
(6) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية وتونس. ص : 111. ت. محمد شماع تونس 1967.
(7) المراكشي : المعجب. ص : 178.
(8) ابن خلدون : العبر : ج. 6. ص : 465.
(9) المرجع السابق. المقدمة. ص : 42 — 45.

أما ابن الاثير فينفي صحة هذا اللقاء صراحة بعد أن يورد الخبر عن بعض مؤرخي المغرب فيقول : " وقيل أنه جرى لهحديث مع الغزالي . . . والصحيح انه لم يجتمع به "(1).

هذا بالنسبة للمؤرخين القدماء . أما المحدثون ، فأغلبهم يرفض فكرة التقاء ابن تمرت بالغزالي رفضا باتا .

وأحسن من تكلم في هذه النقطة ووفاها حقها من البحث العلامة " أويشي "في كتابه " تاريخ الدولة الموحدية " . فقد انتهى الى أن القصة موضوعة واستدل على ذلك بالحجج التاريخية الدامغة التي لا تقبل أي شك (2).

وقد انتهى العلامة " جولدزيهر" الى نفس النتيجة التي وصل اليها " أويشي " في هذا الموضوع . وهو يرى أن فكرة التقاء الغزالي بابن تمرت يجب أن تلغى تماما من تاريخ الرجلين(3).

ونحن اذا ما جئنا نستقرئ التاريخ في المدة ما بين 500 و 505 هـ . وهي الفترة التي يمكن ، نظريا ، أن يقع فيها اللقاء بين الرجلين ، لو تم ، تعترضنا ظروف وملابسات تجعل ذلك مستحيلا .

لقد غادر ابن تمرت بلاد المغرب ، فيما نعلم ، بين سنتي 500 و501 ومرّ بالاندلس وأقام بها للدراسة ثم أقام بالمهدية فترة أخرى للدراسة أيضا ، وفترة ثالثة بالاسكندرية وفترة رابعة بمكة بعد الحج ، ثم بعد ذلك توجه الى العراق ، فلا يمكن بأية طريقة ، والحالة هذه ، أن يكون قد وصلها قبل سنة 503 أو 504 .

---

(1) ابن الاثير : الكامل : ج . 10 . ص : 569 .
(2) الموسوعة الاسلامية مادة : الغزالي .
(3) مقدمة جولدزيهر لكتاب اعز ما يطلب . ص : 12 .

والغزالي كما هو معلوم قد درس بالنظامية ما بين 484 و 488 وبعدها ساح في رحلته التأملية ما بين الشام وفلسطين ومكة والمدينة ثم الشام مرة ثانية(1). وفي سنة 490 عاد الى وطنه طوس لظروف عائلية. وقد مرّ ببغداد لأنها في طريقه ولكنه لم يدرس بالنظامية هذه المرة لأنه لم يقم بالعراق الا فترة قصيرة ولكنه كانت له لقاءات بمريديه في رباط أبي سعد المواجه للمدرسة النظامية حسبما تدل على ذلك بعض الروايات(2). ثم دخل طوس سنة 493 حيث أقام بها طويلا الى أن عاد للتدريس بنظامية نسبور، بعد الحاح الوزير فخر الملك، ودرس بها الى سنة 503 ثم انقطع للمرة الأخيرة عن التدريس واتجه الى طوس حيث تزهد وتفرغ لتلقين مبادئ الصوفية لمريديه، الى أن توفي سنة 505 هـ. (3).

ومعنى هذا ان الوقت الذى حل فيه ابن تمرت ببغداد، اذا ما قدرنا أنه وصلها ما بين 503 و 504 لا يوافق وقت اقامة الغزالي بها للتدريس، ولا حتى وقت مروره بها أيام رحلته التأملية، واقامته برباط أبي سعد.

وتظهر القصة ملفقة، خاصة، اذا ما علمنا أن أغلب الذين تكلموا عن هذا اللقاء قرنوه بقصة احراق كتاب "الأحياء" ودعاء صاحبه بزوال دولة سلطان المرابطين الذى أمر باحراقه، وأن يكون ذلك على يدى ابن تمرت.

وواقعة الاحراق تضعها أغلب الروايات في سنة 503، أى في الوقت الذى انقطع فيه الغزالي عن التدريس للمرة الثانية

---

(1) Maurice Bouyges. Essai de Chronologie en Oeuvres de Al-Ghazali. P.4. Ed. M. Allard Beyrouth.

(2) المقرى : نفح الطيب : ج. 2. ص: 33.

(3) Maurice Bouyges. Essai de Chronologie en Oeuvres de Al-Ghazali. P.4. Ed. M. Allard. Beyrouth.

أو قبل ذلك بقليل . ولكن من المؤكد أنه كان بنسبور ، ولم يكن ببغداد في هذه الفترة ، الا أن يكون ابن تمرت درس عليه هنالك . ولكن لم يثبت ، تاريخيا ، أن ابن تمرت دخل نسبور[1].

ومما يزيدنا اقتناعا بأن هذه القصة موضوعة ، هو ما حكي عن عبد المؤمن بن علي حينما وفد عليه أبو بكر بن العربي على رأس وفد اشبيلية لمبايعته وتقديم مقاليد الولاء والطاعة له . فقد روي عنه أنه سأل أبا بكر عن صحة وقوع هذا اللقاء ، مما يدل على تشكك الناس في وقوعه حتى في ذلك الوقت المبكر ، فأجابه ابن العربي ، أنه لم يلتق هو به في حلقة الدرس ، لكنه سمع عنه[2].

وهذا جواب — لعمري — يفيد النفي ، ولكنه نفي في لباقة حتى لا يثير حفيظة الخليفة عبد المؤمن الذى كان لا يقصد بسؤاله هذا أمام الناس الا أن يثبت الخبر على لسان شاهد عيان .

على أننا لو جئنا لتمحيص هذا الخبر نفسه لوجدناه لا يتفق مع واقع الأحداث . لأن رحلة ابن العربي الى الشرق كانت في سنة 485 وعودته منه كانت في سنة 497 وهي السنة التي توفي فيها والده بالاسكندرية ، وهذا باتفاق كل الروايات التي ترجمت له . ومعنى هذا أن ابن العربي عاد الى بلاده قبل أن يسافر ابن تمرت الى المشرق بما يزيد عن سبع سنوات كاملة ! فكيف يمكن أن يلتقي به أو أن يسمع عنه ؟! وهكذا يتجلى لنا ، اذن ، أن خبر التقاء ابن تمرت بالغزالي لا أساس له من الصحة اطلاقا كما قال " جولدزيهر " .

---

(1) يرى الأستاذ محمد شمام (محقق كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس) أن قصة الاحراق انما هي موضوعة من بعض المتزلفين لأتباع المهدى ، لأن واقعة الاحراق — في نظره — وقعت سنة 507 بينما توفي الغزالي سنة 505 ، وهذا دون أن يذكر أى مرجع .

(2) الحلل الموشية . ص : 148 . ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 190 .

ونحن نرى أن قصة هذا اللقاء المزعوم لم تكن مقصودة لذاتها . انما وضعت لخدمة أغراض أخرى متعددة ، وبعيدة المدى . منها : ترويج صحة ما كان يدعيه ابن تمرت ويسعى لغرسه بين بسطاء العقول من فكرة المهدوية . اذ كان لابد لتصديق الناس له أن تكون أوصافه مطابقة لما جاء في "كتاب الجفر" (1) من أوصاف المهدي . المنتظر . وهذا الكتاب المغلق ، لا يمكن أن يطلع عليه أو يفهم ألغازه ، ويحل طلاسمه الا عالم أطبقت شهرته الآفاق . فاختير الغزالي للقيام بهذا الدور ، لأنه كان يتبوأ أرقى مرتبة في العالم والورع والزهد ، آنذاك .

---

(1) يقول يحي هويدى عن "كتاب الجفر" ما يلي :
" وهذا الجفر عنوانه " سر المكنون ، أو سر العاملين وكشف ما في الدارين " وهو مخطوط بدار الكتب بالقاهرة . اطلع عليه المستشرق "جولدزيهر" واطلع أيضا على نسخ أخرى له في الهند ، وفيه ما يلي : " هذه مشتملة على ما استخرجه الامام الأعظم حجة الاسلام أبو عبد الله محمد الغزالي رحمه الله تعالى مما جعلها الامام الهمام ليث بني غالب علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في كتابه المسمى بالجفر الذي جمع فيه علوم الدنيا والآخرة ، وعلوم الأولين والآخرين ، ولم يطلع على كشف ما فيه من الأنوار النورانية والأقسام والأسماء الربانية سوى الامام جعفر الصادق رضي الله عنه ، ولم يطلع على كتاب الجفر غيره ، ومن بعده الامام الأعظم ، فاستخرج منه هذه المشتملة ، وسماها بالسر المصون والجوهر المكنون .... وفي هذه المشتملة سر الله الأعظم الناموس الأكبر والكبريت الأحمر والترياق الأكبر ...." وفي آخر الجفر ما يلي :
" أول من استنسخه وقرأه علي بالمدرسة النظامية سرا من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعي من السفر رجل من أرض المغرب يقال له محمد بن تمرت من أهل سلميسة وتوسمه فيه الملك " .
يحي هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام : ج . 1 . ص : 225 .

لذلك نرى أن الأسطورة لم تقف عند حدّ التقاء الرجلين، ولكنها قصت بتفصيل كيف تفرس الغزالي في ابن تمرت أنه الرجل الذى سيثور بالمغرب، وتكون له دولة ويظهر أمره ويعلو سلطانه ويتسع ملكه، لأنّ أوصافه مطابقة لما وردت به الأخبار ودلّت عليه العلامات والآثار (1).

وهناك غرض آخر وضعت من أجله قصة هذا اللقاء وهو صبغة الجهاد المقدس الذى أراد ابن تمرت أن يضيفها على الثورة التي كان يدعو اليها اتباعه ضد الحكم المرابطي، حتى لا يفسر عمله ذلك بالتمرد وخلع الطاعة.

فقد كان دعاء الغزالي بزوال سلطان المرابطين عندما أحرقوا كتابه بمثابة فتوى أحلت دماءهم وأموالهم في نظر ابن تمرت. بل كان يعتبرها دعوة صريحة الى الجهاد ضد الحكم القائم.

غير أن كل هذا لا يمنع أن يكون ابن تمرت قد تأثر ببعض نظريات الغزالي بواسطة كتبه أو بعض من تتلمذوا عليه.

فالعلامة جلدزيهر نفسه — رغم رفضه لفكرة التقاء ابن تمرت بالغزالي — لا ينكر تأثر هذا الأخير بحجة الاسلام.

ولكن هل معنى هذا أن هذه العلوم التي تلقاها ابن تمرت على كل هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم آنفا كان المغرب يخلو منها تماما.؟

---

(1) يقول ابن أبي دينار في كتابه المؤنس. ص: 111. ط. الثالثة سنة 1387، وكان أبو حامد كلما رأى ابن تمرت يقول: لابد لهذا البربرى من دولة، فذكر بعض الطلبة لابن تمرت مقالة الشيخ وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب له فلازم ابن تمرت أبا حامد الى أن اطلعه على ذلك فقفل الى المغرب سنة عشر وخمسمائة".
— أنظر كذلك ابن أبي زرع القرطاس: ص: 172 — و 190 — والحلل الموشية. ص: 148.

نحن نشك في أن يكون هذا الطالب المغربي قد تعلم في العواصم المشرقية شيئا جديدا لم يتلق أصوله في المغرب .

حقا ، لقد توسع في دراسة علم أصول الفقه ، وأصول الدين ، وعلم الكلام ، وعلوم الجدل وبقية العلوم الشرعية الأخرى ، ولكن بعد أن تلقى مبادئها في بلدان المغرب .

فنحن نعلم أن بلاد الأندلس التي كانت تحت سلطان المرابطين آنذاك كانت تعتبر امتدادا طبيعيا للمغرب أو قل عنها مغرب المغرب ، كما كانت تسمى قديما . كانت تعكس كل أنواع الثقافة المشرقية آنذاك بأمانة .وكان لا يصدر كتاب في أحدى العواصم المشرقية الا ونجد أصداءه تتردد في جوامع الأندلس والمغرب ، وافريقية . وقد يظهر الكتاب أحيانا في المغرب حتى قبل أن يعرف له ذكر بالمشرق ، محل تأليفه ، وهذا كله للمنافسة التي كانت بين أعيان الأندلس والمغرب في اقتناء الكتب ، وحرصهم على الاطلاع على كل ما جد في الميدان الفكري والثقافي من جهة ، ولتعلقهم البالغ واعجابهم المفرط بكل ما يأتيهم به المشرق من جهة أخرى .

وقد كانت الرحلة العلمية الى المشرق كما نعلم من أهم العوامل التي ساهمت في اثراء بلدان المغرب بكل ما كانت تجيش به العواصم العلمية بالمشرق من تيارات فكرية ، كما كانت من أهم الأسباب التي تربطها بالواقع اليومي في ميدان الثقافة . وهذا يعني أن حلقات الدرس في جوامع قرطبة وفاس وبجاية والقيروان كانت تدرس نفس المواد التي تدرسها جوامع العراق والشام والحجاز ومصر ، مع الفارق ، طبعا ، في كثافة بعض المواد دون الأخرى .

فلئن كان هناك بعض التحفظ ببلدان المغرب في تدريس بعض المواد كالفلسفة مثلا ، الا انه لم يقف هذا التحفظ يوما من الأيام

حجر عشرة أمام تسرب ماجد في هذا الميدان في العواصم الاسلامية الأخرى ، ولا كان ذلك سببا في جمود هذا الفن وعدم تطوره ونموه ، بله اضمحلاله تماما كما يدعي ذلك الكثيرون .

• أما بقية العلوم الأخرى كأصول الدين وأصول الفقه وعلم الكلام وعلم الحديث والتفسير وما الى ذلك من العلوم الشرعية الأخرى فقد كانت تدرس مبادئها أيضا بكل حرية . ولم يثبت يوما أن أحد العلماء منع من تدريس مادة ما من هذه المواد المذكورة حتى في عهد الدولة المرابطية التي تعوّد الباحثون أن يبرزوها لنا كدولة جامدة متعصبة ضدّ كلّ تحرّر فكري [1] .

فيكفي القارئ أن يلقي نظرة على كتب التراجم التي تناولت هذه الفترة التي نحن بصدد دراستها ليدرك مدى انتشار هذه العلوم الى جانب بقية الفنون الأخرى وهذا رغم تشجيع السلطات على الاقبال على علم الفروع واعطاء أصحابها الأولوية في تسلم المناصب الرفيعة في الدولة ، فمن هؤلاء نذكر :

1) ابن خزرج محمد بن أحمد بن ابراهيم المشهور بالبغدادي لطول إقامته ببغداد في رحلته العلمية ، فقد جلب منها عدة كتب الى الأندلس منها : كتاب أحكام القراءات وكتاب أصول الفقه ، وكتاب الرد على أحمد بن حنبل ، ولا شك أنه أدخلها المغرب معه عند حلوله به . فقد تخرج على يديه كثير من علماء المغرب خاصة عندما هاجر الى فاس

(1) ان ما أورده المراكشي في المعجب عن نفور علي بن يوسف من علم الكلام وأهله وكتابته الى كل البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه قول فيه كثير من المبالغة . والذي جعلنا نتحفظ في الأخذ به هو ما لمسناه من تحيز واضح من طرف المراكشي وتزلفه للموحدين في موقفهم ضد المرابطين في هذه القضية .
- أنظر : المعجب . ص : 236 - 237 .

اثر الفتنة التي اجتاحت جيان ، فمن تلا ميذه المشهورين بالمغرب ، ابن ملجوم الفاسي وقد ذكره هذا الأخير ببرنامجه ، توفي بفاس سنة 546 .(1)

2) ومنهم أبو الحسن عبد الله الأعلى الكلاعي من سفاقس ، سكن المغرب كثيرا كما سكن الأندلس ، وقد درّس ببلاد المصامدة ثم استوطن سبتة أخيرا ، وكان فقيها أوّليا متكلما عارفا بعلم الهندسة والحساب والفرائض توفي بأغمات سنة 505 .

3) ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي قدم من قلعة بني حماد وأصله من توزر بأفريقية ، كان يدرس أصول الفقه وأصول الدين متنقلا بين مدينتي فاس وسجلماسة وهو من العلماء المغاربة الذين اعترضوا على حرق كتاب " الأحياء " للغزالي وانتصروا له توفي سنة 513 هـ .(2)

4) ومن الفقهاء الأصوليين الذين ذاع صيتهم بالمغرب والأندلس أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافرى السبتي ، درس الأصول بالمشرق والفقه بالأندلس ثم عاد الى سبتة لتدريس المادة التي تخصص فيها وهي الأصول ، كما اشتهر بتدريس كتاب " المنهاج " للباجي في الجدل والمناظرة ، وقد تخرج على يديه جماعة من مشائخ القاضي عياض ذكرهم في الفهرست توفي سنة 502 .(3)

5) ومنهم المتكلم على مذهب أهل السنة الأشعرية أبو محمد السلعي الذى ذاع صيته في جميع أنحاء المغرب وشهد له أعلام عصره بالتفوق في فنه منهج الفقيه السفاقسي الآنف الذكر والقاضي أبو علي بن شبرين ،

---

(1) ابن القاضي : جذوة الاقتباس . ص : 558 (ضمن مجموع مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) .

(2) التادلي : التشوف . ص : 72 : ابن القرضي جذوة الاقتباس . ص : 726 (مخطوط الرباط) .

(3) القاضي عياض : الفهرست . ص : 24 (مخطوط الخزانة العامة) الرباط .

ذكره القاضي عياض في جملة مشائخه ، وقال انه صحبه مدة اقامته بسبتة توفي سنة 516 بمراكش[1] . فنحن لا ننكر أن هذه العلوم لم تكن تجد لها الرواج الذى تلقاه في رحاب جوامع المشرق ، ولكن ليس معنى ذلك أنها كانت محضورة تماما أو معدومة كما يفهم من بعض المصادر القديمة .

ونخلص من كل هذا الى أن ابن تمرت لم يكن ، في الواقع ، الا أحد الطلبة المغاربة الذين كانوا يؤمون العواصم المشرقية ، بالمئات للتوسع في بعض المعارف التي أخذوا مبادئها بالمغرب أو الأندلس . فهو على ذلك لم يأت بالشيء الجديد الخارق للعادة ، وان كنا نستطيع أن نقول عنه أنه تضلع حقا في العلوم العقلية واستوعب كثيرا من النظريات والآراء الحديثة بفضل احتكاكه بكبار العلماء في العواصم المشرقية التي زارها ، خاصة بغداد ، التي كانت منذ القدم منبرا حرّا لأهل الرأي والاجتهاد .

ولم يتأثر ابن تمرت ، في الواقع ، بهذه الآراء والنظريات الحرة وحدها ، ولكنه تأثر أكثر بالجو السياسي المفعم ، وما كان يسود العواصم المشرقية ، ولاسيما بغداد ، من مؤامرات وانقلابات وسطو على مناصب الحكم باسم الدين حينا ، وباسم العصبيات القبلية والجهوية أحيانا أخرى .

وقد تجلت مظاهر هذا التأثر السياسي في الانقلاب الذى دبره ضد الحكم المرابطي باسم الدين ، وتجلت مظاهره أكثر في قدرته على حبك خيوط المؤامرة وتنفيذها بطريقة جعلت أغلب معاصريه الذين تناولوا حركته بالبحث لم يروا في ثورته تلك الا حركة اصلاحية دينية محضة قام بها رجل زاهد متعفف ضد طبقة من الحكام المارقين عن الدين ، وكأن بلدان المغرب لم تعرف الاسلام الحق الا عند مجيء ابن تمرت! .

---

(1) القاضي عياض : الفهرست . ص : 24 (مخطوط الخزانة العامة) الرباط .

ويجدر بنا ، قبل أن نتعرض لانتشار الدعوة الموحدية ، أن نشير الى أن فكرة " المهدوية " هذه ، التي بشّر بها ابن تومرت لم تكن هي الأولى من نوعها في المغرب الاسلامي . فقد سبقتها الحركة الشيعية في هذا الميدان حيث بشرت ، هي الأخرى ، بالمهدى المنتظر الذى أبرزته في شخص عبيد الله الشيعي كما هو معلوم .

كما لم تكن هي الأخيرة ، فهناك أشخاص كثيرون ، ادعوا "الهداية" في كل من الأندلس والمغرب . منهم من نجحت فكرته ، أو كادت ، كمحمد ابن عبدالله بن هود الماسي الذى قال عنه ابن خلدون انه خرج لمحاربة الموحدين في جيش يتألف من ستين ألف رجل وسبعمائة فارس مما يدل على انتشار دعوته وكثرة اتباعه [1]. ويذكر صاحب الحلل الموشية أنه تسمى " بالهادى " ، وادعى الهداية اقتداء بالمهدى محمد بن عبدالله بن تومرت ، وكان قصارا بِبحر " سلا " فأقبل الناس عليه من كل مكان ، واجتمعوا عليه اجتماعا طار به الذكر في الآفاق ، وقامت بدعوته أمم لا تحصى . واتصلت دعوته في جميع أقطار العدوة ، حتى لم يبق منها الا " مراكش " و " فاس " . وخالفت عليه سائر البلاد ، ورفضوا دعوة الموحدين ، وكاد يضمحل وينقرض ما قاتلوا عليه منذ خمس وعشرين سنة . . ."[2]

ومنهم أحمد بن الحسين بن قسي الذى ثار على المرابطين بالأندلس سنة 539 هـ . وهو أحدى مريدى ابن العريف المتصوف ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، عكف أول أمره على الوعظ والارشاد الى أن كثر اتباعه ، فادعى الهداية ، فطلب ليقتص منه فاختفى [3].

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 480 .

(2) الحلل الموشية : ص : 146 — سهيل زكار وعبدالقادر زمامة الدار البيضاء 1979 .

(3) انظر تفاصيل ذلك عند ابن الأبار : الحلة السيراء : ج . 2 . ص : 179 — 202 .

وممن ادعى الهداية ايضا، تذكر عبدالرحيم بن عبد المؤمن بن الفرس . قال عنه ابن خلدون أنه كان " من طبقة العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر . وحضر مجلس المنصور في بعض الأيام وتكلم بها حتى خشي عاقبته وخرج من المجلس فاختفى مدة . ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الامامة وادعى انه القحطاني المراد في قوله صلى الله عليه وسلم ، " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، الى آخر الحديث "(1).

ومنهم أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة . نشأ ببجاية وكان يحدث نفسه بالملك ، فالتحق بصحراء سجلماسة . والتمس الى أهل البعثة وادعى انه الفاطمي المنتظر ، فاتبعه خلق كثير ، ذكر ابن خلدون قصته في خبر بطول (2).

غير ان حركة ابن تومرت كانت تمتاز بأنها حركة مغربية محضة . لم تر تبط بالحركة الشيعية المشرقية كما هو الشأن بالنسبة للدولة الفاطمية مثلا . وان ارتكزت على فكرة المهدي المنتظر (3).

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 522 — 523 . مما ينسب له من الشعر في هذا المجال قوله :

قولوا لأبناء عبدالمؤمن بن علي	تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعاملها	ومنتهى القول ، والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم	بالأمر والنهي ، بحر العلم والعمل
فبادروا أمره ، فالله ناصره	والله خاذل أهل الزيغ والميل .

المصدر السابق .

(2) ابن خلدون : العبر : ج .6. ص : 689 وما بعدها.

(3) عبدالله عنان : عصر المرابطين . ص : 157 .

وقد يندهش الباحث لكثرة هؤلاء الدعاة الذين ظهروا في بلدان المغرب الاسلامي ، ويعجب أكثر لاغترار الناس بهم والانقياد لهم مع عدم تصديقهم كثيرا لفكرة المهدوية هذه .

ونحن لا نجد تفسيرا لذلك الا ما اشتهر به المغاربة من تعلقهم بآل البيت وحبهم لكل من يتصل بهم ، وهذا معروف عنهم منذ القدم ، يشهد لهم به التاريخ : ولا أدل على ذلك مما قاموا به ازاء ادريس الاكبر . فقد آووه ونصروه وعززوه بتأميره عليهم . فأنشأ فيهم دولة شاسعة الاطراف دامت مدة في بنيه . ومن أجل هذا المبدأ ، أيضا ، احتضنوا فكرة المهدية . لا إيمانا بكل ما جاء فيها ، ولكن اشفاقا لما آل اليه أمر آل البيت الذين تنتسب اليهم . وتشريفا لهم لانتمائهم للرسول الاعظم .

وليس معنى هذا ، أن الذين ادعوا " المهدوية " كانوا محقين في ادعاءاتهم أو مخلصين في دعواتهم . بل كلهم كانوا يسيرون حسوا في ارتغاء . وهذا شأن أغلب الحركات المذهبية التي نشأت في المغرب الاسلامي ، تبتدىء دينية في أول أمرها ، فما أن يكتسب لها الثبات والنجاح حتى تظهر على حقيقتها الدنيوية .

2 — انتشار الدعوة الموحدية :

1) مرت الدعوة الموحدية بثلاث مراحل أساسية في أول أمرها . ارتكزت في المرحلة الاولى على شعار " الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " الذي يعدّ من المبادىء الاسلامية المقدسة ، لقوله

تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " .[1] " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ".[2]

وجاء في الحديث : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان " .

وأحسن من شرح لنا مغزى هذا الشعار الأخلاقي ، ابن حزم الظاهري في كتابه " الفصل " . فقد ذكر أن بعض الفرق الدينية من أهل السنة والمعتزلة والخوارج ، والزيدية ، يرون أن سل السيف في الأمر " بالمعروف والنهي عن المنكر " واجب اذا لم يكن من ذلك بد ".[3]

ويعلق الغزالي أهمية كبرى على هذا المبدأ ويعده " المنصب الأعظم في الدين " وقد كان الأمر بالمعروف ، قديما ، من اختصاصات المحتسب الذي يعينه الحاكم الا أنه لم يكن مقصورا عليه وحده ، دون غيره ، بل هو واجب على كل فرد يستطيع أن يقوم بتغيير المنكر . اذ أساس الفكرة هو تكافل المسلمين فيما بينهم ، وتعاضدهم ، والدفاع عن مجتمعهم وحمايته حتى لا يتردى في مزالق الرذيلة .

وقد رفع ابن تومرت هذا الشعار ، انطلاقا من هذا المبدأ ، من يوم أن عقد العزم على الرجوع الى المغرب من رحلته العلمية وذلك سنة 510 هـ . وقد كانت هذه الفكرة ، بالنسبة اليه أحسن وسيلة لجلب الأنظار اليه لما كانت تثيره من شغب وفوضى بين الناس . خاصة وأن تنفيذها كان يجري في الشوارع ،

(1) سورة آل عمران الآية 104 .
(2) سورة آل عمران : الآية 110 .
(3) ابن حزم الاندلسي : الفصل في الملل والأهواء والنحل : ج . 4 . ص : 171 . ط . الأولى مصر سنة 1317 هـ .

والأسواق وأماكن التجمع . وكان ابن تومرت يختار لها الحفلات والأعياد . ويقصد بها طبقات الحكام ومن لف لفهم وبعض الخاصة والوجهاء المترفين .

وقد أفاض المؤرخون في وصف الطريقة التي كان يدعو بها ابن تومرت الى المعروف وينهى عن المنكر(1) وذكروا ما كان يلاقيه من الأذى في سبيل ذلك طوال رحلة عودته من المشرق ابتداء بما وقع له بمكة ، ثم بالاسكندرية ، وما تعرض له في السفينة التي أقلته الى افريقية .

وقد أطنبوا ، خاصة ، في وصف اقامته ببجاية ، وما قام به من مطاردات للمغنين وتجمع أصحاب اللهو . فقد " رأى من اختلاط النساء والرجال ما أزعجه ، وشاهد الصبيان في زي النساء بالظفائر والأخراص والزينة وغواشي الخز " وألفى الأراذل قد فتنوا بذلك ، واستمسكوا فيه . فطاردهم وهدد عليهم ، حتى تفض عليهم اجتماعهم ، فوقع الهرج ، ووقع الفتن ، وسلب النساء حليهم (حليهن) . فسأل العزيز ابن المنصور(2)، أمير البلاد آنذاك ، عن السبب ، فأخبر أنه الفقيه السوسي . فأراد أن يبطش به لكنه فر الى ملالة ، حيث أقام بها مدة تحت حماية أهلها ، الذين آووه وناصروه ضد العزيز(3) .

---

(1) المراكشي : المعجب ، ص : 250 وما بعدها ـ ابن الأثير : الكامل : ج . 8 . ـ 294 ـ 295 . ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 467 ابن أبي زرع القرطاس . ص : 178 . قال يصف طريقة ابن تومرت في تغيير المنكر : " فكان حيثما حل من مدن افريقية وبلاد المغرب يدرس العلم ويظهر التقشف والورع والزهد في الدنيا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . . . ويكسر المزامير وآلة اللهو ويريق الخمر حيثما وجد . . . فارتحل الى مراكش دار مملكة المرابطين لعلمه انه لا يظهر أمره الا منها . . . فدخل المدينة بزي الزهاد . . . "

(2) هو العزيز بن منصور بن حمد الصنهاجي أمير المغرب الأوسط . ولي الحكم سنة 498 حتى توفي سنة 515 هـ .

(3) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت . ص : 51 ـ ابن القطان : نظم الجمان ، ص : 41 ـ 42 .

وكانت خطة ابن تومرت تقتضي عليه ، في هذه المرحلة ، أن يقوم ، الى جانب مهمة "الأمر بالمعروف" ، بإعطاء بعض الدروس العامة ، في المساجد التي يمر بها ، لشرح فلسفته ، وفكرته الاصلاحية . فزادته هذه العملية شهرة ، واستمال اليه قلوب العامة بفصاحته وغزارة علمه ، واستهواهم ، خاصة ، مظهره البسيط واعراضه التام من زخارف الحياة . ففتنوا به ، وتناقلوا أخباره ، حتى طار ذكره في الآفاق وسبقته شهرته الى بلدان المغرب الأقصى ، فانتظره الناس بفارغ صبر .

وعندما دخل تلمسان ، استمر على طريقته ، فوبخه قاضيها ، ابن صاحب الصلاة على دعوته ، كما أنبه على خروجه عن جماعة أهل بلده . وقد تألب عليه علماء فاس ، لما كان يدعو اليه في علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية عندما ناظرهم في ذلك وتغلب عليهم .

وعندما وصل مراكش عنّف أخت علي بن يوسف بن تاشفين على سفورها ، قصد الفات نظر السلطات اليه . ولم يكتف بهذا بل تعرض للأمير نفسه ، بأحد المساجد ، فأغلظ له القول هو الآخر وأنبه على المناكر التي فشت في البلاد ، دون أن تجد منه أي نكران . فجمع له الخليفة العلماء لمناظرته . وكان ذلك اسمى ما يطمح اليه ابن تومرت[1].

ولعل أبرز ما يستشف من هذه المناقشات ، والمجادلات التي كانت تجرى بين ابن تومرت والعلماء المغاربة في أغلب الحواضر التي كان يمر بها ، وما كان يلقيه من محاضرات ودروس على أفواج

---

(1) انظر تفصيل ذلك عند البيدق : أخبار المهدي . ص : 67 . وابن الأثير : الكامل : ج . 8 . ص : 296 — وابن خلكان : الوفيات : ج . 4 . ص : 138 — 140 .

الطلبة التي كانت تتزاحم على حلقاته، هو مدى ما كان يميزه المجتمع المغربي من اهتمام بالغ بالثقافة ورجالاتها ، بغض النظر عن اتجاهاتهم . وهذا رغم التزمت الذي كان يبدي به بعض الفقهاء الرسميون .

ويدلنا اقبال الطلاب ، خاصة ، على دروس هذا العالم ، رغم ارتفاع مستواها ، على مدى ما كانت تبذله الناشئة المغربية من جهود جبارة لتحصيل العلوم والوقوف على ما استجد منها في ميدان المعرفة ، مسايرة لتطور العصر من جهة ، كما يدلنا على درجة نضجهم ، وقدرتهم على استيعاب كل ما كان يلقى به اليهم من مسائل معقدة في فلسفة التوحيد ، وعلم الكلام ، وعلمي الأصول وما الى ذلك ، من جهة أخرى .

ب — وبدأت دعوة ابن تومرت تدخل مرحلتها الثانية منذ أن خرج منتصرا من مجلس فقهاء المرابطين بمراكش سنة 514 هـ والتحق بجبال المصامدة ، وقد خصص هذه المرحلة لتدعيم مقامه بين أهله وعشيرته مستغلا عصبية قومه الموروثة ضد المرابطين .
فبدأ في نشر دعوته بينهم عن طريق مجالس الوعظ والارشاد التي كان ينظمها لهم . وكان المحور الذي تدور حوله دروسه وخطبه ، مقتصرا ، أول الأمر ، على التذكير بالله واليوم الآخر . " من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة ملك "(1) . ثم تطرق ، شيئا فشيئا ، الى بث الدعوة ضد المرابطين . وكان يقتنع أول الأمر بتنفير الناس منهم ، وترسيخ فكرة التجسيم في نفوسهم التي ما فتئ يرميهم بها . وهذا كله دون أن يدعو قومه للثورة ضدهم ، أو استعمال العنف . بل كان ينهاهم عن سفك الدماء (2) وذلك امعانا في اخفاء نواياه السياسية . وكان أثناء كل هذه

(1) المراكشي : المعجب . ص: 254 .
(2) المرجع السابق .

المدة يبعث فيهم فكرة المهدي المنتظر ويشوقهم اليه ، ويبشرهم بقرب ظهوره . وعندما قدر أن الفرصة قد سنحت لظهوره في جلباب المهدي ، قام في قومه خطيبا فقال: " الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي بما يشاء لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد ، المبشر بالمهدي ، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، يبعثه الله ، اذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الأقصى ، وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبيء عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم . وقد ظهر جور الأمراء ، وامتلأت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمين ، والأسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل ".(1)

فلما فرغ ابن تومرت ، بادر اليه أصحابه العشرة ، وعلى رأسهم عبد المؤمن فقال له " هذه الصفات لا توجد الا فيك ، فأنت المهدي "(2) فبايعوه على الهداية والعصمة . وقد كانت " العصمة " في نظره من الأمور الجوهرية ، لذلك الحّ عليها كثيرا ، حتى لايخطأ فيما عساه أن يقوم به من أعمال حتى ولو كانت نتائجها وخيمة(3).

وقد كانت هذه المرحلة من أصعب المراحل التي مرّ بها ابن تومرت لأنها كانت تستدعي منه كثيرا من التروي ، والتفكير ، كما كانت تتطلب منه كثيرا من اليقظة والحزم ، فهي الفترة التي كوّن فيها مهديته عن طريق الدرس والتلقين ، وسنّ فيها آراءه العقائدية

---

(1) ابن القطان : نظم الجمان . ص: 44.
(2) المرجع السابق.
(3) أخذا بهذا المبدأ . قتل ابن تومرت كل أفراد قبيلة " هزميرة تنملل " وقسم أموالهم بين أصحابه لا رتيابهم في عصمته . وعندما لامه أحد فقهاء عشيرته عن فعلته تلك قتله هو الآخر لشكه في عصمته . ابن عذارى : البيان : ج.1. ص: 69.

المكتوبة ، التي وصلتنا عن طريق خليفته عبد المؤمن بن علي ، والتي تنحصر في كتاب " أعز ما يطلب " و " العقيدة التي تعتبر الأساس المذهبي للموحدين ثم " المرشدة "(1).

ج — وفي سنة 519 دخلت دعوته مرحلتها الثالثة والأخيرة حيث دعا قومه للجهاد المقدس ضد المرابطين المجسمين المارقين في الدين . وقد مهد لذلك بعملية "التمييز" المشهورة التي لعب فيها محمد البشير الونشريسي(2) الحكم الذى عزل " اصحاب الجنة " عن "أصحاب النار " . أى الذين آمنوا بالمهدى

---

(1) كتاب " أعز ما يطلب" من املاء عبد المؤمن بن علي على تلا ميذ ابن تمرت طبع بالجزائر سنة 1903 وهو من نشر العلامة " جولدزيهر". وفي خاتمة الكتاب يوجد نص " العقيدة " الموحدية (من صفحة 229 الى 238) وبعدها توجد "التنزيهية" ثم المرشدة (ص 242 وما بعدها) وقد نشر " جولدزيهر" " المرشدة " مترجمة مع تعليق في صحيفة المستشرقين الألمانية عدد 41 وعدد 44 تحت عنوان : " Merchida" (Les Guides Spirituels)
كما ترجم العقيدة " Akida " تحت عنوان :
(La Profession de Foi)
وقد نشرت كل من الرسالتين أيضا في كتاب Memerial de H. Basset ص : 105 وما بعدها .
وهناك مرشدة أخرى أوردها صاحب الحلل الموشية : انظر ص : 96 وما بعدها ط . علوش الرباط 1936.

(2) هو عبدالله بن محسن الونشريسي الملقب بالبشير وهو أحد أعوان ابن تمرت المقربين من "آيت عشرة " كان من أفصح خلق الله وأحفظهم لكتابه ، طلب منه ابن تمرت بعد ان اطلعه على خطته السياسية أن يتظاهر بالفهاهة والبله أمام أصحابه الى أن يأتي يوم يظهر فيه على حقيقته ، فيكون ذلك بمثابة معجزة وقعت له على يديه ، فيصدقه الناس في كل ما يدعيه .

المعصوم من الذين ارتابوا في أمره . وقد استطاع ابن تومرت أن يقضي ، بهذه العملية التصفوية على كل مناوئيه ممن يخشى جانبهم ، فخلا له الجو بذلك ودانت له الرقاب ودخلت كل جبال درن في طاعته .

يرى بعض الباحثين أن الحركة الموحدية التي قامت بالمغرب ، كانت حركة اصلاحية دينية محضة . لم يهدف أصحابها من ورائها الى أي غرض دنيوي ، انما كان همهم التوحيد ، محاربة الفساد واذكاء شعلة الدين الحق في قلوب المؤمنين[1] .

بينما يرى البعض الآخر أنها حركة سياسية معقدة أعدت خطتها في أناة واتقان ، كان الغرض من ورائها اقامة نظام حكم على انقاض حكم آخر .

ولعل من الانصاف — قبل اصدار أي حكم — أن نعطي بسطة عن الحياة المذهبية في العهد المرابطي بالمغرب حتى نستطيع أن نتبين بوضوح المآخذ التي أخذها النظام الموحدي عن الملثمين وبنى عليها ثورته ، لأنّ المرابطين والموحدين كما قال " مارسي " يمثل كل منهما نزعة مذهبية قبل أن يكون حكما سياسيا[2] .

عندما تعرضت الامبراطورية الاسلامية للانقلاب العباسي أتاح هذا الحدث الفرصة للصراعات المذهبية أن تظهر ، فنشأت مذاهب مختلفة ساد بعضها في المغرب كما ساد بعضها الآخر في الشرق .

---

(1) عبدالله كنون : النبوغ المغربي : ج . 1 . ص : 100 .
(2) G.Marçais-Histoire de l'Algerie. PP. 135-136.

وكان أول ما ظهر منها مذهب أبي حنيفة المتوفى سنة 150 هـ[1] وهو مذهب يعتمد اعتمادا كبيرا على الاستنتاج والقياس، كما نعلم، وقد أخذ به أهل العراق[2]. ورعاه الخلفاء العباسيون الأوائل. وقد تجلت هذه الرعاية في تقريبهم لأبي يوسف - أنجب تلامذة أبي حنيفة - حيث ولاه هارون الرشيد أعلى منصب في القضاء[3]. وهو أحد المذهبين اللذين قال عنهما ابن حزم أنهما انتشرا في أول أمرهما بالرئاسة والسلطان[4].

وظهر الى جانب ذلك مذهب الأوزاعي المتوفى سنة 157 هـ[5]. وكان من أنصار مدرسة الحديث، ولم يكن يرضى بما استحدثه الحنفيه من الأقيسة. وقد أخذ به الأندلسيون والمغاربة. كما ساد في الشام، موطنه الأصلي، غير أنه لم يدم طويلا، اذ قد طغى عليه مذهب أهل العراق في المشرق، وتحول عنه أهل المغرب الى مذهب آخر انتقل اليهم من المدينة وهو مذهب مالك بن أنس المتوفى سنة 178 هـ. وقد جمع هذا المذهب بين "سلفية الأوزاعي" (أي الأخذ بالحديث وما أثر عن السلف) وحرية المذهب الحنفي في الأخذ بالقياس، مع اعتماده على القرآن والسنة كمصدرين أساسيين لاستنباط الأحكام[6]، ولكنه أعطى اجماع أهل المدينة أهمية خاصة في بعض المسائل فوسع بذلك معنى الاجماع، ولم يلجأ الى الرأى الا في حالات الضرورة القصوى[7].

(1) ابن خلكان : الوفيات : ج. 5. ص : 146 مكتبة النهضة المصرية القاهرة انظر كذلك الموسوعة الاسلامية مادة : " ابو حنيفة ".
(2) ابن خلدون : المقدمة. ص : 799.
(3) ابن خلكان : الوفيات : ج. 5. ص : 521.
(4) المقرى : نفح الطيب : ج. 1. ص : 10. ت. احسان عباس.
(5) الموسوعة الاسلامية مادة "الاوزاعي ".
(6) بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي. ص : 414.
(7) ابن خلدون : المقدمة. ص : 801 - 802 - لا يوافق ابن خلدون على تسمية عمل أهل المدينة " بالاجماع ". انظر قوله في الصفحة المذكورة.

ونتيجة للخلافات التي نشأت بين هذه المذاهب التي يقول بعضها بالقياس، ويعتمد بعضها بالمأثور، نشأ مذهب وسط بين هذه الأطراف، وهو مذهب الشافعي، أخذ بالقرآن والسنة وأخذ بالاجماع في المسائل التي يجري العمل بها في كافة بلاد الاسلام، كما استعمل القياس والرأى أيضا[1].

ومقابلا لهذا المذهب الأخير نجد المذهب الظاهرى الذى يقول بالاقتصار على المعنى الحرفي للكتاب والسنة، ويعرض من القياس، ولا يرى الاجماع الا فيما أجمع عليه الصحابة، وكان ابن حزم الأندلسي من أعلام هذا المذهب كما هو معلوم[2].

وقد حاول الموحدون أن يفرضوه بكل الحاح على العدوتين : الأندلس والمغرب، أيام حكمهم، غير انهم لم يفلحوا.

وقد اختار المغاربة والأندلسيون من بين كل هذه المذاهب المذهب المالكي.

وقد أرجع ابن خلدون اختيار أهل المغرب لهذا المذهب الى سببين رئيسيين :

1) الرحلة الدينية التي كان المغاربة يقومون بها كل سنة، والتي كان ينتهي فيها مطافهم الى المدينة مثوى رسول الله (ص) والخلفاء الراشدين، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين، فقد كانت المدينة في نظرهم رمز القداسة، فكل ما يصدر عنها ينظرون اليه باجلال وتقدير، خاصة وأنها منبع العلم وملتقى العلماء آنذاك. فكل الذين تفقهوا، وذاعت مذاهبهم في العراق وغيره من الأمصار تخرجوا من المدينة، فلا غرو أن يتعلق أهل المغرب بها، وبعالمها الذى ذاع صيته في أنحاء الحجاز وطارت شهرة مُوَطَّئِهِ الى أن أطبقت العالم الاسلامي كله.

(1) ابن خلدون : المقدمة . ص : 802 — بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي . ص : 414.

(2) ابن خلدون : المقدمة . ص : 801.

2) أما السبب الثاني ، فهو مطابقة مذهب الامام مالك لأمزجة المغاربة التي بقيت على بساطتها ، لم تعقدها التيارات الحضارية التي كانت تزخر بها العراق وبعض الأمصار الأخرى آنذاك .

وقد رأوا في بساطة المذهب المالكي ، وميله الى نبذ كل أعراض الحياة الدنيا من أبهة وزخرف ، ونفوره من التعقيد الفلسفي — إذ كان يقتصر على المأثور وعمل أهل المدينة — صورة صادقة لسيرة السلف الصالح ، والحياة الدينية في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده ، فقلدوه دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن غيره .

ولا يبعد أن يكون تقليدهم لمذهب الأوزاعي ، من قبل ، كان أيضا لنفس هذه الأسباب لما اشتهر به ، هو الآخر من تقيده بالمأثور ونفوره من التعقيد الفلسفي . فمن طبيعة المغاربة أخذ الأمور جديّا عن طريقها اليقيني مهما صعبت مسالكها ، مبالغة في الاحتياط وابتعادا عن مزالق الشبهات . ولأجل هذا أخذوا أنفسهم كذلك بالشدة في القراءات ، فاختاروا أصعبها وهي قراءة نافع .

ولم يقتصر انتشار المذهب المالكي على بلدان المغرب وحدها ، بل قد أخذت به بلاد الأندلس أيضا ، التي كانت على مذهب الأوزاعي قبل ذلك كما هو معلوم .

وقد اختلف المؤرخون فيمن أدخل مذهب مالك الى الأندلس . فبينما نرى ابن القوطية في " تاريخ افتتاح الأندلس " (2) والقاضي عياض في " ترتيب المدارك " (3) يقولان أن أول من

---

(1) ابن خلدون : المقدمة . ص : 805 — 806 .
(2) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . ص : 58 — 59 . ت . الطباع دار النشر للجامعيين ، بيروت 1957 .
(3) القاضي عياض : ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك . ج . 3 . ص : 114 . ط . وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب بدون تاريخ .

أدخل الموطأ وقراءة نافع الأندلس هو الغازي بن قيس القرطبي ، نجد المقري يرى أن الذين أدخلوا مذهب مالك هم نفر من الفقهاء الأندلسيين ساروا في أحكامهم على رأى مالك وأهل المدينة ، وذلك أثناء خلافة الحكم بن هشام (179ــ 205 هـ)، وقد أقرهم الخليفة على ذلك لما سمعه عن هذا العالم من فضل وغزارة علم(1).

ونراه في موضع آخر يقول : "ان تحول الأندلسيين من مذهب الأوزاعي الى مذهب مالك تم على يد بعض الفقهاء على رأسهم عبدالملك بن حبيب ويحي بن يحي الليثي وأبي عبد الرحمن زياد بن عبدالرحمن اللخمي الملقب بشبطون (2).

فمهما يكن من خلاف حول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس فان من المؤكد أن المذهب قد رسخت أقدامه ايام هشام بن عبدالرحمن الذى الزم الناس اتباعه ، وذلك بتعيين القضاة المالكيين(3).

والفضل يرجع في ذلك الى شيخ فقهاء ذلك العصر وهو : يحي بن يحي الليثي مؤسس المدرسة المالكية بقرطبة ، فقد كان يتمتع بجاه عريض لدى البلاط الأموي بالأندلس ، حتى كان الخليفة عبدالرحمن بن الحكم "يبجله تبجيل الأب ، ولا يرجع عن قوله ، ويستشيره في جميع أمره فيمن يوليه ويعزله "(4).

وكذلك كان هشام بن عبدالرحمن مع شبطون (5) الذى يعتبر هو وعيسى بن دينار والليثي المؤسسين الأوائل لمدرسة قرطبة التي سيكون لها أبلغ الأثر على بلدان المغرب فيما بعد .

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 2 . ص: 46 . ت . احسان عباس بيروت 1968 .
(2) المرجع السابق . ج . 3 . ص: 230 ـ انظر أيضا : ابن خلدون المقدمة ص 806 .
(3) ابن القاضي : جذوة الاقتباس : ص : 519 (مخطوط الخزانة العامة بالرباط).
(4) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ج . 3 . ص: 382 .
(5) المقرى : نفح الطيب : ج . 1 . ص: 340 . ت . احسا ن عباس .

وقد عاصر هذه المدرسة الأندلسية مدرسة أخرى نشأت ببلاد افريقية على يد سحنون[1] صاحب "المدونة"[2]، ومن أعلامها المشهورين ابن أبي زيد الذى اختصر المدونة في كتابة " المختصر " وقد لخصه بعد ذلك أبو سعيد البراذعي بدوره في كتاب سماه " التهذيب " فاعتمده أهل القيروان دون غيره[3]، كما اعتمد أهل الأندلس أول الأمر على " الواضحة " كتاب ألفه عبد الملك بن حبيب[4] كان بمثابة شرح " للموطأ ".

وعندما ألف العتبي " العتبية " اعتمدوه وأهملوا الواضحة وما سواها[5].

---

(1) هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (160 — 240) هـ . قرأ على ابن القاسم بن وهب، وعلى أشهب . وانتهت الرآسة في العلم بالمغرب اليه . وكان يقول : " قبح الله الفقر، أدركنا مالكا وقرأنا على ابن القاسم ". انظر ترجمته مفصلة عند القاضي عياض : في ترتيب المدارك . ج . 2 . ص : 585 — 626 . ط . أحمد بكير دار مكتبة الحياة بيروت، وعند ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج . 3 . ص : 180 — 182 .

(2) أصل كتاب "المدونة " لابن القاسم شيخ سحنون وأسد بن الفرات، وهو عبارة عن أسئلة كان قد وجهها هذا الأخير لابن القاسم عندما كان يدرس عليه ، فأجابه عنها فدونها ابن الفرات قبل أن يتم ابن القاسم تنقيحها . وعندما رحل سحنون لمصر روى المدونة عن شيخه ابن القاسم، وكان قد أتم تنقيحها فبوبها سحنون، ورتب فصولها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار فأصبحت تنسب اليه أكثر من غيره . (انظر المرجعين الآنفي الذكر) .

(3) الدباغ : معالم الايمان : ج . 3 . ص : 184 — انظر كذلك ابن خلدون : العبر : المقدمة . ص : 807 .

(4) انظر ترجمته مفصلة عند ياقوت الحموى : معجم البلدان : ج . 1 . ص : 348 — 349 .

(5) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي . ص : 417 .

وقد تخرج من كلتا المدرستين علماء مشهورين يفوقون الحصر عدّا ، ذكرت كتب الطبقات مجموعات كبيرة منهم . وقد خصص بعض أصحاب هذه التراجم مؤلفات ضخمة لتتبّع أخبار هؤلاء العلماء محاولة حصرهم وتصنيفهم الى طبقات ، نذكر كمثال على ذلك محاولة القاضي عياض في كتابه " ترتيب المدارك " .

غير أن الذين جاؤا بعد هذا الرعيل الأول كانت مؤلفاتهم تدور حول الكتب الأمهات التي ذكرنا بعضها آنفا ، اما شرحا ، أو اختصارا أو نظما[1].

ولا يفوتنا أن نشير الى أن المذهب المالكي قد تعرض لامتحانات قاسية قبل أن تتم له السيادة المطلق على بلدان المغرب ، وقد بلغت هذه الامتحانات أوجها في أواخر العهد الأغلبي ، وتحت الحكم الشيعي خاصة . الا أن هذه المحن لم تؤثر في علمائه شيئا رغم ما قاسوه من تشريد وتعذيب وتقتيل .

وما كاد الزيريون يعلنون استقلالهم عن الدولة الشيعية في منتصف القرن الخامس حتى عاد المذهب المالكي الى أقوى مما كان عليه في الماضي .

وقد جاءت الدولة المرابطية في هذه الظروف يتقدمها زعيمها الروحي الفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي الذى كان ينتمي - كما نعلم - الى المدرسة المالكية التي أنشأها أبو عمران الفاسي بالقيروان ، والتي تعتبر امتدادا لمدرسة سحنون صاحب " المدونة " فهو لم يدرس عليه مباشرة ، ولكنه تخرج على يد أحد تلامذته الكبار . وهو وجاج بن زلو اللمطي[2] الذى أنشأ له مدرسة هو الآخر في مدينة " نفيس " ببلاد المصامدة .

(1) ابن خلدون : المقدمة . ص : 807 .
(2) انظر تفصيل ذلك عند ابن أبي زرع : روض القرطاس . ص : 123 . ت . عبدالوهاب .

وقد أخذ ابن ياسين على عاتقه مهمة ترسيخ المذهب المالكي في كل أنحاء المغرب، خاصة بلاد صنهاجة وما يتصل بها من بلاد السودان. وقد جعل هذا المبدأ الدعامة الرئيسية التي أقام عليها دولته التي أنشأها فيما بعد.

وقد استطاع هذا الفقيه الزاهد، بفضل خطته الاصلاحية الدينية أن يحارب كل النزعات المذهبية وينتصر عليها. وعندما قدر لمدرستي قرطبة والقيروان أن تجتمعا في أرض المغرب المرابطي بعد هجرة علماء كل من القطرين اليه لما تعرضا له من اضطرابات وفتن كان من نتيجة ذلك أن ازدهرت هذه الثقافة الدينية لما صادفته من قبول حسن وتشجيع كبير من طرف كل حكام هذه الدولة التي تعتبر بحق حامية المذهب المالكي.
فانتشرت حلقات العلم في كل مساجد القطر وتنافس العلماء والفقهاء في نشر معارفهم مولين أهمية خاصة لعلم الفروع.

وهكذا تمت السيادة للمذهب المالكي على كل بلدان المغرب والأندلس. وقد استطاع بفضل ذلك أن يطبع الثقافة في هذين القطرين ويوجههما توجيها خاصا، ولا سيما أيام المرابطين حيث اشتد ايثار الحكام لأهل الفقه حتى "لم يكن يقرب من أمير المسلمين (علي بن يوسف) ويحظى عنده الا من علم علم الفروع، أعني فروع مالك"(1).

4 — مآخذ ابن تومرت على المرابطين.

لقد حاولنا جاهدين أن نستشف من وراء كل ما قرأناه عن المرابطين، ما يمكن أن يوحي بانحراف هؤلاء عن جادة الدين طوال فترة حكمهم

(1) عبدالواحد المراكشي : المعجب . ص: 236 . ت . العريان .

أو نلمس فيهم ما يمكن أن يصمهم بالكفر ، فلم نعثر ، فيما بين أيدينا من الوثائق ، على ما يمكن أن يشير الى ذلك من قريب أو بعيد .

بل لعل من الانصاف أن نقول أن شعوب المغرب لم تعرف يوما الاطمئنان الديني ، ولا أحست بعدالة مبادئه ، بقدر ما فعلت تحت ظل المرابطين . وهذا بشهادة كل المؤرخين المنصفين الذين أرخوا لهذه الفترة التي نحن بصدد بحثها .

وإذا كان هنالك ما يمكن أن يؤخذ عليهم أو يلاموا عنه فهو ذلك التزمت النسبي الذى اشتهر به بعض فقهائهم الذين حاولوا أن يحصروا مجال البحوث الدينية في نطاق ما يسمى " بعلم الفروع " .

وهم لم يفعلوا ذلك ـ أول الأمر ـ على ما نظن ، الا من باب الاحتياط حتى لا يتورطوا في جدالات دينية عقيمة ، قد تؤدى بضعاف الايمان الى مزالق الشبهات ، أو تزجّ بهم في الخلافات المذهبية التي عانوا منها الأمرين منذ الفتح الاسلامي . وقد كانت هذه الاختلافات المذهبية نفسها السبب الرئيسي في التفافهم حول المذهب المالكي ، الذين كان في نظرهم يعكس حياة الخلفاء الراشدين بحق .

فكيف يمكن بعد هذا أن نتهم هؤلاء المرابطين بالانحراف أو الكفر ؟ بل ما هو كنه هذه التهمة التي جعلتهم في نظر الموحدين قوما مارقين من الدين يجب خلع طاعتهم ومحاربتهم . ان المتتبع لآثار ابن تومرت المكتوبة ، وما سجله فيها من انتقادات على المرابطين ، يجد أن كل ما كان يرميهم به من كفر والحاد يكاد ينحصر فيما سماه هو بالتجسيم أى أن المرابطين

لم يؤولوا ما ورد في الكتاب من آيات متشابهة بشأن صفات الباري ، فكأنهم بذلك قد جسموا الذات الالهية [1] .
بينما يرى هو أن اضافة الصفات للذات الالهية معناه الاشراك بالله . فالله عالم بذاته ، قادر بذاته ، حيّ بذاته ، لا بصفات محدثة ، فهو لذلك موحد . وكل من لا يقول بفكرة التوحيد هذه ، فهو عنده كافر . ومن هنا اقتبس اسم الموحدين الذى أطلقه على اتباعه . وفكرة التوحيد هذه تشكل الدعامة الرئيسية في مذهبي ابن تومرت : الديني والسياسي كما نعلم .

على أن هذه الفكرة نفسها لم تكن له ، وانما اقتبسها من المعتزلة ، كما أشار لذلك العلامة " جولدزيهر "[2] فهم الذين كانوا يقولون بفكرة التوحيد هذه ويشددون فيها فقد " اتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه ، جهة ، ومكانا ، وصورة وجسما ، وتحيزا وانتقالا ، وزوالا ، وتغييرا ، وتأثرا ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط توحيدا "[3] .
على أن الموحدين كانوا أكثر تشددا من المعتزلة في هذه النقطة . فهم لم يأخذوا بنظرية الأشاعرة التي تقول بأن الصفات معان قديمة قائمة بالذات ، كما لم يكرروا قول المعتزلة حرفيا ، حيث قالوا بأن الصفات هي عين الذات ، وانما ذهبوا الى نفيها تماما ، ولم يثبتوا منها الا ما أثبته الله لنفسه ، أي الاسماء الحسنى[4] .

ويرمي الموحدون المرابطين بأشياء أخرى يرون أن اتصافهم بها يخرجهم من الملة الاسلامية ، وذلك كالتثام رجالهم وسفور نسائهم .

---

(1) انظر هذا الموضوع مفصلا لدى يحي هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية : ج . 1 . ص : 212 ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1966 .
(2) Goldziher. Md Ibn Toumeurt et la Theologie de l'Islam dans le Maghreb au XI Siecle. P. 55.
(3) الشهرستاني : الملل والنحل المنشور على هامش كتاب " الفصل " ج . 1 . ص : 51 ـ 52 ـ القاهرة 1847 .
(4) لمزيد من التفصيل انظر يحي هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام ، ج . 1 . ص : 237 .

وهذا ، في اعتقادهم ، أمر مخالف للدين لما فيه من محاولة تشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال[1]. ويلفقون لهم تهما أخرى يحاولون بذلك أن يظهروهم أمام أعين العامة كمارقين من الدين ، ويلعنونهم بعلامات يدعون أن الرسول (ص) قد أخبر بها قبل وجودهم ، ويروون في ذلك أحاديث محاولين أن يجعلوهم المقصودين بها[2].

والحق اذا ما جئنا لتمحيص نظريات ابن تومرت الفقهية وآرائه المذهبية ، فاننا لا نكاد نعثر له فيها على جديد يختص به . فمذهبه عبارة عن خليط من النظريات والآراء اقتبست من مذاهب شتى ، لا يربط بينها الا رباط المنفعة التي تخدم صاحبها . فهو لم يستطع أن يخلق مذهبا خاصا به ، ولا استطاع أن يتبع مذهبا معينا من المذاهب المعروفة ، لكنه كان يأخذ من كل مذهب ما يوافق اتجاهاته السياسية او يتلاءم مع ما يطمح اليه من أهداف .

فقد تظاهر باتباع الغزالي لأنه هاجم فقهاء الفروع[3] ، وكان هؤلاء يديرون دفة الحكم على العهد المرابطي .

---

(1) انظر حديث ابن عباس في كتاب " أعز ما يطلب " ، ص : 263ـ 264 .

(2) البيدق : أعز ما يطلب . ص : 258ـ 266 . ت . جولدزيهر الجزائر 1903 .

(3) نص ما قاله الغزالي في فقهاء الفروع : " ... لو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني ، حتى عن الاخلاص مثلا ، أو عن التوكل ، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه ، مع أنه فرض عين الذى في اهماله هلاكه في الآخرة . ولو سألته عن اللعان والظهار ، والسبق ، والرمي ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج الى شيء منها . وان احتيج ، لم يخل البلد عمن يقوم بها ، ويكفيه مؤنة التعب فيها . فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا ، وفي حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين ، واذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض =

ويتظاهر باتباع الأشاعرة رغم اختلافه معهم في بعض المسائل الأمهات ، ليناوئ فقهاء الفروع الذين هم على المذهب المالكي [1].

ويتظاهر باتباع المذهب الظاهري تحديا للمرابطين الذين كانوا يترخصون في التأويل على المذهب المالكي .

ويذهب مع المعتزلة في نفي الصفات لأنّ ذلك يخدم فكرة التوحيد التي جاء مبشرا بها .

ويذهب مع الشيعة ، وهو ليس منهم في شيء ، لأنهم يثبتون فكرة العصمة التي كانت عنصرا هاما في مذهبه [2].

= الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه اداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثير من فروض الكفاية ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب الا من أهل الذمّة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحدا يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات ، والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى ، والجواب عن الوقائع . فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية ، قد قام به جماعة واهمال مالا قائم به ، هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولي الأوقاف والوصايا ، وحيازة مال اليتيم ، وتقلد القضاء ، والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله تعالى المستعان واليه الملاذ ....."

الغزالي احياء علوم الدين : ج . 1 . ص : 22 . ت . بدوي طبانة القاهرة 1957 .

(1) يقول المراكشي في المعجب . ص : 255 " وكان (أي ابن تومرت) على مذهب ابن الحسن الأشعري في أكثر المسائل ، الا في اثبات الصفات ، فانه وافق المعتزلة في نفيها ، وفي مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن شيئا من التشيع ، غير أنه لم يظهر منه للعامة شيئا ".

(2) انظر كذلك من هذا الموضوع : يحي هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية : ج . 1 . الفصل الثاني . ص : 212 وما بعدها مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1966 .

فنحن لا نرى في كل هذا أين هو الاصلاح الديني الذى جاء به ابن تومرت ؟

فماذا كان يفيد المسلم العادى — مثلا — أن يعرف الصفات ان كانت قديمة أم حديثة ؟

وهل كان ابن تومرت يعتقد حقا في قرارات نفسه أن فكرة " التوحيد " هذه التي تولدت عن نفي الصفات هي العنصر الوحيد لصحة ايمان المسلم ؟ نحن نشك في هذا ، ونعتقد اعتقادا جازما أن السواد الأعظم من الأمة المغربية المسلمة لم يكونوا ، آنذاك ، قد بلغوا مستوى من التفقه في الدين يستطيعون معه استيعاب هذه التصورات الذهنية والفلسفة المحضة ، ولا كانوا مفتقرين لهذه الأمور الميتافيزيقية ، ان صح التعبير ، ليصح ايمانهم .

ولعل من الانصاف أن نقول : ان ما جاء به ابن تومرت من نظريات مذهبية وما استحدثه من عقائد ملتوية ، زاد في بلبلة بسطاء المسلمين وزعزعة ايمانهم بدل أن يرسخه ، فكان ذلك سببا لاضطراب الكثيرين منهم .

فمن المغالطة المحضة اذن ، أن نعد ابن تومرت من رجال الاصلاح الديني لمجرد ما كان يتحلى به من مظاهر الزهد والتقشف . فهو عالم حقا ، الا أنه سياسي طموح ، كانت أهدافه البعيدة هي انتزاع السلطة من أيدى المرابطين ، أعداء المصامدة التقليديين .

وقد ساعدته حنكته السياسية وقدرته العلمية الواسعة وما أوتيه من فصاحة خارقة في كلتا اللغتين ، العربية والبربرية خاصة على استمالة قلوب الطبقات الشعبية التي لم تألف سماع هذه اللغة التي هي لغتها الأم ، تجرى على لسان شخص بهذه الطلاقة والسلاسة مطعمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، شارحة لأمور الدين مقربة للفلسفته .

فقد لعبت فصاحته بعقول الخاصة والعامة على السوى ، فانقادوا له طائعين مصدقين بكل ما جاء به على حدّ تعبير المراكشي : فتزايدت طاعة المصامدة لابن تومرت لدرجة " لو أمر أحدهم بقتل أبيه ، أو أخيه ، أو ابنه ، لبادر الى ذلك من غير ابطاء "[1].

ولعل أكبر شاهد على عبقريته التنظيمية قدرته على اذابة كل هذه الجموع الغفيرة التي كانت تعج بها بلاد المصامدة في بوتقة واحدة في ظروف وجيزة جدا ، وهي التي لم تألف الانقياد لغير رؤساء قبائلها الا ظاهريا .

ولقد هدته عبقريته السياسية ، من ناحية أخرى ، الى أن أحسن وسيلة لمواجهة خصمه ، هي الالتجاء الى الحيلة في كل مظاهرها . فعمد الى الطعن في صحة فلسفة حكم المرابطين ، بالتشكيك في نظرياتهم الاصلاحية الدينية ، التي كانت مصدر قوتهم . واخترع للناس اصلاحا دينيا بديلا . لأن الدين في ذلك الوقت ، وفي تلك المناطق النائية بالذات ، كان النغمة المسيطرة التي يطرب لها كل سامع . فكان ، بالتالي ، الوسيلة الضامنة لبلوغ كل الأهداف .

ولعل أقوى مايؤيد نظريتنا في الرجل ، هو أساليب الشعوذة التي كان غالبا ما يلجأ اليها لاقناع اتباعه بما كان يدعيه من خوارق العادات[2]. فان الذى سفكه من دماء في سبيل بسط نفوذه في جبال درن وحدها ، مثلا ، لا يمكن أن يصدر الا عن سياسي جائر ، جعل نصب عينيه منصب السلطة مستحلا كل وسيلة للوصول اليه[3].

---

(1) عبدالواحد المراكشي : المعجب ، ص : 259 . ت . سعيد العريان .
(2) ابن أبي زرع : القرطاس : ص . 181 — 183 .
(3) يصف ابن زرع ابن تومرت بأنه كان " سفاكا للدماء ، غير متورع فيها ولا متوقف عنها ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس في هوى نفسه وبلوغ غرضه . . . "
— أنظر : القرطاس . ص : 181 .

فهو لم يتورع ، زيادة على كل ذلك ، أن يتشبه بالرسول (ص) في كثير من الأشياء ، ابتداء بانتحال اسمه واسم أبيه . وقد قلده في البيعة التي وقعت له تحت شجرة الخروب تشبها ببيعة الرضوان ، وقلده في الهجرة ، حيث اعتبر نزوحه الى تنملل ، عند ما استدعاه أهلها ، هجرة . وقد آخى بين أصحابه وسكان تنملل الذين اعتبرهم بمثابة الأنصار ، تماما كما فعل الرسول (ص) من قبل بالنسبة للمهاجرين . وقد قلده أيضا في التعبد في الغاره حيث كان يعتكف هو الآخر في غار بخارج " تنملل " يسمى " الغار المقدس " ، وقد اصطفى عشرة من أصحابه جعلهم المقربين . اقتداء بالعشرة المبشرين من أصحاب الرسول (ص) .

بل لقد قلده حتى في أن يكون له قرآن هو الآخر : ألم يؤلف عقيدة لأصحابه باللغتين : العربية والبربرية ، وقسمها سبعة أحزاب على عدد أيام الأسبوع ، وفرض عليهم قراءة حزب كل يوم بعد صلاة الفجر ؟! وكان يرمي كل من لم يحفظها بالكفر .

فأين يكمن الاصلاح الديني في كل هذا ؟ الا أن يكون مفهوم الاصلاح عند هؤلاء الذين عدوا ابن تومرت من رجال الدين هو التشدد والتقشف ، وهذا الذى دعا اليه ابن تومرت فعلا ، طول حياته ، وان تظاهر بتحرير العقل . أقول تظاهر ، لأن العقل ، في واقع الأمر ، لم يحرره الى فيما يخص البحث في أصول الفقه وأصول الدين ، أما فيما يتعلق بالفلسفة ، مثلا ، فقد كان ينظر اليها – في العهود الأولى ، على الأقل – بنفس النظرة التي كان ينظر اليها من قبل ، هذا لكي لا نقول أنها كانت أكثر احتقارا .

والذى اذهلنا أكثر ، هو أن نرى أحد المفكرين الكبار كابن خلدون يغترّ بمظهر هذا الزاهد المتقشف فيعقد له فصلا خاصا في " المقدمة " للدفاع عن صحة ما كان يدعيه من الامامة ، والعصمة ، كما دافع عن صحة نسبه للرسول (ص) الذى أدعاه أيضا .

وابن خلدون أقدر من أي كان على معرفة الحقيقة ، بحكم اختصاصه في الأنساب وتضلعه وسعة اطلاعه في تاريخ المغرب ورجاله . والغريب في الأمر أنه ساق هذا الدفاع في معرض الرد على اغلاط المؤرخين ودعاويهم المغرضة . ورد تكذيب العلماء لدعوته الى حسدهم لأنهم كانوا ينفسون عليه مكانته التي وصل اليها . وهو يرى أن ابن تومرت لم يقصد بذلك الا وجه الله ، " فلو كان قصده غير صالح لما تم له أمر ، وانفسخت دعوته ، سنة الله التي قد خلت في عباده "(1).

وقد أورد عبدالله عنان تفسيرا لهذا الدفاع الحار من طرف ابن خلدون عن ابن تومرت فقال : " . . . وانما حمل ابن خلدون على الدفاع على المهدى ودعوته ، بواعث خاصة ، أولها أن بني خلدون — أسرة المؤرخ — كانت قد غادرت الأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجرى ، قد نزلت بتونس ، وعاشت في رعاية بني حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التي أسسها الأمير أبو يحي زكرياء بن عبدالله الواحد بن أبي حفص عمر الموحدى . . . . وبدأ هو حياته العامة في ظلهم وعاش في كنفهم ردحا من الزمن ، وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي سنة 784 هـ . فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في مقدمته بالطعن في امامة المهدى ودعوته ، وهي التي كانت أساسا لقيام الدعوة الموحدية "(2).

وهذا معناه — حسب رأي عبدالله عنان — أن ابن خلدون لم يكن يومن بصحة دعوة المهدى — كما صرح بذلك — ولا كان مقتنعا بصحة انتسابه الى آل البيت ، وانما تظاهر للدفاع عنه لمجرد التزلف للأمير الحفصي ، الذى أهدى اليه " المقدمة " . ونحن

---

(1) ابن خلدون : المقدمة . ص : 42 — 45 .
(2) عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين . ص : 194 .

تستعبد أن يسف عالم كابن خلدون الذى اشتهر بالنزاهة والتعفف ، لدرجة تزييف حقائق تاريخية لمجرد ارضاء بعض العواطف الشخصية . ولو كان يريد حقا الاعراب عن ولائه للحفصيين أولياء نعمته لما اعوزته السبل الى ذلك .

على أنّ ابن خلدون لم يدافع عن صحة دعوة ابن تومرت وصحة نسبه في آل البيت وحدهما بل قد دافع ايضا عن صحة انتساب العبيديين الى الامام الشيعي اسماعيل بن جعفر الصادق[1]. كما دافع كذلك عن صحة انتساب ادريس بن ادريس مؤسس الدولة الادريسية بالمغرب الى البيت العلوى[2].

وقد كان يعتمد في دفاعه هذا ، خاصة ، على تفنيد حجج الطاعنين في أصل هؤلاء ، دون أن يثبت — في الواقع — نسبهم بطريقة موضوعية لاعتقاده أن "الناس مصدقون في أنسابهم "[3] ويسوق نجاحهم في تأسيس دولهم كأكبر حجة على صدق ما يدعونه[4].

فهذا التعاطف الذى يبديه ابن خلدون نحو كل من ينتسب الى آل البيت العلوى يحملنا على الميل الى أن الرجل كان ذا نزعة شيعية الا انه لا يظهرها ، فيكون حينئذ دفاعه عن ابن تومرت على هذا الاعتبار دفاعا حقيقيا لا لمجرد المجاملة .

وبعد نخلص من كل ما تقدم الى أن الدوافع الحقيقية التي أدت الى ذلك الانقلاب الذى وقع في بلدان المغرب على يدى ابن تومرت انما هي دوافع سياسية خفية ، مصدرها الأساسي هو النزاع القبلي

---

(1) ابن خلدون : المقدمة . ص : 33.
(2) نفس المرجع . ص : 37.
(3) نفس المرجع . ص : 42.
(4) انظر ماقاله في المقدمة عن نجاح الفاطميين والأدارسة والموحدين . ص : 33 الى 45.

الموروث ، والتنافس على السلطة الذى كان يفصل بين كل من المصنهاجيين الصحراويين ، وجيرانهم المصامدة ، سكان جبال درن ، منذ الأزل .

فالصبغة الدينية التي اكتسبتها هذه الحركة السياسية في عهودها الأولى ، انما كانت للتمويه وتبرير الثورة ضد المرابطين في عيون الطبقات الشعبية ، أما الخاصة ورؤساء القبائل المصمودية الأساسية ، فقد كانوا يدركون تماما الأبعاد التي ترمي اليها حركة ابن تومرت فهم لذلك آزروه [1] . والا ما كانوا ليزجوا بأنفسهم وذويهم في أتون الحرب في سبيل نظريات مذهبية غامضة .

وقد جازاهم ابن تومرت ، كل حسب مركزه والقوة التي تدعمه ، بمجرد أن بايعوه على الطاعة ، ولولا مساندتهم القوية له ما استطاع أن يحقق أي شيء من دعوته تلك .

غير ان ابن تومرت لم يستطع رغم ذلك أن يفتح أية مدينة من المدن المرابطية ، ما عدا المناطق الجبلية التي كان يعمرها اتباعه المصامدة ، وهذا رغم هجوماته العديدة التي شنها على المرابطين ، كانت آخرها " وقعة البحيرة " المشهورة التي لاقى فيها الموحدون أبشع هزيمة حيث استشهد فيها أغلب جيشهم وعلى رأسه محمد البشير الونشريسي وأربعة آخرون من "آيت عشر" [2] .

---

(1) انظر ماقاله ابن أبي زرع في القرطاس : ص : 173 . ت . عبدالوهاب من اتفاق ابن تومرت وعبد المؤمن .

(2) صنف ابن تومرت اتباعه الى فيآت عدة لتسهل عليه مراقبتهم ، وتسييرهم وقد ذكر صاحب " الحلل " انهم ثلاثة عشر صنفا . اطلق على كل فئة منهم اسما خاصا . ورسم لها نظاما محصورا في اختصاصات لا تتعداها الى غيرها .

- فهناك فئة "آيت عشرة " وهم أصحاب ابن تومرت الأوائل الذين سبقوا الى الايمان به . فهم هيأته الاستشارية العليا . =

غير أن هذه الهزيمة لم تفت من عزيمة المهدى شيئا ، بل استبشر خيرا وطمأن أصحابه ، وهدأ روعهم ، وأكد لهم أن النصر آت لا محالة ، ما دام عضده الأيمن عبدالمؤمن قد نجا من الهلاك .

وقد كان مصيبا فيما قدره هذه المرة ، لو أن الأجل اسعفه حتى يرى صدق حدسه .

ولئن كان فضل التخطيط لنشأة الدولة الموحدية يرجع أساسا لزعيمها الروحي المهدى بن تمرت فان الفضل كل الفضل في ارساء قواعدها يرجع خاصة الى زعيمها العسكرى عبدالمؤمن ابن علي ، الذى يعد أكبر قائد في تاريخ المغرب الاسلامي دون منازع .

II — توحيد المغرب الاسلامي على يد عبدالمؤمن بن علي .

لم يتفق أصحاب التراجم الذين تعرضوا لذكر عبدالمؤمن بن علي على اثبات شجرة نسب واحدة له ، وان اتفق أغلبهم على ارجاعه لأصل عربي ، فقد ردوه الى قيس عيلان ، وأثبتوا نسبه في آل البيت. (1)

= وفئة "آيت خمسين" تضم خمسين رجلا من وجهاء أغلب قبائل جبال درن وهم الذين يسميهم ابن تمرت "بالمؤمنين" وكان يستشيرهم في كل ما يحز به من أمر ، لا يستطيع حصره في "آيت عشرة".
وفئة الطلبة وهم الذين كان يعتمد عليهم المهدى في نشر آرائه ، والسهر على تنفيذ أوامره . انظر تفصيل ذلك في الحلل الموشية . ص : 109 . ابن القطان : نظم الجمان . ص : 28 وما بعدها .

(1) اورد البيدق ، ابو بكر الصنهاجي في كتابه "اخبار المهدى بن تمرت وابتداء دولة الموحدين ثلاث تراجم لعبدالمؤمن تثبت ، كلها ، نسبه في آل البيت وتصعد به بعضها الى آدم . انظر المرجع المذكور. ص : 21 — 24 . ت . ليفي بروفنسال ، باريس 1928 — وترجم لعبدالمؤمن أيضا ، كل من ابن أبي زرع في "روض القرطاس" . ص : 183 وابن الخطيب لسان الدين في "رقم الحلل في نظم الدول" . ص : 54 . وهما يختلفان من صاحب "الحلل" وابن خلدون بعض الشيء .

وسلسلة نسبه كما ذكرها كل من: صاحب الحلل[1] ، وابن خلدون كما يلي : " عبدالمؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمير بن موسى بن عبدالله بن يحيى بن ورتيغ ابن صطفور بن نفور بن مطماط بن هودج بن قيس عيلان بن مضر" ومصدر المؤرخين في اثبات هذه الشجرة واحد ، حيث يذكر كل منهما أنه منقول من خط أبي محمد عبدالواحد المخلوع بن يوسف ابن عبدالمؤمن . غير أن ابن خلدون لا يوافق على هذا النسب ، فهو في نظره ، موضوع ، ومختلق ، لأن هذه الأسماء كلها عربية كما هو واضح ، " والقوم كانوا من البرابرة ، معروفون بينهم .... وعبدالمؤمن بلا شك منهم "[2].

وكل هذا ليتماشى مع ما جاء في كتاب " الجفر" المزعوم[3] وقد كان عبدالمؤمن نفسه يقول ، اذا ذكرت كومية ، " لست منهم وانما نحن لقيس عيلان بن مضر ، بن نزار ، بن معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة ، والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال ".

ويبدو أن عبدالمؤمن كان في حاجة ماسة لاثبات هذا النسب لسببين :

أولا — لأن أهل المغرب كانوا ينظرون ، آنذاك ، بنوع من الاعجاب والقداسة الى كل من هو مشرقي ، خاصة ، اذا كان من أصل عربي ، وبالأخص ، اذا كان له اتصال بالنسب الشريف . ولعل هذا ما يفسر كثرة

---

(1) الحلل الموشية . ص: 142 ، ابن خلدون : العبر : ج . 6. ص : 258 — الموسوعة الاسلامية : مادة (عبدالمؤمن) .
(2) ابن خلدون : العبر: ج . 6 .ص: 258 — لسنا ندري لِمَ لَمْ يصدق ابن خلدون عبدالمؤمن في ادعائه هذا النسب ، مادامت القاعدة عنده " ان الناس مصدقون في انسابهم التي يدعونها " . ؟
(3) انظر مارواه ابن خلكان عن قصة كتاب الجفر في " وفيات الأعيان " ج . 5 . ص : 48 . و . ج . 8 . ص : 288 . انظركذلك البيدق : أخبار المهدي . ص : 55 — 57 .

الانتحال في الأنساب التي ابطي بها كثير من المغاربة ، كما تدل على ذلك كتب التراجم .

ثانيا — لأنّ الدعوة الموحدية لازالت لم ترسخ ألداميها بعد في كامل أرض المغرب ، وقد استقر في أذهان العامة ، على الأقل ، أن صاحبها هو ، بحق ، سليل البيت العلوي الشريف ، فلا بدّ أن يكون الشخص الذي يخلفه ينتمي الى نفس الأصل حتى تثبت له شرعية الخلافة . ولذلك كان الخطباء اذا ما ذكروا عبدالمؤمن بعد ذكر المهدي ، يقولون عنه : " قسيمه ، رضي الله عنه ، في النسب الكريم "(1) .

وفيما عدا هذا فان عبدالمؤمن لم يلجأ الى الشعوذة المفضوحة التي لجأ اليها ابن تومرت من قبل لتركيز نفوذه (2) ، رغم الأساطير التي نسجت حول اختيار القدر له ، وترشيحه للخلافة حسبما جاء في كتاب الجفر ، فقد كان في الواقع يتوفر على كل الميزات التي ترشحه للرياسة .

فهو ، حقا ، لم يبلغ شأوا كبيرا في اتساع معارفه ، فان أقصى ما وصل اليه درجة معلم في منطقة نائية حسبما تذكره بعض الروايات ، ولا كان من عائلة نابهة الذكر ، فأبوه كان طيانا على أشهر الأقاويل ، ولا كان ينتمي حتى الى قبيلة قوية ، أو ذات نفوذ ، فكومية الى جانب قبائل المصامدة ، والقبائل الصنهاجية ، لا تكاد تعد بشيء . الا أن شخصيته الفذة ، وذكاءه الحاد ، وشجاعته النادرة ، غطت على كل مناقصه الجانبية ، ورشحته ، دون كل أقرانه ،

---

(1) المراكشي : المعجب . ص : 265 .

(2) هناك رواية انفرد بها ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس . ص : 184 — 185 — الكتاب الثالث القاهرة 1968 ، مفادها أن عبد المؤمن كان قد روض أسدا يجلس بين يديه وربى طائرا علمه كيف ينطق ، محاولا التأثير بذلك على اتباعه ليقنعهم باستحقاقه لولاية العهد .

كالرجل الوحيد الذى يستطيع أن يضم ، أو بالأحرى ، أن يحقق ما خططه ذلك الزعيم الروحي : المهدى بن تمرت .

لكن الشيء الذى يلفت الانتباه حقا في قيام هذه الدولة الموحدية ، هو أنها مصمودية النشأة ، غير أنها أصبحت كومية الحكم. على أن المصامدة لم يتجشموا ما تجشموه من تضحيات الا لكي يستردوا السلطة والجاه اللذين انفلتا من أيديهما ، منذ أن رجحتهم كفة اللمتونيين بتأسيسهم للدولة المرابطية . فهل يمكن ، والحالة هذه ، أن يسلموا الأمر لعبد المؤمن عن طواعية ورضى ، وبهذه السهولة ، وهو أبعد ما يكون من قبائلهم ؟ ! وهل مجرد الصحبة التي كانت تربطه بابن تمرت تخوّل له أن يكون الوريث الشرعي لعرشه ، دون منازع ، حتى ولو صحت الرواية التي تقول بولاية العهد لعبد المؤمن ".

اذا ما جئنا نستفتي كتب التاريخ في هذه النقطة بالذات ، نجدها متضاربة بعض الشيء ، فيما يتصل بتاريخ اعلان وفاة المهدى ، ومبايعة عبد المؤمن .

فرواية عبد الواحد المراكشي — وهو مؤرخ موحدى — تفيد أن ولاية عبد المؤمن وقعت سنة 524 ، بعد وفاة المهدى مباشرة ، طبقا للعهد الذى أخذه ابن تموت على المصامدة يوم " خطبة الوداع "[1]. وهذا يعني أن مبايعته وقعت باجماع المصامدة ، ودون أية معارضة .

غير أن رواية كل من البيدق[2] ، وابن أبي زرع[3] ، وابن عذارى[4] ، تفيد أنه لم يبايع رسميا الا في حدود سنة 527 على الأشهر[5] .

---

(1) المراكشي : المعجب . ص : 262 — 264 .
(2) البيدق : أخبار المهدى . ص : 45 و 95 دار المنصور للطباعة الرباط 1971 .
(3) ابن أبي زرع : روض القرطاس . ص : 186 . ط . ع . بالمنصور .
(4) ابن عذارى : البيان : ج . 4 . ص : 84 .
(5) يتفق مع هؤلاء كل من : ابن خلدون في العبر . ج . 6 . ص : 229 والسلاوى في الاستقصاء . ج . 2 . ص : 91 . حيث يؤكدان أن خبر اخفاء وفاة المهدى دام ثلاث سنوات مما يفهم منه ان البيعة وقعت سنة 527 . ويجعلها ابن القطان في نظم الجمان . ص : 130 و 168 ، في سنة 529 .

لكن هؤلاء مختلفون ، من جهة أخرى ، على أن عبدالمؤمن قد تلقى بيعة سرية قبل ذلك من طرف بعض رؤساء المصامدة ، اثر وفاة المهدى مباشرة ، أى سنة 524 ، مما يدلنا على أنه كان هناك خلاف حاد بين كبار المصامدة ، حول من يتولى الأمر بعد ابن تومرت ، ولذلك ، اضطر بعض خاصته الى اخفاء وفاته ، والاكتفاء بالبيعة السرية لعبدالمؤمن بن علي ، ريثما يتدبرون أمرهم.

والواقع أن تولية عبدالمؤمن ، لم تكن بالشيء السهل ، رغم ما كان يحيطه به ابن تومرت في حياته من رعاية ، وما كان يحمله من مسؤوليات ضخمة لانجاح الدعوة ، وكان هذا بمثابة الاقرار له بولاية العهد [1].

لكن كثيرا من رجالات المصامدة كانوا ينتظرون شغور منصب الخلافة بفارغ صبر . وقد اشتد التنافس بين بعض مشائخ الموحدين من "أهل الخمسين" لدرجة خطيرة ، وكان تغليب أى طرف على الأطراف الأخرى معناه الحروب واختلال وحدة صف الموحدين جميعا ، وحسما للنزاع ارتأى بعض عقلاء المصامدة ، على رأسهم أبو حفص عمر أصناك أن يقدموا عبدالمؤمن ، نظرا لما كان يتمتع به من حظوة لدى المهدى ، وخاصة ، نظرا لكونه أجنبيا محايدا ، حسب رواية ابن أبي زرع [2] ، فقاموا بتزكيته لدى رؤساء الموحدين ، مركزين على هذه الناحية .

ويبدو أن أبا حفص نفسه كان يطمع ، هو الآخر ، في المنصب وان لم يصرح بذلك ، وحسب رواية ابن الأثير ، أنه كان على اتفاق مع عبدالمؤمن على أن يتولى الأمر بعده [3] . ولعلّ هذا ما يفسر

---

(1) انظر تفصيل ذلك عند السلاوى : الاستقصاء : ج . 2 . ص : 91 .
(2) ابن أبي زرع : القرطاس ، ص : 184 . ط . ع . بالمنصور .
(3) ابن الأثير : الكامل : ج . 11 . ص : 41 و 50 .

تلكوءه في مبايعة أبي يعقوب يوسف الذى خلف أباه ، حيث لم يبايعه الا بعد أربع سنوات من توليته .

ولم يقنع عبدالمؤمن بالخلافة لنفسه فحسب ، وانما أراد أن يجعلها وراثية في عقبه . وقد كان يدرك تماما صعوبة ذلك ، نظرا لضعف موقفه بين قبائل المصامدة ، اذ لم تكن له فيهم أية عصبية تسنده ، فلم يجد بدّا — حسب رأى بعض المحدثين — من الاستعانة بالعرب الهلاليين لتحقيق هذا الهدف.[1].

وعندما تم له ذلك سمى أولاده على الأقاليم المغربية والأندلسية بدلا من أشياخ الموحدين[2] فولى ابنه أبا محمد عبدالله على بجاية وأعمالها ، وأبا الحسن علي على فاس وأعمالها ، وابنه أبا حفص عمر تلمسان وأحوزها[3]، وابنه أبا سعيد سبتة وطنجة ، وابنه أبا يعقوب يوسف اشبيلية وشلب وأحوازهما.[4].

ولكن رغم كل هذا فقد كان منافسوه من المصامدة وأقارب المهدى يتربصون به الدوائر ، فقد حاولوا نبذ طاعته مرارا ، كما حاولوا اغتياله .

وكان أول من حاول ذلك عبدالله بن يعلى المشهور بابن ملوية ، أحد أصحاب المهدى العشرة ، فقد كان ينقم على عبدالمؤمن استئثاره بالحكم ، فدفعه حسده له الى مداخلة المرابطين للقضاء على الموحدين جملة واحدة ، الا أنه لم ينجح[5] . كما حاول ذلك يصليتن قريب المهدى سنة 548[6]، ثم اخواه عبدالعزيز وعيسى[7] وذلك سنة 549 .

(1) Marçais (G.) La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen âge . Ed. Montaigne. Paris,1946. PP. 262-263.

(2) عددهم ثمانية عشر ولدا ذكرهم ابن أبي زرع بالاسم في كتابه القرطاس ص : 202 — 203 .

(3) ابن أبي زرع القرطاس . ص : 194 . السلاوى : الاستقصاء . ج . 2 . ص : 110 .

(4) ابن ابي زرع : روض القرطاس . ص : 195 . (عبدالوهاب بمنصور) .

(5) عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين . ص : 226 .

(6) ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 194 . السلاوى : الاستقصاء . ج . 2 . ص : 110 111

(7) نفس المرجع . ص : 195 .

غير ان عبدالمؤمن تمكن منهم جميعا ، بل قد حاولت طائفة من المصامدة اغتياله مرة ، وذلك بعد عودته من فتح افريقية ، لولا أن افتداه أحد أصحابه بنفسه [1]. وعندما لم يجد بدا من الاستنجاد بقبيلته كومية سراً فأقبلت عليه زناتة في أربعين ألف رجل [2] فتقوى بهم على المصامدة فدانوا له بالطاعة.

وأغلب الظن أن عبدالمؤمن لم يلجأ الى تسمية خلف له في حياته الا عندما رأى التنافس يزداد حدّة بين "إمغارن" على هذا المنصب ، وأسس الدولة لم يتم ارساؤها بعد .

ومهما يكن من أمر فهو لم يغتصب الحكم من المصامدة حيث هو نفسه أصبح من جملتهم بفضل مؤاخاة المهدى لقبيلته كومية وهو لم يفعل الا ما يمكن أن يفعله أى كان تولى منصبه . ثم لاننسى أن فضل انشاء الدولة الموحدية يرجع أساسا الى عبقريته الشخصية ، وما قام به من تضحيات جسيمة للاطاحة بالدولة المرابطية في المغرب الأقصى ، والقضاء على بقية الصنهاجيين في كل من المغرب الأوسط وافريقية . على أنه بغض النظر عن كل هذا ، لو جئنا نبحث عمن يليق خلفا لعبدالمؤمن بين كل رجالات الموحدين ، لما وجدنا أحسن من أبي يعقوب يوسف الذى خلفه ، ولا أحسن من أبي يوسف يعقوب المنصور الذى خلف أباه بعد ذلك .

والواقع أن أحسن عهود الدولة الموحدية هي هذه الفترة التي تعاقب فيها هذا الثالوث الآنف الذكر . وما أن جاء عهد محمد الناصر وابتدأ تدخل شيوخ الموحدين يظهر بشكل سافر على المسرح السياسي حتى بدت بوادر التفكك تطل برؤوسها . فاضطر الناصر

(1) ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 199 . (بلمنصور) .
(2) ابن ابي زرع : القرطاس . ص : 201 . ط .ع . بلمنصور.

لانقطاع الوصاية لأبناء أبي حفص عمر كبير شيوخ الموحدين الذين استقلوا بها تحت اسم الدولة الحفصية ، وجاءت معركة العقاب لتعلن بداية نهاية الدولة الموحدية في اسبانيا .

والشيء الذى يجب رنا حقا في عبدالمؤمن هو ، هل كان فعلا يؤمن في أعماقه بمهدوية ابن تومرت ويصدق رسالته ؟ وهل كان ما قام به من تضحيات جسيمة في سبيل نشر الدعوة الموحدية كان مبعثه الايمان وحده ؟!

الواقع أن عبدالمؤمن كان من أكثر الناس تشبثا بتعاليم المهدى ، فهو أول من بايعه على العصمة ، وهو الذى أملى على الطلبة نصها وصلنا من آثاره المكتوبة ، فقد كان حريصا كل الحرص على تنفيذ ماجاء فيهما تنفيذا حرفيا ، فهو أثنا نستبعد ، رغم ذلك ، أن يكون عبدالمؤمن قد فعل ذلك عن ايمان فهو أعرف الناس بفصول المسرحية ، إذ قد كان أحد أبطالها ، وقد كان من العشرة المقربين الذين يدركون تماما أبعاد ما كان يرمي اليه ابن تومرت من دعوته تلك ، بل كان من بين الذين صارحهم بنواياه السياسية[1]، فلا يمكن والحالة هذه ، أن تنطلي عليه الحيلة بهذا الشكل .

فنحن نرى أن هذا الاخلاص الذى أظهره عبدالمؤمن بالنسبة للدعوة الموحدية انما كان مبعثه مزيج من الاعجاب والاحترام الذين كان يكنهما لشيخه الذى بهره بسعة معارفه ، وكثرة اطلاعه ، فارتقى به الى مصاف الصديقين منزها اياه عن كل دنيئة .

---

(1) ذكر ابن أبي زرع في القرطاس ، ص: 173 . ت . عبدالوهاب : أن ابن تومرت عندما نزل "بملالة" لقيه بها عبدالمؤمن بن علي فانضاف الى خدمته وقرأ عليه وأخذ عنه العلم ، وعلم بمراده وما قصد اليه من طلب الخلافة ، فوافقه على حاله ، وبعثه في أمره وبايعه على موازرته في الشدة والرخاء ، والعسر واليسر ، والأمن والخوف . . "

توحيد المغرب الاسلامي على يد عبدالمؤمن .

قضى عبدالمؤمن ما يقرب من سنتين بعد وفاة المهدى في تنظيم الجيش وتجهيزه وحشد قواته استعدادا لاعادة الكرة لمواجهة المرابطين ، و قد فضل هذه المرة ألا يغزوهم في عقر عاصمة ملكهم مراكش، كما فعل المهدى من قبل ، وانما يبدأ بالمناطق والمدن القريبة منه فيضمها اليه ثم يزحف منها تدريجيا نحو الشمال . حتى يضمن لنفسه خط الرجعة اذا ما عزم على العودة الى " تنملل " نقطة ارتكاز قواته ، ويتمكن أيضا من اتمام تثبيت قواعد الحكم في جبال درن ، ومراقبة ما يجرى بها من أحداث عن كثب.

وقد تم اتفاق أشياخ الموحدين على أن يبدءوا بغزو منطقة درعة فسار اليها عبدالمؤمن على رأس جيش بلغت قواته 54 ألف محارب فاستولى على " تادكة " ثم على كل " درعة " وأحوازها[(1)] تدريجيا فاستطاع الموحدون بذلك أن يفكوا الحصار الذى ضربه عليهم المرابطون ، حيث سدوا عليهم كل المنافذ التي تأتي من جبال درن بما سلطوه عليها من حراسة شديدة .

والذى سهل على الموحدين اختراق هذه المسالك ،في الواقع ، هو انضمام القائد المرابطي الذى كان مكلفا بحراسة هذه المنافذ ، اليهم وهو الفلكي الأندلسي[(2)] ، وذلك عندما ساءت العلاقة بينه وبين أمير الدولة علي بن يوسف .

وقد بقيت المعارك بين المرابطين والموحدين منحصرة في مناطق الأطلس جنوبي مراكش زهاء عشر سنوات من يوم أن توفي المهدى ، وكان النصر فيها غالبا للموحدين . الا أنه نصر غير حاسم نظرا للمنطقة

---

(1) عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين . ص : 225 — 226 .

(2) كان الفلكي الأندلسي في أول أمره قاطع طريق وثائرا باشبيلية ، ثم تاب على يدى واليها فاستخدمه في الجيش مدة ثم استدعاه علي بن يوسف الى مراكش وكلفه بحراسة منافذ جبال درن التي يتسرب منها المصامدة . انظر الحلل الموشية . ص : 118 — والبيدق : المهدى . ص : 48 .

المحدودة التي كانت تجري فيها هذه المناوشات ،فقرر الموحدون أن ينقلوا ميدان المعركة الى مناطق أخرى أكثر حساسية ليستطيعوا ضرب عدوهم في الصميم .

فبدأ عبدالمؤمن زحفه نحو الشمال الشرقي تجاه بلاد الريف ثم اتجاه فاس العاصمة الثانية للمرابطين ،سالكا اليها الطريق الجبلي ،وكان يستولي على كل البلاد التي يمر بها اما سلما أو حربا .

وقد سلك تاشفين بجيشه في نفس الاتجاه طريقا موازيا لخط سير عبدالمؤمن الا أنه كان يتبع السهول ، وقد كان ذلك مما زاد في تعقيد أمر تنقل قواته ،خاصة عندما حل فصل الشتاء، وساءت الأحوال الجوية[1].

وقد حالف النصر عبدالمؤمن في كل الحروب التي خاضها ضد تاشفين في تلك الآونة ،فساءت معنويات الجيش المرابطي نتيجة الهزائم المتكررة ،وما قاساه من قسوة الطبيعة وشدة البرد وسوء التغذية .

ثم ما لبث أن توفي الخليفة علي بن يوسف ،وقد كان الركن الحصين للدولة ،وبدأت تتوارد أخبار الثائرين والمتمردين في كل من الأندلس والمغرب مما زاد في تعقيد الأمور وتعقيدها[2].

وازدادت احوال الجند سوءا باختلال ميزانية الدولة حيث كثرت النفقات فلم تستطع السلطات أن تفي بمستحقات الجيش . فبدأت القبائل تتحلل من الطاعة و تنتظم للموحدين .

---

(1) لمزيد من التفصيل . انظر : السلاوى : الاستقصاء : ج ، 2 . ص: 93 ـ 95.

(2) نفس المرجع .

وكان مقتل الربرتر القائد المرابطي الأول الضربة القاصمة التي أتت على ما تبقى من معنويات الجيش، حيث تفرقت فرقة المرتزقة النصارى التي كان يقودها، وقد كانت عماد الجيش المرابطي، كما نعلم، وهاجرت جماعات كبيرة منهم الى الأندلس مع أسرهم وقساوستهم .

فبدأت عندها الدولة المرابطية تسير نحو نهايتها بخطى سريعة اذ ماكادت تحل سنة 541 حتى كان المغرب المرابطي كله تحت راية الموحدين . ولم يخضع المغرب المرابطي بسهولة للموحدين ، رغم ما يبدو من دخول كل قبائله تحت طاعتهم واعتناق مذهبهم . اذ ما كاد يتم لهم النصر النهائي على المرابطين سنة 541، حتى اندلعت ثورة خطيرة ضد دعوتهم في بلاد جزولة بنواحي السوس قام بها ثائر من سلا يسمى محمد بن عبدالله بن هود الماسي[1]. وقد ادعى الهداية هو الآخر وتسمى بالهادي ، فذاعت شهرته في أنحاء البلاد بسرعة مذهلة ، ودخلت في طاعته كل بلاد المغرب ، حتى لم يبق منها في أيدي الموحدين سوى مراكش[2].

وهذه الردة الجماعية التي اطبقت بلدان المغرب بهذه السهولة تدل على أن الدعوة الموحدية لم تتمكن من نفوس الأهالي رغم ما يبدو من استجابتهم لها ، لأنهم في الواقع لم يعتنقوها عن رضى وطواعية ، انما فعلوا ذلك تحت ضغط القوة والقهر[3].

وقد استطاع الموحدون أن يقضوا على ثورة الماسي ، عندما تصدوا لتأديب القبائل التي خلعت طاعتهم ، كهسكورة ، ونفيس ، وهيلانة ، وبرغواطة التي بقيت مدة طويلة على تمردها .

---

(1) انظر تفاصيل ثورة الماسي في الحلل الموشية . ص : 146 — وابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 480 .

(2) السلاوى : الاستقصاء : ج . 2 . ص : 99 — ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 190 .

(3) عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين . ص : 269 — 270 .

وعندما أحس عبدالمؤمن باستتباب الأمن في كل المناطق التي أصبحت تحت نفوذه، بدأ يفكر في ضم بقية المغرب الأوسط كخطوة أولى لتوحيد كل بلدان المغرب، بما فيها افريقية التي أصبح الصقليون يسيطرون على كل سواحلها منذ سنوات ويطمعون في توسيع مناطق نفوذهم نحو الغرب .

تحرك عبدالمؤمن سنة 546 ، نحو بجاية عاصمة الدولة الحمادية، وقاعدة المغرب الأوسط كما يصفها الادريسي، فاحتلها بسهولة ودون كبير عناء، اذا كانت الدولة الحمادية قد أشرفت على نهايتها، لما وصلت اليه من تفكك هي الأخرى .

وكانت هناك حشود من القبائل الهلالية قد تمركزت حول بجاية بالناحية الجنوبية منها خاصة، لم تشأ أن تستجيب للدعوة الموحدية، وقاومتها بشدة، فتصدى لهم عبدالمؤمن فأخضعهم بالقوة بعد أن أباد أغلبهم واسترق نساءهم وأولادهم[1]، وعندما رجع الى مراكش اصطحب معه كثير من زعمائهم وسلاطينهم على حدّ تعبير البيدق إمعانا في تشريدهم، الا أنه أطلق سراحهم بعد ذلك عندما أظهروا له الطاعة ثم ردهم الى بلادهم .

وهكذا خلص المغربان : الأوسط والأقصى للمصامدة بعد ازاحة الصنهاجيين عنهما .

وكانت بلدان افريقية مسرحا للنزاعات التي اشتعلت نارها بين العرب والصنهاجيين منذ أن تدفقت الهجرات الهلالية عليها، وقد انهكتها هذه الحروب الطويلة، حتى أصبحت لقمة سائغة للصقليين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر منذ أمد بعيد . وقد استغل روجر، أمير صقلية، التفكك الذي وصلت اليه الدولة الزيرية في أواخر أيامها فسطا على سواحلها فتملكها كلها ابتداء من ثغور طرابلس،

(1) السلاوي : الاستقصاء : ج.2.ص: 108.

حتى استولى أخيرا على المهدية عاصمة ملكها بعد أن فرّ منها آخر أمرائها الحسن بن علي الصنهاجي[1]. ولم تقف أطماعه عند هذا الحد ، بل بدأ يفكر في التوسع نحو الغرب ، فاحتل مدينة " بونة " احدى قواعد المغرب الأوسط كخطوة أولى للتسرب الى بجاية وما يليها من المدن الساحلية ، الا أن الأجل لم يسعفه حتى يحقق امنيته ، وما كاد يخلفه ابنه ولـيم على العرش حتى استشعر الأفارقة ضعفه ، وبدأوا يلمون شعثهم ويستعدون للمقاومة ، ثم لم يلبثوا أن أعلنوا ثورتهم تباعا ، فثارت جربة ، ثم تلتها صفاقس ثم طرابلس وقابس ، وكان الموحدون قد استرجعوا بونة أثناء ذلك ، ولم يبق بين أيدى المقلين من ثغور افريقية سوى المهدية وسوسة .

وقد كان رد الفعل النصراني عنيفا ، فانتقموا خاصة من أهل صفاقس ، وافنوا من بقي بزويلة عن آخرهم ، فهرع الأفارقة نحو مراكش يستغيثون بعبد المؤمن للانتقام لهم وردّ غائلة النصارى عنهم . وكان الحسن بن علي الصنهاجي الذى انتهى به المطاف الى الالتجاء للموحدين ما فتيء يحرض عبدالمؤمن على استرداد افريقية من أيدى المقلين ، فلم يجد بدّا من اجابة الأفارقة الى طلبهم وقد كان ينتظر هذه الفرصة منذ أمد بعيد .

بدأ عبدالمؤمن يستعد لهذه المرحلة الثالثة التي تشكل آخر خطوة له في توحيد كل بلدان المغرب تحت لوائه . وكان يستشعر صعوبة مهمته هذه المرة لأنه سيتحتم عليه أن يحارب في جبهتين متعارضتين : جبهة النصارى وجبهة العرب الهلاليين ،

---

(1) السلاوى : الاستقصاء : ج . 2 . ص : 120.

وكل منهما يكوّن قوّة عاتية لا يتسهان بها ، لذلك استنفر كل القبائل للمشاركة في هذه الحرب ، والحق ، أن مهمته لم تكن بالشيء السهل رغم الاعدادات الضخمة التي أعدها لها ، الا أن النصر كان حليفه آخر الأمر، اذ استطاع أن يحتل المهدية بعد حصارها ستة أشهر ، ويخضع كل البلاد الافريقية لطاعته ، كما استطاع أن يقضي على الزعامات الفردية العربية ، بالعنف طارة وباللين طورا أخرى .

— التدخل المغربي بالأندلس :

كانت الأندلس تكوّن الاقليم الشمالي من الدولة المرابطية ، فكان من الطبيعي أن تتأثر بكل ما يجري بالاقليم الجنوبي منها ، لذلك ما كادت تتردد أصداء الهزيمة التي حلّت بالمرابطين بالمغرب على أيدي الموحدين حتى بدت بوادر الثورة تظهر في كل ولايات الأندلس .

والواقع أن بوادر هذا السخط ، لم تنشأ مع ظهور ضعف الدولة المرابطية في أواخر عهدها ، انما ظهرت بواكيرها منذ ما يقرب من ربع قرن قبل ذلك ، أي منذ الحادثة التي وقعت بقرطبة سنة 514هـ. ضد الوالي المرابطي الأمير أبي بكر بن رواد . ولم تكن هذه الثورة في واقع الأمر، الا تعبيرا صارخا لما يكنّه الأندلسيون من سخط وكراهية للحكم المرابطي ، ومحاولة للتحرر والاستقلال . وذلك ما فهمه علي بن يوسف عندما سمع بالحادث . ولأجل هذا عجل بالعبور الى الأندلس وفي نيته تأديب المتمردين[1] . بل ان بذور هذا التبرم والسخط قد غرست في نفوس الأندلسيين قبل ذلك بكثير، أي منذ أن عقد المرابطون العزم على الاطاحة بعروش ملوك الطوائف، وضم ممالكهم الى امبراطوريتهم .

---

(1) ابن الأثير : الكامل : ج . 10 . ص : 558 — انظر كذلك الحلل الموشية . ص : 171 — 173 .

فنحن نعلم أن الأندلسيين هم الذين استدعوا المغاربة لنصرتهم ضد النصارى الاسبان ، الا أنهم ترددوا كثيرا قبل أن يتفقوا على الاستغاثة بهم . وكان مبعث هذا التردد هو تخوفهم من أن يصبح هؤلاء المنقذون اليوم محتلين غدا .

وقد كانوا محقين في حذرهم هذا لو أنه كان لهم الخيار، لكن الظروف لم تسعفهم فلم يجدوا بدا من الركون اليهم رغم تشككهم في نواياهم . وفضلوا أن يكونوا رعاة جمال ، في أسوأ الأحوال ، على أن يكونوا رعاة خنازير على حد تعبير المعتمد بن عباد الناطق بلسان الأندلسيين آنذاك .

وقد زاد بهم هذا التبرم مع الأيام خاصة بعد احتكاكهم بالحكم المباشر للمرابطين ، فباتوا يتوقون الى استرجاع استقلالهم الا أنهم لم يستطيعوا أن يعلنوا عنه صراحة الا عندما أيقنوا أن الدولة المرابطية قد انهارت تماما في وطنها الأصلي . فحاولوا عندئذ أن يجهزوا عليها بالثورة ضدها ، لكن دون أن يعدوا العدة لذلك .

أرادوا أن يعيدوا الوحدة الوطنية التي باتوا يحلمون بها ، لكنهم لم يستطيعوا أن يوفروا لها مقوماتها الأساسية : التي تتطلب المبدأ الموحد والقائد الصارم الذي يستطيع لمّ شتاتهم في كتلة واحدة . وهذان ركنان أساسيان لبناء كل مجتمع أراد أن يكتب له البقاء . فقد اكتفوا باعلان سخطهم بالثورة التي أثاروها في كل ولاية دون حتى أن يحاولوا التنسيق فيما بينهم ، فلم تلبث أن تداخلت مصالحهم ، واختلفت آراؤهم فتشابكوا فيما بينهم فاستعان بعضهم على البعض الآخر بالنصارى تماما ، كما كانوا يفعلون قبل التدخل المرابطي ، اذ لم يستطيعوا أن يتنصلوا من اقليمياتهم الضيقة ولا أن يتعالوا عن طموحاتهم الفردية ، فظهرت حركتهم هذه وكأنها عودة الى عهد الطوائف لا الى الاستقلال والوحدة الوطنية .

وقد تجلت هذه الظاهرة خاصة في ثورة المريدين التي قامت في مرتلة ، أول الأمر ، بغرب الأندلس بزعامة أحمد بن الحسن بن قسي [1] ومساعدة ابن القابلة ، وكل من سدراى بن وزير الذى ثار في بلده بياجرة ، ومحمد بن عمر بن المنذر الذى خلع طاعة المرابطين هو الآخر وثار في شلب [2].

وظهرت آثارها واضحة ايضا في حركة التمرد التي قامت بمنطقة الوسط بزعامة أبي جعفر بن حمدين [3] الذى سانده كل من أبي الغمر ابن عزون صاحب شريش ، وأبي جعفر الخشني صاحب مرسية . وقد حذا حذوهم القاضي علي بن عمر بن أضحى [4] فثار في غرناطة الا أنه لم يستطع أن يحتفظ بها كثيرا ، كما ثار كل من ابن ملحان الطائي في وادى آش وابن جزى يوسف بن عبد الرحمن في جيان ، وأخيل بن ادريس في رندة .

فلم تدم الثورة في منطقتي الوسط والغرب أكثر من سنتين أو ثلاث على أبعد تقدير لاختلاف زعمائها فيما بينهم وتنافسهم على السلطة . واستعانة بعضهم على البعض الآخر بالنصارى الاسبان . فاضطروا أن يستدعوا الموحدين ليقضوا بينهم [5] ولم يجدوا بدا ، أمام هذه الأوضاع ، الا أن يولوا وجوههم ، مرة أخرى ، شطر المغرب وهم كارهون لذلك ، لأنهم يعلمون جيدا أن هؤلاء الذين سيستغيثون بهم اليوم لن يكونوا بأية حال ، أقل أطماعا ، من سالفيهم بالأمس .

---

(1) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين . ص : 206 . ابن الأبار : الحلة : ج . 2 . ص : 179 — 202 .

(2) ابن الأبار : الحلة : ج . 2 . ص : 202 — 211 — يوسف اشباخ : عصر المرابطين . ص : 207 ، طبعة الخانجي القاهرة 1958 .

(3) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس . ص : 209 .

(4) ابن الأبار : الحلة : ج . 2 . ص : 211 — 217 — حسن مؤنس القاهرة 1969 .

(5) كان الوفد الأندلسي الذى قدم على عبد المؤمن ليستغيثوا به يضم نحو 500 فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والقراء . السلاوى : الاستقصاء . ج . 2 . ص : 106 .

فهم لذلك عندما جاءوا يطلبون العون من الموحدين ، أول الأمر ، كان قصدهم أن يعينوهم على ازاحة الحكم المرابطي لا أن يخلفوهم في السيادة على البلاد .

فهم ، وان لم يعلنوا عن قصدهم هذا صراحة ، الا أنه يستشف من الملابسات التي اكتنفت سير الأحداث التي وقعت في الأندلس فيما بعد .

أما المنطقة الشرقية ، التي ثارت هي الأخرى على الحكم المرابطي ، فقد كان لها موقف آخر مع الموحدين غير الذى تبنته كلّ من المنطقتين الأخريين ، فهي عندما ثارت ، أقرت العزم على أن تقاوم التدخل الأجنبي أيا كان مصدره ، لذلك صممت على طرد المرابطين والوقوف في نفس الوقت ضد التدخل الموحدى ، وقد أخذ زعيمها الثائر محمد بن سعيد بن مردنيش[1] على عاتقه مهمة اعادة الوحدة الوطنية الى الأندلس ، فكرس كل جهوده بمساعدة صهره ابراهيم بن همشك[2] لتحقيق هذه الفكرة فقاوم الموحدين ما يقرب من عشرين سنة[3] وظل يسيطر على شرق الأندلس طوال هذه المدة دون أن يستطيعوا التغلب عليه الا أنه كان يعتمد اعتمادا كبيرا في مقاومته على مساعدة النصارى .

على أن الأندلسيين حتى في منطقتي الغرب والوسط لم يسلموا للمسيطرين الجدد بسهولة ، بدليل الردة الجماعية التي وقعت منهم

---

(1) انظر تفاصيل ثورة ابن مردنيش عند عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين . ص : 353 وما بعدها .

(2) هو ابراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك ، وهمشك جده نصراني ، أسلم على يد بني هود سرقسطة وكان من جملة الثوار الذين قاوموا التدخل الموحدى بالأندلس ـ انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق .

(3) لم يتغلب الموحدون على شرق الأندلس نهائيا الا في حدود سنة 567 هـ انظر ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة . ص : 507 ـ 508 .

ضد الموحدين بمجرد أن تدخل هؤلاء عسكريا في بلادهم وبدءوا يمارسون عليهم بعض التعسف والجور اللذين تجليا فيما قام به كل من من أخوى المهدى بن تومرت : عبدالعزيز وعيسى من سفك للدماء ونهب لأموال أهل اشبيلية عندما تغلبا عليها . فقد كان هذا التعسف سببا لتفجير السخط ضد الموحدين ، فعاد كل الثوار الى أوطانهم واعلنوا عصيانهم من جديد ضد الموحدين (1).
رغم مبايعتهم لهم ، فثار البطروجي في لبلة وابن قسي في شلب وابن ميمون في قادس ، وابن الحجام في بطليوس ، ولم يبق في جانب الموحدين من هؤلاء الثوار سوى ابن عزون صاحب شريش ، وهذا بعد دخول هذه المناطق في طاعة الموحدين ببضعة أشهر فقط .

وان دلّ هذا على شيء فانما يدلّ على أن التدخل الموحدى في الأندلس لم يقابل بالرضى من طرف الأهالي ، وهذا رغم ما كانوا يقاسونه من أنواع الضغوط التي كانت تسلطها عليهم الممالك النصرانية .

فقد كانوا يؤثرون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم الا أن الموحدين كانوا مصرين على أن يرثوا تركة المرابطين برمتها مهما كلفهم ذلك من جهود .

---

(1) السلاوى : الاستقصاء : ج . 2 . ص : 110 — 111 .

الباب الأول : — الازدهار الثقافي ببلدان المغرب في القرن السادس .

الفصل الأول : — عوامل انتشار التعليم .

- أ — دعوة الخلفاء لنشر الثقافة .
- ب — انتشار الحواضر الثقافية (الحواضر الافريقية — حواضر المغرب الأوسط — حواضر المغرب الأقصى) .
- ج — المراكز الثقافية (المسجد الكتاب — لمسيد — الرباط — الزاوية — المدرسة المكتبات — دور الوراقة) .
- د — مناهج التعليم ببلدان المغرب.
- هـ — المواد المقررة والكتب المدرسية .

الفصل الأول — عوامل انتشار العلوم .

- أ - دعوة الخلفاء لنشر الثقافة

كانت الدعوة الموحدية من أهم العوامل التي ساعدت على تحرير الفكر من القيود التي كبله بها " فقهاء الفروع " . طوال الفترة المرابطية . فقد كانت النزعة المذهبية الجديدة التي جاء بها ابن تومرت ، بمثابة الصيحة التي أيقظت كل العلماء المغاربة، على اختلاف نزعاتهم ، وأرغمتهم على الخروج من نطاق " الفروع " الضيقة ، بما طرحته من مشاكل ، عقائدية ، واجتماعية، وسياسية . فانبرت كل طائفة لمجادلة الطائفة الأخرى ، والكل متحفز للدفاع عن آرائه ، ومعتقداته ، تحدوهم الرغبة في اظهار الحق ، ونصرة الدين . فانقسم الفقهاء المفكرون ، ما بين مفنّد للفكرة الجديدة ، ومنتصر لها . وكان هذا الخلاف ، في حدّ ذاته ، سببا في بعث نوع من الحركة الفكرية ، شملت كل ميادين المعرفة ، وتجلّى ذلك ، خاصة ، في المجادلات والمناظرات التي كانت المساجد الكبرى مسرحا لها . كما ظهرت في الرسائل ، والمصنفات الفقهية ، والأدبية التي ألفت فيما بعد .

ورغم ما اتّسم به الموحدون من فرض مذهبهم بالقوة وحدّ السيف ، الا أن ذلك لم يمنع كثيرا من العلماء والفقهاء الذين أشربت قلوبهم سيرة السلف الصالح ، ونشؤا على مبادىء المذهب المالكي ، أن يتصدوا لهم ، ويجادلوهم ، بالقوة ، حينا ، وبالتي هي أحسن أحيانا أخرى . وكانت هذه المناقشات والمجادلات في عمومها ، على ما يمكن أن تنطوى عليه من بعض السلبيات ، في صالح تحرر الفكر المغربي كفكر .

وهذا يعدّ أول توفيق للموحدين في بعث الحركة الفكرية ببلدان المغرب . اذ كان نشر العلم والترغيب فيه ، الى جانب مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" يشكلان الدعامة الرئيسية التي قامت عليه دولتهم ، كما نعلم .

فقد كان شغف ابن تمرت بالعلم ، من أبرز الصفات التي تميز بها منذ صغره . حتى أصبح يدعى "أسفو" الذى هو بمعنى الانارة بالبربرية ، لكثرة ما كان يسرج من الأضواء بالمساجد التي كان يأوى اليها للمذاكرة والدرس . ولم يشغله يوما شيء عن أداء مهمته التعليمية التي كرّس لها حياته حتى في الأوقات الحرجة التي كان يمر بها .

ومن مظاهر شغفه بنشر العلم ، اكثاره من بناء المساجد التي كانت بمثابة المعاهد ، والمدارس التعليمية آنذاك . وهذا في كل المناطق التي كان يمرّ بها ، وهو في طريق عودته من المشرق ، وذلك قبل حتى أن يستقرّ نهائيا "بتينملل"(1).

وقد غرس هذا الشغف بالعلم في نفوس كل مريديه ، خاصة منهم أعوانه المقربين . فكان من نتيجة ذلك ، أن رأينا كل الذين تعاقبوا على الحكم بعده ، كانوا علماء ، بلغ بعضهم درجة كبيرة من التفقه في شتى أنواع المعرفة .

— وقد كان عبدالمومن بن علي من المثقفين الأفذاذ ، شهد له معاصروه بالنباهة والتفوق ، حيث استطاع أن يستفيد بقربه

(1) ذكر البيدق في كتابه : أخبار المهدى بن تمرت أن المهدى أمر ببناء مسجد "بملالة" وهو في طريق عودته الى بلاده (ص 13) ومسجد آخر "بالاخماس" (ص 18) ومسجد ثالث أمر بعمارته حيث كان معطلا في مكان يسمى "مرمور" قرب "مليانة" (ص 19) كما بنى مسجدا بنواحي "تنس" . وعند خروجه من "اغمات وريكة" في طريقه الى "جبال درن" بنى مسجدا في مكان يسمى "اسفوا" وبنى آخر في قرية تسمى "أرمط" ، ومسجد آخر عند "تدرارت" (ص 31) الخ ....

من المهدى ، وملازمته لدروسه . وقد استوعب كل مبادئ ابن تومرت ، على تعقدها والتواء فلسفتها . واستطاع ، خاصة ، أن يهضمها ، ويعيها وعيا تاما ، تمكن بفضله أن يصوغها في قالبها النهائي ، ويرتبها في الشكل الذى وصلتنا عليه في كتاب " أعز ما يطلب " المنسوب لابن تومرت ، الذى أملاه عبد المؤمن ، نفسه ، على الطلبة ، بعد وفاة المهدى ، كما هو معلوم . وقد نوه البيدق بذكاء عبد المؤمن في عدة مواضع من كتابه ، عندما كان طالب علم . فقد ذكر أنه " كان يقرأ على الامام المعصوم ، رضي الله عنه ، وكان أفهم الطلبة ، وكان اذا أراد النوم ، يقول له المعصوم ، رضى الله عنه : كيف ينام من تستظره الدنيا "[1] . وقال عنه في موضع آخر : " وكان رضي الله عنه ، كثير الفهم ، يفهم الناس مسألة ويفهم هو عشرة "[2] .

ومن شواهد تشجيعه للعلم ، جعله التعليم الابتدائي اجباريا مفروضا على كل مكلف من الرجال والنساء ، وهذا في كامل أقاليم المملكة[3] . وقد ألزم الناس بقراءة وحفظ الآراء العقائدية للمهدى ، التي وردت في كتاب أعز ما يطلب ، فاصدر مرسوما لولاته على الاقاليم في هذا الشأن ، أورده ابن القطان ، مما جاء فيه ما يلي : " . . . . ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ، ويتكلمون به أن يقرؤا التوحيد بذلك اللسان من أوله الى آخر القول في المعجزات ، ويحفظوه ، ويفهموه ويلازموا قراءته ، ويتعهدوه ، ويأمروا طلبة الحضرة ، ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعهدها على سبيل التفهم والتبين ، والتنبه ، والتبصر . ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : " اعلم ، أرشدنا الله وإياك " وحفظها وتفهمها .

---

(1) المرجع السابق . ص : 17 .
(2) المرجع السابق ، ص : 15 .
(3) محمد المنوني : العلوم والفنون والآداب : ص . 27 ـ عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب . ص : 244 ـ النجار : ابن تومرت : ص : 383 .

وأ شمل في هذا الالزام ، الرجال ، والنساء ، والأحرار ، والعبيد ، وكل من يوجب عليه التكليف . أذ لا يصح لهم عمل ، ولا يقبل منهم قول ، دون معرفة التوحيد . فمن لم يعرف المرسل ، لم يصدق بالمرسل ، ولا بالرسالة . ومن حصل على مثل هذه الحالة ، فقد تعثر في أذيال الضلالة "(1).

ومما يدخل في سياق تشجيع عبدالمؤمن للنهضة العلمية ما ذكره ابن القطان ، عن استضافة الخليفة لبعثة علمية تتكون من خمسين طفلا ، جاءوا من اشبيلية وأقاموا بمراكش ستة أشهر ، تعلموا فيها التوحيد ، وحفظوه ، كما حفظوا كتاب الموطأ ، وكتاب مسلم(2).

ولا شك أن هذه البعثة العلمية لم تكن الوحيدة من نوعها . هذا ، وقد ذكر المؤرخون الذين ترجموا لعبد المؤمن شواهد كثيرة ، تدل على تضلعه في الأدب ، وتذوقه للشعر ، وقرضه له أحيانا . كما نوهوا بفصاحته ، وتفقهه ، ومشاركته في كثير من العلوم الأخرى(3).

وأكبر شاهد على ثقافة الرجل ، وحبه للعلم وتقريبه لأهله ، تلك المجالس العلمية التي كان يعقدها في قصره بحضور جلة العلماء ، والطلبة ، واشياخ الموحدين وبقية أركان الدولة . تلقى فيها المسائل بأمره ، ويدير فيها النقاش بنفسه ولا يغادر المجلس الا بعد الدعاء ، كما ذكر المراكشي في معرض وصفه لمجالس خلفاء الموحدين : " لا بد من كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم ، من حضور هؤلاء الطلبة ، والأشياخ

---

(1) ابن القطان : نظم الجمان . ص : 40 .
(2) المرجع السابق . ص : 40 .
(3) ابن أبي دينار : المؤنس : ص : 117 . ت . محمد شمام تونس . ط . الثالثة 1967 .
— انظر القصيدة التي مدحه بها ابن حبوس بجبل الفتح عند ابن القطان : نظم الجمان . ص : 134 .

منهم . فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه ، مسألة من العلم يلقيها بنفسه ، أو تلقى باذنه . وكان عبدالمؤمن ، ويوسف ويعقوب يلقون السائل بأنفسهم ولا ينفصلون عن مجلس من مجالسهم الا على الدعاء ..."(1)

وقد نوه المراكشي أيضا ، بما يشار عبدالمؤمن لأهل العلم وحبه لهم . واحسانه اليهم . حيث كان يستدعيهم من جميع البلدان للمكوث بجواره "ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم "(2).

— وكان أبويعقوب يوسف بن عبدالمؤمن من أشهر علماء الدولة الموحدية بلا منازع . فقد جمع ، الى جانب تضلعه في العلوم الشرعية ، معرفةواسعة، في مختلف العلوم العقلية .

وصفه المراكشي بـ "أنه كان أحسن الناس الفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية . . . هذا مع ايثار للعلم شديد ، وتعطش اليه مفرط . صح عندي انه كان يحفظ أحد الصحيحين — الشك مني أما البخاري أو مسلم — وأغلب ظني أنه البخاري ، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن . هذا مع ذكر جميل من الفقه . وكان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في علم اللغة . وتبحر في علم النحو ، حسبما تقدم . ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته ، الى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها . وبدأ في ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف ، "بالملكي" ، أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي "(3).

---

(1) المعجب : ص . 426.
(2) المراكشي : المعجب . ص : 269.
(3) المرجع السابق . ص : 309 — 310.

نستطيع أن نتعرف ، من خلال هذا النص الذي ساقه المراكشي أساسا ، للتنويه بثقافة أبي يعقوب ، المواد التي كانت تدرس في ذلك الوقت ، وطرق تدريسها ، وترتيبها في التعلم حسب الأولوية .

فقد بدأ أبو يعقوب بالقرآن فجوده حتى أصبح أحسن الناس الفاظا به ، ثم ثنى بالحديث ، فحفظ صحيح البخاري في حياة أبيه ، أي وهو لا يزال يافعا . ثم صرف عنايته ، لعلوم العربية وما يتعلق بها من لغة ، ونحو ، وكلام العرب وأيامها ، في الجاهلية والاسلام فأتقنها . وقد استفاد في كل ذلك من اقامته باشبيلية ، ولا شك ، أيام ولا يته عليها في حياة أبيه ، حيث ثبت أنه لقي بها ثلة من رجال أهل علم اللغة والنحو والقرآن . منهم العالم اللغوي المشهور أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الملك ، المعروف عندهم " بابن ملكون " الذي أخذ عنه علم اللغة وبرع فيه (1).

ثم سمت به همته لمعرفة العلوم الفلسفية بعد ذلك ، فجمع كتبها ، وبدأ بالطب أولا ، ثم ختم بالفلسفة أخيرا فأتقنها حتى أصبح علما من أعلامها ، وقد ساعده على ذلك أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد جهابذة الفلسفة المشهورين ، وانبغ تلاميذ ابن باجة ، وقد كان أبو يعقوب شديد الشغف به كثير الملازمة له ، حتى قيل " أنه كان يقيم معه أياما ، ليلا ونهارا لا يظهر "(2)

ولم تقتصر صحبة أبي يعقوب على بن طفيل وحده ، بل كان يحيط نفسه بجمع غفير من العلماء ، قربهم اليه ابن طفيل نفسه . وقد جلبهم اليه من جميع الأقطار حسب تعبير المراكشي . كما نبهه عليهم وحضه على اكرامهم ، والتنويه بهم . وهو الذي نبهه

---

(1) المراكشي : المعجب . ص : 309 .
(2) المصدر نفسه . ص : 312 .

على أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الفيلسوف المشهور، كما سنرى ذلك فيما بعد[1].

— ولم يكن يعقوب المنصور، ثالث خلفاء الموحدين، أقل حظا من أبيه وجده في ميدان المعرفة. ولا أقل مجهودا منهما في تشجيع نشر العلم. فقد أجمع كل المؤرخين الذين ترجموا له أنه كان عالما بكل ما في هذه الكلمة من معنى. كان فقيها يحكم الفتوى، ومحدثا مختصا، شغوفا بعلم الحديث، وقد ألف في ذلك كتابا سماه "الترغيب". وكان أديبا يتذوق الشعر وينقده. وكان فوق ذلك كله محبا للفلسفة، مقربا لأهلها.

ومن مظاهر تشجيع يعقوب المنصور لنشر الثقافة في عهده، عنايته بطلبة العلم، وجيد به عليهم. فقد كان يقول للموحدين، مدافعا عنهم، ومبررا تحيزه لهم: "أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر، فزع الى قبيلته. وهؤلاء، (طلبة) لا قبيل لهم الا أنا. فمهما نابهم أمر، فأنا ملجؤهم، والي فزعهم، والي ينتسبون"[3].

وقد بنى لهم دارا بمراكش خصصها لتكوينهم كانت بمثابة منتدى لكل المثقفين، كان الطلبة يستضيفون بها جلة العلماء للتلقي عليهم والتباحث معهم، ومناقشتهم أحيانا، كما وقع ذلك مع العالم المحدث أبي عمر بن عات، الذى أقراهم المنصور بامتحانه. فذكروا له أحاديث من كتاب مسلم، حولوا متونها، فأعاد هو المتون الى أصلها الحقيقية[4].

ويبدو أن المنصور كان مغرما بمناقشة العلماء وامتحانهم، ولا يكاد يعترف بفضل أحدهم الا بعد أن يخضعه لنوع من الاختبار

---

(1) المراكشي : المعجب . ص: 314.
(2) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى . ص: 148—149 . دار التأليف والنشر، المغرب 1946.
(3) المعجب . ص: 356.
(4) المقري : نفح الطيب : ج . 2 . ص: 100 — ترجمته بنفس الكتاب : ج . 2 . ص: 601.

يستمر به معلوماته . كما وقع للأستاذين اللذين رشحهما له قاضيه لتعليم أولاده . وقد شهد لأحدهما بأنه "بحر في علمه" ووصف الآخر بأنه "بر في دينه" ، فثبت عجزهما لدى الامتحان ، فردهما المنصور على قاضيه ، قائلا : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : " ظهر الفساد في البر والبحر " .

وفكرة انشاء فئة الطلبة التي اهتدى اليها الموحدون ، تعدّ احدى مزاياهم التي استطاعوا بفضلها توسيع رقع انتشار التعليم ، ونقل المعارف الى المناطق الداخلية ، والقرى النائية عن العواصم الكبرى . فقد أثمرت جهود هؤلاء الطلبة ، ونجحت أيما نجاح خاصة ، في مناطق السوس ، كما أشار لذلك بعض الباحثين ، حيث ظهر فيها علماء أفذاذ من أمثال : سالم بن سلامة السوسي المتوفي سنة 589 ، وقد كان حجة في الفقه .[1]

ومن الوسائل التي استعملها المنصور للنهوض بالعلوم وتشجيع العلماء في عهده تلك المجالس العلمية الحافلة التي اشتهر بعقدها بقصوره ، بمراكش وغيرها من الحواضر الثقافية بالمغرب ، بحضور كل أركان الدولة بمن تضمه من وزراء وحجاب وكبار الكتاب والقضاة والفقهاء وما الى ذلك [2]. وكانت طريقته في ادارة هذه المجالس العلمية ، هي نفس الطريقة التي سنها جده عبدالمؤمن ودرج عليها والده يوسف من قبله . فقد كان يلقي المسألة على الحاضرين ، فيتناقشون فيها أمامه ويشارك هو في نقاشها ، وكان مغرما بمقارعة الأفذاذ من العلماء في تخصصاتهم ، وهذا لاتساع معارفه ، وحبه للبحث . وقد أورد المراكشي ثبتا حافلا من هؤلاء العلماء الذين كانوا يحضرون مجلسه .

---

(1) علون : عصر المنصور . ص : 154 ، عن ابن الأبار : التكملة : ع. 2006.

(2) المرجع السابق . ص : 149 ، انظر كذلك المراكشي : المعجب. ص : 426.

نذكر من بينهم : أبا بكر بن الجدّ (1)، ويحيي بن الحاج المفسر المشهور (2)، وعبدالله بن سليمان بن حوط الله (3)، وابن زهر الطبيب (4)، وا بن رشد الفيلسوف (5)، وغيرهم كثير ين .

وكانت المناقشات في هذه المجالس العلمية تبلغ أحيانا أقصى درجات الحدة ، دون أن تخرج عن حدود اللياقة ، وأدب المناظرة . ودون أن يسلم فيها عالم لخصمه مهما بلغت درجته الاجتماعية الا اذا حكمت له الحجة الساطعة بذلك .

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عبدالله بن يحي بن الجدّ المتوفي سنة 586 هـ . ترجم له ابن الأبار في التكملة رقم (1) ترجمة ضافية قال عنه : "كان في وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع . . . وكان فصيحا خطيبا مفوها "كما ترجم له ابن سعيد في المغرب . ج . 1 . ص: 343 . وقال عنه : " كان يعرف بالحافظ لكونه كان أعجوبة في سرعة ما يحفظه ، وبلغ به العلم الى مرتبة علية بحيث أن كان يوسف بن عبدالمؤمن ينزل له عن فرسه اذا خرج للقائه ".

(2) اندلسي الأصل من أهل لبلة . انتقل الى مراكش وهو حدث ، فنشأ بها ، وتثقف بفاس على يدى ابي بكر بن طاهر وغيره من العلماء . كان له اطلاع واسع على علوم العربية . وتخصص في الأصول ، واشتهر بنفاذ فهمه ، وقوة استنباطه . ا. عجب به المنصور في شرحه لتفسير "ابن برجان" فضمه الى مجلسه . انظر ترجمته لدى ابن الزبير ، صلة الصلة رقم 370.

(3) ترجم له ولأخيه (داود بن سليمان) الرعيني في برنامجه . ص: 56 كما ذكرهما ابن الخطيب في الاحاطة . ج . 1 .ص: 512 منوها بغزارة علمهما قائلا : " اجتمع لهما ما لم يجتمع لأحد من أهل مصرهما . وقال في ص: 513 رواية عن ابي الربيع قال : "لازمت ابني حوط الله ، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناس في العلم . وكان أبوسليمان يفوق أخاه والناس في الحلم " .

(4) ـ (5) سنتحدث عنهما فيما يلي :

ولا يخفى ما يمكن أن تخلفه هذه المجالس وتلك الاجواء في نفوس العلماء من تنافس في اثبات القدرة على البحث ، والتفنن في استعمال أساليب الجدل والمناظرة ، وما يستلزمه ذلك من استعراض للمعارف ، والقدرة على التعبير عنها بأفصح الأساليب ، والتمكن من بسط اعقد النظريات المجردة ، بأوضح الألفاظ وأسهلها . وفي ذلك ما فيه من تباه باتساع معارفهم أمام الخليفة ، وإثارة لاعجاب الحاضرين بحدة ذكائهم وقوة استعابهم للمادة التي يدور حولها الحوار ، وسيطرتهم عليها بسيطرة تامة .

وقد صور لنا المؤرخون بعضا من جوانب هذه المجالس العلمية وما كان يدور فيها من حوار بين العلماء ، كتلك المناظرة التي جرت بين كل من أبي الوليد بن رشد الفيلسوف ، وأبي بكر بن زهر الطبيب ، وقد كانا يتجادلان في أفضلية كل من قرطبة واشبيلية[1].

ومنها تلك المنافسة التي دارت بين طلبة الحضرة ، والعالم المحدث أبي عمر بن عات ، التي أشرنا اليها فيما سبق ، وذلك عند ما أراد هؤلاء الطلبة أن يمتحنوا معلوماته في علم الحديث .

ومن العلماء الذين كانوا يحضرون مجالس المنصور الموحدى وتقع بينهم مناقشات حادة : الخطيبان المصفحان : محمد ابن عبد العزيز بن عياش الكاتب المشهور[2] ، وأبي الحسن سهل ابن مالك[3] . وقد كانا يتباريان في الفصاحة بارتجال الخطب أمام الخليفة فيثيران نقاشا ممتعا بين الأدباء الحاضرين

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 1 . ص : 155 – وص : 463 .
(2) سنتحدث عنه فيما بعد .
(3) من الأدباء الأندلسيين المشهورين الذين فاخر بهم الشقندى في رسالته . – انظر : المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 193 ، ولم يشتهر أبو الحسن بخطبه فقط بل كان من خيرة الشعراء في عهده . انظر ما رواه المقري عن المباراة التي جرت بينه وبين المهر بن الفرس وبعض الأدباء الآخرين في مدينة سبتة في وصف محبوب لهم يسكن الجزيرة الخضراء – نفح الطيب : ج . 4 . ص : 8 .

لتفضيل أحدهما على الآخر . مما وصلنا في هذا الشأن أبيات قالها أبو الحسن ابن الفضل يمجد فيها ابن مالك ويتنصر له :

لعمري لقد سرّ الخليفة قائما بخطبته الغراء سهل بن مالك
وأما ابن عياش ومن كان مثله فضلوا جميعا بين تلك المسالك
ومات وماتوا حسرة وحسادة وغيظا ، فقلنا مالك في المهالك (1) .

ومن أشهر الخطباء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس ، أيضا ، ويمثلون لون الكلمة باسم الخليفة ، يحيى بن أحمد بن خليل السكوني اللبلي (2).

وكان أبو يعقوب المنصور ، الى كل هذا ، مقدرا لكل العلماء يجلهم ويحترمهم ويلازمهم في حله وترحاله . وكان يصحبهم معه حتى في غزواته ، ويعدّهم من أهمّ جنوده ، ويعتبر دعاءهم من أقوى أسلحته . لقد كان يقول عنهم " هؤلاء الجند لا هؤلاء ، يعني العسكر " (3).

ولا يخفى ما في كل ذلك من تشحيذ لهمم الناشئة ، وتشجيع لطموحهم ودفعهم الى ميادين المعرفة ، وحثهم على الكد والمثابرة والصبر على مشاق البحث والتحصيل .

فقد كان لشعار العلم الذي رفعه المهدي بن تومرت ، وتعهده خلفاؤه ، من بعده بالعناية والتشجيع ، اذن ، أكبر الأثر في ازدهار الثقافة الموحدية منذ عهودها الأولى . الا أن الفضل كل الفضل في ازدهار هذه الثقافة يرجع ، في نظرنا الى المراحل التي مرت

---

(1) المقري : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 372 .
(2) كان من أجل طلبة الأندلس والمغرب في وقته ، كان متخصصا في علم الكلام وأصول الفقه متفوقا في الأدب والكتابة والشعر ، والخطابة خاصة ، ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : رقم 385 .
(3) المراكشي : المعجب . ص : 363 .

بها أقطار المغرب منذ أن بدأ يسودها الاستقرار السياسي مع ظهور بعض الدول المحلية ، كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل . فهي التي هيأت الأسباب الضرورية لانتشار هذه الثقافة بهذا الشكل الواسع . فالنتائج التي حصل عليها الموحدون في ميدان العلوم والحضارة ، بصفة عامة ، مستخلصة من مقدمات أرس أسسها ، الذين سبقوهم في الميدان . فالتدرج الذي سارت عليه الثقافة المغربية هو تدرج طبيعي ليست فيه أية طفرة . وفضل الموحديين الذي لا ينكر لهم في هذا الميدان ، انما يكمن ، خاصة ، في الدفع القوي الذي أعطوه لعجلة التعليم وبعث الثقافة ، بما يوفر لها من أسباب الانتشار في كل طبقات الشعب .

وقد تجلى ذلك ، كما رأينا آنفا ، في قيام المسؤولين في هذه الدولة بنشر العلم بأنفسهم ، وفي كثرة المراكز الثقافية المتنوعة التي أقاموها بكل أقاليم امبراطوريتهم لأجل هذا الغرض . كما يتجلى ذلك في تطوير الطرق والبرامج الدراسية التي عملوا على تنويعها كما سنتحدث عن كل ذلك بالتفصيل فيما يلي :

ب — انتشار الحواضر الثقافية .

يعد انتشار المدن وكثرتها في العهد الموحدي ، من أهمّ العوامل التي ساعدت على انتشار الثقافة في القرن السادس . فلقد كان للاستقرار السياسي الذي شهدته منطقة المغرب في العهد المرابطي ، وما قام به الموحدون بعدهم من تركيز لهذا الاستقرار وتوسيع لرقعته ، أكبر الأثر في انتشار العمران ونشأة المدن الجديدة وتعمير الحواضر القديمة ، خاصة ، بعد أن استولى الموحدون على بقية أجزاء المغرب تحت لوائهم . فسهلوا بذلك الاتصال المباشر بين أطراف هذه الامبراطورية الشاسعة التي

امتدت حدودها من سواحل المحيط الأطلنطي غربا الى بلاد برقة شرقا، ومن قرطبة شمالا الى أقصى بلاد السوس. " وقد كانت الضعينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعارضها "(1).

وقد لعب المهاجرون: الأفارقة والأندلسيون دورا أساسيا في تعمير هذه المنطقة، وغرس أسباب الحضارة بها، بما جلبوه من صناعات، وفنون مختلفة كان سببا في الازدهار الاقتصادي والعمراني، وانتعاش كل أوجه النشاط الأخرى. فعمّ الرخاء بين كل طبقات الشعب. وانتشار اليسر بين أفراد مجتمع ما، يؤثر حتما على الناحيتين: الفكرية والحضارية. لأنّ هذين التوأمين وليدا ما يسمى، بالرفاهية والاستقرار.

وقد تجلى كل ذلك في المغرب الموحدى، فيما مصروه من أمصاره وشيدوه من منشآت حضارية، وأنشوءه من مراكز ثقافية، على طول امتداد أمبراطوريتهم.

ونحن لا نريد أن نستقرىء، في هذا العرض الموجزء كل المدن والحواضر التي ساهمت في نشر الثقافة ببلدان المغرب أيام الموحدين. انما المقصود أن نركز على بعض العواصم التي نراها منابع رئيسية لهذا الاشعاع الفكرى والمدّ الثقافي.

وسنعتمد، خاصة، في كلا منا عن هذه الحواضر على كتب الجغرافيين والرحالين، باعتبارها المضان الوحيدة التي يستطيع الباحث أن يستشف منها الحياة الثقافية لهذه الحواضر. نظرا لقلة المصادر المختصة في الحياة الفكرية لهذه العواصم القديمة. وهي وأن لم تكن، في الواقع كلها، من مستحدثات الموحدين، الا أن أغلبها تمصر في عهدهم بما عومها به من رخاء ووفروه لها من أمن.

(1) ابن أبي زرع: القرطاس. ص: 217.

وقد سبق أن أشرنا – استطرادا – الى بعض المدن الثقافية التي نشأت بالمغرب بين الأدنى والأوسط، في القرون الأربعة الأولى، وذلك عند كلامنا عن انتشار اللغة العربية ببلدان المغرب قبل مجيء الموحدين، الا أننا لا نرى مفرا من ايجاز القول في بعض هذه الحواضر التي بقيت تؤدي رسالتها الثقافية رغم ما أصابها من أحداث. وذلك ربطا لأطراف الموضوع، واستيفاء لجوانب البحث. باعتبار أن هذه الحواضر الثقافية أصبحت تنتمي كلها الى دولة واحدة وهي دولة الموحدين.

– الحواضر الافريقية.

لقد كانت القيروان أولى الحواضر الثقافية التي عرفتها بلدان المغرب الاسلامي. وهذا بفضل موقعها الاستراتيجي الذى كانت تتمتع به منذ الفجر الاسلامي الأول. حيث كانت بمثابة همزة الوصل التي تربط بين المشرق، مقر الخلافة الاسلامية، وبقية بلدان المغرب والأندلس. فكانت لذلك محط الرحال بالنسبة لكل العلماء الوافدين على المغرب، كما كانت كعبة القصاد لكل طلبة العلم بالمنطقة.

وقد لعبت هذه الحاضرة الثقافية دورا رئيسيا في تعريب افريقية، كما رأينا من قبل، وعملت على نشر الثقافة الاسلامية بها، وهذا منذ أن أسس فيها عقبة بن نافع جامعه المشهور سنة 51 هـ.

وقد رأينا كيف ازدهرت الثقافة بها أيام العبيديين حتى أصبحت أهم مركز للاشعاع الفكرى بالنسبة لكل بلدان المغرب الاسلامي، وقد بلغت أوج عزها الحضارى والثقافي أيام الصنهاجيين حيث أصبحت تضاهي العواصم المشرقية في كل مظاهر الحضارة، خاصة منها الثقافة.

(1) ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 217.

فكان أمراؤهـا يـنافسـون الخلفـاء في استجـلاب العلماء والمـفـكرين، واقـتـناء الكتب ، وتـقريـب الأدباء والشعـراء ، وما يستـلزمه كل ذلك من اقامـة للمنشـآت الـثـقافيـة ، كالمكـتبات ، ودور الترجمـة ، والمخابر العلميـة ، ونـشر المعاهـد التعليميـة ، وما الى ذلـك .

وقد آزر القـيروان في هذه المهمـة ، حواضـر ثـقافيـة أخـرى كثيرة نـشأت بافريـقـيـة مع مـرور الأيام ، أشهرهـا " رقادة " الـتي بناهـا ابراهـيم بن الأغلـب الـثـانـي[1] ، وأسـس بها أول جامعة للعلوم التجريـبـية عرفتهـا بلدان المغـرب .

وهـناك المهديـة التي اتخـذها عبيدالله الشيعـي عاصمـة لـه في مـطـلع القـرن الرابـع[2] . وقد كانت تعد من كـبريات المـدن في العهـد الموحـدى حيـث نـمت عمارتهـا مع الأيـام حتى اتصلت مبانيهـا بمبانـي مدينـة " زويـلة " التي استحـدثت بالقـرب منهـا فأصبحتـا تـكونـان مدينـة واحـدة . وقد وصفهمـا الأدريسـي فـي عهـده (548 هـ) بالحصانـة ، وفخامـة البنـاء ، وكـثـرة الأسـواق وسعـة الشـوارع كما وصـف أهلهمـا بنـبل الأخلاق وذكاء الأذهـان وحسـن المعامـل ويسـر الحال ، ممـا يدل على ماكان يـتـمـتع بـــه هـؤلاء الـسكان من مـستوى اجتمـاعي رفـيـع[3] .

ومن المدن التي استحدثـت بافريـقـيـة مديـنة " صبرا " الـتي بناهـا اسماعـيل المنصـور ، واتخـذهـا مقـرا لـه . وقد عمـرت خاصـة ، عنـدما نـقـل المعز بن المنصـور أسواق القـيروان وصناعاتهـا اليهـا . وقـال عنها البكـرى كانـت " منزل الولاة الى حين خرابها "[4] .

---

(1) ابن أبي دينـار : المؤنـس . ص : 52 .
(2) المرجـع السابـق . ص : 75 .
(3) الادريسـي : وصف افريقـيـة . ص : 79 .
(4) البكـر : المغرب . ص : 25 . وقد ذكر أن بابا واحدا من أبوابها الخمسة كان يدخل كل يوم ستـةوعشرين الف درهم من المكوس وحدها مما يدل على رفاهيتهـاوازدهار اقـتصادها .

هذا بالاضافة الى كل الحواضر القديمة المعروفة مثل : قابس وسفاقس والمستير التي كانت كلها من الحواضر العلمية المشهورة في القرنين السادس والسابع . وبالرغم من الطابع العسكرى الذى كانت تحمله بعض هذه المدن ، حيث انشئت ، أساسا ، لأغراض دفاعية وسياسية ، كما نعلم . الا أن ذلك لم يمنعها أن تصبح من أكبر الحواضر الثقافية بافريقية . حيث تركز بها النشاط الفكرى ، كما تركزت بها كل أوجه النشاطات الأخرى ، باعتبارها العواصم الرسمية .

وقد كان لتونس ، خاصة ، فضل لاينكر في هذا المجال . ويكفيها شاهد على ذلك ما قام به جامع الزيتونة فيها من نشاط فكرى طول قرون امتدت الى عصرنا الحاضر .

وقد بقيت هذه الحواضر تؤدى مهمتها الثقافية حتى بعد فقدانها لصبغتها السياسية كعواصم لدول معينة ، رغم ما أصاب بعضها من تخريب على يد الهلاليين في منتصف القرن الخامس .

وميزة هذه الحواضر الثقافية الافريقية يتجلى فيما اتجه علماؤها من أجيال مثقفة في البلدان التي هاجروا اليها ، اثر بعض الأحداث السياسية . وقد كانت هذه الأجيال تعد بمثابة البذور الأولى للثقافة المغربية الحقة التي أتت أكلها في القرنين السادس والسابع .

— حواضر المغرب الأوسط :

فما يقال عن الحواضر الثقافية بافريقية يسرى على حواضر المغرب الأوسط التي نشأت في هذه الآونة أيضا .

فقد لعبت بلدان الزاب دورا حضاريا كبيرا منذ نشأتها، حيث اشتهرت بعمرانها وعلو شأنها في ميدان الثقافة خاصة، حتى أصبحت تضاهي بعض مدن افريقية. فقد كان الزابيون يأخذون تعليمهم الأساسي الأول بمسقط رأسهم حتى اذا ما تضلعوا، وأرادوا التخصص أو التفقه في فنّ من الفنون ارتحلوا الى الأندلس أو المشرق. مما يدل على وفرة وسائل التعليم وانتشارها ببلدانهم.

فقد كانت "طبنة" أقدم مدن الزاب بهذه المنطقة من أهم الحواضر العلمية والحضارية بالمغرب الأوسط. بل ليس بين سجلماسة والقيروان مدينة أكبر منها، كما يقول البكري (1).
وقد كان لتوسطها بين عاصمتي الثقافة — القيروان، وتهرت — أثر كبير في ازدهار العلوم بها، وان بقيت مقصورة أول الأمر، على العلوم الدينية التي كان لها رواج في ذلك الوقت. أما الأدب فقد كان حظه قليلا. وحتى الموجود منه، على قلته، كان من انتاج الفقهاء. أما الأدباء والشعراء الذين لمعت أسماؤهم في هذا الفن فقد كانوا يؤثرون الهجرة الى بلدان أرقى حضارة وأكثر ازدهار. منهم من هاجر الى مصر، واستوطنها. وبعضهم قصد الأندلس. نذكر منهم أبا عبدالله محمد بن حسين بن محمد بن ابراهيم الطبني الذى ولد بطبنة وتعلم بها حتى صار أديبا بليغا فدخل الأندلس سنة 335 هـ. قال عنه ابن بشكوال: لم يصل الى الأندلس أشعر منه. ووصفه بسعة العلم والتبحر في الأدب (2).
كما ذكره الحميدى بقوله: "كان شاعرا مكثرا وأديبا متفننا، ومن بيت أدب وشعر، وجلالة، ورياسة". (3)

---

(1) البكرى : المغرب . ص: 50 — انظر كذلك يا قوت : معجم البلدان : ج. 13. ص: 21.
(2) ابن بشكوال : الصلة : رقم : 1188. ط. مدريد 1883.
(3) الحميدى : جذوة الاقتباس : ص: 50 . ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

الا أن أشعاره قد ضاعت ولم يصلنا منها الا تلك النتف القليلة التي جاءت متفرقة في بعض كتب من ترجموا له . وهذا رغم المدائح الكثيرة التي قالها في أمراء الأندلس ابتداء من عبدالرحمن الناصر الأموي الى عهد عبدالملك المظفر في الدولة العامرية .

وقد هاجر مع أبي عبدالله الطبني أخواه : أحمد وعلي ، الأديبين أيضا . الا أننا لا نعرف وقت دخولهما الأندلس .

ومن الشعراء الذين ينسبون الى طبنة نذكر أبا مروان عبدالملك بن زيادة الله الطبني كان أديبا لغويا رحل الى الأندلس ، وكانت له رحلة الى المشرق ، وعندما رجع جلس للتدريس فكثر عليه الطلاب فقال :

اني اذا حضرتني ألف محبرة يقول شيخي
نادت بعقوتي الأقلام معلنة هذى المفاخر ، لا قعبان من لبن [1]

أما الفقهاء والمحدثون الذين ينسبون الى هذه المدينة فكثيرون . يكفي أن نذكر منهم : المحدث أبا محمد القاسم بن على الطبني [2] والمحدث علي بن منصور الطبني ، وأبا الفضل عطية الطبني الذى كانت له رحلة الى المشرق حيث سمع الحديث ببغداد [3].

وعندما استجد بناءها عمر بن حفص المهلبي سنة 454 هـ. [4]. تضاعف نشاطها الثقافي رغم فقدانها لمركزها السياسي فبقيت من أهم مراكز الاشعاع في منطقة المغرب الأوسط مدة طويلة .

وكانت "المحمدية" (المسيلة) التي ورثت طبنة على رأس ولاية الزاب من ألمع الحواضر العلمية بالمغرب الأوسط أيضا . وقد بلغت

(1) ياقوت : معجم البلدان : ج . 13 . ص : 21 — انظر مغازلته لخدوج وسبب قتله في الخريدة . قسم شعراء المغرب . ص : 327 .
(2) ياقوت : معجم البلدان : ج . 13 . ص : 21 .
(3) المرجع السابق — انظر كذلك الكعاك : موجز تاريخ الجزائر . ص : 162 — انظر أيضا : العماد : الخريدة — قسم المغرب — حيث ذكر له قصيدة في ص : 319 .
(4) البكري : المغرب . ص : 50 ، انظر كذلك ياقوت : معجم البلدان . ج . 13 . ص : 21 .

أوج عزها الثقافي أيام الصنهاجيين ، كما أشرنا لذلك من قبل .
وقد تكلم عنها كل من ابن حوقل ، والبكري والادريسي[1]، فوصفوا مزاياها الاقتصادية والزراعية باسهاب ، كما أشادوا بروح تجارتها الأمر الذي جعل أهلها يتمتعون بمستوى معاشي وحضاري رفيعين .
وقد ساهم في رقي هذه المدينة ، وجود عدة قرى عامرة تحوط بها . كانت بمثابة روافد ثرة لنشاطها الاقتصادي . منها قرية "بشليقة " ومدينة " الغدير " و " طرقلة " التي كان يقال عنها " طرقلة طرف من الجنة " . ويكفي المسيلة فخرا أن تنتج أمثال الحسن بن رشيق وعبد الكريم النهشلي وأضرابهما . وقد بقيت محافظة ، هي الأخرى على مركزها الثقافي بالرغم مما أصابها من محن ، مدة طويلة امتدت الى ما بعد العهد الموحدى .

وقد نافست " أشير " كلا من طبنة ، والمسيلة في نشر الثقافة في منطقة المغرب الأوسط وذلك منذ أن اختطها زيرى بن مناد الصنهاجي سنة 324 . وهي التي ينتسب اليها العالم الجليل أبو محمد عبدالله بن محمد الأشيرى المتوفي سنة 561 هـ . كان قد رحل الى الشام بعد أن تثقف ببلده فأصبح امام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب حيث استقر للتدريس . وقد سمع به الوزير عون الدين أبو المظفر يحي بن محمد بن هبيرة وزير المقتفي ، والمستنجد ، فطلبه من الملك العادل نور الدين زنكي ، فسيره اليه الى بغداد ، حيث قام بتدريس كتاب ابن هبيرة . " الا يضاح في شرح معاني الصحاح "بحضور كاتبه[2]. وهو كتاب ضخم يحتوى على 19 مجلدا ، شرح فيه أحاديث الصحيحين . واليها ينتسب أيضا أبو علي عبدالله بن الحسن ، الكاتب المعروف بالأشيرى وكان متخصصا في القراءات واللغة العربية كما كان أحد أدباء العهد الموحدى[3].

---

(1) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض: ص : 48 ، البكرى : المغرب . ص: 59 . الادريسي : وصف افريقية . ص : 85 ـ 86 .
(2) ياقوت : معجم البلدان : ج . 2 . ص : 202 .
(3) طمار : الأدب الجزائرى . ص : 120 .

وكانت القلعة الحمادية التي خلفت أشير في الزعامة أوفر حظا من سابقتها في الازدهار العلمي خاصة عندما دخلها القيروانيون اثر الزحف الهلالي ، كما أشار لذلك البكرى عند وصفه لها حيث قال : " وقلعة أبي طويل قلعة كبيرة ذات مناعة وحصانة . تحضرت عند خراب القيروان . وانتقل اليها أكثر أهل افريقية "(1).

وقد جعل الحماديون القلعة دار علم وأدب ، وموطن نشاط فكرى ، على غرار القيروان بافريقية ، وقرطبة بالأندلس . فأسسوا فيها المدارس والجوامع ، وجلبوا اليها الأدباء والعلماء وعقدوا بها المجالس العلمية للمناظرة والمباحثة(2).

الا أن قصر عمر هذه المدينة كعاصمة سياسية ، وانتقال مركز الحكم الحمادى عنها الى بجاية ، أخمد ، بعض الشيء ، شعلتها الثقافية . وقد استمرت ، رغم ذلك ، في اداء رسالتها التعليمية بعد ذلك مدة طويلة فنبغ فيها علماء كثيرون منهم الفيلسوف أبو عبدالله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة الذى ولد بها سنة 478 ، وتعلم فيها ، وببجاية والجزائر ثم انتقل بعدها الى الأندلس حيث درس الفلسفة على أبي الوليد بن رشد ، كما أخذ عن غيره من العلماء ، ثم عاد الى المغرب حيث عيّن على قضاء فاس فمكث بها الى أن مات سنة 567 . ومن أشهر مؤلفاته " تسهيل المطلب في تحصيل المذهب " وكتاب " التقصي عن فوائد التقصي " وكتاب " التبيين في شرح التلقين "(3).

وتعد مدينة بسكرة احدى الحواضر الثقافية التي تنتمي الى مجموعة بلدان الزاب ، وقد لعبت دورا رئيسيا في نشر الثقافة العربية في المنطقة الصحراوية المتاخمة لها ، وقد اشتهر من أبنائها

---

(1) البكرى : المغرب . ص : 49.
(2) الكعاك : موجز تاريخ الجزائر . ص : 281.
(3) طمار : الادب الجزائرى . ص : 107.

علماء كثيرون تعدت شهرتهم منطقة بلدان المغرب ، فذاع صيتهم في كل من الأندلس والمشرق . نذكر من بين هؤلاء أبا القاسم يوسف ابن علي البسكري الذي ولد سنة 408 ، تعلم ببلده وأتم تعليمه بالمغرب قبل أن يرحل الى بغداد ، وقد تخصص في علم القراءات وعلوم اللغة ، سمع به الوزير نظام الملك فاستدعاه للتدريس بمدرسة نيسابور فاستجاب لدعوته ومكث بها الى أن مات سنة 465.[1].

ومنهم أحمد بن علي بن أحمد بن محمد أبو عبدالله المتوفي سنة 410 وقد رحل الى الأندلس بعد أن أتم دراسته ببلده ، فأقام بقرطبة حيث درس بجوامعها ، واشتهر بين أهلها ، وقربه ملوكها وجعلوه من خاصتهم[2]. ومنهم اسحاق بن عبدالله الملشوني ، السالف الذكر ، ولد " بملشونة " ، قرية بأخواز " بسكرة " تخصص في التاريخ وله اطلاع واسع في الفقهيات . كان له اتصال بالأغالبة حيث قربوه وجعلوه من خاصة جلسائهم[3].

ومن بلدان الزاب نذكر " وارجلان " التي أسسها بنو وركلا فـ " ... في مستهل القرن الثاني الهجري على ثماني مراحل قبلة " بسكرة " بنوها قصورا متقاربة الخطة، ثم استبحر عمرانها فأتلفت وصارت مصرا "[4].

وقد صرت هذه البلدة عمارة كبيرة ، خاصة ، بعد ما مرّ بها أبو زكرياء الحفصي ، في تتبعه لآثار الميورقي ، وذلك في أواخر القرن السادس هـ . وكان قد اعجب بالمدينة ، فأمر بزيادة تمصيرها

---

(1) ياقوت : معجم البلدان: ج . 9 . ص : 124 ـ طمار ت الأدب الجزائري . ص : 72 .
(2) ياقوت : معجم البلدان: ج . 9 . ص: 124 . الكعاك تاريخ الجزائر . ص: 161 .
(3) طمار : الادب الجزائري . ص : 44 .
(4) ابن خلدون : العبر: ج . 7 . ص: 106 ـ ذكرها البكري في المسالك والممالك فقال عنها وارجلان هي سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى (اغرم نكامّن) أي حصن العهود .

وبني فيها مسجده العتيق [1] الذى صار يعرف به .

ويبدو أن المنطقة كانت كثيرة العمران ، رغم وجودها على أبواب الصحراء الكبرى . وهذا لما كانت تتمتع به من خيرات دافقة تجلت في الواحات الشاسعة الأطراف ، والبساتين المزروعة والحدائق الغناء ، والمياه الجارية .

يقول أحد المؤرخين المحدثين : " وجدت في بعض الورقات الباقية من بعض التواريخ الورجلانية أن بين " حاسي بغلة " و " يغفرن " و " ورجلان " و " جبل العباد " مائة وخمسة وعشرين بلدة كلها عامرة . . . وفي مائة الحوزة ألف واحدى وخمسون عينا جارية . . . خربت وتلاشت على يد يحيي بن اسحاق الميورقي سنة 624 هـ " . [2]

وكانت مدينة وارجلان تزخر بالعلماء والفقهاء منذ تأسيسها يكفي أن نذكر منهم الامام أبا يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني الذى يعد من خيرة علماء القرن السادس . تثقف ثقافته الأولى بموطنه ، ثم ارتحل الى الأندلس حيث استقر بقرطبة مدة طويلة درس فيها كل العلوم العقلية ، من فلسفة ومنطق وحساب وهندسة وعلم الفلك . ثم رجع الى بلده حيث استقر بها للتدريس وقد لازم بيته قبل ذلك سبع سنوات كاملة تفرغ فيها للتأليف فأخرج عدة كتب قيمة ، منها كتابه " الدليل والبرهان " في علم الكلام ومبادىء المنطق في ثلاثة أجزاء . وكتاب " مرج البحرين " في الهندسة والحساب و كتاب " العدل والانصاف" في أصول الفقه وهو في ثلاثة أجزاء ، ورتب مسند الربيع بن

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج . 7 . ص : 107 .
(2) اعزام الحاج ابراهيم : غصن البيان في تاريخ وارجلان (مخطوط) .

حبيب . وله فوق ذلك تفسير وضعه في سبعين جزءاً حسب بعض الروايات الا أنه ضاع بأكمله . ويقال أن له كتابا في التاريخ سماه "فتوح المغرب" أو "تاريخ المغرب" ، غير أنه لم يبق منه شيئا وقد توفي سنة 570 هـ.(1)

وكانت بجاية التي بناها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري في حدود سنة 1076/457 . واسطة عقد مدن المغرب الأوسط بلا منازع . فقد أشاد كل المؤرخين الذين تعرضوا لذكرها بما كانت تتمتع به من عظمة في الميدان الحضاري ، وبما كانت تزخر به مساجدها من علوم . وقد أمها العلماء والطلاب — على حداثتها — من كل من افريقية ، والشرق ، والأندلس . فبلغت ذروة مجدها في الازدهار الثقافي أيام الموحدين ، خاصة . وكتاب أبي العباس الغبريني "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" خير دليل على ما وصلت اليه هذه الحاضرة من ازدهار حضاري ورقي ثقافي .(2)

وهناك مدن أخرى كثيرة نشأت بمنطقة المغرب الأوسط يستدل من وصف الجغرافيين القدماء لها أنها لعبت دورا كبيرا في ميدان نشر الثقافة العربية في القرون الوسطى نذكر من بينها "قسنطينة"(3) ، وكذلك "ميلة" ثم سطيف التي كانت محاطة بقرى كثيرة عامرة . ومدينة "بلزمة" التي سكنتها بعض القبائل العربية من بني تميم الى جانب سكانها الأصليين ، وهذا منذ الفجر الاسلامي الأول . وهناك مدينة "نقاوس" و "مقرة" التي سكنتها قبيلة بني ضبة .

---

(1) اعزام : غصن الباز : ص: 185— 187 .

(2) وصفها الأدريسي بقوله : "ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد . والسفن اليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة . واهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع ماليس بكثير من البلاد . واهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار الشرق وبها تحل الشدود . وتباع البضائع بالأموال المقنطرة . . . وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة" . الادريسي : نزهة المشتاق . ص: 63 .

(3) عدها ياقوت من مجموعة بلدان الزاب ، انظر معجم البلدان : ج . 9 . ص: 124 دار صادر .

ومن مراسيها المشهورة : جيجل ، وقلعة حطاب ، واسكيكدة [1]. وقد كانت كلها مدنا عامرة ، متحضرة ، تتقد نشاطا وحيوية . تمصر كثير منها في العهد الموحدى بما توفر لها من أمن ورخاء ، وتيسر لها من أسباب الاتصال بالمدن الداخلية الأخرى . والأقطار الخارجية ونعني بها المشرق ، والأندلس خاصة .

هذا بالنسبة لولايات الجناح الشرقي للمغرب الأوسط ، اما بالنسبة لولاية الوسط ، فهناك مدن كثيرة اشتهرت كحواضر ثقافية في القرنين السادس والسابع ، نذكر من بينها المدن الثلاثة التي أعاد بناءها بلكين الصنهاجي بأمر من والده زيرى بن مناد . وهي : " مليانة " التي تقع على سهول الشلف ، وقد وصفها البكرى بالعمارة ورواج التجارة . و " لمدية " ومدينة " جزائر بني مزغنة " التي أقيمت على أنقاض " اقسيوم " المدينة الرومانية القديمة . وقد كانت من بين المدن التي اجتاحها الزحف الهلالي ، فاستقرت بها قبيلة ثعلبة العربية .

ومما زاد في أهمية هذه المدينة أن مرساها كان من أشهر المعابر الى بلاد الأندلس الأمر الذى ساعد أهلها على التفتح بفضل ذلك الاتصال الدائم على شبه الجزيرة الايبيرية .

وقد عرف الجناح الغربي للمغرب الأوسط هو الآخر ، حواضر ثقافية هامة منها مدينة " تدلس " التي ساهمت بمجهود كبير في نشر الثقافة بالمناطق المجاورة لها ، وهذا بفضل الأندلسيين الذين هاجروا اليها صحبة أميرهم معز الدولة بن صمادح في منتصف القرن الخامس عند ما فرّ من ألمرية عاصمة ملكه اثر اطاحة المرابطين بعروش ملوك الطوائف . فأصبحت بفضل سكانها الجدد مركزا ثقافيا هاما . وحاضرة من الحواضر العلمية المزدهرة . استعرب كل من كان بها من البربر لدرجة أنهم نسوا البربرية ، لغة ، وأخلاقا ، وعوائد .

---

(1) الكعاك : موجز تاريخ الجزائر . ص : 155— 156 .

وهناك مدينة "تنس" [1] التي كانت من بين المدن المتحضرة المرموقة حسبما يستشف من وصف البكري لأسواقها وحماماتها والجاليات الأندلسية التي كانت تسكن بها، وقلعتها المحصنة التي انفرد الحكام بسكناها لمناعتها . وكانت الى جانب ذلك مركزا علميا هاما . وذلك منذ القدم . وقد بقيت تؤدي رسالتها الثقافية الى ما بعد الموحدين بكثير . من العلماء الذين ينتسبون اليها محمد بن عبد الجليل التنسي صاحب كتاب " نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان" وهو كتاب في التاريخ والأدب والحكم .

وقد ساهمت " وهران "[2] ، هي الأخرى ، بمجهود كبير في انعاش الثقافة ونشرها بالمناطق الغربية . وقد كانت تعد ، في العصر المرابطي ، من أبرز الحواضر الثقافية بالمغرب ، وعندما جاء الموحدون اتخذ عبد المؤمن بن علي " المرسى الكبير " الذي يوجد بقربها قاعدة لأسطوله ودارا لصناعة السفن ، فازدادت المدينة لذلك أهمية ، وتضاعف اقتصادها ، وزادت حركتها الثقافية نشاطا ، بفضل حركة التنقل التي قويت بينها وبين الموانئ الأندلسية[3] . ومن أشهر علمائها بالقرن السادس نذكر : ابن محرز الوهراني صاحب المقامات المشهورة ، سنعرض لها فيما بعد .

أما مدينة تلمسان ، فقد اشتهرت منذ نشأتها بتعلق أهلها بأسباب العلم وحبهم للثقافة . وقد نالت عناية خاصة من طرف

---

(1) أنظر عنها : البكري : المغرب . ص : 61—62 — وياقوت : معجم البلدان : ج . 1 . ص: 877 — ودائرة المعارف الاسلامية مادة (تنس)

(2) انظر البكري : المغرب . ص : 70 — معجم البلدان : ج . 4 . ص: 942 — الموسوعة الاسلامية مادة (وهران) .

(3) وصفها الادريسي : وقال عنها : " تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس ، وسعة البحر بينهما مجريان ومنها اكثر ميرة ساحل الأندلس — وصف افريقية ص : 57 .

كل الحكام الذين تعاقبوا على حكم بلدان المغرب ابتداء من الأدارسة الذين أسسوها على أنقاض مدينة "أغاديس" الرومانية، والمرابطين الذين أتموا بناءها بإضافة مدينة "تكررت" إليها. وقد أصبحتا مدينة واحدة فيما بعد.

وكان يسر أهلها من أهم الأسباب التي ساعدها على النمو والتحضر. لقد قال عنهم الأدريسي "لم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة "اغمات" و "فاس" أكثر من أهلها أموالا، ولا أرفه منهم حالا"(1).

وقد تجلى ازدهار تلمسان في ميدان العلوم، خاصة أيام المرابطين والموحدين من بعدهم. وبلغت أوج عظمتها الحضارية عندما أصبحت عاصمة للدولة الزيانية في القرن السابع.

وهناك مدينة تهرت التي سبق أن فصلنا فيها القول في الباب الأول. فقد بقيت هذه المدينة - بالرغم مما أصابها من تخريب وإحراق على يد العبيديين - تؤدي رسالتها التعليمية كحاضرة ثقافية عادية، إلى ما بعد الموحدين. فلقد أثبت التاريخ أنها بقيت منطقة نزاع، رغم سقوطها كعاصمة سياسية، بين بني خزر أمراء تلمسان وبين العبيديين، ما يزيد عن نصف قرن بعد خروج الرستميين منها. مما يدل على المكانة التي بقيت تتمتع بها بين مدن المغرب.

الا أن الأضواء لم تعد تسلط عليها كما كانت من قبل، لأن المؤرخين القدماء لا يهتمون، فيما يروونه من أحداث الا بالجوانب السياسية. وهذا ما وقع بالنسبة لكل المدن التي فقدت صفتها كعواصم سياسية للدول التي أنشأتها، "كرقادة" و "المهدية" و "المنصورة" (صبرا) و "طبنة" و "أشير" و "المسيلة" وغيرها.

---

(1) المرجع السابق. ص: 55.

فلا يعقل أن تكون كل هذه المدن التي بلغت شأوا كبيرا في التحضر ، قد كفّت عن كل نشاط ثقافي بمجرد فقدانها للصبغة الرسمية التي كانت تتمتع بها .

فلئن كانت السياسة لا تخضع لمنطق ، فان الثقافة لا تؤمن بالطفرة . فقد تسقط المدن سياسيا بين عشية وضحاها ، الا أن مركزها الثقافي يبقى بعد ذلك أجيالا وأجيالا .

فنحن لا نشك أن هذه المدن قد أصابها كثير من الركود الذي مسّ كل النشاطات التي كانت تقوم بها ، بما في ذلك النشاط الثقافي ، نتيجة للأحداث التي تعرضت لها ، الا أن ذلك لا يعني أنها انطفأت نهائيا لمجرد سقوطها كعواصم سياسية . وهذا ما يفسر استرداد ، كثير منها ، لمكانتها ، بمجرد أن أحست بعودة الاستقرار اليها ، وتوفرت على الأمن اللازم لذلك .

— حواضر المغرب الأقصى :

أما بالنسبة للحواضر الثقافية التي عرفها المغرب الأقصى في هذه الآونة فأشهرها مدينة " فاس" التي أبت الا أن تكون كما أرادها مؤسسها المولى ادريس ، دار علم وفقه . وليس أدل على ما وصلت اليه هذه المدينة من الرقي والحضارة ، وانتشار العلوم بها ، ما أورده ابن أبي زرع في وصفها ، حيث قال : " وبلغت مدينة فاس أيام المرابطين ، وأيام الموحدين من بعدهم ، من العمارة ، والغبطة ، والرفاهية ، والدعة ، مالم تبلغه مدينة

من مدن المغرب . وانتهى عدد مساجدها في أيام المنصور وولده الناصر الى سبعمائة واثنين وثمانين مسجدا "[1].
فهذا العدد الضخم من المساجد ، ان دل على شيء فانما يدل على ماكانت تزخر به هذه المدينة من المنشآت التعليمية ، والمراكز

(1) ابن أبي زرع القرطاس : ص 47.
— ومما قاله ابن ابي زرع في وصف عمران فاس وحضارتها في القرن السادس ما يلي :
— " ... وأحصي ما بها من السقايا وديار الوضوء مائة واثنان وعشرون موضعا ، منها اثنان واربعون موضعا في ديار الوضوء . وباقيها سقايات ، منها بمياه العيون ، ومنها بمياه الانهار .
— وأحصيت الحمامات منها المبرزة للناس في تلك المدة ، فكانت ثلاثة وسبعين حماما .
— وأحصيت الارحاء التي دار عليها سور المدينة ، فوجدت اربعمائة حجر واثنتين وسبعين حجرا ، دون ما بخارجها من الارحاء .
— وأحصيت الديار بها في أيام الناصر ، فكانت تسعة وثمانين الف دار ومائتي دار وستا وثلاثين دارا . وتسعة عشر الف مصرية واحدى واربعين مصرية .
— ومن الفنادق المعدة للتجار ، والمسافرين ، والغرباء ، أربعمائة فندق وسبعة وستين فندقا .
— وأحصيت الحوانيت بها في المدة المذكورة ، فكانت تسعة آلاف حانوت واثنين وثمانين حانوتا . وقيسر تان : احداهما بعدوة القرويين ، والثانية بعدوة الاندلس ، على وادي مصمودة .
— وأحصي ما بها من الترابيع ، والاطرزة المعدة لصناعة الحياكة ، فكانت ثلاثة آلاف موضع وأربعة وستين موضعا .
— وكان بها من الديار المعدة لعمل الصابون سبع وأربعون دارا . ومن ديار الدباغة ست وثمانون دارا وديار لصباغة مائة دار وست عشرة دارا . وكان بها اثنتا عشرة دارا لسبك النحاس وكان بها من الكوش لعمل الخبز مائة كوشة وخمس وثلاثون كوشة . وكان بها من الافران في جهاتها وأزقتها ، الف فرن ومائة وسبعون فرنا .
— وكان بها أحد عشر موضعا لعمل الزجاج . وبخارجها من الديار المعدة لعمل الفخار ، مائة دار وثمان وثمانون دارا ... "

الثقافية باعتبار أن المساجد كانت تمثل في ذلك العهد المعاهد الحقيقية للتعلم . كما تعبر كثرة انتشارها بهذا الشكل على كثافة طلاب العلم الذين كانوا يؤمونها للدراسة .

والفضل الأكبر في هذه النهضة العلمية التي عرفتها "فاس" منذ نشأتها الأولى ، يرجع خاصة ، الى "مسجد القرويين" الذى أسسته فيها امرأة صالحة نزحت من القيروان تدعى فاطمة بنت محمد بن عبدالله الفهرى [1] ، والذى استحال فيما بعد الى جامعة بالمفهوم الحديث ، زاوجت بين ثقافة القيروان التي حملها المهاجرون الأفارقة الذين وفدوا على فاس من بعد أن أكمل المولى ادريس بناءها [2]، وثقافة قرطبة التي حملها المهاجرون الذين نفاهم الحكم بن هشام بعد ثورة "الربض" المشهورة [3].

وعن هذين التيارين : الافريقي والأندلسي تولدت الثقافة المغربية فيما بعد . فأصبحت "فاسا" تضاهي العراق ومصر والشام والأندلس لما كانت تزخر به من أنواع المعرفة .

والى جانب جامع القرويين كانت هناك مؤسسة أخرى أنشأتها أخت فاطمة أم البنين السالفة الذكر ، وهي مريم بنت محمد بن عبدالله الفهرى سنة 245 هـ . التي وردت على المغرب هي الأخرى صحبة أبيها وأختها في عهد يحي بن محمد بن ادريس حسب

---

(1) ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 54 .

(2) "أتى وفد القيروان الى ادريس رضي الله عنه في جمع كثير بعيالهم وأولادهم ، فأنزلهم حولة بعدوة القرويين" . ابن أبي زرع : القرطاس. ص : 54 . وقد كانت هذه الجالية الأولى تتكون من ثلاثمائة بيت — انظر نفس المرجع . ص : 47 .

(3) كانوا ثمانية آلاف بيت . المرجع السابق . ص : 47 — أنظر كذلك ابن عذارى : البيان : ج . 2 . ص : 77 .

رواية ابن القاضي[1] ، وابن أبي زرع نقلا عن "ابن جنون "[2] ، وبعني بهذه المؤسسة جامع الأندلسيين ، الذى نافس جامع القرويين في القرن الرابع الهجرى . وقد شهد هذا الجامع نشاطا ثقافيا كبيرا ، حسبما ذكر الجزنائي في كتابه عن تاريخ فاس[3] .

وعندما اختلت الأمور ، في القرن السادس ، بافريقية اثر الزحف الهلالي ، واشتدت حركة الاسترداد الاسباني بشبه الجزيرة الايبيرية ، بدأت وفود العلماء ، الأندلسيين والأفارقة ، تترى على هذين الجامعين ، وعلى بقية المساجد الفاسية الأخرى . فازداد انتعاش الثقافة بهما أكثر ، واشتد الاقبال عليهما من كل أطراف العالم الاسلامي .

وقد أدركت هذه المدينة أزهى عصورها الثقافية أيام الموحدين والمرينيين من بعدهم .

ويبدو أن "سجلماسة "كانت حاضرة علم وعمران قبل تأسيس فاس بما يقرب من نصف قرن . فقد ذكر أبو العلاء العلوى في كتابه : "الدرر البهية ، والجواهر النبوية " أن سجلماسة كانت قاعدة بلاد المغرب قبل فاس ، ودار الملك منها عمرت ، قبل حلول الأدارسة الحسينيين بهذا القطر المغربي ، وذلك عام 140 هـ . ولم يتقدم لأهلها كفر ، ولم تزل من ذلك الوقت آهلة بالعلماء ، والصلحاء ، وهي أول بلد درس العلم بها في المغرب[4] .

---

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس : ص 49 .
(2) ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 55 — الجزنائي أبو الحسن علي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس . ص : 80 .
(3) المرجع السابق . ص : 80 .
(4) الثقافة والتعليم في العهد الادريسي — مجلة اللقاء — العدد الرابع سنة 1968 .

ومهما يكن من أمر، فان سجلماسة، كانت، من المؤكد، على صلة وثيقة بالحواضر العلمية المنتشرة بالمغرب منذ نشأتها الأولى. خاصة منها تاهرت التي كانت تربطها بها علاقة مذهبية في وقت ما.(1)

ولا شك أن موقع المدينة على الطريق المؤدية الى معدن الذهب " بغانة " كان له أكبر الأثر في ازدهارها، واستقطاب كثير من العلماء، الذين كانوا يأتون اليها بصفة تجار(2).

وقد أشار أحد الكتاب المحدثين وهو : Jean Michel Lessard في مقال نشره عن سجلماسة، الى أن هذه المدينة بدأت تبرز أهميتها منذ أن اتسعت الفتوحات، واشتدت حاجة الامبراطورية الاسلامية لمزيد من الذهب لضرب سكتها، وقد كانت قبل ذلك تكتفي بضرب ما تغنمه من أواني الذهب والفضة. فاتجهت لذلك شطر "غانة" لسدّ حاجتها من مناجمها المشهورة.

وكانت سجلماسة تشكل البوابة الرئيسية التي تمرّ عليها كل القوافل التجارية المتجهة نحو الصحراء الكبرى، فقد كانت أول الأمر، محط رحال للتزود، ثم ما لبثت أن أصبحت من أهم الأسواق المركزية، بتحكمها في عملية الاستيراد والتصدير، حيث أصبحت توزع على كل الأقطار ما تحتاجه من السلع التي تجلبها من بلاد السودان، مثل العاج، والعنبر، والدرق اللمطية، والملك الذى كانت تصدر منه كميات هائلة الى الأندلس لدهن منسوجات الحرير، وما الى ذلك.

ويربط صاحب المقال سقوط سجلماسة، كسوق تجارية، هامة باكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى على المحيط

---

(1) ابن خلدون : العبر : ج. 6. ص: 268.

(2) انظر : ابن حوقل ابا القاسم التجيبي : كتاب صورة الأرض، القسم الأول . ص: 99، الطبعة الثانية ليدن 1938.

للاتصال " بغانة " ويقول : ان سجلماسة فقدت ، منذ ذلك الحين ، أهميتها كحلقة اتصال بين أوروبا وافريقية السوداء "[1].

الا أن تاريخ سجلماسة لايزال غامضا . اذ أن أغلب الذين تكلموا عنها لم يتجاوزوا وصفها الظاهرى . لذلك لانستطيع أن نتصور ، بالدقة ، مبلغ ما وصلت اليه من العلم . اللهم الا ما يمكن أن نستشفه من تراجم بعض الشخصيات العلمية التي درست بها ، أو نسبت اليها ، من أمثال : ابن الفرضي السجلماسي ، ووجاج بن زلو اللمطي صاحب رباط سجلماسة[2] ، وعبدالله مروان بن عبدالملك بن كنون[3] وابن الغرديس الذى قصده الطلاب من كل أنحاء المغرب والأندلس[5].

وتعد مدينة مراكش من أهم الحواضر الثقافية التي استحدثت في العهد المرابطي فقد اختطها يوسف بن تاشفين بعد أن تم له الاستيلاء على المغرب في منتصف القرن الخامس فاعتمد في تعميرها على من كان يجلبه اليها من علماء الأندلس حيث " انقطع اليه من الجزيرة ، من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم . . . "[6]

---

(1) انظر : Jean Michel Lessard.Hisfîris Tamouda Vol 10/ 1969.

(2) هو استاذ عبدالله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية — انظر ابن أبي زرع : القرطاس . ص : 121.

(3) ترجم له ابن ابي زرع في القرطاس . ص : 122.

(4) القاضي عياض : الفهرست . ص : 66.

(5) من الأندلسيين الذين قصدوا ابن الغرديس للأخذ عنه بسجلماسة نذكر : الفقيه أحمد بن محمد بن عمر التميمي من علماء المرية سمع عنه صحيح البخارى ومنهم ، محمد بن علي بن أحمد الانصارى المعروف بابن العامل ، وهو من أهل شاطبة ، روى عن ابن الغرديس وعن القاضي عياض ... ة . فهذا يدل على أن سجلماسة وسبتة كانتا من أهم العواصم ... كما يدل على أن علماء المغرب كانوا لا يقلون شهرة و ... زملائهم بالأندلس ... انظر عن هذين العالمين : كلا من ... المعجم : رقم 17 — وابن القاضي : جذوة الاقتباس ... — مخطوط الخزانة العامة بالرباط) .

(6) المراكشي : المعجب : ص : 227.

وعندما جاء ابنه علي من بعده أكمل بناءها وبالغ في الاعتناء بها حتى جعلها تضاهي اشبيلية الأندلسية في كل مظاهر الأبهة والزخرف ، ويكفي المرء أن يلقي نظرة عجلى على ما كتبه المؤرخون الذين تعرضوا لذكرها ، ليدرك مدى ما وصلت اليه هذه الحاضرة من رقي وازدهار في كل فنون المعرفة وألوان الحضارة ، خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وأصدق شاهد على ما نقول ما أورده المقرى في وصفها نقلا عن ابن سعيد حيث قال : "ويكفي في الانصاف أن أقول أن حضرة مراكش هي بغداد المغرب وهي أعظم ما في بر العدوة في كثرة مصانعها ومبانيها الجليلة ، وبساتينها انما ظهرت في مدة بني عبد المومن وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم الى الآن ، ومدينة تونس قد انتقلت اليها السعادة التي كانت بمراكش بسلطان افريقية ، أبي زكرياء "(1).

وقال في موضع آخر : "... ولم أر ما يشبهها (يعني الأندلس) في حسن المباني والتشييد والتصنيع الا ما شيد في مراكش في دولة بني عبد المومن وبعض أماكن في تونس ...."(2)

وقد ظهرت عناية الموحدين بها فيما خلفوه من آثار عمرانية من قصور ، ومستشفيات وجسور وما الى ذلك ، واعتنوا خاصة بالجانب الثقافي فاكثروا من بناء المساجد والجوامع ، وانواع المؤسسات الثقافية الأخرى . فقصدها العلماء والطلاب من كل جهة وأمها النبغاء في كل فنّ حتى أصبحت " من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا " على حد تعبير صاحب كتاب الاستبصار(3).

وقد وضع المراكشي مؤلفا ضخما في عدة مجلدات ترجم فيها لمشاهير العلماء الذين أموا مراكش وأغمات ، وجلسوا بجوامعهما للتدريس(4)

---

(1) عباس ابراهيم المراكشي : الأعلام : ج . 1 . ص : 74 .
(2) المرجع السابق .
(3) الاستبصار . ص : 208 ـ 210 .
(4) انظر المراكشي : عباس بن ابراهيم : الأعلام .

مما يدل على ماكانت تزخر به مساجد هاتين المدينتين من أنواع المعرفة والعلوم وما قامتا به من نشر للثقافة في الربوع الجنوبية للمغرب والمناطق الصحراوية المتاخمة لهما .

ويستشف من وصف البكري لمدينة " اغمات " أن هذه الحاضرة كانت من أعظم مدن المغرب قبل بناء مراكش لوقوعها في الطريق التجاري الصحراوي[1] ، كما يفهم من كلام الادريسي ، أن أهلها كانوا أغنى سكان المغرب على الاطلاق[2] مما ساعد على نمو حضارتها واتساع عمرانها . ولعل هذا ما دعا يوسف بن تاشفين لجعلها منفى لبعض ملوك الطوائف الذين أ قالهم عن عروشهم مثل المعتمد بن عباد أمير اشبيلية وعبدالله بن بلكين ابن باديس أمير غرناطة ، باعتبارها المدينة الأليق لاقامة هؤلاء الملوك لشبهها بالمدن الأندلسية في الرفاهية والتحضر .

هذا بالنسبة للحواضر الثقافية التي نشأت بالجنوب . أما بالنسبة للشمال ، فهناك سلسلة من الحواضر ، نشأت على امتداد السواحل المطلة على حوض البحر الأبيض ، فهي ، وإن كانت أغلبها أزلية ، على حد التعبير الجغرافي القديم ، الا أنها اكتسبت أهمية خاصة أيام المرابطين والموحدين ، لاعتنائهم بتمصيرها من جهة ، ولتوحيدهم للقطرين : المغربي والأندلسي ، وضمهما تحت لواء واحد ، من جهة أخرى .

فمن أهم هذه الحواضر الشمالية بلدة " النكور " التي كانت عاصمة لقبائل " غمارة " المنتشرة على طول الساحل الشمالي لبلاد المغرب المسمى " بالريف " فقد ظهرت آثار الثقافة الاسلامية

---

(1) قال البكري في وصفها : هي مدينتان سهليتان ، احداهما تسمى " اغمات ايلان " ، والاخرى " اغمات وريكة " ، وبها مساكن رئيسهم ، وبها ينزل التجار والغرباء و " اغمات ايلان " لايسكنها غريب ، وبينهما ثمانية اميال " المغرب . ص : 153 .

(2) الادريسي : وصف افريقية ص : 55 — انظر ماقاله عن وصف أغنيائها .

بهذه المناطق في عهد مبكر[1] . كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل .

وقد لعبت " سبتة " التي تعدّ أهمّ الحواضر الشمالية دورا رئيسيا في نشر الثقافة العربية الاسلامية منذ عهد مبكر حتى الأخرى . فقد رشحها لذلك موقعها الجغرافي ، حيث كانت أهمّ المعابر الى جزيرة الأندلس . وقد كانت تتنازعها الضفتان : الأندلسية والمغربية منذ القدم ، خاصة في العهود الاسلامية ، حيث تملكها الأمويون غير ما مرّة ، في عهد عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور . وقد كانت قبل ذلك ملجأ للقبائل العربية التي كان يتكون منها جيش كلثوم بن عياض أيام فتنة الخوارج الكبرى التي قادها ميسرة المطغرى ضدهم .

كما تملكها الأدارسة أيام حكمهم بالمغرب ، ثم الحموديون بعد أن ضمّوا اليها كلّا من : " طنجة " و " أصيلة " اللتين تعتبران من أهمّ الحواضر الثقافية أيضا .

وقد أفادت " سبتة " من كل هذه التقلبات والاحتكاكات التي وقعت بين بلدان المغرب والأندلس فنعمت فيها الثقافة الافريقية الأندلسية بفضل من أمّها من العلماء والفقهاء ، ومن سكنها من الجاليات العربية والأندلسية .

وعندما جاء المرابطون أولوها عناية خاصة ، فنشط نشاطها الثقافي حتى صارت تحسد من الأندلسيين أنفسهم ، فقد كان المعتمد ابن عباد يقول : " اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضي .

---

(1) انظر ابن خلدون : العبر : ج . 6 . ص : 439 .

وقد وصف ياقوت هذا الأخير بقوله : " ... وابن مرانة السبتي كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض ، والهندسة ، والفقه ، وله تلاميذ وله تصانيف ، ومن تلامذته ابن الغربي الفرضي الحاسب يقولون انه من أهل بلده ... "(1)

وفي هذا ما يدل على تفوق السبتيين في كل ألوان المعرفة .
وأحسن من صور لنا الحياة الثقافية بسبتة في هذه الآونة العلامة ابن تاويت في كتابه " تاريخ سبتة " الذي شرح فيه باسهاب كل التطورات التي مرت بها في مختلف العصور وركز فيه خاصة على الدور الذي لعبته في اثراء الفكر الاسلامي (2)
ولئن فقدت هذه المدينة أهميتها كأشهر معبر لبلاد الأندلس لفترة ما — أيام الموحدين حيث عوضها — لخروجها عن طاعتهم — بالقصر الصغير الذي أطلقوا عليه " قصر المجاز " ، فان شهرتها الثقافية بقيت كما كانت عليه . بل زادت نشاطا ، خاصة بعد " وقعة العقاب " سنة 609 هـ . و " وقعة القصر " التي تلتها سنة 614 . حيث بدأت تستقبل وفود اللاجئين الأندلسيين الذين بدؤا يتدفقون على العدوة بغزارة .

وقد توالى بعد ذلك سقوط سلسلة من المدن الأندلسية في أيدي النصارى ، كانت " قرطبة " في مقدمتها حيث سقطت سنة 634 هـ . وتلتها " بلنسية " سنة 636 ، ثم " اشبيلية "(3) بعد اثني عشرة سنة ، فقصد معظم الذين فروا من هذه المدن مدينة " سبتة "

---

(1) ياقوت : معجم البلدان : ج . 3 . ص : 80 ليبزيج 1968 .
(2) انظر : ابن تاويت محمد : تاريخ سبتة — الجامعة المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، الدار البيضاء 1982 .
— انظر كذلك مقالا له شارك به في المهرجان الثقافي الثالث سنة 1399 — 1979 ، سبتة ودورها في اثراء الفكر الاسلامي . ص : 6 .
(3) يقول محمد حجي في مقال له : سبتة ودورها في اثراء الفكر الاسلامي . ص : 94 . " عندما سقطت اشبيلية عاصمة النحاة في يد الاسبان فضل الاشبيليون أن يهاجروا الى سبتة أقرب المراكز الزاهرة اليهم بالعدوة القصوى " ابن الأبار : المعجم : رقم : 279 .

واستقروا بها[1]. ويكفي سبتة فخرا أن تنتج مثل القاضي عياض بن موسى الذى ملأت شهرته الآفاق، الذى كان كما قال ابن الأبار "اذا عدت رجالات المغرب، فضلا عن الأندلس، حسب فيهم صدرا". وقال ابن النصير[2]، يصف حفاوة الأندلسيين بمقدمه: "ولما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزا، ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا اليه ركابا، نيفا عن مائتي راكب ومن سواد العامة، ما لايحصى كثرة... وكان ذلك سنة 530 هـ.[3]

ونستطيع أن ندرك بحق قيمة الرجل اذا نحن ألقينا نظرة على ما تركه من مؤلفات قيمة والتي بلغت الثلاثين حسب بعض المؤرخين.

وما يقال عن سبتة يسرى على مدينة طنجة التي تعتبر امتداد لسلسلة المدن الساحلية التي كانت على اتصال وثيق بالمدن الأندلسية.

ومن بين هذه الحواضر العلمية التي اشتهرت في الشمال، نذكر "سلا" الحديثة التي أنشأها "بنو عشرة" في أوائل القرن الخامس الهجرى[4]. وقد كانت هذه الأسرة من أعرق الأسر العربية التي سكنت سلا حيث جمعت بين الغنى الفاحش والعلم الغزير. وعندما جاء المرابطون اسندوا اليهم خطة القضاء، فزادتهم هذه الزعامة الدينية تشريفا وغدا بيتهم بيت علم وفقه يرحل ابناؤه الى الأندلس للأخذ عن علمائها، كما يفد عليهم أهل العلم والأدب من كل قطر، فقد ذكر القاضي عياض في

(1) ابن تاويت: تاريخ سبتة: ص 76.
(2) هو أحد علماء غرناطة من تلاميذ القاضي عياض. ترجم له المقرى في ازهار الرياض: ج. 3. ص: 14.
(3) المقرى: ازهار الرياض: ج. 3. ص: 11.
(4) انظر ما قاله الادريسي عن وصف سلا: وصف افريقية. ص: 48.

الغنية وابن الأبار في المعجم ، أن الفقيه عبدالله بن أحمد بن خلوف الأزدى السبتي المعروف بابن شبونة نزل على بني عشرة بسلا فأكرموه وتوسعوا له ، ودرّس عندهم ، وكان أحد الحفاظ لمذهب مالك . كما أن المهدى بن تومرت أقام أياما عديدة عند بني عشرة في سلا ، حيث كان طلبتها يختلفون اليه للأخذ عنه [1].

وهكذا غدت سلا من أشهر الحواضر الثقافية في عهدى المرابطين والموحدين بفضل هذه الأسرة وفضل من أمها من الأدباء والشعراء الذين كانوا يقصدون أمراءها وقضاتها من بني عشرة لمدحهم ونيل رفدهم ، من أمثال : ابن سوار الأشبوني ، والأعمى التطيلي وابن بقي وابن حمديس الصقلي وغيرهم . فأصبحت ديار بني عشرة ملتقى أعلام الشعر والأدب والعلم ، يومئذ وغدت حضرتهم من أبرز الحواضر الثقافية في كل من المغرب والأندلس[2].

تلك هي أهم الحواضر المغربية التي لعبت دورا رئيسيا في تنمية الثقافة ونشرها ببقية أجزاء البلاد ، وقد نماها الموحدون عندما جاءوا وأضافوا اليها مدنا أخرى اكتسبت أهمية كبرى في عهدهم مثل رباط الفتح وغيرها من المدن التي برزت في ذلك العهد .

وقد تعرضنا لذكر بعض الحواضر الثقافية بشيء من التفصيل بالرغم أنها كانت سابقة للعهد الذى ندرسه ، وذلك مثل القيروان وبعض مدن الزاب ، الا أننا اعتبرناها الأساس الأصلي الذى شيدت عليه كل الثقافة المغربية فيما بعد ، اذ لولا الجهود الأولى لهذه الحواضر وما هيأته من أسباب نشر العلم لما استطاع الموحدون أن يصلوا الى ما وصلوا اليه من مستوى حضارى وعلمي .

---

(1) ابن شريفة : أسرة بني عشرة . ص : 8 .
(2) المرجع السابق . ص : 13 .

والذى حدا بنا للتركيز على ذكر هذه المدن باعتبارها الحواضر الثقافية ، لأننا نعتبر أن المدينة ، أولا ، هي بمثابة الخلية الحية التي تخلق الطاقة اللازمة لنمو المجتمع وتطوره ، وتعمل على توزيعها . ولأن المدينة أيضا ، كانت ولا تزال ، الملتقى الوحيد الذى تتجمع فيه التيارات الفكرية ، وعن طريقها يتم التبادل الثقافي ، ثم انها الجهاز الحقيقي الذى يعكس ، بأمانة ، المستوى الحضارى والعلمي للأمة التي تنتمي اليها .

لأجل هذا كله ، اعتبرنا هذه الحواضر الثقافية العامل الأساسي الأول الذى ساعد الموحدين على تحقيق نشر العلم الذى رفع شعاره زعيمهم الروحي المهدى بن تومرت .

والملاحظ ، من كل ما تقدم ، أنه برغم الفرقة السياسية التي كانت تسود أقطار المغرب قبل مجيء الموحدين فقد ظلت الوحدة الثقافية على أشدها ، كما ظلت كل من افريقية والأندلس على اتصال وثيق بالحواضر المغربية التي تعرضنا لبعضها آنفا . وظل العلماء والفقهاء والأدباء يجوبون هذه الأقطار متخطين كل الحواجز السياسية المصطنعة ، شعارهم : نشر العلم ، وهدفهم توحيد الأقطار المغربية الاسلامية ولو روحيا وثقافيا .

وقبل أن نتحدث عن الثقافة المغربية في العهد الموحدى ، نود أن نقول كلمة عن المراكز الثقافية التي انتشرت بواسطتها هذه العلوم والمعارف حتى عمت كل أنحاء القطر ، محاولين حصر أنواعها مبينين مناهج كل نوع والمواد التي كانت تدرس فيه .

جـ ـ المراكز الثقافية .

ـ المسجد :

يعتبر المسجد النواة الأولى للمؤسسات الثقافية التي نشأت فيما بعد في العالم الاسلامي . فلقد كان الفاتحون الأولون يولون اهتماما كبيرا ببناء المساجد في كل البلدان التي يفتحونها ، باعتبارها ، بيوت العبادة وأماكن التجمع للمشاورة . والذى دعا المسلمين الى التبكير بانشاء المسجد هو احساسهم بأن البيوتات الخاصة تضيق بهم ، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون . ومن هنا ـ فيما يبدو ـ أسسوا المسجد وأطلقوا عليه اسم " بيت الله " اشارة الى أنه لا يحتاج الداخل فيه الى استئناس ولا استئذان(1).

لذلك أصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مدينة يفتحها المسلمون حديثا أو كل قرية يؤسسونها .

" فلقد روي أن عمر لما فتح البلدان كتب الى أبي موسى الأشعرى ، وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد . فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة . وكتب الى سعد بن أبي وقاص ، وهو على الكوفة بمثل ذلك . وكتب الى عمرو ابن العاص ، وهو على مصر ، بمثل ذلك "(2).

وذلك ما فعله عقبة بن نافع عندما دخل افريقية اذ بنى مسجده الجامع بالقيروان سنة 51 هـ.(3) كما بنى مساجد أخرى بكل بلدان المغرب التي مرّ بها . وعندما تمّ له فتح المغرب الأقصى بنى

---

(1) أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية . ص: 85. ط. دار الكشاف للنشر والطباعة 1954 .

(2) المقريزى احمد بن علي : الخطط المقريزية : ج . 3 . ص : 187 ـ 188 ، دار العرفان بيروت بدون تاريخ .

(3) ابن عذارى : البيان المغرب : ج . 1 . ص : 20 .

به مساجد كثيرة منها مسجد " بلرجلي " ببلاد السوس ، ومسجد آخر " بدرعة " و ثالث بوادى " نفيس " [1] . وعندما دخل القائد موسى بن نصير بلاد المغرب ، أكثر من بناء المساجد ليستعين بها على بث الدعوة الاسلامية ، منها جامعي : تلسان و " اغمات ميلانة " [2] اللذين أصبحا يضاهيان جامع القيروان في نشر العلوم والمعارف .

وقد كان الخلفاء والأمراء الذين تعاقبوا على حكم دول شمال افريقية يتنافسون في الاكثار من بناء المساجد ، تقربا بها الى الله تعالى ، وتخليدا لذكرهم أيضا . فقد تجلت هذه الظاهرة ، كما رأينا من قبل ، لدى الرستميين ، حيث كانت عاصمتهم " تهرت " تزدحم بكثرة مساجدها التي أسسها ائمتها ، الى جانب مساجدها السنية والواصلية الأخرى .

كما ظهر هذا الاعتناء في افريقية على يد بني الأغلب حيث كان أئمتهم يتباهون بما يبنونه من مساجد . فقد عد زيادة الله بن الأغلب اعادته لبناء مسجد عقبة من أجل الأعمال التي قام بها في حياته ، وكان قد كلفه ذلك نفقات باهضة طوال سنوات كاملة . فكان يقول : " ماأبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صفحتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة " أم الربيع " ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي ابن أبي محرز قضاء افريقية " [3] .

واليه أيضا تنسب فكرة اعادة بناء مسجد تونس الذى كان قد أسسه عبدالله بن الحبحاب سنة 114 هـ . الا أن اتمام بنائه على صورته البديعة التي وصل بها الينا كان على يد ابراهيم بن أحمد سادس امراء البيت الأغلبي [4] .

---

(1) الكعاك : مراكز الثقافة . ص : 27 .
(2) المرجع السابق . ص : 43 .
(3) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس . ص : 95-96 ، دار مطابع المستقبل القاهرة 1980 .
(4) المرجع السابق . ص : 96 .

أما جامع سوسة الذي تفتخر به الدولة الأغلبية حيث يعتبر احدى ايات الفنّ المعماري الافريقي النادرة ، فقد أنشأه أبو العباس محمد بن الأغلب[1].

وقد قامت كل من دولتي المرابطين والموحدين على أساس الاصلاح الديني . فكان ذلك مدعاة لهما للاكثار من بناء المساجد .

فان ما أقامه يوسف بن تاشفين وحده في حياته من المساجد في بلدان المغرب يعدّ بالعشرات حتى قيل انه كان يخطب له على ستمائة منبر[2].

وكان ابن تومرت مغرما ببناء المساجد ، فقد بنى منها مجموعة كبيرة على طول الطريق الذي سلكه الى المغرب عند عودته من المشرق كما رأينا ذلك من قبل .

ولم تكن مهمة بناء المساجد مقصورة على السلطات الرسمية للبلاد وحدها ، فالتي كان يقيمها أفراد الشعب كانت تفوق بكثير تلك التي كانت تنشئها الحكومات . ويكفي أن نذكر على سبيل المثال مسجدي فاس اللذين أطبقت شهرتهما الآفاق ونعني بهما جامعي : القرويين والأندلسيين . ومن هذه المساجد التي بناها الأفراد أيضا مسجد الحبلي ، ومسجد أبي ميسرة ، ومسجد محمد بن خيرون الأندلسي بالقيروان[3].

وقد ذكر ابن الزبير في كتابه صلة الصلة فى ترجمة يوسف بن محمد بن عبدالله بن يحيى البلوى المالقي أنه بني في بلده خمسا وعشرين مسجدا من صميم ماله[4].

---

(1) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس . ص : 96.
(2) المرجع السابق .
(3) الكعاك : مراكز الثقافة . ص : 14.
(4) ابن الزبير : صلة الصلة ، رقم : 426.

هذا بالاضافة الى تلك المساجد التي كان يبنيها الطرقيون وأصحاب النحل ، وتلك التي كانت تبنى وتنسب لبعض العلماء أو الصوفيين والصالحين تبركا بهم .

فظاهرة انتشار المساجد الخاصة كانت عامة بكل أقطار المغرب ، وكان أصحابها يبنونها أساسا لتؤدي الوظيفتين معا ، أى لتكون للعبادة وإقامة الصلاة ، ولتلقى فيها الدروس أيضا ، وتعلم فيها الناشئة احتسابا لوجه الله تعالى .

والى هذه المساجد يرجع الفضل الأكبر في نشر الثقافة وتعميم العربية ، خاصة ، تلك المساجد التي كانت تبنى على رؤوس الجبال وفي القرى النائية .

هذا ويفهم من كتاب عمر بن الخطاب الذى أرسله الى أبي موسى الأشعرى عندما كان على البصرة أن المساجد كانت نوعين : المساجد العادية البسيطة التي كان يؤمها المسلمون لأداء صلواتهم اليومية ثم المساجد الجامعة التي كانت تقام فيها ، الى جانب الصلوات الخمس ، صلاة الجمعة .

والذى يعنينا من هذا التقسيم هو الدور التعليمي الذى كان يقوم به كل من هذين النوعين خارج أوقات الصلاة . فحسب ما يبدو كانت المساجد بمثابة المدارس المتوسطة أو الثانوية عندنا اليوم يؤمها التلاميذ الذين انهوا دراستهم الابتدائية في الكتاتيب التي سنتكلم عنها بعد قليل . أما الدراسات العليا فتقوم بها الجوامع الكبرى مثل جامع القيروان وجامع الجزائر ، وجامع القرويين وجامع سبتة وجامع مراكش وجوامع كبريات المدن المغربية الأخرى ، وكانت هذه الجوامع بمثابة الجامعات عندنا اليوم ، ولم يكن يدرس فيها الا فطاحل العلماء حسب ما ذكر العلامة المنوني في كتابه الذى خصصه للثقافة الموحدية حيث قال : " وكانت العادة ألا ينتصب للتدريس في

الجوامع الكبار الا من انتهت اليه المهارة في العلم والدين في وقته ، وكانوا يتنازعون أنفسهم في هذه المرتبة ، حسبما يؤخذ هذا من النشر المخطوط "[1].

ـ الكتاب :

هو مؤسسة تربوية ، اتخذت أساسا لتعليم الأحداث القراءة والكتابة ، وتلقين القرآن الكريم ، وهي من المراكز الثقافية القديمة حيث ظهرت مع انتهاء الفتوحات ، ونمت وتطورت مع نمو الاسلام وانتشاره .

أما قبل ذلك فقد كان التعليم يتم بالمساجد بالنسبة لكل المسلمين صبيانا ورجالا ونساء ، اذ كان يقتصر في تلك الفترة على تلقين المسلمين شيئا من القرآن وما يلزمهم من العبادات كالصلاة والصيام والزكاة وبعض الفرائض[2].

وعندما استقر الاسلام في أغلب البلدان المفتوحة واستتب فيها نوع من الأمن ، بدأ المسلمون يفكرون في تدبير شؤون معاشهم وتربية أبنائهم على النمط الذى رأوه لدى الأمم المتحضرة التي تم لهم الاستيلاء عليها . فنشأت فكرة تعليم الأحداث كمهنة مستقلة . وقد بدأ المرشدون المتطوعون الأوائل يمارسون مهنتهم التعليمية بالمساجد أول الأمر ، الا أن بعض الفقهاء ، انفوا من دخول الصبيان الذين لايتحفظون من النجاسة الى أماكن العبادة ، فظهرت الكتاتيب كبنايات مستقلة ملحقة بالمساجد لتعليم الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم[3].

---

(1) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين . ص : 25 تطوان المغرب 1369 ـ 1950 .

(2) الأهواني : التربية في الاسلام . ص : 75 ، القاهرة 1955 .

(3) " سئل مالك عن تعليم الصبيان في المساجد فقال لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة " . ـ وقال في موضع آخر " وان كان صغيرا لا يقر فيه ويعبث فلا أحب ذلك " الأهواني : التربية في الاسلام ص : 47 ، عن القابسي .

وقد أقبل المغاربة اقبالا كبيرا على التعليم رغم عدم توفر الكتاتيب والمعلمين في بعض المناطق النائية عن العمران. فقد وصف ابن سلام تعلم بعض أبناء المغرب، وهو عمر بن بمكتن، الذى أصبح فيما بعد معلما للقرآن في جبل نفوسة، فذكر ماكان يلاقيه من صعوبات قائلا : "كان يتلقى السابلة والمارة من المشرق، فيكتب عنهم لوحة من القرآن، وينصرف الى منزله، فاذا حفظ ما فيه رجع الى المحجة، فكتب عن المارة والرفاق كذلك، حتى حفظ القرآن وتعلم العلم". ثم قال : "وذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الاسلام، وقلة المعلمين في البلدان"[1].

فهذه القصة تبين بوضوح مدى تعلق أبناء المغرب بالتعلم واقبالهم على الدين الجديد رغم ماكانوا يلاقونه في سبيل ذلك من صعوبات. وقد كان عمر بن بمكتن هذا يعيش في أوائل الدولة العباسية في حدود سنة 140 هـ.[2]

ولم يبق الكتاب ملصقا دائما بالمسجد، بل كثيرا ما كا يبنى مستقلا خاصة عندما كثر اقبال الأمة على التعليم، وأصبحت الكتاتيب الملحقة بالمساجد لا تتسع لكل أبناء الشعب. فاضطر السكان الى بنائها على نفقاتهم الخاصة، كما أخذ بعض المعلمين المحترفين يقيمونها من تلقاء أنفسهم[3]، حتى كثرت وعمت كل الأحياء والحارات. كما وجدت الى جانبها بعض الكتاتيب الخاصة كانت تقام في دور الأعيان والأغنياء وفي قصور الأمراء والوزراء[4].

---

(1) الشماخي احمد بن سعيد بن عبدالواحد : كتاب السير. ص : 142 قسنطينة بدون تاريخ.
(2) ح.ح. عبدالوهاب : ورقات : ق – 1 – ص : 81.
(3) الأهواني : التربية في الاسلام : ص : 52.
(4) ح.ح. عبدالوهاب. ورقات : ق – 1 – ص : 94 – 95.

والكتاب العادى هو عبارة عن غرفة متوسطة متواضعة البنيان والأثاث تتسع لعدد محدود من الصبيان يشرف عليهم عريف أو معلم يحلقون حوله، يلقنهم القرآن فردا، فردا، أو بطريقة جماعية الى أن يحفظوه أو يستظهروا جزءا منه ويعلمهم الكتابة، وبعض مبادىء اللغة . ويتقاضى هو أجرا شهريا أو سنويا مقابل ذلك[1].

أما الفترة التي يمضيها الصبي في الكتاب فهي تتراوح مابين خمس وسبع سنوات حسبما يفهم من كتاب القابسي أى من سن السابعة الى الثانية عشر[2].

وعندما يتم الطفل مرحلة التعلم في الكتاب يجرى له شبه اختبار في المعلومات التي تلقاها به ، خاصة فيما حفظه من القرآن . وهو غالبا ما يتمه فيستظهره من أوله الى آخره على معلمه أو أحد فقهاء القرية فتقام له حينئذ حفلة بمناسبة " الختمة ".

ويبدو أن الكتاب قد تطور في بعض المناطق من العالم الاسلامي مع مرّ الزمن فتفرع الى نوعين : يعني الأول بتعليم الصبيان الخط والكتابة ، بينما يختص الثاني بتلقينهم القرآن الكريم . مما يدل على ذلك ما ذكره بعض الأقدمين ممن كانوا يعنون بتربية الأطفال . قال أبو بكر بن العربي (ت . 542 هـ) منوها بهذه الطريقة ما يلي : " وللقوم في التعليم سيرة بديعة ، وهي أن الصغير منهم اذا عقل بعثوا به الى المكتب ، فيتعلم الخط والحساب والعربية ، فاذا جاء حذقه كله أو حذق منه ما قدر له ، خرج الى المقرىء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب ، أو نصفه ، أو حزبا "[3].

---

(1) الأهواني : التربية في الاسلام . ص : 53 .
(2) المرجع السابق .
(3) ابن العربي أبو بكر : أحكام القرآن : القسم الرابع : ص : 1883 ط . البجاوي .

ويستدل أيضا على انفصال الكتّابين بما شاهده الرحالة ابن جبير حيث قال : " وتعليم الصبيان بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجلّ عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو ، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة ، والمكتب على حدة ، فينفصل عن التلقين الى التكتيب ، لهم في ذلك سيرة حسنة ، ولذلك يأتي لهم حسن الخط ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يتفرغ جهده في التعليم ، والصبيّ كذلك "[1].

وقد أكد ابن بطوط هذا الخبر بقوله : " ان معلم الخط غير معلم القرآن "[2] . وقال ابن خلدون : "ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون ومعلمون له على انفراد ، كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان ".[3]

وقد كان هذا التمييز بين الكتابين ، مقصورا على المشرق والأندلس. أما أهل المغرب ، فلم يعرفوا الا كتابا واحدا ، لتلقين القرآن وتعليم الخط معا . ولا يبعد أن تكون افريقية قد تأثرت في كتاتيبها بنظام أهل المشرق . خاصة وأن كثيرا ممن قاموا بتأديب الصبيان بها ، كانوا قد زاولوا هذه المهنة بالمشرق قبل نزوحهم الى المغرب . كما تأثرت بلدان المغرب هي الأخرى ، في الآونة الأخيرة ، بالنظام الأندلسي ، ولكن لبعض الوقت فقط . فقد ذكر الكماك أن افريقية قد عرفت ، في المدة الأخيرة ، نوعين من الكتاب : الكتاب الافريقي ، وكان يسمى البلدى . والكتاب الأندلسي ، الذي عمّ بلدان المغرب من طنجة الى برقة . ولكن كان

(1) ابن جبير محمد بن أحمد : رحلة ابن جبير ، ص : 245 . ط : دار صادر بيروت 1959 .
(2) ابن بطوط محمد بن ابراهيم اللواتي : الرحلة ، ص : 94 .
(3) ابن خلدون المقدمة : ص . 1040 .

ذلك بعد حركة التهجير التي وقعت سنة 1017 — 1618.[1]

— لمسيد :

والى جانب الكتاب الذى كثر انتشاره بالمدن ، حيث ، تبنى المساجد ، والجوامع ، نجد نوعا آخر من المراكز الثقافية ، يقوم بنفس مهمة الكتاب ، غير أنه ينتشر خاصة في الأرياف ، والقرى النائية عن العمران ، وفي رؤوس الجبال . وهو ما يسمى بـ " لمسيد " .

وقد نشأ هذا النوع من المؤسسات التعليمية متأخرا نوعا ما عن الكتاب بفعل اتساع رقعة الاسلام ، وانتشار الدين حيث بلغ أقصى المناطق في بلاد المغرب والأندلس .

وعندما جاء الموحدون عملوا على نشر هذه المؤسسة بشكل أوسع حتى عمت المدن الكبرى . وقد أصبحت كلمة " لمسيد " تطلق على كل المدارس الابتدائية الرسمية .

وكلمة " لمسيد " في حد ذاتها ، تحريف بربري عن كلمة المسجد . وقد نشأت هذه المؤسسة أول ما نشأت في الأندلس وشمال المغرب الأقصى (الريف) . وبعدها انتقلت الى الجزائر ، ومدينة تلمسان على الأخص كما دخلت افريقية — تونس — في العهد الموحدي[2].

ولم يكن لمسيد ملحقا ، بالمسجد كما كان الكتاب في أول عهده . بل كان يتخذ له بناء خاص به ، وكثيرا ما كان يقوم بوظيفة المسجد أيضا فتقام فيه الصلوات الخمس .

---

(1) الكماك : مراكز الثقافة . ص : 94 . — أنظر وصف الكتاب عند كل من : الرعاع في الفهرست ، والقرى في ازهار الرياض ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن سحنون آداب المعلمين ، والقابسي في رسالته التعليمية .

(2) الكماك : مراكز الثقافة بالمغرب . ص: 66 . معهد الدراسات العربية 1958 .

فعندما جاء القرن الخامس صار مؤسسة تعليمية محضة تقام في كل الحارات والأحياء ، واليهما يرجع الفضل الأكبر — في نظرنا — في تعميم اللغة وبنشر الثقافة الاسلامية ونقلها الى المناطق الداخلية للبلاد ، باعتبارها المؤسسة الثقافية الأكثر انتشارا في البوادي والحواضر على السوى . والذى دعا الى نموها بهذه الصورة هو رغبة السكان الملحة في تعلم العربية لغة القرآن والدين الاسلامي ولغة الثقافة أيضا . فقد كان يحدوهم لتعلم هذه اللغة مزيج من حب الاطلاع وشعور خفي بالنقص أمام العرب الفاتحين فأرادوا أن يثبتوا لهم ، ولأنفسهم، أنهم قادرون على استعاب ثقافتهم بل وفي امكانهم أن ينافسوهم في التأليف فيها . كما سيظهر ذلك في المستقبل .

فقد تضافرت ، اذن ، عدة عوامل على انتشار هذه المؤسسات الثقافية : رغبة الدعاة في نشر الاسلام عن طريق تفقيه الناس وتعليمهم ، ورغبة بعض الولاة والأمراء في نشر اللغة العربية والتمكين لها في البلدان المفتوحة ، ورغبة السكان خاصة في رفع مستواهم الثقافي ليقفوا وقفة الند للند مع العرب في الحقوق والواجبات .

ورغم أن المسيد قد جعل أساسا لتلقين القرآن الكريم للأحداث وتعليمهم الخط والكتابة الا أنه كانت تعطى لهم فيه الى جانب ذلك بعض المبادئ في مواد اللغة العربية ، كما كانت تلقن لهم بعض الأشعار لتنمية ثروتهم اللغوية وتدريبهم على النطق السليم .

وهناك تسمية أخرى تطلق على هذا النوع من المدارس الابتدائية وهو " الشريعة " والمراد بها محل الشريعة ، فحذف المضاف لكثرة الاستعمال وهذا النوع من المدارس يكثر خاصة عند العرب الرحل .(1)

(1) الكعاك : مراكز الثقافة بالمغرب: ص 66 . معهد الدراسات العربية 1958 .

وقد زاد اقبال الناس على تعلم أبنائهم بانتشار هذه المؤسسات التعليمية ، فتكونت لها طبقتها الخاصة من المعلمين ، كما أخذ كل حيّ يستقل بكتابه ، ويختار مؤدبيه . وأخذت العناية بالتعلم تتضاعف شيئا فشيئا ، فوضعت له مصنفات خاصة، تحدد طرقه ومناهجه ، ومواده الرئيسية ، وتضع مقاييس للذين يقومون بهذه المهنة تبين حقوقهم وواجباتهم . أشهرها ببلاد المغرب : " الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين " لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي ، و "آداب المعلمين " لابن سحنون .

ـ الرباط :

الرباط معناه لغة ، ملازمة الثغور التي يراقب منها العدو ، لقوله عز وجلّ : " وصابروا ، ورابطوا " . وهو أيضا المحافظة، والمواظبة على مواقيت الصلاة[1].

وقد توسع استعمال الكلمة فأصبحت تطلق على المحل الذى يحتشد فيه المتطوعون للجهاد . فأصبحت تسمى الأبنية التي تقام لها في الثغور لتجهيز الجيش ، رباطات .

وقد كانت مهمة هذه الرباطات ، أول الأمر ، عسكرية محضة ، ولكنها ما لبثت أن تطورت ، فأصبحت تقوم بمهمة مزدوجة : عسكرية في وقت الحرب ، وثقافية في وقت السلم .

---

(1) ابن منظور : لسان العرب : مادة " ربط " ج .30 . ص:302.

وأول رباط مغربي حدثنا عنه المؤرخون هو رباط " قصر طرابلس " الذى أسسه الوالي هرثمة بن أعين ، ثم رباط المستير الذى بناه سنة 179 (1).

وقد تتابع بناء الرباطات ، منذ ذلك الحين ، على طول الساحل الشمالي لبلاد المغرب حتى بلغت سبتة ، وامتدت سلسلة أخرى من الرباطات بين طرابلس، وبلاد غانة عن طريق الصحراء وهي طريق القوافل التجارية التي كانت تربط بلاد برقة بسجلماسة الى "اوداغشت" ، "فغانة" ، والذى دعا المسلمين لبناء هذه الرباطات أول الأمر هو رغبتهم في نشر الاسلام في هذه المناطق النائية التي لم يصلها الفاتحون الأولون وكان كل رباط يقام في هذه المناطق المعزولة بمشكل شبه نواة لمدينة في المستقبل . تتجمع حوله القبائل شيئا فشيئا فلا يلبث أن يتحول الرباط الى دشرة ثم تنمو مع الأيام حتى تصبح بلدة بمعنى الكلمة . وهذا ما يفسر لنا وجود سلسلة من العواصم الصحراوية التي ظهرت فيما بعد والتي تخصصت في الثقافة الاسلامية مثل : اغدامس، وجنات ، و غات وتمبوكتو ، وقاو ، وشنقيط (2).

وعندما جاء المرابطون عظم شأن الرباط أكثر لما كانت ترتكز عليه سياسة هذه الدولة من الاصلاح الديني في الداخل والجهاد في سبيل الله في الخارج . فمدوا سلسلة أخرى من الرباطات ما بين السنغال وسبتة ، وقد ازدهرت حركة الرباطات في المناطق الصحراوية أكثر، فامتدت عبر الجنوب الليبي حتى وصلت ضفاف البحر الأحمر (3).

---

(1) الموسوعة الاسلامية : مادة : رباط .
ـ انظر كذلك الكعاك : مراكز الثقافة . ص : 16 ـ ذكر أن تأسيس الرباطين كان سنة 181 .
-G.Marçais : Notes sur les Ribates en Berberies. Paris,1925. P- 5.
يرى أن رباط المستير قد بني سنة 180 هـ .
(2) الكعاك : ع . المراكز الثقافية . ص: 119.
(3) المرجع السابق .

ولم يكن الرباط الاسلامي هو الأول من نوعه الذى عرفته شمال افريقية ، فقد شهدت قبله ما يسمى "بالمستير" ، الذى كان يتخذه القساوسة والرهبان المسيحيون معبدا لهم ينقطعون فيه للتأمل ، ومن مخلفات هذا النوع من الأديرة مدينة المستير التي بنى فيها هرثمة ثاني رباط اسلامي .

ويبدو أن المستير اللاتيني قد تطور بدوره من اللماس الروماني القديم[1] الذى كان عبارة عن ثكنة عسكرية تقام على حدود الدولة يرابط فيها الجنود لحماية الثغور .

وهناك نوع آخر من الثكنات عرفته افريقية البربرية وهو ما يسمى "بالرابطة" كان السكان يتخذونه لحفظ أقوات القبيلة ، وخزن الأسلحة ، وما يحتاجون اليه من ذخائر ومؤن[2] .

فلا يبعد أن يكون الرباط الاسلامي هو تطور عن هذه الثكنات البدائية التي سبقته ، أو أن يكون استفاد — على الأقل — من تجاربها ، فاقتبس أحسن ما في كل نوع من هذه الأنواع[3] . وامتاز عليها بأن أصبح أهم مركز للثقافة الاسلامية .

وقد كانت مهمة انشاء الرباطات تقوم أول الأمر على كاهل الدولة وحدها ، ولكن ما أن أشرف القرن الثاني على الانتهاء ، وبدأت فكرة التعليم الرباطي تنضج وتتحدد معالمها ، حتى رأينا كثيرا من المصلحين ينافسون الدولة في اقامة هذا النوع من المراكز الثقافية مساهمة منهم في نشر تعاليم الاسلام في المناطق التي لم يرتكز بها بعد ، ورغبة منهم في ايصال اللغة العربية الى أبناء المناطق النائية ، ليساعدوهم على تفهم كتاب الله وسنة رسوله .

---

(1) انظر تعريف اللماس في :
G. Larousse Encyclopédique Vol. 6. (Limes).

(2) الكعاك . ع . المراكز الثقافية . ص : 37 .

(3) اشار الى هذا التشابه الذى يوجد بين الرباط وغيره من الثكنات العسكرية G. Marçais. في كتابه Note sur les Ribates en Barberie P.9 et suite

وقد بدأت الرباطات منذ ذلك الحين تتخذ صبغة المدرسة الدينية الاصلاحية .

وكانت طريقة التعلم في هذه المؤسسات في أول أمرها بسيطة ببساطة الاسلام في عهوده الأولى . حيث كانت تقوم على تلقين القرآن الكريم أو تفسير ما يحتاج الى تفسيره ، ظاهريا ، وتعليم العقيدة على الطريقة السلفية ، الخالية من كل تعقيد فلسفي ، مع تعليم اللغة العربية ، وما يستلزمه ذلك من نحو وعروض وبلاغة وما الى ذلك ، مما كان يتلاءم مع عقول سكان تلك المناطق الصحراوية من بربر وزنوج حديثي عهد بالاسلام .

وقد تطورت خدمات الرباطات ، وتعددت مزاياها مع مرور الزمن ، فلم تعد تقتصر مهمتها على التعليم الساذج البسيط ، بل أصبحت تعد من أهمّ مراكز الاشعاع وبث الثقافة العربية الاسلامية في بلدان المغرب وهذا لما كان يقوم به طلابها من نشاطات فائقة في سبيل نشر العلم . من ذلك مثلا صنعهم للورق اللازم للكتابة ، واستنساخ الكتب وتجليدها ، وتوزيعها على الرباطات والمراكز الثقافية الأخرى . أي أنهم كانوا يقومون بكل ما تقوم به دور الطباعة والنشر الحديثة . وفي ذلك ما فيه من ترويج للعلوم وبث للمعارف .

وقد كان الرباط يستضيف كل العلماء والفقهاء الذين كانوا يمرون به في تجاراتهم أوفي طريقهم الى الديار المقدسة فيمكثون به الأشهر الطويلة يدرسون فيها للطلاب مؤلفاتهم وما يتقنونه من العلوم والمعارف الأخرى .

وقد بلغ الرباط أوج ازدهاره في القرن الخامس الهجري خاصة عندما اتخذه المرابطون وسيلة لتطبيق اصلاحهم الديني الذي وضعه زعيمهم الروحي عبدالله بن ياسين الجزولي ، وعن طريقه استطاعوا أن يوحدوا

أغلب المناطق الصحراوية وجزءا كبيرا من شمال المغرب، وهذا حتى قبل أن تؤسس دولتهم رسميا على يد يوسف بن تاشفين.

فكان من الطبيعي أن تعكس هذه الرباطات سياستهم الاصلاحية ويطبعوها بطابعهم الخاص الذى اتسم بنوع من التحجر والجمود.

وقد تعرض الرباط في أيامه الأخيرة لموجة التصوف التي عمت البلدان الإسلامية آنذاك ، فبدأ ينحرف شيئا فشيئا نحو هذا الاتجاه حتى أدخل ضمن برامجه التعليمية ما كان يسمى بالعبادة والعمل، وهي مجموعة من الأناشيد والرقائف الزهدية ينشدها المرابطون لخلق نوع من الانجذاب الصوفي . وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت على تفككه واستقلال الجانب التعليمي منه فيما أصبح يسمى بالزاوية .

— الزاوية :

ومن المراكز الثقافية التي عرفتها بلدان المغرب " الزاوية". وقد تولدت عن الرباط في أوائل القرن الخامس الهجرى . وسرعان ما انتشرت في جميع أنحاء المغرب لاقبال الناس عليها .

فأقدم زاوية في شمال افريقية حدثنا عنها المؤرخون هي زاوية " المحرزية " المنسوبة الى محرز بن خلف المتوفي سنة 413 هـ . وهو ابن خالة عبدالله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي(1).

وعندما جاء الموحدون شجعوا قيام هذا النوع من المراكز الثقافية لجانبها الفلسفي الذى يتماشى مع روح ما يدعون اليه من تحرير للفكر، ونبذ للجمود الذى درج عليه الرباط في العهد المرابطي ، وقد فتر لذلك نشاط الرباطات — لبعض الوقت — كما فقدت شيئا من اختصاصاتها .

---

(1) الكعاك : مراكز الثقافة . ص : 101.

ومما ساعد على انتشار هذه الزوايا في أواخر الدولة الموحدية موجة التصوف الطرقي التي عمت بلدان المغرب آنذاك حيث أصبح كل شيخ طريقة يستقل بزاويته مع اتباعه ومريديه . فالزاوية ، على هذا ، تكون أحدث المراكز الثقافية التي ذكرناها حتى الآن . وتعدّ الدراسة فيها مرحلة وسطى بين الكتاب والمسجد أو المدرسة ، او الرباط . وهي تنقسم الى أنواع متعددة :

– منها الزاوية البسيطة ، وهي التي لا تنتسب لأحد من الأولياء ولا الى شيخ طريقة صوفية . وانما هي مجموعة من مباني لطلاب العلم تضم محلات للدراسة ، وغرفا لسكناهم ، ومايستلزم ذلك من المرافق الضرورية .

– ومنها الزاوية الطرقية ، وهي الأكثر انتشارا . كالشاذلية ، والتيجانية ، والعيساوية ، والسلامية وغيرها .

ولكل زاوية طرقية فروع متعددة منتشرة في مختلف المدن ، يربطها بالزاوية الأم برنامج تعليمي موحد ، الى جانب مبادىء الطريقة .

– ومنها زوايا الأولياء ، وهي التي تنشأ حول ضريح ولي مشهور ، أو أحد العلماء الصالحين .

غير أن هذه الزوايا كلها ، على اختلاف أنواعها متفقة في اعطاء الأهمية الأولى للتعليم المتنوع . وهي لا تكاد تفرق كثيرا في طرقها وبرامجها ، عما كان عليه الرباط ، لأنها في الواقع قامت هي الأخرى على مبدأ الاصلاح الديني ، لذلك كانت تقف دائما بالمرصاد لطائفة الحكام . وكان هؤلاء يعلمون جيدا ما لشيخ الطريقة من نفوذ على أتباعه ومريديه ، لذلك كانوا كثيرا ما يلجؤن اليهم لتهدئة الأوضاع اذا ما حزب بهم الأمر ، محاولين استمالتهم بشتى الوسائل الا أنهم قليل ما كانوا يفلحون . وهذا الذى اضطر الحكام لا نشاء

معاهد خاصة ، أقاموها تحت مراقبتهم لتخريج اطارات الموظفين التي كانوا يحتاجون اليها ، فأسسوا المدارس الحكومية التي أصبحت أخطر منافس للزاوية لما بين المؤسستين من اختلاف في المبادىء والأهداف .

ومما شجع اقبال النشىء على هذه الزوايا ما كانوا يجدونه فيها من وسائل التعليم ، اضافة الى المأكل والملبس والمأوى بفضل الأموال الطائلة التي كانت تحبس عليها .

وقد تحول أغلب هذه الزوايا القديمة مع الزمن الى مدن عامرة ، دون أن تفقد صبغتها البشرية أو تكف عن أداء رسالتها التعليمية .

— المدرسة :

وكانت المدرسة من جملة المراكز الثقافية التي ازدهرت في عهد الموحدين ، ويبدو أن أول من أنشأ هذه المؤسسة هو عبد المؤمن ابن علي ، حسبما يفهم من كلام صاحب الحلل الموشية[1] الذى أعطانا صورة عن المدرسة التي أنشأها بمراكش لصغار الطلبة ، وكانت تضم نحو ثلاثة آلاف طالب كلهم في سن واحدة . ويبدو من البرنامج الذى كانت تتبعه ، أنها كانت مدرسة نصف عسكرية يدرب فيها الطلاب على ركوب الخيل ، وعلى الرمي بالقوس ، كما يمرنون على السباحة ، والتجذيف ، هذا الى جانب المواد العلمية التى تعطى لهم ، وفي مقدمتها موطأ المهدى بن تمرت وعقيدته[2] ، وعدة كتب في ادارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة[3] . فهذا النوع من

(1) الحلل الموشية . ص : 150 — 151 .
(2) المنوني : العلوم والآداب والفنون . ص : 23 .
(3) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس : ج . 2 . ص :

المدارس كان لتخريج الموظفين ، وتكوين الاطارات السامية للدولة تكوينا ايديولوجيا واداريا وعسكريا في نفس الوقت .

وهناك نوع آخر من المدارس ، لكنه كان مقصورا على طبقة خاصة ، ونعني بذلك المدارس الملكية التي انشئت أساسا لتعليم الأمراء، وأبناء الطبقة الحاكمة ، وكانت هذه المدارس يختار لها ألمع الأساتذة، وأشهر العلماء أغلبهم من الأندلس ، نذكر من بينهم أبا العباس أحمد ابن عبدالجليل التدميري المتوفي سنة 555 هـ . وأبا العباس أحمد ابن حسن ابن سيد الجراوي المالقي المتوفي سنة 560 هـ . وأبا محمد عبدالله بن سليمان بن حوط الله البلنسي المتوفي سنة 612 وغيرهم كثيرون ، وكانت مهمة هذه المدرسة تنحصر في اعداد الأمراء لتسلم مناصب الحكم وتخريج الوزراء من بين أبناء الطبقة الحاكمة[1] .

الى جانب هذه المدارس الخاصة توجد مدارس أخرى عامة يغشاها أبناء الطبقة البرجوازية ان صحّ التعبير المعروفون بطلبة الحضر ، وهؤلاء يتعلمون من أجل العلم ولا يطمحون الا الى بعض الوظائف الشرعية التي هي دون الوظائف الادارية السامية .

وقد ذكر المؤرخون مدرسة أخرى يبدو أنها الأولى من نوعها في بلدان المغرب وهي المدرسة التي أسسها الموحدون في رباط الفتح لتعليم فنّ الملاحة .

هذا وقد أسس يعقوب المنصور مدارس أخرى في كل من المغرب والأندلس ، وافريقية . نذكر منها المدرسة التي أحدثها بالمدينة التي اختطها خارج مراكش ، ومدرسة أخرى بمدينة سلا[2] ، هذا اضافة الى بيت الطلبة المشهور الذى أنشأه بمراكش وهو شبه معهد متخصص ، أو مدرسة عليا .

---

(1) المنوني : العلوم والفنون والآداب : ص : 24 .
(2) الكماك : المراكز الثقافية : ص : 55 ـ 56 .

ولم يكن بناء المدارس مقصورا على الحكومة وحدها ، بل هناك مدارس أقامها بعض الخواص ، منها مدرسة ابتناها أبو الحسن الشاري الغافقي بمدينة سبتة ونسبت اليه (1).

وكان هذا النوع من المراكز الثقافية من أرقى المؤسسات التعليمية لما كانت تحظى به من عناية من طرف الدولة ، ولما كان يتلقى فيها الطلاب من برامج متطورة الى جانب أسباب الراحة المادية والمعنوية التي كانوا يجدونها بها .

— المكتبات ودور الوراقة :

لم يعرف المغرب الاسلامي المكتبات العمومية المنظمة الا في العهود التي انتشرت فيها الثقافة انتشاراواسعا .

فمن المنطقي أن تتأخر نشأة المكتبات عن بقية المراكز الثقافية الأخرى ، لأنها ، في واقع الأمر ، حصيلة المجهودات الثقافية للأمة التي تنتمي اليها ، وهي لاتعمر الا بانتشار حركة التأليف . ولكي تصل امة ما ، الى هذه المرحلة كان لزاما عليها أن تقطع أشواطا شاسعة من عمرها .

حقا ، لقد عرفت بلدان المغرب بعض المكتبات العمومية في العهود الأولى ، الا أنها كانت محدودة جدا ، زيادة على كونها لم تعمر الا قليلا .

فمن أوائل هذه المكتبات التي اشتهرت بافريقية مكتبة " بيت الحكمة " التي أنشأها الأغالبة " برقادة " وقد جمعوا بها أمهات

---

(1) الكعاك : ع. المراكز الثقافية . ص: 57.

الكتب ، ونوادر المصنفات في كل العلوم ، جلبوها اليها من مصر ، والعراق ، والشام . وجعلوا على رأسها رجلا من جلة علماء عصره وهو أبو اليسر ابراهيم الشيباني[1] . الا أن هذه المكتبة اختفت بنفس السرعة التي ظهرت بها . اذ ما كاد الفاطميون ينقلون عاصمة ملكهم الى مصر ، حتى بدءوا بها فنقلوها عن آخر مجلد .

وقد عرف المغرب الأوسط نوعا من هذه المكتبات العمومية في مكتبة " المعصومة " التي أسسها الرستميون بتاهرت . وقد كانت تحتوى على كتب قيمة في شتى أنواع المعارف قيل أنها بلغت ثلاثمائة الف مجلد[2] . غير أنه لم يقدر لها أن تعيش طويلا ، هي الأخرى ، حيث أحرقت عن آخرها اثر سقوط الدولة على يد العبيديين .

وهناك مكتبة ثالثة عرفتها بلدان المغرب في هذه الآونة ، وهي مكتبة القرويين التي نشأت مع الجامع متواضعة أول أمرها ، ثم أخذت في النمو والازدهار مع الأيام حتى بلغت قمتها أيام الموحدين والمرابطين .

ولا شك أن العهد المرابطي قد عرف هو الآخر نوعا من هذه المكتبات العمومية ، وان لم تفصح لنا عنها المصادر التي بين أيدينا .

أما الموحدون فقد كانت لهم عناية خاصة باقتناء الكتب وتشجيع التأليف ، وترويج العلوم ونشرها بكل الوسائل الممكنة .

---

(1) ح . ح . عبدالوهاب : ورقات : ج . 1 . ص : 193 .
ـ انظر عن هذا الموضوع مقالا لحسن ح . عبدالوهاب : تحت عنوان : الثقافة في تونس : مجلة المجمع العلمي العربي : ج . 4 . ص : 586 ، دمشق سنة 1953 .
انظر كذلك : الكعاك : المراكز الثقافية . ص : 22 .

(2) دبوز محمدعلي : تاريخ المغرب الكبير : ج . 3 . ص : 387 ، القاهرة 1963
انظر كذلك : بحاز ابراهيم : الدولة الرستمية ص : 288 وما بعدها الجزائر 1985 .

فقد أثر عن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن أنه عندما أراد أن يتعلم الفلسفة "أمر بجميع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي"(1).

واذا علمنا أن عدد المجلدات التي كانت تحتوي عليه مكتبة المستنصر بلغ أربعمائة ألف مجلد(2)، قدرنا ضخامة المكتبة التي جمعها أبو يعقوب يوسف لدراسة علوم الحكمة .

وكانت هذه المكتبة العامة من أنفس ما جمع في بلدان المغرب في ذلك العهد . وكان الموحدون يضنون بها ، ولا يولون عليها الا من وثقوا بعلمه ونزاهته وكفاءته ، حسبما يستفاد من كلام ابن الخطيب عند ذكره لأحد المشرفين الذين ولوه عليها ، وهو العالم الأندلسي أحمد بن عبدالرحمن بن محمد حيث قال : ولاه عليها ، أبو يعقوب يوسف . "وكانت عندهم من الخطط التي لايعين لها الا كبار أهل العلم وعليتهم"(3).

ولا شك أن هذه المكتبة العمومية لم تكن هي الوحيدة من نوعها في العهد الموحدي ، بل هناك مكتبات كثيرة موزعة على الحواضر الثقافية الأخرى مثل أغمات ، وسبتة ، وتلمسان ، وبجاية ، والمهدية وغيرها من العواصم العلمية ، اذ لايعقل أن تنافس هذه الحواضر مراكش في كل مظاهر نشر العلم وتزهد في انشاء مثل هذه المؤسسة على فوائدها التي لا تحصر .

هذا بالنسبة للمكتبات العامة ، التي كانت في واقع الأمر بمثابة مراكز للبحث العلمي ، ومعاهد للتخصص .

أما اذا جئنا لنستقصي المكتبات العادية فلن نستطيع حصرها لكثرتها . فقد ألف الناس منذ القدم أن يتخذوا ركنا خاصا بالمسجد

(1) المراكشي : المعجب : 310.
(2) المقري : نفح الطيب : ج.1. ص: 395.
(3) ابن الخطيب : الاحاطة : ج.1. ص: 190 ، انظر ترجمته ص: 189 — 193.

يحفظون فيه الكتب التي كان أهل البر يحبسونها على طلبة العلم ، كما كانت الرباطات تحتوي على غرف خاصة لذلك ، وقد رأينا كيف كان المرابطون بها يقومون باستنساخ الكتب وحفظها وتجليدها ، وكان العلماء الذين يزورونها غالبا ما يحبسون نسخة أو نسختين مما ألفوه [1]، فتجمعت لذلك لدى كل الرباطات كميات ضخمة من الكتب الثمينة وذلك ما يفسر غنى الزوايا — وريثة الرباطات بالمخطوطات القديمة — ولا ننسى أن الرباطات كانت تعد بالمئات اذا ما اعتبرنا المسافة التي كانت تمتد بين الاسكندرية وسبتة وحدها التي كانت تبلغ 6000 كلم ، نجد هناك الف رباط على الأقل اذ كانت المسافة التي تفصل بين رباط وآخر تقدر بست كيلومترات أي ألف مكتبة في هذا الخط وحده ، بغض النظر عن الرباطات التي تمتد بين غانا وطنجة .

والى جانب هذه المكتبات العامة ، نجد مكتبات خاصة يملكها العلماء وأصحاب الجاه ، كانت تعد بمثابة أندية يجتمع فيها العلماء للتدارس والمناظرة .

وهناك ما يسمى بحوانيت الوراقين التي انتشرت منذ عهد مبكر في كل البلاد الاسلامية ، ولم تكن تتخذ للتجارة وحدها كما يتبادر للذهن ، بل كانت عبارة عن أندية تعقد فيها المناظرات والمسامرات بين العلماء[2] ، فأغلب أصحاب هذه الدكاكين مثقفون علماء حدت بهم هواياتهم لاحتراف هذه المهنة ، والتاريخ يحدثنا عن كثير من البلغاء كانوا وراقين ، نذكر من بينهم على سبيل المثال : ابن النديم صاحب الفهرست[3]، وعلي بن عيسى

---

(1) الكمالك :ع. المراكز الثقافية ، ص : 117 .
(2) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص : 42 .
(3) ياقوت : معجم الادباء : ج . 6 . ص : 408 .

المعروف بابن كوجك ، فقد ذكر عنه ياقوت أنه كان وراقا ، وكان أديبا فاضلا ، وقد ألف عدة كتب[1] ، وياقوت الحموى مؤلف معجمي الأدباء والبلدان نفسه كان وراقا[2] وغيرهم كثيرون .

د _ مناهج التعليم ببلدان المغرب :

كان التعليم في القديم يرتكز على تحفيظ القرآن الكريم للأحداث لأنه كان يعتبر أصل جميع المعارف الأخرى ، لذلك كانت كل المؤسسات الثقافية على اختلاف أنواعها تجعله المحور الرئيسي الذى تدور عليه بقية أنواع العلوم .

غير أن الشعوب الاسلامية كانت تذهب في تعليمه ثلاثة مذاهب ، اشتهرت بالمغرب والأندلس . وفصلها لنا ابن خلدون في مقدمته بقوله :

" أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه . لايخلطون ذلك بسواه في شيء من مسائل تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب ، الى أن يحذق فيه ، أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه في الغالب ، انقطاعا عن العلم بالجملة .

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب ، في ولدانهم الى أن يجاوز وا حدّ البلوغ الى الشبيبة ، وكذا في الكبر اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم "[3] .

---

(1) ياقوت : معجم الأدباء : ج . 5 . ص : 179 .
(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج . 2 . ص : 311 _ 312 .
(3) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1038 .

أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو . وهذا هو الذى يراعونه في التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك . وأسّه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشيء بالعربية والشعر ، والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة ...."(1)

وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم ، وتلقين بعض سائلها . الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان أياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ...."(2)

فهذا يعني ، باختصار ، أن أهل المغرب لم يكونوا يسمحون لولدانهم بتعلم أى شيء كان ، قبل حفظهم للقرآن الكريم ، كما أنهم لم يكونوا يخلطون في تعليمهم لكتاب الله شيئا من العلوم الأخرى اطلاقا ، ما عدا ما يتعلق " بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه ".

أما الأندلسيون ، فبالرغم من اعطائهم الأولوية لتلقين القرآن على جميع العلوم الأخرى ، الا أنهم لم يكونوا يقتصرون في تعليمهم عليه وحده ، بل كانوا يعلمون معه كل ما يرونه ضروريا لفهمه ،

---

(1) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1038.

(2) المرجع السابق .

وتجويده ، وإتقان كتابته . فقد كانوا يلقنون تلاميذهم كثيرا من المحفوظات الشعرية والنثرية ، ويدرسونهم بعض العلوم العربية المساعدة على فهم النصوص الى جانب تعليم الخط الذي كانوا يولونه أهمية كبرى .

أما الأفارقة فقد انتهجوا منهجا وسطا بين ذلك ؛ حيث أعطوا الأولوية لتعليم القرآن ولكنهم لم يقتصروا عليه وحده بل خلطوه بتعلم الحديث وبعض العلوم الأخرى ، لذلك كانت طريقتهم أقرب الى الأندلسيين منها للمغاربة .

ولا يبعد أن تكون افريقية وبعض بلدان المغرب الأوسط قد تأثرت في عهودها الأولى بالطريقة المشرقية حيث أن أغلب المربين في الفجر الاسلامي الأول، كانوا يأتون من المشرق كما هو معلوم .

كما تأثرت بعض السواحل الشمالية للمغرب الأقصى بالمنهج الأندلسي ، خاصة أيام المرابطين والموحدين ، عندما تمت الوحدة بين القطرين ، وأخذ المغاربة في محاكاة الأندلسيين . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، حسبما يفهم من كلام أبي بكر بن العربي الذي انتقد على معاصريه المغاربة طريقتهم في التعليم ، قائلا : "... ويا غفلة أهل بلادنا في أن يأخذوا الصبي بكتاب الله في أول عمره يقرأ مالا يفهم ، وينصب في أمر ، غيره أهم عليه منه "[1].

فهو يرى أن تقدم" العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس " . ثم ينتقل الطالب بعدما الى الحساب الى أن يتقنه ، وبعدما ينتقل لحفظ القرآن[2].

ولا يبعد أن يكون نداؤه هذا قد وجد بعض الأصداء في بعض الحواضر المغربية ، الا أنه لم يدم طويلا ، لأن أغلب بلدان المغرب

---

(1) ابن خلدون : المقدمة : ص: 1041.
(2) المرجع السابق .

آلت بعد ذلك لما اشتهرت به في عصر ابن خلدون نتيجة الانحطاط الذى شملها . وقد حافظت على منهجها هذا حتى عصر ما قبل الاستقلال حيث شاهدنا كثيرا من الكتاتيب تجعل همها الرئيسي تحفيظ القرآن ولا تكاد تخلطه الا بالضرورى من بعض علوم العربية والعلوم الفقهية .

والذى ألجأ المغاربة لهذه الطريقة الجافة في التعليم ، حسب تعليل ابن خلدون هو أولا ، حرصهم على تلقين أكثر ما يمكن من القرآن للأحداث ، ماداموا صغارا وتحت سيطرتهم ، لأنهم اذا ما تجاوزوا البلوغ قد يتمردون على التعلم فلا يستطيع أولياؤهم حينئذ أن يلزموهم بشيء من ذلك . ثانيا لأن العادة جرت عندهم ، منذ القدم ، بتقديم دراسة القرآن على سائر العلوم الأخرى التماسا للبركة ورجاء في الثواب [1].

ويرى ابن خلدون من سلبيات هذه الطريقة التي تعتمد على تلقين القرآن وحده دون أن يخلط شيء من العلوم الأخرى انه ينشأ الطالب عاجزا عن التعبير لقصور ملكة اللسان عنده ، لأن كل ما يعرفه من أنواع الأساليب هو الأسلوب القرآني ، وهو لا يمكنه تقليده لأنه " مصروف عن الاتيان بمثله " ولا يمكنه التعبير بغيره لقصوره عن ذلك وجمود عبارته .

لهذا كان أهل الأندلس أقدر على التعبير ، لكثرة روايتهم للشعر ، وحفظهم لأنواع النثر ، ولتمكنهم من دراسة اللغة منذ نعومة أظفارهم [2].

---

(1) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1042.

(2) المرجع السابق . ص: 1040 ــ 1041.

هـ - المواد المقررة والكتب المدروسة :

نخلص من كل هذا الى أن التعليم الابتدائي على اختلاف مناهجه كان يعتمد أساسا على القرآن الكريم لقوله (ص) " أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه "[1]. ولأن القرآن مرجع المسلمين في معرفة العبادات والمعاملات ، ولا سبيل الى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة الا بمعرفة الأصل الأول .

وقد أفاض الفقهاء المسلمون الذين كتبوا عن التربية ، أمثال : ابن سحنون[2] والقابسي في ذكر فضائل القرآن ، وقد ألف بعضهم رسائل خاصة في هذا الموضوع[3].

أما المواد التي كانت تعد جزءا من تعليم القرآن ، فهي : اعرابه ، وشكله ، واتقان التهجئة ، والقراءة الحسنة ، وما يستلزمه ذلك من توقيف وترتيل[4].

ويدخل في ذلك أيضا علم القراءات ، وكان المغاربة يفضلون قراءة نافع ، وقد يدرسون القراءات الأخرى الا أن تكون مستبشعة[5]. فهذه المواد كلها تعد اجبارية في التعليم الابتدائي ، أي ، في الكتاب والمسجد ، وما شاكلهما .

وهناك مواد أخرى اختيارية كانت جلّ مؤسسات التعليم الابتدائي في بلدان المغرب تدرسها ، ولكن بعد أن يكون الطالب قد ختم القرآن أو على أبواب " الختمة " . وهي كما ذكرها ابن سحنون : الحساب ، وكانوا يولونه أهمية كبرى . وقد رأينا كيف أن الأندلسيين

---

(1) ابن سحنون محمد التنوخي : آذاب المعلمين . ص : 38 . تحقيق ح .ح . عبدالوهاب .
(2) انظر المرجع السابق . ص : 38 وما بعدها .
(3) انظر رسالته التعليمية في ملحقات كتاب "التربية في الاسلام " للأهواني . ص : 280 .
(4) ابن سحنون : آداب المعلمين : ص 50
(5) المرجع السابق .

كانوا يقدمونه على تعليم القرآن . ثم "الشعر والخطابة" .
ثم "العربية" بكل ما تحتوى عليه من بلاغة ، وعروض ، ولغة ، ونحو . ثم "كلام العرب" وهو التاريخ بمفهومنا الحديث (1) ، هذا بالنسبة للمواد النظرية . أما بالنسبة للمواد التطبيقية فأهمها تعليم كيفية الصلاة ، من ركوع وسجود ، وخشوع . وما يستلزمه كل ذلك من طهارات ، ووضوء ، وقد يتعلمون الى جانب ذلك من الأعمال اليدوية . تحسين الخط ، وشيئا من الزخرفة . كما يتعلمون الانشاد ، والتجويد ، وهذا يربي في الطفل مبادئ الثقافة الفنية ، والموسيقية .

تلك هي أهم المواد التي كانت تعطى للتلميذ في المراحل الأولى من تعليمه .

أما مواد المرحلة المتوسطة ، التي يمثلها ، الرباط ، والزاوية ، والمدرسة ، فهي نفس مواد الابتدائي مع شيء من التوسع . أو قل هي شرح لأصول التعليم الذى أخذه الطفل في الكتاب حيث تشرح له بعض الآيات وشيء من الحديث كما تعطى له بعض المبادئ في الفقه مما لا يسع الانسان جهله ".

غير أن التعليم في الرباطات والزوايا ، خاصة ، ينقسم الى قسمين : قسم عام ، ويشمل كل الطلبة لدراسة المواد التي ذكرناها آنفا .
ونوع يخصص للمريدين من الطلبة يتعلمون فيها الطريقة التي تنتمي اليها الزاوية اوالرباط . وهذا النوع من التعليم يشمل أيضا ما سمي ب "العادة" وهي أناشيد عامة تشترك فيها جميع الرباطات والزوايا وهي عبارة عن قصائد وأزجال وموشحات دينية .

أما التعليم في المساجد فقد كان يشمل ما يقابل التعليمين : الثانوى والعالي عندنا . فهي تستقبل التلاميذ الذين أتموا دراساتهم

---

(1) ابن سحنون : آداب المعلمين . ص : 50 — 51 .

في الرباطات والزوايا أو المدارس ، التي كانت تعتبر في عمومها مدارس متوسطة رغم بعض التفاوت بينها في المستويات .

والطلبة في المساجد موزعون على حلق حسب مستوياتهم . يعطي الأستاذ كل طبقة منهم ما يراه يتلاءم مع مستواها الذهني . ويتدرج بها ، شيئا فشيئا الى النهاية .

ذكر أبو علي الشلوبيني انه " دخل مراكش ، فوجد الشيخ الجزولي النحوي يدرس في مسجده علم العربية . فلما قعد اليه ، اذا بين يديه حلقة من المبتدئين ، يقرئهم على قدر افهامهم ، فألقى عليه سؤالا فأجابه بجواب متوسط ، على قدرهم ، ثم ارتفعوا ، فجاءت حلقة أخرى للنجباء الشاذين ، فكان يلقي حينئذ الأسئلة ، فيجيبه بغاية التحقيق والتدقيق "[1].

وكانت العلوم التي تدرس في المساجد تدور غالبا حول ثلاثة محاور أساسية : العلوم الشرعية ، والعلوم الأدبية ، والعلوم التي لها اتصال بالحكمة بصفة عامة .

أما المواد الشرعية فتشمل : التفسير ، وعلم القراءات ، ثم الحديث ، وكل ما يتصل به من اسناد ، وتعديل ، وتجريح ، وما الى ذلك . وأخيرا الفقه وأصوله .

وكان أشهر كتاب في التفسير ، اعتمده المغاربة في العهود الأولى هو تفسير الطبري[2].

وعندما جاء الموحدون ، أعطوا للعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وعلى رأسها التفسير والقراءات ، فظهرت فيها عدة دراسات قيمة ، اعتمد أغلبها في تدريس هذه المواد . منها كتاب " المحرر

---

(1) المنوني : العلوم والفنون والآداب : ص : 25 .
(2) الكعاك : المراكز الثقافية : ص : 48 .

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز "[1] الذى لخص فيه مؤلفه قاضي المرية عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (— 591) كل التفاسير المشهورة التي سبقته ، فكان من أحسن ما جمع .

وكان " للكشاف " تفسير الزمخشرى ، سمعة طيبة في الأوساط المغربية خاصة فيما يتعلق بمتانة لغته ، وصحة اعرابه ، وما يحتويه من الأسرار البلاغية .

وعندما صنف عبدالكريم بن محمد بن بقي المرسي[2] تفسيره الذى جمع فيه بين " الوجيز " و " الكشاف " اعتمده المغاربة بالاضافة لما سبق .

هذا ، وقد كانت هنالك شهرة كبيرة أيضا لتفسير ابن برجان عبدالسلام بن عبدالرحمن الاشبيلي الصوفي الذى وضعه في عدة مجلدات . وسماه " الارشاد "[3] . كما اشتهرت تفاسير أخرى لبعض العلماء المغاربة كانت تدرس في العهد الموحدى نذكر من بينها تفاسير كل من عبدالجليل القصرى[4]، والحرالي[5]، والمزدغي[6].

(1) طبع من هذا الكتاب جزوءه الأول فقط من أجزائه الستة بتحقيق : أحمد صادق الملاح بالقاهرة سنة 1974 . وقد طبعت قبل ذلك مقدمته مع مقدمة "المباني في وصف المعاني " لمؤلف مجهول ، بتحقيق المستشرق آرثر جفرى في كتاب سماه " مقدمتان في علوم القرآن " وذلك بالقاهرة سنة 1954 .

(2) ملين : عصر المنصور الموحدى . ص : 227 .

(3) المرجع السابق . ص : 228 .

(4) هو عبدالجليل بن موسى الأنصارى الأوسي القصرى المتوفي سنة 608 وضع تفسيره في ستين مجلدا فسر في كل مجلد حزبا . ذكره ابن الزبير في صلة الصلة . وانظر عنه كذلك : عبدالهادى : مظاهر النهضة الحديثة . ص : 84 .

(5) هو ابو الحسن علي بن محمد التجيبي الحرالي المراكشي توفي سنة 638 . انظر توجمته عند الغبريني : عنوان الدراية . ص : 143—156 — انظر ماقاله عن تفسيره " مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل "

(6) هو ابوعبدالله محمد بن يوسف بن عمران المزدغي الفاسي (577/655) . لم يكمل تفسيره — انظر عنه ابن القاضي : جذوة الاقتباس . ص : 138، وعبدالهادى : مظاهر النهضة : ص : 85 .

هذا بالنسبة لعلم التفسير ، أما علم القراءات فقد ظهر أشهر عالم فيها في عهد المنصور الموحدي وهو القاسم بن فيرة الشاطبي الضرير المتوفي سنة 590 هـ . وقد اشتهر خاصة بقصيدته : التي سماها " حرز الأماني ووجه التهاني " في القراءات السبع ، وهي التي تعرف " بالشاطبية " .

وهكذا كانت المنزلة الأولى تعطى إذن ، في كل المواد التعليمية لكتاب الله وما يتصل به من قراءات ، وتجويد وتفسير وما الى ذلك . ثم تليه السنة باعتبارها المصدر الثاني للشريعة الاسلامية ، وقد كان الاعتناء بالحديث وعلومه قديما في بلدان المغرب ، وعندما جاء الموحدون اهتموا به أكثر وشجعوا أهله ورفعوا من منزلتهم فكثر الاقبال عليه . ومن مظاهر اهتمام الموحدين بعلم الحديث حفظ خلفائهم له واعتناؤهم بروايته ، فقد ثبت أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان يحفظ أحد الصحيحين عن ظهر قلب [1]، وكان يعقوب المنصور يستدعي أشهر المحدثين من بلاد الأندلس ليقوموا بتدريس الحديث بالجوامع المغربية ، وكان هو نفسه من أكبر حفاظه ، وقد أمر جماعة من العلماء المحدثين أن يجمعوا له أحاديث في الصلاة من العشر الصحاح على غرار الأحاديث التي جمع ابن تومرت في الطهارة وصار يمليها هو بنفسه على الناس ويلزمهم بحفظها ويجازي على ذلك بالهدايا والصلات [2] ، فازدهرت لذلك دراسة الحديث ، وظهر في المغرب محدثون كبار ، سنتعرض لذكر بعضهم بعد حين .

وأشهر الصحاح التي كانت تدرس بالمساجد : صحيح البخاري وصحيح مسلم . وسنن ابي داود ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي [3].

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 309 .
(2) المصدر السابق . ص : 355 .
(3) المنوني : العلوم . ص : 29 .

أما بالنسبة للفقه فقد كان المعول عليه ، موطأ مالك وما ألف حوله من شروح وتعاليق وتلاخيص ، الى أن جاء الموحدون فعوضوا ذلك بمؤلفات المهدى بن تومرت ، واستبدلوا كتب الفروع بكتب أصول الدين وأصول الفقه محاولة منهم لتحرير العلماء والفقهاء من القيود التي فرضها عليهم المرابطون . ولم يستطع القادة الموحدون الأوائل أن يلزموا المجتمع المغربي بالشدة على التخلي عن كتب المذهب الذى درجوا عليه منذ نعومة أظفارهم خوفا من الفتنة ، فسلكوا معهم سياسة المراحل ، اقتصروا أول الأمر على تنفير الفقهاء من علم الفروع ، ودعوتهم الى نبذ التعصب ، والرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، الى أن جاء المنصور فجهر بما كان يسره أبواه من قبله ، فالزم الناس على نبذ الفروع وتوعد كل من خاض في شيء منها [1].

وقد استدعى امام المالكية آنذاك ابن الجد الاشبيلي وكان بين يدى المنصور كتاب ابن يونس فقال له : يا أبا بكر انظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله في المسألة الواحدة أربعة أقوال أوخمسة ، ففي أيها الحق ؟ وبأيها يجب أن يأخذ المقلد ؟ وعندما حاول ابن الجد أن يشرح له ما أشكل عليه قاطعه وقال : ليس الا هذا وأشار الى المصحف الكريم أوهذا وأشار الى كتاب سنن ابي داود أوالسيف .

وقد كانت نية المنصور القضاء على المذهب المالكي من أصله لذلك أمر بجمع كل الكتب التي الفت حوله وكانت رائجة في انحاء المغرب ، كمدونة سحنون ونوادر ابن زيد ، وكتاب ابن يونس وغيرها من المؤلفات واحراقها بعد أن جردها مما كانت تحتوى عليه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية [2].

---

(1) انظر المراكشي : المعجب : ص : 354 وما بعدها .
(2) المصدر السابق .

وقد تنفس المذهب الظاهري في عهد يعقوب المنصور بحرية أكثر لما أظهره هذا الخليفة من اعجاب زائد بامامه أبي محمد ابن حزم فظهرت لذلك حوله بحوث قيمة .

أما بالنسبة للأدبيات التي كانت تدرس بالمساجد ، فقد اعتنى المغاربة ، خاصة ، بعلوم العربية ، واهتموا اهتماما كبيرا بكتب اللغة ، باعتبارها الموسوعات التي تحتوى على كل الرصيد اللغوى . وعن طريقها يمكن للمرء أن يتمكن من ناصية اللغة التي هي مفتاح كل العلوم .

ومن مظاهر اعتنائهم بهذا العلم إقتناؤهم لكتبه ، ودراستها ، وحفظها عن ظهر قلب أحيانا[1] وشرحهم لكثير من أمهاتها[2] والتعليق عليها ، واختصارهم لها .

وأشهر هذه الكتب التي كانوا يدرسونها "كتاب العين"[3] للخليل ابن أحمد ، واضع علم العروض المتوفي سنة 175 هـ . باعتباره أصل كل الكتب اللغوية على الاطلاق . وقد اختصره ابوبكر محمد بن الحسن بن عبدالله الزبيدى في المائة[4] الرابعة (306/ 918 — 379 / 989) فلقي مختصره هذا رواجا كبيرا في بلدان المغرب ، وبقي يدرس بجوامعها حتى عهد الموحدين .

---

(1) انظر عن اعتناء الاقدمين بالحفظ ، ماقاله مثلا المراكشي عن محفوظات ابن عبدون التي كان أيسرها "كتاب الأغاني" ، المعجب . ص : 143—144. وما قاله عن حفظ أبي جعفر الحميري المؤدب المتوفي سنة 610 لديوان المتنبي ، واملائه له على ولده عصام من ذاكرته . وقد قال أبو جعفر هذا : " والله لقد أدركت أقواما لايعدون من حفظ كتاب سيبويه ، حافظا ولا يرونه مجتهدا " المعجب . ص : 380.

(2) اهمها كتاب العين — وكتاب الصحاح — وكتاب المحكم — وكتاب الجمهرة — وكتاب الزاهر — وكتاب الفصيح .

(3) قيل أن مؤلفه ، هو ، الليث بن نصير الخراساني ، أمولهما معا . ملين : عصر المنصور . ص : 161.

(4) ابن خلدون : العبر : ج . 1 . ص : 1061.

ومن الكتب التي كانت مقررة في علم اللغة ، وكانت تدرس بالمساجد على العهد الموحدى ، أيضا ، فصيح ثعلب أحمد ابن يحي الكوفي المتوفي سنة 291 هـ . الذى كان يعد من أهم المختصرات اللغوية في عهد المنصور الموحدى . وقد شرحه العالم اللغوى الأندلسي عبدالله بن محمد البطليوسي ت. 511 في جملة ما شرح من كتب اللغة . ثم شرحه ، بعد ذلك ، محمد بن خلف [1]، شارح المعلقات ، فكانت تدرس كل هذه الشروح مع متنها بالاضافة الى أغلب كتب اللغة المشهورة .

ومن معاجم اللغة التي ألفت في الأندلس ، أيضا ، واشتهرت في هذا العهد ، فنذكر "كتاب العالم" الذى وضعه محمد بن أبان بن سيد اللخمي ت . سنة 354 — 993. [2] ويرى ابن حزم الأندلسي أن أحسن كتاب ألف في هذا الفن في عصره هو كتاب ابي غالب تمام بن غالب الملقب بابن التبان [3] . الا أن ما ألفه أبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده المتوفي سنة 458 في هذا الفن يكاد يربو على الجميع . بقي لنا منها معجمان : "المخصص في اللغة" و "المحكم والمحيط الأعظم" [4].

وقد اعتنى المغاربة أيضا بتدريس "المثلثات" خاصة منها مثلث قطرب المتوفي سنة 206 الذى نظمه فيما بعد عبدالوهاب ابن علي القيسي المتوفي سنة 598 هـ . تسهيلا لحفظه . كما اعتنوا كذلك بمثلث عبدالله بن محمد البطليوسي الآنف الذكر [5].

و اعتناء المغاربة بحفظ كتب اللغة له ما يبرره . اذ أن اللهجات التي كانت تستعمل في الحياة اليومية ، كانت لهجات محلية ، بعيدة كل البعد عن اللغة العربية . فمن الطبيعي أن يلجأ المثقفون الى حفظ

---

(1) ملين : عصر المنصور . ص : 162 .
(2) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي . ص : 189 .
(3) المرجع السابق . ص : 189 .
(4) المرجع السابق . ص : 190 .
(5) ملين : عصر المنصور . ص : 161 — 162 .

اللغة العربية من أصولها ، حتى يتمكنوا منها ، وتتدرب ألسنتهم على فصيحها . وكانت أفضل طريقة لامتلاك اللغة ، واقتنائها، هو حفظ الدواوين القديمة من أشعار العرب الجاهليين والاسلاميين . لقد كانت عنايتهم بحفظ دواوين شعراء المعلقات ودواوين بعض المولدين كالمتنبي وذى الرمة الذى يقدر ديوانه بثلث لغة العرب[1] ، بالاضافة الى أمهات كتب اللغة تفوق كل عناية لهم بالعلوم الأخرى . وهذا طبعا بعد حفظهم لكتاب الله وسنة رسوله .

وكان لعلم النحو الذى يعتبر فرعا من فروع علم اللغة الحظ الأوفر من هذه العناية أيضا . حتى أن كثيرا منهم كانوا يفنون جزء كبيرا من حياتهم في اتقانه ، واستقصاء جزئياته الخفية، وحفظ شواذه . وكانوا يعدون اللحن في النحو من أكبر المناقص بالنسبة للعلماء ، وكان " كتاب " سيبويه من أجلّ الكتب النحوية المقررة ببلدان المغرب[2] . وقد تناوله عدة علماء اندلسيون ومغاربة بالشرح والتعليق أشهرها شرح ابن خروف أبي الحسن علي بن محمد الحضرمي الأشبيلي[3] المتوفي سنة 1212/602.

ويعدّ كل من الزجاجي ، وعيسى بن سليمان ابن عبدالملك الرعيني الرندى المتوفي سنة 1219/615 ، وابن عصفور الاشبيلي المتوفي سنة 1264/662 ، وأبوعلي عمر الشلويني ، من أشهر النحاة الأندلسيين[4] ، الذين كانت تدرس مصنفاتهم ببلدان المغرب الى جانب بعض مصنفات المغاربة التي سنتحدث عنها بعد قليل .

أما الكتب الأدبية التي كانت تدرس لطلاب المساجد فأشهرها كتب الجاحظ ، خاصة منها كتاب " البيان والتبيين " الذى لاقى رواجا

---

(1) ابن دحية : المطرب : ص : 206 — المقرى : النفح .ج . 2 .ص: 247 .
(2) عبدالهادى : مظاهر النهضة . ص : 88 .
(3) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة ، رقم : 245 .
(4) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي : ص : 186 .

كبيرا في الأوساط المغربية . وكذلك كتاب "أدب الكاتب" لابن قتية وكتاب "الكامل" للمبرد ، وكتاب "الأمالي" لأبي علي القالي وهي الكتب التي اعتبرها ابن خلدون أمهات الأدب العربي .(1)

هذا بالاضافة الى كل الدواوين المشهورة ، وكتب النثر الترسلي خاصة منها مقامات الحريري التي اعتنى بها المغاربة اعتناء خاصا ، فتناولوها بالشرح والتعليق . كان أشهرها شرح عقيل بن عطية الطرطوشي المتوفي سنة 608 هـ . بسجلماسة(2).

والى جانب هذه الكتب المشرقية ، فقد كانت هناك كتب أدبية أندلسية كثيرة يقوم بتدريسها مؤلفوها أنفسهم ، كما كانت هناك مصنفات مغربية جمعت من طرف أدباء مغاربة ، الا أن جلها قد ضاع . نذكر منها على سبيل المثال : "مختصر الأغاني" الذى انتقاه أبو الربيع سليمان الموحدى (3) ، والكتاب الذى جمعه الشاعر الجراوى بأمر من المنصور الموحدى وهو "صفوة الأدب ونخبة كلام العرب" . وقد كان من أشهر الكتب التي تدرس في العهد الموحدى . وكان المغاربة يقارنونه بديوان الحماسة لأبي تمام(4). هذا بالاضافة الى ماكان يد بجه كتاب الدواوين من رسائل من أمثال أحمد بن عطية وأخيه وابن محشرة البجائي وعبدالرحمن القالمي ، وكانوا يقصدون بها طلاب الحضرة . لذلك كانت تحفظ وتدرس .(5)

أما بالنسبة للمواد العقلية كالعلوم والرياضيات والمواد التي لها اتصال بالحكمة كالمنطق ، والطب ، والتنجيم . فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا ، خاصة ، في العهد الموحدى . لما كان يوليه خلفاء هذه الدولة من أهمية قصوى لهذه الفنون التقنية ، وما كان يلاقيه أصحابها

---

(1) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1070.

(2) المقرى : النفح : ج . 2 . ص : 247.

(3) عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص : 88.

(4) ترجم له ابن الزبير : في صلة الصلة رقم : 245.

(5) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص : 186.

لديهم من تكريم وتبجيل . الا أنه لم يكن ، حسبما يبدو ، يسمح للطالب بتعلم شيء منها الا اذا أتقن كل العلوم النقلية التي أشرنا اليها آنفا ، وتشبع بروحها الدينية واخلاقها السامية . وهذا يعني أن جل هذه العلوم كانت تدرس في المراحل العليا بالجوامع بعد أن يتخرج ، الطلاب من المساجد .

وقد أولى الموحدون عناية خاصة بالرياضيات ، بكل ماتحتوى عليه من حساب ، وجبر ، وهندسة ، فاشتهر فيها علماء متخصصون كثيرون ، منهم من تجاوزت شهرته حدود بلدان المغرب . كما رأينا ذلك في ابن مرانة الفرضي السبتي الذى تمنى ابن عباد أن يكون له مثله في اشبيلية . ومنهم أبو الحسن على بن محمد بن فرحون القرطبي المتوفي سنة 601 الذى استقر بفاس مدة طويلة يعلّم بها الحساب . وقد ألف فيه كتابا سماه " اللباب في مسائل الحساب"[1] وكان من الكتب المشهور في الأوساط الطلابية بالمغرب . كما اشتهر محمد بن حجاج الفاسي الملقب بابن الياسمين (/601) في تعليم الجبر . وكان قد وضع فيه منظومة حازت شهرة كبيرة . كان يدرسها بكل من المغرب والأندلس[2] .

وكان التنجيم من أهم العلوم التي لاقت اقبالا في هذا العهد أيضا . فمن أشهر علمائه الخليفة يعقوب المنصور الموحدى الذى يعد أول من بنى مرصدا فلكيا لتتبع حركة الأجرام السماوية باشبيلية . وكان هو نفسه قد وضع أزياجا فلكية من اختراعه عن كسوف الشمس[3] .

أما بالنسبة لعلم الطب فقد كان أكثر الدراسات العلمية انتشارا لما لاقاه من تشجيع من كل خلفاء الموحدين . فهم لم يكتفوا باستدعاء اساطين الطب من الأندلس وتقريبهم اليهم . وانما عملوا على نشره

---

(1) ترجم له ابن الزبير : في صلة الصلة رقم : 238 ، وسمي كتابه " لباب اللباب" وقال : " وله كتاب سماه "الزاهر" ـ كما ترجم له ابن القاضي في الجذوة ص: 306 .

(2) المنوني : العلوم والفنون والآداب . ص : 104 .

(3) المرجع السابق . ص : 100 .

بما أنشؤه له من مستشفيات ، كانت آية في التنظيم ، وغاية في العظمة . وقد رصدوا لنشر هذا النوع من التعليم أموالا طائلة ، زيادة على العناية الفائقة التي كانوا يولونها لأربابه ، من أطبا ، وصيادلة[1].

وقد صنف الموحدون العلماء الى أصناف متعددة ، قسموهم حسب تخصصاتهم ، ليسهل عليهم تنشيط المعارف عن طريقهم ، وتسهل عليهم مراقبة التأليف فيها . فقد جعلوا على رأس كل طائفة مزوارا (رئيسا). فسموا على الأطباء أبا جعفر الذهبي[2]. وعلى الفلاسفة ابن زهر[3]. وعلى الطلبة ، عبدالله بن محمد الأنصاري المعروف بابن المالقي .

ويبدو أن المكانة التي كان يحظى بها هؤلاء العلماء المتخصصون في هذه العلوم التجريبية لدى الخلفاء ، كانت أشرف من منزلة الأدباء والشعراء .

فقد ذكر أن أبا القاسم بن سعدة الأوسي ، مدح ، مرة ، الخليفة عبدالمؤمن بن علي ، فصنفه وزيره مع الشعراء ، وكان ابن سعدة ، الى جانب قرضه الشعر ، عالما رياضيا ، فعندما اطلع عبدالمؤمن على ذلك ، قال " انما يكتب هذا في قائمة الحساب " . رفعا لدرجته[4].

هذا ما يمكن أن يقال بالنسبة للتعليم في المساجد ، أما التعليم في الجوامع فقد كان مقصورا على المتخصصين الذين يريدون التبحر في علم ما من العلوم ، وهو تعليم اختياري للطالب كامل الحرية في اختيار الحلقة التي ينضم اليها . ويبدو أن طريقة التعليم نفسها ليست هي الطريقة المألوفة في المساجد . فالدروس في الجوامع تقوم على المحاورة والمناظرة والنقاش ، ولكل من الحاضرين حق ابداء الرأى

---

(1) انظر ماقاله المراكشي : في المعجب عن هذا الموضوع: ص : 364ـ365 .
(2) المنوني : العلوم والفنون : ص : 123 . ملين: عصر المنصور : ص : 205 .
(3) ملين : عصر المنصور : ص : 212 .
(4) المنوني : العلوم والفنون : ص : 103 .

وطرح الأسئلة ، بينما الطريقة المألوفة في القاء الدروس بالمساجد تقوم أساسا على الأستاذ ، وقد يشرك الطالب في المناقشة والشرح أحيانا خاصة اذا ما تعلق الأمر بدروس تطبيقية ، فقد ذكر ابن رشيق في العمدة أن "طريقة القزاز في مجلس دروسه أن يلقي على الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ويطرح عليهم أبيات الشعر العويصة ، ويطلب منهم فك معانيها وتفسير ألفاظها "[1] وهذه هي الطريقة المثلى في التعليم الا أنها لم تكن عامة حسبما يبدو . أما أسلوب التربية الذى كان متبعا في هذه المؤسسات الثقافية فقد فصله كل من سحنون في رسالة آداب المعاني والقابسي خاصة في كتابه التربوى المشهور الذى ضمنه آراءه التربوية ، وفيما يتعلق بمعاملة الطلاب ، فيبدو أنها كانت تتسم بنوع من الخشونة لاعتمادها على الشدة والقهر . فقد روى الخشني عن سحنون أن هذا الأخير كان يقول لمعلم ابنه لما كان صبيا :

"لا تؤدبه الا بالمدح ولطف الكلام ، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والعنف ، واني أرجو أن يكون نسيج وحده أتركه على نحلتي .."[2]

فهذا يعني أن الطريقة المألوفة في تربية الصبيان كانت طريقة اسبرطية ، ولولا ذلك لما احتاج سحنون للادلاء بهذه الوصية لمعلم ابنه .

تلك هي المناهج التعليمية التي كانت سائدة في بلدان المغرب على عهد الموحدين . وهذه هي أهم المواد التي كانت تدرس بها بصفة عامة . الا أن الملاحظ ، أن هذه الثقافة على غزارتها ، وسعة انتشارها بقيت في مجموعها دينية ، لا تكاد تفرق عن تلك التي سبقتها الا في الصبغة المذهبية التي طبعت بها .

والواقع أن المسؤل على هذا الانغلاق الذى اتسمت به الثقافة المغربية منذ عهودها الأولى ، هو طغيان العامل الديني الذى سيطر

(1) ابن رشيق : العمدة 1 : ص :211 .
(2) ح.ح. عبدالوهاب : ورقات : ق . 1. ص : 83 .

على كل أنواع المعرفة منذ أن دخلت هذه المنطقة في الاسلام ، وبدأت تهتم بالثقافة العربية كوسيلة للخروج من مظاهر التخلف وظلمات الجهل .

لذلك كانت أغلب الدول الاسلامية التي نشأت بالمنطقة ، قامت على فكرة الاصلاح الديني . وكانت آخر هذه الدول دولة المرابطين التي ساهمت في تركيز وتعميق هذه الظاهرة بالقسط الأوفر . حيث نعلم أن المبدأ الذى قامت عليه كان ينحصر أول الأمر في تركيز المذهب المالكي في كل أصقاع المغرب ومحاربة كل الاتجاهات الأخرى .

وقد كان من الطبيعي أن يعتمد في القيام بهذه المهمة على رجال الدين ، من دعاة ، وفقهاء ، وقضاة ، وما الى ذلك ، فأولت الدولة عناية خاصة بانتقاء نوع من الفقهاء تخصصوا في علم الفروع ، فبثتهم في كل مرافق الدولة وأشركتهم في تسيير الأمور ، باعتبارهم أحسن من يعكس مبادئ المذهب المالكي الذى قامت أساسا للدفاع عنه .

وقد أثرت هذه الصبغة التي أعطاها ابن ياسين للدولة على كل الحكام المرابطين الذين تعاقبوا من بعده على السلطة ، فقصروا مناصب الدولة على الفقهاء دون غيرهم من بقية العلماء رغم وفرتهم . فقد كان يوسف بن تاشفين يفضل الفقهاء ويعظمهم ، ويصرف الأمور اليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم . أما علي بن يوسف ، فقد اشتد ايثاره لأهل الفقه والدين ، حتى كان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء [1] ، وكان يأمر كل قاض يسميه الا يقطع أمرا ، ولا يبث حكومة في صغير من الأمور ، ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء [2] . فكان من نتيجة ذلك

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 235 .
(2) المرجع السابق . ص : 235 .

أن دخل الفقهاء في صلب الدولة ، فأصبحوا ، بما أحرزوا عليه من سلطة ونفاذ الكلمة ، يشرفون على التوجيه الفكري في الدولة ويرسمون السمات العامة للثقافة التي يرتؤن نشرها ، ولا يسمحون بتعليم أي فنّ من أنواع المعرفة في علوم الدين خارج نطاق علم الفروع ، فكانوا لذلك يطاردون الفلاسفة ، وأصحاب النزعات الصوفية يرمونهم بالزندقة والانحراف . فقد تألبوا على ابن برجان وابن العريف واتهموهما بشتى الاتهامات حتى اضطر علي بن يوسف أن يستدعيهما الى مراكش للتحقيق معهما . وقد ثاروا قبل ذلك على كتاب " الاحياء " للغزالي وافتوا باحراقه وشوهوا علم الأصول في نظر علي بن يوسف حتى حرمه وتوعد أصحابه .

فانحصرت أنواع الثقافة بهذا الشكل في علم الفروع وما يتصل بها دون غيرها من المواد الدينية الأخرى ، وأهملت بقية أنواع المعرفة الأخرى ، أو كادت فانحصر بذلك كل الانتاج الفكري في العلوم الدينية . وليس بدعا أن تصطبغ الثقافة الموحدية بالصبغة الدينية هي الأخرى ، ما دمنا نعلم أن دولتهم أيضا قامت أساسا على فكرة الاصلاح الديني : الا أن المنتظر من دولة اشتهرت بثورتها على تحجر الفكر ، واتسمت بتحرير العقل وفتح مجال البحث العلمي على مصراعيه أن يظهر أثر هذه الدعوة في كل جوانب الفكر لا أن يقتصر على المواد الدينية وحدها .

والواقع أن تحرير العقل الذي نادى به الموحدون لم يكن مطلقا ، فالذي دعا اليه ابن تمرت هو استعمال المنهج العقلي في البحوث الدينية ، كما دعا العلماء الى استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية : الكتاب والسنة ، والاجماع ، فاحي بذلك علوم النظر ، وما يتصل بها من علوم الجدل والمنطق فانتعشت حركة المناظرة الا أنها انحصرت في ثلاث محاور ، حددها بعض المتخصصين فيما يلي :

1) المبادئ الموحدية وما يقابلها من سلفية رافضة لها .
2) المذهب المالكي تجاه الظاهرية التي لقيت تشجيعا في هذا العهد .
3) العقيدة الاسلامية تجاه الديانات السماوية الأخرى[1] .

على أن هذه المناظرات الدينية التي تعتمد على الطرق الجدلية المعروفة وتستعمل الاستدلال المنطقي كوسيلة للاقناع ، لم تكن غريبة كل الغرابة ، على بعض بلدان المغرب على الأقل ، فقد رأينا ، في الفصول الماضية ، ما كانت تزخر به مساجد القيروان وتاهرت ، من حلق المناظرات والمجادلات الدينية ، عندما طغى بها الصراع المذهبي . وقد لمسنا انعكاسات ذلك واضحة في كل مجالات الفكر والثقافة ، وكان في الامكان أن تستمر هذه الطريقة ، وتنمو ، وتتسع ، لولا ماأصابها من نكسة على يد العبيديين أولا ، ثم المرابطين بعد ذلك .

على أن العبيديين ، في واقع الأمر ، لم يرفضوا الجدل والمناظرة الا فيما يتعلق باثبات فساد مذهبهم . أما في المجال العلمي فقد كانوا من أكبر المشجعين لها .

أما المرابطون فقد كفروا كل من حاول الاطلاع على العلوم العقلية ونفروا العلماء من الخوض في أصول الدين [2] ، فخمدت بذلك جذوة الحماس التي رأيناها تتأجج في علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وبقيت راكدة الى أن جاء الموحدون فأنعشوها من جديد الا أنهم قيدوها رسميا في مجال أصول الدين وأصول الفقه . كما أشرنا الى ذلك من قبل . أما الفلسفة فبقيت محضورة ، كما كانت من قبل ، ان لم نقل أكثر ، وهذا رغم مظاهر التشجيع التي قد نلمسها في تقريب بعض خلفاء الموحدين لأصحاب هذا الفن .

---

(1) النجار عبدالمجيد : المهدى ابن تومرت : ص : 474 .
(2) وصف المراكشي ذلك متحدثا عن عهد علي بن يوسف قال : " نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن احد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء " المعجب : ص : 236 .

وحتى أولائك الفلاسفة الذين لاقوا حظوة عند هؤلاء الخلفاء لم يستطيعوا أن يتخلصوا تماما من عقدة الخوف التي فرضها عليهم الجو العام للمجتمع الذى يعيشون فيه . وهذا الارهاب ولا شك يشكل عائقا أساسيا في انطلاق الفكر وتحرره . ونحن نستشف هذا الخوف من موقف ابن رشد عند أول لقائه بأبي يعقوب يوسف الخليفة الموحدى ، عندما ألقى عليه هذا الأخير بعض الأسئلة التي تتعلق بما وراء الطبيعة ، فكان رد فعل ابن رشد ، أن أنكر اشتغاله بالفلسفة انكارا تاما ، لولا أن طمأنه زميله ابن طفيل الذى كان حاضرا بالمجلس ، وهدأ روعه الخليفة نفسه (1).

وقد نلمس اثر هذا الخوف أيضا فيما قام به هذا الفيلسوف نفسه من أبحاث تدور محاورها حول تقريب الفلسفة من الدين ، وكأنه يريد بذلك التقرب من الفقهاء لعلهم يكفكفون من غلواء حقدهم على الفلاسفة .

وما كتاب " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال " الا ثمرة لهذا الخوف الذى لازمه طوال حياته ، وقد قصد به الفقهاء خاصة ، اذ بيّن لهم فيه أن الفلسفة هي الوسيلة الضرورية للوصول الى الحقيقة ، وهي ليست في واقع الأمر الا النظر بالعقل الى الكائنات ، والشرع قد دعا الناس للاعتبار " فاعتبروا يا أولي الأبصار " ، كما أمرهم بالتدبر في ملكوت الله ـ " أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض " .

ولم يكن خوف ابن رشد هذا في غير محله ، فقد رأينا ما صنع به وبفلسفته يعقوب المنصور رغم تقريبه له أول الأمر واعجابه بعلمه . ومهما يكن من أمر ، فان تقريب الخلفاء لهؤلاء الفلاسفة لم يكن ليقربهم من قلوب الفقهاء ، بله أن يفرضهم عليه ، فمجالستهم لهم كانت من باب ايناس عالم لعالم آخر تربط بينهم اهتمامات مشتركة ،

---

(1) المراكشي : المعجب ص : 314 ـ 315 .

لذلك لم يثبت عن أبي يعقوب يوسف أنه أشاد يوما بفضل الفلسفة أمام العموم، أوشجع على تعلّمها في مجلس من مجالسه الخاصة أو العامة، أما ابنه المنصور فقد كان موقفه مذبذبا كما رأينا . وهذا رغم اشتغاله هو الآخر بهذا العلم .

ولم يكن هذا التعاطف مع الفلاسفة دأب كل الخلفاء الموحدين بل كان هناك من عرف بمعاداته الشديدة لهم، منهم المأمون الذي قتل الفيلسوف ابن حبيب لاتهامه بدراستها[1].

ونخلص من كل هذا الى أنه رغم ما يلاحظ من اقبال بعض خلفاء الموحدين على الفلسفة وتشجيعهم لأهلها وحثهم على التأليف فيها، فان الاقبال عليها لم يكن شائعا في المغرب، بل بقي محصورا في مجال ضيق لمعادات الجو العام لها.

وظاهرة نفور المغاربة والأندلسيين من العلوم الفلسفية، ظاهرة يصعب تفسيرها . فالمتتبع لخط السير الذي سلكته الثقافة في هذه البلدان منذ الفجر الاسلامي الأول، يلاحظ نوعا من النفور أو الانكماش ازاء كل العلوم العقلية، خاصة منها الفلسفة، وهذا في مختلف المراحل التي مرت بها الثقافة المغربية الأندلسية وعلى كل المستويات، وقد كانت أشد الطبقات المثقفة نفورا من هذا الفن هي طبقة الفقهاء، وأكثر الناس تطرفا في ذلك الطبقات الشعبية، وقد انساق الحكام مع هذا التيار، فنفروا الناس منها، رغم تعلق بعضهم بها، وشددوا الخناق على كل مشتغل بها، وتوعدوا كل مقتن لكتبها، وقد بلغ بعضهم حدّ التطرف في ذلك، فبالغوا في العقوبة . وكثيرا ماكان الحكام، في المغرب والأندلس يتقربون للطبقات الشعبية بتسليط عقوبة القتل او التشريد على المتهمين بالفلسفة، ويأمرون بحرق ما أنتجوه فيها بالميادين العامة ،

---

(1) المنوني : العلوم والآداب والفنون : ص : 102 — المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 186 .

والغريب في الأمر أن رفض العلماء المغاربة لعلم الفلسفة وما يتعلق بها من العلوم العقلية الأخرى لم يكن مبنيا على دراسة علمية أدت بهم الى الاقتناع بفسادها ، وانما كان رفضا تقليديا محضا ، أملاه عليهم الاتجاه المعادى لهذه العلوم الذى أشاعته العوام في كل الأوساط الاجتماعية من جهة وأملاه عليهم جهلهم التام بهذه الفنون التي لا يملكون حتى الأدوات التي تمكنهم من حل رموزها وفهم مصطلحاتها من جهة أخرى ، فانساقوا مع القول الشائع الذى يفسر الفلسفة بالزندقة ، وحكموا على كل مشتغل بها بالكفر والالحاد .

وقد أوضح هذه الفكرة ابن طلموس في مقدمة كتابه عندما تعرض لذكر سبب زهد الأندلسيين في علم المنطق الذى كان يعد من العلوم الفلسفية الممقوتة قال : " .... ان أهل زماننا ينفرون عنها (صناعة المنطق) ويرمون العالم بها بالبدع والزندقة، وقد اشترك في هذا الأمر منهم دهماؤهم وعلماؤهم ، فلما رأيت هذه الصناعة غريبة ، وقع في نفسي أن أمتحن العلماء الذين ألقاهم في عصرى هذا ، وأباحثهم عما عندهم فيها ، فلقيت من مشائخ العلماء عددا كثيرا ممن يؤتمر لأمره ، ويوثق بقوله ومعرفته ، فسألتهم عنها ، وباحثتهم هل اطلعوا منها على شيء ، فلم أجد عندهم في أمرها الا ما عند الدهماء والعوام "(1).

ولم يروج من علوم الفلسفة ، اذن ، في بلدان المغرب على هذا العهد ، سوى علم المنطق الذى لقي اقبالا كبيرا من قبل الناشئة وطلاب العلم ، أما الفلسفة فبالرغم من بصيص النور الذى لاح لها أيام ابي يعقوب يوسف الا أن الروح العامة للثقافة المغربية بقي معاديا لها .

---

(1) ابن طملوس ابو الحجاج يوسف بن محمد : المدخل الى صناعة المنطق . ص: 8 — 12 ، مدريد 1616.

والفضل في انتشار علم المنطق — حسبما أشار لذلك ابن طلموس — يعود اولا الى المجهودات التي قام بها ابن تومرت لتعميمه ، ثم الى ما حازته كتب الغزالي من اقبال المثقفين عليها ، خاصة وقد ذكر أبو حامد في مقدمة كتابه " المستصفى " بأن من لا يعرف المنطق لا يوثق بعلمه فبدأت عندئذ العناية به تظهر عند العلماء والفقهاء والنحاة خاصة بعد أن طوع الغزالي المنطق للفقه ، وضرب الأمثلة والشواهد على مسائله من مسائل الفقه ، والفاظه تقريبا له من الأذهان[1].

الا أن انتشاره بشكل أوسع ظهر مع بداية القرن السابع الهجري حيث ظهرت فيه تآليف قيمة ، واختص في تدريسه علماء أفذاذ أورد الغبريني جملة صالحة منهم نذكر من بينهم أبا محمد عبدالوهاب بن يوسف بن عبدالقادر المتوفي سنة 680 كانت له " معرفة بعلم الحكمة وبراعة في علم المنطق وخصوصا على طريقة المتأخرين ولم يكن في وقته أعلم منه " بكشف الأسرار "[2] الذى وضعه الخونجي في علم المنطق وهو أعلم به من واضعه "[3].

ومنهم أبو محمد عبدالله بن محمد بن يحيي الأغماتي الذى اشتهر في علوم العربية والمنطق[4].

ومنهم ابن عصفور علي بن مؤمن النحوى (597 / 669) الذى اشتهر باستخدام المنطق في تبويب النحو وشرح مسائله[5].

---

(1) ابن طلموس : المدخل لصناعة المنطق ص : 8 — 12 .
(2) كتاب " كشف الأسرار عن غوامض الأفكار " هو لمحمد بن ناماور بن عبدالملك الخونجي ، بن عبدالله ، المتوفي سنة 646 ، هو فارسي الأصل انتقل الى مصر وولى قضاءها وتخصص في علم الأوائل حتى اشتهر به ، ومن مصنفاته ايضا كتابي " الموجز " والجمل في علم المنطق كما اختصر "نهاية الأمل " لابن مرزوق التلمساني — انظر ترجمته عند : الزركلي : الاعلام : ج . 7 . ص : 244 .
(3) الغبريني : عنوان الدراية ص : 233 .
(4) المرجع السابق : ص : 223 . (5) المرجع السابق ، ص : 318 .

ومنهم أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي وهو أحد معاصري الغبريني[1].

ويبدو أن الاعتناء بالمنطق في القرن السابع أصبح شغل الطلبة الشاغل، اذ كان يدرس بعدة طرق حسبما يستفاد من كلام الغبريني عن تعلمه له . "أما علم المنطق ... قرأته على الطريقتين : طريقة الأقدمين، أي نصر الفرابي وغيره . وطريقة المتأخرين، محيي الدين وغيره ، وعلى طريقة الأوسطين كابن سينا وغيره "[2].

ورغم ايلاف المغاربة لعلم المنطق واستئناسهم به ، واندماجه في كل المواد المدروسة في ذلك العهد . الا أنه كانت ترتفع، رغم ذلك، أصوات بعض المعارضين له ، من حين لآخر، تحذر من الاشتغال به ، منها ما سجله العبدري على علماء مصر، حيث انتقد عليهم تعاطيهم لهذا العلم قائلا : " ... ومن الأمر المنكر عليهم والفكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول ، وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول، في اكبابهم على علم المنطق ، واعتقادهم أن من لا يحسنه لا يحسن أن ينطق "[3].

ومن قول ابن جبير في هذا الباب أيضا :

قد ظهرت في عصرنا فرقة — ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي بالدين الا بما — سن ابن سينا وأبو نصر (4)

وقال :

يا وحشة الاسلام من فرقة — شاغلة انفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها — وادعت الحكمة والفلسفه (5)

وبعد فتلك هي بعض العوامل التي ساعدت الموحدين على تحقيقه نهضتهم الثقافية ببلدان المغرب .

---

(1) الغبريني : عنوان الدراية ص : 229 .
(2) المرجع السابق، ص: 358—359 .
(3) العبدري : الرحلة : ص : 130 .
(4) ابن جبير : الرحلة : ص : 12 . (5) المرجع السابق .

بقي علينا أن نقول كلمة عن أولائك العلماء الذين استطاعوا بواسطتهم أن يحققوا ذلك الازدهار الثقافي المنقطع النظير الذى مس كل ميادين الحضارة ، كيف تكوّن هؤلاء العلماء ؟ ومن أين جاؤا ؟

لقد كان الموحدون يدركون منذ اليوم الأول أنهم لن يستطيعوا أن يحققوا نهضة ثقافية بمعنى الكلمة الا اذا اعتمدوا على جهاز تعليمي قوى . ولم يكن للمغرب وحده أن يوفر لهم كل ما يحتاجونه من علماء لتحقيق هدفهم هذا . فكان لزاما عليهم أن يعتمدوا على مساعدة من سبقهم في الميدان ، فلم يكن هناك أحسن من الأندلسيين ، فاعتمدوا عليهم ، وشجعوا علماءهم على الهجرة اليهم فتدفقت أفواجهم على كل بلدان المغرب وتتابعت هجراتهم اليها طوال سنين وسنين خاصة بعد أن تم توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية تحت لواء واحد . وتضاعفت هذه الهجرات بعد أن قويت حركة الاسترداد الاسباني .

ولم يكن الموحدون ، في واقع الأمر ، هم أول من شجع هجرة العلماء الأندلسيين الى المغرب ، فقد سبقهم الى ذلك اسلافهم المرابطون بما يزيد عن ثلثي القرن ، وهذا يعني أن الذين أرسوا القواعد الأولى للثقافة المغربية انما هم أولائك الأندلسيون الذين هاجروا اليه في ذلك العهد المبكر .

وعلى هذا لايمكننا ، والحالة هذه ، أن ندرس الثقالة المغربية بمعزل عن العلماء الأندلسيين الذين عملوا على نشرها واثرائها طوال فترة المرابطين والموحدين ، بل لا بد من دراسة كل

العلاقات التي كانت تربط الضفتين المغربية والأندلسية وكان لها تأثير على الثقافة ، وهي كما نتصورها تنحصر في خمس نقاط أساسية :

1) هجرة الأندلسيين الى المغرب .
2) انتشار الكتب الأندلسية في الأوساط المغربية .
3) الرحلة العلمية التي كان يعقدها المغاربة الى الأندلس.
4) الجهاد المقدس الذى كان يشارك فيه المغاربة كل سنة .
5) العلاقات التجارية بين العدوتين .

فهناك عاملان يخصان الأندلسيين وعاملان يخصان المغاربة وعامل مشترك بينهما . فقد كان لكل لهذه العوامل مجتمعة أكبر الأثر في بعث النهضة العلمية المغربية وتلقيحها بالثقافة الأندلسية .كما سنوضح ذلك بعد حين .

الفصل الثاني : — عوامل انتشار الثقافة الأندلسية ببلدان المغرب .

أ — الهجرات الأندلسية الى بلدان المغرب (اسبابها — أنواعها) .

ب — هجرة العلماء (المقرئون — المفسرون — المحدثون — الأصوليون والفقهاء — الأدباء — علماء الحكمة) .

ج — الرحلة العلمية الى الأندلس .

د — الجهاد المقدس .

هـ — العلاقات التجارية .

– أ – الهجرات الأندلسية الى بلدان المغرب (أسبابها – أنواعها) .

ان العلاقات التي كانت تربط بين العدوتين : المغربية والأندلسية ، قديمة قدم التاريخ . الا أن انتعاشها وفتورها كانا مرهونين بالظروف السياسية التي تخضع لها المنطقة .

اذ من يلقي نظرة عجلى على تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط، يجد أن دول هذه المنطقة عاشت طول حياتها ، متداخلة فيما بينها ، تداخلا ، يصعب معه ، في بعض الأحيان ، ارجاع سكان منطقة ما من مناطقه الى أصل واحد ، أو نسبة حضارة من الحضارات التي تعاقبت عليها ، الى جنس معين بذاته . وهذا لحركة المد والجزر الدائمة التي كانت تنتظم كل دول المنطقة وذلك منذ فجر التاريخ .

فما من أمة استولت على ضفة من ضفتي البحر ، الا وطمحت للاستيلاء على الضفة المقابلة لما تراه من تلازم بينهما ، خاصة في المنطقة الغربية من الحوض ، حيث تقرب المسافة بين الضفتين .

فالشيء الذى ساعد على اتصال أوروبا (ايطاليا واسبانيا) بشمال افريقية هو ، في الواقع ، وجود مضيقي : صقلية وجبل طارق . حيث يفصل الأول منهما ايطاليا عن افريقية – تونس – بنحو 130 كلم بينما يفصل الثاني منهما اسبانيا عن المغرب بأقل من 90 كلم .

وميزة هذين المضيقين تكمن في كونهما المنفذين الوحيدين اللذين يتحكمان في مراقبة الضفتين ، الشمالية والجنوبية ، ويسمحان بالاستيلاء عليهما بأيسر الأسباب .

ولعل أول من تفطن لأهمية هذين المنفذين هم الفينيقيون عندما دخلوا شمال افريقية كتجار، اذ نجد من بين مراكزهم الأولى التي انبثت على كل سواحل البحر الأبيض المتوسط، تلك التي أسسوها في الشمال الغربي من جزيرة صقلية، منها "بليرمة" و "سلديس"(1).

ثم المراكز التي أنشؤها في أقصى المغرب وأعني بها "تموزدا" و "طنجة"(2)، وبذلك تمت لهم السيادة على هذا الجزء الغربي من البحر الأبيض، كما سهل لهم ذلك عملية الاستيلاء على الضفة المقابلة.

وعندما جاء الاحتلال الروماني تسرب من نفس المنافذ التي تسرب منها الفينيقيون فاستولوا أولا على صقلية ثم على جبل طارق، وبذلك استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على جميع المناطق التي كانت تحت نفوذ القرطجنيين.

وكذلك فعلت القبائل الجرمانية التي زحفت من شمال اوروبا على هذه المناطق على دفعتين وأعني بها : الوندال، ثم القوط.

وقد ازدادت أسباب هذا الاتصال بين الضفتين قوة عندما دخل الاسلام بلدان شمال افريقية، ثم امتد منها الى الأندلس. غير أن أسبانيا لم تلبث أن انفصلت سياسيا عن بلدان المغرب وبقية الأقطار الاسلامية الأخرى وذلك عندما دخلها عبدالرحمن الأول. فابتدأت منذ ذلك العهد تتكون لها حضارة خاصة بها ازدهرت في فترة وجيزة جدّا حتى أصبحت تضاهي حضارة المشرق.

الا أن هذا الانفصال السياسي بين الضفتين الشمالية والجنوبية لم يدم طويلا، اذ ما كادت تتركز الدولة الأموية وترسي قواعدها بالأندلس حتى بدأت تفكر في ضم بلاد العدوة خاصة بعدما نشطت الدعوة الشيعية وبدأت تهدد سواحلها الجنوبية.

---

(1) - Stéphane Gsell . Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord. T.1. PP. 407-409.

(2) المرجع السابق.

وكان أول من فكر في تنفيذ هذه الفكرة من أمويي الأندلس عبدالرحمن الناصر "فقد سما له أمل في ملك العدوة فخاطب ملوك الأدارسة وزناتة .... فبادر محمد بن خزر الى اجابته وطرد أولياء الشيعة من الزاب وبث دعوة الأمويين في أعمال المغرب الأوسط ماعدا تاهرت . ثم فتح الناصر سبتة سنة تسعة عشر (أي 319) ...."[1] ثم استولى على طنجة بعد ذلك من يد أبي العيش[2].

وهكذا تم لعبدالرحمن الناصر الاستيلاء على الضفة المقابلة لشبه الجزيرة . وعاد الاتصال كأشد ما يكون بين القطرين ، وصارت "قواد الناصر وجيوشه تعبر من الأندلس الى العدوة ، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم ، والناصر ممد لمن عجز منهم برجاله مقو لمن ضعف بماله ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب ، وبايعته قبائله من زناتة والبربر ..."[3]

وعندما قامت الدولة العامرية بالأندلس فرضت سيطرتها هي الأخرى على بلاد العدوة فانقادت له ولايته من بعد فترة من الزمن الى أن تضعضعت الأندلس اثر الفتنة الكبرى بعد انقراض الدولة العامرية . فاستقل المغرب ، وبعدت الشقة بين القطرين من جديد الى أن جاء المرابطون فوحدوا بينهما توحيدا لم يسبق له مثيل .

كل ذلك ينبيء عن شدة الاتصال الذى كان يربط بين بلدان شمال افريقية وشبه الجزيرة الأيبيرية . كما ينم عن التكافوء الذى كان بينهما ، وافتقار كل من القطرين للآخر . اذ لا تكاد تنقطع بينهما الأسباب فترة من الزمن ، حتى يعود الاتصال بينهما كأشد ما يكون .

---

(1) ابن خلدون : العبر: ج . 7 . ص : 55 ــ انظر كذلك ابن عذارى : البيان : ج . 2 . ص: 204 .
(2) السلاوى : الاستقصاء : ج . 1 . ص: 178 .
(3) ابن خلدون : العبر: ج . 6 . ص: 278 ــ انظر كذلك السلاوى المرجع السابق .

وقد تجلت مظاهر هذا الاتصال ، في العهود الأولى في العلاقات الاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية والسياسية خاصة . كما تجسمت فيما تركه الأندلسيون المهاجرون من آثار عمرانية وغيرها ، بالمنطقة المغربية التي هاجروا اليها .

وعندما جاء الاسلام ، تعززت هذه الروابط أكثر فأكثر بما أضاف اليها من أسباب الاتصال الجديدة التي منها : اللغة والدين . فانصهرت الضفتان في بوتقة واحدة ، وتم الاندماج بين سكان العدوتين بما توفر لهم من أسباب الاتصال بالمساكنة والمصاهرة فقويت وشائج القربى بين الشعبين وبقيت روابطها راسخة ما يزيد على الثمانية قرون .

والذى نسعى اليه من وراء كل هذا ، هو اظهار ما تركه هذا الاتصال المباشر بين كل من الأندلس والمغرب من الآثار الثقافية والحضارية التي انتقلت بذورها على يد المهاجرين الأندلسيين الذين نزحوا الى بلدان المغرب في القرنين السادس والسابع الهجريين .

قد يتساءل القارىء عن امكان حدوث هجرات وقعت في هذه الفترة المبكرة ، لأنّ الذى اشتهر منها حتى الآن هي تلك التي فاضت على شمال افريقية اثر اشتداد حركة الاسترداد الاسباني ، وتلك التي اعقبت محاكم التفتيش أوجاءت قبلها بقليل .

فالواقع ، أن التاريخ لم يعر أى اهتمام للهجرات التي وقعت قبل اشتداد حركة الاسترداد . أو قلْ عنه أنه لم يعط حركة النزوح التي كانت تقع بين الضفتين آنذاك طابع الهجرات بمعنى الكلمة . وهذا ، لعدة أسباب نلخص أهمها فيما يلي :

— ان الهجرات التي كانت تقع في الفترة التي سبقت الدولة الموحدية قليلة ، اذا ما قيست بتلك التي وقعت عقب محاكم التفتيش لذلك لم يشتغل المؤرخون بتدوينها اذ لم تكن تشكل ظاهرة بارزة .

-أضف الى ذلك أن القطرين كانا ، في واقع الأمر ، تحت حكم دولة واحدة، وهذا منذ عهد عبدالرحمن الناصر الى أواخر العهد الموحدي. وقد كان التنقل مسموحا به بين الضفتين لكل من أراد ذلك ، ولاشك أن كثيرا من أهل الشمال قد نزحوا الى بلدان المغرب واستقروا بها ، وليس أدل على ذلك من آثارهم التي خلفوها في هذه المناطق ، غير أن المؤرخين كانوا ينظرون الى تلك الهجرات على أنها تنقلات عادية يقوم بها مواطنون بين أجزاء وطن واحد ، طبقا لما تمليه عليهم مصالحهم الشخصية . لذلك لم يهتموا بها كهجرات . اللهم الا فيما يتصل بعلية القوم وسراتهم نظراً للمناصب التي كانوا يشغلونها ، عند نزوحهم الى المغرب ، حيث كانت الدولة في حاجة اليهم . أما طبقات العوام بكل ما تضمه من تجار ، وصناع ، وزراع ، وحرفيين ، فلم يرد لهم أدنى ذكر ، اللهم الا ما جاء عفوا وفي شكل استطراد في كتب التاريخ اوالتراجم او الرحلات .

- وهناك سبب آخر جعل المؤرخين لايعطون هذا النزوح الذي كان يقع من الأندلس الى المغرب في تلك الفترة صفة الهجرات، وهو أن أغلب هؤلاء الأندلسيين المهاجرين الى شمال افريقية هم في الواقع أفارقة ، اضطرتهم ظروف معاشية أو سياسية في وقت ما للنزوح الى الجزيرة ، وعندما تغيرت تلك الظروف ، رجعوا ، هم أنفسهم ، أو أبناؤهم أو أحفادهم الى منبتهم الأصلي حيث لا يزال لهم أهل وعشائر بمواطن متفرقة في بلدان المغرب[1].

فلا شك أن المؤرخين كانوا ينظرون الى أولائك النازحين ، رغم المدة التي قضوها في الأندلس على أنهم أفارقة ، رجعوا الى أرضهم الأصلية ، ليس غير .

---

(1) انظر ماقاله كل من البكري في المسالك ، ص : 96—97 — وابن الخطيب في تاريخ المغرب ، ص : 176—177 — عن هجرة أمراء دولة بني نكور الى الأندلس عندما زحف عليهم العبيديون ، ثم عودتهم الى بلادهم عندما انجازوا عنها .

أما عن الأسباب التي كانت تدعو سكان العدوتين الى الهجرة فهي كثيرة ومتعددة الا أنها ترجع في واقع أمرها الى سببين رئيسيين هما : الرغبة أو الرهبة . وان اتخذت مظاهر شتى : كالجهاد مثلا ، وطلب العلم أو نشره ، وطلب الرزق ، وما الى ذلك

فالهجرات التي وقعت من المغرب الى الأندلس، أيام الفتح الأولى ، كانت أسبابها ، بصفة عامة ، طلب الرزق . وهذا ما يؤكده المقري في النفح بقوله : " وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس، وسعة المغنم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق "(1).

أما الهجرات التي وقعت بعد ذلك من الشمال الى الجنوب ، أي من الأندلس الى المغرب فكان سببها الرئيسي هو الخوف . خاصة، عندما اشتدت حركة الاسترداد .

وهناك سبب آخر للهجرة قد لا يدخل ضمن السببين المتقدمين، وهو ما نسميه بالنفي ، أو التغريب ، أو التهجير القسري . وهذا كثيراً ما يتخلف عن الحروب أو الاختلافات السياسية .

وفي الهجرات المغربية الأندلسية عينات من كل هذه الأنواع التي ذكرناها آنفا .

والذي يهمنا من كل هذه الهجرات الجماعية هو ما ساهمت به هذه الجاليات الأندلسية من جهود في البناء الحضاري ببلدان المغرب ، وما ترتب عن ذلك من انعكاسات على الحياة الثقافية بها .

فأبرز النواحي التي تجلت فيها آثار المهاجرين الأندلسيين الأوائل ، هي المدن الساحلية التي كانوا يعمرونها بكثرة ، خاصة

---

(1) المقري : نفح الطيب : ج.1. ص: 209.

منها تلك التي كانت تتمتع بمرافيء آمنة . نذكر من بينها "فضالة" التي كان مرساها من أهم المراسي التجارية التي كانت ترد اليه المراكب من بلاد الأندلس . وكذلك مرسى "سلا" الذي كانت له علاقة كبيرة بمدينة اشبيلية ، وقد كانت كل من "سبتة" و "طنجة" وماوالاهما على طول الساحل المغربي أقرب أن تنسب الى الأندلس منها الى المغرب لكثرة الأندلسيين بها . وكانت تعد من مراكز الاشعاع الأولى التي عملت على نشر الثقافة الأندلسية ببلدان المغرب .

والتاريخ يحدثنا عن كثير من المدن في سواحل شمال افريقية قام بتخطيطها الأندلسيون المهاجرون أنفسهم . نذكر على سبيل المثال منها مدينة "أرزيو" التي قال عنها البكري أنها كانت في القرن الخامس عبارة عن أطلال رومانية . ولم يكن فيها سوى ثلاثة حصون بمثابة رباطات على الجبل المشرف على "أرزيو" الحالية [1].

ويقال ان هذه البلدة قد قامت ، كغيرها من بلدان الساحل ، بدور عسكري وديني هام . والذي لعب هذا الدور ، هم ، الأندلسيون المهاجرون اليها . وكانوا هم الذين أمدوا الموحدين بعد ذلك بالسفن اللازمة لاحتلال افريقية (تونس) [2].

ومن هذه المدن الساحلية "وهران" . قال عنها صاحب الموسوعة الاسلامية بنيت في أوائل القرن العاشر الميلادي 290 هـ . من طرف الأندلسيين الذين هاجروا الى تلك المنطقة [3]. وبعض هذه الجماعات الأندلسية جاؤا مع القائدين الأمويين : محمد بن أبي عون ، ومحمد بن عبدون لابرام اتفاقية مع القبائل البربرية الساكنة بتلك الناحية [4].

---

(1) البكري : المغرب . ص : 70 .
(2) انظر مادة E.C.I. Arzeu
(3) المرجع السابق مادة (Oran)
(4) المرجع السابق .

ويبدو أن هذه المدينة كانت ذات حركة تجارية هامة. اذ نجد البكرى يصفها بقوله : "بها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافعة ... ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس"(1).

والذى رشحها لأن تكون من المراكز التجارية الهامة هو، ولاشك، توسطها بين مرسيي "أرزيو" و "المرسى الكبير" اللذين يعدان من أهم المرافىء بتلك المنطقة.

ومن المدن التي بناها الأندلسيون المهاجرون، أيضا، مدينة "تنس" التي قال عنها البكرى "أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركزى، وأبو عائشة، والصقر، وصهيب، وذلك سنة 262 هـ. 875م. وكان يسكنها فريقان من أهل "البيرة" وأهل "تدمير". وأصحاب "تنس" من ولد ابراهيم بن محمد ابن سليمان بن عبدالله بن حسن بن حسين بن علي. وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتّون هناك اذا سافروا من الأندلس، في مرسى على ساحل البحر. فتجمع اليهم بربر ذلك القطر ورغبوهم في الانتقال الى "قلعة تنس"، وسألوهم أن يتخذوها سوقا، ويجعلوها سكنى، ووعدوهم بالعون، والرفق، وحسن المجاورة والعشرة. فأجابوهم الى ذلك، وانتقلوا الى القلعة، وخيموا بها. وانتقل اليهم من جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم. فلما دخل عليهم الربيع، اعتلوا واستوبؤا الموضع، فرحلوا عنه"(2).

وقد اتخذها الأمويون بالأندلس منفى لمناوئيهم(3).

ويبدو أن "تنس" لم تكن مجرد مرسى، ولكن مستعمرة كبيرة تابعة لألميرية بجاية الأندلسية التي كانت في منتصف القرن التاسع الميلادى مقر جمهورية أقامها هؤلاء البحريون الأندلسيون(4).

---

(1) البكرى : المغرب ص : 70 — انظر كذلك ياقوت : معجم البلدان ج. 4. ص: 942.
(2) البكرى : المغرب ص: 61—62. انظر كذلك ياقوت: معجم البلدان ج. 1. ص: 877. — دائرة المعارف الاسلامية مادة (تنس).
(3) المرجع السابق مادة (تنس)   (4) المرجع السابق.

ومن المراسي التي شاركوا في بنائها مرسى مدينة " جزائر بني مزغنة" [1] (عاصمة الجزائر الحالية) ومرسى الدجاج [2]، وكانت مدينة بجاية [3] ، من بين المدن الساحلية التي كان يرتادها الأندلسيون بكثرة ، وتعمرها جاليات كبيرة منهم .

ولا شك أن انتجاعهم لهذه المراسي لم يكن من قبيل المغامرة ، ولكن كان يجذبهم اليها ما يلاقونه في أسواقها من رواج لسلعهم ، وما تدرهم عليهم من أرباح طائلة . حتى ان كثيرا منهم فضل الاقامة بها . فكان ذلك سبيلا في انتعاش كل أوجه النشاط الاقتصادية بها ، والاجتماعية ، والثقافية .

فلسنا ، اذن ، مبالغين اذا نحن اعتبرنا ، أن هؤلاء المهاجرين الأوائل هم الناقلون الحقيقيون لبذور الثقافة الأندلسية الى بلاد المغرب . ولم يقتصر المهاجرون الأندلسيون على الاستقرار في المدن الساحلية وحدها بل منهم من وصل الى حدود " أغمات" بالجنوب المغربي . منهم الربضيون الذين نفاهم الحكم بن هشام اثر الثورة التي اشعلوها ضده . وهم يكونون عددا ضخما ، يقدر ابن أبي زرع عدد الذين استقروا منهم " بفاس" وحدها بثمانية آلاف بيت [4].

ويبدو أن مجموعات أخرى كبيرة منهم نزحت من الأندلس وانتشرت في أنحاء متفرقة من بلاد المغرب . غير أن النصوص التي بين أيدينا ، موجزة بشكل لا يسمح بتكهن عدد أفرادها ، ولا بتحديد المناطق التي استقرت بها تحديدا دقيقا .

فقد أشار البكري الى مجموعة من هؤلاء الربضيين ، عرضا ، وهو بصدد وصف الطريق بين فاس وأغمات . قال : " ومن " وزيغة " الى مدينة " أغيغي "

---

(1) البكري : المغرب : ص 66 .
(2) المرجع السابق .
(3) الادريسي : وصف افريقية الشمالية . ص : 90 وما بعدها .
(4) ابن أبي زرع : القرطاس : ص : 47 .

— ومعنى أغيغي حجارة يابسة ، لأنها مبنية بالحجارة بغير طين — هي اليوم خالية . كان القوم الذين بنوها وسكنوها من ربضيةالأندلس"(1).
وهذا يعني أن الربضيين قد توغلوا في البلاد الى قرب أغمات . وكانوا من الكثرة بحيث استطاعوا أن يؤسسوا مدينة كاملة ذات هندسة خاصة في البناء لم يألفها المغاربة . الشيء الذي دعاهم لتسمية المدينة باسم أغيغي أي : مدينة الحجارة .

وقد أشار الى مجموعة أخرى كانت توجد بموضع يعرف " بأزقور" قال " كان سكنه قوم يعرفون ببني موسى ، من ربضية الأندلس ، فاستفسدوا الى من جاورهم . وأساءوا عشرتهم ، فحاربوهم ، فغلب الأندلسيون ، وقتل منهم كثير ، وافترق باقيهم ببلاد أغمات ، وبقي منهم بأزقور نفر يسير بالأمان ، فهم بها الى اليوم "(2).

فأقل ما يفهم من هذا النص أن مجموعة الربضيين الذين قصدوا اوزقور كانوا قوة لايستهان بها من حيث العدد والا لما تجرؤا على شن حروب سافرة ضد الأهالي .

بل من هؤلاء الربضيين من وصل الى " جبال فازاز " في قلب الأطلس حيث استقر بعض القرطبيين (3).

واذا ما جئنا نتتبع هذه الهجرات القسرية التي وقعت بعد ذلك ، نجد نوعا آخر منها في أواخر الدولة الحمودية أعني الدولة الادريسية التي تكونت قبيل الطوائف بالأندلس .

نحن نعلم أن الدولة الادريسية عندما انقرضت بالمغرب ، انتقل باقي أفرادها الى الأندلس وانضموا تحت لواء العامريين الى أن انقشعت ثورة

---

(1) البكري : المغرب ص : 155 .
(2) المرجع السابق .
(3) عبدالعزيز بنعبدالله : مظاهر الحضارة المغربية : ص : 9 — ط. الأولى القسم الثاني 1958 .

البربر التي اجتاحت بلاد الأندلس قبيل الطوائف عن ارتقاء سليمان المستعين الى الحكم بفضل مساعدة البربر له فجازاهم على صنيعهم بأن اقطعهم اقطاعات في جنوب الجزيرة وكان من بين هؤلاء المغاربة زعيمان من بقايا السلالة الأدريسية، وهما القاسم بن حمود وعلي بن حمود، فولى سليمان الأول منهما الجزيرة الخضراء، وولى الثاني سبتة وطنجة وما حولهما[1] فتكونت بهذه المنطقة الجنوبية من اسبانيا عدة امارات بربرية أهمها بعد غرناطة التي كانت تحت حكم بني مناد وبني زيري، امارة بني برزال في قرمونة وامارة بني يفرن في رندة وامارة بني خزرون في اركش[2]، وكانت أغلب هذه الامارات خاضعة بالولاء لبني حمود الذين يسيطرون على المثلث الجنوبي الأسباني والثغور الشمالية من بر العدوة، وقد دام حكمهم لهذه المنطقة زهاء نصف قرن الى أن ضعف أمرهم بعد وفاة ادريس العالي سنة 446 — 1054 فأجمع زعماء البربر أمرهم على نفي الحسينيين عن الأندلس الى العدوة[3].

فلا شك أن هؤلاء كانوا يعدون بالمئات اذ لا يمكن أن يقتصر النفي على الحسينيين وحدهم بل لابد أن يكون قد شمل عشائرهم وكل حلفائهم .

ولا يخفى ما يمكن أن تتركه أمثال هذه الهجرات من آثار في الأماكن التي استقروا بها ، خاصة ، وأن أفرادها كانوا يمثلون زبدة المجتمع الأندلسي . الفوا حياة راقية ، وتثقفوا ثقافة عالية . فلا بد أن يكونوا قد حاولوا خلق ذلك الجو الذى تعودوا عليه ، في مهجرهم الجديد .

---

(1) المراكشي : المعجب . ص : 90.
(2) انظر : R. Dozy : Historia Abbadiat. Vol. 2- P: 209 - 210
(3) عنان: دولة الاسلام في الأندلس : ج . 2 . ص : 603 — 604 .

وقد أخذت الهجرات الأندلسية تقوى منذ ذلك التاريخ ، نتيجة الاضطرابات التي بدأت تعم الجزيرة . اذ ما كادت تمر خمسة عشر سنة على نفي الحسينيين حتى نفي بقية البربر الى العدوة من طرف العباديين حكام اشبيلية الذين استولوا على آخر امارة لهم سنة 461 هـ.[1]

ومن الواضح أن تجمع هذه الممالك البربرية الصغيرة في هذه المنطقة ، يرجع الى عوامل امنية وعسكرية . وذلك ان المثلث الاسباني هو أقرب مناطق شبه الجزيرة الى المغرب ، بحيث تغدو مغادرة الأندلس في وقت الخطر ، أو عند الضرورة أمرا ميسورا[2].

ومما يؤيد ذلك ، ما أوصى به المعتصم بن صمادح ابنه عزالدولة عند احتضاره ، وكان المرابطون قد أخذوا في اقالة ملوك الطوائف عن عروشهم ، حيث قال له : " اذا ما سمعت بخلع أمير اشبيلية ، وهو قطب الجزيرة ، عليك بمغادرتها بأهلك الى بني حماد أمراء القلعة"[3].
وذلك ما فعله المعز بمجرد أن أقيل ابن عباد . وقد أكرم الحماديون وفادته وأقطعوه ولاية " تدلس" فأصبحت بفضل سكانها الجدد مركزا ثقافيا هاما ، وحاضرة مزدهرة . استعرب كل من كان بها من البربر لدرجة أنهم نسوا البربرية لغة وأخلاقا وعوائد .

ويدخل في التغريب جماعة ملوك الطوائف الذين أمر ابن تاشفين باقالتهم ، وترحيلهم الى بلاد العدوة . وعلى رأسهم ابن عباد صاحب اشبيلية ، وعبدالله بن بلكين ، وأخوه صاحب مالقة .

ولم يكن هؤلاء ليغربوا بمفردهم ، طبعا ، ولكن صحبة عشائرهم وذويهم .
وهناك أسرى الحرب الذين كانوا يجلبون من الأندلس . فهم يعدون بالآلاف .

---

(1) عنان : دول الطوائف : ص : 154.
(2) المرجع السابق .
(3) لسان الدين بن الخطيب: اعمال الاعلام: ص: 191 — تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : ص: 97.

فقد روى أن الأمير تاشفين غزا "أشكونة" مرة فاصطحب معه الى المغرب ستة آلاف أسير[1]. كما ذكر أن يعقوب المنصور سبا في احدى غزواته "للشبونة" و"شنترين" ثلاثة عشر ألف أسير[2].

ويدخل ضمن هذا التهجير القسري، المعاهدون الذين افتى ابو الوليد بن رشد الجدّ بتغريبهم من الأندلس، وقد كانوا يشكلوا عددا كبيرا من مختلف الشرائح الاجتماعية .

ولعل أكبر هجرة جماعية قصدت بلدان المغرب في العهد الموحدى هي تلك التي جاءت من شرق الأندلس اثر سقوط كل من بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر في يد المسيحيين الاسبان سنة 637 ، وكان الرشيد الموحدى قد أصدر في حقهم ظهيرا يبيح لهم سكنى رباط الفتح وتعميره[3].

وقد تأثرت بلدان المغرب بكل هذه الحركات الدائبة التي كانت في مدّ وجزر بين ضفتي البحر الأبيض منذ الفجر الاسلامي الأول . فظهرت آثار هذه الهجرات الجماعية واضحة في جميع المجالات في أهمّ الحواضر المغربية . وبدأت مساجد فاس وتلمسان ومراكش وطنجة وسبتة والجزائر وبجاية وتونس تنتعش بفضل من أمها من علماء الأندلس . وأخذ أبناء المغرب يتوافدون عليهم من كل مكان . وعلى أيدى هؤلاء الأندلسيين الذين هاجروا الى المغرب تخرجت الدفعات الأولى من علمائه .

---

(1) شكيب أرسلان : الحلل السندسية : ج . 1 . ص : 46 .
(2) ابن أبي دينار : المؤنس . ص : 119 .
(3) مخطوط الاسكوريال رقم 520 ، ورقة 115 .

ب — هجرات العلماء :

لقد تكلمنا حتى الآن عن العلاقات التي كانت تربط القطرين : الأندلسي والمغربي قبل القرن السادس، واقتصرنا على ذكر الهجرات الجماعية التي وقعت من الأندلس الى المغرب، وما تركته من آثار في الميدان الحضاري بصفة عامة .

نريد الآن أن نتكلم عن مؤثر آخر من المؤثرات الثقافية الذى كان له الفضل الأكبر في نشر الثقافة الأندلسية في هذه الربوع ونعني بذلك تلك الهجرات الفردية التي بدأت منذ أواسط العصر المرابطي واستمرت الى ما بعد العهد الموحدى . نتيجة للانقلاب السياسي الذى وقع بكل من الأندلس والمغرب بعد أن أزيح امراء الطوائف عن عروشهم وضمت الضفتان في شكل دولة واحدة . ونستطيع أن نسمي هذه الهجرات بهجرات العلماء ، لأن أصحابها كانوا يمثلون زبدة المجتمع الأندلسي من حيث الثقافة ، فقد كان أغلبهم يشغلون مناصب خطيرة في الدويلات التي كانوا ينتمون اليها . فوجدوا في بلاط المرابطين ثم الموحدين من بعدهم ما يعوضهم عن مناصبهم ، فنزحوا الى بلدان المغرب زرافات ووحدانا ، كما وجد المغاربة فيهم ضالتهم المنشودة للتسيير الادارى ، والتنشيط العلمي ففتحوا لهم الباب على مصراعيه فانقطع اليهم في عهد المرابطين من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرتهم حضرة بني العباس في صدر دولتهم على حد تعبير المراكشي (1) وكان عبد المؤمن يستدعيهم من كل البلاد للمكوث بجواره يجرى عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم(2) . وكان أبو يعقوب يوسف يحيط نفسه بأنبغ من اخرجته الأندلس من العلماء عرفهم به وقربهم اليه صديقه ابن طفيل تلميذ

---

(1) المراكشي : المعجب . ص : 227 . ت . العريان .
(2) المرجع السابق . ص : 239 ـ 242 .

ابن باجة أحد جهابذة الفلسفة كما نعلم . وكانت مجالس المنصور الموحدى يحضرها افذاذ العلماء الأندلسيين كأبي بكر بن الجد ، وابي الحجاج المفسر المشهور ، وعبدالله بن سليمان ابن حوط الله وابن زهر الطبيب وابن رشد الفيلسوف ، وغيرهم كثيرين . فلحن لا يمكننا أن نحصر العلماء الأندلسيين الذين هاجروا الى بلدان المغرب في هذه الآونة مهما حاولنا ذلك ، فهم يعدون بالآلاف ، فيكفي المرء أن يتصفح بعض كتب التراجم التي الفت في رجال هذا العصر : كالصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الآبار وصلة الصلة لابن الزبير ومؤلفات كل من ابن سعيد وابن الخطيب والمقرى وغيرهم ليدرك حجم حركة التنقلات النشيطة التي كان يقوم بها هؤلاء العلماء بين بلدان كل من العدوتين : المغربية والاندلسية .

ولكن الذى نرمي اليه هو ابراز الدور الايجابي الذى قام به بعض الأفذاذ من هؤلاء العلماء الذين استقروا بالمغرب في اثراء الثقافة المغربية وتوجيهها والتأثير فيها ، خاصة، باعتبارهم الطليعة المثقفة التي استعان بها الموحدون لسد الفراغ الذى كانت تشكوه البلاد في الميدان الثقافي بصفة عامة ، خاصة وأن هؤلاء الحكام قد فوضوهم تفويضا كاملا للقيام بهذه المهمة .

ولم تكن هجرة العلماء الأندلسيين مقصورة على من انتقاهم الحكام للأشراف على المؤسسات التعليمية الخاصة او للتدريس بالمدارس المتخصصة أو لتسيير الدواوين ، والمصالح الحكومية المختلفة والمنتشرة في بعض البلدان الكبرى ، ولكن كان المغرب يشكل بالنسبة للأندلسيين في هذه الآونة المهجر المثالي الآمن ، الذى كانوا ينشدونه ، خاصة، بعد ما بدأ شبح الخوف يطاردهم في بلدانهم . فهناك طبقات كبيرة من هؤلاء العلماء هاجروا الى المغرب مرغمين خوفا على أرواحهم لذلك كان الكثير منهم يقنعون بالاقامة حتى في القرى النائية والمداشر البعيدة ويرضون بما تيسر لهم من أسباب الرزق فيها ، فكان ذلك من أهم العوامل التي ساعدت على نشر التعليم في هذه المناطق الداخلية للبلاد .

أما العلماء الذين كانت لهم شهرة فائقة في بلدانهم فقد استهوتهم مناصب التدريس الشاغرة في المساجد والمدارس والزوايا ، المنتشرة في كبريات المدن كمراكش ، وفاس ، وتلمسان ، والجزائر ، وبجاية وتونس ، كما جلبتهم مناصب القضاء وما يحتاج اليه هذا الميدان من مستشارين وعدول ، وموثقين وما الى ذلك . هذا الى جانب الوظائف العليا بالدواوين والمصالح الحكومية الأخرى .

هذا بالاضافة الى أولائك العلماء الأندلسيين الذين كانوا يأمون بلدان المغرب كزائرين مؤقتين للالتقاء ببعض العلماء بها ، مثلا او لاتمام تعليمهم خاصة بعد أن ازدهرت حركة التعليم بها ، أو للرواية عن عالم مشهور استقر باحدى المدن الكبرى كبجاية مثلا ، أو فاس ، أو مراكش . وكثيرا ما كان هؤلاء العلماء يستطيبون الاقامة بمنازلهم الجديدة فيستقرون بها نهائيا . نذكر من بينهم على سبيل المثال عبد الحق بن خليل بن خلف السكوني اللبلي (ت . 580) الذى تعلم ببلده على أبيه وروى عن ابن العربي وعياض وغيرهم ورحل الى فاس حيث قرأ علم الكلام على السلالقي وقرأ أيضا عليه أصول الفقه كما قرأ علم العربية على أبي بكر بن طاهر الخذب [1].

ومنهم عبد الصمد بن عبد الرحمن بن ابى رجا البلوى (ت . 623) من وادى آش تعلم بالأندلس ثم رحل الى سبتة حيث أخذ على أبي بكر بن رزق وابي محمد بن عبد الله وغيرهما ، وأخذ بمدينة فاس عن أبي عبد الله ابن الرمامة وغيره [2].

وهناك العلماء الذين كانوا يقصدون المشرق لأداء فريضة الحج فيمرون على بلدان المغرب يقيمون بها بالأشهر يدرسون بمساجدها اختصاصاتهم ،

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 8 . ت . ليفي بروفنسال ، الرباط 1938 .
(2) المرجع السابق ، رقم 23 .

ويملون مؤلفاتهم على الطلبة بل ويؤلفون فيها أحيانا .
ومن بين هؤلاء نذكر العالم الجليل ، الفقيه المالكي أبا محمد عبدالحق ابن عبدالرحمن الأزدي الأشبيلي (ت . 582) ، كان قد مرّ في أواخر العهد المرابطي ببجاية قاصدا البقاع المقدسة فتعطلت باخرته فمكث بها متفرغا للتدريس والتأليف ونشر العلم فأنشأ بها نهضة علمية بالغة . وقد ألف بها مؤلفاته التي اشتهر بها كتابي " الأحكام الكبرى " و " الأحكام الصغرى " وكتاب " الجمع بين الصحيحين " ، و "اختصار كتاب أبي محمد الرشاطي " و " كتاب الرقائق " الى غير ذلك واعتنى الناس بمؤلفاته وانتشرت في كل بلدان المغرب والأندلس . وكان الى جانب ذلك شاعرا مطبوعا يزاحم فحول الشعراء الا أنه قصر شعره على باب الزهد .

وكان يرى دعوة المهدي وتعاليمه بدعة في الدين . لا يحل لمسلم اتباعها . وقد سعى الموحدون ، رغم ذلك لاكتساب رضاه فعرضوا عليه خطتي القضاء والخطبة ببجاية الا أنه رفض أن يتعاون معهم . ولم يستطع هؤلاء أن يمسوه بسوء ، لجلالة قدره ، وما كان يتمتع به من نفوذ في الأوساط العلمية[1]. وكان هذا العالم الأندلسي تشد اليه الرحال من كل بلدان المغرب ، بل ومن الأندلس . ولا يكاد يمرّ عالم على بلاد المغرب دون أن يقصده ويأخذ عنه .

وفي كل ذلك ما فيه من نشر للثقافة الأندلسية وتعميمها بهذه الربوع وقد استطاع الموحدون أن يحسنوا استغلال هذه الطاقات العلمية الهائلة التي أمت بلدانهم بفضل المستظيمات التي أحدثوها في الطرق والمناهج وتنسيق العلوم وتصنيفها حيث جعلوا على رأس كل صنف عالم متخصص مهمته التوجيه ، والتنشيط ، وجلب العلماء القادرين ، وتشجيعهم على التأليف وما الى ذلك .

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 9.

— الطرقون والمفسرون :

لقد سبق لنا أن بينا أن الدعوة الموحدية كانت ترتكز أساسا، على الاصلاح الديني، بهدف الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله. لذلك كان الخلفاء الموحدون يحطون أهمية بالغة لكل ما يتصل بالقرآن الكريم والحديث النبوى. وعلى الرغم من اقتناع بعضهم "بالمهدوية" وتقديسهم لما جاءت به من تعليمات. الا أنهم متفقون بالاجماع على اعطاء الأولوية لمصادر التشريع.

ولقد عبر المنصور الموحدى صراحة عن هذه الفكرة حينما التقى بأحد الطلبة الأندلسيين بجيان، بعد عودته من غزوة الأراك، فسأله الخليفة عما قرأه من العلم فقال له: قرأت تواليف ابن تومرت. فرد عليه قائلا: "ما هكذا يقول الطالب، انما حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئا من السنة، ثم بعدها قل ما شئت"[1].

فهذا معناه عندهم أن القداسة المطلقة انما هي لمصادر التشريع الأولى. فلا نعجب، اذن، للحماس البالغ الذى كان يوليه هؤلاء الخلفاء الأوائل لكل ما يتصل بالكتاب والسنة، وقد اهتموا اهتماما خاصا بالتفسير والقراءات، حيث كانوا هم أنفسهم قراء ومجودين. فقد وصف المراكشي أبا يعقوب يوسف "بأنه كان أحسن الناس ألفاظا بالقراءات"[2] وقال عنه أنه حفظ أحد الصحيحين في حياة أبيه، بعد تعلم القرآن[3]. وهذا يعني أنه بدأ بالقرآن فجوده حتى أصبح أحسن الناس ألفاظا به، ثم ثنى بالحديث.

وكان المنصور مغرما بالترتيل لايمل سماع المجودين وكان يصحبهم معه حتى في أسفاره.

---

(1) المراكشي / المعجب ص: 369.
(2) المراكشي: المعجب: ص: 237.
(3) المرجع السابق — وقال عنه صاحب الصلاة في: المن بالامامة: ص: 289 مايلي: "كان الأمير أبو يعقوب يوسف، كاملا، فاضلا، عدلا، ورعا، مستظهرا للقرآن كتاب الله تعالى في ناسخه ومنسوخه، قارئا لنصه، حافظا على وقفه وابتدائه...."

وقد تجلى اهتمامهم بهذا العلم في كثرة المفسرين والمقرئين الأندلسيين الذين استدعوهم ، ليتعاونوا مع المغاربة في هذا الميدان .

فمن جملة هؤلاء نذكر العالم المقرئ نجبة بن يحي بن خلف الرعيني الأشبيلي المتوفي سنة 591 هـ . الذى استدعاه المنصور الى المغربه فأقام بمراكش وتصدر بها لأقراء القرآن ، وتعليم العربية ، وكان اماما في ذلك[1] . ويبدو أنه كان من المقرئين الذين يصطحبهم الخليفة معه في أسفاره . قيل عنه أنه توفي في حاشية المنصور بعد عودة الجيش من غزوة الأراك[2] .

ومن المقرئين المشهورين الذين استدعاهم الموحدون للتعليم بالمغرب علي بن محمد بن يوسف اليابري الضرير المتوفي سنة 617 هـ . درس علم القراءات بمراكش . وكان أستاذا ، أيضا ، لأبناء الخليفة المنصور في القراءة والتجويد[3] .

ومنهم يحي بن محمد بن خلف الموزني الأشبيلي المتوفي سنة 602هـ . كان قد نزل سبتة وأقرأ بها . وقد كانت تشد له الرحال من كل بلدان المغرب لتلقي علم القراءات وقواعد التجويد لتخصصه فيهما . وقد ذكر ابن الزبير أن له أراجيز حسانا في القراءات والتجويد ومخارج الحروف ، كان قد رفعها للمنصور الموحدى سنة 592 فأجازه عليها[4] .

وقد أجاز كذلك أبا الحسن علي بن محمد المرادى البلنسي على أرجوزته التي نظمها في علم التجويد وسماها " المنصف " وكان مقرئا بمراكش وقد نظم ارجوزته هذه بطلب من تلاميذته . كما كان معلما لأبناء المنصور[5] .

ومن هؤلاء المقرئين الذين استقروا بالمغرب للتعليم أبو البقا يعيش ابن علي بن مسعود بن يعيش الأنصارى المتوفي سنة 626 . كان قد تصدر

---

(1) ابن الأبار : التكملة : رقم 1879 ط. عزت العطار مكتبة الخانجي القاهرة 1956 .

(2) المرجع السابق — ملين : عصر المنصور ص : 226 .

(3) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم : 182 .

(4) المرجع السابق ، رقم : 376 .

(5) المنوني : العلوم والفنون ص: 30 — عبد الهادى : مظاهر النهضة ، ص: 76 .

للأ قراء بمراكش ثم بفاس . وقد تخرج على يديه المحدث الفاسي الكبير ابن القطان صاحب كتاب " الشمس المنير في قراءات السبع الشهيرة [1].

ومنهم علي بن عبد العزيز بن محمد بن مسعود القيسي من سكان بسطة هاجر الى فاس وعلّم القرآن بها ،وقد تخرّج على يديه قاسم ابن محمد بن عبدالله بن طويل ،امام جامع القرويين آنذاك ،ذكره ابن الأبار في الذيل وقال عنه أنه كان يقرئ بها سنة 554 هـ.[2]

ومنهم علي بن محمد الجذامي المقرئ الكفيف المالقي نزيل سبتة ،أخذ بها عنه كل من أبي العباس أحمد بن محمد اليافعي السبتي المعروف بابن المعذورة ،وروى عنه أيضا أبو القاسم بن الخرّاز السبتي [3].

وفي هذا العصر برز عالم القرآءات وامام المقرئين أبو القاسم محمد بن فيرّه الرعيني الشاطبي (538/1144 — 590/1194) الذي اشتهر خاصة بمؤلفاته في هذا الفن والتي منها أرجوزته المعروفة بـ " بحر الأماني ووجه التهاني " التي تسمى بالشاطبية نظم فيها القواعد الواردة في كتاب " التيسير " لأبي عمرو الداني ت . 444هـ. في 1173 بيتا ،وقد كانت عمدة القراء في ذلك العهد ببلدان المغرب وكان الشاطبي عالما بكتاب الله قراءة وتفسيرا [4].

فهو ،وان لم يؤثر عليه أنه أقرأ بالمغرب ،الا أن مؤلفاته كانت هي المعتمدة في هذا الفن .

ولم يقف اعتناء الموحدين بالقرآن عند حسن تلاوته واتقان تجويده فحسب ،فقد كان ذلك وسيله للتمكن من فهمه فهما جيداء

---

(1) عبد الهادى : مظاهر النهضة ،ص: 77.
(2) ابن الزبير : صلةالصلة : رقم : 182.
(3) المرجع السابق ،رقم : 175.
(4) بلنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي : ص: 406 — انظر كذلك ابن خلكان : الوفيات : ج. 3 ص: 224 — وانظر ماقاله ابن خلدون في المقدمة عن هذا الموضوع ص: 782 — 785.

لذلك اهتموا خاصة بتفسيره ليتدبروا ما جاء فيه . لكن دون أن يلجؤا الى التأويل ، أو يتجاوزوا حدّ التفسير المألوف عند أهل السنة . اذ التفسير حسبما أوضح ابن خلدون في مقدمته كان الى صنفين :

— تفسير نقلي يرتكز خاصة على " الآثار المنقولة عن السلف ، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآي "(1) وهذا يعرف بالرواية عن الصحابة والتابعين .

— وتفسير عقلي ، يعتمد ، زيادة على النقل المأثور على التوضيح اللغوى والشرح البلاغي .

وأحسن من يمثل الاتجاه الأول : محمد بن جرير الطبرى المتوفي سنة 309 والواقدى والثعالبي ، الا أن تفاسيرهم على نزاهتها كانت تشتمل على بعض الاسرائيليات حسبما ذكر ابن خلدون[2]، وعندما جاء أبو محمد بن عطية الأندلسي لخص كل التفاسير التي جاءت قبله في كتاب سماه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " وهذا بعد أن خلصها من كثير مما كان يشوبها ، وأبقى على ما هو أقرب الى الصحة منها [3]، فاشتهر كتابه بالأندلس والمغرب ، وسار على هذا النهج جمهور المفسرين في العهد الموحدى كما سار عليه القرطبي الذى اشتهر تفسيره أيضا بالمشرق[4].

ويمثل الاتجاه الثاني المفسر الجليل جار الله الزمخشرى في كتابه " الكشاف " وهو المنهج الذى سار عليه علماء الشيعة وبعض المتصوفة [5].

---

(1) ابن خلدون : المقدمة : ص : 782 — 785.
(2) المرجع السابق .
(3) المرجع السابق .
(4) المرجع السابق .
(5) عبد الهادى أحمد الحسين : مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحدى ، تطوان سنة 1402 / 1982 ، ج . 1 . ص : 80.

وقد كانت لكتاب الكشاف شهرة كبيرة ببلدان المغرب خاصة بعد أن خلصه يحي بن أحمد السكوني الليلي المتوفي سنة 626 من كل نظرياته الاعتزالية (1) ، واختصره أبو عبدالله محمد بن علي ابن العابد الفاسي المتوفي سنة 662 . وكان الاعتماد في علم التفسير مقصورا على كتابي ابن عطية ، والزمخشري وما ألف حولهما ، الى أن جاء عبدالكريم بن بقي المرسي فصنف تفسيرا جمع فيه بين "الوجيز" و "الكشاف" (2)، فغطت شهرته على كل ما سواه من التفاسير .

ومن التفاسير الأندلسية التي اشتهرت ببلدان المغرب على هذا العهد كتاب السهيلي المسمى "بالتعريف والأعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام" (3).

وكان السهيلي من جملة العلماء الذين استدعاهم المنصور الموحدى من مالقة الى مراكش حيث استقر بها الى أن مات سنة 581 هـ (4).

---

(1) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : رقم 385 ، وقال عنه " عمل على تفسير الزمخشري كتابا سماه بالحسنات والسيآت انتقى فيه مستطرف غرائبه البيانية وأبدى أيضا ما تضمنه من سوء انتحاله في ركيك اعتزاله الى غير هذا .... "

(2) ملين : عصر المنصور الموحدى : ص : 227 .

(3) هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي يكنى أبا القاسم ، وأبا زيد وأبا الحسن . عالم بالقراءات واللغة العربية ، حافظ للسير والأنساب . أديب يقرض الشعر . أشهر مؤلفاته : "الروض الأنف" وكتاب "التعريف" الذى ذكرناه في المتن ، وكتاب "الفرائض و شرح آيات الوصية" و "شرح جمل الزجاجي" .
— انظر ترجمته لدى رضا عبدالجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس : ص : 153 وما بعدها .

(4) ذكر المقرى : في النفح : انه توفي سنة 583 .
— انظر : ج . 3 . ص : 401 . ت . إ . عباس .

ومنهم أيضا عبدالله بن أحمد بن محمد اللخمي المعروف بابن علوش . وقد كان استاذا لأبناء المنصور يدرسهم التجويد والقراءات ، والعربية والأدب .

ونتيجة لهذه الحركة النشيطة التي قام بها العلماء الأندلسيون الذين أموا بلدان المغرب في هذه الآونة برزت طبقة كبيرة من أعلام المغرب في هذا الفن ، نذكر من بينهم أبا الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المراكشي المتوفي سنة 638 هـ . ألف كتابا في التفسير بلغ فيه الغاية سماه " مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل " وسلك في شرحه طريقة جديدة . وأتى بما لم يسبق اليه (1).

ومنهم أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي الذى ألف تفسيرا جليلا هو الآخر ، الا أنه لم يكمله حيث أدركته الوفاة سنة 577 (2).

ومن هؤلاء المفسرين المغاربة الذين راجت مؤلفاتهم في العهد الموحدى أبو العباس أحمد بن فرحون السلمي الفاسي المتوفي سنة 660 هـ . له كتاب " الاستدراك والاتمام " استدرك فيه على السهيلي في كتابه " الأعلام المبهمة " الآنف الذكر (3).

— المحدثون :

أما بالنسبة للمحدثين الذين هاجروا الى بلدان المغرب فأفواجهم لا تكاد تحصر خاصة عندما ارتقى الموحدون الى الحكم ، ونادوا بنبذ الفروع والرجوع الى الكتاب والسنة . وقد رأينا من قبل كيف كان بعلم الحديث باعتباره المصدر الثاني للشريعة الاسلامية ، وباعتبار أن السنة هي المكملة للكتاب بما تقوم به من تبيين لمجمله ، وتقييد

---

(1) ترجم له الغبريني في العنوان : ترجمة وافية . أنظر : ص 143 وما بعدها .

(2) المنوني : العلوم : ص : 44 — عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص : 85 — ابن القاضي : جذوة الاقتباس : ص : 138 .

(3) المنوني : العلوم : ص : 44 — عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص 85 .

لمطلقه ، وتخصيص لما جاء فيه عاما . أى أن فهم الكتاب متوقف على فهم السنة ، ولا يتأتى ذلك الا بحفظ الحديث ، ومعرفة صحيحه من ضعيفه ، وتمييز ناسخه من منسوخه ، وهذا يعني دراسة كل ما يتصل بالاسناد ، ومعرفة الرواة ، وتمحيص مراتبهم ، وما يتصل بذلك من تعديل وتجريح ، الى غير ذلك من مباحث هذا العلم . " ولم يكن ذلك من شأن أهل الغرب الاسلامي آنذاك ولا كانوا يدرسونه "(1)

ولا يبعد أن يكون الذى أقعد المغاربة عن دراسة الحديث ، قبل مجيء الموحدين ، هو اقتصارهم على المذهب المالكي ، واكتفاؤهم بما جاء منه في الموطأ ، حيث أغناهم ذلك في التطلع لغيره ، والبحث فيما عداه ، خاصة ، وقد كفاهم مؤنة ذلك ما أتى به أصحاب علم الفروع في مصنفاتهم .(2)

وهذا لايعني أن بلدان المغرب والأندلس لم تعتن بعلم الحديث بتاتا قبل ذلك بل لقد عرفته منذ الفجر الاسلامي الأول الا أنها لم تتعمق في دراسته بل اكتفت به كمساعد يعينها على شرح ماجاء مجملا في الكتاب فيما يتعلق ببعض العبادات والمعاملات ، واستعانت به خاصة لمعرفة أسباب النزول ومعرفة الظروف والملابسات التي كانت تكتنف بعض الأحداث الهامة التي تعرض لها المسلمون الأوائل قبل أن ينزل فيها حكم الشرع . أى أنهم لم يدرسوه كعلم قائم بذاته بكل ما يشتمل عليه من قيود وشروط ومصطلحات ، وما الى ذلك .

على أن هذا لاينفي وجود بعض العلماء الأندلسيين الذين اهتموا بدراسة الحديث بمعناه المتعارف عليه عند علماء الحديث . وتدريسه في بعض العواصم الأندلسية والمغربية ، الا أن نشاطهم كان أول الأمر محدودا جدًا

---

(1) عبدالهادى أحمد : مظاهر النهضة الحديثية : ص : 229 .
(2) المرجع السابق . ص : 231 .

فقد ثبت أن كلا من محمد بن وضاح القرطبي (817/206 ـ 277/ 890)[1] وأبي عبدالرحمن بقي بن مخلد القرطبي (816/201 ـ 276/ 339)[2] كانا من أوائل المحدثين بالأندلس. ويعد ابن بقي أول من جاهر بتدريس الحديث، رغم محاربة الفقهاء له، وهو الذي أدخل مسند أبي بكر بن أبي شيبة الذي ثار عليه الفقهاء المالكية آنذاك حتى قال عنه شيخهم الفقيه أصبغ بن خليل القرطبي المتوفي سنة 273 "لأن يكون في تابوتي رأس خنزير أحب الى من أن يكون فيه مسند ابن أبي شيبة "[3] وقد كادت تقوم ضده ثورة شعبية عامة لولا أن تداركه الأمير الأموى محمد بن عبدالرحمن الذي استصوب ماجاء في المسند، وشجع ابن بقي على نشر معارفه في هذا الميدان. فتزايد اقبال طلاب العلم عليه، وبدأت تنتشر دراسة علم الحديث شيئا فشيئا، منذ ذلك الحين رغم تعصب الفقهاء الأعمى ضده. وعن هذين العالمين تخرجت سلسلة من المحدثين كان يمثل واسطة عقدها كل من أبي عمر الطلمنكي (340/ 951 ـ 1037/429) ويونس بن عبدالله بن محمد بن مغيث المتوفي سنة 429 ـ 1037[4]، وعليهما تخرجت أشهر طبقة للمحدثين الأندلسيين الذين يرجع اليهم الفضل في نشر هذا العلم بكل من الأندلس والمغرب، من أمثال ابن حزم الظاهرى، وعلي الجباني وأبي عبدالله محمد بن عتاب، وأبي عمر يوسف بن عبد البر (975/368 ـ 1071/463) الذى شهد له معاصروه بالتفوق.

ولعل أعظم هؤلاء مكانة هو أبو الوليد سليمان الباجي المتوفي سنة 1081/474 الذى قال عنه ابن حزم :

---

(1) عبدالهادى أحمد : مظاهر النهضة الحديثية : ص : 231 .
ـ ذكر بلنثيا أن وفاته كانت سنة 900/287 . ص : 394 .
(2) المرجع السابق . ص : 233 .
(3) القاضي عياض : المدارك :ج . 4 . ص: 252 . ط. وزارة الأوقاف .
(4) المرجع السابق . ص : 241 .

" لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي — بعد عبدالوهاب — الا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم "(1).

وعن هؤلاء الفطاحل تخرجت طبقة المحدثين الممتازين التي استعان بها الموحدون على بعث النهضة الحديثية التي ارتكزت عليها سياستهم الاصلاحية . يكفي أن نذكر من بينهم على سبيل المثال :

يحي بن محمد بن رزق الأميري المتوفي بعد 560 . كان محدثا متقنا عارفا بالمتون والأسانيد والرجال . خرج من الميرية بعد أن تغلب عليها العدو ، فالتحق بسبتة فأسمع بها الحديث مدة قبل أن يعود الى الأندلس .(2)

ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن حبيش الأميري التوفي سنة 584 . كان مسلما له في حفظ غريب الحديث ، ولم يكن أحد يجاريه في معرفة رجال الحديث وأخبارهم ، وتواريخ ميلادهم ، ووفاتهم . وقد كانت الرحلة تشد اليه من كل أقطار المغرب والأندلس . وقد تخرجت على يديه طبقة كبيرة من علماء الحديث(3).

ومنهم ابن عات أحمد بن هارون الشاطبي الذى كان أهل شاطبة يفخرون به وبأبي عمر ابن عبد البر . شهد له المغاربة بالتفوق في حفظ الحديث وقد سبقت الاشارة الى ذلك (4).

ومنهم عبدالله بن سليمان بن حوط الله المتوفي سنة 612هـ . وقد كان استاذا لأبناء المنصور الموحدى . كما كان قاضيا بسبتة وسلا وغيرهما(5).

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 2 . ص : 67 — رواية ابن بسام ، النص كما ورد في الذخيرة هو : " لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب مثل ابي الوليد الباجي " قسم 2/ المجلد الأول . ص : 96 .
— من أشهر مؤلفات الباجي : " إحكام الفصول في أحكام الأصول " وكتاب " التعديل والتجريح لمن خرّج عنه البخارى في الصحيح " وكتاب " شرح الموطأ " ، في نسختين سمي الأولى " الاستيفاء " والثانية " المنتقى " في سبع مجلدات .

(2) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 357 .

(3) ابن الأبار : التكملة رقم 51617 . ملين : عصر المنصور . ص : 230 .

(4) انظر ترجمته عند المقرى : النفح : ج . 2 . ص: 601— 602 .

(5) ملين : عصر المنصور ص : 230 .

ومنهم أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن التجيبي نزيل تلمسان المتوفي سنة 610. وهو من أهل لقنت من عمل مرسية. كانت له رحلة الى الشرق. طالت اقامته به. وأخذ عن أزيد من مائة وثلاثين عالما. ولازم أبا طاهر السلفي وأخذ عنه شيئا كثيرا. وقد توسع في رواية الحديث. وحكى عن شيخه أنه لما ودعه في قفوله الى المغرب سأله عما كتب عنه فأخبره أنه كتب كثيرا من الأسفار ومئين من الأجزاء فسر بذلك. وقال له: "تكون محدث المغرب ان شاء الله تعالى، قد حصلت خيرا كثيرا" (1).

ومنهم سليمان بن موسى الكلاعي المتوفي سنة 634 هـ. صاحب التآليف العديدة التي منها "الاكتفاء في مغازي المصطفى" و "الخلفاء الثلاث" وغيرهما (2).

ومن حفاظ الحديث البارزين نذكر أبا علي حسين الصدفي المحدث المشهور المتوفي سنة 1120/514. فهو وان لم يؤثر عنه أنه درس باحدى العواصم المغربية الا أن أغلب المحدثين المغاربة تخرجوا على يديه. قال عنه المقرى: "كان عالما بالحديث وطرقه، عارفا بعلله واسماء رجاله ونقلته. بصيرا بالمعدلين والمجرحين .... وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها، ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها" (3).

ومنهم تلميذه القاضي أبوبكر بن العربي المعافرى المتوفي سنة 543 / 1178 — والذى تجاوزت شهرته آفاق المغرب والأندلس بما ألفه

---

(1) المقرى: النفح: ج. 2. ص: 160 — 161.
ترجم له كل من ابن الابار في التكملة رقم: 5919 — وابن القاضي في جذوة الاقتباس ص: 171 — وقال عنه انه من أهل اشبيلية — أخذ عنه بفاس وسبتة عند نزوله بهما قبل أن يستقر بتلمسان حيث توفي سنة 610 هـ. ذكره المقرى أيضا في النفح: ج. 2. ص: 379.

(2) ملين: عصر المنصور ص: 230.

(3) المقرى: نفح الطيب: ج. 2. ص: 91.

في علوم القرآن والسنة أشهرها : " الناسخ والمنسوخ "[1] وأحكام القرآن في أربعة أجزاء ،(وهو مطبوع) . وقانون التأويل والعواصم من القواصم (مطبوع) وغيرها كثير .

ومنهم المحدث الفقيه عبدالحق بن عبدالرحمن بن عبدالله الأسدى الأشبيلي المتوفي سنة 581 هـ . كان يعرف بابن الخراط . قال عنه ابن الأبار أنه "نزل بجاية عند الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة اللمتونية واستقر بها للتدريس وقال عنه كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال موصوفا بالخير والصلاح[2] " . له مؤلفات عديدة منها " الأحكام الكبرى " و " الأحكام الصغرى " في الحديث[3].

وعن هؤلاء العلماء المحدثين الأندلسيين تخرجت طبقة المحدثين المغاربة الذين ظهروا أيام الدولة الموحدية ، نذكر من بينهم : علامة عصره القاضي عياض الذى يعد بحق من ألمع المحدثين الكبار الذين أنجبهم المغرب في القرن السادس . ولا أدل على ذلك مما خلفه من المؤلفات القيمة في هذا الميدان منها كتاب " مشارق الأنوار على صحاح الآثار " الذى درس فيه كتاب الموطأ ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم دراسة ضافية ، ورتبها ترتيبا محكما ، حتى قال في حقه بعض العلماء : " لا أحتاج في كتب الحديث الا للمشارق ، فاذا كان عندى ، فلا أبالي بما فقدت منها "[4].

ومنها كتاب " اكمال المعلم في شرح مسلم " الذى أكمل به شرح أبي محمد عبدالله المازرى المتوفي سنة 536 والمسمى " بالمعلم

---

(1) حقق وألف حوله رسالة دكتوراه هي الآن تحت الطبع بالمغرب " بمدار الحديث " .
(2) ابن الأبار : التكملة رقم : 1805 — بالنثيا تاريخ الفكر الأندلسي : ص : 428 — 429.
(3) انظر ترجمته لدى الغبريني : بعنوان الدراية : ص 41—44 ، وانظر بقية مؤلفاته عنده .
(4) عبدالهادى أحمد : مظاهر النهضة الحديثية : ص : 254— 255.

بفوائد مسلم " ومنها "منهاج العوارف الى روح المعارف " في مشكل الحديث وكتاب " الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع " وهو في علم الحديث أيضا جمع فيه مصطلحات الحديث وغيرها .
والقاضي عياض من خيرة علماء العهد المرابطي كما نعلم ، وهو العهد الذى قال عنه عبدالواحد المراكشي أن العلماء قد انشغلوا فيه بعلم الفروع . ونبذو ما سواها ، حتى نسي النظر في كتاب الله ، وحديث رسول الله (ص) . ولعل في هذه المؤلفات التي ذكرنا بعضها آنفا ما يفند هذه الاشاعة التي روجت عن المرابطين .
ومن هؤلاء المحدثين المغاربة عيسى بن علي بن واصل المراكشي وكان يعرف بعيسى المعلم ، كان من حفاظ الحديث انتقل الى الاندلس بعد أن أتم تعليمه ببلده فاستقر بجيان حيث أقرأ الحديث ، وكان الى ذلك أصوليا يجتمع اليه الطلبة للتذاكر معه توفي سنة 637 [1].

ومنهم علي بن محمد الخزرجي السبتي المعروف بابن الحصار . كان محدثا راوية ألف كتابا في علم الحديث سماه " المدارك في رفع الموقوف، ووصل المقطوع من حديث مالك " ، وكان يدرس بسبتة كتاب " البرهان " لأبي المعالي (*) ، وموطأ مالك بشرح ابن الزبير [2].

ومنهم يحي بن محمد بن علي الانصارى السبتي المعروف بابن الصائغ المتوفي سنة 600 هـ . روى ببلده عن أبي بكر بن رزق وابي محمد بن عبيد الله ، ثم دخل الاندلس فأخذ عن أبي مروان بن قزمان وأبي القاسم بن بشكوال وكان يستمع الحديث باشبيلية وقرطبة ، كما كان يتنقل بين فاس وسبتة للاقراء أيضا [3].

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم : 96.
(*) يعني : امام الحرمين عبدالمالك بن يوسف الجويني .
(2) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم : 242 — سيأتي ذكرة مع الاصوليين .
(3) المرجع السابق : رقم : 391.

ومنهم علي بن محمد بن عبدالملك بن القطان الفاسي المتوفي سنة 628 ، والذى كانت له رئاسة طلبة علم الحديث بمراكش[1].

ومنهم الاخوان أبو الخطاب وأبو عمر أبناء دحية السبتيان ، ومحمد ابن القاسم التميمي الذين كانوا يعدون من ألمع محدثي هذا العصر[2].

— الأصوليون — والفقهاء :

ولم تكن دراسة الحديث التي نادى بها الموحدون غاية في ذاتها ، بل كانت وسيلة لاعادة الفقهاء لاستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية ، كما نعرف ، فقد كان محاربة التقليد الذى تحجر عليه علماء الفروع احدى الدعائم الرئيسية التي انبنى عليها الاصلاح الديني الموحدى . لذلك استخلفوا دراسة كل كتب المذهب ، كمدونة سحنون ، ومختصر ابن أبي زيد ، وتهذيب البراذعي ، وواضحة عبد المالك ، وعتبية العتبي ، وكل مادار حول هذه الأمهات من شروح وتعاليق بدراسة علمي : أصول الدين ، وأصول الفقه ، على الطريقة الأشعرية . وتلك احدى الفضائل التي امتاز بها العهد الموحدى ، حيث حرر العقل في هذين الميدانين بالأخص ، وفك القيود التي ضربها بعض العتاة المتعصبين على العلوم الشرعية .

على أن الموحدين ، في واقع الأمر ، لم يكونوا أول من ثار ضد التقليد فقد سبقهم الى ذلك شخصيات علمية كبيرة كان لها سمعتها في الأوساط الدينية ، والسياسية معا ، حذروا الأمة من مغبة هذا الجمود ، والابتعاد عن مصادر التشريع . الا أنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا عليهم .

---

(1) ملين : عصر المنصور : ص : 229 — عن التكملة .

(2) قنون : النبوغ المغربي : ص : 119 — 120 .

— المنوني : العلوم والفنون : ص : 48 .

من هؤلاء العلماء نذكر أبا عبدالرحمن بقي بن مخلد القرطبي المتوفي سنة 276 هـ . الذى لم يتقيد بمذهب فقهي معين وانما كان يستخرج احكامه من الكتاب والسنة ويدعوا الفقهاء للرجوع اليهما . وهو أول من أدخل علم الحديث الى الاندلس كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل وقد تألب عليه الفقهاء المتعصبون حتى كادوا يضروه لولا أن وقف بجانبه الأمير محمد بن عبدالرحمن الاموى وشجعه على نشر طريقته (1).

ومنهم القاسم بن محمد بن سيار القرطبي المتوفي سنة 278 هـ . الذى كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد " (2). وقد ألف كتابا معتبرا في الرد على المقلدين من أمثال ابن مزين، وعبد الله بن خالد ، والعتبي .

ومنهم محمد بن وضاح المحدث السالف الذكر والذى كان يكون مدرسة واحدة مع بقي بن مخلد . بل منهم من ثار على التقليد واحرق كتب الفروع قبل العهد الموحدى بقرون . ونعنى بذلك ما قام به عباس الفارسي القيرواني في أوائل القرن الثالث الهجري من تشنيع بأبي القاسم وأسد بن الفرات . وقد قام بحرق المدونة بنفسه على مرأى ومسمع من الناس في وسط القيروان حتى اضطر هذا الأخير لتأديبه على ما فعل . وقد كان الناس ينكرون على ابن الفرات مدونته حين دخل بها أول مرة الى تونس ويقولون له : " جئتنا بأخال ، وأظن ، وأحسب . وتركت الآثار وما عليه السلف (4).

ولعل أكثر العلماء نكرانا للتقليد وأعنفهم ثورة على المقلدين هو أبو بكر بن العربي المعافرى المتوفي سنة 543 حيث قال في

---

(1) المقرى : النفح : ج . 2 . ص: 518 — انظر ماقاله عنه ابن حزم في رسالته التي أوردها المقرى في :ج . 3 . ص : 168 وما بعدها .
(2) المرجع السابق : ج . 2 . ص : 50 .
(3) نفس المرجع . ص : 51 .
(4) عبدالهادى : ظاهرة النهضة . ص : 232 .

كتابه " العواصم من القواصم " مصورا ما آل اليه أمر المقلدين في كل من المغرب والأندلس : "ثم حدثت حوادث لم يلقوها في منصوص المالكية فنظروا فيها بغير علم فتاهوا ، وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف حتى آلت الحال الا بنظر الى قول مالك وكبراء أصحابه ، ويقال قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة ، وأهل طلمنكة وأهل طلبيرة ، وأهل طليطلة ، فانتقلوا من المدينة وفقهائها الى طلبيرة وطريقها "(1).

الا أن كل هؤلاء العلماء على ما كانوا يتمتعون به من سلطة روحية عالية وماكان لهم من نفاذ الكلمة في الأوساط الرسمية والشعبية معا ، لم يستطيعوا أن يتغلبوا على تيار التقليد الجارف الذى كان قد استشرى وتغلغل في الاوساط الشعبية . فذهبت صيحاتهم ادراج الرياح . الى أن جاء الموحدون ، فتصدوا لذلك بالقوة، واستطاعوا أن يفرضوا اراداتهم الى حين . وقد اعتمدوا في ذلك على طائفة من جلة علماء الأندلس كانوا قد استدعوهم الى بلدان المغرب لتدريس الأصول والفقه .

فمن أشهر الأصوليين الذين كان لهم الفضل في احياء هذه العلوم في العهد الموحدى نذكر :

أبا الحسن علي بن محمد بن خليد الأندلسي المتوفي سنة 567 ، وكان يعرف بابن الأشبيلي . ذكر ابن الزبير أنه هاجر الى فاس واستقر بها للتدريس، وقال عنه انه هو الذى قرر علم الأصول وعلم الكلام بها(2).

---

(1) ابن العربي : العواصم والقواصم : ص : 492 عن كتاب المهدى للنجار ص: 53 .

(2) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 205 — ترجم له ابن صاحب الصلاة في المتن بالامامة ص: 224 وما بعدها ، وعده شيخ طلبة الحضرة . وقال أنه قرأ عليه كتب المهدى بمراكش .

وقد شدّ أزره في ذلك تلميذه أبو عمرو عثمان بن عبد الله القيسي القريشي المتوفي سنة 564، وكان يعرف بابن السلا لجي . واليه كان مرجع الفاسيين في علم الكلام[1].

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الأشبيلي الأصل الفاسي الدار المتوفي سنة 611 ـ 1214، كان يعرف بابن الحصار تخصص في تدريس كتاب البرهان لامام الحرمين عبد الملك الجويني . وقد صنف في أصول الدين كتبا قيمة . منها : " الناسخ والمنسوخ " وكتاب " البيان في تنقيح البرهان " . كما نظم أرجوزة في أصول الدين أيضا شرحها في أربع مجلدات[2].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المتوفي سنة 596 ـ 1099 المعروف بالكتاني . كان اماما في علم الكلام وكانت له أرجوزة في أصول الفقه[3].

ومنهم أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي المتوفي سنة 614 المعروف بابن عدي . قال عنه ابن الأبار أنه كان اماما في علمي الأصول والكلام[4]. وغير هؤلاء كثيرون .

ـ الأدباء :

لم تقتصر هجرة الأندلسيين الى بلدان الغرب على رجال الدين وحدهم في هذه الآونة ، بل قد شملت كل المتخصصين في أنواع المعارف الأخرى . ولعل أكبر الطبقات المهاجرة كانت طبقة الأدباء ، بكل من كانت تضمهم : من لغويين ، ونحاة ، وبلاغيين ، وكتاب وشعراء ، لوفرتهم الفاحشة ، من جهة ، ولشدة حاجة المجتمع

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 205 ـ ابن القاضي : جذوة الاقتباس : ص: 289 ـ 290 .

(2) ابن الأبار : التكملة رقم : 1918 ـ ابن القاضي: الجذوة : 298 .

(3) ابن الأبار : التكملة رقم : 1062 .

(4) المرجع السابق . رقم 2099 .

المغربي اليهم ، من جهة أخرى ، خاصة ، بعد أن أصبح التعليم اجباريا في العهد الموحدى كما نعلم .

فلقد كان شغف المغاربة بالتفقه في اللغة لايقل عن شغفهم بالتفقه في الدين . لذلك أبو الا أن يثبتوا لأنفسهم أنهم لايقلون قدرة ، في هذا الميدان أيضا ، عن اخوانهم المشارقة ، فاستدعوا اللغويين والنحاة وعلماء العربية من كل جهة بالأندلس ، واستوردوا كتب اللغة وأخذوا أنفسهم بحفظ كل ما كتب فيها وما وضع في غريبها من مصنفات ابتداء بالأمهات ككتاب " العين " للخليل بن أحمد و " صحيح " ثعلب ، وما وضع حولهما من شروح وتعاليق ، وقد حاولوا هم أنفسهم اعادة شرحها ، كما اختصروا بعضها ، ونظموا ما يمكن نظمه في أراجيز تسهيلا لاستيعابها .

وقد جرهم ذلك للخوض في أساليب اشتقاق اللغة ، ومناقشة قواعدها النحوية والصرفية فكرسوا لها الجزء الأوفر من جهودهم ، حتى أتقنوها وبرزوا فيها بروزا ظاهرا ، وتكونت لهم فيها مدارس وأراء واتجاهات انتقل اليهم بعضها من الأندلس على يدى بعض اللغويين والنحاة البارزين في فنون العربية . نذكر من بينهم على سبيل المثال :

محمد بن أحمد بن طاهر الأنصارى النحوى الأشبيلي المتوفي سنة 580 وكان يعرف بالخدبّ ، كان متخصصا في تدريس " كتاب" سيبويه و " أصول ابن السراج " و " معاني القرآن " للفراء، و" الأيضاح " للفارسي كان يعنى بها ويرى أن ما عداها في الصناعة مطروح . وله تعليق على " كتاب " سيبويه سماه " الطرر " . وكان قد دخل فاس تاجرا فرغب اليه أهلها في التعليم فأقام بها مدة كمدرس ، أخذ عنه جماعة كبيرة منهم : أبو ذر الخشني وأبو الحسن ابن خروف ، وغيرهما .

وقد أقرأ بكل من مصر وحلب ، وأقسم أن يعلم بالبصرة حيث وضع سيبويه "كتابه" فدرس بها . ثم استقر به المقام أخيرا ببجاية حيث بقي بها يعلم الى أن توفي[1].

ومنهم أبو علي عمر بن عبدالمجيد بن عمر الأزدي المعروف بالرندي 543 — 616 الذى كان من أكبر أساتذة النحو بمراكش ثم بسبتة[2].

ومنهم أبو علي بن عاشر قريعات الذى وقعت بينه وبين الرندى الآنف الذكر منافسة شديدة في طريقة تدريس النحو بسبتة كان الحكم فيهما للطلبة الذين انتصروا لقريعات على الرندى باعتباره أبسط عبارة وأسهل مسلكا . فانتقل هذا الأخير اثر ذلك الى مالقة[3].

---

(1) ابن الأبار : التكملة : رقم : 1447 .

(2) ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : السفر الخامس القسم الثاني رقم 780 — ترجم له كل من ابن الزبير — صلة الصلة : رقم 126 — والرعيني في البرنامج ص : 87 .
يبدو أنه كان هناك تنافس كبير بين أبي علي هذا وعلماء عصره من اللغويين والنحاة والمفسرين . فقد ذكر بن عبدالملك أنه كان بين الرندى وابن خروف تنازع في مسائل تفسيرية ونحوية ظهر فيهما شفوف أبي علي وتبريزه عليه . كما كان بينه وبين أبي محمد القرطبي من التنافس ما يكون بين المتواردين على مشرع واحد . فكانا كفرسي رهان يأبى كل منهما الا أن يبرز الآخر . وقد ألف القرطبي كتابا سماه "المبدىء خطأ الرندى" . وألف أبو علي كتابا رد فيه عليه سماه "الخبي في أغاليط القرطبي" وقد ذهب الرعيني الى تفضيل القرطبي على شيخه الرندى — انظر البرنامج ص : 87 .

(3) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 126 — ذكر المراكشي في الذيل : رقم 780 أن سبب انتقال الرندى عن سبتة رغم اقامته الطويلة بها هو أن أهل مالقة استدعوه اليهم للتدريس ببلادهم خلفا لأبي القاسم السهيلي الذى توفي فأجابهم الى ذلك ومكث يدرس عندهم الى أن مات .

ولعل أشهر النحاة الأندلسيين الذين كان لهم تأثير قوي على النحو المغربي في هذه الآونة هو أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن مضاء اللخمي المتوفي سنة 592 ـ 1195 فقد كان من بين الأندلسيين الذين هاجروا الى المغرب وآثروا الابتعاد عن العواصم الكبرى حيث قصد مدينة تنملل في جبال المصامد واستقر بها للتدريس. وعندما اشتهر أمره عينه عبد المؤمن معلما لأولاده فتفرغ لهم مدة ثم تقلب بعدها في عدة مناصب عليا، قضائية وغيرها.

وقد ظهر نبوغ ابن مضاء في عدة علوم مختلفة الا أن بروزه اشتهر خاصة بما استحدثه في علم النحو من نظريات جريئة، وما انفرد به من آراء لم يسبق اليها. فقد ذكر صاحب الذيل أنه "كان بصيرا بالنحو ومختارا فيه، مجتهدا في أحكام العربية، منفردا فيها بآراء ومذاهب شذ بها عن مألوف أهلها"[1].

ولا شك أن ذلك كان من أكبر الدواعي التي ألبت عليه النحاة التقليديين، خاصة، بعد ما ألف كتابه المسمى بـ "المشرق"[2] الذى رد فيه على النحويين عليهم، كما يسميه "تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان" الذى كان في نفس الموضوع أيضا. وكان من جملة من ردوا عليه في هذا الباب أبو الحسن علي بن محمد بن خروف بكتاب سماه "تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو".

---

(1) - ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة : السفر الأول القسم الأول ص: 217.

(2) يرشح د / بن شريفة أن يكون هذا الكتاب هو نفسه الذى حققه د / شوقي ضيف ونشره تحت عنوان "الرد على النحاة".
ويستدل على ذلك، خاصة، بعبارة ابن القاضي في الجذوة (ص : 71) حيث تقول : "وألف كتاب المشرق في النحو والرد على النحويين في جزء متوسط" انظر الذيل : هامش رقم (7).

وكان المبدأ الذي بنى عليه ابن مضاء نقده هذا هو محاربة التقليد ودعوة النحاة الى الاجتهاد بدلا من القياس. أما الهدف الذي كان ينشده من وراء ذلك فهو السهولة واليسر، والابتعاد عن التعقيد. وقد عبر عن ذلك بقوله : "وقصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحويّ عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه "(1).

وكان أشد ما ينعاه على النحويين هو خلافاتهم فيما لا يفيد. كاختلافهم مثلا، في علة رفع الفاعل ونصب المفعول الذي استنزف كل جهودهم لذلك دعاهم الى اسقاط العوامل جملة من مباحث النحو.(2)

كما انتقد عليهم جريهم وراء التقديرات، واعتبر ذلك تكلفا لافائدة وراءه.(3)

وكان يرى أن اجماع النحويين على القول بالعوامل لايعتبر حجة مهما اتفق البصريون والكوفيون على ذلك(4).

فهو على هذا لايقصر انتقاده على مدرسة البصرة دون الكوفة، بل يلزّهما في قرن واحد. وان كان لا ينكر ما قام به نحاتهما من جهود جبارة لصيانة كلام العرب من اللحن بفضل ما وضعوه من قواعد. الا أن مبالغتهم في بعض التقييدات والتزامهم، أحيانا، لما لا يلزم أدى الى تعقيد مسالك النحو وتحجر قواعده :

---

(1) ابن مضاء : الرد على النحاة : ص: 69 — تحقيق محمد ابراهيم البنا دار الاعتصام 1979.

(2) انظر ماقاله عن الغاء العوامل في نفس المصدر ص: 69 ومابعدها.

(3) انظر ماقاله عن الغاء تقدير متعلق الجار والمجرور. والغاء تقدير الضمائر في الصفات. وتقدير الضمائر في الافعال. في المصدر السابق من ص: 79 الى 84.

(4) المصدر السابق ص: 74.

" واني رأيت النحويين — رحم الله عليهم — قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته من التغيير ، فبلغوا في ذلك الى الغاية التي أموا ، وانتهوا الى المطلوب الذى ابتغوا . الا أنهم التزموا ما لا يلزمهم ، وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها وانحطت عن رتب الاقناع حججها "(1) .

ولا شك أن الذى شجع ابن مضاء على ثورته النقدية هذه ، هو مالمسه من ميل الموحدين الى فكرة الاجتهاد ونبذ التقليد .

ولم يكن ، في واقع الأمر ، هو أول من رفع شعار التجديد في النحو حسبما أوضح ذلك محقق كتابه في المقدمة ، فقد سبقه الى ذلك ابن حزم حين قال عن العلل النحوية : " أما علم النحو فالى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تزيد معرفة تفهمهم للمعاني بلغتهم ، وأما العلل فيه ففاسدة جدًّا "(2) . كما سبقه في ذلك كل من ابن جني في الخصائص والسهيلي في كتابه الأمالي(3) .

وعن هؤلاء النحاة الأندلسيين تخرج امام النحويين المغاربة .أبو موسى عيسى بن عبدالعزيز الجزولي المتوفي سنة 610 بمراكش(4) . وكان قد تعلم تعليمه الأول ببلده ثم أكمل تخصصه بالمشرق حيث تتلمذ على أبي محمد بن برى(5) ولازمه مدة . وعندما رجع الى المغرب

---

(1) المصدر السابق. ص : 64 .

(2) ابن جزم : التقريب لحد المنطق : ت . إ . عباس ص : 202 — انظر ما قاله د / البنا في مقدمة الرد على النحاة : ص : 9 .

(3) عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص : 99 .

(4) انظر ترجمته لدى ابن خلكان : الوفيات : ج . 3 . ص : 157 — رقم 486 — السيوطي : البغية : ص : 369 . ط . الأولى — القاهرة 1362 هـ .

(5) تتلمذ ابن برى المصرى هذا على أحد النحاة المغاربة وهو : عبدالجبار ابن محمد بن علي المعافرى القرطبي — انظر ترجمته عند ابن خلكان : في الوفيات : رقم 397 — ولدى السيوطي في البغية : ص : 234 .

أقام بمدينة بجاية مدة تفرغ فيها للتدريس . وقد اشتهر ، خاصة ، بمقدمته في النحو التي سماها "القانون" واشتهرت بالجزولية ، وهي في غاية الايجاز والاختصار لا تفهم بسهولة . فأكثر النحاة ، ممن لم يأخذوها عن مدرس "يعترفون بقصور افهامهم عن ادراك مراده منها ، لأنها كلها رموز واشارات "[1] . وقد وضعت حولها شروح كثيرة أشهرها شرح الشلوفيين ثم شرح ابن عصفور . وقد شرحها الجزولي نفسه في مجلد كبير كما ذكر ابن خلكان في ترجمته[2] . وكان الجزولي من جملة العلماء النحاة الذين كانت لهم مشادات عنيفة مع ابن مضاء اللخمي الآنف الذكر .

ومن النحاة الأندلسيين الذين ساهموا في انعاش الحركة التأليفية في المغرب بالنسبة لهذا العلم أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي المشهور بابن خروف (ت . 609) وهذا لما كان يثيره من جدال حادّ بينه وبين علماء عصره حول بعض المسائل اللغوية والنحوية .

ويبدو أنه كثير المشاكسة حسبما يفهم من وصف تلميذه الرعيني له حيث قال عنه "كان جامدا على ما لقن عن ابن طاهر (الخدب) قليل التصرف بكيّ العبارة ، متسرعا لانكار ما لا يعرف"[3] . وقال عنه السيوطي "كان في خلقه زعارة "[4] وقال ابن عبدالملك "كان كثير العناية بالرد على الناس" . فمن جملة من ردّ عليهم في هذا الباب أبو الوليد بن رشد (ت . 595) ، ولاشك أنه عما ورد في كتابه "الضروري في النحو[5] ، كما ردّ على استاذه ابي اسحاق بن ملكون (ت . 580)[6]

---

(1) ابن خلكان : الوفيات : ج . 3 . ص : 157 .
(2) المرجع السابق . ص : 158 .
(3) الرعيني علي بن محمد : البرنامج . ص : 81 . ت . ابراهيم شبوح دمشق 1962 .
(4) السيوطي : بغية الوعاة : ج . 2 . ص : 203 ـ ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : السفر الخامس . ص : 320 .
(5) ابن الأبار : التكملة : ترجمة ابن رشد . وابن عبدالملك : الذيل : السفر الخامس . ص : 320 .
(6) ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : السفر الخامس . ص : 320 .

وكانت لـه مشادات عنيفة مع السهيلي (ت . 581) في مسائل كثيرة[1]. كما كانت له مناقشات حادة مع الرندى المالقي (ت . 616) قال الرعيني عنهما كانت " مناقضات في مسائل من العربية انشقه أبوعلي فيها الخردل ، فما قام معه ولا قعد "[2] . وكان الرعيني تلميذا لكليهما ، كما هو معلوم . وقد أشرنا من قبل الى المشادات التي كانت بينه وبين ابن مضاء اللخمي . هذا بالنسبة لمعاصريه . أما بالنسبة للذين سبقوه فقد ذكر أنه ردّ على كل من ابن حزم ابي محمد علي بن أحمد (ت . 456) في بعض مقالاته [3] والأعلم الشنتمرى (ت. 476) في رسالته " الرشدية " . كما ردّ على امام الحرمين أبي المعالي الجويني النيسابوري (ت . 478) في كتابه " الارشاد والبرهان " . ورد على ابن الطراوة أبي الحسن سليمان بن محمد المالقي (ت . 528) في مقدماته على أبواب " الكتاب"[4].

وقد ألف الى جانب هذه الردود شرحا قيما على كتاب سيبويه الذى تخصص في تدريسه وقد سماه " تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب" . كما ألف شرحا آخر حول كتاب " الجمل " للزجاجي وله مصنفات أخرى قيمة في شتى ألوان المعرفة ، اشتهرت في كل من المغرب والأندلس ، " تداول الناس استنساخها رغبة فيها وشهادة بجودتها "[5]. وقد قام بتدريس بعضها في كل من فاس وسبتة ومراكش ورندة واشبيلية التي كان كثيرا ما يتردد عليها للتجارة .[6]

وكان قد أهدى نسخة من كتابه " تنقيح الألباب " للخليفة الناصر في أربع مجلدات فأثابه عليها بأربعة آلاف درهم[7]. تشجيعا لحركة التأليف ، ونشر العلم.

---

(1) الرعيني : البرنامج : ص : 81 — والمرجع السابق .
(2) المرجع السابق .
(3) ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : السفر الخامس ص : 320 — 321 .
(4) المصدر السابق ص : 320 .
(5) المصدر السابق . ص : 321 .
(6) المصدر نفسه .
(7) عباس بن ابراهيم : الاعلام : ج . 3 .ص : 144 .

وقد آزر ابن خروف في تنشيط هذا اللون من المعرفة ببلدان المغرب ثلة من العلماء المغاربة والأندلسيين الذين تخرجوا عليه وعلى من سبقه . واكتسبوا شهرة فائقة نذكر من بينهم محمد ابن يحي بن محمد العبدري الفاسي الذي تخصص في تدريس النحو بالمغرب والأندلس[1] . وأبا القاسم عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن المصمودي (ت . 649) وأبا عبدالله محمد بن يحي العبدري الفاسي المعروف بالصولي (ت .651)[2] . ومحمد ابن أحمد بن هشام اللخمي السبتي[3] (ت . 570) . وأحمد بن خلف البكري السلاوي ثم المراكشي (ت . 641)[4] . هذا بالاضافة الى العلمين الشهيرين اللذين تجاوزت شهرتهما حدود بلاد المغرب والأندلس ، ونعني بهما : أبا عمر الشلوقي[5] (ت . 644) صاحب كتاب " التوطئة " وشرح " الجزولية " ثم تلميذه أبا الحسن علي بن مؤمن ابن عصفور الاشبيلي (ت . 662) الذى لازمه سنوات عديدة قبل أن يختلفا الخلاف الذى ادى بهما الى القطيعة التامة . تنقل بعدها ابن عصفور في عدة مدن أندلسية ومغربية يملي بها تقاييده على " الجمل " للزجاجي ، و " إيضاح " الفارسي والكراسة المنسوبة للجزولي وكتاب سيبويه . وقد أقام بكل من سلا ، وبجاية مدة قبل أن يلتحق بتونس حيث استدعاه اليها أميرها أبوزكرياء الحفصي[6] .

---

(1) السيوطي : البغية : ج . 1 . ص : 266 .
(2) ابن القاضي : الجذوة : ص : 138 .
(3) المنوني : العلوم : ص : 64 .
(4) المرجع السابق : ص : 63 ـ 64 .
(5) انظر ترجمته عند ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : السفر الخامس ، القسم الثاني ص : 460 ـ 464 .
(6) السيوطي : بغية الوعاة : ج . 2 . ص : 210 ـ ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 285 من كتبه المشهورة : " الممتع في التصريف " " شرح الجزولية " " مختصر المحتسب " " المقرب في النحو " .

وكان لاشبيلية أكبر الأثر في توجيه المدرسة النحوية المغربية ، اذ كثيرا ماكان المغاربة يحكمون نحاتها فيما يحدث بينهم من خلاف في المسائل العلمية . وقد وضع محمد بن خلف بن محمد بن عبدالله اللخمي مؤلفا قيما ، ردّ فيه ، باسم نحاة اشبيلية ، على الأسئلة النحوية التي وجهها اليهم النحاة والمقرئون الطنجيون[1].

وعندما استولى النصارى على غرناطة غادرها قسم كبير من نحاتها واستقروا بمدينة مراكش[2]، فأصبحت بفضلهم ، هي الأخرى مركزا من مراكز الدراسات النحوية الى جانب سبتة وطنجة .

هذا بالنسبة للغويين والنحاة . أما الأدباء الأندلسيون الذين أموا بلدان المغرب ، في تلك الآونة ، فقد كانوا يفوقون الحصر عدّا . اذ يكفي المرء ، أن يلقي نظرة عجلى على كتب التراجم التي ألفت عن ذلك العهد ، ليدرك مدى ماكانت تحفل به دواوين انشاء الموحدين بمراكش وغيرها من الحواضر المغربية بفطاحل الشعراء الذين انقطعوا لخدمة الخلفاء من أمثال : أبي بكر بن مجبر[3] (... / 587 — 1191) الذي سبقت الاشارة اليه . وابن

= وقد ردّ عليه جماعة من علماء عصره منهم : أبوعبدالله محمد بن يحيى ابن هشام الخضراوى (ت 646) الذي ألف كتابا في النقض على " الممتع في التصريف " (السيوطي : البغية : ج . 1 . ص : 267) ومنهم أيضا أبوالعباس أحمد بن محمد الأزدى الأشبيلي المعروف بابن الحاج (ت 647) الذي الف " ارادات على المقرب " " لابن عصفور" . وكان يقول اذا مت يفعل ابن عصفور في كتاب سيبويه ما يشاء
السيوطي : البغية : ج . 1 . ص : 359 — 360 .

(1) ابن الأبار : التكملة : رقم 1465 .

(2) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص : 187 .

(3) ترجم له المقرى : في النفح : ج . 3 . ص : 237 وما بعدها . وقال عنه " كان في وقته شاعر المغرب .... وشعره كثير يشتمل على اكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت .
— انظر نماذج من شعره في مدح المنصور لدى ابن عذارى : في البيان : ج . 3 . ص : 177 — وص : 179 .

جويق علي بن محمد[1] (... /622). وأبي جعفر بن سعيد[2] (... /559) . وأبي بكر بن زهر[3] (596/507) ، وميمون ابن الخبازة[4] ، وغيرهم كثيرين .

هذا بالنسبة للشعراء المقيمين بالعدوة ، أما أولائك الذين كانوا يترددون على بلدان المغرب في المناسبات والأعياد ، كزوار ، للمشاركة في الاحتفالات بما كانت تجود به قرائحهم من مدائح ، وتهاني ، وغيرها ، فهم لايحصرون . يكفي أن نذكر من بينهم على سبيل المثال :

محمد بن غالب الرصافي[5] (... /572) الذى مدح عبدالمؤمن بقصيدة رائعة عند عبوره بجبل الفتح ـ وهو لم يبلغ عندئذ سن العشرين بعد ـ وكان قد استهلها بقوله :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور   قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها   ليلا لسار ، ولم تشبب لمغمور

وقد سماه ابن سعيد ، في كتابه " المغرب " شاعر عبدالمؤمن[6] .

ومنهم أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي ، صاحب كتاب زاد المسافر المتوفي سنة (598)[7].

---

(1) ترجم له ابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص : 318 وما بعدها . ذكر له بعض النماذج من شعره .
ـ كما ترجم له ابن الزبير : في "صلة الصلة " وصفه بقوله : " شاعر مجيد مكثار متصرف في أدبه . أخذ الناس عنه شعره كثيرا ورووه وألف في الأدب تواليف عدة ، ذكر ذلك بعض من أخذ عنه .... "
ـ انظر رقم 263 من المرجع المذكور .

(2) هو أبو جعفر أحمد بن عبدالملك بن سعيد عم ابن سعيد مصنف كتاب المغرب استوزره عثمان بن عبد المؤمن ثم قتله لمنافسة في حب حفصة الركونية ، وكان قد مدح عبدالمؤمن بقصائد غاية في الرقة . انظر بعض ذلك لدى ابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص : 164 ـ 168 .

(3) انظر ترجمته عند المقري : في النفح : ج . 2 . ص : 247 وما بعدها .

(4) عده صاحب تاريخ الفكر الأندلسي من خيرة شعراء العصر الموحدى . انظر ص: 129 .

(5) ابن الأبار : التكملة : رقم 416 ـ ابن خلكان : الوفيات : ج . 4 . ص: 432. انظر نماذج من شعره لدى المراكشي في المعجب : ص : 287 ـ 292 .

(6) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 264 .

(7) ترجم له المقري في النفح : ج . 5 . ص : 62 ومابعدها

ومحمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ المعروف بابن المناصف [1].

ومحمد بن ادريس المشهور بمرج الكحل (... /634) [2].

وابن حزمون علي بن عبدالرحمن المرسي الذى زار المغرب عدة مرات وأقام به [3]. وأحمد بن محمد بن عيسى اللخمي الذى اتصل بالخلفاء الموحدين ومدحهم خاصة منهم المأمون.

هذا بالاضافة الى ثلة من الشعراء الآخرين ذكرهم ابن صاحب الصلاة في كتابه "المن بالامامة" وأورد لهم نماذج من مدائحهم التي قالوها في السادة الموحدين كأبي بكر بن المنخل، واللص الأشبيلي، والطليق المرواني، وأبي بكر بن ميمون القرطبي وأبي عمر بن حربون وغيرهم [4].

هذا بالنسبة للشعراء، أما الكتاب الأندلسيون، فان دواوين الانشاء المغربية كادت تكون مقصورة عليهم وحدهم، وهذا منذ العهد المرابطي كما هو معلوم.

فمن ألمع من اشتهر منهم في العهد الموحدى نذكر:

محمد بن ابراهيم بن خيرة المعروف بالمواعيني الذى كتب لكل من السيدين: أبي اسماعيل، وأبي جعفر بن عبد المؤمن عندما كانا واليين على غرناطة. وهذا قبل أن يلتحق بمراكش حيث توفي سنة 570. [5]

= وابن عبدالملك المراكشي: في الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع من كتاب الذيل: ص: 140. ت. إ. عباس، المكتبة الأندلسية، دار الثقافة بيروت بدون تاريخ.

(1) ابن الأبار: التكملة: رقم: 1606 — ابن سعيد: المغرب: ج. 1. ص: 105.

(2) ابن الأبار: التكملة رقم: 1656 — المقرى: النفح: ج. 5. ص: 50 وما بعدها.

(3) ابن سعيد: المغرب: ج. 2. ص: 214—215 — ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة: السفر الخامس من القسم الأول ص: 240 وما بعدها. — انظر نماذج من شعره لدى المراكشي في المعجب: ص: 370—374.

(4) سنتعرض بشيء من التفصيل لبعض من هؤلاء الشعراء عند كلامنا عن شعر المديح في الفصول التالية.

(5) ابن الأبار: التكملة رقم: 1407 — ذكره ابن سعيد في المغرب: ج. 1. =

ومنهم علي بن ابراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخير الأنصاري (510/571) كتب لأبي الربيع سليمان الموحدى وكان بليغا في نثره، مجيدا في شعره (1).

وهناك أسرة بني عياش التي نزحت الى المغرب وترأست ديوان الانشاء الموحدى، من عهد عبدالمؤمن الى خلافة المأمون. وكان أول من ظهر منهم هوأبومحمد عياش بن عبدالملك بن عياش الذى استكتبه كل من عبدالمؤمن، وولده، أبي يعقوب يوسف. ثم جاء بعده محمد بن عبدالرحمن بن عياش الذى كتب ليعقوب المنصور ثم لولده الناصر. ثم خلفه بعد ذلك أبوالحسن علي بن عبدالملك ابن عياش الذى كتب للناصر وابنه المستنصر. ثم جاء أخيرا أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن عياش فتولى الكتابة لكل من يوسف المستنصر والمأمون. الى أن توفي سنة 629 (2). ويعد محمد ابن عبدالرحمن من أنبه كتاب أسرة بني عياش. نوه بذكره كل من تعرض له. وقال عنه ابن عبدالملك " كان كاتبا بارعا فصيحا مشرفا على علوم اللسان حافظا للغات والآداب ... كثير الاعتناء بطلبة العلم والسعي الجميل لهم ..." وقد كان من أقرب المقربين الى المنصور الموحدى (3).

فعن هذه النخبة الممتازة من الكتاب الأندلسيين التي ما فتئ أفرادها يطرؤن على دواوين الانشاء بمراكش وغيرها من العواصم منذ العهد المرابطي، تخرجت الطبقة الأولى من الكتاب المغاربة من أمثال :

= ص: 242، من مؤلفاته الأدبية : " ريحان الألباب، وريعان الشباب " و " الوشاح المفصل " وكتاب في " الامثال السائرة " وآخر " في الأدب ".

(1) من مؤلفاته المشهورة : "اختصار العقد " وكتاب " مشاهير الموشحين " وهم عشرون رجلا. أنظر : عبدالملك : الذيل والتكملة ـ القسم الخامس من السفر الأول ص: 187 ـ 191.

(2) انظر عن هذه الأسرة : ابن عبدالملك : في الذيل والتكملة.

(3) المرجع السابق.

أحمد بن عطية ، وأخيه عطية بن عطية (... / 552) الذين كتبا لعبد المؤمن بن علي[1].

ومنهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يخلفتن الفزازى التلمساني ، الذى كان كاتبا لمحمّد الناصر ، كما كان أديبا مبرزا وشاعرا مشهورا[2].

ومنهم أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر بن تميم من أهل بجاية ، كان يعرف بابن محشرة : استكتبه كل من يوسف بن عبدالمؤمن وابنه يعقوب المنصور في كتابة السر ، فأظهر تفوقه على كثير من معاصريه[3].

ومنهم أبو القاسم عبدالرحمن القالمي أصله من بجاية أيضا اشتهر بكتاباته البليغة[4] . وغير هؤلاء كثيرون .

هذا بالنسبة لكتاب الدواوين ، أما الأدباء المؤلفون الذين اشتهروا بمصنفاتهم ، فقد هاجرت منهم طائفة لا بأس بها ، وانتشرت في كل بلدان المغرب للتدريس .

فبالرغم من كون الأمهات التي كانت تعتمد في تدريس الآداب ، آنذاك كان أغلبها مشرقية الأصل ، ككتب الجاحظ ، خاصة منها " البيان والتبيين " وكتاب " الكامل " للمبرد و " نوادر " أبي علي القالي " وأدب الكاتب " لابن قتيبة وكتاب " الأغاني " للأصفهاني ، بالاضافة الى دواوين فطاحل الشعراء . الا أنه كان هناك كتب أدبية مغربية كثيرة من تأليف هؤلاء الأندلسيين الذين أموا المغرب في هذه الآونة .

---

(1) انظر ماقاله المقرى عن نكبة ابني عطية في النفح : ج . 5 . ص : 183 وما بعدها .
(2) المراكشي : المعجب ص : 391 .
(3) ابن الأبار : التكملة : رقم 722 — الغبريني : عنوان الدراية : ص : 53 — 55 — المراكشي — المعجب : ص : 317 و 338 .
(4) المراكشي : المعجب : ص : 316 .

بدأت تزاحم تلك الأمهات . وتفرض وجودها في ميادين المعرفة بما كانت تمتاز به من العمق والأصالة .

نذكر منها على سبيل المثال : كتاب " الف باء للألباء "[1] الذى وضعه يوسف بن محمد البلوى ابن الشيخ المتوفي سنة 604 هـ.[2] وهو مجلد ضخم ، جمع فيه أدبا كثيرا ، وتاريخا ، ومواعظ . وضعه أساسا لحفيد له ، كان يخشى ألا يمهله الأجل حتى يقوم بتربيته وتعليمه . وقد كان من الكتب المنتشرة في بلدان المغرب والأندلس.

ومنها التآليف العديدة التي جمعها الشاعر علي بن محمد بن حريق البلنسي . قال عنه ابن الزبير " ... الف في الأدب تواليف عدة . ذكر ذلك بعض من أخذ عنه ... " الا أن مؤلفاته قد ضاعت بأكملها[3].

ومنها كتاب نظم القرطبي وضم أشعار السقطين الذى ألفه أبو العباس أحمد بن عبد الجليل التدميرى (ت 555) لمحمد بن علي بن حمدون وزير بني الناصر الصنهاجيين ، عندما كان مقيما ببجاية . وقد كان من الشعراء البارزين والأدباء المتخصصين في علوم اللغة العربية . وكان من جملة من استدعاهم عبد المؤمن من الأندلس لتعليم أولاده بمراكش[4].

---

(1) طبع كتاب " الف باء " بالقاهرة سنة 1387 هـ .

(2) ترجم له ابن الأبار في التكملة رقم : 2089 ط. مدريد ، وقال عنه ابن الزبير : في صلة الصلة : " ... رحل الى الحج عام 560 ، فأخذ بطريقه بجاية علي أبي محمد عبد الحق الأزدى الأشبيلي وعزم عليه في تأليف كتاب "الاحكام " وقد قاوضه في ذلك ... وكان الأدب أغلب علومه عليه (أى ابن الشيخ) فكان أيسر الناس بديهة ، وأكثرهم شعرا ، مع رقة في الطبع ، ورشاقة أغراض . وله تأليف كبير سماه " الف باء للألباء " ... وجمع كتابا آخر سماه " التكميل " ... والف غير ذلك " انظر رقم 426 .

(3) ابن الزبير : صلة الصلة رقم 263 . ـ ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 318 .

(4) ترجم له السيوطي في : البغية : ج . 1 . رقم 608 . وذكر له =

ومنها كتاب " زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر " لصفوان بن ادريس وكتابه "عجالة المتحفز وبداهة المستوفز " الذى جمع فيه رسائله وأشعاره ، وله كتاب آخر في الأدب سماه " أدباء الأندلس " وان كان لم يكمله [1] وقد نوه به بعض من اطلع عليه من الأدباء ، وأشادوا بما يحتوى عليه من المعلومات القيمة في الحياة الأدبية بالمغرب في العهد الموحدى [2].

ومنها كتاب " المطرب في أشعار أهل المغرب " الذى ألفه ابن دحية للملك الصالح المصرى [3].

هذا بالاضافة الى دواوين الشعراء الأندلسيين والمغاربة التي لا تكاد تعد ولا تحصى . والمصنفات الأخرى التي الفت قبل هذا العصر ، في تاريخ الأدب والنقد ، والبلاغة . ككتاب " العقد الفريد " لابن عبد ربه ، وكتاب " الذخيرة " لابن بسام، وكتاب " مطمح الأنفس " وكتاب " قلائد العقيان " لابن خاقان وكتاب طوق الحمامة لابن حزم . وماأنشأه الكتاب من رسائل أدبية : ديوانية ، واخوانية ، من أمثال ابن زيدون وابن أبي الخصال ، وأحمد بن عطية ، وابي المطرف بن عميرة ، وابن الأبار . وما ألف من محاضرات ومناظرات كتلك التي صنفها ابن حزم ، والشقندى ، وابن سعيد وغيرهم . هذا اضافة الى ما بدأ يظهر من مصنفات مغربية محضة ككتاب " صفوة الأدب ونخبة كلام العرب " الذى الفه الجراوى بأمر من المنصور الموحدى . وكتاب مختصر الأغاني الذى جمعه ابو الربيع سليمان الموحدى وغير ذلك من الكتب الأدبية واللغوية التي ظهرت في ذلك الوقت .

= مؤلفات أخرى في اللغة ، منها : كتاب " التوطئة " في النحو ، وشرح لكتاب " الفصيح " لثعلب ، وشرح آخر لأبيات الزجاجي سماه " شفاء الصدور " وهو كتاب ضخم اختصره في كتيب سماه " المختزل " وله كتاب آخر سماه " الفوائد والفرائد ".

(1) ترجمة له ابن الأبار : التكملة رقم : 2434 الغبرى : ج .5. ص: 62 وما بعدها .

(2) ملين : عصر المنصور : ص : 198 — 199 .

(3) انظر: المطرب في اشعار اهل المغرب لابن دحية .

— علماء الحكمة :

أما بقية الفروع العلمية التي كانت تندرج تحت ما كان يسمى بعلوم الحكمة ، والتي كان منها : الهندسة ، والفلك ، والطب ، والحساب ، والفلسفة . فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا ، بفضل من هاجر من أساطينها من الأندلس الى المغرب ، من جهة ، وللتشجيع الذى لاقته هذه العلوم العقلية من طرف الحكام الموحدين من جهة أخرى .

فقد كانت هذه العلوم ، في ذلك الوقت ، رغم تعددها ، تكون وحدة متكاملة ، متماسكة . لابد لكل من أراد دراسة فنّ من فنونها أن يأخذ من كل فرع منها بنصيب حتى ولو كان له ميل خاص لفرع بذاته .

وقد أدرك الساسة الموحدون هذا الترابط الذى يجمع بين فروع علوم الحكمة ككل ، فعملوا على تنشيطها مجتمعة دون التمييز بين أجزائها . وسعوا الى نشرها بكل الوسائل الممكنة . وان لم تبلغ بهم الجرأة الى أن يجاهروا بتعليم الفلسفة . لما كانوا يرون في ذلك من تحدّ جارح للشعور العام .

غير أن هذا لم يمنعهم من تقريب علمائها ومجالستهم والأخذ عنهم كما فعل ابويعقوب يوسف مع ابن طفيل شيخ فلاسفة ذلك العصر حيث كان يقيم معه الليالي والأيام لايظهر فيها[1].

وكان ابن طفيل يستدعي اليه الفلاسفة والأطباء والعلماء من كل قطر ويحثه على تقريبهم وتشجيع نبهائهم . كما فعل مع أبي الوليد بن رشد الذى عرفه به ، فناقشه ابويعقوب في

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 312 .

تخصصه ، وشجعه على نشر معارفه [1] ، فكان ذلك من أهم الأسباب التي دفعت بابن رشد لتعمق الفلسفة اليونانية القديمة، وهضمها ، خاصة ، منها الارسطو طليسية . فلولا الجهود التي بذلها هذا العالم الموهوب لتقريب الفلسفة القديمة للأذهان ، بما ألفه حولها من بحوث ، وشروح ، وتلاخيص ، لبقيت معطلة قرونا أخرى . فقد ذكر أن ما ألفه من بحوث في علم الفلسفة وحده ، قد بلغ الثلاثين مصنفا [2].

ولم تقتصر جهود ابن رشد على الفلسفة وحدها ، بل شملت ميادين أخرى كثيرة ، منها العلوم الطبية التي أظهر فيها تفوقا كبيرا بفضل ما ألفه فيها ، أيضا ، من كتب مختصة . وقد رشحته كفاءته في هذا الميدان ، الى أن يكون الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ، خلفا لابن طفيل .

وكما كان يفزع لابن رشد في الفلسفة والطب ، كان يفزع اليه في القضاء أيضا . فقد ذكر المؤرخون أنه كان من أكبر فقهاء المالكية تولى قضاء المغرب مع بقائه على قضاء الأندلس .

ولا يبعد أن يكون عبد المؤمن قد استدعاه في جملة من استعان بهم من العلماء الأندلسيين للقيام على ترتيب المدارس الخاصة التي أنشأها ، فقد ثبت أنه كان موجودا بمراكش سنة 548 هـ .
وقد بقي في خدمة الموحدين الى أواخر خلافة المنصور الذى كان من أقرب المقربين اليه قبل محنته ، حيث رفع مجلسه فوق مجلس عبد الواحد الهنتاتي الذى كان يعد الشخصية الثانية في الدولة كما تعلم [3].

---

(1) انظر المراكشي : المعجب : ص : 314 — 315 .
(2) ذكر بعضها المراكشي في المعجب : ص : 315 . وذكرها ابن أصبيعة مفصلة في العيون : ص : 532 — 533 .
(3) انظر ابن أصبيعة : عيون الأنباء — ص : 531 .

وقد أثار هذا التشريف الذى ناله من قبل المنصور حفائظ حساده من مواطنيه ومن المغاربة . فتظافروا على محاربته بكل وسائل الدسّ والخديعة . حتى أوغروا صدر المنصور عليه . فتنكر له ولعلومه العقلية ، فنفاه (1).

وكان عبدالرحمن بن زكرياء الرجراجي من أكثر الناس حقدا عليه لمعارضته الدائمة له (2).

ولم يقتصر غضب المنصور على ابن رشد وحده ، بل شمل كل تلاميذه ، ومريديه ومناصريه من الفلاسفة والمتعاطفين معه . مما يدل على أن الرجل لم يبق مكتوف الأيدى طوال الفترة التي مكثها بالمغرب ، وهذا منذ أن قدم اليه في عهد عبدالمؤمن . بل كان له نشاط واسع النطاق امتد الى كثير من الحواضر المغربية الأخرى ، كفاس ، وسبتة ، وبجاية . حيث ثبت أنه كان له بها أتباع يقومون على نشر علوم الحكمة . منهم أبو جعفر بن عتيق المعروف بالذهبي الذى استدعاه المنصور وضمه الى مجلسه العلمي . وقيل انه كان يتلقى عنه بعض العلوم النظرية . وكان من بين المناصرين لابن رشد الذين شملتهم محاكمة المنصور . فاختفى مدة ، الى أن طمأنه الخليفة ، بعد عفوه عن ابن رشد وأصحابه فظهر . فولاه عندئذ رئاسة الطلبة والاطباء معا فجل قدره واشتهر ذكره . وهذا يعني أنه كان الموجه الرئيسي للثقافة الموحدية على مستوى الدولة ، كما كان المرشد المباشر للعلماء ، والمعلم الحقيقي للناشئة .

ولا يخفى ما في كل ذلك من تأثير على كل أنواع المعرفة . خاصة اذا علمنا أن الذهبي كان الى جانب ذلك طبيبا ماهرا ، اضافة

---

(1) أنظر المصدر السابق . — وانظر كذلك ما قاله المراكشي بهذا الصدد في المعجب : ص: 384 — 385 .

(2) انظر ترجمته في التكملة : رقم 1497 .

الى مشاركته في علوم الشريعة والآداب[1] . واذ كان الغالب عليه علم الفلسفة[2].

ومن جملة مريدي ابن رشد الذين شملهم نفي المنصور: محمد بن ابراهيم قاضي بجاية ، وأبو العباس الشاعر القرابي[3].

أما بالنسبة للأطباء الأندلسيين الذين اشتهروا ببلدان المغرب في العهد الموحدي فهم كثيرون جدّا . أورد منهم ابن أبي اصبيعة جملة صالحة في كتابه الذي خصصه لطبقات الأطباء، نذكر من بينهم اضافة لابن طفيل وابن رشد ، والذهبي . أبا الحسن بن أسدون المعروف بالصدوم (/ 588)[4] والوزير أبو بكر محمد بن مروان بن زهر الحفيد الذي خدم كلا من الدولتين : المرابطية والموحدية الى خلافة محمد الناصر[5].

وتذكر أنه كانت له مجالس دراسية منظمة يعقدها للأطباء في بيته .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن حسن القضاعي البلنسي الذي خدم المنصور الى أن توفي سنة 598 – أو 599 بمراكش وهو لم يبلغ الخمسين من عمره[6]. ومنهم أبو عبدالله الندرو ومن الذين خدم الناصر والمستنصر. ومنهم ابن طملوس الذي خدم الناصر أيضا . وقد اشتهر من الطبيبات الأندلسيات بالمغرب كل من أخت ابن زهر الحفيد وابنتها اللتين تخصصتا في علاج أمراض النساء ، فعينتا كطبيبتين للعائلة الموحدية المالكة[7].

---

(1) أورد له ابن سعيد نماذج من شعره في المغرب :ج .2. ص: 321 وما بعدها .

(2) انظر ترجمته لدى ابن الابار في التكملة رقم 247 – ابن ابي اصبيعة : الطبقات : ص : 537 – المنوني : العلوم : ص : 123 – انظر كذلك السيوطي : البغية : رقم 639.

(3) ابن ابي اصبيعة : عيون الأنباء : ص : 532 – انظر بقية المحاكمين في الصفحة المذكورة .

(4) المرجع السابق . ص : 535 .

(5) ابن أصبيعة : الطبقات : ص : 522.

(6) المقري : النفح : ج .2. ص : 382 – ابن اصبيعة : عيون الأنباء : ص : 535 – ذكر أنه توفي بفاس– انظر ايضا التكملة : رقم 94.

(7) عبدالهادي : مظاهر النهضة : ص: 157 .

ومن الأطباء الصيادلة نذكر أبا جعفر بن الغزال المرسي ، أنبغ تلاميذ ابن زهر[1]. قيل أن المنصور كان يعتمد عليه في مزج الأدوية المركبة ، والمعجنات ، ولا يتناولها الا منه[2].

ومنهم أبو يحيى بن القاسم الأشبيلي الذى كان خبيرا بقوى الأدوية المفردة ، والمركبة ، كثير العناية بها ، كان مكلفا بخزانة الأشربة والمعجنات الطبية التي يتناولها المنصور[3].

ونذكر أخيرا أبا اسحاق ابراهيم الداني البجائي الأصل الذى عين طبيبا وأمينا لبمارستان مراكش مدة ثم نقل الى الجزيرة الخضراء حيث عين مديرا لبمارستانها[4].

ونتيجة لهذه الحركة العلمية الواسعة التي عرفتها حواضر بلدان المغرب في هذا العهد ، ظهرت عدة مصنفات في كل من علمي : الفلسفة والطب . ذكر ابن اصبيعة جملة صالحة منها في كتابه عيون الأنباء نكتفي بالاشارة الى مصنفين منها أهديا للمنصور كتعبير على امتنان صاحبيهما لما لاقاه علماء الحكمة من تشجيع في ظل حكمه ، وهما كتاب " الترياق الخمسيني " الذى ألفه له ابن زهر الحفيد . وكتاب " تدبير الصحة " الذى قدمه له أبو جعفر القضاعي .

فقد كان علم الطب من أكثر علوم الحكمة انتشارا لإقبال المغاربة عليه وهذا منذ القدم ، وخاصة بعد تأسيس بيت الحكمة برقادة كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل .

وقد نشطت ، الى جانب دراسة الفلسفة والطب ، بعض العلوم الحكمية - الأخرى التي كانت محضورة ، مثل : الهندسة ، والرياضيات ، والفلك .

---

(1) ابن أبي اصبيعة : عيون الأنباء : ص : 524 . وص : 536 .
(2) المرجع السابق . ص : 536 .
(3) نفس المرجع . ص : 534 .
(4) نفس المرجع .

فقد ذكر " بلنثيا " أن تشديد الفقهاء ، قبل وصول الحكم المستنصر الى الحكم هو الذى عرقل العلوم الرياضية عن النهوض بما فيها علم الفلك حيث "كان الفقهاء يتجاوزون عن الحساب ويبيحون الاشتغال به فيما يتصل بالعمليات التطبيقية المعقدة ، المتعلقة بقسم المواريث ، أما الفلك ... فقد عبرت بهذا العلم في الأندلس فترات لم يكن يسمح للناس خلالها بأن يعرفوا منه الا ما لابد منه لتحديد اتجاه قبلات المساجد وتعيين مواقيت الليل والنهار ، على مدار العام لتعرف أوقات الصلوات والاستيثاق من مواعيد الأهلة . فاذا تجاوز الانسان هذه المطالب من هذا العلم فقد غرر بنفسه "[1] أى أنهم سيرمون بالزندقة .

فقد بدأت نهضة هذه العلوم مع مجيء الحكم المستنصر الذى كان شغوفا بالعلوم الاغريقية ، حيث أباح للرياضيين والفلكيين نشر معارفهم فظهرت لذلك أول مدرسة في هذه العلوم للرياضي الفلكي الأندلسي مسلمة المجريطي المتوفي سنة 394 - 1004 وقد تخرجت على يديه نخبة من العلماء منهم أبو القاسم أصبغ ابن محمد الفهرى الغرناطي المتوفي سنة 425 - 1034 صاحب المصنفات المشهورة التي تعتبر البواكير الأولى في هذه الفنون مثل كتاب " المدخل الى الهندسة " ، و " تفسير كتاب اقليدس "، وكتاب " ثمار العدد " المعروف " بالمعاملات " وكتاب " طبيعة العدد " الذى درس فيه أجزاء من الخط المستقيم ، والقوس ، والمنحنى ، وغيرها[2] .

ومنهم أبو القاسم أحمد بن عبدالله المعروف بابن الصفار الذى كان يدرس علوم العدد والهندسة ، والنجوم بقرطبة ثم بدانية ، وعنه تخرج أغلب المتضلعين في هذه الفنون[3] .

---

(1) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي : ص: 447 .
(2) المرجع السابق ، ص: 449 .
(3) نفس المرجع ، ص: 450 .

وعندما اضطهد منصور بني عامر الفلسفة ، لم يستثني منها الا الحساب والطب ، فهاجر لذلك نفر كبير من علماء الأندلس الذين اشتهروا في هذه الفنون الى المشرق ، فخبت جذوتها مدة ، قبل أن تعود الى ماكانت عليه من النشاط مع ظهور دول الطوائف ، حيث رفع الحجر عنهما من جديد ، فكثر الاقبال عليهما عندئذ وتنافس الناس في تعلمهما ونشرها حتى نبغ فيهما علماء كثيرون ، الفوا فيهما تآليف قيمة . فقد ذكر أن المقتدر بالله بن هود المتوفي سنة 473 ـ 1081 وابنه يوسف المؤتمن المتوفي سنة 477 ـ 1085 أميري سرقسطة كانا من أكبر المشتغلين بهذه العلوم حيث اشتهر الأول منهما في الفلسفة والرياضيات والفلك واشتهر الثاني بكتابه " الاستكمال " الذى ألفه في علم الفلك ، وقد شرحه بعد ذلك موسى بن ميمون ، وكان يقول عليه : " انه جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس بها كتابات اقليدس ، وكتاب المجسطي لبطليوس"(1).

ومنهم ابن سعود الاشبيلي المتوفي سنة 526 ـ 1132 الذى تخصص في علم الهندسة والف فيهما كتابا في حساب المثلثات . وتخصص جابر ابن افلح الأشبيلي في الفلك وعلم النحو والف فيهما مؤلفات قيمة اعتمدت على تجاربه الخاصة ، منهما " كتاب الفلك " و " كتاب الهيئة " وكان يسمى أيضا " اصلاح المجسطي " وله رسالة أيضا في " حساب المثلثات " .

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن فرحون القبسي الذى سكن فاس وعلم بها الحساب وكان له تأليف فيه سماه " اللباب في علم الحساب " .(2)

ومن المهندسين الذين اشتهروا ببلدان المغرب نذكر : أحمد بن حسان القضاعي البلسي الذى ينسب اليه جامع حسان بالرباط ، حيث كان أحد المشرفين على بنائه (3).

ومنهم الحاج يعيش المعروف بالأحوص الذى كان رئيسا لبناة مدينة جبل طارق (4) . وهو الذى صنع المقصورة العجيبة بجامع مراكش

(1) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص : 454هـ 455.
(2) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة رقم : 238 وقال عنه أن له كتابا آخر سماه "الزاهر" .
(3) ابن صاحب الصلاة : المن : ص : 130 ـ 131.
(4) ابن صاحب الصلاة : المن ص : 131ـ الحلل الموشية ص : 155.

لعبد المؤمن بن علي الـحي تبارى الشعراء في وصفها لغرابة هندستها ودقة صنعها [1]. وقد تخرج على أيدى هؤلاء العلماء طبقة ممتازة من الرياضيين المغاربة أشهرهم أبو اسحاق نور الدين البطروجي المراكشي الذى استفاد بكل ما كتبه الأندلسيون من قبله واستطاع أن يهضمه فنبغ في الرياضيات والفلك والف فيهما تآليف ابتكر فيها أشياء جديدة لم يسبق اليها، كما نقض بعض النظريات القديمة لأساطين هذه العلوم.

فقد ذكر بلنثيا أن البطروجي قد ابتدع نظرية جديدة في حركات النجوم، ترجمها الى العبرية موسى بن طيبون سنة 657 ــ 1259 ثم نقلها قاليموس بن داوود الى اللاتينية سنة 925 ــ 1529 وطبع الكتاب بعد ذلك في البندقية بعد سنتين [2].

ويرى بعض العلماء أن أجل خدمة قدمها البطروجي للعلم أنه نقض نظرية بطلموس عن العالم من أساسها. وعارضه في أخص آرائه كقوله بالحركة البيضاوية للكواكب، ودورانها حول الشمس وحركات الأفلاك المقابلة [3].

وممن اشتهر بالتأليف في هذا العلم من المغاربة نذكر أيضا أبا عبدالله محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي المتوفي سنة 601 الذى ألف منظومة في الجبر والجذور [4]، وأبا علي المراكشي الذى ألف كتابا سماه جامع المبادىء والغايات في الحساب والجبر والمقابلة [5].

ومنهم أحمد بن التميمي المعروف بابن الكماد التونسي الذى كان رصادا بمراكش في أوائل القرن السابع [6]. قيل أنه وضع زيجا مصححا

---

(1) المنوني : العلوم : ص : 104.
(2) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص : 456.
(3) المرجع السابق . انظر عن البطروجي : المنوني : العلوم : ص : 109.
(4) المنوني : العلوم ص : 104.
(5) المرجع السابق . ص : 110.
(6) المصدر السابق . ص : 111.

كان معتمدا لدى المغاربة . وهو الذى لخصه احمد بن البنا في كتابه الذى سماه " مناهج الطالب لتعديل الكواكب "[1]. وغير هؤلاء العلماء كثيرون لا نستطيع حصرهم .

ذلك هو ثبت بعض الأساتذة الأندلسيين الذين هاجروا الى بلاد العدوة اقتصرنا فيه على ذكر أشهر العلماء في أشهر العلوم التي كان لها رواج في ذلك العصر اذ المراد من هذا العرض السريع هو أن نعطي صورة تقريبية للحركة الثقافية التي كانت تجرى بين العدوتين المغربية والأندلسية ، وأن نوضح ، خاصة الدور الايجابي الذى قام به هؤلاء العلماء الأندلسيون الذين هاجروا الى بلدان المغرب في هذه الآونة في دفع عجلة التعليم ونشر الثقافة به وتنويعها ، والتأثير فيها .

ولقد ساعدهم على ذلك ماكانوا يستمتعون به من سلطة أدبية طاغية لدى أوساط الشعب بفضل مناصبهم العلمية من جهة ، وما اكتسبوه من سلطة مادية خولتها لهم وظائفهم الرسمية والسياسية التي كانوا يشغلونها من جهة ثانية .

والفضل في تعميق هذا التأثير وترسيخه يرجع أيضا الى الكتب والمصنفات الأندلسية التي كثر رواجها بالمغرب آنذاك ، وانتشرت بين أيدى الناس وقد ألفت في كل الفنون كما رأينا وهي تعد بالمئات : منها ما وضع على أصول مشرقية ، ومنها ما ألف ابتكارا وهو الأغلب . ولقد حاولنا أن نورد أشهر هذه المؤلفات كلما وسعنا ذلك ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر اذ قد كانت أجل من أن تعد أوأن تحصر .

والواقع أن هجرة العلماء الى بلدان المغرب وانتشار كتبهم به لا يمثلان الا جانبا واحدا من عوامل التأثير ، أما الجانب الثاني فيتمثل ، في نظرنا ، في مظهرين آخرين يخصان ، هذه المرة ، الجانب المغربي وحده وهو انتقال المغاربة الى الأندلس في اطار ماكان يسمى بالرحلة العلمية وفي اطار ماكان يطلق عليه بالجهاد المقدس خاصة بعد أن سهلت وسائل الاتصال بين العدوتين بفضل انضمامهما تحت لواء واحد وهذا منذ العهد المرابطي .

---

(1) المنوني : العلوم : ص : ١١٥.

ج – الرحلة العلمية :

بدأت تعقد هذه الرحلة أول ما بدأت نحو المشرق . وقد كانت أول أمرها دينية محضة الا أنها ما لبثت أن تطورت وأصبحت تعقد لطلب العلم بالدرجة الأولى ثم تختم بعد ذلك بالحج .

وقد جرت العادة أن يتجمع هؤلاء الطلاب الآتون من الأندلس وبقية انحاء المغرب بأحد المركزين اللذين خصصا لتجمع الحجاج آنذاك، وهما سجلماسة ، وفاس ، ثم تنطلق القوافل من هناك نحو المشرق عن طريق الرباطات التي كانت تمتد بين هاتين المدينتين والاسكندرية مارين بأهم مدن المغرب بين الأوسط والأدنى .

والحق أن وجود هذه الرباطات على طريق الحج قد شجع الطلاب على الرحلة العلمية تشجيعا كبيرا ، لما كانت تقدمه لهم من تسهيلات بل يوائهم ، واطعامهم أحيانا ، اذ كان من مهامها الأساسية ايواء المسافرين خاصة طلاب العلم منهم .

وقد كان هؤلاء الطلاب الحجاج يغتنمون فرصة وجودهم بالمشرق ، مهد الثقافة العربية الاسلامية ، فيعرجون على أهم العواصم العربية لاتمام تعليمهم أو للتخصص في بعض الفروع العلمية التي استحدثت بالمشرق ولم يستطيعوا تحصيلها في بلدانهم .

أما المدن التي كانوا يقصدونها فكانت ، مصر ، والشام ، والعراق، ثم الحجاز أخيرا كخاتمة للمطاف .

ولم تكن رحلتهم هذه تتقيد بمدة معينة ، فقد تطول ، وقد تقصر حسب همة صاحبها ، ومدى تعلقه بالعلم ومدى قدرته المادية خاصة ، فقد كان الواحد منهم يقيم الستة والسنتين وأكثر ملازما لحلقة عالم من العلماء يروى عنه ويستجيزه في سماعاته حتى يجلبه عالم آخر

اشتهر في عاصمة أخرى فيشد اليه الرحال وهكذا يبقى يتنقل بين حلقات الدرس يعلّ من هذه وينهل من تلك الى أن يقدر أنه استوعب كل ما يمكن استيعابه من العلم ، ويدعوه الحنين الى موطنه فيختم رحلته تلك بأداء فريضة الحج ، يعود بعدما لبثّ ما جمعه من تقييدات ، وما استنسخه من مصنفات ، وما وعاه من علوم بين أهله وذويه بعد أن يكون قد اكتهل أوكاد .

بل كثيرا ما كانت تستهويهم سلطات البلد المضيف بعد تخرجهم ببعض العروض المغرية — وهذا بالنسبة للنبغاء منهم — فيمددون اقامتهم سنوات أخرى يتصدرون فيها للتدريس بمساجد كبريات المدن فلا يعودون الى أوطانهم الا وقد أدركتهم الشيخوخة بكل ما فيها من وهن وضعف .

ورغم كل ذلك فقد كانت هذه الرحلة الدينية من أهم الوسائل التي ساعدت على نقل الثقافة المشرقية الى بلدان المغرب وتنميتها في القرون الوسطى .

وبالاضافة الى الفوائد التي كانت تجنيها العدوة من أبنائها بعد عودتهم من هذه الرحلة واستقرارهم للتدريس كانت تستفيد أيضا من مرور العلماء والطلبة الأندلسيين عليها في غدوهم ورواحهم من هذه الرحلة ، حيث كانوا يعرجون على أهم حواضرها لزيارتها . والاقامة بها أحيانا للتدريس ، وكان ذلك من أهم الأسباب التي ساعدت على تنمية الثقافة الأندلسية ببلدان المغرب الا أن هذه الرحلة العلمية التي كانت تعقد الى المشرق ، على ماكانت تقدمه من خدمات جليلة لبلدان المغرب لم تكن لتسد كل حاجياته في الميدان الثقافي ، خاصة أيام نهضته تلك التي بدأت مع مستهل القرن السادس الهجرى ، وذلك لأن هذه الرحلة لم تكن في متناول الجميع كما يتبادر الى الذهن لأن المقصود بها ، أساسا ، هو أداء الفريضة . والحج ، رغم كونه

أحد أركان الاسلام الخمس ، الا أنه يشترط على كل من ينوي القيام به أن يكون قادرا . فهو فرض ، ولكن على من استطاع اليه سبيلا . والاستطاعة حسبما فسرها الفقهاء هي أن يضمن الحاج كل ما يكفل عياله من النفقات مدة غيابه عنهم ، زيادة على نفقاته الشخصية . ومذا ما كان ليتأتى للأغلبية الساحقة من الشباب . اللهم الا الموسرين منهم ، وما أقلهم !! أو أولائك الذين كانوا قد باشروا عملا ما ، واستطاعوا أن يجمعوا من ورائه رصيدا كافيا لنفقاتهم . وما كان ليتحقق لهم ذلك الا بعد مضي مرحلة لايستهان بها من أعمارهم ، وذلك ما تشهد به كتب التراجم التي تهتم ، عادة ، بذكر هذا النوع من الرحلات التي كان يقوم بها العلماء . ومذا يعني أن الذين كان في مقدورهم أن يقوموا بهذه الرحلة هم قلة قليلة ، ما كان لهم أبدا أن يستجيبوا لطموحات بلدان المغرب الواسعة التي كانت ترمي اليها في الميدان الثقافي .

وأمام هذه الصعوبات التي فرضها بعد الشقة بين المشرق والمغرب ، وما كان يترتب عن كل ذلك من أتعاب السفر ، ومشاق الاغتراب ، وأمام الرغبة الملحة التي استبدت بالمغاربة للالتحاق بالركب الثقافي ولى أغلبهم وجوههم شطر الأندلس التي أصبحت آنذاك تمثل أعلى قمة في الحضارة العربية الاسلامية لما وصلت اليه من الازدهار العلمي ، وما اكتسبته مساجدها من شهرة عالية لا تقل عن شهرة مساجد القاهرة ، ودمشق ، وبغداد ، ومذا لما برهن عليه علماؤها من كفاءة نادرة اعترف لهم بها جلة علماء المشرق أنفسهم ، فتوسعت آفاق الرحلة العلمية المغربية على هذا النحو فأصبحت تعقد الى الأندلس لقرب المسافة وسهولة حركة التنقل خاصة بعد أن توحدت العدوتان في القرن السادس .

وكان للعلماء الأندلسيين الذين هاجروا الى المغرب أكبر الأثر في توجيه طلاب العلم هذه الوجهة الجديدة لما كانوا يثيرونه

في نفوسهم من حب الاطلاع على هذه الجزيرة ، وما كانوا يبعثونه فيهم من شوق لمعرفتها كلما تعرضوا لوصف احدى حواضرها الثقافية ، أو تعرضوا لذكر أحد علمائها الأفذاذ الذين كانوا يصبغون عليهم كل آيات الاعجاب والاكبار مصورين كل ذلك بأسلوب عاطفي مثير ، يطليه عليهم شوقهم المتزايد ، وحنينهم المفرط لمواطنهم الأصلية . وذلك أمر طبيعي ، خاصة ، بالنسبة للأندلسيين الذين اشتهروا بتشبثهم الشديد بأوطانهم ونفورهم من الاغتراب . ولعل هذا ما يفسر حرارة اللوعة التي تطفح بها مراثيهم التي خلدوا بها أوطانهم بعد سقطها .

وقد ازداد المغاربة ، بهذه الرحلة العلمية ، ارتباطا أكثر بالثقافة الأندلسية .

ولم تبق هذه الرحلة مقصورة على طلابهم فحسب بل شملت حتى علماءهم الذين تقاطروا على الجزيرة من أنحاء المغرب حيث اشتهر كثير منهم في مساجد قرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة والميرية . منهم الفقهاء والمحدثون ، والأصوليون ، واللغويون ، والنحاة والصوفية وماالى ذلك . وقد أشرنا الى بعضهم ، عرضا ، في الصفحات الماضية ، ولا يخفى ما في كل ذلك من أسباب التفاعل والتلاقح والتمازج بين الثقافتين .

الا أن المغاربة والأندلسيين لم يستغنوا ، رغم ذلك ، عن الرحلة العلمية المشرقية التي لم تفتر حركتها حتى في أزهى العصور العلمية ببلدانهم .

لاشك أن فريضة الحج كانت من أهم العوامل في استمرار هذا الاتصال ، خاصة ، وأن المغاربة كانوا يولون اهتماما كبيرا لهذا الركن من أركان الاسلام الخمس . ولكن يبدو أنه كان هناك سبب اضافي آخر

جعلهم يتشبثون بهذه الرحلة المشرقية . وهذا السبب يكمن – حسب رأينا – في مركب النقص الذى كان يشعر به كل عالم مغربي لم يطعم علومه بعلوم مشرقية . لأنّ المشرق ، في نظر المغاربة ليس فقط مهبط الوحي وانما هو منبع كل العلوم العربية والاسلامية أى أنه هو أصل الثقافة والدين معا .

وأحسن من عبر عن هذا الشعور ابن حزم الأندلسي حين قال عن نفسه :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن ذنبي أن مطلعي الغرب

ومن المعلوم أُن ابن حزم من العلماء الذين تثقفوا بالأندلس ، ولم تكن له رحلة الى المشرق .

ولا شك أن هذا الشعور الذى ظل يخامر نفوس المغاربة والأندلسيين كان من أهم الأسباب التي كانت تدفعهم الى الابداع والخلق والتجويد ، في الميدان الثقافي . يبدؤن مقلدين ثم شراحا ومفسرين ، وينتهون بمؤلفات غاية في الدقة والوضوح .

وقد دفع هذا الشعور ببعض المغاربة الى درجة التحدى . فالفوا كتبا غاية في الاتقان معارضين بها بعض المؤلفات المشرقية المشهورة اثباتا لقدرتهم واظهارا لكفاءتهم ، وعندما اتصلت بأيد المشارقة قالوا عنها " هذه بضاعتنا ردت الينا " .

وقد لازم هذا الشعور علماء المغرب فترة طويلة من الزمن . فكان حافزا لاذكاء المنافسة ، والتسابق للتجويد والاتقان . فحدا ذلك بكثير من الكتاب والأدباء والمؤرخين وغيرهم الى أن يخصصوا مؤلفات ضخمة قصروها على العلماء الأندلسيين وحدهم نوهوا فيها بكفاءتهم العالية ، مباهين بهم بقية العلماء في العالم الاسلامي . نذكر من بين هؤلاء : الفتح بن خاقان في كتابيه : قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس وابن دحية في كتابه " المطرب في أشعار أهل المغرب " وابن سعيد في كتابه " المغرب في حلى المغرب " والمقرى في " نفح الطيب " وغيرهم .

ولعل أحسن من صور هذه النزعة التي استبدت بهؤلاء الكتاب هو ابن بسام عندما قال في مقدمة كتابه " الذخيرة " ناعيا على قومه تهافتهم على كل ما هو مشرقي منوها بأدباء قطره مفاخرا بمحاسنهم : "الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل الشرق يرجعون الى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما .... فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك . وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح ثماره ثمادا مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديما ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات احسانه قبله ، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان؟ "(1).

ولعل في هذا ما يصور ما كان يطمح اليه الأندلسيون من فرض شخصيتهم وغرس ثقافتهم في جزيرتهم وفي المناطق المتصلة بها على الأقل .

د — الجهاد المقدس :

يعد مبدأ المرابطة بالثغور الأمامية من المبادئ الأساسية التي ارتكزت عليها سياسة الامبراطورية الاسلامية منذ نشأتها الأولى ، وقد توارثت دول الأقاليم هذا المبدأ وطبقته في المناطق التي نشأت فيها أو استقلت بها بعد ذلك ، حيث كانت تعتبر المرابطة بالثغور والجهاد في سبيل الله من أقدس الشعائر الاسلامية التي لايجوز التفريط فيها .

---

(1) ابن بسام : الذخيرة : 1/1/ ص : 12.

وقد كانت الثغور التي تفصل بلاد المسلمين بمناطق المغرب عن بقية البلدان الأخرى التي تدين بغير الاسلام تتمثل في الثغور البحرية الشمالية بالنسبة لافريقية ، والثغور الجنوبية التي كانت تفصل كلا من المغربين : الأوسط والأقصى عما كان يسمى ببلاد السودان ، والثغور الشمالية التي كانت تفصل بلاد الأندلس عن الممالك الاسبانية المسيحية وهي التي تهمنا في هذا البحث .

ولقد قامت الدولة المرابطية ، كما نعلم ، على أسس دينية ، أهمها الدفاع عن الاسلام ، والعمل على نشره في المناطق التي لم يصل اليها بعد . وقد حققت هذين الهدفين بما قامت به من جهاد في سبيل الله في كلتا الجبهتين حيث أدخلت كثيرا من المناطق الجنوبية في الاسلام كما وقفت في وجه التوسع الاسباني الذى كان يزحف نحو الجنوب فاستطاعت أن تحمي بذلك الأندلس الاسلامية فترة طويلة . وعندما خلفهم الموحدون في الحكم ساروا على نفس الطريقة التي انتهجها اسلافهم ، وان اقتصروا هم على الجهاد في الثغور الشمالية وحدها ، وذلك لاختلال التوازن الذى طرأ على القوتين الاسلامية والمسيحية خاصة اثر سقوط المرابطين عندما بدأت تشتد حركة الاسترداد . وكان ذلك يستدعي من الموحدين حشد قوات هائلة لحماية الثغور الشمالية الممتدة على الحدود المترامية الأطراف لصد الهجمات المتكررة التي كان يقوم بها العدو بين الفينة والفينة .

ولم تكن القوات النظامية التي كان يتوفر عليها الموحدون لتكفي وحدها للقيام بهذه المهمة ، رغم ما كانت تضمه من فيآت مرتزقة من أتراك ، وأغزاز ، واسبان مسيحيين ، وقبائل هلالية بالاضافة الى الجيش النظامي الذى كان يتكون ، أساسا ، من القبائل الموحدية . لذلك كانت تعتمد ، بالدرجة الأولى ، على المتطوعين من الشباب والكهول ، خاصة ، عندما يتعلق الأمر بالنفير العام الذى كان يدعو اليه الخليفة كل سنة تقريبا ، تحت شعار الجهاد المقدس .

وقد كانت جحافل المتطوعين التي تستجيب لهذا النداء تعد بالآلاف تدفعهم للجهاد عوامل متعددة ، منها الدينية ، والاقتصادية والثقافية ، وغيرها .

وقد كانت السلطات تضطر ، رغم ذلك ، أحيانا الى التجنيد القسري . فقد ذكر ابن أبي زرع أن الخليفة الناصر عندما أراد القيام بغزوة العقاب المشهورة ، فرض على كل قبيلة حصة معينة من الخيل والرجال تقدمها للمساهمة في هذه الحرب(1) .

والذي يهمنا من كل هذا هم أولائك المتطوعون من الشباب المغاربة الذين كانت تزدحم بهم الرباطات في الثغور الأمامية ، وما كان يمكن أن يساهموا به في أوقات فراغهم من نشاطات فكرية وثقافية داخل هذه الرباطات اذ الحرب التي جاؤا من أجلها لم تكن لتأخذ منهم أكثر من بضعة أسابيع على أكثر تقدير أما بقية الوقت فقد كانوا يكرسونه للدراسة والتحصيل .

ولم تكن اقامتهم بالأندلس تقتصر على المرابطة في الثغور طول الوقت ، اذ لا يعقل أن يتجشموا كل أتعاب السفر ومشاق الاغتراب ليردوا بلاد الأندلس ثم يغادروها دون أن تطمح بهم نفوسهم لزيارة المدن الكبرى والاطلاع على معالمها الحضارية . أو دون أن تغريهم ، خاصة ، مساجدها الحافلة بحلق دروسها المتنوعة وهم المتعطشون لحياض المعرفة . فلا شك أنهم كانوا يقيمون السنوات الطويلة يقضونها في سبيل طلب العلم .

فقد أثبتت كتب التراجم التي تعرضت لعلماء هذه الفترة التي نخصها بالبحث أن كثيرا من المغاربة كانوا ينتهزون فرصة عبورهم للأندلس قصد الجهاد ليتموا تعليمهم على يد علماء اشتهروا في تخصصات معينة . كما أثبتت أن كثيرا من بين هؤلاء المغاربة كانوا من جلة العلماء

---

(1) ابن أبي زرع : القرطاس : ص : 234 .

في بلدانهم ، بل منهم من تجاوزت شهرته حدود بلاده كانوا هم أيضا ينتهزون فرصة وجودهم بالجزيرة للجهاد ليدرسوا بها تخصصاتهم ، أو يملوا مصنفاتهم أو يسمعوا مروياتهم .

فلقد كان الجهاد المقدس الذى كان يقوم به المغاربة في الثغور الأندلسية ، اذن من أهم العوامل التي ساعدت أيضا على نشر الثقافة الأندلسية بين أبناء المغرب .

هـ — العلاقات التجارية :

وكان للتجارة القائمة بين العدوتين أثر كبير في دفع المغاربة لاكتشاف الحواضر الأندلسية والاحتكاك بمراكزها العلمية المختلفة . فقد كان أغلب من ينتسب للعلم في ذلك الحين يحترفون التجارة كمورد للرزق لانسجامها وطبيعة العمل الذى يقومون به ولعدم تعارضها مع ما يضطر اليه الطالب غالبا للتنقل بين الحواضر الثقافية فكلما عزم الواحد منهم على الأخذ عن عالم اشتهر في مدينة ما شد اليه الرحال بتجارة تتلاءم وسوق المدينة المقصودة فيقوم بالمهنتين دون أن يجد أى تعارض بينهما .

وقد رأينا في الباب الأول الدور الذى لعبه التجار في نشر الثقافة العربية الاسلامية في كل المدن المبثوثة على طول الطريق الذى كانت تسلكه القوافل التجارية انطلاقا من تهرت وبجاية بالمغرب الأوسط ، ومن سجلماسة بالمغرب الأقصى الى أوداغشت بجنوب الصحراء الكبرى ، وقد تجلى ذلك في ظهور كثير من هذه المدن الصحراوية التي أصبحت بمثابة مراكز اشعاع بتلك المناطق نذكر منها الهقار ، وتمنراست ، وقاوو ، وبلاد التكرور ، وغيرها .

وعلى الرغم من وجود بعض العلماء الذين كانوا يتكسبون بالتعليم الا أن هناك طائفة كبيرة منهم كانت تأنف أن تأخذ أجرا ماديا على طلابها مقابل ما تنشره بينهم من علوم ، لكنهم كانوا يحترفون التجارة كمهنة للاسترزاق ، وحتى أولائك الذين كانوا يتكسبون بمهنة التعليم كان أغلبهم تجارا .

فقد ثبت عن ابن طاهر الاشبيلي أحد شيوخ ابن خروف النحوى المتوفي سنة 580 أنه كان يحترف التجارة والخياطة ، على الرغم من الأجر الذي كان يأخذه من طلابه [1]

وكان ابن خروف نفسه " متجولا عمره على البلدان يدير بضاعة له كانت في تجارة ، أكثرها في اقامة أواني الخشب المخروطة ، وأكثر ما كان يتردد بين رندة واشبيلية وسبتة ، وفاس ، ومراكش ، فمتى ما حل ببلد شرع في اقامة ما يقوم من ذلك ان كان بلد اقامة أو بيعة ان كان بلد بيع أواقامة بغيره ، وانتصب لتدريس ما كان لديه من المعارف ريثما يتم غرضه في البيع والاقامة"[2] فضلا عن تكسبه بالوراقة فقد كان حسن الخط .

فقد كانت التجارة ، على هذا الاعتبار من أهم الأسباب التي ساعدت المغاربة على الرحلة الى الأندلس والاحتكاك بحضارتها والتأثر بثقافتها . على أنه من التجني أن نحصر مظاهر هذا التأثر في الجانب الفكرى البحث وحده ، فان ما يقال عن الجانب الثقافي يسرى أيضا على الجانب الاجتماعي بمعناه الواسع ، أى بكل ما يحتوى عليه من عادات ،

---

(1) ابن عبدالملك : الذيل والتكملة : 649/5 . قال عنه "كان مشترطا على طلبة العلم فيما يشترطه عليهم جعلا في اقرائه اياهم ضاغطا في في اقتضائه ايا منهم شديد المشاقة فيه ، ولهفي ذلك أخبار مشهورة سمح الله له ".

(2) المرجع السابق 321/5 قال عنه : " كان يستوفي الجعل عن الاقراء من الطلبة ، ولا يسمح لأحد في القراءة عليه الا بجعل يرتبه عليه " عن الطيار المرجع السابق ص : 34 .

وتقاليد ، وحرف ، وصناعات ، والطرق المعاشية ، والأساليب العمرانية وما الى ذلك ، خاصة وأن الأندلس كانت تمثل قمة الحضارة في أعين المغاربة في ذلك العهد . الا أنه ، بالرغم من ارتباط المغرب الاسلامي بالأندلس منذ القرن الرابع الهجري ، فالملاحظ أن مظاهر تأثير الحضارة الأندلسية لم تبد واضحة جلية ببلدان المغرب الا مع بداية القرن السادس .

فلم يكن هناك مثلا في بلدان المغرب ما يجلب الانتباه في ميدان العمارة حيث لا نلاحظ أي تشابه يذكر بين الهندستين المغربية والأندلسية ، هذا على الرغم من انتشار كثير من المدن الحديثة بالعدوة الجنوبية خاصة على المناطق الساحلية المقابلة لشبه الجزيرة التي كانت على صلة وثيقة بالمدن الأندلسية والتي كان أغلبها بشكل مراسي هامة للسفن التجارية ، بالاضافة الى تبعيتها السياسية للأندلس آنذاك . ولكن ما أن استولى المرابطون على الحكم وتمت عملية توحيد الضفتين في شكل دولة واحدة في مطلع القرن السادس فاضت حضارة الجزيرة بمختلف مظاهرها على بلدان المغرب بشكل مذهل .

فهذا الخلاف بين العهدين راجع ولاشك الى اختلاف الوضع الذي كان عليه كل من القطرين من حيث القوة والضعف . فقد كان المغرب في أول العهدين مجرد مستعمرة أندلسية تابعة لها تبعية الضعيف الذي لا يملك أي سلطة يستطيع معها أن يكيف الوضع حسب ارادته أو يستغل هذا الاتصال لصالحه ، لذلك بقيت العلاقات بين القطرين شبه سلبية خاصة بالنسبة للمغرب كما بقيت مظاهر التأثير فيه محدودة جدا .

ولكن ما أن انعكست الآية مع وصول المرابطين الى الحكم وامتلاك المغاربة لأزمة الأمور واخضاعهم للقطر الأندلسي لسيطرتهم حتى انقلبت الأوضاع رأسا على عقب بالنسبة لكلتا العدوتين .

حيث وجد كل قطر ضالته في القطر الآخر واستغاثا ببعضهم البعض. هذا للخروج من مظاهر التخلف واللحاق بالركب الحضاري وذلك لفرض الأمن في ربوعه والحد من الفوضى السياسية وما يتبعها من قلاقل. ورحب كل فريق بغزو الآخر له وساعده على التمكن والاستقرار، وقد وقف المغاربة خاصة مشدوهين أمام الحضارة الأندلسية وما كانت تزخر به مدنها من حركة ثقافية واسعة، فتحوا لها أبوابهم على مصارعها، فاستدعوا العلماء والفقهاء واستقطبوا المهندسين والبناة فشيدوا لهم القصور الفخمة وأقاموا لهم الجسور العجيبة، وبنوا لهم المساجد الخالدة، وكثيرا من الآثار العمرانية الأخرى التي بقيت معالمها راسخة حتى الآن.

فبالرغم من قصر عمر الدولة المرابطية، وما تعرضت له معالمها الحضارية من اهمال على يد الموحدين نجد هناك كثيرا من آثارهم التي بقيت شاهدة حتى الآن على مدى تأثير الأندلسيين وهندستهم المعمارية، منها الجامع الكبير بالجزائر، مثلا، ومسجد تلمسان اللذين بنيا في عهد يوسف بن تاشفين. وهناك الاضافات التي قام ببنائها علي بن يوسف بمسجد القرويين بفاس، وقد كان علي هذا على ما اشتهر به من ورع وزهد في زخرف الحياة مولعا بالحضارة العمرانية الأندلسية، وكان معجبا، خاصة، باشبيلية عاصمة بني عباد، وقد حاول محاكاتها في كل مظاهرها العمرانية عند بنائه لعاصمة ملكه مراكش.

وتظهر بصمات الأندلسيين واضحة بالأخص فيما تركه الموحدون من آثار عمرانية مثل الكتبية بمراكش، والمساجد التي أمر عبد المؤمن ببنائها في كل من تازا وتنملل، ومسجد حسان بالرباط الذي قال عنه المراكشي "انه لا يعلم في مساجد المغرب أكبر منه"(1)

---

(1) عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة : السفر الأول — القسم الثاني ص: 564.

والبمارستان المشهور الذى أقامه المنصور بمراكش ، وقد كان يعد وحده آية فنية فريدة من نوعها[1].

والذى شيد كل هذه الآثار العمرانية هم مهندسون أندلسيون جلبوا من الجزيرة لهذا الغرض .

حقا ان هذه الآثار لم تبلغ روعة المباني الأندلسية في الزخرفة، ومظاهر الأبهة الأخرى ، لأن الموحدين كما نعلم كانوا يجنحون الى البساطة والتقشف في كل مظاهر الحياة . الا أنها تصور بوضوح السمات العامة للهندسة المعمارية الأندلسية .

وما يقال عن الهندسة المعمارية يجرى على بقية الفنون الأخرى كالموسيقى والغناء اللذين بقيت آثارهما خالدة حتى الآن كما وضعها اساطينها في أزهى عصورهم منذ ألف عام تقريبا منهم ابن طفيل وابن زهر اللذين كانا يقيمان بمراكش .

وهناك الطرق الزراعية بكلما تشمله من تقنيات التلقيح والتلقيم وطرق الرى ، وهندسة تسريب المياه ، وما الى ذلك .

وبعد ،فخلاصة لكل ما تقدم يمكننا القول أن الثقافة ببلدان المغرب بدأت دينية أول أمرها ، وأخذت تنمو بصفة طبيعية منذ أن شعرت هذه المنطقة بنوع من الاستقرار والأمن مع ظهور أوائل الدول المستقلة بها مع منتصف القرن الثاني الهجرى . غير أن هذه الثقافة بقيت محصورة أول الأمر في الحواضر الكبرى وبعض المدن الساحلية التي كانت على اتصال وثيق بشبه جزيرة الأندلس .

ولم عمّ الزحف الهلالي بلدان شمال افريقية بدأت هذه الثقافة تمتد تدريجيا نحو المناطق الداخلية بفضل تعريب الهلاليين لها .

---

(1) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص : 287 — انظر كذلك الحميرى : الروض المعطار : ص : 541 .

وقد كان لتخريب القيروان وبعض المدن الافريقية الأخرى على يد الهلاليين أثر كبير في ازدهار الثقافة المشرقية التي حملها العلماء الأفارقة المهاجرين الى كل من المغربين : الأوسط والأقصى . وعندما جاء المرابطون وتم لهم توحيد بعض أجزاء المغرب مع الأندلس زاد ذلك في نمو الثقافة وانتشارها ببلدان المغرب بفضل من أمها من علماء الجزيرة الذين جلبهم المرابطون ، فطغت بذلك الثقافة الأندلسية على الثقافة المشرقية التي درجت عليها أغلب بلدان المغرب حتى الآن .

وعندما جاء الموحدون بفكرتهم الاصلاحية التحررية ، وكان جل حكامهم علماء ، أعطوا دفعا آخر للحركة العلمية بالبلاد ، وذلك بما مصروه من أمصار ، ونشروا فيها من مدارس ومراكز علمية مختلفة ، وانشؤوه من برامج وجلبوه من علماء ، وقد فتحوا باب التعاون على مصراعيه مع الأندلسيين . واعتمدوا عليهم اعتمادا كليا ، خاصة فيما يتعلق بالجانب الثقافي ، فاستقطبوا جل علمائهم في كل الفنون فأسندوا اليهم مناصب حساسة في الدولة ووكلوا اليهم أمر توجيه الحركة الفكرية في البلاد ، وقد وجهوها حسب ارادتهم معتمدين في ذلك على العنصر الأندلسي الذى بدأ يتكاثر ببلدان المغرب نتيجة الاضطرابات التي أخذت تتعرض لها الأندلس أكثر فأكثر .

وكان من نتيجة ذلك أن ازدهرت الحركة الفكرية في البلاد ازدهارا لم يسبق له مثيل ، وقد تجلى ذلك في الطبقات الهائلة من العلماء الذين برزوا في مختلف الفروع العلمية ، وقد تجاوزت شهرة الكثير منهم حدود بلادهم فاستقطبتهم الجوامع الكبرى في كل من الأندلس والمشرق . كما سنفصل ذلك في الباب الثاني .

الباب الثاني : — أنواع الأدب الموحدي .

الفصل الأول : — الشعر التقليدي .

1) المديح
2) الهجاء
3) الغزل
4) الوصف
5) الرثاء
6) الشعر الديني (الزهديات — النبويات) .

الفصل الأول

الشعر التقليدي :

نريد أن نتحدث في هذا الفصل عن الشعر المغربي ، ومدى ما وصل اليه من تطور في الشكل والمضمون ، ونتعرض لما استحدث فيه من الأنواع نتيجة التطور الثقافي والاجتماعي اللذين تعرضت لهما بلدان المغرب في القرن السادس .

وسنحاول أن نركز في هذا العرض على الشعراء المغاربة قدر الامكان حتى نستطيع أن نتعرف بدقة على مدى ما ساهم به أبناء هذا الوطن في اثراء ذلك التراث الأدبي الحافل الذى عرفه العهد الموحدى . وستجلى بوضوح مدى قدرتهم على التعبير الفني الراقي ، وتجاوبهم مع احداث عصرهم ، وهذا دون أن نهمل الشعراء الأندلسيين الذين عاشوا ببلدان المغرب ، وانقطعوا لخدمة الخلافة الموحدية بمراكش أو بغيرها من الحواضر الأخرى .

وقد عرضنا هذا التقييد لصعوبة التنقيب عن انتاج هؤلاء المغاربة ، وجمع شتاته من كتب التراجم ، وبعض الموسوعات التاريخية وغيرها من المضان الأخرى ، لأن أغلب الدواوين التي جمعت في ذلك العصر ، على كثرتها ، لم يصل الينا منها الا النزر القليل .

فمن بين هذه الدواوين التي ذكر أنها قد جمعت في العهد الموحدى نذكر :

1) ديوان محمد بن حبوس الفاسي (1)
2) ديوان ابي العباس الكوراني (الجراوي) (2)
3) ديوان ابي الربيع سليمان الموحدى (3) .
4) ديوان عمر المرتضى .
5) ديوان أبي بكر بن عتيق بن علي الصنهاجي
6) ديوان ابي حفص عمر بن عبدالله الاغماتي .
7) ديوان ابي عمرو ميمون خبازة الخطابي (4)
(8) ديوان ابي عبدالله محمد بن علي بن العابد (5)
9) ديوان ابي عبدالله محمد بن أحمد الاريسي الجزائري (6)
10) ديوان ابي طاهر عمارة بن يحيي بن عمارة (7)
11) ديوان أبي علي الحسن بن الفكون (8)
12) ديوان ابي عبدالله محمد بن علي بن حماد بن عبدالسلام (9) .

---

(1) ذكر ابن دحية في كتابه المطرب ص : 200 انه قدمه للملك الكامل المصري مما يفهم منه أنه كان مجموعا ، يقول . " وقد رفعت ديوان شعره للمقام المولوى السلطاني الملكي الناصري أدام الله انعامه " .
— وذكر ابن عبدالملك المراكشي ان شعر ابن حبوس يناهز الستة آلاف وخمسمائة بيت ، وقد تحصل منه على مجلد متوسط . عن الاعلام : ج . 3 . ص : 26 . عباس ابراهيم .
(2) ذكر ابن الابار في التكملة رقم : 823 انه وقف على ديوانه .
(3) حققه كل من محمد بن تاويت الطنجي وعباس الجراري وقام هذا الاخير بدراسته في " رسالة ماجستير " سنة 1965 .
(4) هو أبو عمرو ميمون بن علي بن عبدالخالق الخطابي المعروف بابن خبازة من قبيلة صنهاجة له ديوان جمع فيه شعره ونثره ، لم يصلنا ، أورد له المقرى في ازهار الرياض بعض النماذج من شعره كما ذكر عبدالله كنون في جملة " ذكريات مشاهير المغرب " . توفي بمراكش سنة 637 .
(5) ذكره ابن القاضي في الجذوة وقال عنه تلميذه ابو الحسن بن القطان " ارانا شعره مجموعا " ص : 278 .
— وترجم له عباس بن ابراهيم في الاعلام : ج . 3 . ص : 102 .
(6) ذكر الغبريني أنه " شرع في تدوين شعره في عام ثلاثين وستمائة ، وهو في كل عام يقول منه ما يكتب في ديوان . وعاش بعد شروعه في تدوين شعره ثلاثا واربعين سنة " عنوان الدراية ص : 72 — وترجم له في ص : 337 من نفس الكتاب .
(7) ترجم له الغبريني في العنوان ص : 45 وقال عنه : " ذكر لي أن شعره قد جمع في ديوان " .
(8) ذكر الغبريني أن "له ديوان شعر وهو موجود بين أيدى الناس ومحبوب عندهم " عنوان الدراية ص : 334 .
(9) ذكره الغبريني : في عنوان الدراية : ص : 218 — 220 .

وغيرها من الدواوين الأخرى كثيرة . وهذا بغض النظر عن الشعراء الذين لم يؤثر عنهم أنهم جمعوا اشعارهم في دواوين خاصة . الا أن الذى وصلنا من هذه الدواوين المجموعة ، لا يكاد يذكر .

لذا فنحن أمام هذا الوضع لم نجد بدّاً من الاكتفاء بما أمكننا جمعه . ورأينا أن نقصر دراستنا على الشعراء الذين توفر لهم بعض الانتاج باعتبارهم أحسن من يمثل الفكر الأدبي في العهد الموحدى بصفة عامة .

واتقاء للتكرار الممل ، رأينا أن نوزعهم على أهم الأغراض الشعرية التي ظهرت في ذلك العهد ، كل حسبما اشتهر به ، واختص فيه ، وهذا بالنسبة لكل الأجناس الشعرية . ونبدأ ، أولا ، بالشعر التقليدى ثم نثني بالموشحات ، ثم نختم أخيرا بالأزجال .

أما الشعراء المغاربة الذين سنركز عليهم في هذا الفصل ، باعتبارهم الأكثر نتاجا ، فهم :

1) ابو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبوس .
2) ابو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوى .
3) ابو الربيع سليمان الموحدى .
4) ابو حفص عمر السلمي الأغماتي .

كما قد نتعرض لبعض الشعراء الآخرين : كأبي جعفر ابن عطية ، وأبي حفص عمر الموحدى ، وأبي عبدالله التلمساني ، وابن الياسمين وابن لفكون وغيرهم .

أما الشعراء الأندلسيون فسنعرض منهم خاصة لمن كان لهم اتصال وثيق بالبلاط الموحدى من امثال ابن مجبر ، وابن يخلفتن الفزازى . أما شعراء المناسبات الآخرون كابي بكر بن ميمون القرطبي ، وأبي بكر المنخل الأشبيلي وابي العباس بن سيد الملقب باللص ، وابن الشريف المرواني المشهور بالطليق ، واسماعيل بن عمر الشواش الشلبي

وابن عمرو بن خربون ، وابن صاحب الصلاة، وابن عبد ربه ، وغيرهم فلن نتعرض لانتاجهم الا اذا دعت الضرورة للاستشهاد ببعض ما قالوه في مجال المقارنة مثلا .

أما الأغراض التي سيدور عليها كلامنا في هذا الفصل فهي :

1) المدح
2) الهجاء
3) الغزل
4) الوصف
5) الرثاء
6) الشعر الديني .

1 — شعر المدح :

ان أكثر الأغراض الشعرية انتشارا ، وأغزرها نتاجا بالنسبة للأدب العربي القديم هو المدح ، دون شك . فما من أديب قال شعرا الا وكان المديح من أهم الأغراض التي تستهويه ، وتسترعي اهتمامه ، وقد يستحوذ عليه ، خاصة اذا كان هذا الأديب من المحترفين . فالمديح بالنسبة للشاعر المحترف يشكل مصدر الرزق الأكثر ضمانا بالمقارنة لما يمكن أن تدره عليه بضاعته فيما اذا استغلها في الأغراض الأخرى . وذلك لأن المدح مرتبط أساسا بالأقوياء القادرين على البذل السخي الذين يهبون الصلات السنية والأموال الطائلة دون أن يؤثر ذلك فيما يملكون شيئا ، فهؤلاء لا يمكن أن يكونوا بالطبع ، الا خلفاء أو أمراء أو حكام أو رؤساء فهم الوحيدون الذين يملكون القدرة على هذا التصرف .

فالساسة الحكام هم الذين يتوقون ، عادة لتسجيل مآثرهم ، ويطمحون لنشر مبادئهم التي يرتكز عليها حكمهم . وليس هناك أخلد مما يسجله الشعر اذا خلص، ولا أسرع انتشارا للدعاية من لسان شاعر اذا اخلص . لذلك كان شعر المدح أغلبه سياسيا ، ودعائيا في أكثر الأحيان .

والشعراء المرتزقون هم في واقع الأمر تجار يخضعون لقانون العرض والطلب ويعملون بمقتضاه ، لذلك تراهم لا يعرضون من البضائع غالبها إلا ما هم متيقنون من نفاذها ، وهذا ما يجعلهم يتنافسون في سبر أغوار ممدوحيهم لاكتشاف ميولهم الحقيقية وأحاسيسهم الخفية لينسجوا مدائحهم على منوالها .

ولئن كانت هناك مجموعة كبيرة من الصفات الحميدة التي تعد بمثابة القاسم المشترك بين كل الممدوحين إلا أن هناك لكل ممدوح خاصيته التي يتميز بها ويريد أن تنتشر عنه دون أن يدعو هو إليها جهارا . وليس شرطا أن تكون هذه الخاصية خلة من الخلال الأخلاقية الحميدة ، بل غالبا ما تكون مبدأ من المبادئ الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، يريد أو يدعو إليها دون أن يظهر نفسه طرفا فيها . وهنا يتجلى تنافس الشعراء في التكهن واكتشاف ما تختلج به ضمائر ممدوحيهم ، ويظهر ذكاؤهم في طريقة عرضه وتصويره . والحظوة عند هؤلاء الممدوحين تنال على هذا الطريق ، فبحسب تجاوب الشاعر مع أهواء ممدوحه وميوله الخفية تعلو منزلته عنده أو تنخفض .

وهذا يعني أن شعراء المدح كانوا يضعون أنفسهم وقرائحهم طوع ارادة ممدوحيهم ، لا يهمهم صحة ما يصفونهم به ولا مدى مطابقة ما يدعون إليه ، على ألسنتهم للواقع ، بقدر ما يهمهم رضى ممدوحيهم الذى يتوقف عليه تحديد الصلة التي هي غرضهم الأسمى من وراء كل ذلك .

ورغم كل هذا ، فان شعراء هذه الفترة التي نتناولها بالبحث ، لم يخرجوا من الناحية الشكلية على الأقل — عن الاطار الذى رسمه النقاد للشاعر القديم من حيث كونه لسان حال القبيلة وناطقها الرسمي ، أى جهازها الدعائي حيث بقوا يؤدون وظائفهم كأجهزة دعاية حتى في هذا الوقت ، الا أنهم لم يلتزموا بمبدأ الاخلاص للقبيلة وحدها ، كما

كان يفعل الشاعر الجاهلي ، وهذا راجع لا محالة للظروف الاجتماعية التي كان يعيشها كل من الشاعرين ، فالشاعر الجاهلي كان يعيش في مجتمع قبلي ، بدائي ، متعصب ، وحدته النظامية كانت هي القبيلة التي ينتمي اليها ، لذلك كان صادق اللهجة قولا وعملا ، أي أنه كان مخلصا في دفاعه عنها ملتزما بمبادئها وسياستها العامة ، بينما عاش الشعراء في الامبراطورية الاسلامية في مجتمع متحضر ، وحدته النظامية هي الدولة التي ذابت في بوتقتها كل الوحدات الصغرى وان بقيت بمثابة الخلايا التي تمدّ جسم الدولة الكبير بالطاقة الضامنة لحياته . فهذا التغاير النسبي في شكل المجتمعين القديم والحديث ، ترك الشعراء المحدثين يتحللون دون تحرج مما كان يلتزم به اسلافهم الأقدمون ، وفيما عدا هذا فان الشاعر المرتزق في العصور الوسطى لم يتغير في شيء على الشاعر التقليدي القديم ولا حاد عن النهج الذى رسمه لهم زعيمهم الأول النابغة الذبياني .

— المدح في العهد الموحدى :

لازدهار الشعر في مجتمع ما ، لابد له من توفر شرطين أساسيين هما : رسوخ اللغة التي يقال بها في أبناء ذلك المجتمع ، وانتشار الثقافة العامة بينهم ، لأنّ الشعر ، كما نعلم ، ينحت قوافيه من اللغة ، ويغرف معانيه من التراث.

أما المدح ، فرغم كونه من أكثر الأغراض الشعرية شيوعا ، فهو لا يمكن أن ينمو نموا طبيعيا الا اذا توفر له في الممدوح ، زيادة على ذلك ، شرطان آخران ، هما : الذوق الراقي ، واليد الكريمة . فبدون النقد ، لا يمكن أن يصقل ويجود ، وبدون البذل لا يمكن أن ينمو ويزدهر .

فكيف كان الوضع في العهد الموحدى ازاء هذه الشروط التي تعتبر أساسا لنمو الشعر بصفة عامة ؟ وكيف كان موقف الخلفاء والحكام من شعر المدح بصفة خاصة ؟

أما بالنسبة لتأصل اللغة وانتشار الثقافة فقد سبق لنا أن فصلنا القول في ذلك بما فيه الكفاية عند تتبعنا لانتشار اللغة ببلدان المغرب ثم عند عرضنا لمختلف اسباب ازدهار الثقافة في العهد الموحدى .

فالبيئة اللازمة لنمو الشعر اذن ، على هذا الاعتبار ، كانت متوفرة توفرا كاملا . وليس أدل على ذلك من ظهور عشرات الأدباء المغاربة الذين لمعت أسماؤهم في شتى فنون الأدب على هذا العهد ، وقد تعدت شهرة الكثيرين منهم حدود بلدانهم وعدّوا مع العباقرة الذين انجبتهم أشهر العواصم المشرقية والأندلسية ، كما سنرى ذلك في حينه .

أما بالنسبة لموقف الخلفاء من المديح ، فانهم لم يكونوا يختلفون ، في شيء ، عن أقرانهم بالمشرق ، أو بالأندلس عندما كان ملوكها في عزّ مجدهم . فقد كانوا يهشون للمديح كما يهش له كل عربي ، وكانوا يتذوقونه وينقدونه نقد البصير المحنك ، يهتزون لما هو رائع منه ويطربون له ، وقد يكتفون بسماع بيت واحد من القصيدة، اذا حاز اعجابهم ، ويجازون عليه بالأموال الطائلة ، وقد لاتهزهم الثمانون بيتا اذا كانت مبتذلة ركيكة . وكانوا لايتورعون عن اسكات الشاعر اذا ما أخل بشروط اللياقة ، أو خانه التوفيق في الصقل والتجويد . كما لا يبخلون بالتنويه بمن كان يستحق التنويه .

وهذا ان دلّ على شيء فانما يدلّ عما كان يتمتع به هؤلاء الخلفاء من ثقافة أدبية راقية ، كما يدل عما كانوا يتوفرون عليه من حاسة نقدية عالية وذوق سليم ، نمّاهما الاطلاع الواسع وكثرة المراس .

ـ فلقد أثرت مواقف عديدة عن الخليفة عبد المؤمن بن علي جرت له مع بعض شعراء المديح ، دلت على ذوقه الرفيع ، وبداهته المفرطة.

فمن ذلك ما أورده المراكشي[1] ، وهو بصدد وصف الاحتفال الذى أقامه الشعراء للخليفة عند ابتنائه لمدينة جبل الفتح (طارق) حيث ذكر من جملة الذين مدحوه في ذلك اليوم المشهود ، الشاعر الأندلسي الشريف ، المعروف بالطليق المرواني[2] ، وكان قد استهل قصيدته كالتالي :

" ما للعدى جنة أوقى من الهرب " ....

فبمجرد أن سمع عبدالمؤمن هذا الشطر الأول ، رفع صوته متسائلا ، في انكار وتهكم ، الى أين ؟ الى أين ؟ وهذا قبل أن يتم الشاعر بقية البيت . فأكمل الطليق قائلا :

.... " أين المفر ، وخيل الله في الطلب ؟ ! "

فهذه الفورية في الرد من طرف عبدالمؤمن ان دلّت على شيء فانما تدل على سرعة البديهة التي لا يتوفر عليها الا أفذاذ الأدباء ، والا فكيف نفسر هذه السرعة في الفهم ، ونحن نعلم أن الخليفة لم يسبق له أن اطلع على القصيدة قبل ذلك ، ولم ينشد الشاعر منها سوى صدر البيت الأول ، واستطاع عبدالمؤمن ، رغم ذلك أن يكون فكرة عما أراد أن يقوله الطليق فلم يمهله حتى بادره ، في انكار سائلا : الى أين ؟ وكأنه قد استوحى معنى الشطر الثاني ، فعرف أن لا مفرّ لهم ، مهما حاولوا ذلك . والواقع ، أن هذه السرعة في الفهم ، بقدر ما تدل على بداهة عبدالمؤمن فهي تنبيء ، من ناحية أخرى على أصالة الشاعر ، وقوة ملكته ، وتوفيقه في صياغة البيت ، اذ أحسن الأبيات كما يقول النقاد ، هي تلك التي ينمّ صدرها عن عجزها .

---

(1) المراكشي : المعجب : ص 285 ت . العريان.

(2) يسميه المقرى في النفح : ج . 3 . ص : 592 بالأصم المرواني .
ـ انظر ماقاله المراكشي في المعجب : ص 116 ـ 117 عن سبب سميته بالطليق ـ وانظر كذلك في هذا الموضوع ابن صاحب الصلاة : المن : ص153 .

وقصيدة الطليق، هذه، تعد، في الحقيقة، من الفرائد التي قيلت في ذلك المهرجان، فهي تدل، رغم طولها النسبي، اذ تيفت على الخمسين بيتا، على طول نفس الشاعر وقوة تمكنه من الشعر.

وقد وصف ابن صاحب الصلاة اعجاب عبدالمؤمن بهذه القصيدة بقوله : " وعند اكمال هذه القصيدة بالانشاد تهلل وجه أمير المؤمنين، رضي الله عنه لحسن أغراضها وهزته اريحية العارف بما فيها من الأوصاف، وتبلج فلق مجده عن هبة جزلة للقرشي الطليق أبدت لقوله القبول وسفرت له عن وجه طليق "(1).

ولم يتمالك الخليفة اعجابا بالقصيدة، فقال لجلسائه ولمنشدها : " بمثل هذا تمدح الخلفاء ".

ولم يكن الخليفة هو المعجب الوحيد بهذه القصيدة بل شاطره في ذلك كل مشاهير الأدباء الذين حضروا الحفل على رأسهم ابن صاحب الصلاة نفسه الذي نوه بالشاعر وروى قصيدته كاملة في كتابه " المن"، ومنهم أبو الحسن عبدالملك بن عياش القرطبي الذي كان " واقفا يحسن ابياته ويكررها " حسب تعبير ابن صاحب الصلاة "(2).

ومما يدل على ذوق عبدالمؤمن الأدبي، وهشه للمديح الجيد أيضا، ما وقع له مع الشاعر الأندلسي محمد بن أبي العباس السمعاني الذى مدحه، هو الآخر، بقصيدة طويلة، استهلها بقوله :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي .

وقد استوقفه الخليفة عند انشاده هذا البيت الأول الذى ملك عليه اعجابه، واستعاده منه عدة مرات، ثم أمره أن يقتصر عليه في الانشاد واجازه — حسبما ذكر العماد في الخريدة — بألف دينار، قائلا له : " لقد قلت في هذا كل شيء "(3).

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة : ص : 159، انظر عنده القصيدة كاملة.
(2) المرجع السابق.
(3) العماد

فتوقيف هذا الشاعر يكمن ، أولا ، في براعة استهلاله لقصيدته ، وهو توفيق لايحالف الأديب دائما ، فيما يرومه من أعمال ، وقد عد النقاد هذه الميزة من المحاسن التي يجب مراعاتها خاصة في مخاطبة الممدوحين .

ثم انه وفق بالأخص في اختيار الصورة التي كان الممدوح يفضل دائما أن يظهر بها[1] وهي صورة العظمة والملك ، وما يستلزمه كل ذلك من مظاهر الأبهة والقوة ، فقد كانت أحسن المناظر التي تروقه مناظر استعراضات الجيوش وهي في كامل عدتها وعتادها[2] .
ثم ان التسمية بالخلافة كان لها رتبتها الخاصة لدى الموحدين ، فقد كان عبدالمؤمن ، كما نعلم ، أول الحكام المغاربة الذين تلقبوا بهذا اللقب باعتباره خليفة للمهدي الذي يمثل الامامة ، لذلك كان حريصا كل الحرص على أن يلقب بالخليفة ، فقد رأينا ما قاله للطليق عندما أنشده قصيدته بجبل الفتح " بمثل هذا يمدح الخلفاء " .

فالبيت من هذه الوجهة اذن يعدّ من أحسن ما قيل في مدح عبدالمؤمن لأنه أصاب الهدف الذي قصده الشاعر ، وهو نيل رضى ممدوحه واثارة اعجابه . وهذا هو المعيار الحقيقي الذي يجب أن نعتبر به شعر المدح وشعر الهجاء أيضا .

= ـ ذكر ابن صاحب الصلاة أن ابن حبوس الفاسي مدح الخليفة عبدالمؤمن عند استلائه على افريقية سنة 555 بقصيدة سمع منها بيتا واحدا وقال : " يكفيه هذا البيت وأمر له بجائزة " المن بالامامة ص : 116 .
(1) انظر ماقاله البيدق : في أخبار المهدى ص : 14 ـ 15 . عن الأحلام التي كانت تراود عبد المؤمن .
(2) ذكر المراكشي أن أبا جعفر بن عطية دخل يوما على عبدالمؤمن وهو في بستان له بمراكش ، وقد أينعت ثماره وتفتحت ازهاره فجعل يكثر النظر الى ما حوله متعجبا من حسن المنظر فقال له عبدالمؤمن أراك كثير النظر الى هذا البستان ، فقال والله انه لمنظر حسن ، فقال : يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا ؟ قال نعم فسكت الخليفة عنه ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر باستعراض الجند بكامل سلاحه فجعلت الفرق تمر عليه كتيبة بعد أخرى ولا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها فالتفت الخليفة الى وزيره وقال : " هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك " ـ انظر : المعجب ص : 270 .

وعلى هذا الاعتبار ، فان ما ألف النقاد القدماء أن يقدموه لنا كأحسن بيت قالته العرب في المدح ، أو كأقذع بيت قيل في باب الهجاء حكم فيه كثير من التجاوز اذا كانوا يقصدون بحكمهم هذا الاطلاق . لأن الحسن أو القبح انما هما نسبيان .

فبيت جرير الذى قال فيه لعبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

واعتبره النقاد أحسن ما قيل في باب المديح ، انما اكتسب حسنه أساسا من اعجاب عبد الملك به ، لأنه صوره كما يجب أن يكون ، فحكم الممدوح على البيت كأحسن ماقيل في المدح حكم له ما يبرره أما أن يطلق النقاد هذا الحكم ويعتبروا البيت من أحسن ما قيل في المدح على الاطلاق لمجرد اعجاب عبد الملك به فذالك غير منطقي .

وما يقال عن مدح جرير هذا يسري أيضا على بيته الذى قاله ضمن قصيدة طويلة في هجاء الراعي ، واعتبره النقاد أيضا من أقذع ما قيل في الهجاء . فهو بيت مقذع حقا ، لكن من وجهة نظر الراعي لأنه أصاب نقطة الضعف فيه ، فتأثر له ، والا فأى قذاعة يراها المرء في قوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا ؟! خاصة اذا ما قارناه بما شحنت به نفس القصيدة من أبيات غاية في الشتيمة والسباب منها ما يخص نمير نفسه ، ومنها ما يتعلق بغيره من الشعراء كالفرزدق ؟!

فالذى أريد أن أصل اليه من وراء كل هذا هو أن توفيق الشاعر المادح أو الذام لا يكمن في جودة معنى البيت وحسن صياغته بقدر ما يكمن في رد الفعل الذى يظهره المقصود بالمدح أو الذم . فعلى قدر استحسانه لما وصف به ، أو استقذاعه له يزكو معنى البيت وترتفع قيمته ، من الناحية الفنية طبعا .

على اني لا أريد أبدا أن أنقص من قيمة بيت السمعاني الجمالية فهو حقا بيت رائع ، استطاع قائله أن يشحنه بكل ما يمكن أن يوصف به خليفة من مظاهر العظمة والقوة والأبهة والشجاعة. حقا لقد قال فيه كل شيء كما قال عبدالمؤمن .

ومما يبرهن على رهافة حس عبدالمؤمن النقدية ما وقع له ، أيضا ، مع الشاعر الاشبيلي ابن سيد الملقب باللص[1] الذى مدحه هو الآخر بقصيدة رائعة في الاحتفال الذى أقيم له بجبل الفتح ، وكان قد استهلها بقوله :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل   وانظر الى الجبل الراسي على جبل
أنى استقر به انى استقل به   أنى رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبدالمؤمن لما سمع البيت الأول : " لقد أثقلتنا يا رجل " فأمر به فأجلس .

وقد ذكر ابن صاحب الصلاة الذى شهد الحفل ، أن الخليفة عندما سمع الشطر الأول من القصيدة "غمض عن الشمس ..." جعل يقول على مسمع من الناس "غمض" "غمض" مستنكرا لهذه الافتتاحية التي تبعث على التشاؤم " وكان يحب الفأل الحسن"[2].

لقد عاب النقاد هذا النوع من الافتتاحيات الغير المناسبة للمقام وعدوها من أكبر عيوب الشعر ، وانتقدوها على كثير من فطاحل الشعراء الذين سجلت عليهم أمثال هذه الاستهلالات الغير اللائقة.

---

(1) ترجم له ابن دحية في المطرب : ص : 200 — 202 . وقال عنه هو أبو العباس أحمد ابن علي بن محمد الكناني يعرف بابن سيد ويلقب باللص ولد سنة 507 وتوفي سنة 576 .
— وذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه : المن ص : 148 وأورد له قصيدته كاملة وذكر أنه لم يلقها هو بنفسه وانما بعث بها ، لضعفه عن الوصول ، فألقاها عنه بالنيابة محمد بن المدهور — وهذا خلافا لما أثبته المراكشي في المعجب : حيث يفهم من كلامه أنه كان حاضرا — انظر ص : 286 . ت : العريان .

(2) المرجع السابق .

فقد عابوا على جرير مطلع قصيدته التي مدح بها عبدالملك ابن مروان والتي يقول فيها :

" أتصحو أم فؤادك غير صاح " وكان أول من لامه على ذلك عبدالملك نفسه وهو من فحول النقاد كما نعلم ، فرد عليه على الفور بقوله : " بل فؤادك أنت يا .... "

كما عابوا على الشاعر الأموي القديم ، افتتاحيته التي استهل بها قصيدته التي مدح بها هشام بن عبدالملك حيث شبه فيها عين الشمس وهي تميل للغروب بعين الأحول ، وكان الممدوح أحولاً .

وقد وقع المتنبي نفسه على علو كعبه في هذه الهفوة عدة مرات مع سيف الدولة وغيره . وكان مطلع قصيدته المشهورة التي مدح بها كافوا الاخشيدي كالتالي :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا .

وهي افتتاحية في غاية اليأس والقنوط كما ترى ، فهي أقرب الى الرثاء منها الى شيء آخر .

فموقف عبدالمؤمن من افتتاحية " اللص " لم يكن بدعا من المواقف اذن ، بل هو رد فعل طبيعي ، ولم يكن تصرفه هذا ناتجا عن افراطه في التشاؤم اذ لم يشتهر عنه ذلك فيما نعلم ، ولكن ذوقه الأدبي لم يستصغ مدحا يبدؤه صاحبه بمثل كلمة " غمض " التي توحي بحلكة الظلمة ، وكلمة " جبل " التي توحي بالثقل والضخامة . فقد كان أولى بشاعر المدح أن يعتني بمطلع قصيدته الذي يعد بمثابة " واجهة العرض " بالنسبة لكل القصيدة فلا يبرز فيها من الكلمات الا ما تطرب لنغمته الأذن ، ولا يظهر فيها من المعاني الا ما ترتاح لصورته العين ، فالانسان ميال بطبعه الى كل ما هو سمح كريم ، كما يتفاءل بسماع كل ما هو طيب .

- ولم يقتصر هذا التشجيع الذى اشتهر به عبدالمؤمن لشعراء المدح عليه وحده ، وانما كان ذلك موقف كل الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم بعده فلقد انقطع الى كل من أبي يوسف يعقوب وابنه يعقوب المنصور ، وحفيده محمد الناصر خيرة شعراء عصرهم قصدوهم من كل أطراف الامبراطورية الاسلامية ، منهم من لازموهم، وأقاموا بجوارهم طوال فترة حياتهم يسجلون مآثرهم ويخلدون مواقفهم البطولية التي اشتهرت عنهم في كل من المغرب والأندلس وكان على رأس هؤلاء محمد بن حبوس الفاسي ، وأبو العباس احمد ابن عبدالسلام الجراوى الذى عاصر الخلفاء الأربعة الأول مدحهم جميعا ونال جوائزهم وقد كان عبدالمؤمن يقول له : " يا أبا العباس اننا نباهي بك أهل الأندلس "(1).

ومنهم ،ابن مجبر الأندلسي الذى انقطع للمنصور ، ولازمه في حله وترحاله . وكان أبو يعقوب معجبا به أيما اعجاب . وكان يقول له : كل الشعراء عيال عليك يا أبا بكر "(2).

وقد كان المنصور أديبا ينظم الشعر وينقد القصيد . فمما أثر عنه في هذا الباب ، ما رواه المقرى في النفح عندما ألقى ابن مجبر قصيدته التي مدح بها يوسف بن عبدالمؤمن يهنئه فيها بأحد فتوحاته ، فعندما وصل الشاعر للبيت التالي :

ان خير الفتوح ماجاء عفوا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

اعترض عليه أبو العباس الجراوى الذى كان حاضرا بالمجلس واتهمه باهتدام بيت وضياح الذى يقول فيه :

خير شراب ما كان عفوا كأنه خطبة ارتجال

" فبدر المنصور، وهو حينئذ وزير أبيه وسنه قريب العشرين ، وقال : ان كان اهتدمه ، فقد استحقه لنقله من معنى خسيس الى معنى شريف، فسرّ أبوه بجوابه ، وعجب الحاضرون "(3).

---

(1) ابن سعيد : الغصون : ص: 100.
(2) المقرى : نفح الطيب : ج. 3. ص: 238.
(3) المصدر السابق .

وكان المنصور لا يجارى في كرمه بالنسبة للشعراء ، فقد ثبت أنه أعطى ابن منقذ ، رسول صلاح الدين الأيوبي على قصيدته التي مدحه بها أربعين ألف دينار وكانت تعدّ أربعين بيتا [1].

وأكبر دليل على ازدهار شعر المديح في هذا العصر ما رواه المقرى في النفح ، حكاية عن محمد بن الجلاب صاحب كتاب "رُوح الشعر ورَوْح السحر" حيث ذكر أن "يعقوب المنصور لما قفل من غزوة الأُراك المشهورة ... سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، وردَ عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل انسان قصيدته ، بل كان يختص منها بالانشاد البيتين أو الثلاثة المختارة . فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنت في أمراء النا س كلهم   الا كصاحب هذا الدين في الرسل
احييت بالسيف دين الهاشمي كما   أحياه جدك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار . ولم يصل أحدا غيره لكثرة الشعراء ..... وانتهت رقاع القصائد وغيرها الى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها "[2].

فبالرغم مما تتسم به هذه الحكاية من بعض المبالغة الا أنها تعطينا صورة تقريبية عن ازدهار الشعر في ذلك الوقت بصفة عامة ، وعن كثرة شعراء المديح خاصة ، وشدة اقبالهم على الخلفاء لما ألفوه منهم من رعاية وكرم .

بقي علينا الآن أن نطلع على نوعية هذا الشعر ، خاصة ما كان منه مغربيا ، لنتعرف على مبلغ جودته ، بالمقارنة لما انتجه الأندلسيون في ذلك العهد .

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 1 ص : 445 .
(2) المرجع السابق . ج . 4 . ص : 172 .

— أحسن من يمثل شعر المديح من المغاربة ، في نظرنا ، بالنسبة لهذه الفترة ، أديبان عدهما المؤرخون من شعراء البلاط الموحدي ، وهما : أبوعبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبوس الفاسي وأبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي .

وهناك شاعران آخران قالا في المديح مثل ما قالا في غيره من الأغراض ، ولكن دون أن يتخذا قول الشعر حرفة ، ولا وسيلة استرزاق كما فعل الشاعران الأولان ، وهما : أبوحفص عمر الأغماتي ، وأبوالربيع سليمان الموحدي .

أما بالنسبة للشعراء الأندلسيين الذين انقطعوا لخدمة الموحدين فيعدّون بالعشرات . الا أن أكثرهم التصاقا بالبلاط هما : أبو بكر بن مجبر الذى اختص بالمنصور الموحدى ولازمه في حله وترحاله ، وأبوعبدالله بن يخلفتن الفزازى الذى لازم محمد الناصر ومن جاء بعد من الخلفاء .

— يعد ابن حبوس أول شاعر مغربي امتدح الموحدين وسار في ركابهم، وهو كما نعلم من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في العهدين : المرابطي والموحدى ، وقد ولد بفاس سنة 500 وتوفي سنة 570، وقد كان ، كما قال المراكشي ، " في دولة لمتونة مقدما في الشعراء، حتى نقلت اليهم عنه حماقات فهرب الى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفيا يتنقل من بلد الى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية [1]".

وأول قصيدة وصلتنا منه في مدح عبدالمؤمن ، هي تلك التي أورد منها صاحب كتاب " زاد المسافر " هذين البيتين :

---

(1) ترجم له كل من : ابن دحية : في المطرب : ص : 199 — 200 — وابن الأبار في التكملة : رقم 1055 وذكره المراكشي : في المعجب : ص : 288 — انظر كذلك عنه مقالا لمحمد الفاسي تحت عنوان " الشاعر ابن حبوس " في مجلة الثقافة المغربية — نوفمبر ديسمبر 1961 ، ص : 153 — 162 .

عصفت بدعوتك الرياح الهوج ... وسطا بأمرك ذابل وَوَشيج
وتقدمتك الى العداة مهابة ... يشقى بها في سده ياجوج (1)

وقد أورد منها ابن صاحب الصلاة بيتا ثالثا ذكره كمستهل للقصيدة وهو :

شدت اليك على الرياح سروج ... أين المفر بأهلكم يا جوج

الا أن المفهوم من كلامه أن القصيدة قيلت في فتح المهدية سنة 554 — 555 لا في حصار بجاية كما هو المشهور حيث قال : " ولما فتح الله تعالى مدينة المهدية ... جلس أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه للموحدين اجمعين مجلس التهنئة ، والشكر لله تعالى على ذلك ، ودخل اليه الفقيه العلامة أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضر ، فقبل يده ، وهنأه على ذلك ، فقال الخليفة ، له رضي الله عنه : يا أبا محمد ، هل قال أحد في هذا الفتح شيئا قال قال فيه ابن حبوس قصيدا حسنا ، وأوله (وأورد البيت السالف الذكر) قال الخليفة يكفيه هذا البيت وأمر له بجائزة "(2).

ونحن نستبعد أن تكون هذه القصيدة هي أولى مدائح ابن حبوس في الموحدين ، حتى ولو صحّ أنها قيلت في حصار بجاية سنة 547 هـ ، لأنّ الشاعر كما نعلم كان مطاردا من طرف الحكام المرابطين يعيش مشردا بالأندلس بعيدا عن بلده مدة سنوات عديدة ، فليس من المعقول أن ينتظر كل هذه المدة ليثبت ولاءه للحكام الجدد ، وهو الذي كان ينتظر زوال حكم المرابطين بفارغ صبر . لذلك نرشح أن تكون هنالك قصائد كثيرة قالها قبل فتح الموحدين للمغرب الأوسط الا أنها لم تصلنا ، كما نرشح أن تكون جيميته هذه قيلت في بجاية الا أن الخليفة لم يجازه عنها الا بالمهدية . لأنّ القصيدة

---

(1) التجيبي : زاد المسافر ص : 43 — 44 ، قال في تقديم صاحبها " من نظر بجاية " ونحن نعلم انه من فاس . الا اذا كان يقصد أن القصيدة قيلت في نظر بجاية . وهو ما أكده ابن تاويت في : الوافي : ص : 93.
(2) ابن صاحب الصلاة : المن : ص 115 — 116.

التي قالها ابن حبوس في فتح المهدية هي رائية القافية منها قوله :

بطالع الأسد اختط البناء بها لكنك الأسد الدامي الأظافير
با ب حديد وأبراج ثمانية . . . تسخر العقل فيها أي تسخير (1)

وقد ذكر هنري بريس قصيدة أخرى لابن حبوس قالها عندما تم فتح بجاية أورد له منها الأبيات التالية :

من القوم بالغرب تصغي الى حديثهم أذن المشرق
جروا والمنايا الى غاية فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك أروع تفرّد بالسؤدد المطلق
تخيره الله من آدم فما زال منحدرا يرتقي
الى الناصرية سرنا معا ولمّا تفتنا ولم تلحق
الى برزة في ذرى أرعن تجل عن السور والخندق
يعوذون منا بمولاهم ومولاهم عاذ بالزورق
وأكسبه خوفه حقّة فلو خاض في البحر لم يغرق (2)

يصف الشاعر ، كما نرى ، في نوع من الاعجاب تلك الجيوش التي انطلقت من المغرب ، وقد ملأ ذكرهم البلاد ، فصاخت لهم آذان المشرق . وقد جروا مع المنايا كفرسي رهان ، قاصدين غاية واحدة فبلغوها معا ، دون أن يسبق أحدهما الآخر . وكانت بأيديهم السيوف المجردة وكأنها الشهب ، لا تصيب برجمها الا ما هو باطل . وهؤلاء الأبطال يخضعون لقيادة ملك موهوب الجانب تفرد بالسيادة المطلقة ، ولم يكن ارتقاؤه لذلك المنصب عن طريق الصدفة ، وانما تخيره الله تخيرا من ذرية آدم منذ أن خلقه . وهو لا يزال يرتقي ويشرف منذ أن بدا ينحدر من آدم .

وقد قادنا الى بجاية الناصرية ، التي احتمى بها جيشها في ذروة جبلها الشاهق الحصين الذى تفوق مناعته مناعة المدن المسورة

---

(1) ابن تاويت : الوافي بالأدب : ص : 101.
(2) المرجع السابق ص: 94.

أو المحصنة بالخنادق ، وكان جنود الحماديين الذين كنا نطاردهم ببجاية يحتمون منا بمولاهم وقائدهم[1] وهو يحتمي بزورقه الذي أعده للهرب . وقد استحف الخوف قائدهم لدرجة أنه لو رام خوض البحر مشيا لما غرق .

فأول ما يسترعي الانتباه في مدائح ابن حبوس بصفة عامة هي روح المبالغة والتضخيم في كل ما يطلقه من أوصاف على ممدوحيه ، فنحن نراه مثلا في هذه المقطوعة كيف يحاول أن يصبغ على عبدالمؤمن ، وكل من اتصل به ، نوعا من القداسة والاجلال الغير المألوفين . فهو يصور القوم وكأنهم غير عاديين ، ويبرز كل ما يصدر عنهم وكأنه من خوارق العادات وهذا لأن ممدوحه ليس من الملوك المألوفين المحدودي السلطة والسيادة فهو من تخيره الله ، فهو ظله في الأرض ، وقدرته لا تعجزها أية قوة مهما عظمت . وفي هذا ما فيه من ايحاء بالدرجة التي يرفع اليها الموحدون الامام المهدي وخليفته حيث يرتقون بهم الى مصاف الأنبياء والرسل .

ويتجلى هذا الاجلال والتفخيم بصفة أكثر وضوحا في المقطوعة التالية التي حاول الشاعر أن يعقد فيها مقارنة بين البحر المحيط وممدوحه عبدالمؤمن الذي عسكر بجواره . نراه يخاطب البحر فيقول :

ألا أيها ذا البحر جاورك البحر	وخيّم في أرجائك النفع والضر
وجاش على امواجك العقل والحجا	وفاض على اعطافك النهي والأمر
وسال عليك البر خيلا كأنها	اذا حاولت غزوا فقد وجب النصر
لعلك يطغيك اشتراك سمعته	فذلك بحر لا يشاكله بحر
فأنت خديم الشمس والبدر عنوة	وتخدمه في أمرها الشمس والبدر
ويحويك شطر الأرض تغمر بعضه	وفي صدره الأفلاك والبر والبحر (2)
وقد وسع الأيام جودا ونجدة	وليس لما تأتي به عنده قدر

(1) القائد الحمادي الذي يشير اليه ابن حبوس هو الأمير يحي بن عبد العزيز الحمادي .

(2) نقلت هذا البيت من كتاب الوافي بالأدب ص: 105 الذي أورد المقطوعة مع اختلاف في ترتيب الأبيات السبعة الأخيرة بالمقارنة لما جاءت عليه في كتاب زاد المسافر : ص: 44- 45 .

فمالك من وصف تشاركه بـــه	سوى خدع في النطق زخرفها الشعر
ومالك من شيء يشير الى التي	تفوه بها الا السلاطية والهذر
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحة	ولكنه ان وافق الخبر الخبر (1)

أيها البحر ، لقد نزل بجوارك محيط آخر ، يملك كل معاني القدرة من نفع وضر ، وخير وشر ، وقد غمر مياهك بما يفيض عنه من سعة حلم ، ورجاحة عقل . لقد أقام بجوارك ، من لا يحصى له أمر ولا نهي . وقد سير اليك البر سيلا من الأبطال المدججين بالسلاح ، اذا ما هموا بغزو ، سعى اليهم النصر مسبقا .

اياك أن تغتر بنفسك ، أيها البحر ، لمجرد اشتراكك مع هذا المحيط في التسمية ، فلست تملك أي قاسم مشترك معه ، فذلك بحر لا يشابهه أي بحر آخر .

بل أنتما على طرفي نقيض ، فأنت عبد سخر للشمس والقمر تخدمهما طائعا ، في حركة مدك وجزرك ، أما هو فان الشمس والقمر رهن اشارته وطوع تصرفه ، وأنت تمثل جزءا بسيطا من المعمورة تغمر بعض أرضها بينما يحتوي صدره على كل الأفلاك بما فيها ، اضافة الى البر والبحر ، وهو الذي ضاقت الأيام ، على سعتها ، بجوده ، وشهامته .

أما ما تقدمه أنت فليست له أدنى قيمة عنده ، واشتراكك معه في اللفظ ليس معناه اشتراككما في الصفات ، فأنت ، على هذا لا تملك أي أمر تشابهه فيه ، وليس لك الا الادعاء والهذر . وليس الاشتراك في المظهر هو الذي يوجب المدح انما الذي يوجبه هو الاشتراك في المخبر .

فروح المبالغة المفرطة التي أشرنا اليها من قبل ، وخاصة الأغراق في التفخيم ، يظهران في هذه التسميات التي يطلقها ابن حبوس على ممدوحه ،

---

(1) ابو بحر صفوان : زاد المسافر ص : 44 — 45 .

فهو لم يعد يقنع بوصفه "بالضار" ، أو "النافع" وانما هو عنده عين "النفع" و "الضر" ، وهو "النهي ، و "الأمر" وهو "الحلم" و "الحجا" . وهو فريد من نوعه ، بل لا يرضى أن يكون له شبيه ، حتى لو ما ثله ظاهريا "فذلك بحر لا يشاكله بحر". وهو فوق ذلك يخلق الخوارق : يسعى اليه النصر اذا ما همّ بغزو ، وتخدمه الأجرام السماوية ، ويحتوي في صدره على كل الأفلاك والبر والبحر . ولعل هذا ما جعل المراكشي يشبهه بابن هانئ في "قصد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة ، وايثار التقعير"(1)

ولعل أشهر قصيدة لابن حبوس في مدح عبدالمؤمن هي تلك التي أورد منها ابن القطان الأبيات التالية :

بخليفة المهدى سيدنا اغتدى — نهج العلوم معبدا ومذللا
وتفجرت عين النباهة بعد ما — قد كان خاطرها أكل وأجبلا
قد صير المعقول قلبا ما انسلا — فمتى رميناه أصبنا المقتلا
ورعى جميم العلم في أوطانه — من كان يبدى الضعف أن يتنقلا
وافيت حضرته المقدس تربها — فاذا الذى ابصرت لن يتخيلا
ووقفت وسط سماطه فوجدته — سوقا تقام على المعارف والعلا
لم ألق الا عالما وازاءه — متعلما متكثرا متقللا
ومدارسا تسع الرياضة لو رأى — سقراط سيرتها لذم الهيكلا
وسمعت كل مذاهب الحق التي — ما ان ترى عن مقتضاها معدلا
وبصرت بالطوسي يفهق حوله — وأبي المعالي مجملا ومفصلا
لم ألف الا مصقعا أو مفلقا — ومجادلا عن دينه ومرسلا
والكل في علم الامام مقصر — حسب المبرز منهم أن يهملا
فاترك عكاظا والوفود بسوقها — حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا
يعشو لها الأعشى بنار محلق — ويضم علقمة اليها جرولا
والحق بحضرته السنية واستمع — للقول واحذر ويك أن تتقولا
فيها كمال الدين والدنيا معا — وسعادة الأرواح في أن تكملا (2)

يسمو ابن حبوس في هذه المقطوعة بما قام به عبدالمؤمن من جهود لتشجيع العلوم العقلية ، فيقول :

---

(1) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص: 282 . ت . العريان .
(2) ابن القطان : نظم الجمان : ص: 134 ـ 136 .

لقد صارت سبل العلم معبدة سهلة لمن أراد أن يسلكها ، وهذا بفضل جهود خليفة المهدي ، الذى فجر عيون المعرفة بعد ما كاد أن يستسلم روادها لليأس لشدة صعوبة مسالكها . فقد صيّر العلوم العقلية ، بفضل ما وفره من وسائل اقتنائها ، كفريسة ماثلة لكل عين ، سهلة الاقتناص لمن رام اصطيادها . وأصبح طلاب العلم العاجزين عن التنقل في غنى عن التغرب والهجرة في سبيل طلب العلم ، لما وفره لهم من أسبابه في أوطانهم.

لقد قصدت حضرته لأتيقّن ما سمعت عنها فاذا الذى ابصرته يجل عن التخيل والوصف ، لقد وقفت بمجالسه التي كان يعقدها فوجدتها سوقا لكل أنواع المعرفة . ولم أجد بين جلسائه الا عالما أو طالب علم، ان مقلّا او مكثرا ، وشاهدت بحضرته مدارس لتعليم العلوم والرياضيات لو رآها سقراط أبو العلوم العقلية لاحتقر المدارس اليونانية التي كانت مضرب الأمثال . وسمعت بهذه المدارس كل ما كان يدرس بها من المذاهب الرشيدة التي لا تعرف الانحراف او الزيغ . ورأيت كيف كان العلماء يتدارسون فيما بينهم كتب الغزالي ويتعمقون نظريات امام الحرمين الجويني شرحا وتلخيصا . ولم أكد التقى ، في هذه الحلقات ، الا بخطيب مصقع أو شاعر مفلق ، او متكلم بارع في الطرق الجدلية أو مؤلف سهل الترسل . الا أن كل هؤلاء ، في الواقع ، قاصرين عن ادراك ما وصل اليه الامام المهدى في التحصيل ، فغاية أفضلهم أن يسهر الليل في طلب العلم .

دعك من سوق عكاظ بكل وفودها ومن تكتض بهم من خطباء وشعراء كسحبان وائل الخطيب، ودغفل بن حنظلة النسّاب ، واعشى ميمون ومن انضم اليهم ، واقصد حضرة عبدالمؤمن فهي السوق الحقيقية لكل العلوم الدينية والدنيوية معا .

فالمقطوعة من الناحية الفنية ، هي ، ولاشك ، أقل شاعرية من سالفتها ، الا أن هذه ترضى الممدوح أكثر ، لأن الشاعر قد ركز فيها على ابراز الجانب الذى يعتقد الموحدون أنهم قد امتازوا به عن كل من سواهم ، وهو تحرير العقل ، ونشر الثقافة .

وتسليط النور على هذا الجانب يرضى غرورا خفيا في أعماق عبد المؤمن الذى كان يحرص دائما على المحافظة على انتسابه للعلماء .

فالمقطوعة ، على العموم ، دعائية في مضمونها ، فهي تشيد بالامام المهدى ومبلغه من العلم ، وتنوه بمذهبه الحق وتدعو لاتباعه ، وترفع من قيمة العلماء الأشاعرة الذين يعتبرهم الموحدون أئمة في التوحيد .

أما من حيث الشكل فهي ، وان تحررت نوعا ما من بعض معاني المدح القديمة ، كوصف الممدوح بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة الا أنها بقيت تقليدية في أغلب صورها وروحها العامة .
والظاهرة العامة التي تميز بها شعر المديح لهذا العهد هي الطابع العلمي الذى تحمله ألفاظه كدليل على تأثره بثقافة العصر ، التي كانت تتسم بمزيج من الفلسفة . وعلم الكلام والعلوم العقلية بصفة عامة بما فيها من منطق وفلك ورياضيات ، وغيرها .

يلاحظ بعض ذلك جليا في هذه المقتطفات التي أوردها لنا صاحب "زاد المسافر" من قصيدة ابن حبوس التي مدح بها عبد المؤمن بجبل الفتح :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا	وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا	وجد الهداية صورة فتشكلا (1)
...	
فلأنتم الحق الذى لا يمترى	فيه وليس بجائز أن يجهلا
ولأنتم سر الاله وأمركم	ملأ العوالم مجملا ومفصلا

(1) اقتصر المراكشي على ذكر هذين البيتين فحسب في المعجب ص : 288 .

عزلت ولاة الحسن عن ادراكــه   فهو المنزه حسبه أن يعقــلا
كاتر تم زهر النجوم أسنــة   وادرتم فلكا عليها القسطــلا
ومنعتم الريح الهبوب لأنكم   أرسيتم الحق المضاعف أجهلا
مدّت تمشّى القهقرى ولو أنها   خاضت رماحكم لعادت مخــلا

...

ان رنّت الريح الخفوق ازاءهــا   ترك القضيب قوامه وتميــلا
شرب النشا ط سلافة حتى انثنى   ولو أنهــا حرمت عليه تــأولا

فالشيء القابل للتشكل كما في البيت الثاني ، ومعنى الحق الذى لا يجوز أن يجهل كما في البيت الثالث ومعنى سرّ الأ لــه ، وكلمتي المجمل والمفصل الذى لا يمكن ادراكه الا عقلا . كما في البيت الخامس ، وادارة الأفلاك كما في البيت السادس ، ثم الحرمة والتأويل كما في البيت الأخير . كل هذه الألفاظ والمصطلحات مستقاة من علم الفلسفة ، وعلمي الأصول ، وعلم الكلام ، والجدل ، وما الى ذلك .

ولم يكن ذلك مقصورا على هذه القصيدة وحدها ، بل نلاحظ هذا بشكل أكثر وضوحا في المقطوعة التالية التي قالها في مدح عبدالمؤمن أو ابنه يوسف على الأرجح :

أمير المؤمنين لقد أضاء الــ   زمان بنور عدلك واستنــارا
لكم شرقا البلاد ومغربا هــا   وأمركم مع الفلك استــدارا
يسير اليكم من شاء عنكــم   يدور اليكم من حيث دارا
فمن قد فر عنكم من عــدو   فنحوكم اذا يبغي الفــرارا
ولو خوفتم أعلام رضــوى   لما سكنت ولا وجدت قــرارا (2)

فهذه الأبيات تعكس جوّ الحياة الثقافية التي كانت تسود العصر ، كما تدل على أن صاحبها كان متشبعا بالروح الفلسفية ، هاضما لكثير من علومها (3).

---

(1) صفوان بن ادريس : زاد المسافر : ص : 44.
(2) المرجع السابق ، ص : 47.
(3) ابن تاويت : الوافي بالأدب : ص : 108.

وهــذا ما يتـنـافى مع ما أثـر عنـه من ذمـه لهـا وتـبرئـه مـن رجالهـا ، كما جاء في قصيـدتـه الطويـلـة التي خصصهـا لمدح الدين والحـط من قيمة الفلاسـفـة التي يـقـول فيهـا :

قالوا بنور العقـل يدرك ما ورا ء الغيب قلت قدى من الدعوى قـد
بالشرع يدرك كل شـيء غائـب والعـقل ينكـر كل ما لـم يشهـد
...
قالوا الفلاسـف قلت تلك عصابة جاءت من الدعـوى بظالم يحمـد
خدعت بألفاظ تـروق لطافـة فاذا طلبت حقيـقـة لـم تـوجـد (1)

اذ ليس ذلك في الواقـع الا رد فعـل طبيعـي نتـيجـة الاهمال الذى أحسّ بـه الشاعـر من طرف الخليـفـة يوسـف بن عبد المؤمـن الذى أثـر عنـه الميـل للفلاسـفـة وتـقريبـه لهم دون سواهم ، كما لاحـظ ذلك ابـن تـاويـت ، فهـذه الثـورة التي قـام بهـا ابن حـبوس هي ضـرب مـن الـدفـا ع على النـفـس الذى يدخـل في بـا ب ما يسمونـه بالتـنـازع على البـقـاء .

تلك هي الخصائص التي تميز بها شعر المديح لدى ابن حـبوس الفاسي بصفـة عامـة .

على أنه في الواقـع ، ليس من السهـل على الدارس أن يستـشـف مـقدرة الشاعـر ، أو أن يحكـم على كـفاءتـه من خلا ل مقطوعـات شعرية مـبتورة من قـصـا ئـد قالهـا هو كامـلـة . فمهـمـا قـيـل عن تـفكك الوحـدة العضويـة في القصـيـدة العموديـة ، واستـقـلا ل أبياتها عـن بعضهـا البعـض ، الا أننـا لا نستطـيـع أن نـنـكـر ، رغم ذلك وجـود شـبـه علا قـة خفـيـة تـربط بين كل أجزاء القـصيدة من أولهـا الـى آخرهـا . فالعمـل الأدبـي مهـمـا كان نوعـه ، يهـدف أساسا الـى التعبـير عن فكرة كاملـة ار تـسـمـت في ذهن الأديـب ، وهذه الفكرة الكاملة لا يمكـن لنا أن نصدر عنهـا حكما منـصـفا بمعنى الكلمة الا اذا نحن رأيناها في اطارها الحقيـقي الذى وضعهـا فيه منشئهـا أول الأمـر(2).

---

(1) ابن تاويـت : الوافي بالأدب : ص : 107.
(2) أشار الحاتمي لفكـرة التـشويـه الذى يسببـه الاختصار عنـد كلا مـه عن النسيب الذى يؤ تى به كمـقدمـة للمديح أو الهجاء قال : " ان القصيدة مثلهـا مـثـل خلق الانسان في اتـصـال بعض

لذى نرى ان الحكم مثلا على القصيدة الكاملة من خلال بعض أبياتها فقط هو نوع من التجني على الشاعر .

فليس من السهل اذن أن نصل الى حكم مرضي عن شعر المديح الذي قاله ابن حبوس أو غيره من الشعراء الذين لم يصلنا انتاجهم كاملا ، من خلال بعض المقتطفات .

— ولعل أشهر شاعر مغربي عرفه البلاط الموحدى هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى[1] الذى واكب الخلفاء الأربعة الأول الذين يمثلون عصر القوة في الدولة الموحدية ، ابتداء من عبد المؤمن الى محمد الناصر ، وقد مدحهم جميعهم بقصائد غاية في القوة ، الا أننا لم نتصل الا بجزء قليل مما قاله فيهم ، حيث فقد ديوانه في جملة ما فقد من الآثار المغربية . ولولا ما أورده له ابن عذارى من بعض المقطوعات في " البيان " لما عرفنا عن انتاج هذا الشاعر شيئا[2].

= أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تخون محاسنه وتعفي معالم جماله ... " ابن رشيق : العمدة : ج . 2 . ص : 94 .

(1) ترجم له ابن الأبار : في التكملة : ج . 1 . ص : 128 — رقم الترجمة 323 ط . الجزائر سنة 1940 فقال عنه : ... سكن مراكش وأصله من تدلى ونسبه في عفجومة .... وكان عالما بالأدب ، حافظا ، بليغ اللسان ، شاعرا مفلقا ، وقد وقفت على ديوان شعره ، وألف للسلطان كتابا في معنى الحماسة لحبيب ، سماه " صفوة الأدب ونخبة كلام العرب .... وتوفي باشبيلية سنة 609 هـ " . — وترجم له ابن خلكان في الوفيات : ج . 7 . ص : 134 — 137 ت . إ . عباس قال عنه : " ... أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكورافي — وكورايا قبيلة من البربر منازلهم بضواحي مدينة فاس ، وقيل ان هذه القبيلة يقال لها جراوة بفتح الجيم ، وتبدل الجيم كافا فيقال لها كراوة ... وكان شيخا مسنا جاوز الثمانين وتوفي في آخر أيام الأمير يعقوب ... "
— أظنه واهما في تحديد تاريخ وفاته لأن الجراوى توفي كما ذكر ابن الأبار سنة 609 أى في أواخر أيام الناصر ، حيث نجد له عدة قصائد في مدحه .

(2) انظر ابن عذارى : البيان المغرب الجزء الثالث .

ورغم الصلة الوثيقة التي كانت تربط الجراوي بالبلاط الموحدي منذ أيامه الأولى، ورغم اعتزاز عبد المؤمن به كشاعر قومي، وقوله له : " انما نباهي بك أهل الأندلس "(1) ، الا أن شهرته ارتبطت أكثر بالمنصور لملازمته له، ولقوله فيه أشهر مدائحه، وهذا رغم منافسة الشاعر الأندلسي ابن مجبر، له الذي كان الخليفة يميل اليه، ويعتقد أن " كل الشعراء عالة عليه " .

وقد كان المنصور يقدر الجراوي رغم كيد حساده له، ورغم وشايتهم به عنده، كلما سنحت لهم الفرصة بذلك .

وقد نجحت فيه يوما، سعاية الوزير أبي زيد بن يوجان الذي أغرى المنصور بابعاده عن مجالسه، بدعوى أن الجراوي، " من أهل الشعر والهزل وما يليق بمجالس الخلافة الا أهل العلم والجدّ، فهجر "(2) . الا أن ذلك لم يمس من قيمته، كشاعر رسمي للبلاط، ولم يدم هذا الهجر الا مدّة يسيرة، اذ ما كاد يعزل الوزير عن منصبه حتى عاد الجراوي الى أحسن ما كان عليه .

ولا شك أن سلاطة لسانه كانت السبب في كثير من العداوات التي وقعت له مع زملائه، اذ " كان غيورا على الشعر حسودا للشعراء، ناقدا عليهم "(3) كما سنرى ذلك فيما بعد .

ومن مظاهر احترام المنصور له، والاعتراف له بالمقدرة اصطحابه له في كل تنقلاته، وتكليفه بكل المهام التي لها طابع قومي . كتكليفه بجمع ديوان يحتوي على أشهر غرر الشعر العربي ليكون مرجعا للناشئة المغربية في الأدب، وانتخابه لمرافقة الأديب ابن منقذ، رسول صلاح الدين الأيوبي، ضيف الدولة الموحدية . وهذا رغم ما كان يزدحم به بلاطه من جلة العلماء

---

(1) ابن سعيد : الغصون ص: 100.
(2) المرجع السابق : ص : 101.
(3) الزركلي : الاعلام : ج.1 . ص: 145.

الأندلسيين وخيرة أدبائها الذين كانوا يتمتعون باحترامه وتقديره ، على رأسهم الشاعر ابن مجبر . فلم تتح لأحد مجالسته سواه على حدّ تعبير ابن سعيد (1).

وأبرز سيمة يلاحظها الدارس في شعر الجراوى بصفة عامة هي انتماؤه الى المدرسة المشرقية التقليدية التي رفعت شعار القديم ، ونادت بالرجوع الى الأصل ، في الشعر ، وذلك كرد فعل ضد موجة التجديد التي اجتاحت ميادين الأدب اثر الانقلاب العباسي . وقد كان أدباء المغرب شغوفين باقتفاء أثر المشارقة ، ولم يكونوا يتحفظون في اظهار اعجابهم المفرط بأساطين هذه المدرسة التقليدية التي كان على رأسها كل من أبي تمام ، والمعرى ، والمتنبي ، بل كثيرا ما كانوا يتخذونهم كمقاييس للجودة ، يشبهون بهم من نبغ من شعرائهم تشريفا لهم ، فيسمون هذا بمتنبي المغرب وذلك بحبيبه ، أو معريه . واعجاب الجراوى بأبي تمام كان كبيرا وان لم يصرح بذلك كتابه ، الا أن آثاره كانت بادية في أغلب ما قام به من أعمال ، ولعل هذا ما حدا به لتقليد طريقته في جمع ديوان حماسته الذى ألفه للمنصور وسماه " صفوة الأدب ، ونخبة كلام العرب " . وتظهر ملامح هذا الاعجاب بشكل أوضح في مدائحه الشعرية التي وصلتنا ، فهي لا تكاد تخرج ، في عمومها ، عن الاطار العام الذى رسمه أصحاب هذه المدرسة لشعر المديح ، الا في أشياء طفيفة فرضتها الظروف وأوحت بها البيئة .

ولا غرو أن يظهر أثر المدرسة المشرقية التقليدية في شعر الجراوى أكثر من أثر المدرسة الأندلسية ، رغم كثرة احتكاكه بالجزيرة وشعرائها ، لأنّ ثقافته الأصلية ، حسبما يبدو ، كانت مرتكزة على الأصول المشرقية في أولها . هذا بالاضافة الى ميله

(1) ابن سعيد : الغصون ص: 100.

الطبيعي لهذا النوع من الثقافة منذ نشأته فقد كان " نهاية في حفظ الأشعار القديمة والحديثة ، وله تقدم في هذا الشأن وله فيه تآليف " كما قال ابن خلكان (1).

هذا بالنسبة للاطار العام الذى يمكن أن يصنف فيه شعر الجراوى . أما بالنسبة لطريقته في المدح فان أبرز ما يلاحظ فيها هو محاولة تركيزه ، خاصة ، على اظهار جانب الصلاح والهداية والتقوى في ممدوحيه ، لأن هذه الصفات هي التي كانوا يرتاحون اليها ، ويفضلونها أكثر ، باعتبارهم ، خلفاء للمهدى من جهة ، ولأن نشأتهم نفسها كانت نشأة دينية اصلاحية من جهة أخرى فهو لذلك يحاول دائما أن يبرز أثر هذه الصفات في كل ما يقومون به من أعمال سواء أكانت دينية أو دنيوية .

وهذا ما نلمحه ، واضحا ، في قصيدته التالية التي هنأ فيها عبدالمؤمن بانتصاره في احدى معاركه بالأندلس حيث كان أغلب مدحه له يدور حول نصرة الدين ، واعلاء كلمة الله ، واتباع طريق الهدى وما شاكل ذلك . فهو يستهل قصيدته بقوله :

أعليت دين الواحد القهار   بالمشرفية والقنا الخطار
ورأى بك الاسلام قرة عينه   وغدت بك الغراء دار قرار (2)

ثم يصف طريق الهدى الذى سلكه ممدوحه بأنه الطريق الأمثل ، أما همته وعزائمه فقد بلغت في الرفعة مدى لايمكن لأى سَفر أن يدركها وقد وقفت على ماأراده لها ، وقامت عليها الأقدار تخدمها ، لذلك لا يمكن للزمان أن يبلي جدة ملكه أو أن ينال من فتوة دولته أبدا .

وسلكت من طرق الهداية لاحبا   طوبى لمن يمشي على الآثار
وجرت معاليكم الى الأمد الذى   بعدت مسافته عن الأسفار

---

(1) ابن خلكان : الوفيات : ج .7. ص : 136 — 137.
(2) ابن عذارى : البيان المغرب : ج . 3 . ص : 46.

وقفت على ما قد أردت سعادة ... وقفت عليها خدمة الأقدار
لا تخلق الأيام جدة ملككم ... أبدا ولا تبلى على الأعصار (1)

فهذه المبالغات المفرطة ، وهذا الاغراق في الخيال من أهم الميزات التي اشتهرت بها مدائح الجراوي ، كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

ثم يمدحه بالنجدة وما يقوم به من الجهاد المقدس في بلاد الأندلس للذود عن حمى الاسلام والمسلمين ، يطمئن الخائف ويثأر للموتور ، ويثبط عزائم الكفار .

وافيت اندلسا فأمن خائف ... وسعى لأخذ الثأر رب الثار
وحللتم جبل الهدى فحللتم ... منه عقود عزائم الكفار (2)

ففضله على الجزيرة وأهلها لا يمكن أن يقدر . وان ما قام به كل من القائدين : موسى بن نصير ومولاه طارق من الفتوحات العظيمة في الأندلس لا يكاد يذكر بالمقارنة لما حققه عبد المؤمن بها ، فهو قد أتم ما كان يحلمان به ، وذلك بحسن تدبيره وحسن استغلاله للشجاعة النادرة التي كانت تتوفر عليها القبائل الهلالية التي طعم بها جيوشه . هذه القبائل التي لو قدر لها أن استغلت في نصرة علي بن أبي طالب قديما لما استطاعت جيوش معاوية أن تقتحم الأنهار . فهذه النغمة الشيعية كثيرا ما نعثر عليها في المدائح التي قيلت في الخلفاء الأوائل للدولة الموحدية .

لو رأى موسى ما فعلت وطارق ... زريا بما لهما من الآثار
أتممت ما قد أملوه ففاتهم ... من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن أعارب ... من كل مقتحم على الأخطار
أكرم بهن قبائلا اقلالهن ... في الحرب يغنيها على الاكثار
وأنظر اذا اصطفت كتائبها التي ... ما تحمد الكتاب للأسطار
لو أنها نصرت عليا لم ترد ... خيل ابن حرب ساحة الأنهار
هم أظهروه مع النبي وواجب ... أن يتبعوا الاظهار بالاظهار (3)

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب : ج . 3 . ص : 46 .
(2) المصدر السابق ، ص : 47 .
(3) المرجع السابق والتصحيح من كتاب ابن تاويت : الوافي بالأدب : ص : 122 .

فالقصيدة في ألفاظها الجزلة ونسجها المحكم ، وفي أغلب صورها ومعانيها ، ومبالغاتها لا تكاد تفرق عن مدائح أبي تمام بل هي تذكرنا بقصيدته التي جاءت على نفس الروى والتي مطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار   فحذار من أسد العرين حذار (1)

وقد تبنى الجراوى منهجا معينا ، سار عليه في كل مدائحه ولم يحد عنه الا نادرا فهو يخصص دائما مطلع قصيدته للمدوح ، يذكره فيه بما يربطه بفحوى الموضوع أو المناسبة التي أنشئت من أجلها القصيدة ، ثم يثنى بمعالجة الموضوع الرئيسي على ضوء ما قام به الممدوح من مجهودات ، أو أدلى به من آراء وارشادات لانجاحه . ثم يتفرغ بعد ذلك لأطرائه ، فيشيد بما حباه الله به من كرم أصل ، وسعادة طالع ، وجلالة قدر . وينوه بمكارم أخلاقه ، وما له من قسوة وشجاعة وحلم وجود ، وما الى ذلك من هذه الأوصاف التي كان يتبارى الشعراء عادة في اغداقها على ممدوحيهم .

نجد طريقة الجراوى هذه التي أشرنا اليها في القطوعة التالية التي تعتبر من أوائل القصائد التي قالها في الخليفة يعقوب المنصور :

لواؤك منصور وسعدك غالب   وحزبك للأعداء عنك محارب
لقد شكلت أم المناوى ضرورت   مبادىء من أحواله وعواقب
سما لاستراق السمع من وهداته   ودون سماء الملك شهب ثواقب
تلاقى عليه البرّ والبحر ترتمي   سفين الى استئصاله وكتائب
غريق بغرقى مثله متمسك   وموج المنايا مثلهم متراكب
حوت بهم الأطماع في هوة الردى   وغرتهم جهلا بروق خوالب
أطاعوا غويا لم تقيده هو عسق   ولم تره وجه الصواب التجارب
مغيّب وجه الرأى والوجه حائر   يرى حاضرا في أمره وهو غائب
دعاهم الى آجالهم فتهافتوا   كما جمع الأعواد للنار حاطب
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه   وأعرض عن وجه الهدى وهو لاحب
تخيل أن الناصر يبسق داره   يطا عن عن ساحاتها ويضارب

---

(1) ديوان أبي تمام : ج . 2 . ص : 198 شرح الخطيب التبريزى . ت . عبده عزام . ط . الثانية دار المعارف مصر — القاهرة 1969 .

وفي الغيب من أنجاد طائفة المدى ... ونصر أمير المؤمنين غرائب
هو الأمر أمر الله ليس يفوته ... مناو ، ولا ينأى عليه مناصب
وما هارب منه لو بلغ السهى ... بناج ، وهل ينجو من الله هارب
بناصرها المنصور تاهت خلافة ... تناسبه في حسنه وتناسب
إمام له فضل على الخلق باهر ... ومرتبة تنحط عنها المراتب
مناقبه مثل الكواكب كثرة ... ونورا ألا لله تلك المناقب
هي الدوحة الشماء في الأصل أصلها ... وقد زاحمت منها السماء الذوائب
له نسبة قيسية قرشية ... تقر لها بالمعلوات المناسب
حقيق بميراث النبوة والهدى ... ولا عجب ان المزايا مواهب
بقيتم أمير المؤمنين وسعدكم ... تمز قنى منه وتقضى قواضب (1)

فهو يبدأ قصيدته ، هذه ، كما أشرنا ، بذكر ممدوحه في مطلعها موحيا بفحوى الموضوع الذى هو، تغلب المنصور على ابن غانية الذى كان قد احتل بجاية في غفلة من أهلها (2). فيقول له :

لقد توفرت لديك كل شروط الانتصار : فرايتك منصورة ، وطالعك سعيد ، وحزبك مؤيد ، ثم يتجه مباشرة لابن غانية الذى كانت حادثته سببا في انشاء القصيدة ، فيقول : لقد غررت بهذا المناوى ، أطماع أدت به الى عواقب وخيمة . سما من حضيضه كالمارد لاستراق السمع ، ولم يدر أن سماء الملك دونها شهب محرقة ترصد كل شيطان . لقد أطبق عليه جند المنصور من البر والبحر ، فأدركه الفزع والاضطراب فبدأ كالغريق اليائس الذى يستمسك بغرقى مثله ، وطغت عليه أمواج المنايا المتلاطمة فغمرته هو ومن معه .

لقد ملكتهم أطماعهم الفارغة وغرهم السراب الزائف ، وذلك لأنهم اقتدوا بمن لا خلاق له ولا دين ، واتبعوا جاهلا غريرا لم تحنكه التجارب بعد ، واطاعوا لمذبذب لا رأى له . دعاهم الى الموت فتساقطوا عليه كأعواد الهشيم ، لم يتعظ بحوادث الدهر ولا اتبع سبيل الرشاد ، وقد ظن أن بجاية الناصرية داره ، يصول فيها

(1) البيان المغرب : ج . 3 . ص : 151 .
(2) انظر تفاصيل ذلك عند ابن عذارى : البيان المغرب: ج . 3 . ص : 146 وما بعدها .

ويجول كما يحب ويشاء ، ولم يدر بما كان يخفيه له الغيب من أنصار أهل الحق والهدى . فذلك أمر الله لا ينجو منه مخالف أو مناوى ولا يبعد عنه هارب ولو أدرك السهى في هربه .

وأخيرا يتجه لاطراء الممدوح ، فيقول عنه : لقد شرفت الخلافة بالمنصور وتباهت به ، وتفاخرت . فهما يتناسبان في الحسن . فكل منهما كفء للآخر . فهو إمام مصطفى مختار ، ليس كبقية البشر ، ومنزلته لا تعادل لها أية مرتبة . أما مناقبه فلا تكاد تحصر . فهي كالكواكب كثرة ، وازدهار ، فما أعظمها وأجلها !! وهو كالدوحة الغناء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . له نسب يرتقي الى قيس عيلان ، الى قريش التي تقر بعلو شأنها كل الأنساب فهو جدير بوراثة الأنبياء والمهتدين . ولا غرو أن يكون كذلك لأن الله هو الذى حباه بهذه المزايا .

أبقاك الله يا أمير المؤمنين وأدام لك سعدك الذى يحارب عنك بالقنا والسيوف الصوارم .

– ومما يلفت النظر في شعر الجراوى أيضا ، كثرة تشابيهه التي يستقيها من الأجرام السماوية كالشمس والقمر ، والشهب ، والنيرات ، والنجوم بأسمائها : كالقطب ، والسهى ، وزحل ، وكيوان ، والفرقدين ، ويأخذ صوره من دورة الأفلاك . فلا شك أن يكون ذلك من أثر انتشار علم الفلك الذى لاقى رواجا كبيرا في العهد الموحدى خاصة في عهد المنصور ، فقد كان الخليفة يعقوب من كبار المهتمين بهذا العلم وهو الذى بنى له أول مرصد في اشبيلية .

نلاحظ هذا الاستعمال ، مثلا في قول الجراوى من قصيدة له في مدح المنصور بمناسبة انتصاره في احدى المعارك ضد النصارى الأسبان :

(1) المرجع السابق والتصحيح من كتاب ابن تاويت : الوافي بالأدب ص: 134 .

عن أمركم يتصرف الثقلان   وبنصركم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم   تتحرك الأفلاك في الدوران (1)

ويقول من قصيدة أخرى في مدحه أيضا :

بجد عزمك نال الدين ماطلبا   واحجم الشرك عن إقدامه رهبا
وأيقنت ملة الاسلام أن لها   بك الظهور على الأعداء والغلبا
وأن كل بعيد عندها كثب   ولو تطالب في أفلاكها الشهبا (2)

وفي قوله من القصيدة التي ذكرناها آنفا في مدح المنصور :

سما لاستراق السمع من وهداته   ودون سماء الملك شهب ثواقب (3)

ويقول من قصيدة أخرى في مدح ابي يعقوب يوسف :

حللت من العلى اسما ذراها   وجاريت النجوم الى مداها

ونراه يشبه بها شعره وشعر غيره مفاضلا بين أجرامها إظهارا لتفوقه على أقرانه :

وما الشعر الا السحر غير محرم   والا فما تغني "فواق وأوزان
وما كل نجم كالدراري شهرة   ولا كلها في رفعة القدر كيوان (4)

والواقع أن التشبيه بالنجوم والقمر والشمس استعمال قديم نجده في الشعر الجاهلي ، كما نجده في الشعر الاسلامي بعد ذلك بكثرة ، الا أن الذي يلفت الانتباه هنا ، هو الافراط في استعمالها ، ثم شيوعها بين كل شعراء هذا العهد ، اذ لم يقتصر الأمر على الجراوي وحده ، فنحن نلاحظ ذلك عند ابن حبوس في قوله من القصيدة التي مدح بها عبد المومن في جبل الفتح :

كأنما ثرتم زهر النجوم أسنة   وادرتم فلكا عليها القسطلا

---

(1) ابن تاويت : الوافي ص : 128.
(2) المصدر نفسه ص : 185.
(3) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 151.
(4) ابن تاويت : الوافي بالأدب ص : 128.

وفي قوله من قصيدة أخرى مخاطبا البحر :

فأنت خديم للشمس والبدر عنوة وتخدمه في أمر الشمس والبدر
ويحويك شطر الأرض تغمر بعضه وفي صدره الأفلاك والبر والبحر (1)

وتجد هذه الظاهرة أيضا عند الشاعر أبي الربيع سليمان الموحدى الذى مدح المنصور بقصائد عديدة منها هذه التي قالها في تهنئته بمناسبة فتحه لقفصة :

هبت لنصركم الرياح الأربع وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وأنت لعونكم الملائك سبقا حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا أن الأمور الى مرادك ترجع (2)

وله من أخرى مخاطبا المنصور :

تطوى البلاد ولم تزل في غربها كالكون يوجد ساكنا متحركا (3)

ولم يشذ الشعراء الأندلسيون المقيمون بالعدوة عن زملائهم المغاربة في استعمال هذه المصطلحات الفلكية ، ان صح التعبير ، فهذا أبو بكر يحي بن مجبر شاعر الخليفة يعقوب المنصور يمدحه بقصيدة يصف فيها استعداده للحرب ، ويذكر أن كل ما في الطبيعة يخدمه ، حتى الفلك الدوار مسخر لما يريده ، ولو رام تناول بعض شهبه ما استحال عليه ذلك :

بشراي هذا لواء قل ما عقدا الا ومدّ له الروح الأمين يدا
وأقبل النصر لا يعدو مناحيه فحيث ما قصدت أربابه قصدا
واستقبلته تباشير الفتوح فقد كادت تكون على أكتافه لبدا
وقرب الفلك الدوار بغيته فلو تناول بعض الشهب مابعدا (4)

وله من قصيدة أخرى في مدحه أيضا قوله :

هل زيدت الشمس في الأنوار أنوارا أم عادت الشهب في الأفلاك أقمارا (5)

---

(1) ابن تاويت : الوافي بالأدب ص : 105 .
(2) أبو الربيع سليمان الموحدى : الديوان ص : 201 ت . ابن تاويت ، سعيد أعراب ، ومحمد بن العباس القباج ، كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط بدون تاريخ .
(3) أبو الربيع : الديوان . ص : 89 . (4) ابن عذارى : البيان . 3 . ص 79 .
(5) صفوان بن ادريس : زاد المسافر ص : 51 .

- وإلى جانب هذه الظاهرة نجد ظاهرة أخرى أكثر منها شيوعا في مدائح الجراوي وهي ظاهرة استعماله للألفاظ والكلمات التي تدل على معنى النور، والضياء، والاشراق وما شابه هذه المترادفات، فلا تكاد تخلو قصيدة من مدائحه من هذه الألفاظ الا نادرا، نراه يقول واصفا أبا يعقوب يوسف :

أمير المؤمنين ومن عليه　　سنا الاسلام بأتلق ائتلاقا (1)

فمن ذلك قوله، مثلا، عن المنصور :

ملك أنوار بصيرته　　ومناقبه سرج تتقد (2)

وقوله :

بهرت أنوار خلافتكم　　وسماء العلم بها علم
فرأى من ليس له بصر　　ووعى من كان به صمم (3)

ويقول عن المنصور أيضا :

من حيث قابلت العيون جبينه　　حسبت سناه نيرا متوقدا
لم ترتو الأبصار من لألائه　　الا وعادت نحوه تشكو الصدى (4)

ويقول فيه أيضا :

مناقبه مثل الكواكب كثرة　　ونورا، ألا لله تلك المناقب (5)

ويقول في محمد الناصر :

أضاء لنا بغرتك الزمان　　والبسنا تقلبك الأمان (6)

ويقول فيه أيضا من قصيدة أخرى :

أطلع البدر منك بدرا منيرا　　ملأ السبحة الأقاليم نورا (7)

وهكذا نجد كلمات النور والضياء، والسنا تغمر كل قصائد المديح لهذا العهد، وتجد هذه الظاهرة عند شعراء الأندلس بكثرة أيضا. فهذا ابن صاحب الصلاة يقول في مطلع قصيدته التى مدح بها عبدالمؤمن بجبل الفتح :

---

(1) ابن تاويت : الوافي : ص : 129.
(2) المصدر السابق. ص : 131.
(3) المصدر نفسه ص : 130
(4) " " " ص : 145.
(5) " " " ص : 134 — البيان ص : 227.
(6) " " " ص : 151.
(7) " " " ص :

تلألأ من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرقت الدنيا به فكأنها من البشر من كل الجهات مشارق (1)

فقد استعمل ست كلمات تدل على معنى الاضاءة في بيتين اثنين : تلألأ، ونور، وبارق، واضاءت، وأشرقت، ومشارق.
ويقول ابن حربون يمدح الأمير أبا يعقوب يوسف :

يجلو الظلام بنور غرته التي فضحت اشعتها الصباح الأنوارا (2)

ونراه يمدحه واصفا بيعته :

لله مشهد بيعة بويعتها فالدين والدنيا بذاك المشهد
في حيث ترتد العيون مهابة عن ساطع من نورك المتوقد
لا تثبت الأبصار فيها لملتقى لألاء أنوار الهدى والسؤدد (3)

ويقول أبوعبدالله الرصافي مستهلا قصيدته التي مدح بها عبدالمؤمن بجبل الفتح :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ليلا لسار ولم تشبب لمقرور
فيضية القدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور
حتى أضاءت من الايمان عن قبس قد كان تحت رماد الكفر مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على سقط الى زمن المهدى مذخور (4)

وكثير ما يذكر الجراوى مصادر النور هذه التي منها الشمس والقمر والنجوم لا ليشبه بها ممدوحه، ولكن ليثبت أنها تستمد نورها من سنا نوره، من ذلك قوله لمحمد الناصر :

يا إمام الهدى ملأت جمالا وجلا لا عيوننا والصدورا
كل نور للشمس والبدر يبدو أنت أصل له ومنك استعيرا (5)

أوكقوله لأبي يعقوب :

وعذر الشمس لو حسدتك باد لأن سناك أشهر من سناها (6)

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن : ص : 159.
(2) المصدر السابق، ص : 343.
(3) نفس المصدر، ص : 366.
(4) المعجب : ص : 278 . ت . العريان .
(5) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 226.
(6) ابن تاويت : الوافي : ص : 126.

ويرى فوق ذلك أن الطبيعة تأخذ عنه وتهتدى به :

ما الجود مما كان في طبع الحيا   لكن رأى منه المواهب فاقتدى
والنجم لولم يسر في جنح الدجى   ورأى دليلا في هداه ما اهتدى

فهو لا يرضى أن يشبه جود ممدوحه بالمطر المنهمر ، لأنّ الحيا تعلم عنه السخاء وصار يقلده . ولولا نور جبينه ما استطاع النجم أن يهتدى في سراه .

وهذا الاستعمال كان شائعا حتى عند الأندلسيين ، من ذلك قول ابن يخلفتن الفزازى في مدح محمد الناصر :

شمس الضحى من سنا مرآه يقتبس   فأي قصد عليك اليوم يلتبس (1)

والجراوى لا يقنع أبداً بوصف ممدوحيه بأنهم ، أتقى ، وأكرم وأشجع كل خلق الله ، بل هم في نظره ، لا شبيه لهم مطلقا في كل ما يتصفون به ، فتراه يقول ، مثلا ، للخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

لو قلت بأنك أوقر من   أحد ما نازعني أحد
لم تأت بمشبهك الأيا   م ولا ولدته ولا تلد (2)

ويقول عن المنصور :

امام له فضل على الخلق باهر   ومرتبة تنحط عنها المراتب (3)

ويرى أن الانسان لا يمكن أن يستوفي حقه في المدح لا شعرا ولا نثرا لذلك تراه يعتذر ليوسف عبد المؤمن بقوله :

عذرا أبا يعقوب ان علاكم   قد أفنت الأمداح وهي فنون
لا يبلغ المنثور بعض مآثر   ترضى لك العليا ولا الموزون (4)

ويعترف بعجزه للمنصور قائلا :

الدهر ما في مديحك أفصح   فعلام ينصب نفسه من يمدح
انت المرشح للتي لا فوقها   ان العظيم لمثلها يترشح (5)

---

(1) البيان المغرب ج . 3 . ص : 227 .
(2) ابن تاويت : الوافي : ص : 131 .
(3) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 152 — ابن تاويت : الوافي : ص : 134 .
(4) ابن عذارى : ص : 81 .
(5) المصدر نفسه . ص : 205 .

ويقول من قصيدة أخرى :

جاري مناقبكم شعري فقصر عن   بلوغ أدنى مداها وهو مجهود (1)

والذي دفعه لكل هذه المبالغات المفرطة هو سعيه وراء ارضاء ممدوحيه ، لذلك نجده دائم البحث عما يرضيهم ويحبون أن يوصفوا به ، فكثيرا ما كان ينوه بالهداية التي بنوا عليها مذهبهم ، ويشيد بنسبهم القيسي الذي كانوا يدعونه ، فهو يقول عن يوسف بن عبدالمؤمن :

من قيس عيلان الذين سيوفهم   أبدا تصول ظباتها وتصون

ويقول عن المنصور :

له نسبة قيسية قرشية   تقر لها بالمعلوات المناسب

وكانت أحلام الموحدين البعيدة هي أن تنتظم دعوتهم كل البلدان الاسلامية ، وكان الشعراء يشيرون لهذا الحلم الذي ما فتئ يراود خلفاءهم ، فهذا الجراوي يقول : ليوسف بن عبدالمؤمن

ستملك أرض مصرا والعراقا   وتجري نحوك الأمم استباقا (2)

ويقول لابنه المنصور :

سينظم السعد مصرا في ممالكه   حتى تدوخ منه خيله حلبا
الى العراق الى أقصى الحجاز الى   أقصى خراسان يلقى جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله   وكل عصر له مازال مرتقبا (3)

ولسنا ندري لما لم يتعرض الجراوي لذكر ما كان يدعوا اليه المنصور من نبذ كتب المذهب والرجوع الى الكتاب والسنة ، مع أن ذلك كان من أهم الأحداث التي ميزت ذلك العصر .

وقد وجدنا شعراء أقل منه شهرة ، قد سجلوا ذلك في مدائحهم للخليفة ، نذكر من بينهم أبا محمد عبدالله بن حجاج المشهور بابن

---

(1) ابن عذارى : ص : 165 .
(2) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 125 .
(3) المصدر السابق ، ص : 155 .

الياسمين المتوفي سنة 601[1] وأبا عبدالله محمد بن عبدالله التلمساني[2] ، فمما قاله هذا الأخير في ذلك ما يلي :

أسيدنا يا ابن الامامين أمركم منوط بأمر الله ما عنه معدل
نصرتم لأن الحق آن ظهوره وناصره في الله ما كان يخذل
أزلتم على ما ينفع الناس جهلها وعلمتم في الدين ما كان يجهل
وأوردتم السلسال من شفة الظما أوان جرى ذلك الحديث المسلسل
قطعتم فروعا قد أضرت بأصلها ألا هكذا من كان بالعدل يشمل (3)

وخلاصة لما تقدم نقول ان ظاهرة الافراط في المبالغة التي شاعت في هذا العصر جعلت الشعراء يصورون لنا وكأن كل ما في الطبيعة مسخر لخدمة ممدوحيهم ، فدوران الأفلاك بما تحتويه من نجوم وشمس وقمر خاضعة في حركتها لمشيئتهم ، والانس ، والجن ، والملائكة ، كلهم ، تحت طاعتهم ، ووفق اراداتهم . يحالفهم الدهر ، وتحارب عنهم رهبتهم ، ويسعى اليهم النصر ، وتخطب ودهم الأقدار ، كل ذلك لكسب ودّ الممدوح . وقد سعى الشعراء لتفسير هذه الخوارق التي افتنئوا يلصقونها بالخلفاء ، فربطوا ذلك بالسعيد ، وحسن الطالع المتفرع عن الكرامات المهدوية . فالسعد موهبة من الله ونعمة منه يوتيها من يشاء من عباده المقربين ، وهؤلاء الخلفاء هم من الصفوة المختارة لذلك خصهم الله بهذه الميزة . فالسعد هو الذي رشحهم لتلك المناصب ، والسعد هو الذى يحقق لهم المعجزات التي لا يمكن لأى انسان عادى أن يحققها .

لذلك لا نكاد نعثر على قصيدة في مدح هؤلاء الخلفاء دون أن يكون فيها ذكر للسعد والسعود ، الذى يبرر خوارق العادات التي يصف بها الشعراء ممدوحيهم من جهة ، ويصبغ عليهم نوعا من القداسة الربانية تجعلهم في نظر الناس ورثة الأنبياء والرسل الذين يمثلون ظل الله في أرضه من جهة أخرى .

---

(1) ترجم له ابن سعيد في الغصون ص : 42 ونسبه الى اشبيلية ، وترجم له ابن الأبار في التكملة : ج . 2 . رقم 2156 ، وقال عنه أنه بربرى ينتسب الى " أساسه " من قبائل البربر التي بجهة فاس . أورد له ابن سعيد في الغصون ص : 47 مقطوعة من أربعة أبيات يشيد فيها بنبذ المنصور للفروع .
(2) ترجم له ابن سعيد في الغصون : ص 29 .
(3) المرجع السابق . ص : 30 — 31 .

فهذا الجراوى يمدح أبا يعقوب يوسف بقوله :

ضربت عليك لواءها العلياء وتحيرت في وصفك الشعراء
وقضى الذى اعطاك سعدا مقبلا ألا يفارق حاسديك شقاء (1)

ويقول للمنصور :

بقيتم أمير المؤمنين وسعدكم يهتز قنى منه وتسقض قواضب (2)

ويقول فيه أيضا :

لواؤك منصور وسعدك غالب وحزبك للأعداء عنك محارب (3)

ويقول فيه أيضا من قصيدة أخرى :

سينظم السعد مصرا في ممالكه حتى تدوخ منها خيله حلبا (4)

ولم يكن ذلك مقصورا على الجراوى وحده ، فهذا أبو حفص الأغماتي يمدح المنصور بعد غزوة الأرك فيقول له :

أطاعتك الذوابل والشفار ولبّى أمرك الفلك المدار
ببشرى مثل ما ابتهجت رياض وسعد مثل ما وضح النهار (5)

ويقول فيه أبو الربيع :

هبت بنصركم الرياح الأربع وجرت بسعدكم النجوم الطلع (6)

ويقول في تهنئة بمولود جديد :

تطلع في أفق السعادة والمجد هلال علا حفت به انجم السعد (7)

ويقول في مدح محمد الناصر :

لحت ببرج السعود بدرا وضبغما لحت في السروج (8)

— تلك هي أهم الميزات التي طبعت شعر الجراوى أشهر شعراء الموحدين على الاطلاق وأغزرهم نتاجا وأكثرهم ولاء لهلاطهم حيث بقي يمدح خلفاءهم مدة نصف قرن ، حتى استنفذ كل طاقاته ، وبدأ يشعر بنوع من

---

(1) ابن عذارى : البيان : ج. 3 . ص : 94.
(2) " " " ص : 151.
(3) ابن تاويت : الوافي بالأدب : ص : 134.
(4) " " " ص : 135.
(5) " " " " ص : 172.
(6) أبو الربيع : الديوان : ص :
(7) " " " ص : 35.
(8) المرجع السابق ص : 33.

الاعمال من طرف الخلفاء المتأخرين فتأسف على أيامه المشرق في عهد عبدالمؤمن قائلا : "تعسا لطول العمر الذى أخرني لمعاشرة هؤلاء الأنذال : وعهدى بالخليفة عبدالمؤمن يقول لي في جبل الفتح : يا أبا العباس اننا نباهي بك أهل الأندلس"(1).

– ومن الشعراء المغاربة الذين كانت لهم مدائح في الخلفاء الموحدين أبو حفص عمر الأغماتي (2) فهو لم يكن من شعراء البلاط ، وانما كان على صلة وثيقة بكل من أبي يعقوب يوسف وابنه المنصور ، فقد ذكر ابن سعيد أنه "كان فقيها علامة ، وفي النظم والأدب أندر علامة جل بمدينة فاس مقداره ، وقضيت بها في الجاه والمال أوطاره ، الى أن كان هناك من أهل الفتيا ثم صار من جلساء أصحاب الأمر وأرباب العليا ثم ترقى الى الخطابة والقضاء وصار ذا ابرام وامضاء "(3) ، وأشهر مدائحه في الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن قصيدته التي استهلها بمقدمة ذات نزعة شيعية يقول فيها :

الله حسبك والسبع الحواميم	تغزو بها سبعة وهي الأقاليم
سبع المثاني التي لله قمت بها	عليك من نصرها نص وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على	كل الورى ، حاكم بالله محكوم
والدهر سبعته وسبعة جعلت	جواد مالك والمنصور مخدوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة	بوعد ربك هيهات التناجيم
سمو بنفس على السبع الشداد سمت	فينا وتم لها زلفى وتكريم (4)

---

(1) ابن سعيد : الغصون ص : 100.

(2) هو أبو حفص عمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمر السلمي 530/ 603 شاعر من القضاة ، ولد بأغمات بالمغرب وأصله من جزيرة شقر بالأندلس سكن مدينة فاس وولي قضاءها وقضاء تلمسان ثم قضاء اشبيلية . ترجم له كل من ابن سعيد في : الغصون اليانعة : ص : 91–97 – والمقرى في أزهار الرياض : ج . 2 . ص : 361–364 – وابن الزبير في : صلة الصلة ص : 13 .

(3) ابن سعيد : الغصون : ص : 91 – ينسبه المقرى الى قرطبة – النفح : ج . 3 . ص : 241 .

(4) انظر القصيدة عند المقرى في أزهار الرياض : ج . 2 . ص: 362–364.

ولسنا ندرى ما الذى دعاه للتركيز على هذا الرقم الذى هو شعار الشيعة السبعية ، وهل كان يوسف بن عبد المؤمن ، مع تفقهه في العلم ، يؤمن حقا بفكرة المهدى المنتظر التي تعد القاسم المشترك الوحيد بين المذهبين الشيعي والموحدى ، حتى يرقى بهذه السبع الحواميم ؟! فنحن نرشح أن يكون ذلك مجرد اجتهاد من قبل الشعراء لارضاء ممدوحيهم افراطا في الملق والتزلف ، وامعانا في صبغ صفة القدسية على هؤلاء الخلفاء الذين يعدونهم امتدادا للامام المهدى ، كما نستشف من هذا البيت :

أن الخليفة سر الله ، ظاهرة أياته ، وهو عند الله معلوم .

وأحسن ما وفق الشاعر في وصف الخليفة به هو قوله :

فؤاده بضياء العلم منشرح ووجهه بجمال النور موسوم
وكفه بطنها بالخير منهمر وظهرها لعهود الله ملثوم
العلم قيمته والحلم شيمته طابت أرومته والنفس والخيم

ثم قوله :

لطالبي العلم ما شاؤا بخدمته غنى ، وعزّ ، وارشاد وتعليم
سحب العلوم عليهم من سماحته تهمي ، ففي بحرها مشرّع هيم
العين من نظر والاذن من خبر لا تشبعان وباغي العلم منهوم
يغضي أناة وحلما عالما وله في موضع الحق اقدام وتصميم (1)

فظاهرة العلم هذه ، من الأوصاف التي تبارى الأدباء في سبغها على الخلفاء الموحدين خاصة منهم عبد المؤمن كما سبق أن أشرنا لذلك عند كلامنا عن مدائح ابن حبوس .

ورغم هذا التوفيق الجزئي الذى أحرز عليه الأغماتي في قصيدته هذه الا أننا نجدها خالية من حرارة الصدق التي اتسمت بها بعض قصائد الجراوى مثلا في أبي يعقوب والمنصور ومن بعدهما ، فهي عبارة عن رصف لكثير من الصور والمعاني القديمة التي لاكتها ألسن

---

(1) المرجع السابق .

الشعراء ومجّها الممدوحون لكثرة تكرارها . ولعل هذا عائد الى قلة خبرة الشاعر بهذا الميدان ، فقد سبق أن أشرنا الى أنه لم يكن من شعراء البلاط ولا كان يسترزق بشعره أي أنه لم يكن مكثرا في هذا الفن .

لذلك لم تلاق مدائحه نجاحا كبيرا لدى ممدوحيه ، وهذا رغم ما كان يعززها به من افتعال بعض الحركات المسرحية التي كان يدعو اليها أثناء انشاده كقوله :

يا سامعين أماديح الامام ألا فاجثوا على ركب الاعظم أو قوموا

وقد اشتهر عن الاغماتي أنه كان يعتبر هذه القصيدة من عيون مدائحه . ويبدو لنا أنه وفق أكثر في قصيدته التي قالها في تهنئة المنصور بموقعة الأراك والتي يقول فيها :

أطاعتك الذوابل والشفار وليّ أمرك الفلك المدار
ببشرى مثل ما ابتهجت رياض وسعد مثل ما وضح النهار
وفتح مثل ما انفتحت كمام وشقت عن صدور مها صدار
وآمال كما مدت ظلال وافعال كما مدت بحار
وأعلام بنصرك خافقات لها في كل جو مستطار
ليهنئ أرض أندلس بدور من السراء ليس لها سرار

ومنها في وصف الروم :

وكم راموا الفرار من الرزايا ولكن أين من أجل فرار
تدور عليهم حمر المنايا بكأس فيه عقر لاعقار
اذا ما الليث أصبح في محل فما لطريدة فيه قرار (1)

ونلاحظ لدى الاغماتي نفس الظواهر التي رأيناها عند الجراوي وغيره من شعراء المغرب الذين تعرضنا لذكرهم . وهذا في كثرة استعماله مثلا للألفاظ التي تدل على معنى النور كقوله لأبي يعقوب :

أنوار عدلك في الآفاق داعية هل في البسيطة ظلام وظلوم (2)

---

(1) ابن سعيد : الغصون : ص: 96 ـ 97.
(2) المقري : ازهار الرياض : ج . 2 . ص. 362 ـ 364.

أوكقوله عنه أيضا :

ليهني، أرض أندلس بدور   من السراء ليس لها سرار (1)

ويفرط مثلهم في المبالغة كما يظهر ذلك في تسخير الفلك لمشيئة ممدوحه في قوله :

أطاعتك الذوابل والشفار   ولي أمرك الفلك المدار (2)

الا أن لغته الشعرية ، كما نلاحظ ، هي أكثر مناسبة لمجالس اللهو والغناء منها بساحات القتال وميادين الحروب التي يعبر عنها موضوع المقطوعتين ، خاصة منهما الأخيرة .

فالكلمات التي استعملها فيها مثل : البشرى ، الابتهاج — الرياض السعد ، وضح النهار ، تفتح الأكمام ، شق الصدار عن صدور المها . والبدور التي لا تعرف السرار ، تنسجم أكثر مع موضوع غزلي ، لأنها ألفاظ لدنة ، رخوة ، بعيدة كل البعد على الجزالة والقوة التي نلمسها في شعر ابن حبوس او الجراوى مثلا .

فهو حتى عندما يتكلم عن الموت يستعير لها أدوات هي الصق ببسط المنادمة منها بشيء آخر ، كقوله :

تدور عليهم حمر المنايا   بكأس فيه عقر لا عقار (3)

فقد استعمل ثلاث كلمات معانيها الحقيقية تدل على مجالس الشراب وهي : تدور عليهم ، وكأس ، وعقار .

فأنا لا أقصد أبدا أن أقلل من قيمة البيت الجمالية التي اكتسبها خاصة من هذه الاستعارة ، فاستعارة الكأس للموت استعمال قديم ، وقد استعمله القرآن في قوله "كأسا دهاقا" ولكن الذى جعلني أبدى هذه الملاحظة هو الجو العام الذى اكتنف المقطوعة لفرط استعمال الشاعر لهذا النوع من الأسلوب ، فأقل ما يمكن أن يقال عن لغة

---

(1) ابن سعيد : الغصون ص : 97.
(2) المصدر السابق ، ص : 96.
(2) نفس المصدر ، ص : 97.

الاُغماتي في هذه الاُبيات أنها لغة مخنثة ، هذا اذا ما قيست بشعر المديح الذى قيل في الخلفاء الموحدين .
ويظهر لنا نوع الاُسلوب الذى يركن اليه الاُغمات في صياغة شعره من هذه الحادثة التي رواها ابن سعيد في كتابه الغصون[1].
فقد ذكر أنه حضر يوما مع أبي حفص كل من الشاعرين أبي بكر بن ميمون وأبي العباس الجراوى فقال هذا الاُخير :

ما زلت أضرب بالقنا المنآد   حلق الدروع وأنفس الحساد

ثم قال ابن ميمون :

وحسبت أني لا أراع لحادث   حتى بليت بسطوة الاُحقاد

فقال أبو حفص :

من لم يبت والبين يصدع قلبه   لم يدر كيف تفتت الاُكباد

فالذى كرس له الجراوى جهوده هو مقارعة الاُبطال ومحاربة الحساد والذى هد قوة ابن ميمون هو سطوة الحاقدين . بينما الذى صدع قلب الاُغماتي وفتت كبده هو فراق الاُحبة وهجرهم له .
فلا عجب أن يتجه الاُغماتي هذه الوجهة فكل انسان ييسر لما خلق له . فهو شاعر غزل وحب ، والذى اشتهر به هو في الواقع موشحاته التي كان يغنى بها في الشرق والغرب . فقد أثر عنه أنه كان محبا للحياة متعلقا بأطايبها[2] ، فقد ذكر عنه ابن سعيد أنه "كان في غاية من الظرف ، اذا أقبل شمت رائحة الطيب منه على بعد . واذا غسلت شيا به لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه الجنة ، حتى وجد فيه أعداوه مطعنا ، ورفعوا للمنصور أنه غير حافظ للناموس الشرعي ، بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته ، وانهماكه في العشق"[3]

---

(1) ابن سعيد : الغصون ص : 94.
(2) الا أن "المشهور عنه في قضائه العدل في الاُحكام وقلة النزف عند اختلاف الخصام" على حد تعبير ابن سعيد في الغصون ص : 91.
(3) ابن سعيد : الغصون ص : 92.

ولعل هذا ما جرأ الجراوى على أن يهجوه مخاطبا أباه بصيغة التأنيث في الأبيات التالية :

نبغت عمرة بنت ابن عمر هذه فاعتبروا احدى العبر
قل لها عني اذا ما جئتها قولة تترك صدعا في الحجر
هبك كالخنساء في أشعارها أوكليلي هل تجارين الذكر (1)

— واقدم شاعر موحدى وصلنا ديوانه مجموعا ، من بين كل الشعراء الذين تعرضنا لذكرهم لهذا العهد هو الامير الربيع سليمان بن عبدالله ابن عبدالمومن (2). الا أن هذا الشاعر لم يكن من الأدباء المتفرغين لقول الشعر ، بل كان من الساسة الحكام ، والقادة العسكريين لابن عمه الخليفة يعقوب المنصور . وقد تقلب في عدة مناصب سامية ، وتولى ولاية كل من : بجاية ، وسجلماسة ، وبلنسية ، ولكن لم تكن هذه المناصب تشغله عن ممارسة هوايته الثقافية ، " فحيث ما كانت ولايته ، اجتمع اليه أهل الأدب"(3) وقد تكونت شخصيته الأدبية ، خاصة عندما كان واليا على بجاية الناصرية ، لازدهار جوها الثقافي الذى اشتهرت به منذ العهد الحمادى ، ولما كانت تضمه هذه الحاضرة العلمية من أدباء وشعراء

---

(1) ابن سعيد : الغصون ص: 94 — يقصد بليلى (ليلى الأخيلية الشاعرة).

(2) ترجم له ابن سعيد في : الغصون : ص: 131—134 — وصاحب "واسطة العقدين " مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 3300 ك . ولد أبو الربيع ، أغلب الظن في بجاية سنة 552 أو 553 عندما كان أبوه واليا عليها ، وقد استمرت ولايته لها الى أن توجه منها الى مراكش لمبايعة يوسف بن عبد المومن سنة 560 فتوفي في طريقه بجبل زكار بمليانة ودفن بها . وقد ترك ولده سليمان ابن تسع سنوات فكفله عمه يوسف ونشأ مع أولاده ، وعندما بلغ أشده ولاه يعقوب المنصور ولاية بجاية الى أن افتكها منه ابن غانية .

(3) ابن سعيد : الغصون : ص: 131.

تجاوزت شهرتهم آفاق المغرب من أمثال ابي عبدالله محمد بن علي بن حماد [1] ابن عبدالسلام وابي طاهر عمارة بن يحي [2] ، وأبي علي حسن بن علي بن لفكون [3] وأبوعبدالله محمد بن يحي [4].

وتدلنا أشعاره التي قالها في مختلف الأغراض على مكانته الرفيعة، وقدرته الفائقة في هذا الميدان . الا أنه لم يكن من المكثرين، وما قاله في باب المديح، يعدّ شيئا بسيطا بالنسبة لما يحتوي عليه ديوانه في مختلف الأغراض الأخرى . وهذا أمر طبيعي ، فهو لم يكن من المحترفين ، ولا كان في حاجة للاسترزاق بشعره ، ولهذا يمكن أن يعد ما قاله في هذا الميدان من باب التهاني والمجاملات.

وأحسن هذه التهاني هي التي قالها في ابن عمه يعقوب المنصور، وهي في مجموعها لا تكاد تختلف كثيرا عما رأيناه عند ابن حبوس، أو الجراوي ، خاصة فيما يتعلق بروحها العامة ، وبالأخص فيما يتصل بالصور والمعاني ، والمبالغات المفرطة ، وتسخير الطبيعة وما في الأفلاك لخدمة الممدوح ، وما الى ذلك من هذه الظواهر التي عددناها من قبل ، كما نلاحظ بعض ذلك في المقطوعة التالية التي هنأ بها المنصور بمناسبة فتحه لقفصة :

---

(1) أبوعبدالله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي شاعر مؤرخ ، ولد سنة 548 بقرية بأحواز قلعة بني حماد تعلم بالقلعة ثم ببجاية وتولى قضاء الجزيرة الخضراء ، ثم قضاء سلا ، وتوفي سنة 1230/628. له ديوان شعر مجموع لم يصل الينا ، ومن مؤلفاته : " النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة ومركتاب في التاريخ — "وأخبار ملوك بني عبيد" ، وله " برنامج " ذكر فيه شيوخه ، وما قرأه من الكتب ، راجع الغبريني : عنوان الدراية 218— 220 — ت. عادل نويهض .

(2) ترجم له الغبريني وذكر أن له ديوان شعر مجموع ولكنه لم يطلع عليه وقد اشتهر خاصة بموشحاته ، وكانت ابنته عائشة شاعرة تتساجل مع ابن لفكون . انظر عنوان الدراية : ص : 45— 48.

(3) سنتعرض لذكره بعد قليل .

(4) اصله من تدلس وقد سكن بجاية ، وقد تولى قضاء بعض كورها وكان يحب أن ينتسب الى الفقهاء ، الا أن الأدب كان غالبا عليه — انظر ترجمته عند الغبريني : عنوان الدراية : ص : 341— 344 . ت . عادل نويهض .

هبت بنصركم الرياح الأربع وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لعونكم الملائك سبقا حتى لضاق بها القضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا أن الأمور الى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذى ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا وأنت بذلت في مرضاته نفسا تفديها الخلائق أجمع
ومضيت في نصر الاله مصمما بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
وكتائب منصورة يحدو بها عزم ، اذا أمضيته لا يرجع
من كل من تقوى الاله سلاحه ما إن له الا التوكل منزع
لا يسلمون الى النوائب جارهم يوما اذا أضحى الجوار يضيع (1)

وباقي الأبيات كلها على هذا المنوال في رسف الصور القديمة والمبالغات المفرطة ، والمعاني المستقاة من الشعر الجاهلي والبيئة البدوية التي لا تتلاءم أبدا مع بيئة الممدوح كما يوحي بذلك البيت الأخير من هذه المقطوعة .

بل كثيرا ما نراه يكرر نفس المعاني التي أتى بها معاصروه وذلك مثل قوله في نفس المقطوعة :

أين المفر ولا مفر لهارب والأرض تنشر في يديه وتجمع (2)

فالبيت ينظر لقول الطليق القرشي في مدح عبد المؤمن :

ما للعداجنة أوقى من الهرب كيف المفر وخيل الله في الطلب

كما يذكرنا بقول الجراوى :

وما هارب منه ولو بلغ السهى بناج ، وهل ينجو من الله هارب (3)

ويظهر أن تأثر أبي الربيع ببعض الشعراء العباسيين الذين انتشرت آثارهم ببلدان المغرب آنذاك ، من أمثال المتنبي والبحترى كان كبيرا . اذ كثيرا ماكان يدفعه اعجابه بهم الى تقليدهم والنسج على منوالهم ، كما يظهر ذلك واضحا في هذه القصيدة التي بين أيدينا حيث قلد فيها البحترى ، حسبما يبدو ، في قصيدته التي مدح بها المتوكل ، وقد كانت من نفس البحر ونفس القافية وهي التي مطلعها :

---

(1) سليمان الموحدى : الديوان : ص : 20 .
(2) ابن صاحب الصلاة : المن : ص : 153 .
(3) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 151 .

موق اليك تـقيظ منها الأدمـع   وجوى عليك تضيـق منها الأضلع (1)

نلاحـظ هذا التـأثر في قول أبي الربيـع للمنصـور:

ان الذى سماك خير خليفـــة   جعل الخلافة فيكم لا تـنزع (2)

الذى يشبـه قول البحـترى للمتوكـل في معناه العام وفي بعض ألفاظـه :

وأرى الخلافة وهي أعظم رتـبـة   حـقا لكم وورثـة ما تـنزع (3)

كما نلمـس ذلك في قول الموحدى :

لكم الهدى لم يؤتـه الا كـم   ومن ادعـاه يـقول مالا يسمـع
هيهـات سر الله أودع فيكـم   والله يعطـى من يشـاء ويمنـع (4)

اذ هو ينظـر الى قول البحـترى :

اعطـاكمـوها الله عن علم بكـم   والله يعطي من يشاء ويمنـع (5)

ثم يـقول أبو الربيـع :

واسلم أمير المؤمنين لأمـة   أنت الملاذ لها وأنت المـفـزع (6)

ويـقول البحترى :

مازال لي من حسن رأيك موئـل   آوى اليه من الخطوب ومـفـزع (7)

ولا نظـن أن هذا التـشابـه في الموضوع والبحـر والقافـية ، وبعـض المعانـي والألفاظ كان مجـرد صدفـة ، أو هو من باب وقـع الحافـر على الحافـر كما يقولون ، انما هو تـأثـر واضـح لأحـد الشاعرين بالآخـر . وقصـيدة الموحـدى هذه تـذكرنا ، من ناحيـة أخـرى ، في روحها العامة بسرائـيـة البحـترى المشهورة التي قالها في المتوكـل أيضـا يهنئـه بعيـد الفـطـر والتي مطلعهـا :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر   وألام في كمـد عليك وأعـذر (8)

---

(1) البحترى : الديوان : ج . 2 . ص : 1301 ـ 1312 . ت . حسن كامل الصيرفي ط . الثانية دار المعارف القاهرة 1963 .
(2) أبو الربيع : الديوان : ص : 21 .
(3) البحترى : الديوان : ج . 2 . ص : 1311 .
(4) أبو الربيع : الديوان : ص : 21 .
(5) البحترى : الديوان : ج . 2 . ص : 1311 .
(6) أبو الربيـع : الديوان ص : 22 .
(7) البحترى : الديوان : ج . 2 . ص : 1312   (8) المرجع السابق ص: 1070 .

وقد تراه يقتبس أحيانا من المتنبي كما في قوله :

قلنا نترجم عن اخلا ص حبكم " اذا سلمت فكل الناس قد سلموا " (1)

ويظهر تقمصه لشخصية أبي الطيب خاصة في يائيته التي استهلها بقوله :

علام تعد القربات المذكيا ومالك تختار الظبا والعواليا ؟ (2)

فهذه القصيدة تنظر في مجموعها ليائية المتنبي المشهورة التي قالها في مدح كافور التي ابتدأها بقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقد أردف هذا المطلع بعشرة أبيات أخرى صور فيها المتنبي الصراع النفسي الذى كان يعيشه ، وهو من أحسن ما قاله :.

فالبيت الأول من قصيدة أبي الربيع ينظر الى بيت المتنبي الذى يقول فيه :

ولا تستطيلن الرماح لغارة ولا تستجيدن العتاق المذاكيا

وفي بيت أبي الربيع الذى يقول فيه :

وأنكر أن الدهر يغدر بالفتى وقد كان غدارا ولم يك وافيا (3)

تأثر واضح يقول المتنبي :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى فقد كان غدار فكن أنت وافيا (4)

ويبدو أن النسج على منوال مشاهير شعراء المشرق ، كأبي تمام والمتنبي ، والبحترى وأبي العلاء المعرى ، كان عادة متبعة في بلدان المغرب على ذلك العهد ، اذ كثيرا ما تعثر ، في كتب التراجم على أن فلانا الشاعر كان يسلك في الشعر مسلك أبي تمام أو البحترى مثلا . الا أن هذا الاعجاب قد يذهب ببعضهم الى حد التقليد الممجوج أحيانا .

---

(1) المتنبي : الديوان : ج . 3 . ص : 376 ، شرح العكبرى .
(2) أبو الربيع : الديوان ص : 36 .
(3) المصدر السابق ، ص : 31 .
(4) المتنبي : الديوان : ج . 4 . ص : 281 . شرح العكبرى ، ط . الثانية القاهرة 1956 .

فقد ذكر الغبريني بهذا الصدد أن أبا عبدالله محمد بن الحسن التميمي القلعي[1] المتوفي سنة 673 "كان يسلك في شعره على طريق حبيب ابن أوس ، وكان صاحبه أبوعبدالله الجزائري[2] يسلك في شعره سلوك المتنبي ، وكانا يتراسلان الأشعار، يجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته "[3].

وأبرز ظاهرة يلاحظها الدارس لدى أبي الربيع هو اهتمامه البالغ بقضايا الثغور ، اذ كثيرا ماكان يشيد بمواقف المنصور في الجزيرة وينوه بما يقوم به من مجهودات حربية وعمرانية في المدن الأندلسية، وهذا الاهتمام ينم عن جانبه العسكري حيث كان من قادة يعقوب كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، يقول للمنصور مشيدا بما قام به في الأندلس :

ياغرة الدين كم لله من نعم	بكم على الدين والدنيا ومن منن
هذي الجزيرة قد طوقتها شرفا	طوق الحمامة لا تبلى على الزمن
ان لم يعزّ بك الدين الغريب بها	ياذا اليمينين[4] في تعميرها بمن ؟
هذي تشيد للاسلام من مدن	ما خربت هذه للكفار من مدن
لامسجد لك فيها غير من بيع	ولا قناديل فيها غير من وثن
مليت منك رضى يا منيتي قدرما	ملأت أجفان أهل الثغر من وسن (5)

ومن ذلك قوله أيضا :

خليفة الله ان تشكرك أندلس	تشكرك معنى وان لم تشكرك افصاحا
حسب العناية أن وليتها ملكا	طلق الأسرة والكفين وضاحا

(1) نسبة الى قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط.

(2) هو : أبوعبدالله محمد بن أحمد الأريسي المشهور بالجزائري شيخ كتبة الديوان ببجاية وأحد مشاهير الشعراء بالمغرب الأوسط ، انظر ترجمته لدى الغبريني : ص : 337 — 340 — يفهم من ردّ علال الفاسي على استفسار شكيب ارسلان عن بلدة باروشة الاسبانية أن اريسة مدينة بالأندلس وان لم يحدد منطقتها ، ويقول ان عائلة الأدريسي منسوبة اليها ومنها أبوعبدالله محمد بن أحمد وجدّه محمد بن أحمد الأريسي . ويغلب على الظن أنهما منسوبان لمنطقة أريس قرب مدينة بسكرة ، فهناك مدينة تسمى حتى الآن بهذا الاسم .

(3) المصدر السابق ص : 71 — 72.

(4) تثنية اليمين مع اليسار ، على التغليب يريد أن يقول : تشيد للاسلام باحداهما وتخرب للكفار بالأخرى.

(5) ابو الربيع : الديوان : ص : 29 — 30.

حوطا على الدين أو معنى أردت بـه ... بين الذئاب وبين الشاة اصلاحـا
سويتها بعد أن كان الذماء(1) بهـا ... على شفـى ، وأزحت السقم فانزاحـا
خلقا جديدا ولم تسمح بتسويـة ... حتى نفخت بها من فيك أرواحـا
قبس(2) من النور لم يجحف بمقتبسه ... كما اقتبست من المصباح مصباحا (3)

ومن ذلك ما قاله في مدح المنصور أيضا بعد انتصاره في الأراك .

شكت الثغور الخطب لما لم يكـن ... الا اليك من الخطوب المشتكى
وتخاصمت مهج النفوس بها الـى ... حد الحسام فلم تشر الا بكـا .

ويستمر في التنويـه بما قام بـه من جهود وجهـاد لاعادة الأمن للجزيرة الى أن يـقـول :

أمنا أمير المؤمنين بغـزوة ... قالت لك الأقدار فيها هل لكـا ؟
وكأنما آلت عليك أليـة ... ألا ترى بك في البسيطة مشركـا

نفس الافراط في المبالغة والاغراق في الخيال اللذين رأيناهما عند أقرانه من قبـل ، حيث يجعـل الأقدار تخطب وده ، وتقسم آلية على ألا ترى له مشاركا ، أو نظيرا .
وغالبا ما كان يربط نتائج انتصاراته بالثغور بما كانت تتركه له من أصداء حسنـة لدى الممالك الاسلامية بالمشرق كقولـه :

يهنيك يا خير الخلائق غـزوة ... كشفت عن الدين بهـا الأواء(4)
وارتج بغداد وماج بعـزه ... أرض الشام ومصر والبلقـاء (5)

وكقولـه أيضا للمنصـور :

تطوى البلاد ولم تزل من غربهـا ... كالكون يوجد ساكنا متحركـا
هذي الشآم يرسلها وبكتبهـا ... نفرت اليك تيمنـا وتبركـا
لم ينتهـا بعد الديار عن التـي ... جعلتك حلا للحجيـج ومنسكـا (6)

---

(1) الذماء بقية الحياة .
(2) قبس واقتبس من كذا قبسة : أخذ ما منه بأطراف الأصابع .
(3) أبو الربيـع : الديوان : ص : 30 .
(4) الأواء : الشدة والمحنة .
(5) أبو الربيـع : الديوان : ص : 25 .
(6) المصدر السابق ، ص : 28 ـ 29 .

فهذا الاهتمام بالسمعة الخارجية للخلافة ، وتتبع ما تحدثه انتصارات الموحدين من ردود فعل في بقية البلدان الاسلامية الأخرى يعبر عن الجانب السياسي لدى الأمير الشاعر أبي الربيع اذ قد كان أيضا من الحكام المسؤولين كما نعلم فهو لذلك لا يريد أن يتسم بالشعر وحده .

حذها ، وان لم أكن بالشعر متسما   من قبل لكنني بالحب موسوم
وما الذى قلته شعرا ولا فقرا   لكنه الشكر منثور ومنظوم (1)

وهو ينفي أن يكون شغله القريض :

عذرا فما شغلي القريض وانما   أملت أياديك الثناء والأجملا
فنظمته شكرا لأنعمك التي   أوليتنيها منعما متفضلا

ولسوف يبذل كل جهد للتعبير عن شكره وامتنانه ، شعرا ونثرا

فلأملأن الخافقين بشكركم   ما دمت حياً ناظما ومرسلا
ولأبذلن نفسي لكم جهدي وذا   جهد المقل وما عسى أن أفعلا (2)
ولأخلصن لك الدعاء وما أنا   أهل له ، ولعله أن يقبلا (3)

فالذى حدا به للامتداح حسبما يقول هو محض الحب والاخلاص والرغبة في شكر النعمة :

خذها أمير المؤمنين مديحة   من قلب صدق لم يشبه تصنع
فالمدح مني في علاك طبيعة   والمدح من غيرى اليك تطبع (4)

ولكن رائحة التذلل والخنوع التي كانت تشتم أحيانا من بعض أبياته تجعلنا نرشح أن الذى أجبره على قول هذه المدائح هو ما تعرض له من جفوة من قبل المنصور ، وما أحس به من أعراضه عنه اثر استيلاء ابن غانية الميورقي على بجاية التي كانت تحت ولايته ، حيث حمله

---

(1) أبو الربيع : الديوان : ص : 31 .
(2) ذكر الجراري أن أبا الربيع قال هذا البيت في مدح المنصور ، وقد اعتمد حسبما أظن على رواية المقرى ، وهو خطاء لأن القصيدة قيلت في مدح محمد الناصر . (الجراري ص : 145) .
(3) أبو الربيع : الديوان ص : 39 .
(4) المرجع السابق ، ص : 22 .

مسؤولية التفريط في هذا الثغر . فاضطر أبو الربيع لاستعطاف المنصور بهذه المدائح التي هي بمثابة اعتذاريات لاسترضائه . ليرده الى ماكان عليه بالماضي حيث كان قد عزله عن كل ما يتصل بالسياسة والحكم وحرمه حتى من مقابلته .

ونحن لانعتقد أن تكون سبب القطيعة بين المنصور وأبي الربيع هو حادثة بجاية وحدها ، لأنه في الواقع لم يكن المسؤول الوحيد عن كل ما حدث ، ولكن لايستبعد أن يكون لسيرة الشاعر التي اتصفت بنوع من التحلل ، دخل كبير في هذه الجفوة ، خاصة ، وأن المنصور كان مشهورا بجديته ، واستقامته وتقشفه ، وشدة محاربته لكل مظاهر الميوعة واللهو .

فقد ذكر ابن عذارى أنه "لما رأى (أى المنصور) التساوى في الانهماك والاغترار، وسمع المجاهرة بالاستهتار والتنافس في الشهوات ونفاق سوق الغانيات الملهيات ، تنكر وغضب لله في ذلك المنكر . . . فأمر باراقة المسكرات وقطعها والتحذير بعقاب الموت على استعمالها ، واتخذ المخاطبات بذلك الى كافة ولاته بالأمصار ، فأريق منها في البلاد ما يساوى أموالا جمة "(1) . فلم يكن للمنصور ، اذن والحالة هذه ليغض الطرف عما كان يرتكبه ابن عمه أو يرضى عنه ، خاصة وأن أبا الربيع لم يكن يتحرج من المجاهرة بما كان يقوم به من أعمال حسبما تدل على ذلك بعض ساجلاته .

ونحن اذا أردنا أن نصف هذا الأمير الشاعر يجب علينا أن ننظر اليه من خلال غزلياته ، فهو شاعر الحب والنسيب لاشاعر المدح والتهاني ، كما سنرى ذلك فيما سيأتي .

وبعد ، فنحن لانستطيع أن نستقصي كل الشعراء المغاربة الذين امتدحوا الموحدين ونالوا جوائزهم ، لأن الهدف الذى نسعى اليه هو اعطاء

---

(1) ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 143 — 144 .

صورة نموذجية لهذا النوع من الشعر الذى كان يعد أكثر الأغراض شيوعا في ذلك الوقت، واظهار مدى تجاوبه مع الأحداث التي مرت بها الدولة الموحدية في عهد قوتها وازدهارها . ونحن نعتقد أن فيما أوردناه من المختارات الشعرية قدرا كافيا لاظهار ذلك .

الا أننا لا نريد أن نختم الفصل دون أن نشير الى أن هناك شعراء كثيرين ينتمون الى المغربين الأوسط والأدنى اشتهروا بمدائحهم للخلفاء الموحدين وولاتهم، لم نتعرض لذكرهم هنا، مثل : أبي علي حسن بن لفكون[1] وأبي عبدالله محمد بن عبدالله التلمساني[2] وأبي عبدالله ابن حماد الصنهاجي[3]، وابي عبدالله محمد بن يحي بن عبدالسلام[4]، وأضرابهم كثيرين، لكننا سنتناولهم عند عرضنا للأغراض الشعرية الأخرى كل حسب ما اشتهر فيه . كما أننا اقتصرنا في هذا الباب على بعض ما قيل في الخلفاء دون أن نتعرض لما قيل في غيرهم من الأمراء والوزراء وبعض أعيان الكتاب ورؤساء القبائل، باعتبار أن ما قيل في الخلفاء يمثل الزبدة بالنسبة لكل ما انتج في هذا الغرض .

وخلاصة لكل ما تقدم، نرى أن شعر المديح كان من أغزر الأغراض الشعرية انتشارا في ذلك العهد، لما كان يلاقيه من تشجيع، مادى ومعنوى من طرف الحكام المسيرين خاصة منهم الخلفاء .

وهو لم يحد، في عمومه، عن المنهج التقليدى الذى رسمه له النقاد مثل ابن قتيبة وغيره، فقد بقي يلتزم الخطوط العامة التي نصوا عليها في كتبهم باستثناء المقدمة الغزلية التي الف الشعراء

---

(1) ذكر ابن قنفد أحمد بن حسن بن علي القسنطيني في الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ص: 140 أن ابن لفكون مدح الناصر بقصيدة عظيمة يوم وصوله الى قسنطينة وله أيضا أرجوزة في كل البلدان التي مر بها وهو في طريقه الى مراكش لمدح أحد الخلفاء الموحدين .

(2 — 3 — 4) سبق التعريف بهم .

أن يتخذوها مطية للموضوع ، فقد تحرروا منها دون أن يعوضوها بشيء الا نادرا ، كما أصبحوا في غنى عما كان يسمى بحسن التخلص الذى كان يتبارى فيه فحول الشعراء للانتقال من المقدمة الى الموضوع . فأشهر القصائد التي وصلتنا في مدح خلفاء هذا العصر ، كانت تخلو من كل تمهيد ، بل أكثرها نجاحا وأوسعها انتشارا كانت تلك التي تهجم على الموضوع مباشرة ، وتخصص مطلعها لذكر الممدوح ، كما فعل الطليق المرواني مع عبد المؤمن في قصيدته المشهورة التي مدحه بها بجبل الفتح ، وقد مرّ ذكرها ، أو كما فعل السعاني كذلك .

وعدم التمهيد بالغزل ، راجع ، ولا شك ، الى جو الوقار الذى كان يفرضه الخلفاء على مجالسهم الرسمية . فقد كان أغلبهم فقهاء ، لا يرتاحون كثيرا لسماع الشعر العاطفي ، خاصة اذا كان فيه ما يوحي بالميوعة التي لا تتناسب مع تكوينهم الجدى الذى جبلوا عليه . فقد ذكر أن عبد المؤمن سمع يوما ابن ميمون[1] ـ وكان من جلة علماء الاندلس الذين كلفوا بتربية أبناء الخليفة ـ سمعه ينشد ثلاثة أبيات في الغزل قالها في أحد فتيان أغمات[2] فهجره وحجبه عن مجلسه وصرف بنيه عن القراءة عليه[3] .

وقد رأينا كيف سعى الوزير ابن يوجان في ابعاد الجراوى عن مجلس الخليفة يعقوب المنصور بدعوى أنه " من أهل الشعر والهزل ، وما يليق بمجالس الخليفة الا أهل العلم والجد فهجر"[4] .

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن ميموس بن ادريس بن محمد بن عبد الله العبدرى ، كان بليغا شاعرا ، خرج من بلده قرطبة أيام الفتنة الاخيرة ونزل مراكش فأقرأ بها العربية والادب ترجم له ابن الابار في التكملة (ط كديرا) رقم 751 .

(2) هو أبو القاسم عبد المنعم بن محمد ابن تست . والابيات التي قالها فيه ابن ميمون هي :

أبا القاسم والهوى جنة ... وها أنا من مسها لم افق
تبوأت جحيم نار الضلوع ... كما خضت تجر دموع الحدق
اكنت الخليل أكنت الكليم ... أمنت الحريق أمنت الغرق

(3) انظر ابن صاحب الصلاة : المن : ص : 222 ـ 224 .

(4) ابن سعيد : الغصون : ص : 101 .

ولم يكن الخلفاء يجلسون ، في الواقع لسماع الشعر الا في احدى الحالتين : اما لانتصارهم في معركة أو لاستعدادهم لغزو ، وجو الحرب هذا الذى يعيشون فيه باستمرار لا ينسجم معه من الشعر الا ماكان في مثل قوته وشدته وجزاليته ، لذلك كان الشعراء يوجهون اهتمامهم في مدائحهم، خاصة ، الى التنويه بشجاعة ممدوحيهم ، وشدة بأسهم ، وخبرتهم الحربية ، ويعزجون مدحهم بالحث على الجهاد ، والنجدة وما الى ذلك من هذه الأشياء التي تنسجم مع الفروسية .

ولم يكن الاستغناء عن المقدمة الغزلية في الواقع من مستحدثات شعراء العهد الموحدى ، فقد رأينا مثل ذلك لدى بعض فحول الشعراء من أمثال أبي تمام والمتنبي الا أنه كان نادرا . لذلك نراهم يلتمسون أحيانا نوعا من العذر لأنفسهم لخرقهم لهذه العادة المألوفة حيث نجد المتنبي ، مثلا ، يقول في مستهل احدى مدائحه :

اذا كان مدح ، فالنسيب المقدم   أكل أديب قال شعرا متيم؟ ! (1)

وقد يستهدلون المقدمة الغزلية بما لا يتوافق تماما مع المديح ، كما فعل المتنبى أيضا في احدى مدائحه لكافور حيث استهلها بقوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وهذا مخالف لما نص عليه النقاد ، حيث أوصوا بحسن الابتداء لأن ذلك — كما يقول ابن رشيق — : " داعية الانشراح ، ومطية النجاح "(2)

وقد ارتكب ابن خفاجة نفس الزلة في مدحه لا بن زهر حيث استهل قصيدته بقوله :

كفاني شكوى أن أرى المجد شاكيا   وحسب الرزايا أن تراني باكيا (3)

وهو تقليد سافر لبيت المتنبي السالف الذكر .

---

(1) المتنبي : الديوان : ج . 3 . ص : 350 .
(2) ابن رشيق : العمدة : ص :
(3) ابن خفاجة : الديوان .

ويقول في مستهل مديحة أخرى معللا خرقه لعادة الابتداء بالمقدمة الغزلية :

بمثل علاك من ملك حسيب عدلت الى المديح عن النسيب (1)

وكان أبو تمام نفسه سيتغنى أحيانا عن المقدمة الغزلية اذا كانت لا تتلاءم مع الحدث التي قيلت فيه القصيدة ، كما فعل في قصيدة التي قالها في فتح عمورية حيث استهلها كالآتي :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (2)

وكذلك فعل في رائيته المشهورة التي مدح بها المعتصم وذكر فيها الافشين حيث بدأها بقوله :

الحق أبلج والسيوف عواري فحذار من أسد العرين حذار (3)

على أن الشعراء الموحدين لم يكونوا — حسبما يبدو — يتحرجون في استهلال مدائحهم بالغزل اذا ما قصدوا بها غير الخلفاء . كما نلاحظ ذلك عند ابن حبوس عندما مدح الوزير أبا جعفر ابن عطية حيث مهد لمديحه بمقدمة غزلية لا بأس بها استهلها بقوله :

ألازار من أم الخشيف خيالها ومن دونها البيداء يخفق آلها (4)

وكذلك فعل ابن شكيل[5] عندما مدح القاضي أبا حفص الأغماتي حيث استهل قصيدته بمقدمة طويلة تعرض فيها لذكر الشيب وما دار بينه وبين ابنت عمه من حوار حول فقره ، وقد ابتدأها بقوله :

يامن لصبح الشيب كيف تنفسا في لمّتي فأجابه ليل الأسى
لا تحسبن سواد شعري نعمة لكن كسته هموم قلبي حندسا (6)

---

(1) ابن خفاجة : الديوان .
(2) ابو تمام : الديوان : ج . 2 . ص : 198 ت . محمد عبده عزام دار المعارف القاهرة 1969 .
(3) المصدر السابق .
(4) ابن تاويت : الوافي : ص : 100 .
(5) هو أبو العباس احمد بن أبي الحكم يعيش بن علي بن شكيل الصدفي 605/578 ترجم له المقري : في ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 367 .
(6) المقري : ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 368 — 371 . وقد ذكر أن هذا الشاعر كانت له فيه امداح كثيرة .

أما فيما عدا هذا فقد بقي شعر المديح تقليديا في صوره ومعانيه يصف الممدوح بالشجاعة والكرم ، والعدل ، والحلم ، والعفو عند المقدرة ، وبعد النظر في التفكير ، والسداد في الرأى وما الى ذلك من هذه الأوصاف التي الف الشعراء أن يغدقوها على ممدوحيهم بلا حساب .

وتلك خاصية من خصائص مدرسة أبي تمام التي ترى في الممدوح المثل الأعلى للانسان ، وترى أن الشاعر عندما يمدح شخصا دائما يمدح فيه جوهر الانسان ، لذلك يجب عليه ألا يركز على الجانب الحسي منه بقدر ما يركز على الجانب الروحي ، والفضائل الكبرى التي يجب أن يتصف بها ، فهو على هذا الاعتبار يصور الممدوح كما يجب أن يكون لا كما هو كائن .. وتوفيق الشاعر وعدم توفيقه يرتبط ، حينئذ ، بتجاوبه مع الصدق الفني الذى أخذ به الشاعر نفسه في التصوير .

الا أن الصبغة العامة لهذا النوع من الشعر بقيت دينية في أغلبها وهذا لطغيان الثقافة الاسلامية في العهد الموحدى ، وسيطرتها على كل ألوان المعرفة بما فيها الشعر على اختلاف أنواعه ، سواء ما صيغ منه على الطريقة التقليدية أو ما استجد من الموشحات ، أو ما جاء منه في قوالب زجلية .

أما الظواهر التي تميز بها شعر المديح في هذا العهد فهي تتجلى خاصة في :

- مدح الخلفاء بالصلاح والتقوى والتركيز على الهداية التي تتسم بنوع من التشيّع .
- مدحهم بالحلم وتحرير العقل .
- مدحهم بنسبهم القيسي
- الاكثار من استعمال الكلمات والألفاظ التي تدل على معنى النور
- الافراط في المبالغة في كل ما يوصف به الممدوحون ، واخضاع كل ما في الطبيعة لخدمتهم .
- وربط كل ذلك بالسعد وحسن الطالع .

٤ — الهجــاء :

لم يصل الينا من شعر الهجاء الذى قيل في العهد الموحدى بالمغرب الا بعض المقتطفات القليلة ، مبثوثة في بعض كتب التراجم ، مع أن أغلب الذين تعرضوا لذكر الأدب في ذلك العهد أشاروا لانتشار هذا الفن ، ولكن دون أن يوردوا لنا منه قدرا يفي بالحاجة .

والواقع أن الهجاء لم يجد الجو الملائم لازدهاره في العهد الموحدى خاصة بالمغرب ، باعتبار أن سياسة الحكم لدى هذه الدولة كانت قائمة على مبدىء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورمي الأبرياء بما ليس فيهم ، والتشهير بالمسلمين ، يعدّ من أكبر المنكرات التي لا يجوز السكوت عنها . الا أن ذلك لم يكن ليقضي تماما على هذا الفنّ ، اذ أقصى ما يمكن أن يؤثر فيه ، هو أن يكفكف بعض الشيء من غلوائه ، بما يمكن أن يسلطه الحكام من ضغوط على الهجائين المفحشين .

والهجاء ، في الحقيقة ، هو من الشرور التي لامفرّ منها ، اذ هو متنفس يلجؤ اليه الافراد اذا ما احتد بينهم التنافس ، كما تلجوء اليه الجماعات اذا ما ضغطت ، أو غلبته على أمرها ، وكلتا الظاهرتين كانتا متوفرتين في هذا العهد ، فمن الطبيعي اذن أن نجد صدى لكل ذلك في شعر هذا العصر ، الا أنه لم يصل الينا منه الا القليل ، وهذا راجع لسببين رئيسيين هما :

1) ان البيئة المغربية كانت بيئة دينية ومتزمتة أحيانا لحد التطرف ، وجوّ كهذا لايمكن أن يشجع على رواية مثل هذا النوع من الشعر ، خاصة ، اذا كان مقذعا ، باعتباره نوعا من أنواع النميمة . فقد ذكر ابن سعيد أنه اشترك يوما مع ابن سهل الاسرائيلي في اجازة أبيات في هجاء أبي الوليد اسماعيل اللخمي ، فانتقد عليه

والـده ذلك قائـلا " ما أبعـد الفـلاح عن وجهـك ! ما كفى أنـك أدخلـت روحـك في النميمـة بهجـو الأعيـان حتى رضيت أن تكون زاملـة ليهـودي شاعـر فاشتركـت معـه في الصفـة بالهجو وانفـرد بحسـن المعنى "(1).

2) تحـرج أغلـب المؤرخـين من روايـة الهجاء ، واثـباتـه في كتبهـم وذلك لتعففهـم ونـفورهـم من روايـة الفحـش كما صـرح بذلك كل مـن ابن بسـام في الذخـيرة (2) ، والمراكـشـي في المعـجـب (3).

وأشهـر شاعـر مغربـي عرف بالهجـاء في هذا العصـر هوأبو العبـاس الجراوي الذي سبـق أن أشرنـا الى شراسـة اخلاقـه اعتمـادا على مـا وصـفـه بـه بعض المؤرخـين من كونـه " غـيورا على الشعر ، حسـودا للشعـراء ناقـدا عليهـم "(4) فلم يكـن يسـلم من لسانـه حتى الخلفـاء الذين كان في خدمتهم وتحـت طاعتهـم . فقد ذكر ابن خلكان " أنـه حضـر يوما (الجراوي) الى باب أمـير المسلمـين يوسف (بن عبد المؤمن) وهنـاك الطبـيـب سعيـد الغمـاري . . . فقال الأمـير يوسف لبعـض خدمـه : انظـر من بالبـاب من الأصحـاب فخـرج الخادم الى الباب ثـم عاد اليـه ، فـقال : أحمد الكوراني وسعيـد الغمـاري ، فـقـال الأمـير يوسـف : من عجائـب الدنيـا ، شاعـر من كرايـا ، وطبيـب مـن غمـارة ، فبلـغ ذلك الكوراني ، فـقـال : " وضـرب لنا مـثلا ونسي خلقـه " أعجـب منهمـا ، واللـه خليـفـة من كوميـة "(5).

الا أن هجاء الجراوي ، الذي وصل الينا ، على لذاعتـه لم يكن يتـسم بالفحـش ، والسـب البذيء اللذين كنا نجدهما عند كثير من الهجائـين

---

(1) ابن سعيد : اختصار القدح المعلى : 140ـ142 . ت . ابراهيم الأنباري القاهرة 1959.
(2) ابن بسام : الذخيرة : ق/2/1/ص : 586 . وق/2/2/ ص : 885.
(3) المراكشي : المعجب : ص : 374.
(4) الزركلي : الاعلام : ج .1. ص: 145.
(5) ابن خلكان : الوفيات : ج .7. ص: 134ـ137 . ت . إ. عباس.

الأندلسيين من أضراب المخزومي الأعمى ، وابن سهل اليكي مثلا[1] فهو لم يكن يستعمل الفحش حتى مع أولائك الذين اشتهروا به الا نادرا . وقد توخى في هجائه الوصف " الكريكتيرى " الذى يكشف العيوب الخفية في الانسان فيضخمها ويبرزها في أبشع صورة ، ولكن دون أن يختلقها اختلاقا .

وكثيرا ما كان يعتمد على العيوب الأخلاقية التي يتهم بها الشخص ، أو يمكن أن يتهم بها ، فيصوغها في عبارات شائكة بأسلوب سهل في مقطوعات لا تتجاوز الخمسة أو الستة أبيات تسهيلا لحفظها وانتشارها .

فهو عندما هجا أبا حفص الأغماتي ، مثلا ، اعتمد في اتهامه بالتخنث على قرائن الأحوال التي كانت تكتنف الرجل ، وهي التى عبر عنها ابن سعيد المغربي بقوله : " وكان في غاية من الظرف ، (أى الأغماتي) اذا أقبل شمت رائحة الطيب معه على بعد ، واذا غسلت ثيابه ، لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه الجنة ، حتى وجد فيه أعداؤه مطعنا ، ورفعوا للمنصور أنه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته ، وانهماكه في العشق[2] "

فقد كان تأنقه في مظهره ، اذن ، ومبالغته في التطيب ، وتفننه في طريقة معيشته ، وميله لمجالس الأنس وما تستلزمه هذه المجالس من اختلاط ، وشرب محتمل ، وغناء وتغزل وحبي ـ وهذا رغم وقار وظيفة القضاء التي كان يتقلدها ـ هي التي أوحت بفكرة الميوعة التي هجاه بها الجراوى . ويظهر أن الرجل كان على شيء من النرجسية اذ كان مفتونا بمظهره لوسامته ، حسبما يستشف من مساجلة دارت بينه وبين أحد شيوخه عندما كان صغيرا[3] .

---

(1) سنتحدث عنهما فيما بعد .
(2) ابن سعيد : الغصون : ص : 91 ـ 92 .
(3) ذكر ابن سعيد أن الأغماتي خرج في صباه مع شيخه أبي ذر النحوى

فجاءت هذه الأبيات التي قالها فيه الجراوى لترسخ الفكرة التي نبتت في أذهان الناس عنه نتيجة سلوكه :

بغت عمرة بنت عمر — هذه فلتعجبوا احدى العبر
قل لها على اذا ما جئتها — قولة تترك صدعا في الحجر
هبك كالخنساء في أشعارها — أو كليلي هل تجارين الذكر ؟ ! (1)

وعبقرية هذا الشاعر لا تكمن في اختيار نقطة الضعف التي يتسرب منها لطعن مهجوه في الصميم فحسب ولكن تظهر خاصة في حبك التهمة وصياغتها بشكل يترك السامع يصدق بمنطقيتها رغم اقتناعه أحيانا بعدم صحتها كما يلاحظ في الأبيات السالفة الذكر . والذى حدا بالجراوى لهذا التهجم ، هو ، ولا شك المنافسة والحسد فقد أثر عنه أنه كان شديد الغيرة من زملائه الشعراء ، وكان ينفس على الأغاني خاصة مكانته التي كان يحظى بها لدى المنصور ، لذلك كان لا يكف عن تسقط زلاته ، والتشهير بها كلما وجد الى ذلك سبيلا (2) . وكان ينقم على طبقة الكتاب ، خاصة ، لقربها من الخليفة ، وقد أشرنا فيما مضى الى التنافس الذى كان بينه وبين الوزير الكاتب ابن يوجان حتى حاول هذا الأخير أن يحجبه عن مجالس الخليفة .

= فأثرت الشمس في وجهه وكان وسيما . فقال الأستاذ :
وسمتك الشمس ياعمر — وسمة بالحسن تعتبر
فقال أبو حفص :
علمت قدر الذى صنعت — فانثنت صفراء تعتذر
انظر الغصون : ص : 95 — اورد المقرى القصة في النفح مع بعض الاختلاف انظر ذلك في النفح : ج . 4 . ص : 162 .

(1) ابن سعيد : الغصون ص : 94 — ذكر الاستاذ عبدالله قنون أن عمرة هو اسم لابنة أبي حفص كانت شاعرة مثله وهي المقصودة بالهجاء . الا ان الذى نرجحه نحن هو أن الشاعر كان يقصد أباها فاستتر وراء اسم ابنته الذى هو تأنيث لاسم عمر .

(2) انظر ماقاله المقرى في ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 364 عن هذا الموضوع .

وقد حمله حقده هذا على هجاء الكاتب ابن الياسمين[1] أحد رجالات الخليفة على حدّ تعبير ابن الأبار . فقال فيه :

أست الحبارى ورأس النسر بينهما لون الغراب وأنفاس من الجعل
خذها اليك بحكم الوزن أربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

فهو لم يكتف بابراز عيوبه الخلقية مضخمة بشكل "كوكتيرى" حتى أضاف اليها اللون الأسود والرائحة الكريهة ، وقد ردّ عليه ابن الياسمين بقوله :

يا أعرق الناس في نسل اليهود ومن تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة تغنى عن النعت والتوكيد والبدل (2)

وقد كان أهل المغرب يعيبون برابر كورايا ويزعمون أنهم يهود . فكان الجراوى يدارى هذه الحقيقة ولا يريد أن تشتهر عنه . وقد دفعه حقده أيضا للتعريض بالكاتب أبي الحسن بن عياش فقال ، عندما وجد ابن الياسمين مذبوحا بداره ، محذرا أياه من نفس المصير :

هذا ابن حجاج تفاقم أمره وجرى وجرّ بحد غايته الرسن
حتى غدا ملقى ذبيحا حاجيا للناس رقدته اذا هجر الوسن
فليحذر الكتاب ما قد غاله وأخص بينهم الفقيه أبا الحسن (3)

فهو بذلك قد لزّ الكتاب كلهم في قرن واحد ، وجعل هذه الصفة التي اشتهر بها ابن الياسمين وكأنها القاسم المشترك الذى يجمع بينهم . وخص منهم الفقيه ابن عياش ، نكاية فيه .

---

(1) هو أبو عبدالله بن الحجاج ، سبقت الاشارة اليه ، اشتهر بابن الياسمين نسبة لأمه وكانت سوداء ، كما كان أسود هو أيضا ، اشتهر ، أول أمره بالتوثيق واشتغل بالنظم والنثر حتى صار من أعلام الكتاب ، وكان من جلساء المنصور يصطحبه في أسفاره ، وتنقلاته لافتتانه بحديثه . وجد مذبوحا بداره بمراكش سنة 601 ، ولا يبعد أن يكون ذلك بسبب ما اشتهر به من بعض العادات الاخلاقية القبيحة .
انظر ابن سعيد : في الغصون : ص : 42 .
(2) المرجع السابق ، ص : 46 .
(3) المرجع السابق ، ص : 44 .

وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القطعة حتى أصبح على كل لسان وهو خلاصة ما أراد الجراوى الصاقه بأبي الحسن . وقد أخذ الناس يرددونه تعريضا بمن قيل فيه ، بعد أن أدخلوا عليه تعديلا بسيطا حيث أصبح كالتالي :

" فليحذر الكتاب ما قد غاله ||| وأخص بينهم الفقيه فلانا " (1)

ولم يقتصر هجاء الجراوى على الكتاب وحدهم بل شمل حتى بعض الأعيان والوزراء .

فمما قاله في ابن خيار الجياني أحد كبار الأعيان الذى نال حضوة عند الخليفة عبدالمؤمن ، وكان ممن سعى في نكبة الوزير ابن عطية ، ما يلي :

أيا ابن خيار بلغت المدى ||| وقد يكسف البدر بعد التمام
فأين الوزير أبو جعفر (2) ||| وابن المقرب عبدالسلام (3)

وقال في الوزير ابن يوجان عندما نكب وعزل عن الوزارة :

لقد كنت تحكي في التجهم مالكا ||| وكانت بك الأحوال تحكي جهنما
فما أعظم البشرى بعودك خاملا ||| وغيرك قد أضحى النبيه المقدما

فهذا النوع من الهجاء على ما يتسم به من الهدوء الظاهري ينطوى في واقع الأمر على خطر الموت المادى أو المعنوى . فالجراوى عندما يذكر ابن خيار بالوزير ابن عطية والوزير عبدالسلام الكومي انما يريد أن يقول له : سيكون مآلك حتما الى ما صارا إليه .

---

(1) ابن سعيد : الغصون : ص : 44 .
(2) هو أبو جعفر أحمد بن عطية كاتب عبدالمؤمن ووزيره ، قتله الخليفة لأمور سياسية . انظر المراكشي : المعجب ص : 267 — 268 — وابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 35 — 37 .
(3) هو الوزير عبدالسلام الكومي الذى سعى في نكبة ابن عطية وقد لقي نفس المصير . وكان يدل على الخليفة عبدالمؤمن لأن والده تزوج أم عبدالسلام وولدت له منها بنت فكان يرى لذلك حقا لنفسه في الخلافة .
— انظر ابن عذارى : البيان : ج . 3 . ص : 44 .

وخمول الذكر بعد العز والجاه العريضين اللذين أصابا ابن يوجان ليسا أقل مرارة من الموت المادى .

ويفهم من كلام ابن سعيد أن الجراوى قال في ابن يوجان هجاء كثيرا لكنه لم يروى منه الا هذين البيتين لقذاعته ولاشك(1)

ويبدو لنا أن أحسن ما قاله الجراوى في هذا الباب هو هذه الأبيات التي قالها في ذويه :

يا ابن السبيل اذا مررت بتادلا	لا تنزلن على بني غنقجوم
قوم طووا طنب السماحة بينهم	لكنهم نشروا لواء اللوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى	الا مجاوبة الصدى للبوم
لا حظ في أموالهم ونوالهم	للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون اذا استبيح حريمهم	الا الصراخ بدعوة المظلوم
ياليتني من غيرهم ولو أنني	من أهل فاس من بني الملجوم (2)

فهذا النوع من الهجاء يدخل في باب ما كان يسميه البلاغيون بـ "المنزه" لعفة ألفاظه وبعدها عن الفحش . الا أن ذلك لم يمنعه أن يكون واخزا ، كما نرى ، فان الجراوى لم يترك لقومه فضيلة يمكن أن يحمدوا عليها بعد هذا الذى قاله فيهم . فأرضهم خراب لا يسمع بها الا نعيق البوم ، وهو نذير شؤم . ولا ذكر لمعنى الجود بينهم مطلقا ، بل لا تجد عندهم الا ما يوحي باللؤم والشر . وليس في أموالهم حق للسائل والمحروم . وهم فوق ذلك لا يملكون القدرة حتى على الدفاع عن حرمهم فاذا ما استبيحت نساؤهم اقتصروا على الصراخ والدعاء ، وذلك أقصى ما يستطيعون .

وأبدع من هذا وأسهل منه انتشارا لخفته وحسن صياغته قوله :

مشى اللؤم في الدنيا طريدا مشردا	يجوب بلاد الله شرقا ومغربا
فلما أتى فاسا تلقاه أهله	وقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا

---

(1) ابن سعيد : الغصون : ص : 101 .

(2) ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 364 — المقرى : نفح الطيب : ج . 2 . ص : 502 .

— ذكر ابن سعيد في الغصون ثلاثة أبيات من هذه المقطعة . انظر ص: 99 .

فروعة هذين البيتين ترجع ، خاصة ، الى الطريقة ، التي حبك الشاعر بها الفكرة والألفاظ التي صاغها بها ثم الصورة التي أبرزها فيها .

وهذا الهجاء هو من النوع الذى تنشده العذراء في خدرها ولا يقبح عليها ، كما قال ابن عمرو بن العلاء عندما سئل عن أحسن الهجاء .

ويدخل في هذا الباب ما قاله أبوالحجاج بن تمرى [1] في ابن الياسمين ، وكان قد استقبح صورته واستحسن كلامه :

أيها اللابس لون الليل ثوبا حسن أظلم
والذى يضمر داء منه يوما ما تألم
أنت أقبح خلق الله ما لم تتكلم
بشذور باهرات ساحرات : لو تجسم
أصبحت في كل جيد حسن عقدا منظم (2)

فرد عليه ابن الياسمين بقوله :

أيها الفاسي أتى ريحك قبل النجو يفغم
في قريض حسن الصورة بالهجو مجذم
فقبلناه وقد جاء لنا بالمدح معلم
ثم قلنا : بمزاح منك قول ليس يعدم
انما الشأن فقيه عالم ليس يعلم
لا تراه الدهر الا بغريم الكأس مغرم
يرفض النفل مع الفرض أوان الزير والبم
واذا صلى رياء كان فيها مثل أبكم
في ثياب كربيع قد سرى فيها المحرم
ذا جوابي وهو ظلم لك والبادىء أظلم (3)

هذا ولم يصلنا عن مغاربة هذا العهد هجاء غير هذا الذى سجل - للجراوى ، اللهم الا تلك القصيدة التي قالها ابن حبوس في ذم المجتمع بعد أن ساء ظنه بالناس . وان كان ذلك لايعد هجاء بمعنى الكلمة ، بل هي

---

(1) هو العالم الأصولي الجليل يوسف بن عبدالصمد بن يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن تمرى يكنى ابا الحجاج ولد بفاس سنة 554 وتوفي سنة 614 . ترجم له ابن القاضي في الجذوة : ص : 345 .
(2) ابن سعيد : الغصون : ص : 49 .
(3) المرجع السابق ، ص : 46 — 47 .

نفثات مصدور قالها في فترة غضب ، ربما ، أو حالة نفسية سيئة . منها هذه الأبيات :

أعدّ لنا بحبك عصا ... وأقضم ما ضغيك حصى
وشعشع للورى شرقا ... مع الساعات أوغصصا
وكن ورد اخبعثنه ... يراوغ منهم قبصا
وعامل بالخديعة من ... لقيت وبنشاد والفرصا
وغمض عينك الجلا ... حتى تتعبت الحوصا
وهز لمعشر سيفا ... وهز لآخرين عصا
وكاثر من يسد بك ... الضرا واخرص كما خرصا
وسوء ظنا بكل أخ ... يقاسمك الثنا حصصا ... (1)

فهذه الأبيات رغم انها تطفح حقدا ، وتفيظ كراهية الا أنها ليست من الهجاء في شيء فهي لا تقصد شخصا بعينه ، بعيدة عن الفحش والبذاءة ، لا رائحة فيها للشتيمة أو السب .

فما هي الا زفرة من الزفرات التي يرسلها كل شاعر مرهف الاحساس ، فهذا المتنبي ، مثلا ، وهو من نعرفه في اعتداده بنفسه ورباطة جأشه يضعف أحيانا فيصف خيبة أمله بقوله :

أمتى الدنيا فلما جئتها ... مستسقيا مطرت علي مصائبا

ويعرب عن نظرته للدهر وللناس قائلا :

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس ، روّى رمحه غير راحم .

هذا ما يمكن أن نقوله عن الهجائين المغاربة ، أما الأندلسيون فقد اشتهر منهم في هذا العهد كل من أبي حريز محفوظ بن مرعي الشريف (2) ومرج الكحل اللذين كانا في عراك دائم . وقد أورد لهما التجيبي بعض النماذج نذكر منها : هذين البيتين اللذين قالهما أبو حريز في مرج الكحل :

---

(1) عبدالله كنون : النبوغ المغربي : ج . 3 . ص : 244 .
(2) ذكره صفوان بن ادريس ، وأورد له بعض النماذج في كتابه زاد المسافر ص : 123 — 126 ؟

تهت يدا مرج الكحول فانه | أفنى الأنام بشعره المشؤوم
قد أهلك الاسلام شؤم مديحه | هلا أشار بمدحة للروم (1)

ومما قاله مرج الكحل في الشريف ما يلي :

أيا عجبا ما للشريف يذمني | ويبغضني حتى كأني مسجد
ولا عيب عندي غير أني مسلم | وأن اسمي اسم الهاشمي محمد (2)

ومنهم الأعمى المخزومي الشريف [3] الذى كان يتهاجا مع نزهون الركونية [4] ، ومنهم أيضا ابن سهل اليكي [5] ، وهؤلاء كلهم في الواقع من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في العصرين المرابطي والموحدى ، وقد اشتهر في العهد الموحدي خاصة ابن حزمون الأندلسي الذى قال عنه المراكشي انه فاحش الهجاء أيضا [6].

وكان أكثر هؤلاء الشعراء فحشا ، وأقذعهم هجاء المخزومي الأعمى ، فقد لقب ببشار الأندلس لبذاءة لسانه ، وقد كان الناس يتقون سلاطته بما يقدمونه له من هدايا وطرف حتى يسلموا منه . فهو لم يقصر هجاءه على مناوئه فحسب، وانما كان يهجو كل من تعرف عليه ، قريبا كان أو بعيدا محسنا أو غير محسن،

---

(1) ترجم له ابن الأبار في التكملة وقال عنه توفي سنة 634 هـ . كما ترجم له لسان الدين في الاحاطة : ج . 2 . ص : 252 — وابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص: 373 — 374 .
(2) التجيبي : زاد المسافر ، ص : 124 — 125 .
(3) ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة : ج . 1 . ص: 432 — 436 وقال عنه : "كان شديد القبحة والشر معروفا بالهجاء مسلطا على الأعراض . . . اذا مدح ضعف شعره " . وقال عنه كان حيا بعد 540 هـ .
— كما ترجم له ابن سعيد في المغرب : ج . 1 . ص : 223 — 227 .
(4) ذكرها ابن الخطيب في الاحاطة : ج . 1 . ص : 433 — 434 وأورد لها المقطوعة التي هجت بها الأعمى المخزومي .
(5) ترجم له كل من : الضبي في البغية رقم 1479 وابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص : 266 .
(6) المراكشي : المعجب : ص : 373 — 374 .

فقد هجا عبدالملك بن سعيد (جد الأديب) واتهمه بالبخل على كثرة مواساته له واحسانه اليه ، وهجا أقرب الناس اليه : ابنه وفلذة كبده ، بل هجا نفسه [1] وقد يبلغ به اللوم احيانا فيهجو أهل مدينة كاملة كما فعل مع أهل مرسية [2] .
وقد أنبه مرة والد ابن سعيد على انتهاك أعراض الناس من غير موجب فقال له : " يا أبا بكر هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله ، فكم تقع في الناس ؟! فقال : أنا أعمى وهم لا يبرحون حفرا ، فقال : والله لا كنت لك حفرة أبدا " [3].

ويليه في اللوم وسلاطة اللسان يحي بن سهل اليكي الذى سبقت الاشارة اليه ، فقد كان أكثر هؤلاء الأندلسيين احتكاكا بالمغاربة حيث كان يقيم بمدينة فاس ، وقد عاش منبوذا بهما على تضلعه وعلو كعبه في الأدب ، ولم يكد يسلم من لسانه حتى الحكام المرابطون الذين عاش في ظل حكمهم . فمما قاله فيهم :

رأيت آدم في نومي فقلت له ... أبا البرية ان الناس قد حكموا
أن الزراجين [4] رهط منك قال اذا ... حواء طالق ان كان ما زعموا [5]

وأقذع من هذا قوله فيهم :

ان المرابط باخل بنواله ... لكنه بعياله يتكرم
الوجه منه محلق لقبيح ما ... يأتيه ، فهو من أجله يتلثم [6]

الا أن هذا الهجاء الذى قاله في الحكام المرابطين لم يظهر الا بعد زوال دولتهم حسبما يفهم من تعليق محقق كتاب زاد المسافر [7] .

---

(1) انظر عن كل ذلك ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص: 223 ـ 227 .
(2) انظر التجيبي : زاد المسافر : ص : 118 .
(3) ابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ص : 225 ـ 226 .
(4) الزراجين : يعني البربر ، ويقصد بهم هنا المرابطين .
(5) التجيبي : زاد المسافر : ص : 120 ، وقد نسبهما المقرى : في النفح : ج . 3 . ص : 412 للسميسر .
(6) المرجع السابق ، ص : 120 حاشية رقم (4) ـ المقرى : النفح : ج . 3 . ص : 205 ـ 206 .
(7) المرجع السابق ، ص : 120 الحاشية رقم (3).

وخلاصة الكل ما تقدم نقول ان شعر الهجاء في هذا العهد قد خلا من كثير من مقوماته التي كان عليها من قبل حيث أصبح عبارة عن نوع من الشتم والسب وذكر العورات بأقبح اسمائها يعتمد المهاجؤن فيه خاصة على اتهام مهجويهم بكل ما يمكن أن يمس بكرامتهم الخلقية ويدنس عفتهم ففقد الهجاء بذلك كل قيمة فنية كانت له من قبل .

3 — الغزل :

عرف الأدب الموحدى الغزل بنوعيه : العذريّ منه والحسيّ ، وهو لم يخرج في عمومه عن الغزل التقليدى المعروف فيما يتعلق بصوره ومعانيه والمعايير الجمالية التي سادت خاصة بالعهدين : الاسلامي والعباسي ، وان عرفت قصيدته نوعا من التطور في الشكل تجلى في استقلالها عن بعض الأغراض التي كانت تتخذ لها كمقدمة ، حيث أصبحت القصيدة الغزلية في هذا العهد تعبر عن تجربة حية ، يحس فيها القارئ بحرارة المعاناة . وصدق العاطفة التي لا أثر فيها للتكلف الذى ألفنا أن نلمسه في المقدمات الغزلية التقليدية ، في المدائح وقصائد الهجاء . لذا جاء أغلب هذه الغزليات في شكل مقطعات لا ترقى لمستوى القصائد العادية الكاملة .

الا أن هذه القصيدة الغزلية ، وان استقلت عن تلك الأغراض التي كانت تقحم فيها اقحاما رغم بعد صلتها بها ، فانها لم تبق في معزل عن بعض الأغراض الأخرى التي كانت تربطها بها وشائج قوية ، وتشترك معها في أكثر من صفة ، كالطبيعة ، والخمريات ، ومجالس الطرب التي كانت تمثل في الواقع التربة المثالية لنموها .

فلم يعد شعراء الغزل في هذا العهد ، يكتفون بالحديث عن جمال المرأة وحده ، بمعزل عن بقية مستلزماته ، فالجمال أصبح عندهم كلا لا يتجزأ ، والمتعة لا تكمل الا باكتمال أدواتها ، لذلك مزجوا الغزل بوصف الرياض وما كانت تحتويه من مجالس أنس ، وخمر ، وغناء ، فجاءت أغلب غزلياتهم مبثوثة في ثنايا قصائد الوصف وفي طي الخمريات .
وهذا لا يعني ، أبدا ، انقطاع الغزليات المحضة المستقلة ، وانما يعني انتشار هذا الخليط الذى أصبح يتركب من عدة أغراض كنوع جديد في هذا الباب ، الى جانب القصائد التقليدية التي بقيت تعبر عن اللونين معا ، بينما تخصصت أغلب القصائد الممزوجة في الغزل الحسي .

وقد عرف هذا اللون من الأدب ازدهارا أكبر في نطاق الموشحات خاصة وما تفرع عنها من الأزجال التي كان يغنّى بها كما سنرى ذلك في حينه . الا أن الذى ساد بلدان المغرب على هذا العهد منه هو النوع العفيف الذى تعاون على تغليبه على غيره مؤثران رئيسيان :
ـ يتمثل الأول منهما في الطابع الديني الذى فرضه الموحدون على كل مظاهر الحياة الاجتماعية في الدولة ـ وهو الذى درجت عليه بلدان المغرب ، في الواقع ، منذ العهد المرابطي .
ـ ويكمن الثاني في جدية المغاربة التي جبلوا عليها ، ونفورهم من الاستهتار والمجون المتطرفين اللذين تلمسهما عند كثير من الأندلسيين ، نتيجة الميوعة والانحلال الحضاري الذى وصلت اليه الجزيرة ابان عهد الطوائف ، واثر النكسات الكبرى التي أصيبت بها بعد ذلك .

وقد عبر المغاربة عن رفضهم للاستهتار الشاذ بكل قساوة ، وهذا في حادثتين وقعتا لأديبين أندلسيين ماجنين هما الفتح ابن خاقان وأبي محمد ابن الياسمين حيث قتل الأول بمراكش في العهد المرابطي ، وقتل الثاني بها لنفس التهمة في العهد الموحدى .

على أن هذا التزمت النسبي الذى اتسمت به بعض المظاهر الرسمية في الدولتين : المرابطية والموحدية ، لم يستطع ، في الواقع ، أن يحدّ من انتشار الغزل الحسي خاصة بالنسبة للأندلس التي كانت تعيش وضعا خاصا ، لاضطراب أحوالها السياسية والاجتماعية . حيث تضاعفت بها أوكار المجون التي تعد المنابت الحقيقية لمثل هذا النوع من الأدب .

وقد انساق بعض الشعراء المغاربة وراء هذا التيار متأثرين بزملائهم الأندلسيين ، فوصفوا المرأة وصفا جسديا مفعما بالشهوة الجنسية كما يتجلى ذلك في قول القاضي ابي حفص الأغماتي :

مشت كالغصن يثنيه النسيم ويعدوه النسيم فيستقيم
لما ردف تعلق في لطيف وذاك الردف لي ولها ظلوم
يعذبني اذا فكرت فيه ويتعبها اذا رامت تقوم
وما حبي لها الا عذاب عليه من نظارتها نعيم (1)

وقد اشتهرت هذه الأبيات في الغرب والشرق على حد تعبير ابن سعيد ولم يكن الأغماتي ، رغم ذلك ، من الشعراء الحسيين بمعنى الكلمة ، ولا كان من الاباحيين الابيقوريين الذين يجرون وراء اللذة مهما كان نوعها ، انما كان شاعرا فنانا ، أحب المرأة وتعشقها ، فوصفها كمحبوبة مفتونا بجمالها ، كما وصفها كانسانة مأخوذا بعواطفها الأنثوية النبيلة . فلئن كان في الأبيات السالفة ما يرشح كونه من شعراء الحس فان هناك أكثر من دليل يبرهن على عفته وطهارته ، ونفوره من الفحش (2).

فالحب في نظر الأغماتي شيء نبيل مقدس ، فهو يرقق الشمائل ويهذب الطباع ، ويعلم الايثار والتضحية كما يقول في هذه الأبيات :

---

(1) ابن سعيد : الغصون : ص : 93

(2) انظر الشهادات التي أوردها عنه ابن سعيد عند ترجمته له في اختصار القدح المعلى .

أغار على الصب من أنبه ... هو الحب من يطفه الهبه
نأى القلب عني وشوقي معي ... فلله أمرى ما أعجبه
يحن فؤادى الى قاتلي.. ... كذاك الهوى عند من جربه
ترق شمائل من ذاقه ... وتلطف شمائل من هذبه
يجود لمسخطه بالرضا ... ويطلب راحة من أتعبه
اذا شف قلبي غرام الهوى ... دعا بالنعيم لمن عذبه (1)

وهذه هي عين صفات المحبين العذريين الذين كانوا يعشقون الروح ، ويخلصون للحبيب الواحد مهما برح بهم الشوق وأضنى قلوبهم الوجد . والأغماتي حسبما يبدو هو أقرب الى لهؤلاء العذريين من غيرهم فهو من الذين صدع البين قلوبهم و " عرفوا كيف تفتت الأكباد " كما شهد بذلك على نفسه في قوله :

ومن لم يبت والبين يصدع قلبه ... لم يدر كيف تفتت الأكباد

أما ما اشتهر عنه من غزليات حسية فقد كان المقصود بها خاصة ناحية الصنعة واظهار القدرة على النظم في هذا الغرض الذى بات " موضة " العصر في ذلك العهد ، وقد ضرب فيه بسهم وافر ، خاصة فيما يتعلق بما كان يغنى به حتى عدّ الشقندى الأندلسي ذلك من أحسن ما قيل في بابه ، وتحدى ابن المعلم الطنجي الذى كان يفاخره أن يأتي أحد الشعراء المغاربة بمثله (2).

ولا شك أن الشعراء المغاربة قد تأثروا في غزلهم هذا بمذهب ابن حزم في الحب حيث كان لكتابه طوق الحمامة انتشار كبير بينهم .

على أننا لا نستطيع أن نقارن هذا الغزل العفيف الذى قاله الشعراء الموحدون بما كان يقوله فطاحل الغزل العذرى من أمثال مجنون ليلى . وجميل بثينة وكثير عزة واضرابهم لأنهم في الواقع لم يشاركوهم الا في مظهر العفة . أما الاخلاص للحبيب الواحد والصبر على تجنبه ،

---

(1) قنون : ذكريات مشاهير رجال المغرب (سلسلة) : أبو حفص عمر : ص : 25 .
(2) عد الشقندى أبا حفص الأغماتي من شعراء الأندلس وأظنه واهما لأنه في الواقع مغربي ولد بأغمات كما سلف أن أشرنا الى ذلك من قبل — انظر رسالته لدى المقرى في النفح : ج . 3 . ص : 209

والتعلق به رغم اليأس من الوصال، وما الى ذلك من هذه المبادىء التي أخذ العذريون بها أنفسهم، فهم لم يحترموها دائما، هذا زيادة على قولهم الغزل في اللونين: العذرى والحسي معا.

ويعدّ أبوالربيع من أحسن من يمثل هذا الاتجاه العفيف في الغزل الموحدى حيث قصر عليه جلّ ديوانه. وكانت غزلياته من أرق ماقاله المغاربة في هذا الباب لشبوب عاطفتها، وصدق تجربتها. فهي تذكرنا بالمحبين الاسلاميين الأول الذين برح بهم الهوى وشفهم الشوق، من ذلك هذه القطعة التي يصور لنا فيها شدة تعلقه برملة، ويصف مالاقاه من معاناة في اخفاء حبها، وكيف أن دموعه، وزفراته ابت الا أن تفضح سره، حتى انه أخذ على نفسه ألا يتعلق بعدها بشوق ولن يخضع لوجد كي لا يعرض قلبه للزفير، وعيونه للنزيف:

وإني لأخفي حب رملة جاهدا ... وأعلم حقا أنه سيشيع
وما أنا بالمفشي له انما الذى ... ينم به، دمع يلح هموع
وكيف ونار الشوق ملء جوانحي ... تكف دموع أو تكن ضلوع
فلوكان دمعا خالصا لم يضرني ... ولكن دمعا شيب فيه نجيع
فواحسرتا حتى جفوني من العدا ... تضيع نفيسا من دمي وتذيع
فلا شوق حتى لا ترى لي زفرة ... ولا وجد حتى لا تسيل دموع (1)

فتوفيق الشاعر في هذه القطعة لا يقتصر على صدق التجربة التي تنطق بها الأبيات وحدها، وانما يسرى كذلك على الأسلوب الذى صيغت به بما يحتوى عليه من محسنات لفظية ومعنوية جاءت به بطريقة عفوية لا أثر فيها للتكلف.

والذى يلفت النظر في غزليات أبي الربيع هو نزوعها في العموم نحو القديم، لا في صورها ومعانيها فحسب، ولكن في طريقة نسجها أيضا، واستعمال بعض الصيغ البدوية التي لم تعد توافق المجتمع المتحضر الذى كان يعيش فيه الأمير الشاعر.

---

(1) أبوالربيع: الديوان، ص: 82.

فهو ، مثلا ، يقف على الاطلال ، على عادة الأقدمين ، ويسأل الدمن :

رفقا عليك ، فكم ذا تسأل الدّمن وكم تجدد في معناهم الحزنا ! (1)

ويستوقف العيس ، وهي قليلة الذكر في الشعر الموحدى ، ليبكي الديار ويسأل عنها الأحبة :

قف العيس نبك الدار بانقطينها وسأل عنها أين سار ظعينها (2)

ثم يقول في نفس القصيدة :

سأركب نحو الظاعنين وان نأوا بحار فلاة والمطي سفينها
قلائص يخبطن الظلام فترتمي بها أرض نجد سهلها وحزونها (3)

والمعروف عنه أنه عاش طول حياته يتقلب في قصور مراكش وتلمسان وبجاية ، وهو كثير الذكر لنجد ، ومنى ، واليمن .

وسلني عن مغنى نجد تجدني خبيرا ما أردت به عليما (4)

ويقول من قصيدة أخرى :

أيها الحادى بنا نحو منى خذ على نفسك كي لا تفتنا
اترك الجزع يسار الاثر ربوبا يفتك فينا الأعينا

وينهج نهج ابن ربيعة في التغزل بالمحرمات للحج

قف بالحجيج فان ذاك الموقف وأسألهم بأمّهم أن يعطفوا
وانشد فؤادك ان عرفت مكانه بين القباب وماأخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غديـة وبنانها بدم القلوب مطرف
نفروا غداة منى وقد نادى بهم حاد على شرف الثنية يهتف (5)

ويأخذ صوره أحيانا من مناسك الحج :

ولا كخلاف العيس نطوى بها الفلا لتبلغنا الأوطان بعد التغرب
وفي عرفات اليوم للناس مطلب وليس كحجي في الديار ومشربي
فؤادى هدى وأدلاجي منسكي ودمعي جمارى والمطي محصبي (6)

---

(1) أبو الربيع : الديوان : ص : 82 .
(2) " " ص : 87
(3) " " ص : 87
(4) " " ص : 105 .
(5) " " ص : 92 .
(6) " " ص : 88 .

وقد نجده ينسج أحيانا غزلياته على منوال بعض القصائد القديمة لبعض الشعراء المشهورين كمقطوعته التي استهلها بقوله :

أهاجت لك الأشواق تلك المصانع غدا ساكنوها فهي قفر بلاقع [1]

فقد كان ينظر فيها الى قصيدة لبيد التي يقول فيها :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع [2]

وهو فوق كل ذلك لم يخرج في أوصافه وتشبيهاته عن تلك الصور التي درج عليها شعراء الغزل في الصدر الاسلامي الأول فالمرأة المثالية عنده هي التي عبر عنها في قوله :

أمشبهة ريم النقا ومها القفر ومخجلة حسنا سنى الشمس والبدر
ومن خدها يربي على الشمس بهجة ومن قدها يزري على الغصن النضر
ومن لحظها يغني عن الفتك في الضبا ببيض رقاق أو مثقفة سمر
بما لك من كشح هضيم ومعطف وردف ثقيل قد تمايل مزور
وثغر شنيب يضحك الحسن فوقه وطرف عليل قد تكحل بالسحر
رويدك كم ذا تقتلين متيما الم تعلمي ما جاء في القتل من وزر

فالمقاييس الجمالية عنده تتلخص ، في الوجه الجميل ، والقد الأهيف واللحظ الفتاك ، والخصر النحيل ، والردف الثقيل ، والطرف العليل ، وهي نفس المقاييس التي عرفها الشعراء منذ العهد الجاهلي .

— وهناك من شعراء هذا العهد من بقي محافظا على الغزل التقليدي القديم الذى كان يتخذ كافتتاحيات لقصائد المديح وغيره . ولكن دون أن يعتمد بالضرورة على تجربة عاشها الشاعر ، بل كان يقول ذلك عن تقليد ستوحيا في ذلك محفوظاته ، وما قيل من تراث في هذا الباب .

وأحسن من يمثل هذا النوع من الشعراء الموحدين أبو عبدالله المعروف بالجزائرى [3] الذى أورد له الغبريني بعضا من غزلياته منها هذه المقطوعة التي استهل بها مديحه لعلي بن ياسين ، نذكر منها الأبيات التالية :

---

(1) أبو الربيع : الديوان : ص : 92.
(2) شرح ديوان لبيد . ت . إ. عباس ، ص : 168 الكويت 1962.
(3) ترجم له الغبريني في عنوان الدراية : ص : 337 ـ 340 ، وقد سبق التعريف به .

أدرها فقد هبت بسيمة دارين ونم بسر الروض نشر الرياحين
وقام خطيب الورق يدعو هزيله(1) فغنى فأغنى عن ضروب التلاحين
وذكر أيام الصبابة والصبا ولذة عيش كان لي غير ممنون . . .
فيا ساكني نجد أأطرق حيكم وأرجع مغلوبا بصفقة مغبون
ويا ساكني الجرعاء ان كان عندكم نصيب من الصبر الجميل فواسوني
تركت فؤادي عند خيمة زينب وما سحر عينيها عليّ بمأمون

ثم يتخلص للمديح بقوله :

وكم صمت عن نظم القريض وصنته الى أن رأت عيني عليّ بن ياسمين(2)

فقد مزج الشاعر ، كما نرى ، في أسلوبه هذا بين بالطريقة الأندلسية التي تدرج الغزل ضمن وصف مجالس الخمر ووصف الرياض بما تحتوى عليه من الرياحين وهديل الورق ، وبين الطريقة التقليدية التي تستوحي سكان نجد والجرعاء ، وتتحدث عن مقصورات خيامها البدويات ، وفي كلتا الحالتين ، هو ، في الواقع مقلد . اذ لم يكن حسبما اشتهر عليه ، لا من اللاهين العابثين الذين يعاقرون الخمر في الرياض ولا هو من البدو الرحل ، وما زينب هذه الا رمز لامرأة ما في مخيلته ولا يستبعد أن تكون المحاولة كلها ، كان المراد بها مواثبات القدرة خاصة على ما كان يسمى بحسن التخلص من النسيب الى المديح الذي كان يتبارى فيه الشعراء منذ القدم .

وكثيرا ما كان يعجب هؤلاء التقليديون ببعض القصائد القديمة التي أحرزت على نوع من الشهرة في هذا الميدان فينسجون على منوالها مضاهات لأصحابها اواثباتا لقدرتهم ، اولمجرد الترويح عن النفس كما فعل الجزائرى نفسه في رائيته هذه التي كان ينظر فيها ، ولا شك ، لرائية أبي فراس المشهورة (3)

---

(1) لعله يريد : هديله .
(2) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 337 — 338 .
(3) هي التي استهلها بقوله : " أراك عصي الدمع شيمتك الصبر " .

لعلك بعد الهجر تسمح يا بدر … بوصل ، فقد أودى بمهجتي الهجر
ابيت كما ترضي الكآبة والأسى … وأضحى كما تهوى الصبابة والفكر
اذا قنطت نفسي ، ينادى بها الرجا … رويدك كم عسر علي اثره يسر
وان ذكرت يوم الفراق تقطعت … علائق آمالي يرحمها الذكر (1)

فهو لم يبلغ مستوى أبي فراس ، ولا شك ، الا أن مقطوعته لا تخلو من رقة تنم عن شاعريته الأصيلة ، كما تبرهن على رهافة حسه المفرطة خاصة بالنسبة لبعض الأبيات لما تتضمنه من استعارات وبعض المحسنات اللفظية التي جاء فيها بطريقة عفوية كقوله :

ولا أنس يوما للسرور وبيننا … عتاب كبرد الماء لكنه جمر
ولا كأس الا ما سقاني به اللمى … ولا نقل الا ما حباني به الصدر

وكقوله :

علمنا ، وان لم يحلم الحب ، أنه … ذلول الهوى صعب ، وحلو النوى مر
وليل اللقاء صبح ، وصبح النوى دجى … وشهر الرضى يوم ويوم النوى شهر
فوالله ما أدرى لطيب حديثها … أضمن سحرا لفظها أم هو السحر (2)

وليس هناك في الواقع ، أثلج على الصدور من عتاب الأحبة ولا أشد حرارة منه ، والحب مهما وطئت أكنافه فهو مرتقى صعب ، والبعد مهما احلولى بما يمكن أن يتضمنه من أمل اللقاء فهو فراق على أية حال .

وقد زاد الطباق الذى نجده مبثوثا في ثنايا هذه الأبيات في روعتها ، كما حسنتها المقابلات التي تضمنها البيت ما قبل الأخير فقد كان الشاعر ، كما قال عنه الغبريني " كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف ، ولأجل ذلك حسن نظمه "(3).

ولم تكن هذه الظاهرة مما استحدثه المغاربة بهذا العهد ، فقد ذكر ابن خفاجة أنه نسج بعض قصائده على منوال بعض الشعراء المشارقة منهم الشريف الرضي ومهيار الديلمي ، فمما قاله في محاكاة للأول :

---

(1) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 338 .
(2) نفس المرجع .
(3) نفس المرجع ص : 337 .

ألا ليت أنفاس الرياح الرواسم ... يحيين عني واضحات المباسم
ويلثمن ما بين الكثيب الى الحمى ... مواطئ أخفاق المطيّ الرواسم
ويرمين اكناف العقيق بنظرة ... تردد في تلك الربى والمعالم
فما أنسه لا أنسى يوما بذي النقا ... أطلنا به للوجد عض الأباهم

ويقول ناظرًا الى مهيار :

ويا بانة الوادي بمنعرج اللوى ... أتصغي على شحط النوى فأقول
ويا نفحات الريح من بطن لعلع ... ألا جاد من ذاك النسيم بخيل
ويا خيم نجد ، دون ، نجد تهامة ... ونجد ، ووخد للسرى وذميل (1)

وقد قال معلقا على ذكره نجدا وتهامة والعقيق وذي النقا " وأما أسماء تلك البقاع وما انقسمت اليه من صفد نجد وقاع فانما جاء بها على أنها خيالات تنصب ، ومثالات تضرب ، تدل على ما يجري مجراها ، من غير أن يصرح بذكرها "(2).

وهذه غزلية أخرى لا بن عبد السلام محمد بن يحيي التدلسي (3) تصور لنا قناعة المحب العذري ورضاه بالنزر القليل الذي يمكن أن يجود به الحبيب . بل الشاعر لا يطلب فيها من محبوبه أكثر من أن يبقيه عبدا له فهو فخور بهذا الاسترقاق ، ولا يرضى أبدا أن يتحرر منه مهما عذبه ذلك ، فحسبه ما يجده من لذة في معاناة حبه ، وسيصبر على تحمل كل ما يلقيه عليه من ذل الغرام وهوان المحبة :

ولو لم ينبني غير أني أحبه ... سعدت بذاك القدر عمري ولا أشقى
كفى بيّ عزا أنه لي سيد ... وأني عبد لا أريد له عتقا
ومالي والعتق المكدر عيشتي ... رضيت لأنْ أبقى لمن شفني رقا . . .
بحسبي التذاذا بالذي هو قانع ... وما من عناء في محبته ألقى
وصبري على ذل الغرام وهونه ... ومازاد من حمل علي وما ألقى (4)

---

(1) ديوان ابن خفاجة : ص : 14 .
(2) المرجع نفسه ، ص : 204 .
(3) سبق التعريف بابن عبد السلام وهو منسوب الى " تدلس" التي هي "دلس" الحالية .
(4) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 341 .

فلا غرو أن يكون كذلك ، فهو لا يرى الشمس الا في محياه ، ولا يلحظ السنا الى في اشراقة بسمته ، ولا وجود لمعنى الخمر عنده ، الا في لمى شفتيه ولحاظ عينيه ، أما اللدونة والاعتدال والتثني انما هي في غصن قد ، لا في ما تقف عليه الورق . والزهر الحقيقي هو ما تفتح في خده لا ما تحمله الأغصان .

فلو أن هاروتا صانع السحر رأى ظرفه لأجزم أن مصدر السحر هو الحاظه لا غير . وكل محب للجمال رآه الا وسمت همته الى تعشق الجمال المطلق :

ألا بأبي من لا أرى في الهوى سوى	محياه شمس أو سنا ثغره برقا
ولا خمر الا من لماه ولحظه	ولا غصن الا القد لا ما ارتقت ورقا
ولا زهر الا من رياض بخده	بماء النعيم اعتاد ناظره سقى
... فلو أن هاروتا رأى سحر ظرفه	أقر بأن السحر من لحظه اشتقا
ولو أن عشاق الجمال كما رأى	رأوه ، لهاموا عند رؤيته شوقا
وكل محب في الجمال يرى به	الى العلم العلوى همته شرقى (1)

الا أن أرق غزل عرفه هذا العصر كان ذلك الذى جاء ممزوجا بوصف الطبيعة أو مبثوثا في ثنايا بعض الخمريات كما سنرى ذلك في الصفحات القادمة .

4 — الوصف :

كان لسحر الطبيعة الذى اشتهرت به كل من جزيرتي الأندلس والمغرب ، أكبر الأثر في نمو شعر الوصف وازدهاره ، فقد نعمت هذه المنطقة بطبيعة جغرافية ، ومناخية ، قلما أتيحت لغيرها من البلدان الاسلامية الأخرى ، فان ما حباها الله به من جمال طبيعي تمثل في أجنتها الساحرة ، وحدائقها الغناء ، وواحاتها الجميلة ،

---

(1) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 342 .

وما تخلل كل ذلك من جبال شاهقة وأنهار دافقة، ومروج وسهول وخمائل، جعل كل انسان يراها، يقف مشدوها أمام تلك الآيات العجيبة الصنع، البديعة التصوير، التي رسمتها يد القدرة، ثم لا يملك، مع ما تكتبله به من اغراء، وتسلطه عليه من سحر، الا أن يستسلم لها صاغرا، وينغمس طائعا فيما تقدمه له من أطاييب الحياة وملذاتها، يعب منها ماشاء له أن يفعل.

ولعل في هذا ما يفسر ذلك التناقض العجيب والازدواجية التي كثيرا ما نلاحظها في حياة بعض السراة والفقهاء والقضاة الذين كانت تفرض عليهم مناصبهم أن يتقيدوا بنوع معين من المعيشة المتقشفة، وتلزمهم بمظهر المتعفف الوقور فيرضخون لسلطانها ثم تغريهم الحياة الخارجية بكل ما فيها من مباهج الفتنة، وألوان الحضارة الصاخبة، فينغمسون فيها للأذقان.

فالذى ساعد على هذا النوع من الحياة، أساسا، هو هذا الجو الطبيعي الجميل الذى صقلته يد الحضارة، ورققته الحياة اللدنة الرخية، ومباهج الحياة، كما نعلم، متعددة، وهي متلازمة متضامنة فيما بينها فاذا ما وجدت جوما الملائم جاءت متلاحقة يتلو بعضها البعض، والمتعة الكاملة لاتتم الا اذا اجتمعت كلها وتعاونت على خلقها. وتلك سمة الحضارة اذا انغرست في مجتمع ما. فجمال الطبيعة يسبب في انتشار مجالس اللهو، ولم يكن لهذه المجالس أن يتم أنسها الا اذا تمّ بها الاختلاط، ولا بدّ لرفع الكلفة بين الجلساء وتسهيل الاتصال بينهم من ملبين يخلق الجو الشاعري الملائم، ولا يوجد أحسن من الخمر، الا أن الانتشاء بهالايكمل الا بالغناء ولا يبلغ الطرب منتهاه الا اذا تمّ التزاوج بين النغمة الشجية، والكلمة العاطفية المؤثرة، فلا بد، حينئذ من شاعر موهوب يستطيع أن يستوحي من ذلك الجو المفعم بالجمال والحب والنشوة ما يناسب المقام فيصوغه في قصيدة أو موشحة يغنى بها. وهكذا نرى

مجالس الأنس تتكون مباهجها من عدة حلقات، مثلا زمنية، متضامنة لا تكمل المتعة الكبرى الا بها مجتمعة . والمحور الرئيسي الذي تدور عليه هذه المجالس هو الشعر بكل أنواعه بما في ذلك الموشحات والأزجال، فهي تشكل التربة المثالية لنموه وازدهاره لاسيما بالنسبة للوصف والغزليات والخمريات والمدائح .

فالوصف، كما هو معلوم، من أقدم أغراض الشعر العربي الا أن الذى اختص به الأندلسيون والمغاربة، وبرعوا فيه أكثر من غيرهم هو وصف الطبيعة وهذا لتعلقهم بها، وتعشقهم لها .

فقد اشتهر من شعراء الوصف في العهد المرابطي ثلة لا بأس بها نذكر منهم على سبيل المثال ابن خفاجة وابن سارة، كما نبغ منهم أيام الموحدين كل من ابن سهل الاسرائيلي، وابن الجنان، وأبو الربيع سليمان الموحدى وغيرهم كثيرون .

وقد تجلت عبقرية هؤلاء الشعراء، خاصة في وصف الرياض لشغفهم بها فوصفوها مجزأة، أى كل منظر فيها على انفراد، ووصفوها مركبة أعنى بكل ما تشتمل عليه من أشجار وأزهار وأطيار وما الى ذلك . ووصفوها مفردة كما وصفوها ممزوجة بمختلف الأغراض الشعرية الأخرى، اذ كثيرا ما كانوا يتخذونها مطية للمدائح، أو مقدمة للغزليات، أو مستهلا للخمريات، بل، من الشعراء من اتخذ وصف جمال الطبيعة منطلقا للوصف الجمال المطلق كما سنرى ذلك في حينه عند دراستنا للشعر الديني .

فمما يدخل في وصف المناظر المفردة وصف الشعراء، مثلا، لبعض أنواع الزهور، كالورد، والياسمين، والنرجس وغيرها، كما يدخل فيها وصفهم لجمال منظر بعض الفواكه، كالدراق، والمشمش والتفاح، والنارنج، وهذا دون أن يخلطوها بغيرها أو أن يتطرقوا منها لوصف ما حولها .
من ذلك، ماقاله مثلا، أبو الربيع سليمان الموحدى في وصف وردة :

خذها اليك كوجنة العذراء ... من غير ما خجل وغير حياء
عطرية الأنفاس يملأ عرفها ... متنشق الندماء والجلساء
نثر السحاب لآلئا منه على ... أوراقها لكنها من ماء
وكأنما رقم الندى أوراقها ... رقم الحباب غلالة الصهباء
ثم التأمن فرائدا في صحنها ... فكأنها خداك غب بكاء

فالرسم الذى قدمة لنا الشاعر في هذه اللوحة لا يشتمل على أكثر من منظر الوردة . الا أن الشيء الذى تميز به هو هذه الحيوية التي تتدفق في كل أجزائه . فالذى أضفاه الشاعر على هذه الوردة من تشبيهات موفقة وما نفخه فيها من روحه جعلها تبدو لنا وكأنها حية يتضوع اريجها فيملؤ الجو عطرا ، ويتأملها الرائى فينتشى لمنظر أوراقها التي علاها الطل كما يعلو الحباب غلالة الصهباء .

وقد ولع المغاربة والأندلسيون خاصة بالوصف المركب ، ونعنى بذلك وصف المناظر الطبيعية الشاملة ، كوصف الحدائق ، والرياض والبساتين بكل ما تشتمل عليه من أنواع الأزهار والرياحين ومختلف الأشجار المثمرة ، والطيور المغردة وما يتخلل كل ذلك من أنهار وجداول ، وما الى ذلك فأصبحت اللوحات التي يقدمها لنا شعراء الوصف أكثر شمولية لأنها أصبحت تهتم بعرض عدة مناظر متلازمة في آن واحد ، وبراعة الشعراء باتت تكمن ازاء هذا النوع من الوصف في ربط العلاقة بين اجزاء هذه الصورة التي يتكون منها المنظر العام.

فمما سجل لأبي الربيع سليمان الموحدى في هذا الباب هذه المقطعة التي وصف فيها معركة درات بين الرياض والأمطار :

بين الرياض وبين الجو معترك ... بيض من البرق أو سمر من السمر
اذا أوترت قوسها كف السماء رمت ... نبلا من المزن في درع من الغدر
فتح الشقائق جرحاها ، ومغنمها ... وشي الربيع ، وقتلاها جنى الثمر
فاعجب لحرب سجال لم تثر ضررا ... تنفع المحارب فيها غاية الظفر
من أجل هذا اذا هبت طلائعها ... تدرع النهر ، واهتزت قنا الشجر (1)

---

(1) أبو الربيع سليمان : الديوان . ص : 48 .

فالشاعر هنا لم يقتصر على وصف شيء واحد كما فعل في القطعة السابقة ، ولكنه تناول جملة مناظر ، يكوّن مجموعها المنظر العام للصورة التي قدمها لنا ، وهو لم يقف بالوصف عند حد عرضها ومحاكاتها فحسب ، وانما أبرزها لنا في صفة انسان يفكر ويتصرف ، فبدت لنا صورها نابضة بالحياة ناطقة بالحركة . وهنا يكمن جمال هذا النوع من الوصف ، والقطعة تعتبر من أحسن ما قاله أبو الربيع في هذا الباب لولا جملة " من أجل هذا " التي جاءت في آخر بيت منها حيث تبدو لنا فلقة نوعا ما .

ومن أحسن ما قيل في هذا الوصف المركب ، هذه المقطوعة التي وردت لابراهيم بن سهل الاسرائيلي[1] في وصف الرياض ، كان قد عارض بها ابن عمار :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ... والظل ينثر في رباها جوهرا
فاحت فخلت الزهر كافورا بها ... وحسبت فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ... ثغر يقبل منه خدّا أحمرا
والنهر ما بين الرياض تخاله ... سيفا تعلق من نجاد أخضرا
وجرت بصفحته الصبا فحسبتها ... كفا تنمق في الصحيفة أسطرا
والطير قد قامت عليه خطيبة ... لم تتخذ الا الأراكة منبرا (2)

فاللوحة التي قدمها لنا الشاعر هنا تمثل صورة شاملة لعدة مناظر جزئية ارتكز الوصف فيها على كل جزء بمفرده ، كما ارتكز على العلاقات التي تربط هذه الأجزاء التي تكون الصورة العامة .

فقد أخذ الشاعر الأرض كمحور رئيسي في القطعة وأبرزها في صفة امرأة جمع لها في ردائها الأخضر الذى تلتف به عدة صور للطبيعة ،

---

(1) أحد شعراء البلاط الموحدى له ديوان شعر مطبوع توفي غريقا ، واختلف في تاريخ وفاته مابين 649 و 656 هـ . وكان قد أسلم قبل وفاته الا أن الكثيرين يشكون في صحة اسلامه ، وقد سأله ابن سعيد ، وكان معاصرا له . عن ذلك فقال له " للناس ماظهر ولله ما استتر" ترجم له ابن سعيد في كل من اختصار القدح المعلى ص : 74 ، والمغرب : ج . 1 . ص : 264 — 265 .

(2) ابن سعيد : اختصار القدح : ص : 74 — 75 .

فيها الزهر الذي يتضوع كافورا والسوسن الذي يصافح الورد وكأنه ثغر خلوج الأسنان يقبل خدّا أحمر . والرياض التي يتخللها نهر في انحنائه سيف بحمائله الخضر ، وصفحة مائه الفضي التي تلمسها ريح الصبا برفق فيقشعر إيهابها للمستها فينكمش في شكل تجاعيد يخالها الرأي أسطرا نمقت على ورقة بيضاء .

هذا وهناك نوع ثالث من الوصف ، وهو الذي أطلقنا عليه اسم الوصف الممزوج ، ونعني به وصف الطبيعة الذي يمهد به للأغراض الشعرية الأخرى أو يمزج بها . كالوصف الذي نجده في مستهل أو في ثنايا الخمريات والغزليات ، فان الشاعر في هذا النوع من الوصف لا يقتصر فيه على الطبيعة وحدها وما تشتمل عليه من خمائل ورياض وانما يتطرق منها الى وصف كل من يؤم هذه الأماكن للنزهة والتسلية . مازجا بين جمال الطبيعة وما تحتوي عليه مجالس الأنس من عناصر المسرة واللهو ، مقارنا في وصفه بين تمايل الغصون اللدنة والقدود المياسة ، مشابها بين رقرقة الجداول ، وما تنتجه الأباريق من أصوات في الكؤوس مقابلا بين ما يحدثه النسيم من انتعاش في الطبيعة وما تحدثه همسات الأحبة في القلوب الحرى التي أضناها العشق وتيمها الغرام . من الأمثلة على ذلك هذه القطعة لأبي الربيع التي تطرق فيها من وصف الطبيعة الى التغزل والحديث عن الخمر :

تنبه تري ديمة تمطر ... ووجه الصباح لها يسفر
وكالند لكن كسا فوره ... بدا فيه واكتتم العنبر
على حين فل الدجى مدبر ... وللصبح في اثره عسكر
وبين الغمام وممطورة ... من الروض كالحرب أو أكثر
اذا التاج من برق ذا أبيض ... تأطر من غصن ذا أسمر
وللقطر في جيد غصن النقا ... لآل من الماء أو جوهر
وفي ما تحف الروض من سيفه ... نجاد ولكنه أخضر
كأن الرذاذ على زهره ... يفت من المسك أو ينثر

وما عبق الروض طيبا لنا ولكنه للحيا يشكر
تنبه الى شرب مشمولة يطوف بها علينا جؤذر
يدل صفاها واشراقها على أن من خده تعصر
لبابل في جفنه نفثة وللحسن في خده أسطر
اذا شاء أرسلها نظرة فتسكر اضعاف مايسكر
فيا عاشقين على رسلكم من الشرب ساقيكم أحور
متى تستفيقون سكر من اذا فنيت خمره ينظر (1)

فالشاعر ، كما نرى ، قد اتخذ وصف الطبيعة ، في هذه المقطوعة مطية للتغزل ووصف الخمر ، فرسم لنا بذلك عدة صور منسجمة في منظر واحد ، الا أنه لم يوفق ، في رأينا ، في اختيار الألوان ومزجها ، فبدت لنا صورة لوحته حائلة باهتة .

نلمس ذلك في المفردات اللغوية التي استعملها الشاعر كما نلاحظه في صياغته لها . فهو قد استهل مقطوعته بجملة " تنبه ترى " ، وكلمة تنبه هذه توحي بشيء من الازعاج فهي تستعمل عادة للغافل ليدرأ خطرا ما عن نفسه ، وهو مالم يقصده الشاعر ، انما أراد بدعوته تلك أن ينقل نديمه من لذة النوم الى لذة أعلى منها هي لذة التمتع بالطبيعة والاصطباح ، فكان المفروض أن تكون صيغة الدعوة على الأقل في مثل رقة ذلك المجلس الشاعري الذي يدعو اليه نديمه .

وتبدو هلهلة النسج واضحة في البيت الرابع ، خاصة في قوله "كالحرب أو أكثر " فكلمة " أكثر " لم يأت بها الا لضرورتي القافية والوزن . فالمقطوعة في عمومها تعتبر من النوع المتوسط ، اذا ما قيست بمثيلاتها التي قالها بعض الأندلسيون في الموضوع . منها هذه المقطوعة التي قالها الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن ، وكان معاصرا لابن سعيد مصاحبا له في بلاد المغرب "(2) :

---

(1) أبو الربيع : الديوان : ص : 70 .
(2) قال عنه ابن سعيد في اختصار القدح المعلى : " هو عندي أظرف من عاشرته بالمغرب . . . وكانت معاشرتي أياه بهذه الحضرة . . . " انظر : ص : 53 .

أتت نحوكم مثل النرجس — وأمست تشير الى الأكؤس
وقد حدد الآس آذانه — ليسمع ما دار في المجلس
وقد باح أترجها بالهوى — وظاهره بالضنى مكتسي
وما س الترنجان في حلة — تروق العيون من السندس
وكالجمر نار نجنا قد بدا — يروع العيون ولم يقبس
وزنبوعها بعضه مثل ما — نظرت الى الذهب الأملس
وقد ضحكت بيننا أكؤس — فوجه الدجنة لم يعبس
فيا ضارب العود حث الغنا — ويا ساقي الكأس لا تحبس(1)

فشعر الوصف ، على هذا الاعتبار ، يعد أصعب الأغراض الشعرية انشاء وأرقها ، وأجلها تعبيرا ، اذ لايمكن للشاعر أن يبدع في الوصف الااذا توفرت لديه ، الى جانب حاسته الذوقية المرهفة ، موهبة التصوير والمحاكاة ، اذ بمقدر ما يدق الوصف تتجلى الصورة واضحة . وهذا لا يتم الا بالبراعة في التشبيه ، والدقة في اختيار الاستعارة ، وحسن استعمال المجاز ، والا بقيت الصورة مشوهة باهتة .

ويرى محمد مجيد سعيد أن وصف الطبيعة في الأندلس قد سلك طريقا تدريجيا في تطوره أى أنه ابتدأ بوصف الجزئيات كوصف ، الوردة أو الزهرة ، ثم تدرج في التوسع شيئا فشيئا الى أن وصل في أواخر القرن الخامس الى وصف مناظر أشمل كالحدائق بكل ما تضمه من ورود وأشجار ، وجداول . . . وما يصاحبها من خمر أو طرب ، أو صيد . . ويرى من جهة أخرى أن وصف الجزئيات لم ينعدم تماما ، وانما تغلبت عليه القصائد الوصفية الطويلة التي تعنى بالمناظر الشاملة .

ونحن نوافق محمد مجيد في كون القصيدة الوصفية تغلبت على المقطعات الجزئية في أواخر القرن الخامس الا أننا لا نجاريه بالنسبة لفكرة تطور القصيدة الوصفية من المقطعات التي تعنى بوصف الجزئيات ، فنحن نعتقد أن النوعين سارا جنبا الى جنب منذ النشأة ولم يتطور أحدهما عن الآخر . فالكتب التي أرخت للأدب الأندلسي تثبت وجود

---

(1) قال عنه ابن سعيد في اختصار القدح المعلى : " هو عندي أظرف من عاشرته بالمغرب . . . وكانت معاشرتي اياه بهذه الحضرة . . . " انظر : ص : 54 .

النوعين منذ أن ظهر الأدب العربي بالأندلس . ففكرة التطور من البسيط الى المركب لا يصح أن تتخذ ميزانا لكل شيء ، فقد يتولد الجزئي عن الكلي خاصة في أمثال هذه المواضيع التي يتطلب فيها دراسة الجزء نوعا من التركيز والتدقيق أكثر بكثير مما يتطلبه الكل .

واذا كنا نعتبر أن أدب أى أمة يعكس، بالدرجة الأولى، حياتها الاجتماعية بالمفهوم الواسع ، فان العرب بالأندلس قد عرفوا بميلهم لحياة الدعة واللهو منذ أن رسخت أقدامهم في الجزيرة ، وقد فشت مجالس الأنس التي كانت تعقد في الرياض منذ أوائل الخلافة الأموية وقال فيها الشعراء حتى هم الخليفة المستنصر باقتلاع أشجار الكروم ليقضي بذلك على أسباب اللهو [1] .

حقا ، انها لم تكن من الكثرة بالدرجة التي لاحظناها عليها في أواخر عهد الطوائف الا أنها كانت موجودة على أية حال وان كانت محاربة من طرف بعض العقلاء والمعتدلين الأمر الذى كفكف من غلواء انتشارها واستهتار أصحابها . فهذا أبو عمر أحمد بن فرج [2] مؤلف كتاب " الحدائق " الذى أهداه للخليفة المستنصر الأموى يعتز بتعففه وينفي كونه من أصحاب هذه المجالس الذين كانوا يتخذون الرياض أوكارا لهم يقول :

وطائفة الوصال غففت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت	دياجي الليال سافرة القناع
وما من لحظة الا وفيها	الى فتن القلوب بها دواع
فملكت النهى جمحا بشوقي	لأجري في العفاف على طباعي
وبت بها مبيت السقب [3] يظمأ	فيمنعه الكعام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلي	سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فاتخذ الرياض من المراعي [4]

---

(1) ابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ص: 181 — المقرى : نفح الطيب: ج . 1 . ص: 214 .
(2) ترجم له ابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص : 56 .
(3) السقب ولد الناقة .
(4) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 56 .

فالذى يستهويه من هذه الرياض هو جمال منظرها وطيب نشرها أما أولائك الذين يتخذون منها مجالس أنسهم فهم في نظره سوائم ترعى . فعدم انتشار القصيدة الوصفية الكاملة التي تمزج بين وصف الطبيعة ومجالس الانس قبل أواخر القرن الخامس يرجع اذن الى عدم انتشار هذه المجالس بالصورة المذهلة التي أصبحت عليها فيما بعد ، لا الى عدم قدرة الشاعر على استعاب المناظر الكلية الشاملة للتعبير عنها كما يفهم من كلام محمد مجيد .

والذى أشاع مجالس الخلاعة هذه التي كانت سببا في انتشار القصيدة الوصفية الشاملة في أواخر عهد الطوائف ، هو ، في نظرنا رد فعل الشعب الأندلسي ازاء ما مني به من نكسات في سبيل لمّ شتاته وما أصيب به من نكبات على يد حركات الاسترداد التي هزت كل قيمه الروحية والسياسية ، فأصبح يتأسى بهذه الأنواع من التسالي التي تخدر احساسه ويدفن فيها همومه هروبا من الواقع المرّ .

وهو لذلك لم يعدل عن هذه الخطة حتى بعد أن جاءته النجدة على يد الأفارقة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم رغم ما زرعته في نفسه من بعض الطمأنينة ، وذلك لأن المشكل الرئيسي في نظر الكثيرين من أفراده ، بقي قائما ، وهي الوحدة القومية التي ظل يجري وراءها ، ويحس بأنها ضاعت منه الى الأبد .

ولم يكن أثر الشعور بالخيبة واحدا عند كل الأندلسيين ، فعلى قدر انتشار مجالس اللهو المخدرة ، كان انتشار الزوايا ومظاهر التقشف والزهد ، كما سنرى ذلك عند كلامنا عن الشعر الديني بعد حين .

وقد تأثرت بلدان المغرب بكل هذه الاتجاهات التي ظهرت آثارها في الأدب بحكم الجوار والوحدة أولا ، وبحكم التلمذة باعتبار التبعية الثقافية الشديدة التي كانت تربطها بالأندلس ، ثانيا ، ثم أنها

منيت بعد ذلك في أواخر العهد الموحدى هي الأخرى بما أصيب به كل العالم الاسلامي من نكبات الصليبيين الذين استشرت شرورهم في المشرق والمغرب على السوى .

5 — الرثاء :

كان شعر الرثاء ، بالنسبة لجزيرة الأندلس ، من أكثر الأغراض شيوعا في العهدين : المرابطي والموحدى ، حيث اتسعت مجالاته ، وتعددت دواعيه . فقد كان لجو الحرب الذى عاشته الجزيرة ابان الفتنة الكبرى التي أعقبت انهيار الدولة العامرية ، وما تعرضت له ، بعد ذلك ، من فتن وقلاقل في عهد الطوائف آثاره السيئة على نفوس كل الأندلسيين الذين عاشوا بتلك الفترة ، حيث زرعت في قلوبهم نوعا من الرهبة والتنبىء بسوء المصير ازداد تمكنا من النفوس مع مرور الأيام ، بتوالي الأحداث وانتشار الرزايا بين كل طبقات الأمة ، حتى أصبحنا لا نكاد نعثر على أسرة أندلسية لم تفجع في أحد أفرادها ، أو تصب في أموالها وأعراضها نتيجة الحروب وما انجر عنها من سلب ونهب وتشريد . فكنت لا تسمع الا شاكيا أو مستنجدا أو مستغيثا ، وهذا رغم فترات الأمن التي نعمت بها أيام المرابطين والموحدين . وقد ساعد هذا الجو المشحون بالكآبة والأسى شعراء الرثاء على اتقان مراثيهم بما هيأه لهم من جو نفسي لدى الأمة ، وما فجره في قلوبهم هم الآخرون من ينابيع الحزن والبكاء ، فجاءت قصائدهم تفيض بالحسرة والأسى ، وكأنها أصداء لكل النكبات التي مني بها المسلمون بذلك العصر ، اذ لم تعد مراثيهم تقتصر على الأشخاص وحدهم بل أصبحت تشمل المدن والمقاطعات التي بدأت تسقط ، بصورة مذهلة ، تحت ضربات الأسبان ، خاصة عندما اشتدت حركة الاسترداد في أواخر العهد الموحدي .

ولعل أحسن ما قيل في هذا الباب هي القصيدة التي رثى بها أبو موسى هرون بن هرون أهل اشبيلية عندما سقطت مدينتهم بيد الاسبان، وقد استصرخ بها أهل المغرب في سنة 645 هـ. في عهد الخليفة الموحدي المعتضد بالله السعيد، ونحن نقتطف منها الابيات التالية كنموذج لمراثي ذلك العصر:

يا حمص، أقصدك الفقد ورحين رمى	لم يرع فيك الردى ولا ذمما
جرت عليك يد للدهر ظالمة	لايعدل الدهر في شيء اذا حكما
ماكنت أحسب أن الحادثات اذا	همت بك السوء لاتلقى لك السلما
ولا توهمت ذاك الحسن يطمسه	ريب الزمان، ويكسو نوره الظلما
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ	أصبت، عوضت منها القبح والهرما
ياجنة زحزحتنا عن زخارفها	ذنوبنا فلزمنا، البث والندما.

فهو يلقي باللوم على الدهر الذي ظلم بلده بغيا وعدوانا بما سلطه عليها من خراب، وما أصابها به من مظاهر الهرم، الا أنه يقر أن الذين جنوا على أنفسهم هم أهلها، بما ارتكبوه من معاصي وما اقترفوه من ذنوب، عوقبوا عليها بفقد جنتهم هذه، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، حتى أصبحوا لايملكون من أمرهم الا بث الشكوى وعض الانامل حسرة وندامة.

ثم يصف ما أصاب سكانها من أهوال مصورا هلعهم وذعرهم في عبارات تستدر الدمع قائلا:

فكم أسارى غدت في القيد موثقة	تشكو من الذل أقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفا	عن أمه، فهو بالامواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل	عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم ووالهة	لا يرجع الطرف ان حاورته الكلما

ثم يقول مستصرخا أهل العدوة:

يا أهل وادي الحمى بالعدوة انتعشوا	هذا الدماء فقد اشفى به سقما
ماذا يبطئكم عنا وحولكم	ان تبصروا دار قوم أصبحت رمما
وحقنا واجب، فالدين يجمعنا	مع الجوار الذي مازال منتظما
وقد دعونا فأسمعنا على كثب	بما قد استنفذ القرطاس والقلما

الى أن يقول :

هل من مجيب لداعينا فيركبنا فلك النجاة فبحر الحادثات طما
لم يبق فينا سوى الأنفاس خافتنا فكلنا في وجود يشبه العدما
كم نستغيث ولا أنصار تصرخنا ونستطب لداء طال ما حسما (1)

فهذا الذعر الرهيب، كان يحس به كل أندلسي في أعماقه ويستشف مصيره المشؤوم من خلاله فيتخبط تخبط المذبوح، يشكو حينا ويستصرخ أحيانا، الا أن الخرق كان قد اتسع على الراقع، فلم يجد في وسع المغاربة، على احتشاد قواتهم أن يسيطروا على الأوضاع المتعفنة حتى بالعدوة الجنوبية لمملكتهم، فلم يبق للأندلسيين الا اللجوء الى الله والاستسلام للمقادير.

— أما بالنسبة لبلدان المغرب فانها لم تتأثر كثيرا بهذا اللون من الشعر، اذ لا نجد فيما بين أيدينا من أشعار المغاربة لهذا العهد الا قصائد معدودة في الرثاء، ولسنا ندري أن كان مرجع ذلك لفقدان ماقالوه في هذا الباب أم أنهم لم يقولوا فيه شيئا لنفورهم منه.

ومهما يكن من أمر فان ما قالوه في هذا الغرض على قلته لا يكاد يخرج، في شكله العام عن اطار مراثي الأندلسيين، بل هو تقليد صريح لها، فهم يعتمدون، مثلهم، على التهويل في الندب، والمبالغة في التفجع، والشكوى من كثرة الرزايا والمحن، وقد نجدهم أحيانا يمهدون لذلك برثاء أنفسهم لفرط مالاقوه من مصائب وأرزاء مبرزين ذلك في أسلوب فلسفي زهدي ينظر فيه الشاعر الى مشكلة الموت على أنها ظاهرة من ظواهر الفناء التي حيرت عقل الانسان ولم يجد لها حلا، كما فعل أبو الربيع في رثائه لأخيه :

بعيد مدى العمر الطويل قريب وان طال عمر فالحياة تريب
وليس عجيبا غدرها بك انما ركونك منها للوفاء عجيب
خليلي قلبي للخطوب دريئة وسهم الرزايا ما أراد مصيب

---

(1) البيان المغرب : ج . 3 . ص : 382 — 384 .

أتاني نعي ضاق صدري بحمله	وصدري كما قد تعلمان رحيب
فمر بقلب لم تد مل قروحه	كما مر بالجمر الدفين هبوب
فحتى متى تبري الرزايا سهامها	وتقصدني عمدا بها فتصيب
وحتى متى القى الرزايا ممضة	يكاد لاحداها الحديد يذوب

يبدو أن المغاربة قد تغلبت عليهم حياة الزهد وانساقوا وراء التصوف الى مدى أصبحوا لا يتأثرون فيه كثيرا بالأهوال والمحن والرزايا، وكأنهم قد اجروا لغرائزهم شبه اعلاء فتساموا بعواطفهم عن كل ماديات الحياة حتى أصبحوا يرون الموت وكأنه المنفذ الوحيد للخلاص المطلق، ولعل هذا ما يفسر اقبالهم على الجهاد وحبهم للاستشهاد فالذى قلل من أهمية الرثاء في أعين المغاربة، في نظرنا، هي نظرتهم للموت التي كانوا ينظرون بها اليه من خلال فلسفتهم الزهدية حسبما نستشف ذلك من اشعارهم الصوفية التي طغت على كل الأغراض الشعرية الأخرى .

6 ـ الشعر الديني :

عرفت بلدان المغرب بعض مظاهر الشعر الديني منذ عهد مبكر من حياتها الاسلامية حيث ساعد على نموه وانتشاره بها، عدة عوامل : اجتماعية، دينية، وسياسية .

ـ أما العامل الاجتماعي، فقد تجلى في حياة التقشف التي درجت عليها شعوب هذه المنطقة منذ الأزل، نتيجة لمختلف أنواع الاستغلال التي تعرضت لها منذ العهد الروماني، وما انجر عن كل ذلك من حروب وفتن، وما عرفته بعد ذلك، في العهد الاسلامي الأول، من ثورات وفتن قبلية، ومذهبية، زرعت في قلوب الناس نوعا من الرهبة والخوف من المستقبل جعلتهم ينظرون

على أنفسهم في شبه يأس، قانعين بالكفاف في معيشتهم، راضين بحياة التقشف في كل مظاهرها .

وقد أثر هذا الانقباض الذى جبلوا عليه، على تصرفاتهم .فأصبحوا لا يرتاحون في تفكيرهم ومعتقداتهم الا لما يوحي بالشدة والتزمت، ولا يميلون في حياتهم العملية الا لما يتلاءم مع نظرتهم التقشفية الزاهدة .

—وقد زادهم اعتناقهم للمذهب المالكي، باعتباره أحد المذاهب المتشددة عزوفا عن كل زخارف الحياة، خاصة بعد أن ابتلي بالتحجر على يد بعض المتزمتين من فقهاء الفروع في العهد المرابطي .

وعندما جاء الموحدون باصلاحهم الديني زادوا من تعميق هذه الفكرة في نفوس المسلمين بما كانوا يدعون اليه من الرجوع الى سيرة السلف الصالح . وهذا رغم ما أعطوه من حرية للفكر وخلقوه من أسباب للتحضر الحضارة . فازدادت نظرة المغاربة قتامة لكل مباهج الحياةومغرياتها ،فاتجهوا نحو الآخرة باعتبارها دار القرار، وتمسكوا بكل ما يمت اليها من أسباب التقوى والورع والزهد .

—وكان للأحداث السياسية التي تعرض لها العالم الاسلامي في القرنين السادس والسابع على يد الحركة الصليبية التي عمت بلدان المشرق والمغرب آنذاك أكبر الأثر في شحذ هذه الظاهرة الزهدية وتعميمها وقد تجلى ذلك خاصة في بلدان المغرب التي كانت مهيأة نفسيا للتأثر بهذا التيار للأسباب التي شرحناها آنفا . وهذا عندما بدأت تشاهد سقوط بعض كبريات المدن الأندلسية التي كانت تعدها مثالا في العزّ والمناعة . ورأت ما آل اليه أمر أهلها من تقتيل، وتهريب ، ومصادرة أموال، وهتك للحرمات . وأحست خاصة بعجزها التام أمام استغاثاتهم المتكررة، وضعفها من تقديم أى مساعدة لهؤلاء المستنجدين الضعفاء ،فزادتهم هذه الخيبة فرارا

نحو الآخرة فركنوا اليها مستسلمين فيها من قانط لمشيئة الأقدار المحتومة التي آل اليها أمر المسلمين . فكان كل ذلك من أهمّ الأسباب التي جعلتهم يقبلون على الشعر الديني الذى وجدوا فيه متنفسا كبيرا لما كانت تجيش به صدورهم من آلام وآمال فبثوه شكواهم ، وأودعوه اشجانهم فألفوا فيه القصائد الطويلة منها ما كان في الزهد ، وهذا أقدم أنواع الشعر الديني وأكثرها انتشارا ، ومنها ما كان في التصوف وهي أرقى ما قيل في هذا الباب . هذا الى جانب ما قاله الشعراء من مكفرات ، وما ألفوه من مدائح نبوية ، وما نظموه من رقائق في الصالحين والزهاد وما أنشدوه من أناشيد كان يغنى بها في الرباطات والزوايا . وقد كثر القول في هذا اللون من الشعر حتى طغى على بقية الأنواع الأخرى ، خاصة منذ ما بدأ نجم الدولة الموحدية يميل نحو الأفول في منتصف القرن السابع الهجرى .

هذا بالنسبة لبلدان المغرب ، أما بالنسبة للأندلس فقد مرّ الشعر الديني بها هي الأخرى بعدة مراحل قبل أن يصل الى مرحلة النضج التي عرفناه عليها في العهدين : المرابطي والموحدى . والذى ساعد على نموه بها هو :

1) الصبغة الدينية التي كانت تكتسيها البلاد منذ الأيام الأولى للفتح الاسلامي . والحق أن هذا التزمت الديني الذى اشتهر به الأندلسيون كان يسيطر على شبه الجزيرة الأيبيرية منذ عهد القوط ، حيث كانت الكلمة الأولى للكنيسة في سياسة [illegible] لاد فنشأ الأسبان على تقديس رجال الدين ، والتعلق بهم [illegible] ا ، الاسلام بنفس ذلك عادة فيهم ، فأصبح الفقها[illegible] المجد . وكان الولاة والخلفاء ينظرون اليهم نظرة [illegible] منهم ، كما كانوا يسعون ، بكل الوسائل لكسب رضاهم [illegible]

وقد حاول الحكم الربضي ، الحدّ من سيطرتهم ، فألبوا عليه العامة "وأحدث الفقهاء انشاد أشعار الزهد والحظ على قيام الليل في الصوامع ، أعلى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا بذلك شيئا من التعريض به "(1) فكان ذلك سببا في اندلاع ثورة الربض المشهورة .

2) أما السبب الثاني الذي ساعد على نمو هذا النوع من الشعر فراجع لطغيان الفساد الأخلاقي ، والميوعة التي نتجت عن الرقي الحضاري الذي وصلت اليه بلاد الأندلس خاصة أيام الطوائف . فموجة الزهد التي عرفتها البلاد آنذاك جاءت كردّ فعل محتوم للتفكك والانحلال الأخلاقي الذي استشرى في المجتمع .

3) وقد زاد من حدة هذا الزهد ما أصيبت به البلاد من حروب أهلية وفتن واضطرابات ، وما زرعه كل ذلك من خوف في قلوب الأندلسيين خاصة عندما بدأت حركة الاسترداد الاسباني تشتد .

وقد خلقت هذه الاضطرابات التي منيت بها الجزيرة وما انجر عنها من زعزعة في القيم والأخلاق ، الجو الملائم لانتشار هذا اللون من الشعر الديني ، فأصبح الناس وكأنهم لا يطربون الا لنغمة الحزن ، ولا يأنسون الا لما يسيل دموعهم لفرط ما زرعه الرعب في قلوبهم من تشاؤم وعدم ثقة بالمستقبل . غير أن الملاحظ أن أغلب ما قيل من زهديات حتى هذا العهد الذي سبق المرابطين على كثرتها كانت زهديات اصطناعية خالية من روح التقوى التي تكسبها الحرارة الذاتية ، لأنّ الدوافع

---

(1) المراكشي : المعجب ص : 44 ، مما كانوا يقولونه عن الحكم ما يلي :
" يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك . . . "

اليهـا لم تـكن دائمـا خالـصـة للـه ، بل كـثـيرا ما كانـت تخـفـي وراءهـا أ غـراضـا دنـيويـة محـضـة . أوكانـت تـقـال في حـالا ت خشـوع عـا رض ، لذلك كانـت خالـيـة من الصـدق ، ولا تـعـبر عـن تـقـوى أصحابهـا بـقدر ما تعـبر عن خوفهـم وتـشاؤمهـم أو خيـبـة أملهـم واخـفـا ق مـساعـيهـم في هذه الحـياة . فجاءت قـصائدهـم، وكأنهـا شعـر وعظـي أخلا قـي ، كأن المـقـصو د بها تـسجـيـل التجار ب في قوالـب حكمـيـة ، وز هديـة فـقط ، أوكان أصحابها لم يـسـتطيعـوا أن يـتـنـصلوا من ماديـة الحياة التـنـصل الكامـل الذى يـضمـن لهـم الا رتـقاء بـز هد ياتهـم الى مـر تـبـة الشعـر الديـني الخالص من كـل شـو ب . لذلك نحـن نعـتـبر ز هد يـات هذا العـصـر الذى سـبـق المـرا بطـين والتي تـتـمـثـل في شعـر كل من ابن ز مـنـين[1] (324 / 398 هـ .) وا بن الـفرضـي (351/ 404 هـ .)[2] وأ بـي اسحـاق الا ُ لـبـيرى[3] (٠٠٠/4609) وا بـن العـسال (٠٠٠/ 482 هـ.)[4] هـي عـبارة عن ز هد يـات تـقـلـيديـة لز هد يـات أ بي العتاهـيـة ، وأ بـي العـلاء المعـرى .

فلو أخذنا أبا اسحـاق الا ُلـبـيرى كمـثـال لهؤلاء الشـعراء الز ها د لوجدنا أن الذى دفـع به لحياة الز هـد التي اشتهـر بهـا هو الخـوف ، لا التـقـوى ، في أول الا ُمـر . والذى غـر س فيـه هذا الخوف ، هـو ما تعـرض له من صدمـات عنـيـفـة تـوالـت عليه مـنـذ نعومة أظـفـاره .

---

(1) هوأبوعبدالله محمد بن أبـي زمـنـين : انظـر بالـنـثـيا : تـا ريـخ الفكـر الا ُندلسي ص : 71.

(2) هو أبوالوليـد عبدالله بن مـحمد بن نصـر الا ُزدى المعروف بابـن الفرضـي ، انـظر تـرجمتـه مـفصلة عند ابن بـشكوال في الصلـة : ص : 246 وما بعدهـا .

(3) هوأبوا سحا ق ابراهـيم بن مـسعـود المـشـهور بالا ُلـبـيرى . انظر ترجمتـه في المغـر ب لا بن سعيد : ج .2. ص: 132 ـ 133 .

(4) هوعبدالله بن فرج بن غز لو ن اليحصبي زاهد طليطلـة . ترجم له كل من ابن شـكوال في الصلـة ص : 276 ، وابن سعيـد في المغرب : ج .2. ص : 21 .

فقد شهد سقوط بلدته البيرية ، وهو لا يزال يافعا ، ولا يخفى ما تتركه أمثال هذه الصدمات من تفجع في قلوب الأحداث ، وقد رثاها عندما رشد بقصيدة غاية في الرقة . ثم لم تكد تستقر به الحياة العائلية حتى فجع في زوجته التي بكاها بقصائدة تفيظ بالأسى والتحسر[1].

وقد زاده تشاؤما ما شهده من تعفن الحياة السياسية وتسلط اليهود على المسلمين في دولة بني زيري . فنقم على الأوضاع التي خولت لهؤلاء أن يتسلموا مقاليد الحكم في البلاد ، ويتسنموا ذرى المجد فيها ، في حين بقا بل أمثاله من المسلمين بالاهمال التام[2] . فأعلن سخطه على النظام القائم . فنفاه الوزير اليهودي يوسف بن النغريلة ، الى حصن العقاب[3].

فهذه الصدمات المتكررة ، هي التي أرغمته على الالتجاء الى الله ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص كلية من مادية الحياة ، وهذا ما نستشفه من كثير من قصائده الزهدية التي وصلت الينا .

وتذكرنا ظروف الألبيري بما وقع لأبي العتاهية من قبل في المشرق ، حيث كان الدافع الرئيسي لتزهده أول الأمر هو فشله في حبه " لعبده " . ولكنه ما كاد يبرأ من ذلك حتى كانت زهدياته ملء كل فم ، فاستمرأ نظرات الأعجاب التي باتت تحدق به من كل جانب ، وصعب عليه أن يرجع القهقرى ، فارتدى مسوح الزاهد المتبتل ، وهو أبعد ما يكون عما يقوله .

---

(1) الألبيري : الديوان ص : 132 ــ 135 .
(2) المرجع السابق ، ص : 151 .
(3) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 132 .

فمما يدل على تشبث الألبيري بمادية الحياة رغم تزهده هذه الأبيات التي يعاتب فيها نفسه على عصيانها :

الشيب نبه ذا النهى فتنبها ونهى الجهول فما استفاق ولا انتهى
بل زاد نفسي رغبة فتهافتت تبغي اللهى وكأنني بين اللهى
فالى متى ألهو وافرح بالمنى والشيخ أقبح ما يكون اذا لها (1)

فالقطعة تصور صراعه مع نفسه التي تأبى الا أن تتشبث بالحياة رغم تجاوزها لمرحلة الشباب ، والمرأ ، عادة ، اذا ما بلغ هذه المرحلة تخبو فيه كل قوة للطموح ، وتزهد في كل ما يربطها بالحياة .

والملاحظ أن أغلب زهدياته قالها بعد أن بلغ الستين ، وهي سن يرعوي فيها حتى الخلعاء المتطرفون .

أفي الستين أهجع في مقيلي وحادي الموت يوقظ للرواح (2)

على أنه لم يبتعد عن الناس الا لما أيس من خيرهم ، فقد عبر عن ذلك عندما حلّ بمنفاه بقوله :

حللت به فسن ما بنفسي وآنسني فما استوحت فيه
وكم ذئب يجاوره ولكن رأيت الذئب أسلم من فقيه
فآثرت البعاد على التداني لأني لم أجد من اصطفيه (3)

فزهديات الألبيري ، في نظرنا ، لاتعدو أن تكون من ذلك النوع المكفر الذي كان يلجأ اليه الشعراء في كل عصر ، عندما يبلغون سنا معينة ، بعد أن يكونوا قد أسرفوا في الأخذ بمتع الحياة في شرخ شبابهم .

---

(1) الألبيري : الديوان : ص : 90.
(2) المرجع السابق ، ص : 83 .
(3) نفس المرجع ، ص : 94.

ونحن لا نقصد بكلا منا هذا أن نطعن في تقوى الألبيري وأضرابه من الشعراء الزهاد، وإنما نريد أن نبين أن هذا النوع الذي يمثله شعر هذه الطبقة يختلف عن الزهديات الحقة التي صدرت من بعض العلماء الذين شهد لهم بالصلاح والتقوى، منذ أول حياتهم، واختاروا اتباع هذا الطريق دون أن يلجئهم اليه خوف غير خشية الله، ولذلك جاءت زهدياتهم تفيض بحرارة الايمان. وتعبر عن صدق قلما نلمسه في الزهديات الأخرى.

ولعل أحسن من يمثل هذه الطبقة، أبو عمران المرتلي الذى قال عنه ابن الأبار "كان منقطع النظير في الورع والزهد والعبادة والعزلة "[1].

الى كم أقول ولا أفعل	وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوي	وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحها	بعلّ وسوف، وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا	وأغفل، والموت لا يغفل
وفي كل يوم ينادي بنا	منادى الرحيل : ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين ارجوا البقا	وسبع أتت بعدها تعجل
كأن بني وشيكا الى مصرعي	يساق بنعشي ولا أمهل (2)
فياليت شعري بعد السؤال	وطول المقام لما أنقل

فكل ما في القطعة ينطق بالتذكير، ويعترف بالذنب ويستشعر الندم، ويدعو الى التأمل، والتوبة والاستغفار.

— ومن الشروط الأساسية التي يلتزم بها الزهاد الحقيقيون ويدعون اليها مريديهم : العزلة والابتعاد من الناس. فهذا أبو بكر بن عطية[3] أحد شيوخ القاضي عياض يقول محذرا من الخلطاء :

---

(1) هو الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المرتلي المتوفي سنة 604 . ترجم له كل من ابن الأبار، في التكملة، ص : 754 — وابن سعيد في المغرب : ج. 1. ص: 406 — 407.

(2) ابن سعيد : المغرب : ج. 1. ص: 406 — 407.

(3) ترجم له ابن خاقان في القلائد : ص: 237.

كن بذئب صائد ، مستأنسا | وإذا أبصرت انسانا فنفره
انما الانسان بحر ما لـه | ساحل فاحذره ، أياك الغرر
وا جعل الناس كشخص واحد | ثم كن من ذلك الشخص حذر (1)

يذكرنا البيت الأول من هذه المقطوعة ببيت أبي العلاء المعرى الذى يقول فيه :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى | وصوت انسان فكدت أطير (2)

ويقول بان مطية معللا عزلته وانقباضه :

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم | وما في الجفا عند الضرورة من بأس
بلوت فلم أحمد فأصبحت آيسا | ولا شيء أشفى للنفوس من اليأس
فلا تعذ لوني في انقباضي فانني | رأيت جميع الشر في خلطة الناس (3)

فهؤلاء هم الزهاد الحقيقيون في نظرنا ، أما أولائك الذين يتنسكون بعد مضي مرحلة من أعمارهم بدافع الخوف من الكبر والموت ، أو نتيجة لصدمة نفسية ، أو كارثة عامة ، فهم في الواقع متزهدون يأتون في الدرجة الثانية .

— ويدخل في هذا الباب كل الشعراء الذين تزهدوا في كبرهم وأنشأوا قصائد في الزهد تكفيرا منهم عما اقترفوه في مرحلة الشباب ، وهم يعدون بالمئات كما نعلم . نذكر من بينهم على سبيل المثال : أبا بكر العبدرى الذى كانت له عشرات في الغزل ، فكفر عنها بمثلها في الزهد ، وشرحها في مؤلف ضخم (4).

— ومنهم علي بن اسماعيل الفهرى الأشبوني الذى " أخذ في التلبس بذلك صدرا من عمره ثم مال الى التنسك " (5).

(1) المقرى : ازهار الرياض : ج . 3 . ص : 99.
(2) أبو العلاء المعرى .
(3) المقرى : ازهار الرياض : ج . 3 . ص : 100 — 101.
(4) ا . عباس : تاريخ الأدب الأندلسي : ص : 133.
(5) " " " ص : 133 . (انظر عنه ابن بسام) . ق/2/2 / ص : 797 .

— ومنهم الشاعر المغربي أبو الربيع سليمان الموحدي الذي كغر هو الآخر من غزلياته وخمرياته بزهديات غاية في الرقة منها هذه المقطوعة ، التي صاغها في شكل مناجاة حاور بها نفسه الجموحة التي ابت أن تسلس له القياد قائلا :

يا نفس حسبك ما فرطت فازدجري | من الذنوب فان القبر مثواك
خافي الاله لما قدمت من زلل | واعصي هواك فان الله يرعاك
أن الهوى قلما تجدي مواددته | وهو الذي عن سبيل الرشد أقصاك
لشد ما تعلمي الفرق بينهما | ما كان أحراك بالا جدى وأولاك
الى م طمين من قولي مغالطة | وتوقنين بأني غير أفاك ؟ !
أصغي الي فما في الارض من أحد | ألقي اليه صريح النصح الاك
توبي الى الله أن الله يقبلها | واسعي بجهدك في تحسين عقباك (1)

فالقطعة على ما فيها من اعتراف بالتقصير في حق الله ، ودعوة الى التوبة ، الا أنها تنقصها حرارة الصدق الذي نلمسه عند الزهاد الحقيقيين ، وعتابه لنفسه هو عتاب دلال أكثر منه شيء آخر ، كما هو ملاحظ .

— غير أن هذا لا يمنع أن تكون هذه الزهديات التي ذاع صيتها في كل أرجاء الاندلس والمغرب ، قد اسهمت بحظ وافر في تهيئة الجو المناسب لظهور الشعر الصوفي الذي عرفه كل من العهدين : المرابطي والموحدي والذي لا قى اقبالا كبيرا من طرف المغاربة آنذاك .

— النبويات :

— وتعتبر المدائح النبوية من الاغراض المستحدثة في العهد الموحدي ، حيث لم تكن معروفة قبل ذلك حتى بالنسبة للاندلس ، كما لاحظ د / محمد مجيد ، باستثناء بعض

---

(1) أبو الربيع : الديوان : ص : 152 .

القصائد القليلة التي تعرضت لذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ضمنيا ، طلبا للشفعة أو الدعاء " دون أن يشكل ذلك صلب الموضوع أو أساس القصيد "(1).

والواقع أن هذه النبويات هي وليدة الموجة الزهدية التي اجتاحت بلدان المغرب آنذاك خاصة اثر الأحداث الأليمة التي تعرضت لها بعد الهزيمة المنكرة التي عرفتها جيوشها في غزوة العقاب ، فقد كان ذلك ايذانا بنهاية الحكم المغربي بالأندلس ، وبداية لتفكك وحدة الأسرة الموحدية الحاكمة بالمغرب نتيجة لتدخل الأشياع في الشؤون السياسية للدولة .

وقد تجلى هذا التفكك أول ما ظهر على يد الخليفة المأمون عندما تبرأ مما كان يدعيه ابن تومرت من المهدوية والعصمة ، ولعنه على المنابر ، وسفه أحلام الأشياع الذين كانوا يساندونه على تلك الأباطيل . فدخلت الدولة بسبب ذلك في دوامة من الاضطرابات والفوضى ، زادت في ترسيخ الشعور بالخيبة في قلوب المغاربة الذي سببته هزيمة " العقاب" وما أصاب دولتهم من تقلص بعد انفصال مقاطعة افريقية عنها . ثم ما عاشوه من أحداث دموية نتيجة التنافس على العرش .

فكان لكل ذلك انعكاساته البالغة على الناحية الأدبية حيث انطوى الشعراء على أنفسهم بعد أن تزعزعت قيمهم بالعصمة لممدوحيهم فتذبذبوا وضلوا طريقهم بين الخلفاء الذين أخذوا يتعاقبون على العرش بسرعة مذهلة ، تبعا لتطور الأحداث

---

(1) محمد مجيد سعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص : 269 — دار الرشيد للنشر — العراق ، 1980 .

حتى فقد هذا المنصب كل ما كان له من قداسة في قلوبهم ، فلم يجدوا ازاء هذه النكسات المتتالية أحسن من الالتجاء الى الله فانصرفوا من كل أطماع الحياة وولوا وجوههم شطر قبر الرسول الأعظم فقصدوه بمدائحهم بدل الملوك والأمراء ، فوجدوا في المدائح النبوية أكبر متنفس لما كانوا يحسون به من آلام الخيبة والحسرة والندامة .

وكان على رأس هؤلاء الأدباء شاعر البلاط الموحدى أبو عمرو ميمون الخطابي المشهور بابن خبازة الذى عاش كل هذه الأحداث وبقي صامدا ، أول الأمر ، ملازما لخليفته المأمون ، يمدحه ويدافع عن مذهبه الا أنه انهار في الأخير فتزهد ، فصرف كل جهوده للأمداح النبوية[1] . ومن أشهر ما قاله في هذا الباب ، هذه الأبيات التي نقتطفها من قصيدته الطويلة التي أوردها له المقرى في ازهار الرياض :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا	لنفني في مدح الحبيب المعانيا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة	ونحشد في ذات الاله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة	لنصر الهدى والدين تردي الأعاديا
فالسن أرباب البيان صوارم	مضاربها تنسي السيوف المواضيا
لتطلع من أمداح أحمد أنجما	تلوح فتجلو من سناه الدياجيا
كواكب ايمان تنير فيهتدى	بأضوائها من بات للحق ساريا
سهوت بمدح الخلق دهري فهذه	سجودى لجبري كل ما قلت ساهيا
فلا مدح الا للذى بمديحه	تطيع اذا ما كنت بالمدح عاصيا (2)

وكأن الشاعر هنا يريد أن يعطينا خلاصة تجربته في الحياة ، بعد أن صرف كل دهره في مدح من لا يستحق ذلك ، فعبر عن مدى مرارته ، وأسفه على ما صرف من جهد فيما لا يعني بقوله : كان الأولى بنا أن نستجيب لنداء المعالي ونكرس كل المعاني لمدح

(1) انظر ماقاله المقرى عن لجوء أبي بحر صفوان بن ادريس أيضا الى الأمداح النبوية ـ النفح : ج . 5 . ص : 69 .
(2) المقرى : ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 384 .

الرسول الحبيب ، ونقصر كل القوافي والأشعار بمن طمس ذات الله ، تقربا واحتسابا ، كما يجب أن نجند كل كتائب الشعر لنصر الحق وإعلاء كلمة الله التي بها نقضي على أعدائه . لأن ألسن أهل البيان ، في الواقع ، تعمل ما لا تعمله السيوف القواطع . فلنحاول ، إذن أن نجسم سيرة الرسول الأعظم بأمداح تبرز مزاياه نجوما يهتدي بها الضال ويستنير بنورها الساري في الظلام . لقد شغلت بمدح الناس وقتا طويلا ، وما كان حقي أن أفعل . فقد كان ذلك سهوا مني أرجو أن تكون هذه القصيدة في مدح الرسول بمثابة السجدة التي تكفر من سهو صاحبها . والحق أنه لامدح يفتخر لمخلوق الا اذا قيل في حق من يعتبر مدحه طاعة وهو الرسول ثم يسترسل بعد ذلك في تعديد وشرح مزايا الرسول الخلقية والخلقية الى أن يبلغ بقصيدته مائة وخمسين بيتا .

ويدخل ضمن هذه النبويات ما يسمى بقصيدة التشوق وهي نوع من الأمداح يصف فيها صاحبها شوقه لزيارة قبر الرسول وبقية البقاع المقدسة . ويذكر فيها حنينه لكل المعالم التي درج فيها محملا الزوار سلاماته وتحياته وتشفعاته إليه ، ومن ذلك ما قاله ابن الأبار القضاعي :

لو عنّ لي عون من الأقدار	لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت أطيب طيبة من طيبة	جارا لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للأبصار	لما استنار حفائظ الأنصار
يا زائرين القبر قبر محمد	بشرى لكم بالسبق في الزوار
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم	ما آدكم من فادح الأوزار
فوزوا بسبقكم وبوءوا بالذي	حملتم شوقا الى المختار
أدوا السلام سلمتم وبرده	أرجو الاجارة من ورود النار (1)

---

(1) المقري : ازهار الرياض : ج . 3 . ص : 225 .

والظاهرة العامة التي تجمع بين هذه الأمداح النبوية هي الافراط في الطول، واعتمادها على المحسنات البديعية المتكلفة في كثير من الأحيان، وهذا لم يستطع أن يتحاشاه حتى أولئك البلغاء الذين كانت لهم دراية واسعة بالشعر الجيد كابن الأبار مثلا. فان مقطوعته التي بين أيدينا مثقلة بالجناس كما هو ملاحظ خاصة منها الأبيات الثلاثة الأولى. وهذه ظاهرة من ظواهر الركود والتحجر التي بدأت تظهر جلية في كل الأجناس الأدبية مع بداية القرن السابع.

— وقد أرجع ذلك د / احسان عباس الى عدة عوامل، منها:

— غياب النقد من ميدان الانتاج في هذه الفترة التي سماها هو بفترة الخوف لانشغال الناس بما هو أهم، اذ لم تعد تعقد تلك المجالس الأدبية للمناقشة والمناظرة كما كانت من قبل، فأحس الشاعر بتحرره من هذا القيد فاسترسل وراء المطولات، اشباعا لرغبته في الاطالة من جهة ومحاولة لكسب الهيبة التي قال عنها ابن رشيق، تخلقها القصائد الطوال في النفوس[1] " غير أن المطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز وان أجاد "[2].

— ويرى أيضا للمحسنات البلاغية دخل كبير في هذه الاطالة المفرطة، حيث أصبح زمام القصيدة بيدها، اذ كثيرا ما يثبت الشاعر بعض الأبيات رغم التناعه بحشويتها لمجرد ما تحمله من محسنات بديعية. وهذا الانحراف نحو الشكل هو الذى أنزل النقد الى ما هو أقل، فأصبح الاهتمام بالمصطلح البلاغي يحل محل النقد القديم[3].

---

(1) إ. عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص: 494، بيروت، ط. الأولى سنة 1971.
(2) ابن رشيق: العمدة: ج. 1. ص: 125، ط. الأولى القاهرة سنة 1925.
(3) المرجع السابق. ص: 496.

– وزاد الطين بلة انحراف الشعر نحو التصوف، فتمططت بذلك المعاني لاتساع مجال التأويل فأصبح التعبير غير دقيق للجرى وراء الكلمات الرنانة لأن هذا الشعر، كما هو معلوم، كان يغلى به.

– ومما زاد في ضعف الشعر في نظر د / احسان انصراف الجماهير في هذه الآونة نحو الأشعار العامية والزجلية، والموشحات فكان فقد الشعر الجيد سببا في فقد النقد[1].

– وهناك نوع من الأمداح تضمنت في " نعل " الرسول (ص) تبركا بآثاره. أورد المقرى منها مجموعة لا بأس بها قيلت في هذا الباب من شعراء مغاربة وأندلسيين[2].

– الشعر الصوفي :

– انتقل هذا اللون من الشعر الى المغرب على يد زاهد المرية أبى العباس بن العريف[3] وتلاميذه من بعده، الذين انتقلوا الى العدوة.

وقد راجت أراجيف كثيرة حول تصوفه ومدرسته التي استفحل أمرها أيام علي بن يوسف بن تاشفين في المرية حيث كان يدرس.

---

(1) المرجع السابق.
(2) انظر: أزهار الرياض: ج. 3. ص: 234 وما بعدها.
(3) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المشهور بابن العريف، ولد بطنجة سنة 481 هـ. وتوفي بمراكش سنة 536 هـ. تصدر للأقراء بالمرية، كما أقرأ بسرقسطة، وولي الحسبة ببلنسية. وقد بعد صيته في الزهد والعبادة، وكثر أتباعه على طريقة الصوفية، وكان العباد وأهل الزهد في العالم الاسلامي يقصدونه ويألفونه فيحمدون صحبته. ترجم له كل من الضبي في البغية رقم 360 – وابن بشكوال في الصلة ص: 583 – والتادلي: في التشوف: ص: 96 – من مؤلفاته كتاب " محاسن المجالس ".

فقد اعتبره فقهاء بلدته مارقا من الدين ، فناصبوه العداء وسعوا به لدى الأمير علي بن يوسف ، فاضطر هذا لاستدعائه الى مراكش هو وقطبين من أقطاب مدرسته ، وهما : أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي من غرناطة ، وأبو الحكم بن برجان من اشبيلية . "وكانوا نمطا واحدا في الانتحال ، والاتصاف بصلاحية الحال ، ولأبي الحكم الشفوف عليهم حتى قيل فيه غزالي الأندلس"[1] .
غير أن التهمة لم تثبت على ابن العريف فأخلي سبيله ، لكن أعداءه لم يمهلوه ، فقد سمه قاضي المرية في أكلة مات بها سنة 536 هـ .

ولا يبعد أن تكون هذه المدرسة التي أنشأها ابن العريف قد تأثرت في اتجاهها ببعض مبادىء مدرسة ابن مسرة القرطبي التي نشأت في عهد الحكم المستنصر الأموي ، فقد كان صاحبها يخفي آراء فلسفية وراء تزهده وتنسكه[2] .

الا أننا نستبعد أن يكون هذا التأثر قد وقع في أول نشأتها لأن ابن العريف الذي يعتبر المرسي الحقيقي لهذه المدرسة لم يكن يرمي من وراء تصوفه الى أي هدف دنيوي ، فقد كانت طريقته التي كان يدعو اليها في التصوف تحتم على المريد أن يزهد في كل شيء ما سوى الله حتى "الوصول" الذي كان يطمح اليه كل متصوف ، والكرامات التي يترقى بها الى مصاف الأبدال كان يوجب عليه أن يبتعد عنها لأنها من مطامح العامة (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) .

لذا فنحن نعتقد أن "ثورة المريدين" التي قام بها اتباع هذه المدرسة فيما بعد على الحكام المرابطين بقيادة ابن قسي ، لم تكن من

---

(1) عباس بن ابراهيم المراكشي : الأعلام : ج .1 . ص : 160 ومابعدها .
(2) انظر ماقاله عنه المقرى : في النفح : ج .3 . ص : 556 — نقلا عن مطمح ابن خاقان .

أهداف المبادىء التي كان يدعو اليها ابن العريف في حياته، انما هو انحراف تسبب فيه بعض الأتباع المتأخرين منهم ابن قسي نفسه.

— فقد كان من مبادىء ابن العريف في تصوفه، الابتعاد عن ذوي السلطات والجاه، وقد أعرب صراحة عن تمسكه بهذا المبدأ عندما وصل اليه عفو السلطان وهو بسبتة في طريقه اليه فقال: " كنت أريد أن لا يعرفني السلطان، وقد عرفني الآن فلا بد من رؤيته "(1). وقد أصبح ذلك قاعدة عامة لدى كل من ينتمون الى التصوف. فقد أوصى أحد الصوفية، وهو: أبو محمد أبو الأمان، عند احتضاره، أقرب مريديه اليه بالعزلة، وحذره من لقاء الناس قائلا: " كانت لي أحوال فقدتها من يوم اجتماعي بالسلطان وحديثي معه، فأياك ولقاء الناس ":

رأيت الانقباض أجل شيء — وأدعى في الأمور الى السلامة
فهذا الخلق سالمهم ودعهم — فخلطتهم تقود الى الندامة
ولا تعبأ بشيء غير شيء — يقود الى خلاصك في القيامة (2)

— ومن مبادئهم أيضا السهر الطويل في العبادة وهم لا يشعرون بطول الليل أو قصره لانشغالهم بالتأمل والمناجاة. من أحسن ما قيل في ذلك هذه الأبيات لابن العريف:

لست أدري أطال ليلي أم لا — كيف يدري بذاك من يتقلى
لو تفرغت لاستطالة ليلي — ولرعي النجوم كنت مخلا
أن للعاشقين عن قصر الليل — وعن طوله، من الفكر شغلا(3)

وقيل عن الصوفي أبي يعقوب يوسف بن علي المؤذن (··· / 557) "ما طلع عليه الفجر الا وهو على الصومعة" وكان ينشد في السحر هذه الأبيات وهو على المئذنة:

---

(1) التادلي: التشوف: ص: 98.
(2) المرجع السابق: ص: 131.
(3) المراكشي عباس بن ابراهيم: الاعلام: ج. 1. ص: 171.

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
أن في القبر ان دفعت اليه لرقاد ايطول بعد المات
ومهادا ممهدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات (1)

وقد عرف ابن العريف "الصوفي" في قصيدة يخاطب بها بعض اخوانه :

بنفسي اذا نفسي أنابت وأصلحت غريب جرت من مقلتيه غروب
اذا ذكر المولى تبسم قلبه وان غلبته النفس كاد يذوب
أناخ بعلّيين رائد سره الى حيث لا تمضي العقول بحوب . . .
هم حسنات الدهر عند كماله ولكنهم عند الأنام ذنوب
محبتهم فرض وروء يتهم هدى وللدين منهم السن وقلوب
بقيت قرير العين مادمت فيهم وجانبك المكدور وهو نكوب (2)

فهذا هو الصوفي المثالي ، في نظر ابن العريف ، الذى تجب محبته على كل المريدين ، لأنها محبة خالصة في الله ، ولا يستغنى عن زيارته أى زاهد ، لأنه لا يمكن أن يأنس الا لأمثاله ، ولا تقر عينه الا بحضره .

ومن أحسن ما أنشد لابن العريف في التصوف هذه المقطوعة التي نظمها في المناجاة :

سلوا عن الشوق من أهوى فانهم أدنى الى النفس من همي ومن نفسي
ما زلت مذ سكنوا قلبي أصون لهم لحظي ، وسمعي ، ونطقي ، انهم أنسي
حلوا فؤادى فما أندى ، ولو وطئوا صخراً ، لجاد بماء منه منبجس
وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم فكيف قروا على أذكى من القبس
لأنهضن الى حشرى بحبهم لا بارك الله فيمن خانهم فنسي (3)

ـ فهذه القطعة ظاهرها غزل وباطنها مناجاة وتسبيح ، وذكر . فهي ـ الى جانب ما تتضمنه من جميل التورية ـ سلسلة الأسلوب ، جيدة السبك ، تنبيء من رهافة حس صاحبها ، وسلامة ذوقه ، وعلو كعبه

---

(1) التادلي : التشوف : ص : 146 ـ 147 .
(2) المرجع السابق . ص : 100 ـ 101 .
(3) ابن دحية : المطرب : ص : 90 ـ 91 ـ المقرى : النفح : ج . 3 . ص : 229 .

في ميدان الأدب بصفة عامة . "فقد كان له منشور رفيع ومنظوم بديع" . كما كانت له مراسلات مع فقهاء المغرب وعلمائهم، على رأسهم القاضي عياض .

ولم يقتصر شعر ابن العريف على التصوف وحده ، بل قد نظم في أغراض أخرى وردت بعض النتف منها متناثرة في كتب الأدب ، وهي على قلتها ، تنم على مدى تضلع صاحبها ، وتمكنه في هذا الميدان .

وقد أجاد ابن العريف ، خاصة ، في المدائح التي قالها في مناجاة الرسول (ص) وفي توديع ركب الحجاج المتوجهين للبقاع المقدسة ، حيث كان لمدائحه هذه أصداء كبيرة في بلدان المغرب .

ومن الزهاد المنسوبين للعهد الموحدي نذكر أبا عبدالله محمد ابن أحمد اللخمي المعروف بابن الحجام المتوفي سنة 614[1] ، فقد كان مختصا في الوعظ .

من شعره يصف أحوال المتصوف :

غريب الوصف ، ذو علم غريب　　عليل القلب من حب الحبيب
اذا ما الليل أظلم قام يبكي　　ويشكو ما يكن من الوجيب
يقطع ليله ذكرا وفكرا　　وينطق فيه بالعجب العجيب
به من حب سيده غرام　　يجل عن الطبيب والطبيب
ومن يك هكذا عبدا محبا　　يطيب ثرا به من غير طيب[2]

تلك هي معيشة الصوفية طول حياتهم ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يتبلغون الا بما يمسك أودهم ، ويكتفون من اللباس بما ستر ، قانعين بالكفاف من كل شيء لا يشكون بضرهم الا للخالق . فقد ورد عن أبي عبدالله الدقاق السجلماسي[3] أحد الشيوخ

---

(1) ترجم له التادلي : في التشوف : ص: 462.
(2) المرجع السابق ، ص: 462 ـ 463.
(3) ترجم له التادلي في التشوق : ص: 135 ـ 136.

الصوفيين لأبي مدين شعيب أنه تحادث يوما مع بعض أصحابه فبدرت منه كلمة ذكر فيها ضيق حاله لهم ، فلما افترقوا قام بعض أصحابه فقيل له قل لأبي عبدالله الدقاق :

قل للرويجل من ذوي الأقدار — الفقر أفضل شيمة الأحرار
يا من شكا للناس فعلة ربه — هلا شكوت تحمل الأوزار
ان الذي البست من حلل التقى — لو شاء ربك كنت منها عاري[1]

فلما سمع ذلك بكى واعترف بذنبه .

ـ ولعل أكبر متصوف عرفه العهد الموحدي هو أبو مدين شعيب[2] الذي أطبقت شهرته أفاق المغرب آنذاك . فهو أندلسي الأصل ، كما نعلم ، الا أنه تكون بالمغرب حيث درس على أشهر علمائها من أمثال أبي الحسن بن حرزهم ، وأبي الحسن علي بن غالب وأخذ التصوف على أبي عبدالله الدقاق ، وأبي يعزى يلنور بن عبد الله[3] .

وعندما أتم تكوينه تجول ببلدان المغرب والأندلس للأخذ والتدريس الى أن استقر به المقام أخيرا ببجاية فجلس بها للأقراء ، وقصده طلاب العلم من كل أقطار المغرب والأندلس فتخرج عليه ألف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة على حد تعبير التادلي[4] .

وقد خصص ابن قنفذ كتابه المسمى " أنس الفقير وعز الحقير" للتعريف به وبمشائخه وأصحابه وتلاميذه .

ويرجع الفضل الى أبي مدين ، بعد ابن العريف ، في ارساء قواعد المدرسة الصوفية المغربية التي ازدهرت في أيام الموحدين ، وعرفت انتشارا واسعا أيام المرينيين ، قبل أن تتقلب في العهد السعدي

---

(1) ترجم له التادلي : في التشوق : ص: 135 ـ 136 .
(2) ترجم له كل من التادلي : في التشوف : ص: 316 وما بعدها والغبريني : في عنوان الدراية : ص: 22 ـ 32 .
(3) التادلي : التشوق : ص: 318 .
(4) المرجع السابق : ص: 322 .

الى حركة طرقية منحرفة ، تعتمد على اظهار الكرامات وخوارق العادات [1] ، ونشر الخرافة والشعوذة .

ومن أجمل ما ورد في الغزل الصوفي هذه المقطوعة التي أوردها المقرى لأبي مدين شعيب :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها	زهر الرياض ، وفاضت الأنهار
وقد أقبلت شمس النهار بحلة	خضرا وفي اسرارها اسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده	فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود الى الجنى	فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت	والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب	والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا	مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا	نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكلنا	كأس الكياسة والعقار وقار
فتألفوا وتطيبوا واستغنموا	قبل الممات فدهر كم غدار
والله أرحم بالفقير اذا أتى	من والديه فانه غفار
ثم الصلاة على الشفيع المصطفى	ما رنّمتْ بلغاتها الأطيار [2]

فالمقطوعة لا تختلف في شكلها عن تلك القصائد التي استشهدنا بها في باب الوصف الممزوج ، الذين يجمع بين وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس مما يدل على مسايرة الشعر الديني هو الآخر لحركة التجديد ، وهو لم يتأثر بهذه النزعة وحدها في الشكل بل قد نافس بقية الأغراض حتى في الأغراق في المحسنات البديعية ، كما نرى ذلك واضحا في هذه المقطوعة .

أما بالنسبة للمضمون ، فان الشعر الصوفي ، كما هو معلوم ، يحتوي على مفهوم ظاهري ، وآخر باطني . يستطيع كل من له حظ من الثقافة اللغوية التي كتب بها أن يدرك المعنى الظاهري . الا أن المعنى الباطني لا يدركه الا من كان له اطلاع واسع في العلوم الصوفية ، وكانت له خبرة كافية براجله ، ومعرفة بأسرار ألغازهم ورموزهم ومصطلحاتهم .

---

(1) ابن قنفذ القسنطيني : انس الفقير وعز الحقير ــ المقدمة (ز) ت . محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط 1966 .

(2) المقرى : ازهار الرياض : ج . 2 . ص : 308 ــ 309 .

وهم غالبا ما يتخذون الغزل وسيلة للتعبير عن أشواقهم ، الا أنهم لا يقصدون النسيب في حدّ ذاته ، بل يرمزون به الى أسرار الهية خفية ، صعبة الادراك ، عسيرة الفهم والتصور .

وقد فسر ابن عربي ، شيخ الصوفية في العهد الوحدى ، ذلك في مقدمة ديوانه " ترجمان الأشواق " قائلا : " وجعلت العبارة ذلك بلسان الغزل والتشبيب ، لتعشق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعي على الاصغاء اليها ، وهو لسان كل أديب ظريف روحاني لطيف "(1) . وقد يتخذون الجمال الحسي سلّما للصعود بالروح الى الجمال المطلق ، كما فعل قيس بن الملوح مع ليلى ، عند من يعتقدون بتصوفه . وهذا ما فعله ابن عربي نفسه مع " نظام " ابنة الشيخ أبي خانشة امام مقام ابراهيم حسبما أوضح ذلك في مقدمة ديوانه ، حيث قال : " فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس ، ويثيره الأنس ، من كريم ودّها وقديم عهدها .... فكل اسم أذكره في هذا الجزء على الايماء الى الواردات الالهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جريا على طريقتنا المثلى ، فان الآخرة خير لنا من الأولى .... والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره الى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية (2) .

وكثيرا ما كان الناس يتهمون بعض المتصوفين بالتستر وراء الصلاح والتقوى ، للتنفيس عن غرائزهم الحسية ، لما يجدونه في أشعارهم من غزل ، ووصف لمجالس الغناء والشراب . وقد تعرض ابن عربي ، نفسه ، لهذه التهمة ، على لسان بعض الفقهاء ، مما

---

(1) ابن عربي : ترجمان الأشواق : ص : 10 . دار صادر بيروت 1961 .
(2) نفس المصدر ص : 9 .

دعاه الى شرح ديوانه كما ذكر : " وكان سبب شرحي لهذه الأبيات أن الولد بدرا الحبشي والولد اسماعيل بن سودكين سألاني في ذلك ، وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكران هذا من الأسرار الالهية ، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوبا الى الصلاح والدين "(1).

والواقع ، لو جئنا نشرح ، مثلا ، الأبيات التالية التي قالها ابن عربي في التصوف ، وهي :

(2)
بأبي الغصون المائلات عواطفا　　العاطفات على القدود سوالفا
المرسلات من الشعور غدائرا　　الليِّنات معاقدا ومعاطفا
الساحبات من الدلال ذلاذلا　　اللابسات من الجمال مطارفا . . (3)

لما استطعنا أن نفهم منها أكثر من المعنى الظاهرى الذى توحي به الألفاظ . وهو أن الشاعر أراد أن يتغزل ببعض فتيات الحيّ . ففداهن ، مشبها قدودهن بالأغصان المائلة ، وهن يعطفن سوالفهن على خدودهن ، ويرسلن شعورهن غدائرا لدنات المعاقد ، لينات المعاطف ، يسحبن ذيولهن في تيه ودلال ، وقد لبسن الجمال مطارفا الخ . . .

مع أن الذى يريده هو مخالف تماما للمفهوم الظاهرى حسبما شرح ذلك هو بنفسه قائلا : " بأبي " اشارة الى العقل الأول يفدى به النعوت التي تحمل المعارف الالهية للعارفين بطريق العطف الالهي للعطف المقدس، كما قال تعالى : " قطوفها دانية " . وقوله : " العاطفات على الخدود "

---

(1) ابن عربي : ترجمان الأشواق : ص : 9.
(2) نظم الشاعر في نظمه لهذه المقطوعة الى قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله :
بأبي الشموس الجانحات غواربا　　اللابسات من الحرير جلاببا
المنهبات عقولنا وقلوبنا　　وجناتهن الناهبات الناهبا
(3) ابن عربي : ترجمان الأشواق : ص : 123.

صفة وجهمية . "سوالفا" رتبة الهيبة ، لها في القلوب لدغ وحرقة توجب اصطلام العبد على نفسه هيمانا وعشقا . وأقام هذه الصفات في الكتابة . منها مقام المخدرات المقصورات ، فأخذ يستعير لها مما هو حقيقة لمن كُنّي بهن عن ذلك ، فقال أيضا : "المرسلات" اسم فاعل و "الغدائر" اسم مفعول من المرسلات من الشعور ، كنى به عن العلوم الخفية والأسرار المكتتمة التي لا يستدل عليها الا بضرب من التلويحات البعيدة لنزاهتها ... وقوله : "اللينات معاقدا ومعاطفا" يقول : انها وان كانت صعبة المرام من حيث نزاهتها اذا رمناها نحن من حيث نحن ، فهي سهلة التناول لكرمها وعطفها وتنزلها الينا جودا ورحمة . كما قال تعالى : "آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما" فلم يذكر له تعمل في تحصيل شيء من ذلك وجعل الكل منه امتنانا وفضلا . والمعاقد المذكورة هنا ، تداخل صفات الخلق وصفات الحق ، واعتقاد المفتين به كما وردت الأخبار في ذلك ، ولكنها عند هؤلاء المعتنى بهم الذين كشف الله عن بصائرهم غطاء العمى وسهل عليهم معرفة ذلك بالكشف الالهي فلان ما قسوى من ذلك عندهم فعرفوه "(1) الخ ....

فالقصيدة الصوفية اذن ، هي غزلية الظهر الا أنها
في حقيقة أمرها على الذكر ، والتسبيح ، والعبادة . والتو
الألهية . والفرق بينها وبين القصيدة الزهدية هو أن هذ
تعتمد الأسلوب المباشر في التعبير عن العواطف ال
تجنح القصيدة الصوفية لاستعمال الرمز الموحي
الخاص ، كما ترتكز على ثقافة واسعة ومران ش

ـ وقد ازدهر هذا اللون من الشعر الديني
الوقت فيه تصانيف خاصة أشهرها كت
التصوف " الذى ألفه أبويعقوب يوسـ

---

(1) ابن عربي : ترجمان الأشواق :

بابن الزيات (. . . / 627 هـ .) وقد خصصه لأشهر المتصوفين الذين عاشوا في فترتي المرابطين والموحدين .

ومما ساعد على انتشار التصوف بالمغرب أيضا كثرة الرباطات والزوايا ، فهي بطبيعتها تشجع على العزلة والانقطاع الى الله والتفرغ للتأمل والعبادة ، كما يساعد انتشارها ، من جهة أخرى ، على الاتصال والتنقل ، والسياحة — كما نعلم — مبدأ مقدس لدى المتصوفين . هذا اضافة الى سذاجة الحياة المغربية وبساطتها ، وبعدها عن التيارات الحضارية الجارفة ، وهي الحياة التي تتلاءم مع هذا النظام القاسي الذى يفرضه الاتجاه الصوفي .

— أهم خصائص الشعر التقليدي :

يتبين لنا من جملة ما عرضناه من الأغراض الشعرية التي ازدهرت في العهد الموحدي ان ما قيل فيها كان لا يختلف كثيرا عما كان عليه الشعر الأندلسي في أواخر القرن الخامس . فهو ، حقا ، لم يرق الى المستوى الفني الذى بلغه في عهد ابن زيدون ، والمعتمد ، وابن عمار ، الا أنه لم يكن يقل عنه نضجا ولا تجاوبا مع أحداث عصره ، وذلك يعد أكبر دليل على أصالته وعمقه .

— وبالرغم مما عرفته بلدان المغرب ، من أحداث دينية وسياسية . في عهدي : المرابطين والموحدين ، فان ذلك لم يحد ، أبدا ، من تطور الشعر وازدهاره . فلئن اعترضه أحيانا شيء من المحاصرة وضيق التنفس لفترة مؤقتة ، فذلك مرجعه ، ... التي كان يعطيها بعض الخلفاء ، لبعض الاختيارات ... أساسية لتركيز حكمهم ، وفيما عدا ذلك فقد لاقى

كل التشجيع من الخلفاء، وأدى رسالته كاملة فيما يتعلق بتصوير أحاسيس المجتمع، والتعبير عن عواطفه، والتفاعل مع طموحاته .

هذا بالنسبة لأغراضه ومضامينه، أما بالنسبة لشكله فقد كان الشعراء الموحدون يهتمون اهتماما كبيرا بكل ما يتصل بمبنى قصائدهم خاصة فيما يتعلق بنسيجها اللغوى حيث كانوا يتأنقون في اختيار كلماتها باعتبارها الخلايا الأساسية لتوليد الطاقة الضرورية لحياة عملهم الفني، ويولون عناية أكبر للتأليف بينها في الجملة لخلق الجو الشعرى المناسب الذى يريدون التعبير عنه، لاعتقادهم أن سحر الشعر لا يكمن في الكلمات المفردة، وانما يتولد من تآلفها مع بقية الجملة، فطبيعة العلاقة القائمة بين الكلمات ترجع خاصة الى فنية التأليف بينها، حيث تؤدى كل كلمة حسب موقعها من الجملة معاني هامشية، وتعطي أحالات زائدة على المعنى الحقيقي للكلمة المفردة، تكون بمثابة الظلال للوحة الفنية، هذا بالاضافة الى الايقاع الموسيقي الذى تخلقه، فيزيد في الروعة والابداع .

— وقد ورث المغاربة الجزالة والتدفق من طريقة العرب التي كانت سائدة بالأندلس، كما ورثوا الاهتمام بالشكل من طريقة المحدثين التي كان يميل اليها الأندلسيون أكثر . فكانوا ينسجون على منوال أبي تمام، والبحترى، وابن الرومي، وابن المعتز، وأبي العتاهية . وقد نجحوا في الجمع بين الطريقتين الى حدّ بعيد، كما يظهر ذلك واضحا في اشعار أبي العباس الجراوى، وأبي الربيع سليمان الموحدى وغيرهما .

وكان لاحتكاك الشعراء المغاربة بالأندلسيين
تمحيص شعرهم . وهذا بفضل المنافسات ال
تقع بين شعراء وعلماء كل من الضفتين، والتي تجلت
المفاخرات والمناظرات التي سجلتها لنا بعض كتب ال

الا أن الشعر المغربي لم يحافظ على نفس القوة التي مهدتاه عليها ابان ازدهار الدولة الموحدية : فقد بدأت مظاهر الجمود والضعف تطرق عليه مع بداية القرن السابع، عندما بدأ ينحرف نحو الزهد والتصوف، والأمداح النبوية، وأناشيد الرقائق . ثم بدأت تتقلص أغراضه شيئا فشيئا بفعل منافسة الموشحات والأزجال التي طغت عليه آنذاك . وقد زاده ضعفا وتحجرا انحرافه نحو الاهتمام بالمحسنات البديعية، وجريه وراء تصيّد الجناس، والطباق، والمقابلة، والتزام ما لا يلزم، وما الى ذلك من هذه الزركشات اللفظية . وهذا الانحراف نحو الشكل كان أهم أسباب انحراف النقد وضعفه حيث أصبح الاهتمام بالمصطلح البلاغي يحل محلّ النقد القديم (1).

— وقد كانت بلدان المغرب تستمد مقاييسها النقدية، أول الأمر، من عمدة ابن رشيق، التي كانت معتمدة بالأندلس لمدة طويلة، كما كان لذخيرة ابن بسام أكبر الأثر في توجيه الأدباء لما كانت تحتوي عليه من نظريات نقدية تطبيقية . وكان ابن بسام من أنصار البديع، كما أشار لذلك في مقدمة كتابه عند عرضه لخطته : "... لكن ربما الممت ببعض القول، بين ذكر أجوبته ووجه عذرا ء أربيه، لا سيما أنواع البديع ذي المحاسن الذى هو قوم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها ...."(2)

الا أن الاغراق في البديع الذى انحرف اليه المغاربة في أواخر الدولة الموحدية جعل الشعراء لا يتقيدون بأى مقياس نقدى ما عدا القياس البلاغي، فانحط لذلك انتاجهم وفقد كل أصالة، وأصبح يدور حول بعض المواضيع التافهة، كوصف بعض الأدوات أونظم الألغاز، أوالرد على بعض الرسائل الاخوانية، وهذا في أسلوب ركيك مثقل بالمحسنات اللفظية الساذجة .

(1) ا. عباس: تاريخ النقد الأدبي، ص: 495.
(2) ابن بسام: الذخيرة : 1.1. ص: 6.

الباب الثاني — أنواع الأدب الموحدي .

الفصل الثاني : الموشحات والأزجال .

— أ — 1) نشأة الموشحات .
2) أشهر الوشاحين في العهد الموحدي .
3) أهم أغراض الموشحات .
4) الموشحات الدينية .

— ب — 1) نشأة الأزجال وتطورها .
2) اشهر الزجالين في العهد الموحدي .
3) الزجل الصوفي .

— الموشحات :

تضاربت أقوال المؤرخين حول تاريخ نشأة الموشحات ، كما اختلفت آراؤهم في مصدرها ، وسبب نشأتها ، والي من تنتسب . وقد كتبت في ذلك بحوث قديمة وحديثة كثيرة ، ألقت الضوء على بعض جوانب الموضوع ولكنها لم تستطع أن تصل الى رأى حاسم مقنع في بعض الجزئيات منه .

ونحن لن نتعرض لكل الآراء التي أدلى بها الباحثون حول الموضوع ، مخافة الاستطراد ولكننا سنكتفي بعرض أشهر الأقوال .

— فأول من تكلم من نشأة هذا اللون من الشعر في الأندلس هو ابن بسام في "الذخيرة" عندما تعرض لذكر عبادة بن ماء السماء قال : " وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا ، واخترع طريقتها فيما بلغني ، محمد بن حمود القبري الضرير (225 — 299 هـ .) ... وقيل أن ابن عبد ربه صاحب كتاب " العقد " أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا . ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى[1] فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصرنا ، كمكرم بن سعيد ، وابن أبي الحسن ، ثم نشأ عبادة هذا ، فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد موضع الوقف في الأغصان فضمنها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف في المراكز "[2].

فالذى استحدث الموشحات في نظر ابن بسام هو أحد الرجلين : محمد بن حمود القبري الضرير ، أو ابن عبد ربه . غير أن الذى أرسى

---

(1) ترجم له كل من ابن بشكوال في الصلة : ص : 687 — وابن دحية : في المطرب ص : 3 — وابن سعيد في المغرب : ج . 1 . ص : 392 .
(2) ابن بسام : الذخيرة : 1 . 1 . ص : 469 ت . أ . عباس .

قواعدها هو الرمادي يوسف بن هارون المتوفي 403 هـ . حيث أكثر من التضمين في المراكز . غير انها اشتهرت على لسان عبادة بن ماء السماء المتوفي سنة 422 هـ . الذى قال عنه ابن بسام : " انه سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا . وكانت صناعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود فأقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته "[1].

- وعندما جاء ابن سعيد في القرن السابع ..../685 هـ . نقل قول الحجاري في نشأة الموشحات ، الذى ردها هو الى آخر القرن الثالث . غير أنه نسبها الى رجل اسمه المقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبدالله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب " العقد "[2].

ثم جاء ابن خلدون فردد نفس كلام ابن سعيد دون أن يضيف اليه جديد[3]. فالذى نفهمه من كل هذا أن الموشح ظهر منذ أواخر القرن الثالث الهجري . غير أنه لم يشتهر الا في القرن الخامس عندما تبنته مجالس اللهو الرسمية في بلاطات ملوك الطوائف . اذ يبدو أن الموشحات كانت مستهجنة من طرف الرسميين

---

(1) ابن بسام : الذخيرة : 1/1/ ص: 469 ت . ا . عباس .
(2) انظر مقالا لعبدالعزيز الأهواني عن كتاب : المقتطف من أزهار الطرق ، في " مجلة الأندلس " ، م13 — عدد 1 ، ص: 23 ، نشر النص بالعربية في أعمال مهرجان ابن خلدون ص: 477 وما بعدها القاهرة يناير 1962 ، منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية .
(3) ابن خلدون : المقدمة ، ص: 1137 وما بعدها .

والطبقات الارستقراطية في أول أمرها ، فحتى الكتاب كانوا يأنفون من ايرادها في الكتب المجلدة ، على حدّ تعبير عبدالواحد المراكشي[1]، فقد كان ذلك سببا في ضياع كل الموشحات التي قيلت منذ نشأتها حتى القرن الخامس، اذ أن أقدم نموذج وصل الينا هو موشحة واحدة لعبادة بن ماء السماء الذى توفي سنة 422 هـ.[2].

أما سبب نشأة الموشحات فكان مرتبطا بانتشار الغناء وتطوره بالأندلس ، حيث أصبح هذا الفن يتطلب شعرا مرنا متنوع القوافي والأوزان حتى يتلاءم مع الأنغام التي يريد أن يعبر عنها الفنان اذ أن الشعر القديم المقيد بأوزانه الرتيبة لا يمكن أن يسمح للملحن بالخلق والابداع اللذين يرقيان باللحن لدرجة الطرب .

ومما يؤيد هذه النظرية أن كل الذين تكلموا عن الموشحات كانوا يربطون دائما صلة قوية بينها وبين الغناء : فابن بسام يقول عن أوزان الموشحات أنها " تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب"[3] وذلك ما وقع ، مثلا ، لابن تفلويت القائد المرابطي ، صاحب سرقسطة عندما سمع موشحة ابن باجة التي يقول في أولها :

جرر الذيل أيما جر
وصل السكر منك بالسكر

وقد غنته بها احدى قيناته فبلغ به الطرب حدّا شقّ فيه ثيابه ، وأقسم للشاعر الملحن ألا يمشي الى داره الا على الذهب[4]

---

(1) المراكشي : المعجب ، ص: 146.
(2) إ. عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص: 230 — 231 يحدد عباس وفاته بسنة 419.
(3) انظر ابن بسام : الذخيرة ق /1/1/ ص: 469 ت . ا . عباس .
(4) ابن خلدون : المقدمة : ص: 114.

— وابن سناء الملك يقول عن الموشحات : " مالها عروض الا التلحين ولا ضرب الا الضرب ، ولا أوتاد الا الملاوى ، ولا أسباب الا الأوتار . . . وأكثرها مبني على تأليف الأرغن ، والغناء بها على غير الأرغن مستعار ، وعلى سواه مجاز "(1).

فمعنى ذلك أن الموشحة كانت توضع أساسا على نغمات مسبقة يعبر بها الشاعر عن لحن يدور بخلده ، أى أن اللحن هو الذى يلد الموشحة لا العكس ، ويرى د / هيكل أن الموشح كان ينظم ابتداء للتلحين والغناء ، وتعتبر الموسيقى أساسا من أسسه (2) . الا أنه يربط نشأتها بانتشار الثنائية اللغوية التي عرفتها الأندلس آنذاك . يقول موضحا هذه الفكرة : " وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية فبيانه ، أن العرب امتزجوا بالأسبان ، والفوا شعبا جديدا فيه عروبة ، وفيه اسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية Romances ، كما عرف العامية العربية ، أى أنه كان هناك ازدواج لغوى نتيجة للازدواج العنصرى وكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية ، فكانت الموشحات "(3).

فهذا الكلام يكون معقولا لو أن الموشحات كانت تنظم بالعامية اللاتينية أو العربية الدارجة أو بهما معا ، الا أن الثابت أنها كانت تنظم بالعربية الفصحى فقط ما عدا الخرجة أحيانا . فهذا الكلام ، في نظرنا ، يمكن أن يصدق على الأزجال التي تولدت بعد ذلك بكثير كما هو معلوم وكانت تنظم بالعامية .

ويرى أ. عباس "أن الموشح لا يمكن أن يدرس منفصلا عن القاعدة الموسيقية التي ألف على أساسها "(4).

---

(1) ابن سناء الملك : دار الطراز . ص : 35 .
(2) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي : ص : 143 — 144 .
(3) المرجع السابق ، ص : 144 .
(4) سليم الخورى : الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها مقدمة احسان عباس ، ص : 7 — مكتبة الحياة — بيروت 1965 .

ولعل هذا ما جعل الموشحات تقتصر في أول عهدها على غرضين اثنين هما : الوصف والغزل ، اذ هما اليق الأغراض بالغناء .

— وليس معنى هذا أن الموشحات ظلت طول الوقت مرتبطة بالغناء ، أو أن كل الموشحات كان يغنى بها ، فهناك موشحات كثيرة وضعت للانشاد رغم ما توحي به أوزانها من أنها وضعت على نغمات مسبقة . للتعبير عن ألحان خاصة كما سنرى ذلك فيما بعد . ولكن هذه المرحلة، في نظرنا ، جاءت متأخرة بعض الشيء ،أي في الوقت الذي انتشرت فيها الموشحات بالأندلس انتشارا واسعا ، وراجت سوقها بفضل بعض الشعراء البارزين الذين تبنوها وفسحوا لها مجالات واسعة في بلاطات الأمراء والملوك فاكتسبت بذلك صبغة رسمية شددت أزرها ،فعلا شأنها ، وافتتن الناس بها أيما افتتان ووجد فيها الشعراء التقليديون مرونة كبيرة ،كما لمسوا فيها منفذا سهلا لقلوب ممدوحيهم ،فأقبلوا عليها ينظمون بها مدائحهم وينشدونها دون غناء في مجالس الأنس .

وقد تطورت بعد ذلك هذه الموشحات ،فأصبحت تشمل كل أغراض الشعر التقليدي من وصف ،ورثاء ،وهجاء ،وزهد ، وتصوّف[1] ، خاصة في المغرب .

ونخلص من كل ذلك الى أن هذا الفن الذي حاز فيه الأندلسيون قصب السبق وأصبحوا فيه محل تقليد ،بدأ ازدهاره في القرن الخامس الهجري ، وأدرك قمة مجده أيام المرابطين التي ألف بعض الباحثين أن يرموها بكل عقم ويصفوا عهدهم بالجدب الأدبي والفكري معا .

— ومما يدعو الى التعجب ،أن نرى بعض المستشرقين ،يعزون ظهور الموشحات في هذا العصر ،الى هبوط الذوق فيه وميله الى كل ما هو"شعبي سوقي خال من الحشمة والتوقر" . يقول "جارسيا جوميز" في كتابه "الشعر الأندلسي" "وهؤلاء الشعراء المحدثون

---

(1) ابن سناء الملك : دار الطراز : ص: 38.

أنفسهم ـ الذين ما كانوا لينظموا أزجالا وموشحات في المناسبات الحافلة ، لو أنهم عاشوا في زمن آخر ـ وجدوا أنفسهم الآن مضطرين الى استعمالها ذلك أنه ظهر في أوساط معينة خلال ذلك العصر المرابطي ـ الذى هبط الذوق فيه هبوطا بالغا ـ الميل الى كل ما هو شعبي سوقي خال من الحشمة والتوقر . وقد كانت هذه النزعة أشبه بثورة على القوالب المتكلفة التي كان الارستقراطيون المتزمتون يلتزمونها ويحرصون عليها ، وكانت في نفس الوقت دليلا على غلبة ذوق العوام "[1].

لا ندرى ما الذى ألجأ الأستاذ جوميز الى مثل هذا الحكم الجائر ، مع أنه يعلم جيدا أن الموشحات نشأت منذ عهد عبدالرحمن الناصر ، الذى يعتبر أزهى عصور الخلافة ، وازدهرت على يد عبادة بن ماء السماء . وقد توفي قبل أن يدخل المرابطون الى الأندلس بما يزيد من نصف قرن ، وقد كان الأستاذ الأول للوشاحين الذين جاءوا من بعده ، حتى أن أبا بكر بن زهر عدّ كل الوشاحين عيالا عليه [2]. وكان العصر الذى عاش فيه ابن ماء السماء ، يعتبر من حيث ازدهار الثقافة و " علو الذوق " من أرقى عصور الأندلس الاسلامية على الاطلاق .

ـ وأى شيء هذا الأدب الذى كان " خال من الحشمة والتوقر " فالموشحات التي عرفت حتى هذا الوقت كانت تدور حول غرضين اثنين ـ كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل ـ هما المدح ، والغزل ، الذى يستطرد أحيانا لوصف مجالس الأنس . أما ما قيل منها في المديح ، فيستحيل أن يحتوى على شيء يخل بالأدب ، لأن ذلك يعني الحط من قيمة الممدوح نفسه ، وهذا ليس في صالح الوشاح .

---

(1) جارسيا جوميز : الشعر الأندلسي : ص : 62 .
(2) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1138 .

وأما الغزليات فاننا لم نر فيما بين أيدينا — ما يرجع لهذا العصر — ما يمكن أن يتصف بما رماه به الأستاذ جومز .

— فان الموشحات الغزلية التي عرفت في هذا العصر عن أكبر الوشاحين كالأعمى التطيلي ، وابن بقي ، والأبيض ، وابن زهر ، وأضرابهم ، تعدّ من أرقى الغزليات عبارة ، وأسماها معاني . مع أنها قيلت ليغنى بها في مجالس الانس ، ودور اللهو ، فعلى فرض تجاوزها ، بعض الشيء ، لحدود الوقار ، فان ذلك لا يقدح في قيمتها الفنية ، ولا يستدل به على " هبوط الذوق " .

على أننا لو جئنا نستقرىء الفنون الأدبية الأخرى ، غير الموشحات والأزجال في غير هذا العصر ، لوجدناها تطفح بكل أنواع المجون ، وشتى أضرب الخلاعة ، ولم يقل أحد عنها يوما بأن ذلك ناتج عن هبوط الذوق أوسوقية أهله .

فعندما انتشرت دور الغناء ، مثلا ، في الحجاز أيام الأمويين ، واستدعى ذلك نوعا خاصا من الشعر الغير المتزمت ، حتى يتلاءم مع المقام الذى يقال فيه ، وجاءت غزليات عمر بن أبي ربيعة العارية ، لتغطي هذا الاحتياج ، لم ير أحد في ذلك سوى أنه استجابة لضرورة اجتماعية نتجت عن تطور حضاري .

— فالموشحات أيضا جاءت لتسد حاجة اجتماعية ، دعت اليها التطورات التي جدت في عالم الغناء بالأندلس ، وهي في نفس الوقت " ثورة على القوالب المتكلفة التي كان الارستقراطيون يلتزمونها ويحرصون عليها " ولكنها لا تدل بأية حال " على تغلب ذوق العوام " .

وقد ساير بعض كبار الباحثين العرب هذا التيار فعدوا الموشحات ظاهرة من ظواهر الانحطاط . فهذا د. جودت الركابي يقول في تقييمها مايلي : " لا يمكننا أن نقول أن الموشحات مثلت وجه الشعر العربي المزدهر . فنحن اذا نظرنا اليها من خلال تاريخ الشعر العربي ، نراها ظاهرة من ظواهر الانحطاط ، اذ أنها في أوج ازدهارها في بلاد الأندلس لم تبلغ قوة الشعر التقليدى

ولا صفاء خيالـه ، وعمق معناه وقوة لغته . ولعل ذلك ناجم عن أن الحرية التي جاء بها الموشح لم تقتصر على الوزن والقافية بل شملت اللغة والأسلوب وقادتهما الى العامية والاسفاف "(1).

— فهذا الكلام يكون معقولا ، لو أن الوشاحين كانوا يكونون طبقة خاصة منفصلة عن طبقة الشعراء ، أو أن يكون الذى ألجأهم لقول الموشحات هو قصورهم عن مجاراة الأدباء في ميدان الشعر الفصيح ، ولكن الواقع عكس هذا ، لأن الأغلبية العظمى من الوشاحين شعراء ، ومن الطبقة الممتازة- أيضا ، ولهم دواوين لا تقل قيمة عن دواوين معاصريهم في الشرق . فهم لم يقولوا الموشحات اذن لعجزهم عن الشعر التقليدى ، ولا هجروا القصيدة العمودية لنفور الأذواق منها ، ولكنهم كانوا يأخذون من هذا وذا ، تبعا للظروف والمناسبات والممدوح الذى كانوا يتوجهون اليه بالقصيدة هو نفسه الذى صاروا يتوجهون اليه بالموشحة ، فكان يطرب لهذه ، كما كان يهش لتلك . دون أن ينفر من قوة الأولى أويشمئز من سهولة الثانية . اللهم الا أن كان د / الركابي يقصد بكلامه هذا الجمود الذى أصيبت به الموشحات في أواخر العهد الموحدى وعصر الانحطاط ، فنحن نوافقه على ذلك . الا أن هذا ، لم يكن خاصا بها وحدها ولكنها كانت ظاهرة عمت كل الأجناس الأدبية الأخرى ، بما فيها الشعر التقليدي نفسه .

— ويرى الدكتور الكريم ، صاحب " فن التوشيح " أن ارتباط الموشحات بالغناء كان سببا في ضعف لغتها ، كما كان سببا في ضعف الشعر الذى كان ينظم ليغنى به في الأندلس قبل نشوء الموشحات ، حيث " ازدادت ألفاظه لينا على لين وتسربت اليه الركاكة بدعوى مناسبتها للغناء "(2).

— ونحن نرى أن في هذا الحكم فيه شيء من التجني على الموشحات والشعر الغنائي بصفة عامة .

---

(1) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي : ص: 305.
(2) الكريم مصطفى عوض : فن التوشيح : ص: 89.

فالواقع أن اللغة التي تستحب في نظم الكلام الذى يغنى به هي اللغة السهلة المأخذ ، السلسة اللفظ ، العذبة النطق، الرخوة اللينة ، التي ترتاح لها الأذن ، البعيدة عن الكزازة والتفلسف، يعني لغة الغزل والحب والمناجاة التي تدور عليها أغلب الموشحات. ولكن هذا ليس معناه الركاكة والاسفاف . فلو ألقينا نظرة على الشعر الذى كان يغنى به في العهد العباسي ، مثلا ، لوجدنا القصائد التي كان ينظمها أبو نواس وأبو العتاهية وأضرابهما لمثل هذا الغرض كانت تعدّ من عيون الشعر العربي رغم بعدها عن الجزالة والقوة ، وكذلك الشعر الذى كان يغنى به في الأندلس . فلو أخذنا مثلا هذه القطعة للشاعر الموحدى أبو بحر صفوان بن ادريس(1) : التي قال عنها ابن سعيد أنه "كان يغنى بها في الآفاق " (2) لوجدناها في غاية الرقة :

ياحسنه ، والحسن بعض صفاته	والسحر مقصور على حركاته
بدر ، لو أن البدر قيل له اقترح	أملا ، لقال أكون من هالاته
يعطى ارتياح الحسن غُصْنٌ أملد	حمل الصباح فكان من زهراته
والخال ينقط في صحيفة خده	ما خط مسك الصدغ من نوناته (3)

فالمعروف عن الغناء أنه كان دائما مدعاة لترقيق الشعر وتهذيبه لا للحط من لغته والأسفاف بمعانيه .

ـ يبدو أن د / الكريم قد بنى حكمه هذا على النادرة التى أوردها ابن عبد ربه في كتابه " العقد " حيث ذكر ثلاثة أبيات في غاية الركاكة ، قال عنها أنه كان يغنى بها متعجبا من اقبال المغني على هذا الشعر الغث بدلا من الأشعار الحجازية الرقيقة . وتمنى لو أنه عوقب كل من ساهم في انشائها وتلحينها وغنائها و سماعها بالجلد لسخافة أذواقهم(4).

(1) هو صاحب كتاب " زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر" كان من شعراء الموحدين في عصر المنصور .
(2) ابن سعيد المغرب : ج .2. ص : 261 .
(3) المصدر السابق .
(4) الأبيات الثلاثة هي :

فهذا الكلام ان دلّ على شيء فانما يدل على أن المألوف ، لدى ابن عبد ربه ، في الشعر الذى يغنى به ، أن يكون من النوع الجيد الممتاز ، أما أن يكون من هذا النوع السخيف ، فذلك أمر شاذ ونادر. وهذا ما يبرر ثورته . أما أن يستدل به على سخافة أو ضعف كل الشعر الذى كان يغني به في الأندلس فأمر بعيد من الواقع.

ولا ننسى أن ابن عبد ربه كان يعد من أوائل الوشاحين بالأندلس ، وهذا يعني أنه ما كان ، أبدا ، ليرضى بنظمها لو كانت من الشعر الردئ ، ما دامت نظرته للشعر الذى يغنى به هي تلك التي عرفناها .

أليس من الانصاف بعد هذا أن ننظر الى هذا اللون من الشعر المستجد من زاوية أنه تطور للأغنية الشعبية الأندلسية القديمة التي كان يقتصر نظمها على اللهجات المحلية والاقليمية ، فأصبحت ، بفضل انتشار العربية ، تقال بالفصحى المبسطة ، وقد تخلصت مع مرور الزمن ، من كل رواسب العامية ، ماعدا " الخرجة " أحيانا . فيكون ذلك حينئذ ظاهرة من ظواهر الرقي لا الانحطاط .

ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نستطيع أن ننكر قيمة الموشحات الفنية ولا مدى تأثيرها في الأدب العربي بصفة عامة " ولولا عوادى الزمن التي جارت على فنها وعلى موطنه ، ولولا التقليد الجامد الذى وقفت عنده من انتقلت اليهم لكان لها أثر غير ما رأينا ، ولكانت ، بالفعل ، نقطة تحول في الشعر العربي "(1).

= فلا أنس حياتي ما عبدت الله لي ربا
وقلت لها أبيليني فقالت أفرق الدبا
ولو تعلم ما بي لم تهب دبا ولا غلبا
— ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج . 6 . ص : 77 — 78 .

(1) عباس الجراوى : موشحات مغربية : ط . دار النشر 1973 ، الدار البيضاء ص : 73 .

ونود ، قبل الشروع في دراسة بعض النصوص كنموذج لما وصل اليه هذا الفن في العهد الموحدى ، أن نقول كلمة عن تطور بناء الموشحات ، ومن هم أشهر الوشاحين الذين عرفهم هذا العهد .

— بناء الموشح :

— لاشك أن بناء الموشح قد مرّ بأطوار عديدة قبل أن يصل الى تلك الصورة الكاملة التي عرفناه عليها . وهذه سنة كل مستحدث جديد ، يبدأ أول الأمر بسيطا سهلا ، ثم لايفتأ أن تتناوله يد التشذيب والتحسين فترقى به شيئا فشيئا الى أن تبلغ به درجة الكمال ، وأحيانا تتجاوز به الحد الى درجة التعقيد .

لذا فنحن نتصور ، أن مقدم بن معافي عندما اخترع موشحاته أول الأمر ، وضعها في قوالب بسيطة غير التي نعرفها الآن ، ولا يبعد أن يكون قد نسجها على منوال الأغاني الرومنسية القديمة ، التي جاءت أساسا لتخلفها كما نعلم .

وهذا الافتراض ، في الواقع ، هو أقرب الى المنطق ، الا أن ذلك لا ينفي أن يكون بناؤها قد تطور كثيرا وتحسن بفضل الوشاحين الأوائل الذين تظافرت جهودهم على تشذيبها وتكييفها ، لتتلاءم مع كل الأذواق ، خاصة منها ، أذواق الطبقات الأرستقراطية المحافظة ، التي أبدت نوعا من النفور ، وعدم التقبل لها بصفة علانية أول الأمر ، وان لم تستطع في الواقع أن تقاوم اغراءها ، ولا ، أن تحد من انتشارها .

ويعد البناء الذى وصلتنا عليه موشحات القرن الخامس الهجرى هو أرقى ما وصلت اليه في الناحية الشكلية .

— فقد كانت تؤلف غالب على خمس فقرات ، تتركب كل فقرة من جزئين :

— يتكون الجزء الأول من مجموعة أشطار متحدة القافية تسمى "غصنا "

— ويتكون الجزء الثاني منها من شطرين أو أكثر بقافية مغايرة لقافية الأغصان ويسمى "قفلا" .

— ويسمى الجزآن معا (الغصن والقفل) لدى الوشاحين ، بيتا .

ويشترط أن يتحد الوزن في الأجزاء المتشابهة في كامل الموشحة أي أن الوزن يجب أن يكون واحدا في جميع الأغصان ، كما يجب أن تتحد الأقفال -جميعها ، بما فيها الخرجة ، على وزن واحد ، على أن يكون مغايرا للبحر الذى جاءت عليه الأغصان .

— ويشترط في الأقفال أن تتحد قافيتها في جميع الموشحة . أما الأغصان فيجب أن تتنوع قوافيها من غصن لآخر .

— هذا ويعتبر كل موشح بدئ بقفل موشحا "كاملا " . أما الذى يبدأ بغصن ، فيسمى "أقرعا " .

— ويجب أن ينظم الموشحة بالفصحى ما عدا خرجتها التي يشترط فيها أن تكون بالعامية باستثناء بعض الحالات ، حصرها ابن سناء الملك في أربعة أوجه :

1) أن تشتمل الخرجة على اسم الممدوح وهذا في موشحة المدح .
2) أن تكون ألفاظ الخرجة غزلة جدا ، هزازة ، سحارة ، خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة .
3) أن تكون مقتبسة من خرجة مشهورة لوشاح آخر .
4) أن تكون بيت شعر مضمن .

ففي هذه الحالات فقط تكون الخرجة فيها بالفصحى .

— الوشاحون :

— لم تهتم المصادر الأدبية القديمة بنقل شيء من الموشحات ، رغم اعترافها بما لاقاه هذا الفن الشعرى المستجد ، من نجاح باهر لدى مختلف الطبقات .

— فابن بسام ، رغم اقراره بأنها " تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب "[1] لا يورد لنا منها شيئا ، لأنّ " أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب "[2].

— أما الفتح بن خاقان فقد عبر عن رأيه فيها عند ترجمته لأبي القاسم المنيشي المشهور بعصى الأعمى[3]، وقد كان شاعرا ثم وشاحا ، بقوله : " ... له أدب ولسن ومذهب فيهما يستحسن لكنه نكب عن المقطع الجزل الى الغرض الفسل ، وليس من شرط كتابي هذا اثبات بذاته ولا أن أقف حذاءه ، وقد أثبت له ما هو عندي نافق . ولغرضي موافق "[4] وهو يعني بذلك موشحاته ، ولا شك .

— وقال عنها عبدالواحد المراكشي ، وهو بصدد الكلام عن ابن زهر ما يلي :

" وأما الموشحات ، خاصة، فهو الامام المقدم فيها ، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجرى كل من بعده اليها ، وهو آخر المجيدين في صناعتها . ولولا أن العادة لم تجر با يراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما يبقي على خاطري من ذلك "[5].

---

(1) ابن بسام : الذخيرة : 1/1/ 469.
(2) نفسه : 1/1 / 470.
(3) هو : أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي ، اشتهر بعصى الأعمى لأنه كان يقود الأعمى التطيلي .
(4) ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: ط . السعادة مصر ، ص: 100 . وهذا ما فهمه ايضا د / الكريم مصطفى عوض في كتابه فن التوشيح ص: 114 الا أن محمد زكريا عناني لم يوافق على هذا الفهم: انظر كتابه الموشحات الأندلسية : سلسلة عالم المعرفة الكويت 1980 — ص: 122.
(5) المراكشي : المعجب : ص: 146.

- أما ابن دحية فقد عدّ الموشحات "... زبدة الشعر، وخلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة، والضياء المشرق ". الا أنه رغم هذا الاعجاب، لم يورد منها الا موشحتين اثنتين لأبي بكر بن زهر [1].

- ولعل أول من اهتم بنقل الموشحات من الأندلسيين هو الحجاري في " المسهب " [2] ثم علي بن ابراهيم بن محمد بن عيسى ابن سعد الخير، الذي قال عنه صاحب " الذيل والتكملة " أنه ألف كتابا تناول فيه عشرين وشاحا وقد سماه " مشاهير الوشاحين بالأندلس [3].

- ثم جاء ابن سعيد فجمع طائفة لا بأس بها من الموشحات جاءت متفرقة في كتبه، خاصة منها، كتابيه : " المغرب في حلى المغرب "، و " المقتطف من أزاهر الطرف " [4] نقلها من الحجاري، ومنه نقل ابن خلدون ما أورده في مقدمته من الموشحات والأزجال .

---

(1) ابن دحية : المطرب : ص : 204 ـ 206 .

(2) اسم الكتاب بالكامل : " المسهب في غرائب المغرب " الفه الحجاري لعبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد بأطراف غرناطة . وقد تضمن هذا الكتاب قطعا من الموشحات، وهي التي نقلها ابن سعيد بعد ذلك في كتابه " المقتطف في أزاهر الطرف " .

(3) ذكر محمد زكرياء عناني في كتابه : الموشحات الأندلسية : ص 18 ـ أن اسم الكتاب هو : " نزهة الأنفس وروض التأنس في توشيح أهل الأندلس " ولكن هذا الأثر مفقود في الوقت الحاضر.
- ومن المراجع المفقودة أيضا كتاب " مدد الجيش " لعبد العزيز بن محمد القشتالي . قال الجراري عنه، أن هناك بعض الأوراق منه في المكتبة الناصرية بسلا . ذكر ذلك في كتابه : موشحات مغربية ص : 241 .

(4) نشر منه د / عبد العزيز الأهواني " الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشحات والأزجال ضمن بحث شارك به في مهرجان ابن خلدون الذي انعقد بالقاهرة سنة 1962 . انظر البحث =

واقتفى لسان الدين بن الخطيب أثر ابن سعيد في هذا الباب فألف كتابه : " جيش التوشيح " قصره على الموشحات ، وتناول فيه ما يقرب من عشرين شاعرا من أشهر الوشاحين الأندلسيين .

— ثم جاء بعده علي بن بشر الغرناطي فألف كتابا سماه " عدة الجليس ومؤنسة الوزير والرئيس " ضمّ أكثر من ثلاثمائة موشح . وقد ضاعت النسخة المخطوطة الوحيدة التي كان يمتلكها المستشرق الفرنسي " كولان " .

— وتلاه المقرى ، بعد ذلك ، فأورد في كتابه " أزهار الرياض " مجموعة لا بأس بها من الموشحات ، نقلها عن ابن خاتمة من كتابه " مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية " الذى تحدث فيه عن التوشيح وبعض الوشاحين [1] ، كما أورد بعض ذلك في " نفح الطيب " .

— ونجد بالاضافة الى هؤلاء الأندلسيين ثلة من الكتّاب المشارقة ، اهتموا ، هم الآخرون ، بنقل الموشحات نذكر من بينهم :

— ابن سناء الملك الذى يعدّ كتابه " دار الطراز " من أهم المصادر التي كتبت في هذا الباب .

— ثم صفي الدين الحلي صاحب كتاب " العاطل الحالي والمرخص الغالي " .

— وأخيرا الصفدى صاحب كتاب " توشيع التوشيح " .

الا أن هذه المراجع كلّها ، على كثرة ما أوردته من موشحات وأزجال ، لم تهتمّ بنقل ما أنتجه المغاربة الذين اشتهروا في العهد الموحدى خاصة من أمثال :

= المذكور تحت عنوان : " ابن خلدون وتاريخ فن التوشيح والزجل " في كتاب أعمال مهرجان ابن خلدون منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ص : 473 وما بعدها .

(1) الجراري : موشحات مغربية : ص : 128 .

— ابن غرلة الذى كان يعيش في عهد عبدالمؤمن بن علي ، وهو مغربي الأصل . قال عنه الحلي كان " من أكبر أشياخهم ينظم الموشح ، والزجل ، والمزنم . فيلحن في الموشح ، ويعرب في الزجل ، تقصدا منه واستهتارا ، ويقول ان القصد من الجميع ، عذوبة اللفظ ، وسهولة السبك "(1).

وقد رأى الحلي أن طريقته هذه هي التي جعلت ابن سناء الملك يحجم عن ذكره في كتابه " دار الطراز "(2) الا أنه لم يورد لنا من انتاجه الا موشحا واحدا .

— وهناك ابن خلف الذى قال عنه ابن سعيد " واشتهر ببر العدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة التي مطلعها :

يد الأصباح قدحت زند الأنوار في مجامر الزهر(3)

— وابن خزر المجاني ، صاحب الموشحة المشهورة التي يقول في مستهلها :

ثغر الزمان الموافق حياك منه بابتسام(4)

— ومحمد بن حسن القلعي المشهور بالأديب المتوفي ببجاية سنة 673(5).

— ومنهم أبو عبدالله محمد الأربسي الذى قال عنه : " كان مليح التوشيح "(6).

— وأبو عبدالله حسن بن لفكون الذى قال عنه الغبريني ، أيضا ، " وتوشيحه مستحسن "(7).

— ومنهم علي بن الزيتوني الذى قال عنه العماد " هو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد ، وتقطيع وسار شعره غناء "(8).

---

(1) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي ص : 11 —12 .

(2) المصدر السابق .

(3) ابن سعيد : المقتطف : ص : 482 — اعمال مهرجان ابن خلدون .

(4) المصدر السابق ، ص : 487 .

(5) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 72 .

(6) المصدر السابق ، ص : 387 .

(7) المصدر نفسه ، ص : 384 .

(8) العماد : الخريدة : قسم شعراء المغرب ص : 181—182 الدار التونسية للنشر 1960 .

— وابراهيم بن الهاري الذي قال عنه العماد " أيضا " انه صاحب توشيح مليح ، وربما قصّر اذا قصّد ، وأحسن اذا قطّع"(1)
— ثم ابن الياسمين الذي قال عنه ابن سعيد " أن موشحاته كان يغنى بها "(2).
— كل هذا مما يدل على تأثر المغاربة بهذا الفن ، وإعجابهم به وتفاعلهم معه ، خاصة، وأن قادتهم كانوا يطربون له أيما طرب ويهشون لما يقال به فيهم من مدائح . فقد سجل لنا التاريخ موشحات غاية في الرقة ، قيلت في مدح القادة المغاربة ، وبعض قضاتهم وأعيانهم ، من طرف أساطين التوشيح بالأندلس، منهم من اكتفى بإرسال موشحته فأجيز عنها ، ومنهم من قصد العدوة هو بنفسه ، وأقام بها ، كابن باجة ، وابن بقي ، وابن زهر ، والششتري ، وسهل ابن مالك الغرناطي وأبي زيد عبدالرحمن بن يخلفتن الذي توفي بمراكش سنة 627 هـ . وابن حزمون وغيرهم كثير ممن .

فلا شك أن هؤلاء هم أصحاب الفضل في نشر فنّ التوشيح ببلدان المغرب اذ على أيديهم تخرجت الطبقات الأولى من الوشاحين المغاربة ، الذين أوردنا أسماء بعضهم آنفا ، وقد أحرزوا على شهرة فائقة ، حسب شهادة المصادر التي ذكرتهم ، ولكن دون أن تورد لهم شيئا يذكر من انتاجهم . وهذا التنويه بهم يعني أن موشحاتهم لم تكن أقل جودة مما قاله زملاؤهم بالأندلس أو المغرب.

فعلى هذا الاعتبار ، وأمام افتقارنا للنصوص المغربية ، يمكننا أن نستدل على ما وصلت اليه الموشحات الموحدية من خلال ما وصلنا من بعض الأندلسيين في هذا العهد .

---

(1) العماد : الخريدة : قسم شعراء المغرب : ص: 181- 182 الدار التونسية للنشر 1960.
(2) ابن سعيد : الغصون : ص: 47.

ـ فأشهر وشاح عاش في البلاط الموحدى ، وسارت بموشحاته الركبان ، هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن زهر ـ الحفيد ـ الذى كان يعد اماما في هذا الفنّ بلا منازع .

فمن غزلياته المشهورة هذه الموشحة التي أوردها له كل من : المقرى في النفح[2] ، والصفدى في توشيع التوشيح[3]، وقد استهلها بطريقة عجيبة في الاغراء والحث على الأخذ بأسباب المتعة . يقول في أولها :

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أنفع
واغتنم حين أقبلا
وجه بدر تهللا
لا تقل بالهموم لا
كل ما فات وانقضا ليس بالحزن يرجع

فتلك مبررات كثير ما يلجأ اليها طلاب المتعة لاقناع أنفسهم بشرعية اللهو ، وحتمية العبّ من أطاييب الحياة .

فمادام الانسان لا يملك من أمر دنياه شيئا ، فمن الأفيد له أن يستسلم للقضاء ، ويرضى بما قدر له . فكل ما فات لا يمكن أن يسترده الحزن . فلا داعي للهمّ ، ولا مبرّر للأحزان . وليس هناك أفيد للمرء من اغتنام الفرص السانحة ، ولا أحسن له من اختلاس المتع العارضة اذا ما تجلت له في وجه كاشراقة البدر .

لا يملك القارىء لهذه الافتتاحية ـ مهما كان طبعه ـ الا أن يعترف باعجابه بها . ولكنه لا يستطيع أن يحدد بسهولة، أين يكمن سحرها بالذات ؟ ! أفي نظرتها الفلسفية للحياة ؟ أم في منطقية الحجج التي شحنت بها ؟ ، أم في سهولة ألفاظها ورقة

---

(2) المقرى : النفح : ج . 2 . ص : 251 .
(3) الصفدى : توشيع التوشيح : ص : 136ـ 137 ت . البير حبيب ـ دار الثقافة ط . الأولى 1966 .

معانيها ؟ أم في عذوبة انغامها، وانسجام موسيقاها ؟

لا شك أن توفيق الوشاح في صياغة هذا البيت جاء نتيجة لقدرته على التأليف بين كل هذه الأشياء . وعلى الرغم مما يبدو من سهولة ذلك ، الا أن هذا العمل لا يتأتى الا للفنانين الموهوبين أمثال ابن زهر .

فلئن أوصى النقاد بالاعتناء بالخرجة في الموشحة ، لما يرونه لها من أهمية عظمى ، نظرا لما تتركه في نفس القارئ . فان الافتتاحية في الواقع ، لا تقل عنها أهمية لما تخلقه في نفس السامع من استعدادات نفسية تجعله ينسجم مع بقية العمل الفني ، فبقدر توفيق الفنان في المدخل تجئ المتعة ببقية الموشحة . وهذا ما حققه ابن زهر بمقدمته هذه .

ونراه ، بعد ذلك ، يستمر في البيت الثاني في هذا الحوار الداخلي مع نفسه ، محاولا اغراءها بالأنس فيدعوها لمجلس شراب ، نديمها فيه شادن ، شجي الصوت ، ساحر البسمة ، يفتر ثغره عن ضحكة كومضة البرق ، وعن رضاب كالرحيق ، الممزوج :

واصطبح بابنة الكروم
من يدي شادن رخيم
حين يفتر عن نظيم

فيه برق قد أومضا ورحيق مشعشع

ياله من غزال أهيف القد ، افديه بنفسي ، قد جرى الحسن في اعطافه فتمايل تيها في انتشاء فقلبي مذ تولى عني في عذاب .

أنا أفديه من رشا
أهيف القد والحشا
سقي الحسن فانتشا

مذ تولى وأعرضا ففؤادي يقطع

ثم تجده يتخيل مواطن احبته ، التي أموها ، عندما فارقوه، بالحجاز ، فيذكر وادي العقيق ، ووادي الغضا بنجد لا رتباطهما بشعراء الحب والغزل الاقدمين كابن أبي ربيعة ، وجميل، وكثير، تماما كان يفعل الشعراء المغاربة كابن خفاجة ، وأبي الربيع ، في قصائدهما الغزلية اقتداء بشعراء المشرق كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل .

يقول : من لي ، أنا العاشق المستهام ، الغارق في دموعي ، بعد أن فارقني الاحبة ، ويمموا شطر وادي العقيق بنجد ، ونزلوا بذي الغضا ؟! يا أسفي عليهم يوم وداعهم لي .

من لصب غدا مشوق
ظل في دمعه غريق
حين أموا حمى العقيق
واستقلوا بذ الغضا اسفي يوم ودعوا

ثم يختم أخيرا بالتساؤل عن أصل النور الذي شيعهم يوم الرحيل عندما سار ركبهم في منتصف الليل أموسناؤهم ؟ أمكان مع الركب يوشع ابن ذي النون الذي تقول عنه الاسطورة أنه طلب من الشمس ألا تغيب يوم كان يحارب العتاة وكان يوم جمعة حتى يتمكن من القضاء عليهم لانه لا يستطيع أن يحارب يوم السبت فهو عيد اليهود :

ما ترى حين اضعنا
ويسرى الركب موهنا
واكتسى الليل بالسنا
نورهم ذا الذى أضا أم مع الركب يوشع(1)

— وقد كان المفروض أن تختم الموشحة بخرجة عامية كما هو المألوف . اذ هي الجزء الوحيد الذي يستحب فيه اللحن ،

---

(1) المصدر السابق .

ويشترط فيها ابن سناء الملك "أن تكون حجا حية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن ... فان كانت معربة الالفاظ، على منوال ما تقدمها من الأبيات والاقفال خرج الموشح من أن يكون موشحا "[1] إلا أن تكون ألفاظ الخرجة غزلة جدا، هزازة، سحارة، خلابة، بينها وبين الصبابة قرابة"[2] وذلك ما اعتمد عليه ابن زهر في خرجته هذه .

واهتمام الوشاحين بالخرجة يأتي من كونها الأساس الذي تبنى عليه الموشحة وإن كانت الأخيرة في الترتيب فهي عند ابن سناء الملك " .. ابزار الموشح، وملحه، وسكره، ومسكه، وعنبره، وهي العاقبة، وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة، بل السابقة، وإن كانت الأخيرة "[3].

والواقع أن " الخرجة " مرتبطة بما قبلها من الأغصان والأقفال، أي أن كل أجزاء الموشحة تتعاون فيما بينها لخلق الجو المناسب للخرجة لتبلغ القمة في النشوة، وليست وحدها صاحبة الفضل في ذلك .

فلو جئنا نقرأ، مثلا، خرجة ابن زهر السالفة الذكر، أو خرجته التي ختم بها موشحه المشهور : "أيها الساقي ..." والتي يقول فيها :

قد نمى حبك عندي وزكا   لا تقل في الحب أني مدعي

فلو قرأناها مجردة عما قبلها لما وجدنا فيها أية متعة تثير الاعجاب، ولكننا نحسّ بهذه المتعة حقا عندما نبدأ الموشحة من أولها أو على الأقل عندما نقرأ البيت الأخير الذي يركز عليه الوشاح عادة ويهتم به لخلق الجو المناسب للخرجة، كما نلمس ذلك في هذا البيت الأخير من موشحة ابن زهر الذي يقول فيه :

---

(1) ابن سناء الملك : دار الطراز : ص : 31 .
(2) نفسه، ص : 31 .
(3) نفسه، ص : 32 .

كبد حرى ودمع يكف
يعرف الذنب ولا يعترف
ايها المعرض عما أصف

قد نما حبك عندى وزكا   لا تقل في الحب أنى مدعي

– ولعل أحسن موشحة يمكن أن تتخذ كنموذج لما وصل اليه هذا الفن في العصر الموحدى ، هي تلك التي قالها ابن سهل الاشبيلي[1]، ثم السبتي ، بعد ذلك ، في الغزل ، وقد تفنن في نظمها ما شاءت له عبقريته ، فصاغها على الطريقة التي كان ينظم بها شعر الوصف ، في كل من الاندلس والمغرب آنذاك ، مازجا فيها وصف الطبيعة بمجالس الانس واللهو ، وما يستلزمه ، كل ذلك ، من شراب ، وغزل ، وحب ، وغناء ، كما نلمس ذلك مبثوثا في كل أجزاء الموشحة ، ونلاحظه خاصة ، في تشبيهاته وصوره التي يستقيها من أحضان الطبيعة ، كما يتجلى ذلك في قوله ، مشبها فعل دموعه في محبوبه ، بفعل السحاب اذا ما انسكبت أمطاره على الربا ، فيبيت هذا في مأتم ، لفرط حزنه ، وتظل تلك في عرس لشدة فرحها :

كلما أشكوه وجدى بسما   كالربى بالعارض المنبجس
اذ يقيم القطر فيه مأتما   وهي من بهجتها في عرس[2]

– ثم في قوله ، مشبها ثغر حبيبه المنضد الاسنان ، بزهرة الاقحوان في تنسيقها ، ونصاعتها ، وذكاء رائحتها . حتى لكأن رضابه رحيق عصرت من تلك الزهرة ، فأكسبت عيني حبيبه فتور المنتشي ، وأنالت قلبه ، هو، نشوة الثمل السكران .

---

(1) هو ابراهيم بن سهل المشهور بالاسرائيلي .كان يهوديا فأسلم ، ومدح الرسول بقصيدة طويلة .مات غريقا وهو في سن الاربعين سنة 649 هـ. انظر ترجمته لدى المقرى في النفح : ج . 3 .ص : 522 وما بعدها . انظر كذلك ابن سعيد : اختصار القدح المعلى – والرايات – والمغرب : ج . 1 . ص : 262 .

(2) مصطفى عوض : فن التوشيح : ص : 204 بيروت 1959 .

ما علمنا مثل ثغر نضده أقحوانا عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربد ه وفؤادي سكره ما أن يفيق(1)

ـ فلئن كانت هذه الصور تقليدية ، مبتذلة ، الا أن الطريقة التي تناولها بها ابن سهل ، أكسبتها طرافة وجدة ، تجلت في هذا المزج الشيق ، بين جمال الطبيعة ، ورقة الغزل ، ونشوة الخمر الذى عبر به عن كل ذلك ، في مفردات ، قليلة ، مختصرة ، زاد في جمالها ماحلاها به من محسنات لفظية ومعنوية ، وما ولده ، خاصة ، من طريقة تركيبه لها من جرس موسيقي خلاب .

ـ وتوفيق ابن سهل ، في هذه الموشحة ، لا يقتصر ، في الواقع ، على هذا الوصف المركب وحده ، ان صحّ هذا التعبير ، بل يتجلى ، أيضا ، في طريقته الخاصة التي تناول بها أفكاره ، وعرض بها صوره ، كما يظهر في أسلوبه الفذ الذى عبر به عن أحاسيسه وترجم به عن عواطفه حيث أضفى على كلا منه نوعا من المنطقية ، لا يملك السامع معها الا أن يسلم له بصحة كل ما يدعيه .

تتجلى هذه المنطقية في تظلمه الذى يشكو فيه تعسف هذا الحبيب المتجني ، الذى اقتحم عليه قلبه فحماه ، وهذا ، دون أن يدرى حتى بما فعل ، ودون أن يستطيع هوله ردا لضعفه وهوانه ، يظهر لنا ذلك في هذا القفل الذى استهل به موشحته والذى يقول فيه :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حرّ وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس(2)

وتتجلى هذه المنطقية ، خاصة ، في تبرئة نفسه مما وقع فيه من الحب فهو لا ذنب له في ذلك اطلاقا . انما الذنب كل الذنب هو لذلك الجمال الظالم الذى غزا نظره فأجبره على رؤيته :

---

(1) مصطفى عوض : فن التوشيح : ص : 204 بيروت 1959 .
(2) المصدر ق السابق .

ما للنفسي في الهوى ذنب سوى ملكم الحسن ومن عيني النظر(1)

فهو لذلك يشكو قائلا :

أيها السائل عن جرمي لديه لي جزاء الذنب وهو المذنب(2)

كما يشكو من حرمانه من جني ما غرس، مع أنه حق طبيعي لا مراء فيه :

ينبت الورد بغرسي كلما لا حظته مقلتي في الخلس
ليت شعري أى شيء حرما ذلك الورد على المغترس(3)

ثم تبلغ به الرقة والتذلل أقصاهما، فيقول، واصفا ما وصل اليه حاله من ضعف أمام جبروت ظالمه :

كلما أشكو اليه حرقي غادرتني مقلتاه دنفا
تركت الحاظه من رمقي أثر النمل على صمّ الصفا(4)

الا أن هذه الشكوى ليس معناها مطالبة الحبيب بالقصاص، ولا هي لوم له على ما أتلف. بل هو عنده عادل، وإن ظلم، انما الظالم الذى لا يغفر له هو العذول الذى يجب أن يضرب بكلامه عرض الحائط.

لا عجب أن تصل الرقة والتذلل بابن سهل الى هذا الحدّ، فقد اجتمع عليه لأنْ : ذلّ الحب وذل اليهودية، كما قيل.

ـ ثم ما الذى يستطيع فعله مادام قد أصبح لا يملك من أمره شيئا كل ما يستطيع أن يتمناه من هذا الذى غنم قلبه هو، ألا يحرمه من حقه في الغنيمة، وهو الخمس، الذى هو حق شرعي في كل الأسلاب التي تغنم. وليكن هذا الخمس هو الوصل الذى يرجوه من حبيبه ..

ولعل أحسن قفل، في هذه الموشحة، تجلت فيه عبقرية الوشاح، بالاضافة الى القفل الأخير - الخرجة - هو ذلك الذى ختم

---

(1) مصطفى عوض : فن التوشيح : ص : 204 بيروت 1959.
(2) المصدر نفسه .
(3) المصدر نفسه .
(4) المصدر السابق .

به البيت الثاني والذي يصف فيه تلك المفارقات العجيبة التي تجلت في جمال بسمة محيا حبيبه ، وفي عبوسه واعراضه الجهم ، في نفس الوقت :

فاحم اللمة معسول اللّمى   ساحر الغنج شهي اللعس
وجهه يتلو (الضحى) مبتسما   وهو من اعراضه في (عبس)[1]

وجمال هذا القفل يكمن خاصة في التورية بأسماء سور القرآن التي أحسن الشاعر استغلالها وهي "الضحى" - "عبس" .

أما الخرجة ، فقد بلغ فيها القمة ، خاصة في قوله : "اجعل الوصل مكان الخمس" مشيرا لقوله تعالى "واعلموا أن ما غنمتم من شيء ، فان لله خمسه "[2] . فجاء بها فصيحة ، لكنها "غزلة جدا ، هزازة ، سحارة ، خلابة ، بينها وبين الحب صبابة "[3] حسبما يشترطه ابن سناء الملك .

ويكفي شهادة على اشتهار هذه الموشحة ، واعجاب المغاربة والمشارقة بها ان ظلت محل تقليد من طرف أساطين التوشيح لمدة تزيد عن القرنين من الزمن . وكان على رأس هؤلاء المعجبين شيخ الوشاحين الوزير لسان الدين بن الخطيب الذى عارضها بموشحته المشهورة التي استهلها بقوله :

جادك الغيث اذ الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس[4]

وكان هذا في حدود منتصف القرن الثامن الهجري .

- وقد ذكر المقرى[5] ، أن أبا الفضل بن محمد الحقاد ، وهو أحد الشعراء المشارقة ، وفد على السلطان السعدى المنصور الذهبي[6]

---

(1) مصطفى عوض : فن التوشيح : ص: 204 بيروت 1959 .
(2) سورة الأنفال الآية رقم 41 .
(3) ابن سناء الملك : دار الطراز ص: 31 .
(4) المقري : النفح : ج . 7 . ص: 11 .
(5) المصدر السابق : ج . 7 . ص: 69 .
(6) هو أبو العباس أحمد المنصور الذهبي أعظم سلاطين السعديين انتصر على البرتغاليين في موقعة وادى المخازن سنة 986 هـ .

من مكة، فمدحه بموشح عارض به موشحين : ابن سهل، وابن الخطيب، وكان ذلك في حدود القرن العاشر الهجرى .

وذكر الافراني شارح موشحة ابن سهل في كتابه الذى سماه "المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل" أنه وقف على أزيد من 12 موشحة مما عورض به موشح ابن سهل[1].

وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على ما أدركه فنّ التوشيح من رقي وازدهار بلغ القمة في العهد الموحدى .

— ومن الوشاحين المغاربة الذين وصلتنا موشحاتهم، ابن غرلة، الذى سبقت الاشارة اليه . فقد أورد له الحلي[2] موشحته الموسومة "بالعروسة" التي تغزل فيها برملة أخت عبد المؤمن بن علي الموحدى، وقد كانت سببا في قتله لما توحي به من العلاقة المريبة التي كانت تربطه بأخت الخليفة .

وان كان الاهواني ينفي أن تكون هذه الموشحة التي أوردها الحلي هي التي كانت تسمى بالعروسة، لأنّ هذه الأخيرة، كما يقول، تتألف من أقفال ذات سبعة أجزاء، حسبما وصفها ابن سناء الملك، وهذه أقفالها أربعة أجزاء فقط[3].

ومهما يكن الأمر، فنحن مضطرون لايرادها كنموذج للموشحات المغربية الموحدية لافتقارنا للنصوص وعدم حصولنا على غيرها، وان كنا نعتقد جازمين أنها لا تمثل الصفوة الممتازة لما

= وفتح السودان، واهتم ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم، توفي سنة 1012 هـ . — التعريف لمحقق نفح الطيب د / أ. عباس ج . 7 . ص : 69 — هامش رقم (1) .

(1) نفس المصدر ص : 11 — هامش رقم (1) .

(2) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص : 11—12 ت . حسين نجار — مصر 1981 — أنظر عن ابن غرلة : عباس الجراري : القصيدة ص : 538 وما بعدها — انظر كذلك لنفس المؤلف موشحات مغربية ص: 115—118 .

(3) الاهواني عبد العزيز : الزجل في الاندلس : ص : 113 .

اتجه المغاربة في هذا الباب . وهي ،كما يظهر ، من الموشحات " المزنمة " التي كان يخلط فيها الوشاح بين الفصحى والعامية ، وهي ظاهرة غريبة شاذة ، اشتهر بها ابن غرلة ، حيث كان ،كما قال الحلي "يلحن في الموشح ، ويعرب في الزجل تقصدا منه واستهتارا " . وكان يقول : " ان القصد من الجميع عذوبة اللفظ ، وسهولة السبك "[1].

وقد اعتبر الحلي طريقته هذه هي التي زهدت ابن سناء الملك في ذكر شيء من موشحاته ، لأنه كان يعيبها . " وكان الوزير ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته "[2].

— يبدأ ابن غرلة موشحته هذه بمذهب يقول فيه :

من يصيد صيدا فليكن كما صيدى صيدى الغزالة من مراتع الأسد[3]

فنحن نلاحظ ظاهرة اللحن التي عابها عليه ابن سناء الملك في موطنين من هذا المطلع . في قوله "من يصيد " عوضا عن " من يصد " باعتبار " من " شرطية ، وفي قوله "كما صيدى " بدلا من "كصيدى" ، وهي صياغة عامية كما هو واضح . ويقول بعد هذا المطلع :

كيف لا أصول واقتنصت وحشية
ظبية تجول في ردا وسوسية
صاغها الجليل فهي شبه حورية

تنثني رويدا اذ تميس في البرد تعجن الغلالة والردا مع النهد

كيف لا أصول عجبا ، وقد اقتنصت هذه المهاة الوحشية الشاردة ، وهو يشير بذلك الى عزة محبوبته ومناعتها اذ هي من بيت ملك .

---

(1) الحلي : العاطل الحالي : ص : 11 - 12 .
(2) المصدر السابق .
(3) الجراري : موشحات مغربية ص : 147 .

فهي ظبية وان التفت في رداء وسوسية[1]، بل صاغها الله في شكل حورية ، تمشي الهوينى ، فتتثنى تيها ودلالا ، متمايلة في بردها . تبرز الغلالة والبرد الملتصقين بصدرها مفاتن نهديها " تعجن الغلالة والردا مع النهد " فبالرغم مما يشوب هذا التعبير من روح زجلية عامية ، خاصة في قوله : " تعجن " فان القارئ يجد له نكهة خاصة أضفت على الصورة التي عبّر عنها نوعا من الظلال المميزة . ولعل هذا ما دفع ابن غرلة الى مزج العامية بالفصحى ويقول في البيت الثاني :

رب ذات ليلة	زرتها وقد نامت
والرقيب في غفلة	والنجوم قد مالت
رمت منها قبلة	عند ضمها قالت

قنْ قوّ[2] وأهدأ   لاتكن متعدي   تكسر النبالا   وتفرط العقد

وكم ليلة سموت اليها في غفلة الرقيب ، بعد أن أفلت نجوم السماء ، وقد رمت تقبيلها ، فكانت تتمنع في دلال قائلة : أتركني وأهدأ ، ولا تكن متعديا ، ولا تسببت في فرط عقدي .

ثم يختتم موشحته هذه ، ببيت قيل أنه ارتجله عندما أخذ لينفذ فيه حكم الاعدام فقد ذكر الحلبي أنه " لما أخرجه الملك ليقتله نظر الى الناس وارتجل بيتا في الوزن يستنجد به عشيرته لأخذ ثاره وهو :

---

(1) قد تكون نوعا من الملبوسات الرفيعة التي كانت تنسب الى مدينة سوسة الافريقية التي اشتهرت بمنسوجاتها الرقيقة ، فقد ذكر الادريسي أن المسافرين اليها كانوا يصدرون عنها " بالمتاع الذى يعدم قرينه من أنواع الثياب والعمائم المنسوبة اليها ، وهو من جيد المتاع ونفيسه " . أنظر : " وصف افريقية الشمالية والصحراوية " المأخوذ من كتاب " نزهة المشتاق " للشريف الادريسي : ص : 93 .

(2) وردت هكذا عند الجراري[وعلق] صاحب فن التوشيح " قرقر " وقال عنها " هي فعل الأمر بمعنى اهدأ " انظر مصطفى عوض ص : 189 — والصواب هو ما أثبته وفسره الجراري بمعني — أقلني — وفي استعمال شائع حتى الآن بالجزائر . بمعنى اتركني .

خدهــا الأســيــل بــدت منــه أنــوار
طرفهــا الكحيــل سل منــه بتـــار
ما أنــا القــتـيـل فهل يــؤخذ الـثـار

قد أسرت عبــدا ولم أك بالعبد مــت لا محالة فأطلبوا دمي بعدي(1)

الا أن البيــت ، حــسبما يظهــر لنا ، لا تبدو عليه أية صفــة للارتجال ، خاصة في موقــف حــرج كذلك الذى آل اليه أمــر الوشاح . بل هو حــسبما يظهــر تــتــمــة لوصف مــفاتن حبــيبتــه التي أخذ بعدها مــنــذ مطلع الموشح ، فهو هنــا يــصــف خدهــا الأســيل المشرق الذى تــيــمــتــه به ، ويصف خاصــة طرفهــا الكحــيل الذى ســل عليــه سيــفــا ، قاطعــا ، فهو لذلك يتوقـــع أنــه مــقــتول ، لامحالــة بتــلك الــنـظــرة ، ويتــســاءل في يأس هـــــل ســيــؤخــذ بــثــاره ؟!

ثم نجــده في الــقــفــل الأخــير ، أى الخرجــة يــشكو في مرارة ما آل الــيه أمــره من العــبــوديــة والاسترقــا ق . فقــد أسـره الحــب ، واستعبدتـــه حبــيــبتــه وقد كان سيــدا حــرا ، وليــس بعد الأســـر ، بطبيعــة الحـــال ، الا الــقــتــل ، فهو لذلك يستغــيــث ضد هذا الحبــيــب الظالم الــــذى أســره ، واستعبــده ، في انــتــظــار قتــله ، ويــطالــب بأخذ ثاره حـــتى لا يذهــب دمــه هــدرا .

ونجــد هذه الخرجــة ، في نــظرنــا ، من أحسن الخرجات الغزليـــــة لاستكمالها للشروط التي اشترطهــا ابن سنــاء الملــك في الخرجة الغـــــير الملحونـــة . لذا فنحـــن نــتــصــور أن هذا البــيــت كان يكوّن جزءا مـــن موشحـــة " العروســـة " هذه مــنذ البدايــة اذ هو يمــثــل خاتمة طبيعية لهــا .

---

(1) انظــر موشحة العروسة هذه عند كل من : ابن الخطيــب : جيش التوشيح ص : وعبدالله كنون : النبوغ المغربي : ص: 1014 ومصطفى عوض: فن التوشيح ص: 189 ، والأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 112 — 113 — وع. الجراري : موشحات مغربيــة ص: 147 . وهناك رواية

وهذا لا يمنع أن يكون ابن غرلة قد استشهد به عندما سبق لتنفيذ الحكم فيه لما يوحي به من الدعوة للأخذ بالثأر ، خاصة وقد كان " ذا عشيرة " على حدّ تعبير " الحلي " . الا أننا نستبعد أن يكون ارتجله ارتجالا .

— وقصة حب ابن غرلة لرميلة أخت عبد المؤمن التي حيكت حول " موشحة العروسة " هذه على ما يشوبها من نزعة اسطورية (1)، تنم عما كان يتشبث به المغاربة من عادات عربية قديمة فيما يتعلق بالتشبيب ، اذا كان العرب ، كما هو معلوم يحرمون كل شاعر شبب بفتاة ما من الزواج بها . بل قد يصل بهم الحال أحيانا الى حدّ اهدار دم الشاعر ، اذا ما هو أفحش في الغزل أو بالغ فيه .

— هذا وقد ذكر الجراري أن لابن غرلة موشحات أخرى وردت له متناثرة في بعض المخطوطات منها هذه الموشحة التي يقول في مطلعها :

يا من حكى خده الشقائق	وماله في البها شقيق
تركتني بالدموع شارق	لما بدا خدك الشريق

ويقول في خرجتها :

بكر غدت في الدنان عاتق	ما الحر من رقها عتيق
تلوح في الكأس شبه بارق	ان مزجت صرفها بريق (2)

═ سماعية لهذا الموشح أوردها " يلس " في كتابه " الموشحات والأزجال " تختلف كثيرا عن هذه الرواية . انظرها في المرجع المذكور ج . 2 . ص : 268 .

(1) ذكر الحلي أن ابن غرلة كان حسن الصورة جميل القدر ، ذا عشيرة ، وكانت محبوبته أيضا جليلة القدر ، جميلة الخلق ، فصيحة اللسان ، وقد نظمت في حبيبها بعض الأزجال الفائقة من ذلك قولها :
مش السهر حيران حتى رأى انسان عيني وقف " — العاطل ص: 11 — 12 . مما يدل على أن القصة كانت قد اتخذت لها أبعادا اسطورية في الأوساط الشعبية . انظر مصطفى عوض : فن التوشيح : ص : 136 — انظر كذلك ع. الجراري : القصيدة : ص : 537 — 538 .

(2) الجراري : القصيدة : ص : 553 — نقلا عن كتاب " مجموع موشحات" مخطوط مكتبة آيا صوفيا .

ـ كما وردت له موشحة أخرى في كتاب "روض الأدب" للشهاب الحجازى وهي التي يقول في مطلعها :

باسم عن لآل　　باسم عن عطر
نافر كالغزال　　سافر كالبدر

أى ظبي ربيب　　لي فيه أرب
ريقه كالضريب　　واللمى كالضرب
ياله من حبيب　　باسم عن حبب

ويقول في خرجتها :

فرعه كالليالي　　فرقه كالفجر
درت بين الظلال　　والهدى لأمر

الا أن هذه الموشحة، حسبما ذكر الجرارى ، نسبت أيضا لصلاح الدين الصفدى في نسخة أخرى لنفس المخطوط، كما نسبت لأحمد بن حسن الموصلي في نسخة ثالثة، واليه ينسبها كذلك ابن تغرى بردي(1).

ـ وقد أورد الشهاب الحجازى موشحة ثالثة لابن غرلة يقول في مطلعها :

زائر بالخيال　　زايل عن قربي
باهر بالجمال　　ناهر بالعجب

ويقول في خرجتها : :

صد تيها وقال　　وهو يبغي قربي
لحظ عيني تنال　　قلت آه وا قلبي

ـ ذكر مطلع هذا الموشح كل من : مصطفى عوض : فن التوشيح ص : 137
ـ نقلا عن كتاب " روض الأدب " لأحمد الحجازى مخطوط المتحف البريطاني .
ـ وعبدالله كنون : النبوغ المغربي : ص :
(1) الجرارى : موشحات مغربية ص : 117 عن كتاب "روض الأدب " مخطوطات اسطنبول .
ـ ينسب مصطفى عوض هذه الموشحة لشهاب الدين أحمد بن الحسن بن علي الموصلي نقلا عن "روض الأدب" مخطوط المتحف البريطاني ، أنظر ص : 137 من فن التوشيح .

ـ فكل هذا التناقض الذي نلاحظه في نسبة النصوص الى أصحابها الحقيقيين، وما ينجر عنه، أحيانا، من التداخل والانتحال المقصود أوغير المقصود، جاء نتيجة لاهمال المترجمين، ومؤرخي الأدب لهذا الفنّ الذي انفوا أن يسجلوه في كتبهم المجلدة، فحتى أولائك الذين خصصوا كتبهم لدراسة الموشحات نجدهم أحيانا يضربون صفحا عن كل ماهو خارج عن القواعد التي أرسوها لهذا الفنّ، فقد لاحظ الأهواني أن ابن سناء الملك لم يورد أي ذكر لاسم ابن غرلة في كتابه دار الطراز[1]، وهذا رغم اشارته لموشحته الموسومة "بالعروسة" وانتقاده لها. وهو لم يذكر شيئا منها. كما أشرنا، لأنه كان يعيبها. أي أنها كانت في نظره، مخلة بالشروط التي وضعها للموشح.

ـ ويفسر مصطفى عوض عزوف ابن سناء الملك عن ايراد موشحة العروسة التي يتركب قفلها من سبعة أجزاء، حسب وصفه لها، كمحاولة للتخلص من عقبة ايجاد موشح أندلسي يتركب قفله من سبعة أغصان[2].

ومهما يكن من أمر، فان ما نلاحظه من هذه النتف المبتورة التي نسبت لابن غرلة، على شدة اختزالها، أن الرجل كان يتمتع بقدرة فائقة، وتمكن راسخ في هذا الفن. ولولا ما كان يحس به من طمأنينة وسمعة طيبة في الأوساط الشعبية نتيجة لخلقه وابداعه، لما تجرأ على كسر القيود التي وضعها الوشاحون قبله وليست ظاهرة التزنيم التي اشتهر بها، والتي تعد بدعة في فنّ التوشيح الا دليلا على ثقته بنفسه. والتجديد في كل فنّ لا يقوم به، عادة، الا اولائك العباقرة الموهوبون الواثقون بقدرتهم على الابداع. وابن غرلة هذا، ينتمي، في نظرنا، الى تلك الصفوة الممتازة التي لا يرهبها كسر القيود البالية مادامت مقتنعة بصحة ما تمليه عليها حاستها الفنية من ابداع وتجديد.

(1) الأهواني : الزجل في الأندلس، ص : 112 ـ حاشية رقم (2).
(2) مصطفى عوض : فن التوشيح : ص : 136.

4 ـ الموشحات الدينية :

لم تقتصر أغراض الموشحات على ميادين : الغزل ، والخمر، والمديح فحسب التي كانت تمثل التربة المثالية لنموها أول الأمر ، لكنها توسعت لتشمل أغراض الشعر الأخرى ، واتجهت خاصة ، أيام الموحدين ، نحو الميادين الدينية بكل ما تحتوى عليه من زهد ، وتصوف ، وامداح نبوية. فراحت تستقصي مواضيعها ، حتى كادت تقتصر عليها دون غيرها . وذلك كرد فعل لحياة اللهو ، والدعة والمجون ، التي انغمس فيها كل من المغرب والاندلس قبل ذلك . فاستعاض المجتمع مجالس الانس بمجالس الذكر ، واستبدل الرياض ، والخمائل بالرباطات والزوايا ، وأقبل الناس على المساجد يعمرونها عازفين عن كل ما هو دنيوى زائف .

وقد كانت لموجة التصوف التي اجتاحت العالم الاسلامي آنذاك أكبر الأثر في تعميق هذه النزعة في قلوب المغاربة ، فكثر لذلك زهادهم ومتصوفوهم والتف المريدون حولهم من كل طبقات المجتمع ، فكثرت الطرقية وانتشرت على مدى كل الامبراطورية الموحدية خاصة في أوائل القرن السابع الهجرى . فلم يجد الزهاد ، والمتصوفون أحسن وسيلة من الموشح لنشر آرائهم ودعاويهم ، فنظموا فيها الشيء الكثير ، وفرضوا على مريديهم أن يتغنوا بها في الرباطات والزوايا ، وأماكن التجمع وفي الأسواق أحيانا .(1)

---

(1) ذكر الدكتورعلى سامي النشار في مقدمة ديوان الششترى الذى حققه (ص : 9) أن ابن السبعين طلب من الششترى عندما كان تلميذا له أن يتجول في السوق مغنيا ـ بعد أن اعطاه علما ـ بهذا البيت :

بديت بذكر الحبيب وعيشي يطيب

فأطاعه ، وأكمل من عنده :

لما دار الكاس ما بين الجلاس

عنهم زال الباس

سقاهم بكأس الرضا على الله عاضى(مقدمة الديوان ص: 9ـ10) ==

ولم يكن هؤلاء الزهاد والطرقيون الذين اشتغلوا بنظم الموشح يتمتعون كلهم بمستوى أدبي راق يسمح لهم بالنظم الجيد ، ولا كانوا يعتنون بالصقل والتشذيب كما كان يفعل الوشاحون المحترفون قبلهم ، وذلك لأنّ الجماهير التي كانوا يقصدونها بانتاجهم هذا كانت تتكون أغلب طبقاته من العامة والحرفيين المحدودي الثقافة ، فنضب لذلك عود الموشحات ، نتيجة لهذا الاهمال الذي أصابها في الشكل ، حيث أصبح الوشاحون لا يتورعون أحيانا من ادماج بعض التعابير العامية في صلب الموشحة ، فبهتت ألوانها الزاهية نتيجة لتحجرها على المواضيع الدينية المتقشفة التي كانت تبلغ ، أحيانا ، حدّ التزمت المقوت .

— وزاد الطين بلة ما أصاب الأدب عامة، في هذه الآونة ، من ركود وتحجر نتيجة الجري وراء الصنعة ، واقتناص المحسنات البديعية، والسعي وراء الاغراب ، وحب التعقيد ، فاستفرغت ، لذلك الموشحات من كل قيمها الشعرية والغنائية لتصبح قوالب زخرفية، خالية من كل روح .

— الا أن الذى أثر في قيمة الموشحات ، وحط من مستواها الفني أكثر من كل شيء في نظرنا ، هو انتشار الأزجال وطغيانها في أواخر الدولة الموحدية ، خاصة، حيث تعددت ألوانها ، وكثر ناظموها لشدة اقبال الناس عليها ، حتى أصبح الوشاحون يطعمون موشحاتهم باللهجات المحلية المختلفة حسب المناطق التي ينشؤ نها فيها[1]، حتى تروق في أعين العامة وتروج بين الطبقات الشعبية التي أصبحت تستسيغ كل شيء يقال بلهجتها التي تراها أكثر مساسا بشغاف قلبها من العربية رغم احترامها لها .

= — ويقول في موطن آخر : عندما حل الششترى بطرابلس عرض عليه أهلها قضاء البلدة فأبى ، فاستحمقوه ونسبوه الى الجنون ، فمضى الرجل الى السوق وبدأ ينشد قصيدته الرائعة :

رضي المتيم في الهوى بجنونه   خلوه يفني عمره بفنونه

(الديوان ص : 10)

(1) انظر ماقاله النشار في مقدمة ديوان الششترى : ص : 18 .

— الا أن هذا التدهور الذى أصاب الموشحات، في الواقع، بدأ يستفحل خاصة مع ظهور الششترى الشاعر الوشاح، والزجال الصوفي في منتصف القرن السابع الهجرى الذى عمت أزجاله وموشحاته كل العالم الاسلامي، كما سنرى ذلك فيما يأتي، عند تعرضنا للأزجال. أما قبل ذلك فقد كانت الموشحات رغم اقتصار أغلبها على المواضيع الدينية، بقيت محافظة على رونقها ونظارة عودها، لم يطرأ عليها أدنى تغيير في الشكل، بل ولا في المضمون. اذ بقيت الموشحات الزهدية والصوفية تستعمل نفس الصور والتعابير، تصف مجالس الأنس بكل ما تحتفل به من خمر، وغناء، وحب ووصال، ولا يكاد الانسان يفرق بينها، غالبا، وبين تلك التي قيلت أساسا في المجون الا بنسبتها الى أصحابها.

فلو أخذنا، مثلا، هذه الموشحة المزنمة[1] التي تنسب لأبي مدين شعيب الزاهد الصوفي لما فهمنا من معناها الظاهرى أكثر من كونها قيلت في وصف مجلس شراب. فهو يقول فيها:

دارت علينا كؤوس في خمرة البالي ولا تطيب النفوس الا بأمثالي

دارت علينا كؤوس في حضرة المحبوب
وأهل المعاني جلوس ومن دخل يشروب
ولا تطيب النفوس الا لمن يقرب

بحر المعاني تغوص هذا هو حالي ولا تطيب النفوس الا بأمثالي

سقوني سادتي خمرا لها ألوان
لتقتضى حاجتي وحوائج الاخوان
ومن حضر حضرتي يظهر له البرهان

أشرقت علينا الشمس في الوقت والحال ولا تطيب النفوس الا بأمثالي

---

(1) صنفها عبدالحميد حاجيات، محقق، كتاب "الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان" (ص: 25) في مجموعة الأزجال اعتبارا للطريقة الملحونة التي كتبت بها، وأوردها كل من: جلول يلس وامقران الحفناوى في كتابهما "الموشحات والأزجال": ج. 1. ص: 160 مكتوبة بالفصحى المخلوطة بالعامية لذلك قدرنا أنها من الموشحات المزنمة.

من خمر أهل التقى　　اسقوني يا ناس
محفوفة بالبقا　　ممزوجة في الكأس
منها شرب وارتقا　　الشيخ أبو العباس
ماهي بثمن الفلوس وقدرها غالي　　ولا تطيب النفوس الا بأمثالي

فلولا ما أشار اليه الوشاح في البيت الثالث من " خمر التقى " وغيرها من بعض المعاني الدينية الأخرى لما فهمنا أن الموشحة قيلت في التصوف وهي في عمومها ، كما هو ظاهر ، لا تختلف عن الموشحات الأخرى في شيء اللهم الا فيما يلاحظه القارئ من تكرار اللازمة الأخيرة من القفل في كل بيت ، وهي ظاهرة نجدها ، خاصة في هذه الموشحات الدينية التي وضعت أساسا للانشاد الجماعي في الحضرة أو الزاوية .

وهناك من الموشحات الصوفية ما كان ذا أصباغ طبيعية ، استعان فيها مؤلفوها بمناظر الطبيعة ، وألوانها ، وانغامها ، اعتمدوا فيها على التعابير الوصفية الشفافة لتصوير ما يلاقونه من لذة وهيام في حبّ الذات الالهية عند بلوغهم مراحل التجلي ، ولحظات الاشراق .

الا أن الأغلبية الساحقة منهم كانوا يؤثرون الاستتار وراء نزعة الحب والغزل لما يجدون في هذه النزعة من مرونة لتصوير لواعجهم وترجمة اشواقهم اضافة الى أن الغزل هو الصق الأغراض الشعرية بالغناء ، حيث أن كل هذه الموشحات الدينية انما كانت توضع أساسا للانشاد الجماعي المرفوق أحيانا ببعض الآلات الموسيقية .(1)

---

(1) ذكر علي سامي النشار في مقدمة ديوان الششترى (ص : 10) أن هذا الأخير "كان يتجول في الأسواق ينظم الموشحات والأزجال وبيده آلة موسيقية يعزف عليها " .
— وقال ابن عباد الرندى في تقييم أزجال الششترى " أما أزجال الششترى ففيها حلاوة ، وعليها طلاوة . وأما قطعات الششترى وأزجاله فلي فيها شهوة ، واليها اشتياق . وأما تحليتها =

فمن الأمثلة على ذلك هذا الموشح ذو النزعة الغزلية الذى قاله الششترى في التصوف :

كلما قلت بقربي تنطفي نيران قلبي
زادني الوصل لهيبا هكذا حال المحب
لا بوصلي أتسلى لا ولا بالهجر انسى
ليس للعشق دواء فاحتسب عقلا ونفسا
انني اسلمت أمري في الهوى معنى وحسّا

ما بقى الا التفاني حبذا في الحب نحبي
انني بالموت راض هكذا حال المحب

يا حبيبي بحياتك بحياتك يا حبيبي
رقّ لي وانظر لحالي أنت أدرى بالذى بي
أنت دائي ودوائي فتلطف يا طبيبي
ان يكن يرضيك قتلي فاجعل القتل بقربي
انني بالوصل أفنى هكذا حال المحب (1) ...

وتمتاز هذه الموشحات الصوفية غالبا بخفة أوزانها، ورشاقة أنغامها وبساطة أسلوبها باعتبار الجمهور الذى تتوجه اليه، حيث أن أغلبه يتكون من أشباه الأميين، وأنصاف المثقفين، الذين لا يرتقى ذوقهم الأدبي الى مستوى النقد والتمحيص، فكان ذلك من أكبر دواعي هبوط المستوى الفني للموشحات، كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل. ولا شك أن هذا كان من جملة الدواعي التي أجبرت بعض الوشاحين على تزنيم موشحاتهم حتى تلقى بعض الرواج في الأوساط الشعبية، الأمر الذى ساعد على أضعاف لغة الموشحات أكثر فأكثر. ولم يقتصر هذا التدهور على اللغة فحسب، بل مسّ بحورها وأوزانها حيث كثيرا ما نجد بعض التفاعيل تحرّف وفقا للألفاظ العامية والتعابير الملحونة التي كانت تطعم بها فتسبب خللا في الوزن.

= بالنغم والصوت الحسن فلا تسل. فان قدرتم أن تقيدوا منها ما وجد تموه فافعلوا ذلك (مقدمة ديوان الششترى) ص : 4 — عن ابن عباد الرندى : الرسائل والمسائل : ج. 1. ص : 67.

(1) الششتري : الديوان : ص : 360 — 361 — ط. الأولى دار نشر الثقافة الاسكندرية 1960.

الا أن الألحان التي كانت تؤدى بها كانت تغطي على كل هذه العيوب، فلا تكاد تظهر الا اذا قرئت الموشحة دون لحن . بل كثيرا ماكان المنشدون أنفسهم يستبدلون بعض الكلمات أو يدخلون بعض الزوائد، كحركات المدّ، والتنوين التي كانت تستدعيها بعض التراجيع والألحان، فيشوهون بذلك النصّ الأصلي دون قصد، وكثيرا ماكانوا يعوضون الكلمة الفصيحة التي يقصرون عن ادراك معناها بكلمات عامية . ولعلّ هذا ما يفسر ورود كثير من الموشحات بروايات مختلفة حيث ترد في بعض الكتب فصيحة وترد في البعض الآخر ملحونة أو مزنمة .

وهكذا وصل الموشح، في هذه الآونة الأخيرة من العهد الموحدى، الى أقصى ما وصل اليه من الاسفاف، نتيجة الترنم، من جهة، ونتيجة تحجره على المواضيع الدينية، من جهة أخرى، حيث اتخذه الطرقيون كوسيلة لنشر آرائهم ومذاهبهم المختلفة .

وعندما انتشرت الأزجال، وكثر اقبال الناس عليها، طغت هذه الأخيرة على الموشحات، وكادت تستقل بكل ميادين النظم، فكان ذلك من أقوى الأسباب التي ساعدت على تقلص هذا اللون من الأدب لمدة طويلة قبل أن يعود لبعض ماكان عليه من الازدهار على يد لسان الدين بن الخطيب وأضرابه من الوشاحين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين .

— ب — نشأة الأزجال وتطورها :

الزجل لغة، كما ورد في لسان العرب، هو "رفع الصوت، وخص به التطريب"[1]. أما عند الأدباء فهو يطلق على أرقى أنواع الشعر العامي*، ويرى الجراري أن انتقال كلمة الزجل من المعنى اللغوي الى المعنى الاصطلاحي انما جاء مع ظهور هذا الفن على يد ابن قزمان[2].

أما الأهواني فيرى أن الكلمة استعملت قبل ذلك بكثير، فهو يقول : "ولعل لفظ الزجل كان في الأصل يطلق على النوع الشعبي. ثم أطلق على النوع الشبيه بالتوشيح لفظ (هزل) ثم اختلط اللفظان فيما بعد"[3]. ثم يورد نصاً يفهم منه أن الزجل كان معروفاً قبل وفاة ابن قزمان بما يقرب من قرن[4].

— وذكر الحلي أن سبب تسمية هذا الفن بالزجل، لأن هذا اللون من الشعر، "لا يلتذ به وتفهم مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه، حتى يغنى به ويصوت، فيزول اللبس بذلك"[5].

---

(1) لسان العرب : مادة : زجل .

(*) يعد صفي الدين الحلي "الزجل أحد الفنون الأربعة التي لحنها اعرابها وخطأ نحوها صوابها . وهي : الزجل، والكان وكان، والقوما، ثم المواليا الذي يحتمل الاعراب..." الا أنه يعد الزجل أرفعها رتبة وأشرفها نسبة، وأكثرها أوزانا وأرجحها ميزانا ..."

— انظر العاطل الحالي ص: 1 — 3.

(2) الجراري : القصيدة : ص: 49.

(3) الأهواني : الزجل : ص: 59.

(4) المصدر السابق .

(5) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص: 6 .

وهذا ولاشك لا رتباطه الوثيق بالغناء ، وذكر أن مخترعيه قد قسموه الى أربعة أقسام " يفرق بينها بمضمونها المفهوم لا بالأوزان واللزوم . فسموا ما تضمن الغزل والنسيب والخمري والزهري (نسبة للزهر) زجلا ، وما تضمن الهزل والخلاعة والأحماض بلأيقنا . وما تضمن الهجاء والثلب قرقيا ، وما تضمن المواعظ والحكمة مكفرا "(1)

وقد أجمع المؤرخون أن الأزجال هي من الفنون الأدبية التي استحدثت بالأندلس للغناء . الا أنهم اختلفوا في تحديد تاريخ نشأتها نظرا لضياع كل ما قيل منها قبل القرن الرابع الهجرى . وقد أهملت المصادر القديمة الحديث عن الزجل رغم شيوعه . ولم تتعرض لذكره الا بعد أن أطبقت شهرته كل أنحاء المغرب والأندلس .

فأول كاتب حدثنا عن نشأة هذا اللون من الأدب الشعبي ، هو ابن سعيد في كتابه " المقتطف من أزاهر الطرف " حيث قال عنها : " قيلت بالأندلس قبل أبي بكر بن قزمان ، ولكن لم تظهر حلاها ، ولا انسكبت معانيها . ولا اشتهرت رشاقتها الا في زمانه وكان زمن الملثمين "(2).

ثم جاء ابن خلدون ، بعد ذلك ، فردد كلام ابن سعيد الآنف الذكر وزاد عليه موضحا رأيه في أصل نشأة الأزجال ، قائلا : " ولما شاع فن التوشيح ، في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور ، لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل

---

(1) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص : 6 .

(2) ابن سعيد : المقتطف في أزاهر الطرف — حقق منه الأهواني — الخميلة الثانية عشرة — وشرحها في كتاب " أعمال مهرجان ابن خلدون — انظر : ص : 477 .
— وانظر مقاله عنه في مجلة الأندلس ، مجلد 13 ، ص : 19— 39 ، سنة 1948 .

الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيها اعرابا. واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاؤا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لغتهم المستعجمة "(1).

فهذا معناه — في نظر ابن خلدون — أن الأزجال متولدة عن الموشحات، مقتفية آثارها. وهي لم تنشأ الا بعد أن اشتهر الموشح، وأعجب به العامة. الا أن بعض البحوث الحديثة التي ألفت حول موضوع الزجل تبين عكس ما ذهب اليه هذا الرأي.

يرى خليان ريبرا أن الازدواج اللغوى الذى انتشر في الأندلس بعد الفتح الاسلامي كان سببا في نشأة ما كان يسمى بالأدب الذى تطور فيما بعد وتجلى لنا في صورتين: سميت احداهما بالموشحات، والأخرى بالأزجال.(2)

أى أن الزجل والموشح — في نظر ريبرا — مشتقان من أصل واحد هو: الفن الشعبي القديم، الذى كان يقال باللهجة المحلية، ثم تطور بعد ذلك، فأصبح بعضه يقال باللهجة العامية، ويسمى بالزجل، وبعضه يقال بالفصحى ويسمى بالموشح. وقد اكتشف ريبرا، بفضل أبحاثه المتعدده في هذا الميدان، ثروة كبيرة من الأزجال التى ترجع الى ما قبل ابن قزمان بكثير، كما عثر على زجالين كانوا غير معروفين قبله، عدّ من أقدمهم، سعيد بن عبد ربه المتوفي سنة 341(3) وهو ابن عم صاحب "العقد". وأبا يوسف

(1) ابن خلدون: المقدمة: ص: 1153.
(2) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي: ص: 142 — 143.
(3) ترجم له ابن سعيد: في المغرب: ج.1. ص: 120 — 121 — وذكر أنه ابن أخ ابن عبد ربه صاحب "العقد" لا ابن عمه.

هارون الرمادى الذى قال عنه أنه اجتهد في تجويد الأزجال، كما أدخل تحسينات لا تنكر على الموشحات[1].

أما الدكتور الأهواني، فهو، وإن كان يشارك ريبيرا في ردّ الفنّين : الزجل والموشح، الى أصل واحد، وهو الأغنية الشعبية، غير أنه يرى أن "القول باقتفاء الزجل آثار الموشحات، أقرب الى الاثبات والترجيح من القول بأن الزجل هو الذى ظهر أولا، ثم تبعه التوشيح"[2].

فهو يرى، أن الزجل ظهر في الوقت الذى أخذ فيه التوشيح يتجه الى التعقيد والتكلف، ويبتعد عن البساطة الأولى "[3] ويحدّد هذه الفترة التي ظهر فيها الزجل بأواخر القرن الرابع الهجرى[4]. أى بعد نشأة الموشحات بحوالي قرن من الزمن.

الا أننا نجده يقول في موضع آخر : "ان الزجل كان ارتدادا الى المصدر الشعبي الأول حين ابتعد التوشيح عنه"[5]. وهذا يعني — حسب مفهومنا — أن الزجل، في صورته التي وصل الينا هو نفس الأغنية الشعبية القديمة التي كانت تقال بالعامية العربية أو العامية الأعجمية، وكلما طرأ عليها هو تغيير في الاسم حيث أصبحت تسمى "الزجل" عوضا عن الأغنية الشعبية. وهذا بعد أن حاول بعض أساطين هذا الفن، الأوائل، أن يخلصوها من بعض الشوائب التي علقت بها، ويحرروها من التبعية التي كانت تربطها بالموشحات.

ونحن نميل الى هذا المفهوم الثاني أكثر، لأن منطق الأشياء يؤيد صحته.

---

(1) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي : ص : 142 — 143.
(2) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 2.
(3) المرجع السابق ص : 52.
(4) المرجع السابق.
(5) المرجع السابق، ص : 6.

فاذا مارجعنا للنص الذى أورده ابن بسام في الذخيرة عن كيفية تأليف الموشحات، الذى اعتمده الأهواني نفسه، في تحليله لنشأة هذا الفن، نجده يقول: "ان الوشاح يأخذ اللفظ العامي أو العجمي فيسميه المركز، أي القفل أو الخرجة، ويضع عليه الموشحة"[1]. وهذا معناه، حسب تفسير الأهواني نفسه، أن القفل مستعار من أغنية شعبية سابقة[2]، لأننا كما يقول "نفهم مدلول المركز العامي على أنه جزء — لعله المطلع، أو الختام، أو اللازمة — من أغنية سابقة أعجب بها الوشاح فوضع موشحته على وزنها واحتفظ بجزء منها في ختام موشحته ليستدل بها على تلحين الموشحة"[3].

فالخرجة وان كانت الأخيرة في الترتيب الا أنها القاعدة التي تبنى عليها الموشحة، لأنها كما يقول، ابن سناء الملك، "يعملها من ينظم الموشحة في الأول، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية"[4] وهذا يعني بعبارة أوضح أن الأغنية الشعبية هي أصل الموشحات التي تطورت عنها فأصبحت تقال بالعربية الفصحى. أما الأزجال فهي نفس الأغنية الشعبية القديمة التي كانت تقال بالعامتين، وانما بعثت في ثوب جديد وتسمية حديثة، وهذا مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري، وان لم تشتهر الاشتهار الكامل إلا على يد ابن قزمان حسبما نقله ابن سعيد في المقتطف.

وقد استشف الأهواني من كلام ابن قزمان الذى ساقه عن الزجالين الذين سبقوه ومن نقده اللاذع لهم لما كانوا يدخلونه من

---

(1) ابن بسام: الذخيرة: 469/1/1.

(2) الأغنية الشعبية القديمة كانت تقال في اللغتين: العامية الأعجمية، والعامية العربية — انظر ذلك عند د/ الاهواني: الزجل في الأندلس ص: 2—3.

(3) الأهواني: الزجل في الأندلس: ص: 5.

(4) ابن سناء الملك: دار الطراز: ص: 32.

الاعراب على أزجالهم أن الزجل عندما تولد عن الأغنية الشعبية مع الموشحة أول الأمر لم يستطع أن يبتعد عن شقيقته هذه التي تقال بالفصحى ، فسار في ظلها متأثرا بلغتها لأنّ الزجالين الأوائل "كانوا من المثقفين الذين أرادوا لفنهم أن ينتشر بين طبقات من الخاصة"(1) ، فكان لهذا التزنيم الذى أصاب الأزجال في أول عهدها أكبر الأثر في كسادها وخمولها ، لأنّ الأسبقية كانت ، كما يقول د.الأهواني ، للشعر الفصيح والموشحات العربية ، "فلم يكن للأزجال ولكل ماهو ملحون مكان كبير عندهم "(2).

ويرى "أن هذا الموقف قد تغير تماما حين سقط ملوك الطوائف وسيطر على الأندلس حكام من المرابطين الذين لا يتقنون العربية ، ولا يجد الشعراء المجيدون لديهم من المكانة ماكان يجد اسلافهم عند ملوك الطوائف ، فازدهر حينذاك ، الزجل ، والتمس أصحابه لأنفسهم سوقا ينفق فيه فنهم"(3).

— وهذا يعني ، بوضوح ، ربط ازدهار الأزجال بتقلص العربية في الأوساط الأندلسية ، خاصة منها الرسمية ، وانتشار العامية بها ، في العهد المرابطي .

— ونحن ، وان كنا نوافق د / الأهواني فيما ذهب اليه من ردّ كساد الأزجال في أول أمرها الى تغلب الشعر الفصيح والموشحات العربية عليها ، فاننا لا نستطيع أن نجاريه أبدا في نظريته هذه التي تربط ازدهار الأزجال بعد ذلك بتقلص العربية وانتشارالعامية ، وهذا لسبب بسيط ، وهوأنه لوسلمنا جدلا ببعد القادة المرابطين الذين أقاموا بالأندلس ، عن تذوق الشعر العربي لفرط بربريتهم ، فان هذا لا يعني أنهم كانوا قادرين على تذوق الأزجال الأندلسية ، لأنّ هذا اللون من الشعر ، كما هو واضح ، كان ينظم بالعامية الأندلسية الممزوجة بالأعجمية وهي أبعد ما تكون عن البربرية المرابطية .

(1) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 55 .
(2) المرجع السابق .
(3) المرجع السابق .

على أن التاريخ اثبت عكس هذا تماما ، خاصة بالنسبة للأمراء المرابطين الذين اسندت لهم مناصب الحكم بالأندلس .

ثم ان الازدهار الحقيقي للأزجال ، انما جاء في الواقع ، في العهد الموحدي ، وهو العهد الذى بلغت فيه العربية في كل من الأندلس والمغرب أعلى مستواها . أما اللون الأدبي الذى كان له انتشار كبير الى جانب الشعر الفصيح في العهد المرابطي فهو الموشحات العربية .

فما أثاره بعض الباحثين حول سبب نشأة الموشحات بالأندلس ثم انتشار الأزجال بها ، وما ساقوه من تفسيرات تربط ظهور هذا اللون من الأدب بضعف اللغة العربية وانكماشها بسبب تغلب العامية عليها ، ليس في حقيقة الأمر الا اصداء لما ردّده بعض المستشرقين من انتقادات ضد الحكام الأفارقة الذين استولوا على شبه الجزيرة الأندلسية في العهد المرابطي .

فالكساد الذى أصاب الأزجال عند تطورها عن الاغنية الشعبية ، في نظرنا ، لا يرجع الى عامل اللغة بقدر ما يرجع الى عدم تبني الأوساط المثقفة لها أول الأمر ، والاعتراف بها كفنّ من الفنون الأدبية الرسمية . وتلك سنة كل مستحدث جديد ، دخل ميدانا لم يألفه الناس فيه . فهو لابدّ أن يتعرض لأنواع من الضغوط والمحاربة خاصة من الأوساط التي ينتمي اليها باعتباره بدعة .

ومما يقوى رأينا في الموضوع ما تعرضت له الموشحات عند أول شأنها حيث قوبلت بنفس النفور والمعارضة ، ولم تستطع أن تثبت وجودها الى جانب بقية الفنون الأدبية الأخرى الا بعد أن تبناها الأدباء والمثقفون وأطمأنّ اليها الناس وألفوها .

فانكماش الأزجال ، اذاً ، قبل مجيء المرابطين لا يمكن بأية حال أن يتخذ كمقياس لعدم انتشار العامية ، كما لا يمكن أن يفسر انتشارها

بعد ذلك بتقلص العربية . فقد عاشت الموشحات والأزجال رغم اختلاف لغتيهما جنبا الى جنب مدة طويلة ، مع تفاوت في الانتشار طبعا وهذا دون أن يطغى أحد الفنين على الآخر لأنهما في الواقع كانا يخدمان هدفا واحدا ، وهو ميدان الغناء الذي اتسعت رقعته حتى عمت جميع الطبقات .

2 — أشهر الزجالين في العهد الموحدى :

لم نستطع أن نكوّن فكرة عن الزجالين الذين سبقوا ابن قزمان ، على كثرتهم ، وهذا لاهمال المصادر القديمة لهم ولتراثهم . فقد رأينا ، من قبل ، كيف أنف الكتاب القدماء من رواية الموشحات العربية في كتبهم " المجلدة المخلدة " رغم صلة الرحم القوية التي تشدها الى بقية الأجناس الأدبية الأخرى ، خاصة منها الشعر . فلا يمكن والحالة هذه أن ننتظر من هؤلاء الكتاب الذين كانوا ينظرون شزرا الى الموشحات ، رغم عروبتها أن تلين عريكتهم فينظروا بعين الرضا الى الأزجال التي كانت تقال بلغة شعبية عامية بعيدة كل البعد عن الأوساط الأرستقراطية الرسمية ، التي كانوا ينتمون اليها .

فلولا ما ذكره ابن قزمان عن هذا اللون من الأدب ، في مقدمة ديوانه وهو بصدد نقد بعض الزجالين الذين سبقوه لما عرفنا شيئا عن هذا الفن قبل أن يكمل تطوره وتتضح معالمه وفق القواعد التي وضعت له مع بداية القرن السادس .

— فمن أشهر هؤلاء الذين أشار اليهم ابن قزمان الأخطل ، بن نمارة الذي عده إمام هذا الفنّ قبله ، واعترف له بقصب السبق فيه وإن عده أقل موهبة منه ، حيث قال : " .. ولم أر أسلس طبعا ، وأخصب ربعا ، ومن حجوا اليه ، وطافوا به سبعا ،

أحق بالرئاسة في ذلك والامارة ، من الشيخ أخطل بن نمارة . فانه نهج الطريق وطرّق فأحسن التطريق ، وجاء بالمعنى المضيء والغرض الشريق . طبع سيال ومعان لا يصحبه به جهل الجهال . يتصرف بأقسامه وقوافيه تصرف البازي بخوافيه . . . " الى أن يقول : " لوعاش ابن نمارة وأحضرنا وأياه سلطان . . . لخار ، ولعلم أن لنا قصب السبق . . . "[1].

— ويرى صفي الدين الحلي أن إمام الزجالين قبل ابن قزمان هو يخلف بن راشد الذى يعده من بين مخترعي الأزجال .

وابن راشد هذا يعدّ الزجال الوحيد الذى وصلنا شيء من انتاجه ، ونحن نذكر له هذا المقطع من احدى زجلياته كنموذج للأزجال القديمة التي قيلت قبل القرن السادس الهجرى :

كلّ من يعيب حبي أيش يفيدو ؟
ذهمّ ليش يلوم ؟ كذاك نريدو

كل من يعيب حبي لش نسمع لو
ونداري من نهوى ونخضع لو
العز فيه يجعلني ترا ب للعلو
بدّ للغلام ميمون يخضع لسيدو[2]

وقد لاحظ د / الأهواني أن هذا النموذج يعتبر من أبسط أنواع الزجل من ناحية تأليفه العروضي بالمقارنة للأزجال التي جاءت فيما بعد متأثرة بموشحات القرن الخامس وما بعده ، حيث أصبحت تكثر فيها الفقرات وتتعدد القوافي وتزدحم[3]. أما هذه القصيدة الزجلية التي بين أيدينا فقد جاء مطلعها مؤلف من فقرتين على قافية واحدة ، وكانت أغصانها تتألف من ثلاث فقرات متحدة القافية ، أما أقفالها فتتألف من شطر واحد فقط .

---

(1) مقدمة ديوان ابن قزمان : نشر نيكل ص : 8 ومابعدها .
(2) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 56 .
(3) الأهواني : الأزجال : ص : 57 .

وهذا النوع البسيط ، كما يقول د / الأهواني ، له نظائر كثيرة في أزجال ابن قزمان ، الا أننا لا نجد له نظائر في الموشحات ، مما يحمل على الاعتقاد أن يكون " هذا النوع البسيط ، هو الزجل القديم الذي ظلّ متصلا بالأصل الشعبي الأول ، أي الأغاني ، وأنه ظل موجودا في البيئة الأندلسية ، بين العامة وأهل البوادي ، ينظمون فيه أشعارهم ، ويغنون فيه على البوق "[1].

وقد بقي هذا النوع من الأزجال الى ما بعد عصر ابن قزمان ، حيث نجد ابن سعيد يورد شيئا منها في كتابه المغرب ليحيى بن عبدالله البحصي ، وهو من رجال القرن السابع ، ويقول عنها أنها " على طريقة البداة التي يغنون بها على البوق "[2]. الا أن هذا النوع من الأزجال البدائية ، البدوية التي يستدل بها على الأزجال الشعبية القديمة قد ضاع معظمها ، ولم يصلنا منها الا النزر القليل ، وهذا لاهمال الكتاب الأوائل لها . ولم يبدأ الاهتمام حقيقة ، بالأزجال الا بعد أن تعاطاها بعض المثقفين ، وبعد أن اهتم بنظمها ، خاصة الشعراء ، والوشاحون .

ـ هذا كل ما نستطيع قوله عن الأزجال والزجالين الأوائل الذين عاشوا قبل القرن السادس ، وان كنا نقدر ، حسبما يستخلص من كلام ابن قزمان في مقدمة ديوانه ، أنهم كانوا مجموعة لا بأس بها ، فهو ، وان لم يذكرهم بالاسم ، ولم يشر الا لقلة قليلة منهم ، الا أن إلحاحه في نقده لهم ، وتحامله عليهم بتلك الصورة يحملنا على الاعتقاد أنهم كانوا قوة لا يستهان بها ، وانهم كانوا يتمتعون بشهرة فائقة لما خلفوه من انتاج في الأوساط الشعبية والرسمية معا ، والا لما تجشم كل هذا العناء في اقناع الناس بعدم كفاءتهم وتحذيرهم من الاغترار بهم . فهو يقول عنهم : " ولقد كنت أرى الناس يلهجون ،

---

(1) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 58 .
(2) ابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ص : 172 .

بالمتقدمين ، ويعظمون أولائك المقدمون ، ويجعلونهم في السماك الأعزل ، ويرون لهم المرتبة العليا ، والمقدار الأجزل ، وهم لا يعرفون الطريق ، ويذرون القبلة ، ويمشون في التغريب والتشريق . يأتون بمعان باردة ، وأغراض شاردة ، وألفاظ شياطينها غير ماردة "(1).

- ولا شك أن أقدم زجال وصلنا انتاجه مجموعا هو ابن قزمان الذي يعدّ ، بحق إمام هذا الفنّ دون منازع . وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في العهدين المرابطي والموحدي ، فهو ، وان لم يحظ بما يستحقه من عناية من طرف المترجمين الذين عاصروه ، الا أن مااستخلصه د / الأهواني عن حياته من خلال ديوانه ، كان كافيا لأنْ يعطينا صورة واضحة عن كل جوانبه الثقافية والفنية(2).

فقد بدأ أول حياته شاعرا ، حسبما نقله ابن سعيد عن الحجّاري ، الا أنه عندما أدرك قصوره عن مجاراة فطاحل الشعراء في عصره كابن خفاجة ، وغيره تحول لنظم الزجل فأصبح فيه إماما(3).

وابن قزمان هو الذى قنّن للأزجال ، وسنّ لها طرقها المميزة التي سارت عليها بعد ذلك . كما حاول تخليصها من التبعية المطلقة التي كانت تربطها بالموشحات حيث كانت متأثرة بها ، ليس فقط في تآليفها العروضية ، ولكن أيضا في أساليبها التعبيرية ، وكثير من ألفاظها اللغوية لدرجة يحار معها الباحث ، أحيانا ، في أصل بعض القصائد ، فلا يدرى هل هي من الموشحات أم هي

---

(1) الديوان : ص : 8 . عن الأهواني : الزجل ص : 52 .
(2) أنظر ذلك عند د / الأهواني : الأزجال في الأندلس من ص : 70 الى 105 .
(3) المرجع السابق ، ص : 68 .

من الأزجال ، لفرط ما أصابها من ترنيم . اذ يبدو أن الأزجال عندما تطورت أول أمرها عن الأغنية الشعبية على يد الأدباء والمثقفين ، كانت تخلط بين اللغتين : العربية والعامية ، لأن أغلب ناظميها ، على ذلك العهد ، كانوا شعراء ووشاحين ، فلم يستطيعوا أن ينتصلوا تماما من أساليب اللغة العربية التي ألفوا النظم بها ، فجاءت أزجالهم على ذلك النحو . أو أنهم ، كما لاحظ د / الأهواني ، كانوا يفعلون ذلك عمدا حتى يضمنوا لفنهم هذا شيئا من الانتشار بين طبقات من الخاصة التي كان يستهويها الشعر الفصيح ، والموشحات العربية ، اذ العصر كان عصر تشبه بالعهود الزاهية للشعر العربي(1) .

وسواء كان الأمر هذا أو ذاك ، فان الأزجال حسب أقوال المتخصصين لم تنطلق من عقالها ، وتنتشر ذلك الانتشار الواسع الا عندما حررت مما كان يثقلها من الاعراب وعادت الى بساطتها الأولى ، وخفتها التي كانت عليها من قبل . وذلك بفضل الحملة النقدية التي قادها ، ابن قزمان ضد أولائك الذين لم يستطيعوا أن يتخلصوا من الأساليب العربية في نظم أزجالهم . وقد عدّ ذلك من أكبر العيوب حيث قال : " والاعراب هو أقبح ما يكون في الزجل ، وأثقل من اقبال الأجل "(2) . وقال أيضا : " وليس اللحن في الكلام المعرب القصيد والموشح بأقبح من الاعراب في الزجل "(3) .

الا أن لغة الأزجال ، رغم ذلك ، حسبما يبدو ، لم تستطع أن تتخلص نهائيا مما كان يشوبها من الألفاظ العربية ، حيث نجد ابن قزمان نفسه كثيرا ما كان يلجأ لاستعمالها(4) وهذا رغم ما ادعاه

---

(1) الأهواني : الزجل في الأندلس ، ص : 55 .
(2) ابن قزمان : مقدمة الديوان ص : 8 . نشر نيكل . عن الأهواني : الزجل ص : 52 .
(3) المرجع السابق : عن الأهواني : الزجل ص : 63 .
(4) الأهواني : الأزجال : ص : 58 .

في مقدمة ديوانه من كونه " قد جرد ازجاله من الاعراب تجريد السيف من القراب "(1) . لذا فان النظرية التي تربط انتشار الأزجال وشيوعها بتحرر لغتها من الاعراب نظرية واهمة . لأن الأزجال ، في واقع الأمر ، بقيت دائما مشوبة ببعض التعابير الفصيحة التي أصبحت تعد حقا شائعا بين اللغتين العامية والفصحى وهذا رغم القوانين الصارمة التي سنها ابن قزمان ضدّها .

ولا شك أن هذا الأخير قد عمل الكثير للتخفيف منها الا أنه لم يكن يرمي الى القضاء عليها نهائيا ، لأن ذلك غير ممكن . فالذى كان يعيبه ابن قزمان في الواقع على بعض معاصريه هو ادعاؤهم القدرة على نظم الأزجال وهم عاجزون على التعبير بطلاقة عن مشاعرهم بلغتها الأساسية التي هي العامية فيلجؤون مضطرين للاستنجاد بالفصحى . وكان ينعى عليهم خاصة جدب خيالهم في التصوير ، وقصور نفسهم في النظم . فهو يقول مستخفا بهم: "أما في زماننا هذا فلم ألق فيه الا داعيا ، أو من اذا قال عنّا . وجيلا نه في خمسة أبيات الى ستة ، اذا قصد الاسترسال تحت من حجر ، وان التمس (الايجاز)(2) نجر " ويقول معرضا بهم في أحد أزجاله :

كل من جا يقول أنا زجال
أنا مطبوع سرف وليس لي مثال
. . . .
ثم تعجب وهو مكان العجب   جمعوا الجهل ثم سوء الأدب(3)

فالذى كان ينقمه على هؤلاء الزجالين اذاً هو قصورهم الفني وضحالة ما كانوا ينتجونه .

---

(1) ابن قزمان : مقدمة الديوان : عن الأهواني : الأزجال : ص : 55 .
(2) زيادة لاتمام المعنى عن د / الاهواني : الزجل ص : 65 .
(3) مقدمة الديوان : عن الأهواني : الزجل : ص : 65 ـ 66 .

والخدمة التي قدمها ابن قزمان لهذا الفنّ تكمن في هذه التوجيهات والانتقادات التي بثها في مقدمة ديوانه ، وفي ثنايا بعض أزجاله ، والتي أصبحت بعد ذلك بمثابة القوانين الأساسية لفنّ الزجل .

فهو لم يكن زجالا موهوبا فحسب ، وانما كان ناقداً محنكا ، أيضا ، استطاع أن يقدم النموذج المثالي للأزجال بفضل ما انتجه فيها ، كما استطاع أن يؤسس مدرسة خاصة به بفضل هذه التوجيهات النقدية التي كان يعتمد فيها ، بالدرجة الأولى ، على حاسته الفنية وخبرته المكتسبة الواسعة .

لكن الذى ساعد على انتشار الأزجال في هذه الآونة ، يعود ، في نظرنا الى تبني الأوساط الأرستقراطية الفنية لها كوسيلة لتنويع أساليب الغناء وتطويرها ، لما كانت تحمله هذه الأزجال من الألحان الشعبية القديمة التي كانت تؤدى بها . كما يعود ، أيضا ، الى تقبل الأوساط الأدبية الرسمية لها ، والاعتراف بها كوسيلة من وسائل التعبير لطرافتها وسهولة مأخذها ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل .

— مدغليس :

وقد تطور هذا اللون من الأدب الشعبي على يد زجال موحدي آخر ، جاء بعد ابن قزمان ، كان يعدّ ، هو أيضا ، من أقطاب هذا الفنّ ، وهو أبو عبدالله أحمد بن الحاج المشهور بمدغليس [1] .

" نشأ أول عهده أديبا معربا للكلام مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب ، اقتصر عليه " [2] .

---

(1) هو اسم مركب من كلمتين بربريتين : " مذغ " ومعناه " مضغ " و " إليس " ومعناه " صوف " : أي مضغ الصوف . وذلك أن أبا عبدالله هذا عندما كان صغيرا بالكتاب مضغ ليقة الدواة ، فسمي مذغاليس . والملاحظ أن كلمة " اليس " تطلق حتى الآن في الجنوب الجزائري على زجة الصوف بالبربرية .

(2) المقري : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 385 .

غير أنه لم يصلنا من أزجاله ، الا ما أورده له صفي الدين الحلي في كتابه " العاطل " ، وما اختاره له ابن مبارك شاه من مقتطعات أوردها له في سفينته [1].

أما ابن سعيد فلم يذكر له الى زجلين اثنين في كل من المقتطف والمغرب . وهذه المقطوعات ، في الواقع ، لا يمكن أن تعطينا صورة كاملة عن آثار مدغليس الفنية ، ولا عن طريقته التي انتهجها في هذا الميدان . فكل ما نستطيع أن نستشفه من خلالها هو بعض السمات البارزة التي كانت تطبع ازجاله بصفة عامة .

— لعل أبرز هذه السيمات التي يلاحظها الدارس من أول وهلة هو تلك المسحة الجدية التي تعلو أغلب آثاره خاصة منها ما يتعلق بالمدح [2] والتي لا تتلاءم كثيرا في واقع الأمر مع فنّ الزجل المعروف عادة بخفته ومرحه ، اذ قد خلق أساسا ، كما هو معروف ، للتغني بملاذ الحياة ومباهجها ، حسبما رأينا ذلك عند ابن قزمان ، وغيره من الزجالين . على أن مدغليس نفسه كان من أولائك اللاهين العابثين الذين كانوا يجرون وراء اقتناص اللذة حسب ما يستفاد من بعض الاشارات التي وردت عنه في " النفح "[3] . الا أن ملازمته الشديدة لبعض الرسميين ، حسبما يبدو ، وانقطاعه لبعض الحكام الموحدين الذين قصر عليهم مدائحه هو الذي اضطره لذلك التزمت النسبي والوقار المصطنع ، فقد كان من بين ممدوحيه كل من : أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة

---

(1) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 108 .

(2) ذكر صفي الدين الحلي : أن لمدغليس ثلاث عشرة قصيدة في ديوانه من نوع القصائد الزجلية على أوزان العرب ، أورد له منها مختارات كلها في المديح .

(3) أنظر المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص: 385 .

وأبي يحي بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، والي قرطبة ، وأبي عبدالله بن أبي حفص وابنه أبي زيد عبدالرحمن بن عبد الله صاحب بلنسية . كما كان من ممدوحيه القائد الموحدى أبو عبدالله بن صناديد[*] والوزير أبوالحسن بن عياش[1].

— وقد ارتبط اسم مدغليس بلون خاص من الأدب الشعبي ، وهو القصيدة الزجلية او الشعر الملحون الذى ذاعت شهرته في بلدان المغرب بصفة خاصة ، وبقيت آثاره حتى اليوم .

وتركيب القصيدة الزجلية هذه هو أقرب الى القصيدة العربية التقليدية منه الى الموشحة حيث لا يكاد يختلف عنها في شيء ما عدا اللغة . وقد أشار الحلي لذلك بقوله : "وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصدة ، وأبيات مجردة ، في أبحر عروض العرب بقافية واحدة ، كالقريض ، لا يغايره بغير اللحن واللفظ العامي وسموها القصائد الزجلية "[2].

فهو يقصد ، ولا شك ، القصائد الزجلية التي جدت على يد مدغليس لا الأزجال التي كانت تقال في عهد ابن قزمان أوقبله ، لأن تلك الأزجال كانت تنسج على منوال الموشحات ، كما رأينا ذلك من قبل .

الا أن أغلب الذين تكلموا عن مدغليس لم يفرقوا تفريقا واضحا بين هذه القصيدة الزجلية التي اشتهرت على يديه وبين تلك الأزجال التي كان يقولها على طريقة الموشحات . هذا اذا استثنينا ابن سعيد الذى أورد له نموذجا من كلا النوعين وسمى النوع الأول بالشعر الملحون ، والثاني بالزجل[3] . وان كان

(*) ذكره ابن أبي زرع : في القرطاس : ص : 125 — 127 .
(1) الأهواني : الزجل : ص : 110 .
(2) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص : 14 .
(3) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 220 — 222 .

هذا النوع الثاني نفسه قد طرأ عليه بعض التطور في عهد مدغليس، فأصبحت الأزجال التي من هذا النوع لا تلتزم في أقصانها الا بقافية واحدة في آخر كل بيت لا آخر كل شطر. أما أقفالها فلا تتركب من أكثر من شطرين، ولا يلتزم فيها الزجال الا بقافية واحدة في آخر كل بيت أيضا. وكأن الأزجال، بهذا قد عادت للبساطة التي كانت عليها قبل ابن قزمان :

وأحسن مثال على ذلك، هذا الزجل الذى قاله مدغليس في الوصف :

ثلاث أشيا فالبساتين — لس تجد في كل موضع
النّسيم والخضر والطّير — شم وانتزه واسمع

قم ترى النسيم يولول — والطيور عليه تغرّد
والثمار تنثر جواهر — في بساط من الزّمرّد
وبوسط المرج لخضر — سقي كالسيف المجرّد

شبهت بالسيف لما — شفت الغدير مدرّع . . .

ورذاذ دق ينزل — وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض — وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر — والغصون ترقص وتطرب

وتريد تيجي الينا — ثم تستحي وترجع. . . (1)

ونحن اذا ما رأينا الى هذه المقطوعة من زاوية الصنعة والتنسيق البلاغي نجدها لا تكاد تختلف في شيء عما كانت عليه الموشحات في اعتنائها بالشكل . أما المضمون فهي تحاكي فيه خاصة قصائد الوصف المركب التي تحدثنا عنها في فصل سابق . فالزجال هنا مثلا لا يكتفي بعرض الصور الجزئية المفردة، بل يحاول أن يقدم لنا لوحة كاملة للمنظر الطبيعي الذى أخذ به بكل ما يحتوى عليه من أشجار مثمرة وأطيار مغردة وانهار جارية ونسيم وأمطار، وما تخلقه كل هذه المناظر الشاعرية من أجواء مغرية بالمتعة والخلاعة . وهذا بأسلوب بلاغي منمق

---

(1) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 220 .

أخاذ . ولعل هذا ما دعا أهل الأندلس لاعتبار مدغليس في الزجالين بمنزلة أبي تمام في الشعراء ، بالنظر الى الانطباع والصناعة . بينما اعتبروا ابن قزمان بمنزلة المتنبي . لأن هذا الأخير يعتني بالمعنى . أما مدغليس فيلتفت الى اللفظ[1].

ومن قصائده الزجلية المشهورة هذه المقطوعة التي استهلها بمقدمة غزلية على طريقة المدائح العربية التقليدية . يبدوها بقوله :

الهوى حملني مالا احتمل — تريد الحق ، لس لمن يهوى عقل

ثم يتخلص الى المدح قائلا :

لا مليح الا الذى نعشق أنا — ولا قائد الا ذا المولى الأجل
أبو عبدالله الذى أسس جاه — بن صناديد تبنى واحتفل
ول همه قد علت فوق الهمم — فهو لا يرضى الثريا عن نعل
الرفيع الماجد الحر الشريف — الشجاع الفارس الليث البطل
وجهه البدر وأيام السرور — واديه الرزق والسيف الأجل
لثلاث أشياء هو كف اليمين — للعطايا والمنايا والقبل (2)

فهذه القصيدة الزجلية هي صورة طبق الأصل من القصيدة العمودية العربية ليس فقط في شكلها العام ، ولكن أيضا في صورها ومعانيها ، وفي تشبيهاتها وأوصافها ، بل وفي غلوها في تبجيل الممدوح ومبالغاتها فيما تغدقه عليه من نعوت وأوصاف . فالزجال هنا ، لا يرى أحدا أحق بالقيادة من ممدوحه ابي عبدالله بن الصناديد الذى أسس لنفسه جاها واحتفل في بنائه . فهمته تعلو على كل الهمم . وهو لا يرتضى بانتعال الثريا . فهو الرفيع الماجد ، وهو الحرّ الشريف ، وهو الشجاع والفارس والليث والبطل ...

أما وجهه فهو البدر ولا يعكس الا أيام السرور ، أما يداه فتطفحان بالرزق والمنايا معا . وقد خلقت يمناه للمدايا والمنايا والقبل .

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 385 .
(2) الأهواني : الزجل في الأندلس : ص : 110 — 111 ، عن هينر باخ رقم 9 .

فكل هذه المعاني والصور مقتبسة من الشعر العربي القديم، بل الألفاظ : نفسها التي استعملها الزجال تكاد تكون كلها عربية ، فالعبارات التي تحتوى عليها الأبيات الثلاثة الأولى ، ثم الأوصاف التي رصفها في البيت الرابع والكلمات التي اختتم بها الشطر الأخير من هذه المقطوعة كلها عربية ولا ينقص بعضها الا الاعراب .

فقد أثرت القصيدة التقليدية اذن في الزجل تأثيرا واضحا كما أثرت من قبل في الموشحات ، حيث أصبحت الأغراض والمعاني والصور الشعرية حقا شائعا بين كل هذه الألوان الأدبية . كل ما هنالك أن القصيدة والموشحة كانتا تتخذان الفصحى أداة للتعبير بينما كانت الأزجال تستعمل العامية ، وان كان هناك فرق بين هذه الأنواع الأدبية فهو بالنسبة للجمهور الذى كانت تتوجه اليه . فالشاعر والوشاح كانا يخاطبان الطبقات الأرستقراطية والفئات الحاكمة ، أما الزجال فكان يتجه الى عامة الناس .

وما يقال عن الزجل في الأندلس يسرى عليه في بلدان المغرب أيضا . فقد أشار صفي الدين الحلي في كتابه "العاطل الحالي" الى بعض الزجالين المغاربة ، وعد منهم الشاعر ابن غرلة الذى تحدثنا عنه في باب الموشحات ، وقال عنه : "كان ينظم الموشح والزجل والمزنم فيلحن في الموشح ويحرب في الزجل تقصدا منه واستهتارا"(1) ، الا أنه لم يورد لنا أى شيء من أزجاله .

— وقد ذكر أيضا أن رميلة أخت عبدالمؤمن كان لها هي الأخرى أزجالا قالتها في حبيبها ابن غرلة ، ولكنه لم يذكر لنا منها الا المطلع التالي :

---

(1) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص : 11— 12.

مشى السهر حيران حتى رأى انسان عيني وقف (1)

— وهناك من عدّ عبدالمؤمن نفسه من جملة الزجالين بل ومن مخترعيها ، فقد ذكر الجراري نقلا عن أحمد الرباط صاحب كتاب " العقيدة الأدبية في السبعة فنون المعنوية " أنه قال : " اختلفوا فيمن اخترع فنّ الزجل ، فمنهم من قال : ابن غرلة ، وقيل يخالف بن راشد ، وقيل ابن قزمان ، وقيل مدغليس ، وقيل عبدالمؤمن ملك الأندلس وقيل رميلة أخت عبدالمؤمن "(2).

نستطيع أن نستشف ، أيضا ، من هذا النص على اضطرابه ، مدى العناية التي كان يوليها المغاربة لهذا الفن ومدى اكبارهم لأصحابه واعجابهم بهم حتى أنهم عدوا ثلاثة من أبنائهم في جملة مخترعيه .

— ولئن كانت المصادر القديمة التي وصلتنا لم تجد علينا بأي نصّ مما قاله هؤلاء المغاربة في الزجل الا أنها ، بالمقابل ، لم تبخل على الذين أشارت اليهم بالاعتراف لهم بالتفوق في هذا الفن .

وقد كنا ننتظر من ابن سعيد الذي أرخ للزجل في القرن الخامس وقبله ، أن يبسط القول ، على الأقل ، في معاصريه من الزجالين حتى نستطيع أن نستشف من خلالهم ما يمكن أن يساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن تطور هذا الفن في كل من المغرب والأندلس في العهد الموحدي ، الا أنه لم يذكر لنا الا بعض النتف والمقطعات المبتورة التي جاءت متناثرة في كتبه : المغرب ، والمقتطف ، والقدح المعلى وهي لا ترضي فضول الباحث لقلتها ، ولا تضيف جديدا لما سبق أن قلناه في الموضوع .

(1) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي : ص : 11 — 12 .
(2) الجراري : القصيدة : ص : 550 — انظر كذلك كتابه : الموشحات : ص : 63 — 64 .

ونحن لا نشك أن هناك بعض الكتب التي الفت في الموضوع في هذه الفترة ، ولو أنه لم يصلنا شيء منها . فقد أشار ابن سعيد في ترجمة أبي علي الحسن بن أبي نصر الدباغ[1] احد زجالي القرن السابع ، أن لهذا الأخير كتابا في " مختار ما للزجالين المطبوعين ، وكان ابن سعيد يعتمد عليه فيما ينقله من أزجال قال عن مؤلفه : " هو امام في الهجو على طريقة الزجل"[2].

— ومما يدل ، أيضا ، على وجود هذه المؤلفات ، وانتشارها في كل من المشرق والمغرب ما نقله صفي الدين الحلي من شواهد زجلية كثيرة في كتابه العاطل الحالي الذي قنن فيه لفن الزجل : وقد نسب كثيرا من هذه الشواهد لزجالين مغاربة . فلا شك أنه كان ينقلها من مؤلفات مختصة كانت بين يديه ، فقد ذكر عند حديثه عن ابن قزمان أنه كان ينقل الأزجال من نسخة محققة من ديوانه وديوان مدغليس كان يمتلكها بمصر[3].

واذا جاز لنا ، بعد هذا العرض السريع ، أن نستخلص حكما على تطور هذا الفن في العهد الموحدى من خلال تلك النصوص القليلة التي وصلتنا ، فاننا لا نستطيع أن نقول أكثر من أن هذه الأزجال قد نشأت أول أمرها ، عندما استقلت عن الأغنية الشعبية القديمة ، بسيطة في تأليفها العروضي ، وعندما اشتغل بنظمها الطبقات المثقفة ، أخذت تتطور في شكلها ، شيئا فشيئا نتيجة لمحاكاتها لفن الموشحات ،

---

(1) ابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ص : 438 .
(2) نفس المرجع .
(3) انظر مقالة صفي الدين الحلي في تحقيق هذه النسخ ومراجعتها على نسخ أخرى كتبت بحلب من طرف معاصره ابن الضرير عن نسخة حملت اليه من مكتبة الاشرفية بدمشق :
عن الاهواني : ص : 68 — 69 ؛

ولكنها سرعان ما تحررت من هذه التهعية ، فعادت الأزجال الى بساطتها الأولى حيث أخذت تجنح تدريجيا نحو التقليل من القوافي وتنويع المفقرات . ثم تفرع عنها ما يسمى بالقصيدة الزجلية التي أصبحت تحاكي القصيد العربية التقليدية في كل مظاهرها . هذا بالنسبة للشكل الخارجي بصفة عامة . أما بالنسبة للأغراض التي كانت تدور حولها الأزجال فهي هي نفسها التي كانت تقال فيها الموشحات . الا أن الازجال كانت تركز أكثر على كل ماكان له اتصال بحياة اللهو والمجون بصفة خاصة . وذلك كوصف مجالس الانس ، وماتستلزمه هذه المجالس من شراب ، وطرب ، ومغازلة ، وحب ، ومتعة ، وخلاعة ، وما الى ذلك مما يتلاءم مع طبيعتها الغنائية .

— وكان المدح من أكثر الأغراض شيوعا بين الزجالين اذ أن أغلبهم كانوا يستجدون بأزجالهم تلك . يقصدون بها الأمراء ، والحكام ، والقضاة ، وذوى المرتب والجاه في الأمة ، فيجزلون عطاءهم . وقد كان هؤلاء يهشون أكثر لسماع تقريضهم على ألسنة أولئك الزجالين لما تتيحه لهم أزجالهم تلك من فرص الشهرة والانتشار على كل الألسنة ، وبين مختلف الطبقات باعتبارها أسهل ألوان القريض انتشارا لجانبها الغنائي من جهة ، وأكثرها شيوعا بين الناس لشعبية لغتها من جهة أخرى .

وقد أحس الزجالون بهذا الارتياح الخفي الذى كان يشعر به ممدوحوهم ازاء الأزجال ، فقصروا عليها مدائحهم ، أو كادوا . فأخذوا يتفننون في ترصيع مقدمات قصائدهم الزجلية بأنواع التشبيب ، والغزل ، وما يتلاءم معها من أوصاف لكل ألوان المتعة يبسطون فيها القول دون أدنى تحرج ثم يتبارون بعد ذلك في خلق المناسبات اللائقة للتخلص من هذه المقدمات الوصفية ، او الغزلية ، او الخمرية ، الى وصف ممدوحيهم . تماما كماكانوا يفعلون في مدائحهم التقليدية القديمة .

ـ أما بالنسبة للأغراض الأخرى ، كالرثاء ، أو الهجاء ، مثلا ، فقد كانت الأزجال تتحاشاها لعدم ملاءمتها لها .

وليس معنى هذا أنها كانت مهجورة تماما ، بل هناك أزجال كثيرة قيلت في هذين الغرضين وغيرهما ، الا أنها لا تعد بشيء اذا ما قيست بما قيل في بقية الأغراض الأخرى .

فمما جاء في باب الهجاء ، مثلا ، هناك زجلان ، أوردهما ابن سعيد عن الحسن بن أبي نصر الدباغ ، الذى ترجم له في كتابه المغرب وقال عنه : " هو امام في الهجو على طريقة الزجل " . ومن المؤكد أنه قال كثيرا غيرهما ، ما دام موصوفا بالامامة في هذا الفن ، الا أنها لم تروِ بسبب فحشها وقذاعتها ، ولا شك ، حسبما يستشف مما روى عنه ، أنه كان لا يتورع في هجائه .

ـ وقد مهدت الأوضاع السياسية المتردية التي آلت اليها الدولة الموحدية بعد هزيمة غزوة العقاب لظهور نوع جديد من الأغراض في كل من الموشحات والأزجال ، كان حتى ذلك الحين مقصورا على الشعر التقليدى وحده ، وهو التصوف .

وقد تجلى هذا الاتجاه الجديد مع منتصف القرن السابع الهجرى ، فيما كان يسمى بالمكفرات .

وكان أول من استخدم الزجل في التصوف هو علي بن عبدالله الششترى الذى سبقت الاشارة اليه ، كما كانت الأسبقية في استخدام الموشحات في هذا الغرض أيضا لمحي الدين بن عربي حسبما رأينا ذلك من قبل .

ويعد الششترى امام الزجل الصوفي بجدارة ، لما أنشأه فيها من قصائد ذاعت شهرتها في كل الأقطار الاسلامية ، وتركت آثارها عميقة في كل البلدان التي تجول بها .

---

(1) ابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ض : 238 ـ 239 .

بدأ حياته أول الأمر تاجرا ، فتجول في كثير من بلدان المغرب والأندلس ، وفي احدى رحلاته الى بجاية تعرف بأتباع أبي مدين شعيب الصوفي ، فلازمهم وأخذ عنهم طريقتهم ، فتأثر بهما أيما تأثر[1] ، كما لازم مجلس القاضي محي الدين بن سراقة[2]، تلميذ السهروردي[3] صاحب " عوارف المعارف " فأخذ عنه علم التصوف . أما الفلسفة فقد أخذها عن شيخه أبي محمد بن السبعين[4] ، الذى كان معجبا به كل الاعجاب . وقد كان الششترى "مدني " النزعة أول الأمر ، فاستماله ابن السبعين بطريقته الصوفية الجذابة ، التي كانت تتمثل في أنواع من الترويضات ، كان يمارسها عليه حتى استقطبه . فركن اليه طائعا ، واعتنق مذهبه الذى كان يقول بوحدة الوجود[5] . وكان الششترى مفتونا بشيخه رغم صغر سنه لا يكاد يخالفه في كل ما يلقيه عليه من

---

(1) علي سامي النشار : مقدمة ديوان الششترى ص : 8 ، ط. الأولى الاسكندرية 1960.

(2) المقرى : نفح الطيب : ج . 2 . ص : 185 .
— ابن سراقة هو : محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم أبوبكر الشاطبي (592/662 هـ .) تولى مشيخة دار الحديث البهائية بحلب ، ثم تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة حيث توفي . له مؤلفات في التصوف — ترجم له كل من ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب: ج . 5 . ص : 310 بيروت بدون تاريخ في حسن المحاضرة : ج . 1 . ص : 215 ، — والمقرى في النفح : ج . 2 .ص: 63 —64 ، والزركلي في الاعلام — 2 — 6 — ص : 217 .

(3) هو عبدالقاهر بن عبدالله بن محمد السهروردي الفقيه الشافعي ، من أئمة المتصوفة — من كتبه المشهورة "آداب المريدين " أنظر ترجمته في الوفيات : ج . 1 . ص : 299 .

(4) هو عبدالحق بن ابراهيم بن محمد بن السبعين الاشبيلي (613/ 669) من زهاد الفلاسفة ، انتقل من بلده بالاندلس الى سبتة ، وتجول في بلدان المغرب وأقام ببجاية للتدريس وزار الديار المقدسة مرارا وتوفي بمكة — ترجم له كل من ابن شاكر في فوات الوفيات : ج . 2 ص : 253 — والمقرى في النفح : ج . 2 . ص : 196 — والزركلي في الاعلام : ج . 4 . ص : 51 .

(5) الششترى : مقدمة الديوان : ص : 8 .

من أوامر ، حتى أنه كان يدعو نفسه عبد ابن السبعين ، كما عبر عن ذلك في بعض أشعاره (1).

وقد أحسّ شيخه ، يوما ، بتردده بين طريقته وطريقة أبي مدين التي كان مفتونا بها أول حياته ، فصاح فيه قائلا : " ان كنت تريد الجنة فاذهب الى أبي مدين ، وان كنت تريد ربّ الجنة فهلمّ اليّ "(2).

- يبدو أن ابن السبعين لم يكن يرتاح كثيرا لأبي مدين ولا لطريقته . فقد ورد عنه أنه لما جرى ذكره يوما بحضرته قال عنه : " شعيب عبد عمل ، ونحن عبيد حضرة "(3). فمن الطبيعي أن تختلف نظرة الرجلين للأشياء ، فهذا فيلسوف وذاك زاهد .

ورغم شهرة ابن السبعين التي تجاوزت حدود بلدان المغرب ، ورغم اعتراف جلة علماء عصره له بالتفوق في علم التصوف ، فان طلبة الششتري كانوا يفضلون شيخهم عليه ، ويرونه أجدر منه بالامامة في هذا الفن . وكان اذا ذكر هذا للششتري يقول : " انما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ وقصور طباعهم "(4).

والذي يهمنا من كل هذا هو مدى تأثير هذه الأزجال الصوفية التي عمل الششتري على نشرها في كل الحواضر المغربية التي زارها وأقام بر باطاتها وزواياها للدراسة أو التدريس أو المذاكرة ، فهو لم يكن يكتفي بنظم الأزجال الصوفية فقط ، وانما كان يسعى جهده لبثها بين كل طبقات المجتمع وذلك عن طريق انشادها والتغني بها في الرباطات والزوايا والأسواق ، وكل أماكن التجمع .

---

(1) المقري : النفح : ج . 2 . ص : 185.
(2) المصدر السابق .
(3) المصدر نفسه ، ص : 201 .
(4) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 239 .

فقد ذكر الجراري[1] أنه كان يتنقل داخل المدن المغربية وينظم أزجالا يتغنى بها في الأسواق منها هذا الزجل الطويل الذي يقول في مطلعه :

شويخ من أرض مكناس — وسط الأسواق يغني
أش علي من الناس — أش على الناس مني (2)

وقد ذكر أن ابن سبعين أعطاه يوما علما، عندما لقيه بجاية، وطلب منه أن يتجول في السوق مغنيا هذا البيت :

بديت بذكر الحبيب — وعيشي يطيب

فأطاعه الششتري وراح يغني البيت مدة أيام ثم أكمل من عنده :

لما دار الكاس
ما بين الجلاس
عنهم زال الباس

سقاهم بكأس الرضا — عفا الله عما مضى (3)

وكانت هذه حاله طول حياته، ينظم الموشحات والأزجال ويغنيها في الأسواق على نغمات آلة موسيقية كان يعزف عليها.[4]

— ولاشك أنه فعل ذلك أيضا عند ما زار مدينة فاس وأقام في رباطها المعروف بمسجد السهريج حيث التقى بمشاهير الصوفية المغاربة، منهم أبو اسحاق الورقاني وأبو عبدالله الصنهاجي[5].

— وقد ذكر محقق ديوانه أنه عندما زار طرابلس في احدى رحلاته أقام بها مدة، وكان قد أعجب أهلها بعلمه الواسع بالفقه والسنة،

---

(1) الجراري : القصيدة : ص : 550 .
(2) الششتري : الديوان : ص : 272 ـ 275 .
(3) المرجع السابق : المقدمة : ص : 9 ـ 10 .
(4) لعلها الآلة الموسيقية التي تستعمل الآن في اسماع الصوفي بتونس وتسمى الششترية ـ انظر مقدمة الديوان : ص : 4 .
(5) الغبريني : عنوان الدراية : ص : 240 ـ المقري : نفح الطيب : ج . 2 . ص : 205 ، سماه المقري " الزرباني " .

فعرضوا عليه قضاء البلدة ، فأبى ، فاستحمقوه ونسبوه الى الجنون [1] فخرج الى السوق وجعل ينشد قصيدته الصوفية المشهورة التي يقول فيها :

رغي المتيم في الهوى بجنونه خلوه يفني عمره بفنونه [2]

وقد تعلق الناس بطريقته الشسترية هذه ، وحذا الصوفية حذوه ، فأخذوا يقلدونه في نظم أزجالهم ينسجون على منواله . من ذلك ما فعله محمد الشرفي أحد المتصوفين المغاربة الذى نظم زجلا يقلد فيه الششترى ، يقول في مطلعه :

أنا ما لي قياس آش عليا مني
نقنط من رزقي لاش والخالق يرزقني [3]

فهو ينظر في زجله هذا ، كما هو واضح ، الى قول الششترى :

شويخ من أرض مكناس وسط الأسواق يغني
آش علي من الناس آش على الناس مني

ـ وقد ذكر ابن خلدون أن لسان الدين بن الخطيب ، كان ينظم الزجل في أغراض التصوف ، وينحو منحى الششترى (*) .

ويتجلى تأثير المغاربة بأزجال هذا المتصوف أيضا في الاعتناء بجمع أشعاره ، ودراستها وشرحها ، كما فعل كل من : الشيخ أحمد زروق المتوفي سنة 899 هـ . وابن عجيبة المتوفي سنة 1311 [4] .

ولعل أحسن من عبر عن قيمة هذه الأزجال الصوفية ، ومدى تأثيرها في نفوس سامعيها هو ابن عباد

---

(1) الششترى : الديوان : ص : 10 ـ نقلا عن شرح ابن عجيبة .
(2) المصدر السابق . ص : 75 .
(3) الجرارى : القصيدة : ص : 551 .
(*) ابن خلدون : المقدمة : ص : 1156 ـ 1157 .

(4) الجرارى : القصيدة : ص : 551 .

الرندي[1] عندما قال : " ... أما أزجال الششتري ففيها حلاوة ، وعليها طلاوة ، وأما مقطعات الششتري وأزجاله فلسي فيها شهوة ، واليها اشتياق ، وأما تحليتها بالنغمة والصوت الحسن فلا تسل . فان قدرتم أن تقيدوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك "[2] .

— والذى آلمنا حقا ، بالنسبة لهذا الموضوع ، هو عدم عثورنا على بعض ماانتجه المغاربة في هذا الباب ، حتى نستطيع أن ندرك بوضوح مدى التأثير الذى خلفه هؤلاء المتصوفون الأندلسيون في الزجل المغربي .

ونحن لم نجد مفرًا ، أمام فقدان النصوص المغربية ، من الاعتماد على ما قاله الششتري وقد فصلنا فيه القول لاعتقادنا أنه أحسن من يمثل العصر الموحدى في هذا الباب . وهذا لكونه الزجال الأندلسي الوحيد الذى أقام مدة طويلة ببلدان المغرب ، واحتك بمختلف طبقاته الاجتماعية ، حتى تكون له منها مريدون كانوا يلازمونه في حله وترحاله [3] . ولأنه المتصوف الوحيد الذى وصلتنا أزجاله كاملة ، وباللهجات المختلفة التي نظمها بها . حيث كان يقول كل زجل بلهجة البلد الذى ينشئه فيه [4] .

وان كنا في الواقع لم نجد فروقا كبيرة بين لهجات هذه الأزجال ، خاصة بين تلك التي قالها باللهجات المغربية ، والتي قالها بالأندلسية .

---

(1) هو : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن عباد ، ولد برندة سنة 733 وتوفي بفاس سنة 792 ، تعلم ببلده ، ثم ارتحل الى المغرب ، فقرأ بفاس وتلمسان . وأقام بسلا صحبة ابن عاشر ، — انظر ترجمته لدى المقرى : في النفح : ج . 5 . ص: 341 — 350 .

(2) ابن عباد الرندى : الرسائل والمسائل :ج . 1 . ص : 67 ، عن مقدمة ديوان الششترى ، ص: 4 .

(3) ذكر المقرى : أن الششترى " كان يتبعه في أسفاره ما ينيف على 400 فقير فيتقسمهم الرتب في وظائف خدمته " . أنظر النفح :ج . 2 . ص : 185 .

(4) مقدمة ديوان الششترى : ص : 11 .

فلو أخذنا مثلا ، هذا الزجل الذى قال عنه محقق الديوان أن لهجته "أندلسية صرفة" لما وجدنا في كلماته أى ميزة أو خصوصية قط ، ما عدا صيغة هذه اللازمة التي تتكرر في آخر كل قفل " أفهمني قط ، أفهمني قط " يقول في هذا الزجل :

إسمع كلا ما ملتقط   افهمني قط   افهمني قط

اش قالى واحد علّه
ذا المعنى افهم شرحه
ايش اسم حبك قلت هو

اسم المليح ما يختلط   افهمني قط   افهمني قط

محبوبي قد عم الوجود
وقد ظهر في بيض وسود
وف نصارى مع يهود

وف الحروف والنقط   افهمني قط   افهمني قط

وف النبات وف الجماد
وف البياض وف السواد
وف القلم وف المداد

وليس فهذا غلط   افهمني قط   افهمني قط (1)

فهذه اللهجة التي قيل عنها أنها "أندلسية صرفة" تكاد تكون لهجة كل عربي مشرقي كان أو مغربي .

فالذى قرب هذه الأزجال من قلوب العامة ، في الواقع ، رغم المذهب الفلسفي الذى تتضمنه هو وضوح معانيها وسهولة ألفاظها ورقة كلماتها التي كان الششترى يتأنق في انتقائها ، هذا بالاضافة الى صدق العاطفة التي كانت تتميز بها اشعاره بصفة عامة ، وحرارة الايمان التي يلمسها القارى في كل بيت .

---

(1) الششترى : الديوان : ص : 177 .

والذى يظهر واضحا من خلال هذا الزجل هو فكرة " وحدة الوجوه " التي عبر عنها ابن عربي في موشحاته من قبل ، وقد أخذها الششترى عن شيخه ابن سبعين . الا أن الفضل يرجع اليه في تبسيطها وتقريبها لأذهان العامة . وهذا الذى دعا ابن عباد الرندى للتنويه بأزجال الششترى في حين هاجم شيخه ابن سبعين لغموض عباراته [1].

ــ ولاشك أن لتأثره بمذهب ابي مدين في أول حياته دخل كبير في بلورة طريقته الششترية هذه التي تقربه من أبي مدين شعيب بقدر ما تربطه بابن السبعين .

ولعل هذا التقارب هو الذى قوى التشابه بين شعرى الرجلين ، حتى نسبت بعض الموشحات للششترى وقد رويت في ديوان أبي مدين . ونسبت أخرى لأبي مدين وقد صح أنها للششترى .

ــ ولا يبعد أن يكون الششترى قد حاول أن يجمع بين طريقتي أبي مدين وابن سبعين . لذلك جاءت بعض أزجاله في الموضوع في غاية الاعتدال ، الا أنه لم يكن حاسما في اختياره . لذا بدا لنا متأرجحا بين المذهبين مذبذبا بين ذلك مما دعا بعض المهتمين به كابن عجيبة أن يقرر " أن الششترى تبرأ من مذهب الحلول والا تحاد في أواخر حياته تحت تأثير المدينية " [2].

ــ ولعل أحسن زجل تتجلى فيه فكرة الحلول هذه بوضوح أكثر هو هذا الذى قال عنه محقق الديوان أن لهجته مغربية ، مما يرشح احتمال انشاء الششترى له في احدى حواضر المغرب :

ذا الذى نعشق نعم هو ‏‏‏‏ قد عشقني باختيارو
من قديم هـ عشقوا ذاتي ‏‏‏‏ وأنا ساكن بدارو

---

(1) ابن عباد الرندى : الرسائل الكبرى : عن مقدمة ديوان الششترى : ص: 12 .
(2) النشار : مقدمة ديوان الششترى : ص: 8 .

ليس شي يخرجني عــنّوا — اذ ليــس ثم دار لغـــيروا
كل شي ظهــر لي مــنّوا — حتى شروا عــاد وخـــيروا
كل شي صــدر لي عــنّوا — حــتى مــسجدوا ديـــروا

أنا واحد ليــس اثنــين — وفي هذا الأمــر حـــاروا
من حجر يلبــع لك المــا — وفي حجـر المــاء نـــا ر وا

أنا واحد وهــو واحــد — كــيـف نكــون احنا اثنـين
وهو معــبود وأنا عابــد — فيجــي من هـــذا ضدّ يــن
وهو مــشهود وأنا شاهد — من هـــ فينا صاحب اثنـــين

اذا كنا الــزوج واحد — فالوصــال تعــيب نفــاروا
ونغيــب دنيــا وأخرى — في مقاموا وقـــــرا روا (1)

وكل أزجال الشــشــترى التي وردت الينــا في ديوانــه ، جاءت على هذا النــمــط ، لا تــكاد تخــرج عن معالجــة فكــرة وحــدة الوجود الا نادرا .

فنحــن لا نــستطــيــع أن نــســتكــشــف منها ، مــثــلا ، حياة محــيطــه الخارجــي ، الذى كان يحــتك بــه ، كحــياة الرباطــات ، والزوايــا . ولا الصلة الــتي كانت تــربــطــه بمــريديــه ، والتي كانــت تربطــه بالطــبــقـــات الشعــبــيــة التي كان ينشــد لهـــا أزجالــه ومــدى تجاوب افراد هـــا معـــه في شــطحاتــه الصوفــيــة بالحضــرة ، الى غــير ذلك من هـــــذه المــظاهــر التي لا يمكن عزل نــفســه عنهــا .

فكل ما استــطاعــت أن تــصوره لنا أزجالــه في هذا المجال هي أوصافه وتــصرفاتــه الشخصــيــة مــثــل ما نجــد ذلك في زجلــه الذى يــقـــول فــيــه واصــفــا هــيأتــه :

شويــخ من أرض مكنــا س — وســط الأسوا ق يغــني
آش عــلّي مــن النـــا س — واش على النـا س مــني

الى أن يــقــول :

---

(1) الشــشــترى : الديوان : ص : 157 — 158 .

ثم قــول مبــــى ولا يحـتـاج عبـارة
آش على حد من حد افهمـوا ذا الاشارة
وانظـروا كـرسـي والعصــى والغــرارة

هكـذا عشـت فـي فـاس هكـذا هون هونـي (1)
آش عليّ مـن النـــاس وا ش علـى النـاس مني (2)

تـلك هي الهيـأة التي ارتضاهـا لنفسـه : شويخ من أقصى بـلاد المغـرب يجـوب أرض اللـه الواسعـة هائمـا في الأسواق، لا يملـك من متـاع الدنيـا سـوى جـراب وعكـاز ، هكـذا عاش في فـاس ، وكـذلـك يعـيـش في غـيرهـا . لا يهمـه من أمـر النـاس شيـئـا ، فماذا يهمهـم هـم من أمـره ؟!

ويـصف قنـاعتـه في زجل آخـر فيعـبر عن رضـاه بالكفـاف : يكـسي جـسمـه " بـفـتـيـلا وابـرا " يخـيـط بهـا خـرق الصوف الرمــي يـتـبلـغ بـكـسـرة . لا يمـلـك قـوت يومـه ، فهو يـطلـبه من السـوق ، أو من دار مـوبـسر . يمـشـي حافـي القدمـين ، ويـستريح اذا مـا مـل المـشي . واذا طـرق النعـاس عـينـه افـترش الأرض ونـام . . .

فهو لا يـتـكـلـف في حياتـه ، ولا يـصانـع ولا يـطمـع في مأكل ولا مـلبوس . تـلك طـباع المنـافـقـين . ولا تـربطـه علاقـة بـقـاض ولا وال ، وهذه احـدى صـفات الرتـب العالـيـة . فأين ما حـل تـلك هـي داره ، يرمـي بهـا عـصـى الترحال ، ولو بالصحـارى والقـفـار ، يـقـتـات بما وجد ولو بالاعـشـاب البريـة .

تـكـسـي جـسمـــى بـفـتـيلا وابـــرا
ومـن صـوف مرمـــي ونكـــدى كـسـرا
من ذا المـســمـــى هم النا س فى حـيرا

نـبـقـى مـطـوع نعجـب كل مطـبوع
مطـبوع مـطــبوع إى واللـه مطـبوع

---

(1) يبدو أن هذا الشطر الأخير قد لحقه بعض التحريف وصوابه حسبما نقدر هو " هكـذا هو هونـي ".
(2) الـشـشـترى : الديوان : ص : 272 ـ 273 .

راسي محلوق   ونمشي مولّه
نطلب في السوق   أو في دار مرفه
حافي نر شوق   نقل أعط لله

خبرا مطبوع   مَن هو مطبوع
مطبوع مطبوع   أى والله مطبوع

وقد نتعد   ليس بخطر لى نمشي
نريد نرقد   الأرض هي فرشي
نرعى مزرود   بيه يطيب عيشي

من هو مطبوع   يعجب كل مطبوع
مطبوع مطبوع   أى والله مطبوع

لس نتصنع   ولا معي ناموس
ولا نطمع   في أكل وملبوس
بذا الموضع   يحتاج كل سلوس (1)

فقير مطبوع   يعجب كل مطبوع
مطبوع مطبوع   اى والله مطبوع

ولا نعرف قاضى   ولا و الي
وهو أشرف   وأطبع لحالي
كدا توصف   رتبة المعالي (2)

وقمة سعادة الصوفي عنده هو عندما يدخل سوقا أوقرية ، وهو على هيأته تلك بخرارته حول عنقه ، وجرابه المثبت في طرف عكازه فيخرج اليه العربان ، مرحبين كالاخوان ، وترى أهل الحوانت يمدون اليه اعناقهم مصغين لما ينشده من أزجال :

وحين نركن   لسوق أو قرية
نرى العربان   يخرجوا اليّا
مثل الاخوان   قولهم بنيا

---

(1) شرح محقق الديوان كلمة سلوس بمعنى منافق . وهي موجودة بهذا المعنى في بعض المناطق بالجزائر مع تحريف بسيط في النطق "السلوس" .
(2) الششترى : الديوان : ص : 186 — 189 .

ترى المطبوع	مرحبا بـا طبوع
طبوع مطبوع	أى والله مطبوع (1)

ويقول في مكان آخر :

وماأحسن كلاموا	اذ يخطر في الأسواق
وترى أهل الحوانيت	يلتقنوا لو بالاعناق
بخرارة في عنقوا	وعكيكز وأقراق (2)

ولا يريد الششترى ، في الواقع ، أن يعطينا بأوصاوفه هذه صورة عن حياته الشخصية بقدر ما يريد أن يوحي لمريده بالطريقة المثلى التي يجب أن يكون عليها كل فقير صوفي .

ولم يكن يقتصر على هذه الطريقة الايحائية في مخاطبة مريديه بل كثيرا ما كان يلجأ الى الوعظ المباشر ، كمانجد ذلك ، مثلا ، في قوله :

افعل الخير تنجوا	واتبع اهل الحقائق
لا تقل يابني كلمة	الا اذ كنت صادق
خذ كلامي في قرطاس	واكتبوا حرز عني
آش عليّ من الناس	واش على الناس مني .

وقد كان ناجحا في كلتا الحالتين ، في اقناع الناس بصحة مذهبه ، واستطاع أن يؤثر فيهم ذلك التأثير البالغ الذى بقيت مظاهره واضحة الى عصرنا هذا حيث نجد أزجاله تغني في كثير من الزوايا ببلدان المغرب كما لاحظ ذلك د / النشار في مقدمة ديوانه .
وبعد ، فلقد سبق أن أشرنا الى العوامل الكثيرة التي ساعدت على انتشار هذا اللون من الأدب في العهد الموحدى ، وذلك عندما تكلمنا عن

---

(1) الششترى : الديوان : ص : 188 .
(2) المصدر السابق ، ص : 273 . "أقراق" خوج من الخوص يحمله الفقير على ظهره .

الاتجاه الديني في كل من : القصيدة التقليدية ، والموشحات ، ورأينا كيف أن أكبر محفز لازدهار هذا النوع من الشعر كان يرجع ، أساسا ، الى اقبال المغاربة عليه ، لانسجامه مع طبيعتهم المتقشفة ، من جهة ، وتجاوبه مع تكوينهم الثقافي الاسلامي ، من جهة ثانية . وقد رأينا أيضا كيف ساهمت موءسساتهم الثقافية في المدة الأخيرة — كالرباطات والزوايا — وما شاكلهما في اذاعة هذا اللون من الأدب حتى أصبح شغلهم الشاغل .

وقد ازدادت هذه النزعة الزهدية التي جبل عليها المغاربة رسوخا فيهم مع مرور الزمن ، نتيجة لتوالي المحن ، وتتابع الكوارث ، التي مني بها المسلمون في أوائل القرن السابع ، خاصة ، بفعل تسلط الصليبية وطغيانها في كل من المشرق والمغرب . فركن لذلك ، الناس الى كل ما هو غيبي ، وآثروا الرجوع للآخرة لعجزهم عن مواجهة الدنيا ، واستمرؤوا الاتكال ، واستسلموا للأقدار ، واستكانوا للنزعات الصوفية المخدرة ، استكانة العاجز الضعيف ، لا استكانة القوي المقتنع . فراحوا يبثون شكواهم في هذه الأزجال الدينية والقصائد المولدية حتى اقتصر النظم ، بكل أنواعه ، أوكاد على هذا الغرض ، الذي رأوا فيه بلسمهم الناجع الوحيد .

وقد دخل الزجل مرحلة الركود التام ، عندما عاد اتجاهه ، في المرحلة الأخيرة ، الى الطبقات العامية ، بعد أن تخلت عنه الطبقات المثقفة ، فأصبح يهتم ، خاصة ، بسرد الحكايات الشعبية ، والقصص ، والملاحم .

الباب الثاني :

الفصل الثالث : — النثر الفني .

— أ —

1) الرسائل الديوانية
2) الرسائل الاخوانية
3) المقامات
4) المفاخرات .

— ب — — النثر التأليفي

ألوان من الثقافة المغربية

1) كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق .
2) كتاب المعجب في اختصار أخبار المغرب .
3) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار .
4) كتاب التشوف الى رجال التصوف .

ـ النثر الفني :

لم يهتم النقاد بالنثر اهتمامهم بالشعر ، رغم اعترافهم بأسبقيته على كل الأجناس الأدبية الأخرى ، ورغم اقتناعهم بأهميته نظرا لخطورة المواضيع المختلفة التي كان يعالجها واتساع ميادينها .

فأغلب الحركات النقدية التي عرفها الأدب في كل مراحله منذ القدم كانت تدور حول الشعراء وما انتجوه من آثار ، وطرقوه من أغراض ، وما استعملوه ، خاصة من أساليب للتعبير عنها وما استحدثوه فيها من صور وولدوه من معاني ، وما توافقوا فيه مع غيرهم أو اقتبسوه منهم الى غير ذلك . أما النثر فلم يكونوا يذكرونه الا عرضا . ولم يبدأوا الاهتمام به الى مع مستهل القرن الرابع عندما طغت عليه ألوان البديع وأصبح يشكل ظاهرة خاصة لم يعرف الأدب مثلها من قبل .

وكان هذا الاهمال الذى أصيب به النثر من طرف النقاد ومؤرخي الأدب سببا في ضياع كثير من نصوصه بالقياس الى ما سجل من الشعر . لاشك أن الذى ساعد على رواية الشعر ، وحفظه ، وتسجيله ، هو الطريقة التي صيغ بها ، والقوالب التي صبّ فيها ، حيث أصبح بفضلها أعلق بالنفس ، وأخفّ على الذاكرة ، وأمسّ بشغاف القلب . ولعل هذا الذى حمل بعض الأقدمين من النثار على استعمال السجع كوسيلة لتسهيل حفظ ما ينشئونه من خطب ، وحكم ، على الرواة . فقد سئل عبدالصمد بن الفضل ابن عيسى الرقاشي وهو أحد نثار القرن الثالث "لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي واقامة الوزن ؟ قال : ان كلامي لو كنت لا آمل فيه الاسماع الشاهد لقلّ خلافي عليك ، ولكنّي أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع والآذان لسماعه انشط وهو أحق بالتقييد

وبقلة الفضلات .وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره "(1).

ورغم ما أصابه النثر من تطور في أساليب كتابية تجلّى في الموازنة بين جمله والمزاوجة بين فقراته ، ورغم ما حلي به من سجع وجناس ومقابلة ، وطباق ، وما شاكل هذه الأمور التي من شأنها أن تيسر علوقه بالذاكرة وتسهل حفظه على من أراد روايته من الأدباء والنقاد . الا أنّ اقبال الناس بقي منصبّا على حفظ الشعر أكثر .اذ قلّما نجد أديبا مشهورا لايعدّ من بين محفوظاته الشعرية ما يعادل ديوانا أو أكثر ، الا أنه نادرا ما نجد من بينهم من يحفظ رسائل الجاحظ مثلا ، أو مقامات الحريري ، أو ما أنشأه الصاحب ، أو ابن العميد والقاضي الفاضل وابن شهيد وأضراب هؤلاء من كتاب المشرق والمغرب .

فقد قيل أن أبا بكر الخوارزمي كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر ، ولم يؤثر عنه أنه حفظ شيئا من النثر . اللهم الا رسالة واحدة في وصف البحر كان قد كتب بها الصاحب الى ابن العميد (2).

وقد أثار هذا التحيز المجحف للشعر على حساب النثر ردّ فعل قويّ لدى بعض النقاد في القديم ، فانبروا للدفاع عنه معدّدين مزاياه ومبرزين فضائله على الشعر . وكان الثعالبي من أشهر هؤلاء الأدباء الذين فاضلوا بين هذين الفنين . فمما أثر عنه في تفضيل الكتاب قوله : "فان الكتاب وهم ألسنة الملوك ، انما يتراسلون في جباية خراج أو سدّ ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو اصلاح فساد . . . أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشؤون التي يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة "(3).

(1) الجاحظ : البيان : ج . 1 . ص : 287 .
(2) الثعالبي : اليتيمة : ج . 3 . ص : 229 .
(3) الثعالبي : نثر النظم وحلّ العقد : ص : 3 . ط . الأولى القاهرة 1317 هـ .

ـ أما أبو حيان التوحيدى فيرى أن الكتابة من أشرف الصناعات ، لأن الذى يحتاج اليها هو من أشرف الناس وهو الملك . " فهو يحتاج الى البليغ والمنشيء والمحرر ، لأنه لسانه الذى به ينطق ، وعينه التي بها يبصر ، وعيبته التي منها يستخرج الرأى ويستبصر في الأمور ... "(1)

ـ ويرى القلقشندى أن الشعر ، وان كان له فضيلة تخصه ، ومزية لا يشاركه فيها غيره ، من حيث تفرده باعتدال أقسامه ، وتوازن أجزائه ، وتساوى قوافي قصائده ، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام ... فان النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما . ان الشعر محصور في وزن وقافية ، يحتاج الشاعر معها الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير ، وقصر الممدود ومدّ المقصور ... وغير ذلك ، مما تلجيء الى ضرورة الشعر ، فتكون معانيه تابعة لألفاظه . والكلام المنثور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك . فتكون الفاظه تابعة لمعانيه "(2).

ـ أما أبو عمرو بن العلاء فيعلل تقديم الشاعر في الجاهلية على الخطيب بحاجة المجتمع له ، لما كان يقوم به من تقييد مآثرهم . ولما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وقصدوا به السوقة ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر .

وقد قيل أن النابغة الجعدى كان سيدا في قومه لا يقطعون أمرا دونه ، وعندما قال الشعر نقصه ذلك في أعين الناس وحطّ من قيمته (3).

ـ الا أنه رغم هذا الدفاع المستميت الذى أبداه هؤلاء النقاد لترشيح كفة النثر ، ورغم ما وصل اليه الكتاب من سؤدد في القرون الوسطى بفضل تطور الكتابة الفنية وعلوّ شأنها فقد بقي الشعر دائما هو المحور الرئيسي الذى تدور حوله أغلب الدراسات النقدية .

---

(1) أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة : ج . 1 . ص : 102 بيروت 1953 .
(2) القلقشندى : صبح الأعشى : ج . 1 . ص : 58 .
(3)

ـ وما أصاب النثر من اهمال على يد النقاد ، في القديم ، ابتلي به ، أيضا ، على يد الدارسين في الحديث ، اذ لا نكاد نجد بين الباحثين الذين اهتموا باحياء التراث في عصر النهضة وما بعدها الا أفرادا قلائل اعتنوا بدراسة النثر .

وهذا الحكم يصدق خاصة على النثر المغربي الأندلسي باعتبار ما ظهر فيه من دراسات حتى الآن . ولا شك أن هذا راجع ، بالدرجة الأولى ، الى قلّة النصوص النثرية التي نشرت منه حتى الآن . حيث أن أنظار الباحثين لم تتجه لتراث هذه المناطق الا في العصور المتأخرة . لهذا ، فان ما قيل في النثر الفنّي الأندلسي لا يمكن أن يكون قولا فصلا فيه ، لأنّ أغلب التراث في هذا الباب لم يزل مخطوطا ، وما نشر منه حديثا لم يدرس دراسة جدية بعد .

ـ نشأة الكتابة الفنية :

يعدّ السجع ، باعتباره لونا من ألوان البديع ، أقدم ظاهرة زخرفية ظهرت في النثر القديم . فقد كانت الفصاحة من أهمّ المميّزات التي كان العرب يتفاخرون بها في جاهليتهم ، لذلك ، كانوا يحتفلون احتفالا كبيرا بتحبير خطبهم ومنافراتهم ويستعينون في انشائها بكل أضرب البلاغة الفطرية ، خاصة ، منها السجع ، لما كان يحدثه في

نفوس سامعيهم من تأثير عميق ، وما كان يخلفه فيها من حالات يجعلها مهيأة لتقبل كل ما يلقى اليها دون أية صعوبة .

هذا اضافة الى بعض الحركات المسرحية التي كانوا يلجؤون اليها أثناء القاء خطبهم لما يرون فيها من تأثير على نفوس سامعيهم ، كتفخيم أصواتهم ، وتشدقهم في نطق الألفاظ وما الى ذلك حتى قال فيهم الجاحظ . كانوا يعمدون في خطبهم الى ضروب من التقعير والتمطيط ، والجهورة ، والتفخيم "كانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت ، لذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم ..." (1)

فالسجع على هذا الاعتبار قد عرفته اللغة العربية ، اذن ، منذ العهد الجاهلي . ولكن استعماله ، حسبما يبدو ، قد خف نوعا ما في الفجر الاسلامي الأول ، لنفور الرسول (ص) منه ، ونبذ بعض الصحابة له ، لما كان يوحي به من محاكاة لسجع الكهان . وقد بقي يستعمل ، رغم ذلك طوال القرون الثلاثة الأولى لكي يتحفظ ودون التزام له اللهم الا ما جاء منه عفوا ودون أي تكلف .

ـ وهناك ظاهرة أخرى نشأت في كتابات ذلك العصر وهي ظاهرة بسط المعاني بواسطة التكرار . وهذا الأسلوب في التعبير قد تبناه أغلب كتاب القرنين : الثاني والثالث الهجريين . وهو الذي توخاه الجاحظ في كل كتاباته مما جعلنا نشعر ، أحيانا ، ببعض الملل في قراءتنا لها ، لما كانت تتسم به من الطول المفرط نتيجة لذلك ، وهذا رغم ما كان يتخللها من نوادر غريبة وطُرَفٍ مسلية .

كما تميز أسلوب هذا العصر أيضا بمظهر آخر من مظاهر الصنعة تجلى في تعمد الخيال المجنح الذي كان مقدمة للاسراف في الزخرف الذي أفسد النثر فيما بعد .

---

(1) الجاحظ : البيان والتبيين : ج. 1 . ص : 102 ـ 121 .

الا أن هذه المحسنات كلها لم تكن في أول أمرها مقصودة لذاتها ولا كانت تستعمل باسراف لذلك بقي أسلوب الكتابة في القرون الثلاثة الأولى بسيطا واضحا، بعيدا عن كل تكلف أو تعقيد.

وما أن استهل القرن الرابع الهجري حتى بدأت أساليب الكتابة تتطور شيئا فشيئا وبدأ الاعتناء بالأسلوب يقوى تدريجيا حيث جعل الكتّاب يأخذون أنفسهم بنوع من الجهد لتنميق كتاباتهم وزخرفتها، فعاد السجع الى أقوى مما كان عليه في الجاهلية حيث فرض نفسه على كل أنواع الكتابة بما فيها العلمية وأصبح التفنن في استعمال ألوان البديع هو المعيار الحقيقي للجودة والاتقان.

وقد أوعز النقاد هذا التغيير الذي طرأ على الكتابة الى احتكاك العرب بغيرهم من الأمم الراقية التي دخلت في طاعتهم، خاصة بعد أن ترجموا آثارها الى لغتهم[1].

والواقع، ان هذا التأنق الذي ظهر في الكتابة هو انعكاس لما وصل اليه المجتمع الاسلامي من رقي وحضارة نتيجة البذخ الذي عمّ أغلب طبقاته في ذلك العهد. والترف، كما هو معلوم، مدعاة للتأنق، والسعي وراء الأبهة والزخرف وكل المظاهر الخلابة الأخرى. لذا فان ما جلل به النثر من زخارف، وما أصبغ عليه من زركشات ما هو الا انعكاس للزخارف التي مست كل الجوانب الأخرى للحياة في ذلك العهد.

فلقد كانت الكتابة تقتصر على الضروري اللازم للتعبير عندما كان مستعملوها يقنعون بالضروري اللازم للحياة أي عندما كان الأعرابي يقنع، في أول أمره، بالشملة لباسا، وبالخيمة مأوى، وبالبلغة معاشا

---

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه: ص: 121 وما بعدها، ط. الخامسة، دار المعارف مصر 1960.

ولكن ما أن بدأت تتغير نظرته للأشياء نتيجة احتكاكه بالحياة الراقية حتى تجلت آثار ذلك في كل مظاهر حياته بما فيها الكتابة .

وقد سلك النثر الفني في كل من الأندلس والمغرب طريقا موازيا للذى سلكه النثر في المشرق . ابتدأ بسيطا سهلا عاريا من كل زخرفة لفظية معتمدا على الايجاز والوضوح في أول أمره ، ولكن ما أن ظهرت ألوان البديع بين أدباء العراق ومصر والشام حتى رأيناها تستحوذ على أقلام الكتّاب الأندلسيين الذين كانوا في سباق مستمر مع المشارقة في ميدان الابتكار والتجديد ، فأخذوا يتنافسون هم الآخرون في استقصاء أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية مضاهين بها أساطين البديع بالمشرق مقلدين ومولدين حينا ، ومبتكرين ومبدعين أحيانا أخرى .

ونحن اذا ما ألقينا نظرة على الكتب النقدية الأندلسية التي ظهرت بين القرنين الرابع والسادس الهجريين وجدناها تجمع على تحبيذ البديع وتجعله مناط كلامها ، ومحور نقدها ، بل هو المحك الأساسي الذى تعير به كل انتاج أدبي .

ـ فهذا ابن شهيد الأندلسي (.../426)(1) يعبر عن رأيه في احدى رسائله عن هذا التطور الذى أصاب النثر بقوله : " وكما أن لكل مقام مقال ، وكذلك لكل عصر بيان ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه ... ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفنّ الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان ؟

---

(1) انظر ترجمته في كل من الذخيرة 1/1/ ص : 191 وما بعدها — وجذوة المقتبس ص : 123 — 127 — وبغية الملتمس رقم : 437 — والمغرب : ج . 1 . ص : 78 — 85 .

فالصنعة معهم افسح باعا ، وأشدّ ذراعا ، وأنور شعاعا ، لرجحان تلك العقول ، واتساع تلك القرائح في العلوم . ثم دار الزمان دورانا ، فكانت إحالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابن وهب ونظرائهم . فرقت الطباع ، وخفّ ثقل النفوس ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقة الكلام كلف ، فكانت احالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابها "[1].

— وكان ابن بسام ، مع اعتداله ، يرى أن البديع " قيم الأشعار وقوامها وبه يعرف تفاضلها وتباينها "[2].

وكان ابن خفاجة يميل الى النثر المشرقي الذى اشتهر على يد أبي العلاء المعرى وطبقته ، فقد كان يحذو حذوهم حتى عدّ الكلاعي أسلوبه من النثر المرصع الذى يدخل في نطاقه أسلوب المعرى واستشهد له بنماذج من شعره[3].

— أما أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي وهو أحد رجال القرن السادس ، فقد اهتمّ اهتماما خاصا بالنثر وأنواعه ، وقصر عليه كتابه الذى سماه " أحكام صنعة الكلام " وقد عبر فيه عن رأيه في السجع بقوله : " والذى عندى في هذا أن النثر والنظم اخوان فكما لا يقدح في النظم تكلف الوزن والقافية كذلك لا يقدح في النثر تكلف السجع ."[4]

— تلك هي نظرة النقاد الأندلسيين الى البديع الذى أستفحل انتشاره بين طبقات الكتاب منذ عهد الطوائف ، فعمّ جميع

---

(1) ابن بسام : الذخيرة 1/1 / ص : 237 .

(2) نفس المرجع ، ص : 16 .

(3) محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص : 365 ، بيروت 1968 .

(4) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي : أحكام صنعة الكلام : ص : 236 . ت . رضوان الداية ، دار الثقافة بيروت 1967 .

الأجناس الأدبية، وقد تجلت آثاره خاصة في ثلاثة أنواع منها هي : الرسائل الديوانية، والرسائل الاخوانية والمقامات وما في معناها .

أ ـ 1) الرسائل الديوانية :

ـ يبدو أن تعدد الامارات في الامبراطورية الاسلامية في كل من المشرق والمغرب كان من أهم الأسباب التي ساعدت على نمو الثقافة الأدبية بصفة عامة خاصة منها الكتابة الفنية .

فقد لاحظ الدكتور شوقي ضيف أن أشهر الكتاب من أمثال : ابن العميد، والصاحب بن عباد وأبي اسحاق الصابي، وأبي الفتح البستي[1]، وعلي بن محمد الاسكافي[2] وأضرابهم قد ظهروا كلهم بعد انقسام الدولة العباسية الى امارات على يد السامانيين والبويهيين والزياريين ثم الغزنويين بعد ذلك . وهو يرى "أن الحياة الأدبية ازدهرت ازدهارا لم تعرفه في أي عصر سابق . اذ كان كل حاكم في امارة من هذه الامارات السابقة يختار في حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين لينافس بهم حكام الامارات في الدول الأخرى"[3].

---

(1) كان في أول أمره كاتبا لأمير مدينة "بست" الأفغانية ثم التحق بديوان الدولة الغزناوية، فأصبح من المع كتابها، ذكره الثعالبي في اليتيمة : ج.4. ص: 94 دون أي يورد له شيئا من رسائله .

(2) جمع بين الكتابة والوزارة في الدولة السامانية . قال عنه الثعالبي في اليتيمة : ج.4. ص: 90 "هو لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها في الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله في البراعة والصناعة . ويقول عنه أيضا كان أكتب الناس في السلطانيات، فاذا تعاطى الاخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع".

(3) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه : ص: 134. ط. الثانية، بيروت .1956

ونلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للأندلس، بعد ان انقسمت الى دويلات اثر الفتنة الكبرى ، حيث نجد كلّ أمراء الطوائف يتنافسون في استقطاب أشهر الكتّاب وأكبر الأدباء لاستخدامهم في بلاطاتهم ليباهوا بهم جيرانهم .

وقد أذكت هذه الظاهرة المحمودة جذوة الحماس في نفوس الأدباء فأخذوا يتنافسون في الانشاء والابتكار ، ويتبارون في الابداع والتجويد ، حتى برعت منهم طائفة كبيرة في ميادين شتّى .

والواقع أن كتّاب الدواوين كانوا يلاقون أكبر المشاق في انتزاع ألقابهم ككتّاب ، اذ أنّ مهمتهم هذه كانت تتطلب منهم أن يأخذوا أنفسهم بثقافة واسعة يلمون فيها بجميع أنواع المعرفة الموجودة بعصرهم . هذا الى جانب صناعة الانشاء التي كانت تتطلب منهم موهبة خاصة وقدرة كبيرة على التدبيج والزخرفة وحسن التصرف في استعمال ألوان البديع .

ولا شك أن الذى ساعد هؤلاء الكتّاب على تكوين أنفسهم بهذا الشكل، ويسّر لهم أسباب التفوق والنجاح في ميدان الترسل وأكسبهم خبرة واسعة في شؤون التسيير هو كثرة الممارسة ، وطول الدربة على حلّ المشاكل السياسية المعقدة التي كانت تتعرض لها الدويلات التي كانوا ينتمون اليها ، نتيجة الاحتكاكات المستمرة بينها وبين جاراتها . فقد كانت مناصبهم تفرض عليهم أن يقوموا بدور الملطف للأجواء والمهدىء للأعصاب ، كما تحتم عليهم حلّ كل المشاكل بالطرق السلمية . وكم أغنت كتب عن ارسال كتائب وكم حلّت الأقلام من مشاكل معقدة عجز عن حلّها حدّ السيف !

فلا غرو اذن أن يتنافس عليهم الملوك والخلفاء كل هذا التنافس ولا عجب أن يخفضوا لهم جناح الذل ويحيطوهم بكل رعاية وتقدير « ويتهادوهم تهادى الريحان يوم الصبا سبب » على حد تعبير ابن سعيد [1].

---

(1) ابن سعيد : المغرب : ج . 2 . ص : 33 .

ولقد كان المغرب في العهد المرابطي وصدر الدولة الموحدية يعتمد اعتمادا كليا على الكتّاب الأندلسيين الذين نبغوا في هذا العهد الذى عرف أعلى قمة في الازدهار الثقافي. وقد بقيت كل من قرطبة واشبيلية ومرسية، وبلنسية، وغرناطة، وسرقسطة[1]، وغيرها من العواصم الأندلسية، تمدّ مدن المغرب بالكتّاب الممتازين حتى ما بعد العهد المريني[2].

وكان جلّ الأدباء الأندلسيين الذين استعان بهم الموحدون في صدر دولتهم لتسيير الأمور الادارية بالدواوين من الكتاب، وان اشتهر أغلبهم بقرض الشعر أيضا. الا أن الذى رشحهم للانخراط في البلاط هو نثرهم لا شعرهم، باعتبارهم كتّاب. وهذه الطبقة كانت تمثل الصفوة الممتازة بالنسبة لكل مثقفي العصر. لذلك كان لقب الكاتب أسمى ما يطمح اليه الأديب في ذلك الوقت لما كان يخوله له من مركز اجتماعي مرموق. أما الشعراء — على علو قدرهم — فهم لم يستطيعوا، يوما، أن يرتقوا الى مصاف الكتاب، لأنّ دور أغلبهم كان يقتصر على المسامرة والمنادمة. وحتى هذه المكانة لم يكونوا يصلون اليها في أغلب الأوقات، الا بفضل الكتاب الذين يتوسطون لهم لدى أمرائهم ليقربوهم من مجالسهم.

وقد بلغت الرفعة ببعض الكتاب أن أصبحوا هم أنفسهم منتجع الشعراء يمدحونهم كما يمدحون الملوك والأمراء وينالون رفدهم قانعين.

وقد كان لهؤلاء الكتاب الأندلسيين الذين احتكروا أغلب الدواوين الموحدية في عهودها الأولى أكبر الأثر في توجيه الثقافة المغربية بصفة عامة وصبغها بالصبغة الأندلسية خاصة منها الكتابة الفنية.

---

(1) كانت الأندلس تنقسم في القرن السادس الى ست ولايات، وهي هذه التي ذكرناها — انظر: عنان: عصر المرابطين والموحدين (القسم الأول) ص: 415.

(2) H. Peres. La Poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades Hes eris : 1934.P. 10.

ونستطيع أن ندرك مدى قوة هذا التأثير اذا عرفنا ما كان يتمتع به الكاتب من نفوذ لدى السلطان في ذلك العهد .

يقول القلقشندي في وصف منزلة الكاتب ـ نقلا عن صاحب مواد البيان ـ " ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهماته ، أخص من كاتب الرسائل . فانه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والافضاء اليه بمهمته ، وتقريبه من نفسه ، في آناء ليله وساعات نهاره . . . فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن الى قريب ولا نسيب ركونه اليه "(1) .

وهكذا كان موقف الموحدين مع كتابهم من حيث الثقة . وقد زادهم تعلقا بهم وركونا اليهم ما لمسوه فيهم من كفاءة علمية وحنكة سياسية . فأسلموا لهم القياد في الشؤون الثقافية خاصة فتخرجت على يديهم طبقة كبيرة من الكتاب المغاربة بالدواوين التي كانوا يشتغلون بها ، من أمثال : أبي جعفر بن عطية ، وأخيه أبي عقيل ، وأبي القاسم القالمي ، وأبي الفضل ابن محشرة وغيرهم .

ـ الكتاب المغاربة :

1) يعد أبو جعفر بن عطية من أوائل الكتاب المغاربة الذين تخرجوا على يد الأندلسيين الذين أقاموا بالمغرب ، فقد ذكر ابن الخطيب في ترجمته أنه ولد بمراكش سنة 527 هـ . وتثقف بها على يد " طائفة كبيرة من أهل مراكش " كما وصفه بقوله : " كان كاتبا بليغا، سهل المأخذ ، منقاد القريحة، سيال الطبع ، رائق الخط "(2) .

---

(1) القلقشندي : صبح الاعشى : ج . 1 . ص : 101 ـ 102 .

(2) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة م . 1 . ص : 271 ط. دار المعارف ـ يبدو أن هناك وهما في سن ولادته ، فقد ذكر ابن الابار أنه ولد في سنة 517 ـ انظر الحلة السيراء : ج . 2 . ص : 238 .

وقد تأثر في تكوينه ، خاصة ، بأبيه الذى كان كاتبا لعلي بن يوسف بن تاشفين ثم لابنه تاشفين[1]. وقد برزت معالم نبوغه مع نهاية الدولة المرابطية حيث كتب لآخر أمرائها ابي اسحاق ابراهيم . وعندما آل الأمر الى الموحدين تنكر ، وأخفى نفسه الى أن اكتشفه أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاني أحد أشياخ الموحدين الذين قضوا على ثورة الماسي الذى ظهر بالسوس الأقصى . حيث كتب عنه رسالة النصر التي بعث بها هذا القائد الى عبد المؤمن بن علي . وكان ذلك سببا في عودة ابن عطية الى مسرح السياسة حيث سماه الخليفة على ديوان الرسائل وقلده وزارته [2].

وهذه نبذة من رسالته المشهورة التي وصف فيها انتصار الموحدين على الماسي : "كتبنا هذا من وادى ماسة ، بعدما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح بهر الأنواره اشراقا ، وأحدق بنفوس المؤمنين احداقا ، ونبه للأماني النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا . جمع أشتات الطلب والأربه وتقلب في النعم أكرم منقلب ، وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب .

فتح تفتّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولائك الضالون المرتدون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفر

---

(1) ذكر ابن الخطيب أن أبا جعفر هذا قد كتب لكل من علي بن يوسف ثم لابنه تاشفين قبل أن يكتب لأبي اسحاق ابراهيم . وأظنه واهما ، لأن الذى كتب عنهما هو أبوه أبو أحمد كما ذكر ابن خلدون في العبر : ج . 6 . ص : 480 .

(2) انظر تفاصيل ذلك عند كل من : المراكشي : المعجب ص : 266 ، وابن الخطيب : الاحاطة : ج . 1 . ص : 271 ـ والمقرى : نفح الطيب : ج . 5 . ص : 183 وما بعدها .

معنى واسما ، وأملى لهم الله ليزدادوا اثما ، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فاتته المخاطبة من بعد وكثب ، ونسلت اليه الرسل من كل حدب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم لذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وصول من بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على رغمه بالصيام والقيام ، آناء الليل والأيام . لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله لهم الى التوفيق بابا ".

يتبين لنا من هذه الفقرة أن ابن عطية قد سلك في كتابة رسائله الديوانية نفس النهج الذى انتهجه معاصروه من الكتاب ، من حيث الجرى وراء المحسنات البديعية ، واقتناص السجع ، ولكن دون أن يضيّع المعنى أو يسفّ به . ونراه يعتمد كثيرا على الاستشهاد والاقتباس والتضمين . وتلك ميزات طبعت كل الرسائل الديوانية والاخوانية التي كتبت في هذا العصر .

وقد وفق ، خاصة ، في " براعة استهلاله " حيث اختار له آية توحى بفحوى موضوع الرسالة وهو قوله تعالى : " وما النّصر الاّ من عند الله العزيز الحكيم " . وكثيرا ما كان يكتفي في اقتباسه بتضمين الآية تضمينا لطيفا موفقا ، حيث يختار الآية الأكثر اتصالا بالموضوع فيضمنها كلامه دون الاشارة اليها فتأتي منسجمة تماما مع بقية الألفاظ وتضفى على كل ما حولها نوعا من الاشراق والجلال . وذلك كما في قوله : " وأملى لهم الله ليزدادوا إثما " (انما نملي لهم ليزدادوا اثما) وفي قوله "آناء الليل والأيام " (آناء الليل وأطراف النهار) وفي قوله " ونسلت اليه الرسل من كل حدب " (وهم من كل حدب ينسلون) .

---

(1) ابن الخطيب : الاحاطة : م. 1. ص: 277.

ولعل أبرز ظاهرة يلاحظها الدارس للرسائل الموحدية هي تلك الصبغة الدينية التي تكاد تميزها عن كل الرسائل الديوانية الأخرى.

فلا شك أن ذلك راجع، بالدرجة الأولى، لنوع الثقافة الأصلية التي يحملها أصحابها، اذ أغلب كتاب الموحدين هم في أصل تكوينهم مفسرون ومحدثون وفقهاء وأصوليون قبل أن يكونوا أدباء. فلا عجب اذن أن تطبع رسائلهم الأدبية بثقافتهم الأصلية.

أضف الى ذلك، أن العصر، نفسه، كان عصر تقشف وزهد، فقد رأينا من قبل كيف كان الناس يميلون في هذا العهد الى حياة التصوف، ويركنون لكل ما يذكرهم بالآخرة نتيجة الكوارث العظمى التي تعرض لها المسلمون في كل من المشرق والمغرب. لذلك جاء كل ما أنتج من ألوان الأدب في ذلك العهد متسما بالطابع التعليمي الوعظي. فالمتصفح للرسائل الموحدية التي كتبت في هذا العهد يجدها لا تفرق كثيرا عن الخطب الوعظية لما تتضمنه من آيات وأحاديث ومواعظ وحكم وما الى ذلك.

فهي تبدأ بالحمد له وتثني بالصلاة على النبي (ص) وآله ثم بالترضي على الامام المهدى المعصوم، ثم بالدعاء للمرسل له ثم تدخل في الموضوع الأصلي، وغالبا ما يكون تبشيرا بنصر، أو وصفا لمعركة، او حضا على تعبئة أو دعوة لجهاد أو ما الى ذلك من هذه الأمور التي لا تكاد تخرج عن دائرة أركان الدين. ثم تأتي الخاتمة أخيرا في شكل مواعظ ونصائح، وارشادات، يتخلل كل ذلك آيات وأحاديث، ومواعظ، وارشادات، وهذا بالنسبة لأغلب الرسائل الديوانية التي وصلتنا عن هذا العهد.

— وقد وصف القلقشندى طريقة كتابة الرسائل الموحدية من خلال بعض النماذج التي اتصل بها، فذكر أنها على صنفين:

— الصنف الأول، تفتتح الكتابة فيها بلفظ " من فلان الى فلان" وكان الرسم فيها أن يقال من أمير المؤمنين فلان ويدعى له بما يناسبه الى فلان ويدعى له بما يليق به. ثم يؤتى بالسلام،

ثم يوتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضية على الصحابة ، ثم عن امامهم المهدى ، ثم يوتى على المقصود ، ويختم بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب اليه "[1].

ـ والطريقة الثانية تفتتح الرسالة فيها بلفظ "أما بعد" ثم يتبع فيها نفس الأسلوب الذى للطريقة الأولى .[2]

ـ وتتجلى لنا هذه الميزات بوضوح أكثر في الرسالة التي كتب بها ابن عطية لطلبة بجاية ، يوصيهم فيها باقامة الحدود ، وهي المعروفة برسالة الفصول : يقول في مستهلها :

" من أمير المومنين ـ أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته ـ الى الطلبة الذين ببجايةـ أدام الله كرامتهم ، ووصل صونهم وحمايتهم ـ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد . فانا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه ورسوله . ونحمد الله على ما أمد به هذه الدعوة العظيمة ، والكلمة العلية الكريمة ، من الأضواء والأنوار ، وقرن بعزائم أوليائها من الأخذ بحجز العباد من التهافت في النار ، وأحكم بايمانهم من معاهد الهدى التي من استمسك بها فقد فاز بعقبى الدار ، وأبان بهم معالم السنة المستبينة الضوء الهادية المنار ، التي من سلك جددها فقد أمن من العثار ، ووقف هممهم لديه من مراعاة أمور الدين في النائي والداني من الأقطار . . "[3]

وبعد هذه المقدمة التي لا يقصد الكاتب من ورائها ، في الواقع ، الا التنويه بمآثر الحركة المهدوية ، والاشادة بما قامت به من احياء معالم السنة . نجده يستمر في حمده وتسبيحه بألفاظ تكاد تلخص

(1) القلقشندى : صبح الأعشى : ج . 6 . ص : 443 .
(2) المصدر السابق .
(3) ليفي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية : ص : 126 ـ 127 ـ الرباط 1941 .

أهم ما جاء في رسالة التوحيد، فيقول : " نحمده حمد من اهتدى الى أنه الموجود المطلق الذى لا يتقيد بالأمكنة والأعصار، الواحد، الفرد، الصمد، المنزه عن الشركاء والأنظار، المتعالي عن صفات التغيّر والانتقال والعجز والافتقار، المحيط بجميع الموجودات احاطة لا تحدّها حدّة الأذهان، ولا تلقحها دقائق الأفكار . لا اله الاهو لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار "(1).

فهذه الفقرة، لا تكاد تختلف في شيء عن أية خطبة من خطب الجمعة المألوفة، لما تتضمنه من حمد، وتسبيح، وتوحيد، وما الى ذلك .

ثم يعود الكاتب للصلاة على النبي (ص) ليمهد بذلك للترضى على الامام المهدى المعصوم، ويشيد بما قام به من نشر للعلوم الحقة، بعدما وأدها " الرغام الأغمار " (ويقصد المرابطين) وينوه بما قام به من تغيير للمناكر، واظهار للحق، وتخليص لمصادر الدين مما أصابها من الشوائب والأكدار فيقول : " ... ونصلي على محمد نبيه المبعوث من أكرم نجار ... وعلى آله وصحبه السالكين في ذلك السّنن والمجرين في ذلك المضمار . ونواصل الرضى على الامام المعصوم، المهدى المعلوم، القائم بأمر الله تعالى لما ارتفع العلم بقبض العلماء الأخيار، وأعجب كلّ ذى رأى برأيه من الصّمّ البكم الرغام الأغمار، وقامت خطباؤهم بأفانين التضليل وضروب الاغترار، وقلبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أخفى دين الله تعالى الذى تكفّل له بالاظهار، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاج الى اطالة في تعديده مع الوضوح والاشتهار، فجلّى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظلم المشتدة الاعتكار، وأبان بمعجز علمه من العلم بالله تعالى ورسله، وبما جاء به رسله ما كان في طيّ الخفاء والاستتار، وعلم طرق العلم بها التعليم الذى انتفع به أولوا التيقّن والاستبصار، وطرح عن موارد الدين ما شملها من الشوائب والأكدار... "(2)

---

(1) ليفي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية : ص: 126_127، الرباط، 1941 .
(2) المصدر السابق، ص: 128 .

ـ وبعد هذه المقدمة الطويلة ، يذكر الكاتب المكان الذى كتبت منه الرسالة ، وهو رباط الفتح . ويدعوا للمرسل والمرسل لهم ممهدا بذلك للدخول في الموضوع بما قام به أولوا الأمر من جهاد ، لتثبيت الشريعة الحقة في وقت ارتفع فيه العلم وحلّ الجهل ، وانبسط الجور ، وانقبض العدل بتملك الهمج الرعام ، والشحّ المطاع. ثم يعود مرة أخرى لذكر ما قام به المهدى من أعمال حيث ". . . بصّر وعلّم ، وثقف وقوّم ، وأتقن وأحكم ، ونوّر ما أظلم ، وأظهر ما استتر وأبهم ، وأنجد في تعليم العلم وأتهم . . ."(1)

ثم يأتي بسط الموضوع الذى أنشئت من أجله الرسالة ، وهو التحريض على القيام بشعائر الدين واقامة الحدود ، وقد جاء ذلك في شكل أوامر ونصائح وارشادات . فبدأ أولا بفرض قراءة التوحيد تعليما لكل مكلف بالغ ، ذكر أو أنثى ، عبدا ، كان ، أو حرا . كما أمر طلبة الحضر بقراءة العقيدة وحفظها وتفهّمها " اذ لا يصحّ لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد ، فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل ولا بالرسالة . . ."(2)

ـ كما أمرهم باقامة الصلاة وإتاء الزكاة ، وتتبع المدمنين على شرب الرّبّ ومحاربة التلصص والفجور بكل أنواعه ، واقامة الحدود على كل من خالف الشرع في هذه الأمور .

ثم تعود الرسالة الى الحض على تعليم الناس قراءة توحيدهم مركزة عليه أيما تركيز ثم تختم بالدعاء كما بدأت به .

فالمتتبع لأجزاء هذه الرسالة يجدها مبنية أساسا على الاقتباس والتضمين ، بحيث لا تكاد تخلو فقرة من فقراتها من معنى آية كريمة أو حديث شريف ، أو حكمة مأثورة أو مثل سائر .

والواقع أن ميدان الاقتباس والتضمين والاستشهاد من أفسح الميادين التي يتبارى فيها الشعراء والكتاب لاظهار قدرتهم على حسن الاختيار،

---

(1) ليفي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية : ص : 129. الرباط 1941.
(2) المصدر السابق ، ص : 132.

وخلق المناسبة اللائقة لما يقتبسونه حتى يأتي منسجما متناسقا مع ما ينشئونه ، كما يسعون بذلك الى نوع من الاستظهار لمحفوظاتهم ، وسعة اطلاعهم ، وكثرة معارفهم .

الا أن الملاحظ في اقتباسات الرسائل الموحدية أنها تعتمد خاصة على القرآن والسنة كما هو واضح في هذه الرسالة ، فنحن نلاحظ ذلك مثلا في قوله : " لا اله الا هو ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار "[1] هي من قوله (لا إله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)[2] . وفي قوله : " وآخذوا باقامة الصلاة التي هي الكتاب الموقوت على المؤمنين "[3] هي قوله (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)[4] . وفي قوله : " والناهية عن الفحشاء والمنكر "[5] هي قوله : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[6] . وفي قوله " لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة "[7] حيث ضمن معنى الحديث الذى يقول : " ليس بين العبد والكفر الا تركه الصلاة "[8] . ثم في قوله : " وآمر بالنظر في الربوب . . . فالخمر أم الكبائر[9] (قول مأثور) . وفي قوله : " وهي رجس من أعمال الشيطان "[10] ، هي من قوله (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)[11] وفي قوله : " وليكشف عن الذين يخرمون الناس ما ليس قبلهم ويأكلون بالباطل أموالهم "[12] هي من قوله (والذين يأكلون أموال الناس بالباطل)[13]

---

(1) رسائل موحدية : ص : 127 .
(2) سورة الأنعام ، الآية رقم : 101 .
(3) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 132 .
(4) سورة النساء ، الآية رقم 103 .
(5) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 132 .
(6) سورة العنكبوت رقم الآية 45 .
(7) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 132 .
(8) انظر النص الحقيقي للحديث لدى عزالدين بليق : منهاج الصالحين ص : 162 .
(9) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 133 .
(10) المصدر نفسه ، ص : 133 .
(11) سورة المائدة ، رقم الآية 90 .
(12) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 133 .
(13) سورة النساء ، رقم الآية 161 .

ـ وأهم ما يلاحظه الدارس لهذه الرسائل الديوانية التي كتبت في هذا العهد ـ اضافة الى ظاهرة الاقتباس والتضمين والاستشهاد ـ هو اهتمام كتابها بالتوشية والتنميق اللفظي لدرجة الافراط أحيانا . اذ كثيرا ما نرى الكاتب يكرر المعنى الواحد عدة مرات في الرسالة ، لا لشيء ، الا لأن السجعة اقتضت ذلك . بل كثيرا ما يأتي معنى الجملة المسجوعة أجوافا أو غامضا ، لكن ذلك لا يضيره ما دامت الجملة جاءت تامة من حيث الشكل . وهذا هو السبب الرئيسي الذى دفع بكتاب القرون الوسطى الى الأطناب والتكرار الممل في كل كتاباتهم . لأنهم ، في الحقيقة ، لم يستطيعوا أن يتخلصوا من قبضة البديع التي سيطرت عليهم سيطرة كاملة .

ـ وهذا هو الأسلوب الذى اعتمده ابن عطية في كل كتاباته . نراه يجري وراء اقتناص المحسنات اللفظية حتى ولو أدّى به ذلك الى الشقشقة اللفظية أو التكرار الممجوج . وهذا كله لاستعراض قدرته على التلاعب بالألفاظ . نلاحظ هذا مثلا في اشادته بمآثر المهدى في هذه الرسالة ، حيث تحدث عنها ، نفسها ، مرتين في ذات الرسالة . فلم يكتف بذلك فعاد الى ذكرها مرة ثالثة ، فكرر نفس المعاني ، لكن بألفاظ بديعية مغايرة . فهو بعد ما أشار في المقدمة الى ما قامت به " هذه الدعوة العظيمة " (ويعني بها الفكرة المهدوية) من الهداية وابانة معالم السنة ، نجده يعود الى شرح ذلك مرة ثانية ، بعد ترضيته على الامام المهدى ، فيقول واصفا المناكر التي قام بتغييرها والعلوم التي قام بنشرها : " فجلى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظلم المشتدّة الاعتكار ، وأبان بمعجز علمه من العلم بالله تعالى ورسله ، وبما جاءت به رسله ما كان في طيّ الخفاء والاستتار ، وعلّم طرق العلم بها التعليم الذى انتفع به أولو التيقن والاستبصار ، وطوح عن موارد الدين ما شملها من الشوائب والأكدار ... "(1)

---

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 128 .

- ثم عاد مرة ثالثة لنفس الموضوع فقال منوها بما قام به المهدي من نشر العلوم : " ... فبصّر وعلّم وثقف وقوّم ، وأتقن وأحكم ، ونوّر ما أظلم ، وأظهر ما استتر وأبهم ، وأنجد في تعليم العلم وأتهم "(1).

فهو لم يضف جديدا بكل هذه الألفاظ الرنانة الجميلة والفقر المقفاة الموزونة ، لما سبق أن قاله في الموضوع، اللّهمّ الا ما تحمله هذه الجمل من توشية لفظية أو زخرف بديعي .

- ونحن لو دققنا النظر في كل هذه الفقر التي أوردناها آنفا ، لوجدنا نصف كلماتها التي تتكون منها حشوا ، أي أن اللفظة الثانية ، في كل فقرة من هذه الفقرات زائدة أتى بها لمجرّد المقابلة أو الطباق أو السجع . فكلمتا : " بصّر وعلّم " في الفقرة الأولى معناهما واحد ، وكذلك ثقف وقوّم ، بالنسبة للفقرة الثانية ، وأتقن ، وأحكم بالنسبة للثالثة . ويقول في الرابعة " نوّر ما أظلم " وهل ينور غير المظلم ؟ ! وكذا في الخامسة " وأظهر ما استتر وأبهم " ، فالاظهار لا يكون الا للشيء المستتر المبهم . أما الفقرة الأخيرة التي كنى فيها عن كثرة تنقلات المهدي في سبيل نشر العلم ، انما جيء بها للتجميل أكثر مما أتي بها للتعبير عن واقع . اذ لم يثبت يوما عن ابن تومرت أنه تنقل في البلدان لنشر العلم فحسب . هذا اذا استثنينا تعليمه بالمدن التي مرّ بها من المشرق وهو في طريق عودته الى بلاده . لذى نرى أن جملة " أنجد وأتهم " انما جيء بها لشيوع استعمالها بين الكتّاب المشارقة الأول من جهة . ولما تحمل في طياتها من ذكر نجد وتهامة اللتين توحيان بالأماكن المقدسة التي تعتبر لدى المغاربة المهد الأول للثقافة والعلوم .

- وهناك نوع آخر من التكرار نلاحظه في هذه الرسالة ، يتجلّى في تركيز الكاتب على فرض قراءة التوحيد ، ونشر العقيدة والزام الناس بحفظها وتلاوتها حيث كرّر ذلك عدة مرات وبأساليب مختلفة . الا أن هناك ما يبرر هذا التكرار .

---

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 129 .

فان هذه الرسالة ، كما نعلم ، كتبت في أوائل العهد الموحدى وكان المقصودون بها أساسا هم أهل بجاية الذين أبدوا نوعا من النفور ازاء الحركة المهدوية خاصة علماؤهم المالكية الذين أنفوا أن يتعاونوا مع النظام الجديد .

— على أن كل هذا لا يقلل من قيمة هذا الكاتب المخضرم الذى طبع كلا العهدين اللذين عاش فيهما بطابعه الخاص وأثر فيهما بطريقته الفذة ، وهذا على قصر عمره ، حيث قتل وهو لا يزال في عنفوان الشباب لم تتجاوز سنه السابعة والثلاثين . فقد كان فقده أكبر خسارة منيت به الأوساط المثقفة المغربية في ذلك العهد . وهذا بشهادة عبد المؤمن نفسه الذى عبّر عن أسفه لفقده بقوله : " ذهب بن عطية وذهب الأدب معه "(1).

ورسائل ابن عطية الديوانية لا تعكس ، في الواقع ، الا جانبا واحدا من مواهبه الانشائية . فهناك نوع آخر من الكتابة تجلت فيه قدرته أكثر على الابداع ، سنعود لذكره بعد حين ، عندما نتناول الرسائل الاخوانية .

— 2) ومن الكتاب المغاربة الذين اشتهروا في هذا العهد ، أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر المعروف بابن محشرة البجائي الذى ولد في حدود سنة 540 ، وكان قد اشتهر بالكتابة والترسل ، تتلمذ على أبي القاسم القالمي ، كاتب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . ولما توفّي هذا الأخير ولّاه الخليفة خطة الكتابة فارتحل الى مراكش وهو كاره لمفارقة بلده رغم شرف المنصب الذى أسند له ، لأن عزة العلم أغنته عن الناس ، كما قال الغبريني (2).

وقد حفظ لنا التاريخ بعضا من رسائله الديوانية التي كتبها عن كل من الخليفتين يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور

---

(1) المراكشي : الاعلام : ج . 1 . ص : 222 .
(2) ترجم له الغبريني : في عنوان الدراية : ص : 53 — 54 .

من بعده ، دلّت على قدرته الفائقة في الانشاء ، كما برهنت على غزارة علمه ، وسعة معارفه في ميدان الثقافة والأدب .

وقد رأينا أن نذكر له نموذجا من رسائله الديوانية هذه لنطلع على طريقته في الكتابة ، فاخترنا له القطعة التالية من رسالة كتب بها عن الخليفة المنصور الى أهل اشبيلية يأمرهم فيها بتحريم بيع الربوب وقطعها ، يقول فيها بعد المقدمة التقليدية المعهودة ما يلي : " . . . فان الناس تجوّزوا في أمر الربوب تجوّزا أغفلوا فيه الاجتهاد ، ورتعوا حول حماه رتعا أوقعهم فيه أوكاد ، وتسامحوا فيه تسامحا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد . وحاول اتخاذه وبيعه من لا يتوقف على احترام ، ولا يتخوف بما يكتسب من آثام ، ولا يقف عند قوله — عليه السلام — ما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام . ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحق والناظر في مصالح الخلق ، يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع ، والاحتساب أبدا يتخولهم بأتم القهر والمنع ، والقتل في كل حين يأخذهم بأشد الكف والردع ، والحالة الذميمة يزداد بهم تماديها ، والعادة السيئة المشؤومة تحجبهم عن الحقيقة باستمرار تواليها ، ويذهلهم استصحاب الاسترسال وتمادى الذهول عن الواجب والاغفال ، عن تدارك زلاتهم وتلافيها . والذى أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشراء ، ما أنهى طبخه غاية الانتهاء . وصيّر جرمه في قوام الطلاء . كما فعل عمر — رضي الله عنه — اقتداء بالخلفاء ، واهتداء بالأئمة الصلحاء ، والصحابة البررة الاتقياء ، وأخذا بقوله — صلى الله عليه وسلم — : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " اتباعا لأمره — عليه السلام — واقتفاء ، ووقوفا عند المراسم الشرعية وانتهاء ، فتعدّى الناس ما حدّ لهم وتدرّجوا الى ما يختاره الله ويرتضيه وارتكبوا من اللبس والشبهات في ظلم الاختلاط ودياجيه "(1).

---

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 165 — 166 .

ان أول ما يستكشف من هذا النص هو كثرة انتشار أنواع الربوب ، وشيوع شربها بين أفراد المجتمع الأندلسي . يدلّ على ذلك — خاصة — ما أشارت اليه الرسالة من كثرة الحوانيت التي استحدثت لبيعها والدور التي تخصصت في صنعها [1].

وقد كانت هذه الربوب تتخذ من كل أصناف الفواكه والتمور ، كما هو معلوم ، الا أن الذي كان يرخص شربه منها هو ذلك النوع الغير المسكر ، أما الذي اختمر منها ولم يغلى حتى يذهب ثلثاه فهو يدخل في عداد الخمور المحرمة [2].

ويبدو أن صانعي هذه الربوب كانوا يتحايلون في صنعها فيدسون فيها بعض المسكرات ويبيعونها باسم الربوب الجائزة ، فراجت بذلك الخمور بين الناس فأنكر الفقهاء ذلك واشتكوه للخليفة فأصدر فيها أمره بمنع كل الربوب اتقاء للذريعة .

والذى يهمنا من كل هذا هو طريقة معالجة ابن مخشرة لهذا الموضوع والأسلوب الذى توخاه في بسط الفكرة والتعليلات التي أوردها . وكيف تدرج في اقناع مخاطبيه ، بالحجة العقلية حينا ، وبالدليل الشرعي أحيانا أخرى ، الى أن وصل بهم الى اقرار الحكم الذى استقر عليه رأى الخليفة في الموضوع . وهذا كله تبريرا لتصرف السلطان ، واستصوابا لرأيه في تحريم الحلال المشبوه حتى لا يتخذ ذريعة لنشر الحرام .

— بدأ ، أولا ، بحصر أسباب انتشار المسكرات ، فعدّ السوءل الأول على استشراء هذا الداء بين طبقات المجتمع هو تجوّز الناس وافراطهم في استرخاص شرب الربوب دون أن يكلفوا أنفسهم ، يوما ، مشقة التحرّى أو التأكّد والتمييز بين ما استحلّ منها وما حرم ،

---

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 166 .
(2) أنظر مادة (الرّبّ) (ومادة الطلى) في لسان العرب .

فأفضى بهم ذلك الى الخوض في الحرام أوكاد .

ـ وقد ضمن الكاتب هنا معنى الحديث الذى يقول : "ان الحلال بيّن وان الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة ،كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ".

ـ وكان هذا التسامح والاهمال اللذين درج عليهما عامة الناس ، مدعاة لبروز طبقة من الفعيين الذين لا خلاق لهم ، ولا يتحرجون من أىّ اثم يقترفونه فاتخذوا ذلك ذريعة واستغلوا الشبهة فروجوا تجارتها دون أن يقيموا أدنى وزن للنصوص الشرعية الصريحة التي لا تقبل أىّ تأويل كقوله (ص) " ما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام ". وهذا رغم اشتداد أولى الأمر عليهم وأخذهم بالزجر ، حينا ، والقمع حينا آخر . ورغم مطاردة رجال الحسبة لهم وقهرهم .

ـ وقد كان الذى أجازته السلطة ، وأحلت بيعه وشراءه هو ذلك النوع من الرّبّ الذى " أنهي طبخه غاية الانهاء ، وصيّر جرمه في قوام الطلاء "(1).

على أن السلطان في ترخيصه لهذا النوع من الطلاء لم يعتمد فيه على رأيه الشخصي ، بل اقتدى فيه بأحد الخلفاء الراشدين الذين اشتهروا باجتهادهم المصيب وهو عمر بن الخطاب عندما سأله أهل الشام عن الرب فأفتى لهم بجواز شربه (2).

والذى دعاه لاقتدائه هذا هو قول الرسول (ص) " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ".

---

(1) عرف صاحب لسان العرب الطلاء بقوله : " والطلاء ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه ... " وهذا هو الطلاء الذى يجوز شربه . " وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء يريد بذلك تحسين اسمها . قال عبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله :

هي الخمر بكنونها بالطلا كما الذئب يكنّ أبا جعده

(2) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 166.

الا أن الناس تعدوا الحدود التي رسمت لهم وأبوا الا أن يرتعوا في الشبهات .

— ولما فرغ الكاتب من بسط أسباب انتشار الداء نتيجة تساهل الناس من جهة ، وتحايلهم من جهة أخرى ، وذكر ما ترتب عن ذلك من الأضرار وانتهاك حرمة الدين رغم التشدد والمطاردة ، انتقل الى مرحلة ابلاغ الحكم الذى استقر عليه رأى الخليفة ، بعد ما مهد له بما يفيد التروى ، والأناة ، والتدبر والتفكير ، جاء ذلك بمثابة " الحيثيات " التي يعتمد عليها المشرع في بناء حكمه في المراسيم الحديثة . وقد اختار لذلك ألفاظا موحية تدل على الرزانة والتثبت ، نلاحظ ذلك جليا في قوله : " ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرر ، وتردد على أسماعنا ما استرسل فيه وتكرر ، وعلمنا أن الذى وسع على الناس اتخاذه لم يتبين لهم الحق فيه ووجهه ولن يتحرر ، وأن ذلك مما يصعب عليهم بسبب ما تساهلوا فيه ويتعذر ، رأينا — والله المستعان — أن قطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لديهم وأجدر ، فمن العصمة ألا يجدوه ، ومن العون لهم على تركه أن يعدموه ويفقدوه "(1)

— فعلى الرغم من كون كل الأدلة التي سيقت في الرسالة تقرر مسبقا بأحقية أصدار حكم المنع للخليفة وحده ، أبى الكاتب الا أن يسند ذلك لمعونة الله الذى يعتبر المشرع الأكبر . فأضفت الجملة المعترضة — والله المستعان — على الحكم الذى صدر بعدها نوعا من القداسة والجلال أقل ما توحى به للقارىء أن هذا التصرف من طرف الخليفة كان المقصود به وجه الله وحده .

فهو اذن لم يكن متحكما في قراره ولا مبتدعا في تحريم بعض ما أحل الله سدا للذريعة . فقد أشار من قبل كيف كان الخليفة يقتدى في أحكامه بأصحاب الرسول . وهو هنا لم يجد عن قول عمر بن الخطاب المشهور " كنا ندع سبعين بابا في الحلال مخافة أن نقع في الحرام ".

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 166 .

— وعندما اطمأن لما استقر في الأذهان من اقتناع بنزاهة الحكم وعدله ، شرع في اصدار أوامر تطبيقه قائلا : "فاذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عزّ وجلّ ، فاقطعوه جملة وتفصيلا ، ولا تنوجدوا أحدا الى بيعه سبيلا ، واشتدوا في ذلك اشتدادا لا يوسع مستسمحا فيه صدوفا عن هذا القصد الحميد ولا عدولا ، وأخلوا الحوانيت التي كان يباع فيها منه وأفقروها ، وأصرفوها لغير ذلك من المباحث وصيّروها ، والديار المعروفة ببيعه أيضا لا تتركوها على ذلك ولا تقرروها ، وأريقوا ما تلقون من مشتبهه وملتبسه ، وعاقبوا من تجدونه عنده أشد عقوبة على دلسه ، وتتبعوا في ذلك أبلغ تتبّع وأشده . ومن وجدتم عنده رائحتا منه كائنا من كان ، فأقيموا عليه ما وسمه الشرع في ذلك وحدّه ..."(1).

تلك هي الطريقة التي درج عليها ابن محشرة في كتابة رسائله ، فقد كان يعتمد على التسلسل المنطقي في ترتيب أفكاره ، كما رأينا ، ويكثر من التضمين والاستشهاد بالآيات والأحاديث ، والوقائع التاريخية ، مما ينمّ على سعة اطلاعه ووفرة مداركه ، هذا بالاضافة الى تحكمه في اللغة وحسن استعماله للمحسنات البديعية التي كانت ميزة ذلك العصر .

— الكتّاب الأندلسيون :

لقد سبق أن أشرنا من قبل ، الى أن هؤلاء الكتاب المغاربة قد تخرجوا على يد نخبة من خيرة الكتاب الأندلسيين الذين هاجروا الى بلدان المغرب وانتظموا في دواوينه . فليس من العدل ، والحالة هذه ، أن ننوّه كل هذا التنويه بمن تخرجوا عليهم ، ونغض

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية : ص : 167 .

الطرف عمن كانوا هم السبب الأول في نشر هذا اللون من المعرفة ، وقد كان لهم فضل الأسبقية في الميدان . ونحن وان كنا لا نقصد بهذه الدراسة أن نؤرخ لكتاب النثر الموحدى بقدر ما نريد أن نعطي فكرة عن تطور هذا اللون من ألوان التعبير ، ومدى مساهمة المغاربة في تنميته ، الا أننا نرى من الانصاف أن نستوفي جوانب الموضوع بالاشارة الى مشاهير هؤلاء الكتاب الأندلسيين الذين كانوا في الواقع ، هم المديرون الرئيسيون لدفة الكتابة في كل الدواوين المغربية وتعرض لنموذج ، على الأقل ، من كتاباتهم حتى تتسنى لنا المقارنة بين الانتاجين : المغربي والأندلسي ، وندرك بوضوح ما أحرز عليه المغاربة من تقدم في هذا الميدان بالنسبة لشيوخهم .

— لعل أشهر هؤلاء الأندلسيين الذين عرفهم البلاط الموحدى هم أسرة بني عياش التي هاجر أفرادها الى المغرب وانتظموا في خدمة الدولة منذ نشأتها .

كان أول من ظهر منهم في خدمة الخلافة الموحدية هو أبو الحسن بن عياش الذى كتب لكل من عبدالمؤمن بن علي وابنه أبي يعقوب يوسف . وعندما توفي خلفه أبوعبدالله بن عياش حيث كتب لكل من يعقوب المنصور وابنه محمد الناصر وحفيده يوسف المستنصر . وقد شاركه في الكتابة بالنسبة للخليفتين الأخيرين أبوالحسن علي بن عياش بن عبدالملك .وأخيرا جاء أحمد بن عبدالعزيز فكتب لمن بعدهم .

— وكان أشهر هؤلاء كفاءة ، وأبعدهم ذكرا هوأبوعبدالله محمد بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عياش التجيبي الذى ولد ببرشانة بالأندلس سنة 550 هـ . وقد وصفه ابن عبدالملك في التكملة بقوله :

" كان كاتبا بارعا ، فصيحا ، مشرفا على علوم اللسان حافظا للغات والآداب ، كبير المقدار حسن الخلق كريم الطباع ... كثير الاعتناء بطلبة العلم والسعي الجميل لهم "(1).

وقد تألقت شهرة هذا الكاتب ، خاصة ، أيام المنصور الذى كان صديقا شخصيا له ، وكان هو أول من استدعاه الى مراكش سنة 586 هـ . فبقي بها الى أن مات سنة 618 هـ.(2) بعد أن قضى في خدمة البلاط ما يزيد على الثلاثين سنة .

— وقد حفظ لنا التاريخ بعضا من رسائله ، وردت ثلاثة منها في "مجموع رسائل موحدية "(3) كان قد كتبها عن الخليفتين : يعقوب المنصور وابنه محمد الناصر . وقد رأينا أن نورد منها المقطع التالي كنموذج لطريقته في الكتابة ، وهو من رسالة طويلة كتبها عن المنصور الى طلبة فاس يخبرهم فيها عن غزوه للروم في ثغر الأندلس الأعلى .

وسنقتصر على ذكر مقدمتها فحسب ، اذ ليس الغرض هو دراسة تفصيلية لمضمون الرسالة ، وانما المقصود هو الاطلاع على فنية التعبير عند هذا الكاتب .

يقول في المقدمة — بعد الديباجة التقليدية ما يلي : —
"الحمدلله الفتاح العليم ، المنزه بسلطان العقل عن التثليث والتجسيم ، حمدا يكون الى العوارف سميرا ، الواحد الذى استحال عليه جواز العدد واتخاذ الصاحبة والولد ، فتعالى عما يقول الظالمون علوّا كبيرا ، القاذف بالحق عن المبطلين ، وبالصدق عن المكذبين ، ثم لا يجدون وليّاً ولا نصيرا ، مثيب من توجه اليه وتوكل عليه فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة وكان ربك قديرا ، ومنجده من السبع الطباق

---

(1) عبدالملك المراكشي : الذيل والتكملة : رقم 1596.
(2) المراكشي عباس بن ابراهيم : الإعلام : ج . 3 . ص : 95.
(3) انظر ليفي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية ص : 228 وما بعدها .

بمن يغني عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، وكفى بملائكة السماء ظهيرا ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المرسل شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، مطلع الآيات الكبر على مراقب السمع والبصر ، فطوبى لمن كان سميعا بصيرا ، والمجاهد بجيش القرآن من دعاهم الى السجود للرحمن ، فقالوا " أنسجد لما تامرنا وزادهم نفورا " كاسر الصلب والاصنام ، ومعجز فرسان المنطق ورؤساء الكلام ، حيث لم تعدم البلاغة لسانا ولا الرمح مدبرا ، وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه قولا وفعلا ، فكان حكمهم فاصلا ، وسيفهم فاصلا ولواؤهم منشورا ، والرضا عن الامام المعصوم المهدى المعلوم معيد الحق وقد أدّى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، والمبشر بنور هدايته وظهور رايته قلوبا سكن من الجهل قبل الظهور قبورا ، والمحيي بخاصي صفحه وبيانه نفوسا قابلة والمهلك بحادى سيفه وسنانه قوما بورا ... "(1)

ـ فالرسالة ، كما نرى ـ في تساوى جملها ، وتوازن فقرها ، واتحاد رويها ، وما يخلقه كل ذلك من انسجام في النغم ، واعتدال في الموسيقى ، لا تكاد تفرق عن الشعر المنظوم في شيء .

فعلى الرغم مما يحسّ به القارىء من اسجاعها التي يقصدها الكاتب لذاتها أحيانا ، وما يلاحظه من اقتناصه لمحسناتها البديعية الا أن براعته في استعمالها واحكام نسجه الذى درج عليه في كتابة رسالته هذه قد غطى على كل عيوب التكلف ، فبدت وكأنها اسجاع عفوية ومحسنات طبيعية . وهنا يكمن سرّ نجاح هذا الكاتب القدير .

ـ على أن أفضل ميزاته تتجلّى خاصة ، في قدرته الفائقة على التضمين والاقتباس والاستشهاد والتلميح الى الوقائع التاريخية وغيرها بحيث نجده يتلطف في تناول ذلك بطريقة لا تكاد تشعر فيها بأىّ قصد أو تكلّف ، فتأتي الجملة المضمنة أو الآية المستشهد بها منسجمة تماما مع ما قبلها وما بعدها . وتبدو وكأنها تتمة طبيعية لكلامه

---

(1) ليفي بروفنصال : رسائل موحدية ص: 228 ـ 229 .

لا نكاد نشعر في قراءتنا لها بأيّ نشاز أو تنقل فجائي بين الكلامين، هذا مع ما يضفيه الاستشهاد أو التضمين من اشراق وجلال على كل أجزاء الجملة.

— فالمتتبع لفقر هذه المقدمة يجدها تكاد تكون كلها مختومة، اما باستشهاد أو بآية مضمنة.

لقد اكتفى الكاتب في الفقرة الأولى بالتلميح بما يفيد الاشارة الى الموضوع — وتلك "براعة استهلال" موفقة — حيث ضمنها الفكرة الأساسية التي تحدثت عنها الرسالة، وذلك في قوله: "الحمدلله ... المنزه بسلطان العقل عن التثليث والتجسيم"(1)، فأشار بذلك للنصارى الروم الذين غزاهم المنصور. ولا يبعد أن يكون لفظ "التجسيم" الذى عطفه الكاتب على "التثليث"، كان يقصد به أيضا، التعريض بالمرابطين الذين كان الموحدون يلقبونهم "بالمجسمة" فلزهم بذلك مع النصارى في قرن واحد.

— ثم أشار في صدر الفقرة الثانية الى مبدأ التوحيد الذى بنى عليه المهدى دعوته. فاستطاع الكاتب بذلك أن يلخص كل ما قامت بشرحه الرسالة في فقرتين. وتلك براعة لا يطبقها الا أفذاذ الكتاب. ثم نراه يختم هذه الفقرة الثانية بآية قرآنية "ثم لا يجدون وليّا ولا نصيرا"(2) ويضمن الفقرة الثالثة آيتين في قوله: "مثيب من توجه اليه وتوكل عليه فتحا قريبا" (نصر من الله وفتح قريب)(3) ومغانم كثيرة وكان ربك قديرا.

ثم يضمن التصلية على النبي آية أخرى فيقول: "والصلاة على سيدنا محمد نبيّه المرسل شاهدا ومبشرا ...." (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا)(4).

---

(1) ليفي بروفنصال: رسائل موحدية: ص: 228.
(2) الآية رقم 22 من سورة الفتح.
(3) الآية رقم 13 من سورة الصف.
(4) الآية رقم 46 من سورة الأحزاب.

ويختم الفقرة الثالثة بآية قرآنية بعد أن يمهد لها فتأتي وكأنها تتمة طبيعية لسابق كلامه وذلك في قوله : " ... انما المجاهد بجيش القرآن من دعاهم الى السجود للرحمان ، فقالوا : (أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا)[1] . ويقول بعد الترضية عن المهدى . " معيد الحق وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)[2] وهكذا الى آخر الرسالة .

— والى جانب هذا الاكثار من التضمين والاستشهاد بالقرآن ، فهناك ظاهرة أخرى نكاد نجدها في كل رسائله التي وصلتنا ، وهي محاولة ربط كل توفيق أو انتصار أحرز عليه خلفاء هذه الدولة ، سواء أكان ذلك في الحرب أو السلم ، بتأييد قوة من السبع الطباق كما في قوله : " ومنجده من السبع الطباق بمن يغني عن السمر العوالي والبيض الرقاق ، وكفى بملائكة السماء ظهيرا "[3].

ويقول في افتتاحية رسالة أخرى : " الحمد لله فاتح الاغلاق ومانح الأعلاق ، ممد هذه الدعوة الامامية من السبع الطباق . . . "[4] فهم في نظر الكاتب ، لا يتغلبون على أعدائهم بأنفسهم أو بكثرة جيوشهم ، ولكن بالقوة الغيبية التى تضرب ، والسيوف في مضاجع الأغماد ." ... ان الجيوش وان كثرت جنودها ، وانتشرت ذات اليمين والشمال بنودها فلا ثقة الا بالواحد الذى يغلب والكتائب الباغية كثيرة العدد ، والاستظهار الا بالسيف الذى يضرب ، والسيوف في مضاجع الأغماد ، والا فما يؤثر الخميس العرموم اذا لم يكن السعد من نفره ... "[5]

نرى الكاتب يحرص دائما على تفسير أى توفيق يصادق هؤلاء الخلفاء برضوان الله عليهم ، لأنهم في نظره يمثلون الصفوة الممتازة التي انتقاها

---

(1) الآية رقم 30 من سورة الفرقان .
(2) الآية رقم (1) من سورة الانسان .
(3) بروفنسال : الرسائل : ص : 228 .
(4) المصدر السابق ، ص : 241 .
(5) المصدر نفسه ، ص : 230 .

الله من بين عباده لانقاذ هذه الأمة ، باعتبارهم خلفاء المهدى المعصوم ، لذلك نراه يقربهم دائما به في الترضيه عليه ، ويسميهم أحيانا بالخلفاء الراشدين المرشدين المحافظين على العهد الأمامي والميثاق ... "(1)

وفي قوله : " وما زال الخلفاء الراشدون يدعونهم (أى الميورقيين) بالذكر الذى هم له غافلون ، وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وان يهلكوا الا أنفسهم وما يشعرون "(2).

ويقول في رسالة أخرى : " والرضا على الامام المعصوم المهدى المعلوم ... وعن صاحبه وخليفته سيدنا الامام أمير المؤمنين الذى اختاره الله سجيرا ، وللمؤمنين أميرا ، ملتقى راية الامامة في مغرب الشمس ، والله قد أعدّ له في مشرقها منبرا وسريرا "(3).

وفي هذا تلميح لما كانت تطمح اليه الدعوة الموحدية من فتح المشرق كما فتحت المغرب . وقد سبق أن رأينا مثل هذه الظاهرة في الشعر الذى مدح به الموحدون .

فالذى نلاحظه من خلال دراستنا لنصوص ابن عياش التي وصلتنا أن أهم المحاور التي تدور عليها رسائله هي نقطتان : ترسيخ الدعوة الموحدية في أذهان الناس، ثم الدفاع عن أحقية خلفاء المهدى في الولاية من بعده ، باعتبارهم الصفوة المختارة من قبله تعالى ، لتولي هذا الأمر الذى بشر به ابن تومرت .

ولا شك أن هذا هو الذى رفع من قدره في أعين الخلفاء الموحدين الذين خدمهم ، حتى قال فيه مؤرخهم ، عبدالواحد المراكشي : " لم يكتب لهم منذ قام أمرهم — أعني من كتبة الانشاء — من عرف طريقتهم

---

(1) ليفي بروفنسال : الرسائل : ص : 242 .
(2) المصدر السابق ، ص : 243 — 244 .
(3) نفسه : ص : 229 .

وضرب في قالبهم ، وجرى على مهيعهم ، وأصاب ما في أنفسهم ، كأبي عبدالله بن عياش هذا . فان القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب . ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة "(1).

ـ على أن الملاحظ ، من ناحية أخرى ، أن ابن عياش لم يكن أول من تكلم عن هاتين النقطتين ، بل سبقه اليهما كل الكتاب الذين جاؤا قبله ، أو عاصروه من أمثال : ابن عطية ، والقالمي وابن محشرة ، وغيرهم ، لذا فان الطريقة الموحدية ، التي قال عنها المراكشي أنه اختص بها ابن عياش ، حتى أصبح فيها قدوة لغيره ، غير مفهومة . فنحن لا نكاد نجد فرقا واضحا بين طريقة ابن محشرة ، مثلا ، التي تعرضنا لها في السابق وطريقة ابن عياش هذه .

نحن نعلم أن الاصلاح الذى جاء به الموحدون قد مسّ كل الميادين الثقافية بما فيها ميدان الكتابة ، حيث صنفوا الكتاب الى صنفين : كتاب الانشاء ، وكتاب الجيش ، غير أن هذا الاصلاح ، حسبما يبدو ، لم يتجاوز الناحية الشكلية .

بقي علينا أن نتساءل ، هل هذا هو الأسلوب الذى كتبت به كل الرسائل الديوانية في العهد الموحدى ؟

الواقع أن كل النصوص الديوانية التي وصلتنا عن هذه الفترة ، جاءت على النمط الذى أوردناه آنفا . وان كان الذى وصلنا منها يعدّ جزءا ضئيلا جدّا ، بالنسبة لما كتب في الموضوع . لذا فان أى اجابة عن هذا السؤال ، لا يمكن أن تكون دقيقة ، مادامت أغلبية هذه النصوص لم تظهر للوجود بعد . غير ان كل الدلائل تشير الى أن هذه الطريقة هي التي كانت سائدة في كتابة هذا النوع من الرسائل . ولكنه ، رغم ذلك ، لا يستبعد أن تكون هنالك رسائل

(1) المراكشي : المعجب : ص : 339.

كتبت على الطريقة القديمة التي يجنح فيها كتابها الى البساطة والاختصار . فقد ذكر المراكشي أن ابن القصيرة ، وهو أحد كتاب القرن السادس ، كما نعلم ، ومن كتاب الدولة المرابطية المشهورين "كان على طريقة قد ماء الكتاب في ايثار جزل الألفاظ ، وصحيح المعاني ، من غير التفات الى الأسجاع التي أخذها متأخروا الكتاب ، اللهم الا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء "(1) .

وهذا يعني أن هذا النوع من الكتابة كان معروفا في ذلك العهد ، رغم انتشار الكتابة البديعية . وما قيل من قريض في كتابة ابن القصيرة من طرف كل الذين ترجموا له لأكبر دليل على اقبال الناس على هذا النمط من النثر في ذلك الحين . فلا يمكن أن نتصور ، والحالة هذه ، أن يختفي هذا النوع من الكتابة تماما في فترة قصيرة كهذه ، وتتغير أذواق الناس بهذه السرعة فيعرضوا عنه هذا الاعراض التام بعد أن كانوا يتشبثون به كل التشبث بالأمس القريب .

بل نحن لا نستبعد أن يكون حتى من بين الخلفاء أنفسهم من كان يفضل هذه الطريقة القديمة التي كانت تجنح الى البساطة والاختصار . فقد أثر عن الخليفة يعقوب المنصور أنه طلب من كاتبه ابن محشرة عندما انتصر في وقعة "الأراك" "أن يوجز في كتاب هذا الفتح وأن ينحو فيه منحى كتب الصحابة رضوان الله عليهم "(2) . فان دلّ هذا على شيء فانما يدلّ على ميل هذا الخليفة لذلك النوع من الكتابة الخالية من كل بهرجة وتنميق .

واذا جاز لنا بعد هذا أن نحكم على الكتابة الديوانية التي انشئت في هذا العهد ، من خلال النصوص التي استعرضناها آنفا نقول :

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 227 ـ 228 .
(2) الحلل الموشية : ص : 159 .

ان أهم ميزة طبعت رسائل هذا العصر هي العاطفة الدينية الطاغية التي كانت تغطي على كل الميزات الأخرى ، وهذا راجع لعدة أسباب أهمها :

- تغلب الثقافة الاسلامية على أصحابها .
- طغيان الروح الصليبية التي عمّت البلدان الاسلامية في ذلك العصر .
- اقتصار أغلب المواضيع التي تناولتها هذه الرسائل على :

وصف المعارك والحروب ، وصف الانتصارات والفتوحات ، الاستنفار للجهاد ، الحض على التقوى وإقامة الشعائر الدينية ، وما الى ذلك من هذه المواضيع الدينية التي كانت تستدعي الاستشهاد بالكتاب ، والاقتباس من السنة ، والاقتداء بمواقف الصحابة ، والاهتداء بسيرة السلف الصالح . فجاءت هذه الرسائل أقرب الى خطب الوعظ ومقامات التذكير والارشاد منها الى شيء آخر . وتتجلى منها الى شيء آخر للميزة الثانية التي طبعت هذه الرسائل في التأنق الذى وصل اليه كتاب هذا العصر حيث غطى تكلفهم السجع وجريهم وراء المحسنات البديعية على صلب مواضيعها الأصلية التي تتناولها ، فجاءت غامضة التعبير باهتة المعاني ، رغم ما تزدان به من ألوان التوشية والتنميق اللفظي . وقد زادها الاطناب المفرط أحيانا ثقلا أكثر ، خاصة وأن بعض الكتّاب المتأخرين أخذوا يلتزمون السجعة على حرف واحد في كل الرسالة أو في أغلبها . فزاد ذلك من ضعفها وتهافتها .

الا أن هذا لا يعني أن كل الرسائل الديوانية التي ترجع لهذا العهد قد بلغت هذا الحدّ من الاسفاف . فقد رأينا من قبل كيف لعبت كفاءة بعض الكتّاب الموهوبين في التخفيف من حدّة هذا التكلف بحسن استعمالهم للمحسنات ، فجاءت رسائلهم معتدلة واضحة وهي التي لاقت شهرة أكثر ، وأقبل الناس على حفظها ، لما كانت تمتاز به من متانة في الأسلوب وقوة في البلاغة ،

بالاضافة الى نفاسة محتواها لما كانت تضمه من معارف جليلة و تستعرضه من علوم قيمة ، وتشير اليه من أحداث تاريخية وغيرها .

2 ـ الرسائل الاخوانية :

يبدو أن الرسائل الاخوانية كانت أفسح مجالا للتعبير أمام كتاب النثر ، نظرا لتحررها من القيود الرسمية والتقاليد السياسية ، وبعدها عن المواضيع المترمتة الجافة التي كانت تدور حولها أغلب الرسائل الديوانية .

فالاخوانيات ، وان اتسمت بعض مواضيعها بنوع من القتامة التي تتجلى خاصة في رسائل التعزية والتشكي مثلا ، الا أن ذلك لم يكن يشكل أى حائل يمكن أن يحدّ من حرية التعبير لدى الكتاب . فهم لذلك كانوا يتخذونها ميدانا للتنافس في مجال اظهار القدرة على الخلق والابداع .

ولعلّ ذلك ما جعل هذا النوع من الرسائل يبدو أكثر قابلية للتخيل والتفنن في القول ، وتصوير أدق الخلجات النفسية ، والأبعاد في اظهار الفصاحة واستعراض المعارف . كما نجدها أمتن أسلوبا ، وأحسن استغلالا لأنواع البديع وضروب المحسنات الأخرى .

وقد تناولت هذه الرسائل أغراضا شتّى ، منها : الثناء والشكر ، والتهاني ، والتعازى ، والاستعطاف ، والعتاب ، والوصايا ، والهجاء ، الا أن ما وصلنا منها في العهد الموحدى كان يدور أغلبه حول التشكي والعتاب ، نظرا للكوارث الأليمة المتكررة التي تعرض لها المجتمع الاسلامي في ذلك العهد .

وقد رأينا أن نقتصر على ذكر كاتبين من بين كتّاب هذا اللون من الرسائل قدرنا أنهما أحسن من يمثل هذا النوع من الكتابة

في ذلك العصر وهما : الكاتب المغربي أحمد بن عطية الذى سبقت الاشارة اليه ، وأبو المطرف ابن عميرة الكاتب الأندلسي المشهور .

— أما بالنسبة للأول فقد رأينا من قبل كيف حظي هذا الكاتب المرابطي لدى الموحدين بفضل كفاءته النادرة حتى قلده عبد المؤمن وزارته وسماه على ديوان الانشاء . فأظهر قدرة فائقة في التسيير ، واشتهر خاصة بجمال سعيه للناس لدى السلطان . الا أن حساده لم يمهلوه طويلا . فما فتوا يدسون له عند الخليفة ويوغرون صدره حتى تغيّر عليه . وقد كان أحقد حساده عليه هو مروان بن عبد العزيز[1] الذى سعى ابن عطية نفسه في اطلاق سراحه وتقريبه للخليفة . فجازاه على صنيعه هذا بأن قال فيه أبياتا طرحها بمجلس عبد المؤمن ، فلما قرأها تألب عليه وتنكر له ، فأمر بسجنه هو وأخوه [2]

وقد حاول ابن عطية استرضاء الخليفة برسائل غاية في الرقة كشفت لنا عن جانب آخر من عبقريته في الكتابة ، كما أعربت لنا عن ثقافته الواسعة وقدرته الفائقة على التعبير .

ولعلّ أحسن نصّ يمكن أن يساق كنموذج لرسائله في الاستعطاف هذه المقطوعة التي أوردها له ابن الخطيب في الاحاطة . وكان قد كتبها ابن عطية من سجنه مستنجدا بقبر المهدى الذى كان

---

(1) ذكره ابن سعيد في المغرب : ج . 2 . ص : 300 .

(2) الأبيات التي قالها مروان بن عبد العزيز في ابن عطية هي التالية :

قل للأمير أطال الله دولته	قولا تبين لدى لب حقائقه
ان الزراجين قوما ورثتهم	وطالب الثار لم تؤمن بوائقه
وللوزير الى آرائهم ميل	لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في اطفاء نارهم	فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم	فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم اني ناصح لكم	والحق أبلج لا تخفى طرائقه

ابن الخطيب : الاحاطة : ج . 1 . ص : 274 .

الخليفة يقوم بزيارته آنذاك . وقد أرسل اليه الرسالةمشفوعة بأبيات مؤثرة مع طفل صغير له يقول فيها : "تالله لو أحاطت بيّ خطيئة ولا تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : ان الله لم يوح بالفلك الى نوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وابرمت لحطب نار الخليل حبلا ، وأمطت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وافتريت على العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة ، وذممت كل قرشي ، وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي ، وقلت : ان بيعة السقيفة لا توجب الإمامة للخليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة ابن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها شعبة . ثم أتيت حضرة المعصوم عائذا ، وبقبر الامام المهدى لائذا لأذن لمقالتي أن تسمع وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع .

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بحمل قلوب هزها الخفقان "(1).

---

(1) ابن الخطيب : الاحاطة : ج . 1 . ص : 275 ـ المقرى : نفح الطيب : ج . 5 . ص : 184 .
ـ المراكشي : الاعلام : ج . 1 . ص : 218 ـ 219 .
أورد ابن الخطيب هذه الأبيات في ذيل رسالة ابن عطية المذكورة آنفا :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن
قد اغرقتنا ذنوب كلها لجج وعطفةمنكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض لها ، ورحمتكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطوحوادثه بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاءعندكم يسعى على ثقة بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر بعد الغسل من درن والطرف ينهض بعد الركض من وسن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم من دون منّ عليهم لا ، ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم تلك الحياة من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة والكل ، لولاك ، لم يوجد ولم يكن .

ابن الخطيب : الاحاطة : ج . 1 . ص : 276 .

ان أول بادرة يلاحظها الدارس لهذا النوع من النصوص هي ظاهرة الاعتدال في التعبير ، وخفة حدة الشقشقة اللفظية الانشائية التي ألفنا أن نراها في الرسائل الديوانية، بصفة عامة .

فكتاب الاخوانيات ، حسبما يبدو ، كانوا يميلون في انشاء رسائلهم هذه ، الى استعمال نوع من الأسلوب الأدبي الرصين ، الذى يتجلى فيه الاهتمام بالمعنى بقدر ما يتجلى فيه الاعتناء باللفظ ، وهم يحرصون خاصة ، في كتاباتهم هذه ، على تنظيم الأفكار وتسلسلها تسلسلا اضطراديا ، معتمدين فيه على الاقناع بالحجة المنطقية والبرهان العقلي الذى لايقبل الدحض ، خاصة اذا ما تعلق الأمر بموضوع كهذا الذى بين أيدينا .

ولعلّ هذا ما جعل أغلب كتاباتهم تبدو ، وكأنها متميزة على الكتابة الديوانية في شكلها العام ، على الأقل ، من حيث الافراط في الزركشة والتنميق الخارجي .

وليس معنى هذا ان الاخوانيات قد عزفت عن استعمال ألوان البديع وانما معناه أنها كانت تحسن استغلالها له بطريقة لا يبدو فيها التكلف المفضوح الذى كنا نشاهده في الكتابات الديوانية . وهذا الفرق في الكتابتين راجع ، ولا شك ، الى الحرية التي كان يحسّ بها كاتب الاخوانيات ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل ، أولا فيما يتعلق باختيار الموضوع ، وثانيا فيما يتعلق بطريقة تناوله له .

— ونحن اذا ما رجعنا الى نصّ ابن عطية ، مثلا ، نجده قد سلك في انشائه الطريقة الجاحظية التي تنبني على : التلوين الصوتي ، من جهة ، ونعني بذلك التوازن الدقيق الذى يخلقه الكاتب بين فقره ، فيحدث نوعا من الانسجام الموسيقي بين كل جمل الرسالة ، وهو ما يسميه الأقدمون : بالمزاوجة ، أو الازدواج . ثم التلوين العقلي ، ونعني به ذلك التحسين المنطقي الذى يسبغه الكاتب على كل جملة من جهة أخرى .

— وقد حررته هذه الطريقة من الرتابة المملة التي يخلقها تكرار السجعة المبنية على حرف واحد الذي كان يلتزمها الكتّاب آنذاك في كامل الرسالة . كما حررته من الاعادة الممجوجة للمعنى الواحد بعدّة ألفاظ .

هذا بالنسبة للشكل . أما بالنسبة للمضمون ، فان الهدف الأساسي الذي كان يرمي اليه الكاتب من وراء رسالته هذه هو التهوين من خطورة جرمه الذي ارتكبه في حق الخليفة حتى يستطيع أن يستل سخيمته بسهولة . وقد رأى أن أحسن وسيلة لبلوغ هدفه هذا هو أن يستعرض كل ما ارتكبه المذنبون المشهورون قبله من خطايا في حق من أهم أخطر منه شأنا وأرفع منزلة ، ليدرك الخليفة بنفسه أن ما ارتكب في حقه هو من جرم — ان كان هناك جرم يستحق الذكر — بالقياس لما اقترفه أولائك المجرمون من خطايا لا يكاد يحدّ بشيء .

فبدأ ، أولا ، بسرد من عصوا الله جهرة . وثنّى بمن كذبوا بالأنبياء واعتدوا عليهم ، ثم ختم بمن شاقوا الرسول ، وآذوه في شخصه ، أوآله ، أوعشيرته ، أوأصحابه وخلفائه . ثم ختم كل ذلك بافتراض افترضه ، مقدّرا فيه أنه ، حتى ولو كان قام بارتكاب كل تلك الذنوب مجتمعة ثم جاء لائذا بقبر المهدى المعصوم ، ومستشفعا بتربته الزكية ، كان حقه أن تغفر له كل خطيئاته مهما عظمته فما بالك وهو لم يرتكب أى ذنب يستحق الذكر . وقد وفق في صبّ كل ذلك في قوالب فنية غاية في الرقة والجمال .

— ومما يلفت النظر ، أيضا ، في هذه الرسالة ، تلك الطريقة التي لجأ لاستخدامها الكاتب لكي يشدّ انتباه قارئه حتى يتتبع نص رسالته الى الآخر . فقد بدأها بالقسم مشفوعا بحرف " لو " ، ولم يأتي بجوابهما الا في آخرها . فخلق بذلك نوعا من التشويق والفضول في نفس سامعه لمعرفة الجواب ، وكلما قرأ المرء فقرة

منه ، الا وزاده اشارة ، وتعلقا أكثر بمعرفة ما يأتي به الجواب . وكان الكاتب أثناء كل ذلك يتفنّن في استظهار معارفه الواسعة، ويتباهى باظهار فصاحته وبلاغته وقدرته الفائقة على التعبير، وهذا من خلال ما يشير اليه من احداث تاريخية وما يرمز اليه من وقائع ، وما الى ذلك من هذه الأمور التي أصبحت مجالا للمنافسة والتفاخر بين الكتّاب في ذلك العهد .

— والواقع أن رسالة ابن عطية هذه تنظر في عمومها الى الرسالة التي كتبها ابن زيدون من سجنه يستعطف بها ابن جهور . فقد أورد منها ابن بسام فقرات طويلة منها هذا المقطع الذى اتخذه ابن عطية مثالا نسج على منواله ، يقول فيه : "... وما أراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت وقال لي نوح : اركب معنا ، فقلت : سآوى الى جبل يعصمني من الماء . وأمرت ببناء الصرح لعليّ أطّلع الى إله موسى ، وعكفت على العجل واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت ... وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة .... وجئت بالإفك على عائشة الصديقية ، وأنفت من امارة اسامة ، وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد ومزقت الأديم الذى باركت يد الله فيه ، وضحيت بالأشمط الذى عنوان السجود به ... لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يسمى نكالا ، ويدعى ولو على المجاز عقابا ...."(1)

— فنوع المادة التي صيغت منهما كلتا الرسالتين — كما نرى — واحدة وطريقتاهما في النسج لا تكادان تختلفان في شيء . اللهم الا فيما يتعلق بالزخرفة أو التنميق اللفظي الذى يظهر واضحا في رسالة ابن عطية . وقد تجلى ذلك — كما رأينا — في المزاوجة

---

(1) ابن بسام : الذخيرة : ق/1/1/ ص:340 — ديوان ابن زيدون ورسائله : ص: 688 — 695 . ت . علي عبدالعظيم ، القاهرة 1957 .

التي بنى عليها كل فقر رسالته حيث ختم كل اثنتين منهما بجناس ناقص، بخلاف ابن زيدون، فانه لم يحر ادنى اهتمام لايراد السجع ولا اعتنى باقتناص ألوان البديع الأخرى . اللهم الا ما جاء منها في كلامه عفوا وبدون تكلف . ولعل هذا ما أكسب معانيه قوة وجمالا أكثر بالقياس لرسالة ابن عطية .

— الا أنه من التجني أن نعقد مقارنة بين نصين يفصل بينهما أزيد من قرن من الزمن دون أن نراعي المعايير النقدية التي كان يخضع لها كل من الكاتبين . اضافة الى أن رسالة ابن عطية هذه يبدو عليها أنها مبتورة . بل هذا النص الذى ورد منها لا يشكل، في نظرنا، الا جزءا بسيطا من الرسالة الكاملة . وغالب الظن أنه يمثل الفقرة الأخيرة منها، لأن سياق الموضوع يوحي بأن هناك كلاما طويلا قد حذف مع التمهيد والمقدمة التقليدية التي تبتدى بها عادة أمثال هذه الرسائل . اذ لا يعقل أن تستهل رسالة في استعطاف خليفة في موضوع خطير كهذا بمثل تلك البداية الخالية من كل تمهيد، حتى ولو قدرنا أنها جاءت متممة للمقطوعة الشعرية التي أرفقت بها .

لذا فان أى دراسة تسلط على عمل فني مبتور كهذا لا يمكن أن تكون الا دراسة ناقصة .وأى حكم يصدر له أو عليه يعتبر حكما عاما وغير دقيق .

والذى ألجأنا، في الواقع، لايراد هذا النص بالذات كمثال، رغم اقتناعنا باختصاره، هو افتقارنا للنصوص المغربية التي نسعى جهدنا أن نجعلها المحور الرئيسي التي تدور عليها دراستنا هذه، وأمام هذه الندرة لم نجد بدًا من الاكتفاء بما تيسر لنا منها على علاته . فهو على أىّ حال كاف لأن يعطينا نظرة، ولو تقريبية عن تطور هذا اللون من ألوان التعبير على يد الأدباء المغاربة .

وقد رأينا من الأفيد أن نورد نصّا آخر من الرسائل الاخوانية التي كتبها الأندلسيون الذين أقاموا بالمغرب آنذاك حتى نستوفي الموضوع حقه من البحث، من جهة، ونطلع عن كثب على الطريقة التي كان يكتب بها أساطين هذا الفنّ في ذلك العهد من جهة أخرى.

ولعلّ أحسن من يمثل هذا النوع من الكتابة من الأندلسيين في العهد الموحدى هوأحمد بن عبدالله بن محمد المشهور بأبي المطرف بن عميرة المخزومي المتوفي سنة 658 هـ. الذى أشاد بمواهبه كل من تعرض لذكره من القدماء والمحدثين.

فقد ترجم له من القدماء ابن عبدالملك في الذيل فقال عنه: "... فأما الكتابة فانه علمها المشهور، وواحدها الذى عجزت عن الاتيان بثانيه الدهور، ولا سيما في مخاطبة الاخوان، هناك استولى على أمد الاحسان، وله المطولات المستخسنة، والقصار المقتضبة. وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالاشارة الى التواريخ. ويودعه الماعات بمسائل علمية متنوعة المقاصد. تشهد بتمكنه في المعارف على تفاريقها "[1].

— وقد خصه من المحدثين د / ابن شريفة بدراسة ضافية، قال عنه فيها: كان يمثل مع كتاب عصره "مدرسة لها طابعها الخاص، وهي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني في النثر المشرقي "[2] وهي التي مهدت لظهور الكتّاب الذين أتوا من بعد كابن الخطيب وغيره.

— والواقع أن ما وصلنا من رسائله الديوانية والاخوانية وغيرها يشهد له بتفوقه الكبير على أهل عصره في ميدان الترسل بصفة عامة.

---

(1) ابن عبدالملك : الذيل والتكملة ق 1/ـ ص: 152 ـ رقم 231.
(2) ابن شريفة محمد : ابوالمطرف أحمد بن عميرة : حياته وآثاره : ص: 220 ـ جامعة محمد الخامس، الرباط 1966.

لقد بدأ حياته الوظيفية - كما نعلم - ككاتب ديوان ، وهي الوظيفة التي كان يسعى جاهدا للحصول عليها ، لارضاء طموحاته الواسعة في الثراء والنفوذ والجاه . فقد وصفه مترجموه أنه ، "كان شديد التصارح على خدمة الرؤساء "[1]. فقضى بذلك شطرا كبيرا من حياته في الكتابة الديوانية ، متنقلا بين مختلف الامارات الأندلسية التي تكونت في فترة الطوائف الثالثة ، اثر انهيار الحكم الموحدى بالجزيرة ، ثم تنقل بعدها الى المغرب . واستقر به المقام عند الحفصيين .

وقد عدّ ابن شريفة رسائله التي صدرت عنه في هذه الفترة من أهم المصادر التاريخية لتلك الحقبة التي لا تزال غامضة نظرا لضياع كل الكتب التاريخية التي ألفت عنها[2]. أما من الناحية الفنية فيفهم من فحوى كلامه أنها تأتي في الدرجة الثانية بعد رسائله الاخوانية . وذلك ما أشار اليه ابن عبدالملك في الذيل ، حيث أوعز صرف الرشيد الموحدى لابن عميرة عن ديوان انشائه الى القضاء ، لقصوره من الكتابة الديوانية .

- ومهما يكن من أمر ، فان الذى يهمنا من كتاباته بالدرجة الأولى هو رسائله الاخوانية التي كانت تكون جزءا من حياته اليومية . وذلك لكثرة ارتباطاته ومعارفه التي نشأت عن كثرة تنقلاته وأسفاره . لذلك كانت رسائله الاخوانية التي وصلت الينا أكثر بكثير من رسائله الديوانية التي اعتنى بعض الأدباء بجمعها وتصنيفها .

وكانت أهم الأغراض التي تناولتها هذه الرسائل هي : الوصايا ، الثناء والشكر ، التهاني ، التعازى ، الشكوى ، الوصف ، الهجاء والأحاجي والألغاز . الا أن أكثر الأغراض دورانا في رسائله هي الوصايا ، حيث عد منها ابن شريفة ما يقرب من أربعين رسالة .

---

(1) ابن شريفة محمد : ابو المطرف أحمد بن عميرة : حياته وآثاره : ص : 178 - جامعة محمد الخامس ، الرباط 1966 .

(2) المصدر السابق ، ص : 185 .

أكثرها كان موجها لذوي الجاه والسلطان يدعوهم فيها لاعانة بعض اللاجئين من مواطنيه الأندلسيين ، الذين اضطروا لمغادرة أوطانهم نتيجة للجلاء القسري الذي سلّط عليهم . وكانوا قد تمركزوا أول الأمر بسبتة ، ثم نزحوا بعد ذلك الى الرباط بعد أن سعى لهم ذو الوزارتين ، أبو علي الحسن بن خلاص البلنسي — والي سبتة آنذاك — لدى الرشيد الموحدي ، فأصدر في حقهم ظهيره المشهور الذي خولهم بموجبه سكنى رباط الفتح وذلك سنة 637 هـ . وكان ابن عميرة نفسه قد اختار الرباط مقراً له اذ عين على قضائه . ولا يبعد أن يكون اختياره هذا كان القصد منه أن يكون بجوار مواطنيه من جاليات شرق الأندلس التي ما فتئ يرغب أفرادها في الهجرة اليه " يضمن لهم كل عيش هني وبال رخي "(1) حتى أصبح ملجأ يأوي اليه كل الوافدين ممن نكبوا بالجلاء أو لزمهم دين من جراء افتكاك أنفسهم أو ذويهم من الأسر . فكان يتعهدهم برعايته وينفعهم بجاهه ويستوصي بهم أصدقاءه من ذوي النفوذ في الحضرة المراكشية وغيرها . وما أكثر رسائله في هذا الباب .

فهذه فقرة من رسالة يوصي فيها بفارس يقوم بجمع ما يفتدي به نفسه من الأسر فيقول : "... والواصل به ، ياسيدي معروف الجلدية ، فارس في الكتيبة والسرية طرأ عليه الأسر وعلى آخر من شجعان الأجناد وذوي الأقدام في مواطن الجلاد . وانما كنت ربيته ، وعاش زمانا ، وبيتي بيته ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وخشن من متنه ماكان ألآنه ، فصار ببلاد غرب الأندلس آخذا بعنان ذي ميعة ، طلاعا على ثنايا الهول عند كل هيعة . فأسر أيضا وهو أحد المسمين في العقد ، فان اتفقت لهم معونة

---

(1) ابن شريفة : ابن عميرة : ص : 126.

من أهل البر وطلاب الأجر، يتأتى بها على يديكم المباركتين فكهم من الأسر، فأمل بكم بقرع بابه وعمل في صحيفتكم، ان شاء الله، يكتب ثوابه "(1).

نرى الكاتب يركز في أمثال هذه التوصيات، خاصة، على ابراز مزايا الموصى به، وما يمكن أن يقوم به من أعمال لدى مخدومه، كل حسب اختصاصاته ومواهبه فيها.

وهذا النوع من المواضيع، في الواقع، لا يسمح للكاتب أن ينطلق على سجيته في التعبير. لذا نجد أغلب الرسائل التي كتبت في الوصايا، جافة الأسلوب، جدبة الخيال، عارية من الرونق الأدبي الذي نجده في بقية الرسائل الاخوانية الأخرى، اللهم الا ما تكتسبه من رونق لفظي يتجلى في بعض المحسنات البديعية.

— وهذا مثال آخر من رسالة في نفس الموضوع، يوصي فيها الكاتب بشاعر، لزمه دين من افتداء نفسه من الأسر، يقول فيها:
" وهذا فلان، من بذّ في الاحسان، وفاق أهل البيان في النظم الذي بلغه أهل هذا الزمان، يبرز منه ماهو شرك العقول، وشرف المقول، مع تصرف في ضروب المؤانسة. يلعب بالنهي، ويورد على كل سمع ماأشتهى، وحصل منه في قبضة الأسار، أخرق بالمشيء في قيد الأسر. معسراً الا من بدائعه الغرّ، وبعد ما كان منه ماكان، وخرج بفداء، بقي عليه أكثره الى الآنّ، أصاب أخا له أصغر منه، قد اجتمع عليه لزة الأسار، وأزمة الاعسار فحار بين حقين: حق شغلت به ذمته، وآخر تطلب به مروءته وهمته. ولم ير الا الضرب في البلاد، متصديا لمن يعرفه، مترجيا من نوافل البرّ ماهذا مصرفه. وطلب مني تنبيه المجلس السامي عليه حين أمل أن يلقى عميد الفضلاء بتلك الساحة، ويلقي دلوه هناك مع الدلاء المتاحة "(2).

(1) ابن شريفة: ابن عميرة: ص: 194 — 195.
(2) المرجع السابق. ص: 195.

فبالرغم من أن الرسالة كانت في الستوصية بأديب شاعر – كماترى – الأمر الذى يمكن أن يسمح للكاتب أن يستطرد نوعا ما ، مثلا ، ويستوحي من حرفة الموصى به ما يمكن أن يضفي على رسالته هذه شيئا من الخيال الشعرى ، أو الرونق الأدبي الا أن شيئا من ذلك لم يقع ، فجاء الكلام فيها خاليا من كل طلاوة أدبية . ولا شك أن للاقتضاب الذى جاءت عليه أغلب هذه الرسائل ، وما تتصف به مواضيعها من خصوصية ، دخلا كبيرا في صياغتها بهذا الشكل الذى يبعدها ، نوعا ما ، عن بقية الرسائل الاخوانية الأخرى .

فاذا ماجئنا نستعرض ، مثلا ، أخوانياته التي بكى فيها المدن الأندلسية التي تساقطت آنذاك ، نجد أن الأسلوب الذى كتبها به معايرا تماما لأسلوب توصياته . فالطريقة التي أنشأ بها مطولاته تنبيء حقا من الكاتب القدير الذى "الان الله له الكلام كما ألان الحديد لداود عليه السلام" على حدّ تعبير ابن رشيد [1].

– يلاحظ ، هذا مثلا من خلال هذا المقطع - الذى وصف فيه سقوط بلنسية ، حيث يقول فيه : " ثم ردف الخطب الثاني بقاصمة المتون وقاضية المنون ، ومضرمة ماء الشجون ، ومذرية ماء الشؤون ، وهو الحادث في بلنسية ، درّة النحر ، وحاضرة البر والبحر ، ومطمح أهل السيارة ، ومطرح شعاع البهجة والنضارة ، أودى الكفر بأيمانها ، وأبطل الناقوس صوت آذانها ، ودهاها الخطب الذى أنسى الخطوب وأذاب القلوب ، وعلم سهم الاحزان أن يصيب ، ودمع الأجفان أن يصوب . فيا شكل الاسلام ، وشجو الصلاة والصيام ، يوم الثلثاء وما يوم الثلثاء ، تاريخ الداهية الدهياء ، وتأخر الأقدام عن موقف العزاء . أين الصبر مني وفؤادى آسيه ، ولم يبق لقوسه على الرمي سيه . هيهات يعود ما مضى من أسيه ، ياطول هذه

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 4 . ص : 496 .

الحسرة ، الأجبار لهذه الكسرة أكل أوقاتنا ساعة العسرة . أخي أين أيامنا الخوالي ولياليها على التوالي ، ولا بة عيش نعم بها الوالي ، ومستندات أنس يعدها الرواة من العوالي ، بعدا لك يا يوم الثلثاء من صفر ما ذنبك عندنا بشيء يغتفر ، أشعت بالاسلام حزب من كفر من أين المفر ، كلا لا مفر . كل رزء فبي هذا الرزء يندرج ، وقد اشتدت الأزمة فقل لي متى تَنْفرج ، كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل اذا لم يعد ذلك النسيم الأرج ليس لنا الا التسليم والرضى بما قضى الخلاق العليم"[1].

نلاحظ انه عندما يعرض لذكر المدن الأندلسية ، خاصة منها الشرقية ، حيث مسقط رأسه ، يتكلم عنها بنوع من الأسى العميق الذى يتملك عليه كل حواسه ، ويفقده رباطة جأشه رغم تصنعه الصبر . فتثور عواطفه جياشة مستعرة وتتدفق معانيه مزدحمة ثرة فيصبها في جمل قصيرة تقطر ألما وغيظ حسرة وتطفح مرارة عاكسة كل ما يجيش به داخله من قلق واضطراب .

ويتجلى لنا ذلك خاصة في الفقرة التالية التي قالها في نفس الموضوع من رسالة أجاب بها صديقه أبا جعفر أحمد بن أمية البلنسي : يقول فيها : " فيامن حضر يوم البطشة وعزي في أنسه بعد تلك الوحشة .أحقا أنه دكت الأرض ، ونزف المعين والبرض ، وصوح روض المنى ، وصرح الخطب وماكنى أبن لي كيف فقدت رجاحة الأحلام ، وعقدت مناحة الاسلام ، وجاء اليوم العسر ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر ، حلم ما نرى بل ما رأى ذا حالم ، طوفان يقال عنه لاعاصم ، من يعصفنا من الزمان الظالم بالله بما يلقى الفؤاد عالم "[2].

---

(1) ابن شريفة : ابو المطرف : ص : 198 — 199 — الحميري أبو عبدالله محمد : الروض المعطار : ص : 50 . ت . ليفي بروفنصال القاهرة 1937.

(2) ابن شريفة : ابن عميرة : ص : 199.

وقد نراه أحيانا يولع بالاشارات واستعمال المصطلحات العلمية ، كما أشار لذلك ابن عبد الملك حين قال عنه : " وكان يطرح كلامه نظما ونثرا بالاشارات الى التواريخ ، ويودعه إلماعات بمسائل علمية متنوعة المقاصد تشهد بتمكنه في المعارف على تفارقها ".

نلاحظ ذلك في قوله من نفس الرسالة : " ... بالله أي نحو لنحو ومسطور نثبت أو نمحو ، وقد حذف الأصلي والزائد ، وذهبت الصلة والعائد وباب التعجب طال ، وحال اليأس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع ، وفقدت سلامة الجمع ، والمعتل أعدى الصحيح ، والمثلث أردى الفصيح ، وامتنعت العجمة من الصرف ، وأمنت زيادتها من الحذف ، ومالت قواعد الملة ، وصرنا الى جمع القلة ، وظهرت علامة الخفض ، وجاء بدل الكل من البعض ، فللشرك صيال وتخمط ، وللقرنه في شركه تخبط ، وقد عاد الدين الى غربته وشرق الاسلام بكربته . كأن لم تسمع بنصر ابن نصير ، ويطوق طارق بكل خير ، وبهشات حنش ، وكيف أعيت الرقش ، وابانت بليل السليم من يوم الملتقى ، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها ، وفتى معافر وتعفيره للأوثان وصوائفها "(1).

وهكذا كل رسائله التي قالها في بكاء المدن ، يبدؤها ساخطا ناقما ثم ينتهي منها مستسلما راضيا "بما قضى الخلاق العليم ". ولعل هذا ما دفع به الى كتابة فصوله الزهدية ومجالسه الوعظية التي أشار اليها ابن عبد الملك حين قال : " وله فصول وعظية على طريقة الامام أبي الفرج بن الجوزى "(2). وقال في مكان آخر: " وله مجالس وعظية كان يصنعها للواعظ الفاضل الصالح ابي محمد بن علي بن أبي خروص " (3).

---

(1) ابن شريفة : ابن عميرة : ص: 199.

(2) ابن عبد الملك : الذيل : ج. 1 . ص: 170.

(3) نفس المصدر .

3 — المقامات :

سلكت كلمة " مقامة " عدة مراحل في تطورها قبل أن تستقر على المصطلح الحديث الذي نعرفه لها الآن .

فقد كانت تطلق في العهد الجاهلي على منتديات القوم على نحو ما نجده في شعر زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههـا ... وأندية ينتابها القول والفعل [1]

وقد تطلق ويراد بها القوم أنفسهم ،على نحو ما نجده في قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم ... جن لدى باب الحصير قيام [2]

ثم تطورت في العصر الاسلامي ،فأصبحت تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص يتحدث واعظا [3]. وهي عند القلقشندي " اسم للمجلس أو الجماعة من الناس . وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة ،كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها "[4].

وقد ظهر هذا النوع من النثر في أواخر القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذاني 398/358 ، الذي يعتبره أكثر الذين أرخوا للمقامة انه المنشيء الأول لهذا الفن .

غير أن الذي يستفاد من كلام ابن عبد ربه المتوفي سنة 328 أن نشأة المقامة ترجع الى ما قبل ذلك بكثير حيث نقل عن يزيد بن عبدالله الذبياني قوله لكاتب له يوصيه : " اذ كان لا بد لك من

---

(1) الزبيدي محمد المرتضى : تاج العروس : ج . 9 . ص : 35، بدون تاريخ .
(2) المرجع السابق — أنظر كذلك ابن منظور : لسان العرب : ج . 12 . ص : 498، ط . بيروت 1956 .
(3) شوقي ضيف : المقامة : ص : 7 — دار المعارف القاهرة 1964 .
(4) القلقشندي : صبح الأعشى : ج . 14 . ص : 110 .

طلب أدوات الكتابة ، فتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه ، ومن نوادر الكلام ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسّيَر والأسمار ما يتسع به منطقك ، ويطول به قلمك ، وانظر في كتب المقامات والخطب "(٩) ، وهذا يعني أن المقامات الأدبية كانت معروفة منذ ذلك الحين ، بل وكانت تعدّ من الأدوات الضرورية لكل كاتب أراد أن ينجح في مهمته (1).

ـ أما زكي مبارك فيرى أن نشأة المقامات قد جاءت على يد أبي بكر ابن دريد المتوفي سنة 321 هـ . وقد بنى حكمه هذا على ما ذكره الحصري في كتابه " زهر الآدب " وهو بصدد الحديث عن الهمذاني ، حيث قال : " ولما رأى (أي البديع) أبابكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنجبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، في معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسّع فيها اذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية "(2).

الا أن زكي مبارك يعترف بأن بديع الزمان هو الذي أعطى المقامة الأدبية صبغتها الحقيقية (3) . وعندما جاء أبو محمد القاسم بن علي الحريري 446/516 هـ . أرسى قواعد هذا الفنّ بفضل ما أنشأ فيه . فاتضحت بذلك معالم المقامة الأدبية ، واستقلت شخصيتها ، وطارت شهرتها حتي ذاعت في كل الأقطار الاسلامية ، وأصبحت مثلا يحتذى .

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج . 4 . ص : 175 ـ القاهرة 1962 .
(2) ذكر زكي مبارك نصّا آخر لابن العديو جاء في " الرسالة العذراء " يوصي فيه المتأدب بقوله : " وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب " مما يدل على أن أهل القرن الثالث عرفوا نوعا من المحاورات الأدبية التي كانت تسمى المقامات ـ النثر الفني : ج . 1 . ص : 201 .
(3) زكي مبارك : النثر الفني : ج . 1 . ص : 199 .
(4) المرجع السابق .

- خصائصها :

تشتمل المقامة على عناصر قصصية كثيرة ، خاصة من حيث المضمون وتصويرها للمجتمع . وقد كان من الممكن أن تنمو وتمهد لظهور نهضة قصصية في أدبنا الوسيط ، ولكن كتاب المقامة الاوائل كان هدفهم الرئيسي من وضع مقاماتهم هو أن يعلموا الناشئة الكتابة الزخرفية والأسلوب المنمق [1] . كماكانوا يهدفون الى اعانتهم على تنمية ثروتهم اللغوية . لذلك كانوا يعتنون بسبك الألفاظ واقتناص غريب اللغة أكثر من عنايتهم بمضمون الموضوع بشكل عام . وهذا ما أشار اليه صاحب "الآداب السلطانية" حيث قال : "ان المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر" [2].

وقد لاحظ ، من جهة أخرى ، أن فكرة التسول التي تبني عليها المقامات عادة تعود على الناشئة ببعض السلبيات لحقارة مادة الاستجداء ورذلتها ، "نعم ، وفيها حكم وحيل وتجارب ، الا أن ذلك مما يصغر الهمة ، اذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف فان نفعت من جانب ، ضرّت من جانب ، وبعض الناس تنبهوا على هذه المقامات الحريرية والبديعية ، فعدل ناس الى "نهج البلاغة" من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" [3].

وكانت المحاور الرئيسية التي تدور حولها المقامة ، الى جانب الكدية والاستجداء : الوعظ الديني ، والمدح ، والنقد الأدبي ، كمانجد ذلك مثلا ، في المقامات : العراقية ، والشعرية ، والقريضية للهمذاني .

---

(1) شوقي ضيف : المقامة : ص : 9 .
(2) ابن طباطبا : الفخرى : ص : 10 .

(3) ابن طباطبا محمد بن علي : الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص : 10 ، المطبعة الرحمانية بمصر ، 1345 /1927.

ثم اتسعت أغراض المقامة الأدبية ، بعد ذلك ، فأصبحت تشمل مواضيع مختلفة ، وأخذت تبحث فيما ألفت أن تختص به الرسائل . فبعدت بذلك عن أصلها ، وفقدت كل ميزات المقامة البديعية ، أو الحريرية ، وباتت عبارة عن رسائل وصفية أو نقدية .

— وقد أغرم الأندلسيون والمغاربة ، كغيرهم بفن المقامة ، فحاولوا محاكاة البديع والحريري وغيرهما من الكتاب المشارقة ، فلمعت أسماء الكثيرين منهم ، وانتشرت مقاماتهم ، على قلتها أول الأمر ، فأقبل عليها الطلاب يتدارسونها ، الى جانب المقامات المشرقية التي كان اعجابهم بها يفوق كل أعجاب ، حتى أنهم ألفوا حولها شروحا ضافية نذكر منها على سبيل المثال : شرح ابن ميمون القرطبي المتوفي سنة 567 [1]. وشرح ابي طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي (.../608) الذي ألفه حول مقامات الحريري [2] ! وهناك شرح محمد بن أحمد بن سليمان المالقي المتوفي سنة 617 [3].

وكان أكمل شرح للمقامات الحريرية على الاطلاق ، هو شرح الشريشي ابي العباس أحمد بن عبدالمؤمن المتوفي سنة 619 . ذكر المقري أنه شرحها في ثلاث نسخ : " كبراها الأدبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة " [4].

— ولم يكثر الأندلسيون من انشاء المقامات في هذه الفترة ، وانما اكتفى أغلبهم بالمقامة والمقامتين وكأنما كان أقصى ما يطمحون اليه هو اثبات قدرتهم على مجاراة المشارقة في هذا الميدان أيضا .

---

(1) هو محمد بن عبدالله بن ميمون العبدري ، كان من العلماء الذين استدعاهم عبدالمؤمن من الأندلس لتعليم أولاده ، وقد سبق التعريف به . ذكر ابن سعيد أنه كان مقدما عند المنصور وهو غلط والصواب ما أثبتناه هنا وذكره صاحب البغية : ج . 1 . ص : 147 — أنظر ترجمته عند كل من ابن دحية في المطرب ص : 198 — وابن سعيد : المغرب : ج . 1 . ص : 111 .

(2) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي : ص : 181 .

(3) ترجم له المقري في النفح : ج . 2 . ص : 214 ، وقال عنه صنف عدة كتب منها كتاب في شرح المقامات — كما ترجم له السيوطي في البغية : ج . 1 . ص : 25—26 .

(4) المقري : نفح الطيب : ج . 2 . ص : 116 ، وهو الشرح الوحيد الذي وصلنا من بين كل التي ذكرناها .

لذلك لا نكاد نجد — في هذه الفترة على الأقل — من تجمعت له أكثر مما تجمع للسرقسطي أبي طاهر محمد التميمي المعروف بالاشتركوني المتوفي سنة 538، وهي خمسون مقامة عارض بها مقامات الحريري[1] وسماها المقامات اللزومية.

— ومن الكتاب الأندلسيين الذين عاشوا بالمغرب ونسبت إليهم بعض المقامات، نذكر ابن خفاجة[2]، وابن أبي الخصال الذي عارض الحريري بمقامة طويلة، وابن خاقان، وقد نسبت اليه المقامة القرطبية التي اتهم بوضعها ابن أبي الخصال. غير أن هذا الأخير نفاها عن نفسه[3]. وتنسب مقامتان أخريان أيضا لمحارب بن محمد بن محارب الوادي آشي المتوفى سنة 553 هـ. كتب احداهما في مدح القاضي عياض بن موسى. غير أنها لم تصل الينا[4].

— أما المغاربة فيبدو أنهم لم يحتنوا بهذا الفنّ الا في وقت متأخر فممن اشتهر منهم في فنّ المقامة نذكر محمد بن محرز الوهراني المتوفي سنة 575. نشأ هذا الأديب في العهد المرابطي وأدرك الموحدين[5] تثقف ببلده وهران وكان فنّه الذي يمت به صناعة الانشاء، غير أنه عدل عنها لما توجه الى المشرق، وتخصص في كتابة المقامات والمنامات. ويعلل صاحب الوفيات ذلك قائلا: "فلما دخل البلاد (أيّ مصر) ورأى بها القاضي الفاضل، وعماد الدين الأصبهاني الكاتب، وتلك الحلبة، علم من نفسه انه ليس من طبقتهم،

---

(1) ابن بشكوال: الصلة: ج. 2. رقم 1294 — السيوطي: البغية: ج. 1. ص: 279.
(2) لم تصل الينا مقاماته، وانما وردت بقية منها في ديوانه طبعة الاسكندرية.
(3) انظر ابن بسام: الذخيرة: ق 3 — م — 2 — ص: 801 وما بعدها.
(4) ابن الأبار: التكملة: رقم 1809 — ج — 2 — ص: 736.
(5) ابن خلكان: الوفيات: ج. 4. ص: 19.

ولا تتفق سلعتهم مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجدّ ، وسلك طريق الهزل ، وعمل المقامات والرسائل المشهورة والمنسوبة اليه "(1).

ونحن نستبعد أن يكون الذى الجأ الوهراني الى طريقته الهزلية هذه هو احساسه بعدم قدرته على مجاراة القاضي الفاضل وأضرابه من أساطين الكتابة . اذ لاشك أنه كان يعلم بوجودهم في الديوان قبل أن يتحرك من بلده ، خاصة ، وأن شهرة القاضي الفاضل والعماد الاصبهاني قد أطبقت الآفاق . ولكن قد يكون ذلك ناتجا عن خيبة الأمل التي منيّ بها عند وصوله الى مصر ، حيث وجد أبواب الدواوين موصدة في وجهه . ولدخولها كان لابد له من تقديم مقاليد الولاء ، واظهار التبعية الكاملة لكبير الكتّاب القاضي الفاضل ، الذى كان بيده أمر التوظيف . ولكنه لم يفعل ، حسبما يبدو . ولم يكن للقاضي ، من جهته ، أن يسر تاح لتوظيف غريب معه يحترف نفس المهنة ، فقد يصبح خطرا على مركزه يوما ما .

ولم يكن كبير الكتاب على خطأ حين تحفظ في الأمر ، لأن ابن محرز كانت تحدو به ، في رحلته الى المشرق ، طموحات واسعة ، فهو لم يتجشم أخطار السفر ، وأهوال الغربة الا في سبيل آمال عريضة كان يمنّي بها نفسه ايسرها الشهرة ، والجاه العريض ، ولم يكن ليتحقق له شيء من ذلك الا بالمنافسة والمزاحمة الشديدة .

ولما لم يوفق الى ما كان يطمح اليه أصيب بانتكاسة وخيبة أمل فوجد المقامة أحسن متنفس له فصب فيها جام غضبه ، وعبر بها عن آرائه بأسلوبه اللاذع وطريقته الساخرة .

ويبدو أن هناك أسبابا أخرى سياسية الجأته الى الهجرة ، اذ لم يستطع أن ينسجم مع الوضع الجديد في المغرب عندما افتك

---

(1) ابن خلكان : الوفيات : ج . 4 . ص : 19 .

الموحدون السلطة من أيدى المرابطين . يستشف هذا من مقامته البغدادية التي ضمنها رأيه في كل من النظامين حيث قال مجيبا الشيخ أبي المعالي عندما سأله عن دولة الملثمين :
" تلك أمة قد خلت ، وروضة أمحلت ، أقفلت بدورها فتعطلت صدورها ، وطلعت نحوسها فغابت شموسها ، وكانوا أشجع من الليوث ، وأكرم من الغيوث وأحسن من الأزهار ، وأبهى من شمس النهار :

اذا التثموا بالربط خلت وجوههم أزاهر تبدوا من فتوق الكمائم
وان ألثموا بالسابرية أظهروا عيون الأفاعي من جلود الأراقم

فلم تزل بدولتهم صروف الليالي ، حتى صيرتهم كطيف الخيال تنوح عليها القصور والمنابر ، وتبكي لها الأقلام والمحابر . . .
قال فما تقول في عبد المؤمن وأولاده ، وسيرته في البلاد ؟
فقلت مؤيد من السماء خواض للدماء ، مسلط على من فوق الماء ، حكم سيفه في القمم وأعمله في رقاب الأمم ، حتى خضعت له التيجان ، ودانت له الانس والجان ، فأعد الحلم شفاره ، وقلم العلم أظفاره ، فلان مسّه ، وهدأ حسه ، ولو أن للعلم لسانا وللورقة لسانا ، لتألمت وتظلمت ولأنشدتك في الملأ قول الشيخ أبي العلاء :

جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أرجح ، ومسالمة الأفعى أنجح ، وعند الله تجتمع الخصوم " (1) .

فرأيه في الموحدين يوحي بأنه لم يكن مستريحا لحكمهم ، ولعل سخطه هذا ناتج عن اهمالهم له ككاتب ، بعد أن كان معزز الجانب عند المرابطين .

---

(1) الوهراني محمد بن محمد بن محرز : منامات الوهراني ومقاماته ورسائله : ص : 11 — 12 — تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش . ط . دار الكتاب العربي فرع مصر ، 1968 .

ولسنا نعلم اذ كان ابن محرز قد سبق له أن كتب المقامة عندما كان ببلده . فكل الكتب التي ترجمت له سكتت عن حياته الأولى التي قضاها في المغرب سكوتا تاما . ولكننا نستطيع أن نستنتج من خلال ماكتبه في المشرق أنه قد مارس الكتابة الفنية مدة طويلة ، قبل مجيئه الى مصر وذلك عندما استكتب في دواوين المغرب ، ولا يبعد أن يكون قد وضع بعض المقامات قبل رحلته ، ولكنها لم تصل الينا ، لأن مقاماته المشرقية تدل بنضجها على أنه لم يكن مبتدئا في الموضوع . ثم لا ننسى أن كل المدة التي أمضاها في المشرق لا تتجاوز العشر سنوات ، فلا يعقل أن ينتج كل هذا الانتاج في ظرف عشر سنوات دون أن يكون قد خلف آثارا قبل ذلك .

وهذه بعض النماذج من ترسل ابن محرز نوردها كبرهان لما وصلت اليه كتابة المقامة في المغرب في عهد الموحدين . وهذه النماذج وان كانت مشرقية المواضيع الا أنها مغربية الانشاء بحكم ثقافة صاحبها .

ـ المقامة البغدادية :

قال الوهراني : " لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي على غاربي ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي "(1) ، ومن أخلاق الأدب رضاعتي . فما مررت بأمير الا حللت ساحته ، واستمطرت راحته ، ولا وزير الا قرعت بابه وطلبت ثوابه ، ولا بقاض الا أخذت سيبه ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بي الأعصار ، وتقاذفت بي الأمصار ، حتى قربت من العراق ، وقد سئمت من الفراق فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الاسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضر ، ومكابدة العيش

---

(1) يفهم من هذا أنه كان شاعرا أيضا .

المرّ فلما قرّ بها قراري ، وانجلى فيها سراري ... تاقت نفسي الى معاشرة العقلاء ، واشتقت الى محادثة الفضلاء ، فسألت عن مضنة الأدب ومن مجتمع الكتب والكتاب ، فدلني بعض السادة الموالي على دكان الشيخ أبي المعالي ، وقال : " هو بستان الأدب وديوان العرب ، يرجع الى رأى مصيب ، ويضرب في كل علم بنصيب ... "(1)

فقد استهل مقامته — كما نرى — بتحديد الخطة التي سار عليها في الحياة بعد أن سدت في وجهه كل سبل العيش في بلاده ، واضطرته للاغتراب والاعتماد على الكدية والاستجداء ، وهذا هو المحور الرئيسي الذى دارت عليه كل المقامات كما نعلم . الا أنّ الموضوع الأساسي الذى أدار عليه الحوار بينه وبين أبي المعالي هو موضوع سياسي أقامه على نقد البلدان التي زارها وتحليل أنواع الحكم التي سادتها . وقد بدأ ببلاد المغرب كما سبق أن أشرنا الى ذلك آنفا ، ثم ثنى ببلاد مصر فأطنب في مدح حكامها الذين أنقذوها من براثن الصليبية ثم ختم بمدح حكام بغداد الذين أنشئت المقامة أساسا من أجلهم . خاصة منهم الوزير عضد الدين . وقد أجرى مدحه على لسان أبي المعالي فسأله قائلا بعد أن أفاض في مدح الخليفة ، " فما تقول في وزيره عضد الدين ؟ فقال جبل علم راسخ ، وطود عقل شامخ ، وسهم رأي صائب ، ونجم عدل ثاقبه نجل الملوك الأكاسرة ، وابن التيجان والأساورة ، أكرم من الغيث الهامر وأشجع من الليث الخادر ، كان المستنجد بالله قدس الله روحه ونور ضريحه ، لما خبر ديانته وأمانته ، وفهم طريقته وحقيقته ، وضع كل الدولة عليه ، وألقى مقاليدها بين يديه . فأخذ القوس باريها ، ونزل الدار بانيها "(2).

---

(1) الوهراني : المنامات : ص: 10 — 11.

(2) المصدر السابق، ص: 15.

وهذا المديح كله كان يقصد من ورائه التمهيد لاستجدائه وطلب رفده ، لذلك سأله قائلا : "فما تقول في حلول بابه واستمطار سحابه ؟ فقال : والله لوقصدت باب الوزير لأمطرك من وبله الغزير ما يبلغك الى أوطانك ، ويزهدك في سلطانك ، ويزري عندك بمن لا قيته من الأمراء ويكسف ما شاهدته من الوزراء"[1].

فهذا اللون من التعبير الذى يطلق عليه "المقامة" ليس في واقع الأمر الا طريقة جديدة ابتكرها الأدباء للاستجداء والتكسب بواسطة ما تتضمنه من مدح او استعراض للفصاحة ، أو تباه بالمعارف ، لأنها لم تكن تكتسب الا لتلقى في مجالس ذوي السلطة والجاه ، كما كان الهدف من كل الألوان الأدبية الأخرى سواء أكانت قصائد أم موشحات أم أزجال أم رسائل أم غيرها .

فلئن آثرها بعض الكتاب عن بقية الألوان الأدبية الأخرى فلما تمتاز به من الطرافة القصصية التي تجذب السامع من جهة ولما تتيحه له من حرية في التخيل والتعبير أكثر من غيرها من جهة أخرى . ثم أنها كانت من أكثر الألوان الأدبية تقبلا للزخرفة التي أصبحت المعيار الحقيقي للجودة في ميدان الكتابة .

فلئن استطاع الوهراني أن يتحكم في حسن استعمال البديع في أغلب فصول مقامته هذه التي بين أيدينا الا أنه كثيرا ما يخونه اصطياد بعض الأسجاع فيبدو تكلفه واضحا فيما تضفيه هذه الأسجاع على الجمل التي حليت بها من ركاكة . كما نلاحظ ذلك في قوله : " اذاً والله كنت أشكره شكر الروض للماء ، وأثني عليه من الأرض الى السماء " فما الذى يريده بالثناء من الأرض الى السماء ؟ ![2] ثم يقول : "الا سيما ان أخذ لي من الخليفة خلعة مسيفة أستضيء بها قتباسها وأتبرك بلباسها ، أنشرها على منارة الاسكندرية ، وأجلوها على منابر المبرية "[3].

---

(1) الوهراني : المنامات : ص : 15 .
(2) المصدر السابق .
(3) المصدر السابق .

ويبدو تكلفة السجع خاصة في قوله "أكبت بها الأقران في وهران، وأطلق بشكره اللسان في تلمسان، وأدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفاس، وأثنى عليه في أغمات الى وقت الممات "(1).

هذا كل ما أمكننا أن نقوله عن المقامات المغربية لقلة النصوص التي وصلتنا . ولعل المستقبل سيكشف لنا عما لايزال مخبوءا في المكتبات الخاصة لأننا نعتقد اعتقادا جازما أن ما ظهر من النثر المغربي القديم حتى الآن، لا يعد الا جزءا بسيطا بالنسبة لما كتب في ذلك العهد .

ـ المفاخرات :

هناك نوع آخر من النثر الفني ، لايدخل ضمن الرسائل السالفة الذكر ، ولا ضمن المقامات الأدبية ، لما يتميز به من طابع خاص، ونعني به النثر الذى تجلى في المفاخرات التي كانت تعقد بين المدن ، وبين الأقاليم ، ثم بين كل من العدوتين : الأندلسية ، والمغربية . وقد نشأ هذا اللون من التعبير نتيجة للاحتكاك والتنافس اللذين كانا قائمين بين العلماء آنذاك .

وأول مفاخرة جاءتنا في هذا الشأن يرجع تاريخها الى القرن الرابع الهجرى وذلك عندما كتب أحد الأدباء القيروانيين ، وهو ـ حسبما ذكره المقرى في النفح ـ(2) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد ابن الربيب التميمي رسالة الى أبي المغيرة عبدالوهاب بن أحمد ابن عبدالرحمن بن حزم الأندلسي يعتب فيها على الأندلسيين قعودهم عن التأليف ، رغم كفاءتهم ، ويعتقد عليهم اهمالهم للتعريف بعلمائهم وأدبائهم ، وأولي الأمر منهم ، حتى كأن الواحد منهم . كما يقول : كان "يخاف اذ صنف أن يعنف ، وان ألف أن يخالف ، ولا

---

(1) الوهراني : المنامات : ص : 15 .
(2) ابن بسام : الذخيرة : ق /1/1/ ص : 133 ـ 136 .
ـ المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص: 156 .

يؤالف ، أو تخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق .
ولم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه .... على أنه لو أطلق ما عقل الأغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الاهمال من بيانه ، لوجد للقول مساغا ... ولكن هم أحدهم أن يطلب شأ ومن تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق ... فاذا أدرك بغيته ، واخترمته منيته ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره وانقطع خبره ". (1)

ويستأنف ابن الربيب قائلا : حتى اذا وجد منهم من تجرأ على التأليف ، كما فعل ابن عبد ربه ، فاننا نجده يسخر جهوده للاشادة بالغير بدل أن يسخرها للتنويه بمآثر قومه وتخليد مناقبهم .

ثم ختم خطابه باسترشاد ابن حزم واستجلاء رأيه في الموضوع .
تلك خلاصة ما جاء في رسالة ابن الربيب من انتقاد واستفسار ، الا أن الذى يحيرنا من أمر هذه الرسالة هو أن صاحبها يسأل عن أشياء يبدو من فحوى كلامه فيها أنه يعرفها حق المعرفة ، فهو ، من جهة ، يتعجب من كثرة علماء الأندلس وأدبائها ويشيد بمقدرتهم العلمية ، وكفاءتهم الفائقة فيها ، ومن جهة أخرى ، يلومهم على قلة التأليف ، والتصنيف ونشر معارفهم ، وتخليد مآثرهم ، مع " استظهارهم على العلوم " .

— فكيف استطاع اذن أن يحكم — من بعيد — على كفاءتهم العلمية ومقدرتهم الأدبية ، لولم يكن قد اطلع على ما ألفوه من مصنفات وخلدوه من مآثر ؟ اللهم الا أن يكون قد اطلع على ذلك باحتكاكه بهم من كثب لانتقاله اليهم مثلا أو دراسته عنهم ، فحينئذ يكون تساؤله هذا واسترشاده لابن حزم ضرب من التمويه والمغالطة .

فنحن لا نريد أن نشكك في صحة هذه الرسالة ، أو صحة نسبتها لابن الربيب ، فقد أثبتها كل من ابن بسام في الذخيرة ، والمقرى في النفح ،

(1) المصدر السابق : ص : 156 — 158 .

بما لايدع مجالا للشك في ذلك . وان كنا نلاحظ أن ابن حزم عندما أجاب عليها لم ينسبها لابن الربيب وانما ذكر أنها لبعض الكتاب من أهل افريقية موجهة لرجل أندلسي لم يعين باسمه [1].

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة ، فان الذى يهمنا ، هو ردّ ابن حزم عليها الذى يعدّ أول مفاخرة وردت الينا كاملة في هذا الباب . والواقع أن ابن حزم لم يكن يقصد بوده هذا ، التعريف بعلماء الأندلس بقدر ما كان يريد أن يباهي بهم علماء القيروان ، ويعرض بعجز المغاربة ، بصفة عامة ، ويشهر بتخلفهم ، لاعتمادهم في التأليف عن أوطانهم والتعريف بأقليمهم والتأريخ لها على الأندلسيين الذين عابوهم . كما يتضح ذلك من قوله : "فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفا غير ، " المعرب عن أخبار المغرب " وحاشا تواليف محمد بن يوسف الوراق . فانه ألف للمستنصر رحمه الله ، في مسالك افريقية وممالكها ، ديوانا ضخما في أخبار ملوكها ، وحروبهم ، والقائمين عليهم كتبا جمّة . وكذلك ألف أيضا في أخبار " تيهرت " و " وهران " و " تنس " و " سجلماسة " و " نكور " و " البصرة " وغيرها ، تواليف حسانا "[2]. ثم يشرح ، في تهكم واضح ، أن محمد بن يوسف هذا ، أندلسي الأصل ، والفرع آباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته اليها ، وان كانت نشأته بالقيروان "[3].

فهو يعني بهذا أن يبين أن الأندلسيين لم يهتموا بتسجيل مآثرهم ، وتخليد مناقب قومهم فحسب ، بل قد أخذوا على عاتقهم حتى ما يخص جيرانهم الأقربين ، لقصور هؤلاء عن القيام بشؤونهم الخاصة بأنفسهم .

---

(1) ذكر المقرى في النفح :ج . 3 . ص: 159 — أن الرسالة كانت موجهة لأبي المغيرة ابن حزم ، وقد وجدها ابن حزم الظاهرى عند أحد أصدقائه ، فطلب منه " يمن الدولة " صاحب " البونت " أن يرد على كاتبها لـ " يبين له ما لعله قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي " وقد كان رده على الرسالة بعد وفاة ابن الربيب — انظر المصدر المذكور ص : 159 ومابعدها .

(2) المقرى : النفح .ج . 3 .ص: 163 . (3) المصدر السابق .

ثم انتقل بعد ذلك الى المفاخرة بأقاليم الأندلس وبلدانها ، معددا ما أنتجه علماؤها من مصنفات وماخلدوه من آثار في حماس مفرط مقارنا كل ذلك بما انتجه فطاحل العلماء بالمشرق .

— وقد ذيل ابن سعيد هذه المفاخرة برسالة استدرك فيها على ابن حزم مافاته من ذكر بعض المؤلفات التي ألفت في عهده ومثبتا فيها مااستجد منها بعد وفاته الى أواسط القرن السابع الهجري .

الا أن أشهر هذه المفاخرات ، وأهمها بالنسبة للعصر الذى نحن بصدد دراسته هي تلك التي أنشأها أبو الوليد الشقندى المتوفي سنة 629 هـ . ردّا على مفاخرة أبي يحيى بن المعلم الطنجي الذى ناظره بين يدى أبي يحيى زكرياء ، والي سبتة آنذاك ، في فضل الأندلس على المغرب ، الا أن مناظرة ابن المعلم هذا قد ضاعت ، مع الأسف .

— وتعد رسالة الشقندى ، هذه ، من أمتع ما قيل في هذا الباب ونحن أمام ضياع النص المغربي ، لا نرى مفرّا من الاعتماد عليها ، فهي كافية لأن تعطينا فكرة عما وصل اليه هذا اللون من النثر في العهد الموحدى .

— بدأ أبو الوليد مفاخرته هذه باستعراض أنواع الحكم وطبقات الحكام الذين عرفتهم الجزيرة منذ الفجر الاسلامي الأوّل ، موضحا ماكان لبعض أفرادهم من سلطة على بر العدوة ، وما وصلت اليه الأندلس في ظل حكمهم من عزّ وسؤدد وفخار بفضل ما قاموا به من جهود عسكرية وسياسية لنشر الدعوة الاسلامية والمحافظة عليها في تلك البقاع حتى استتب الأمن بها ، وانتشر الرخاء وازدهار العلم فعمّ كل طبقات الأمة .

ثم أخذ يقارن هؤلاء الحكام بحكام برّ العدوة الذين عرفهم المغرب قبل مجيء الموحدين ، من أمثال سقوط الحاجب ، وصالح البرغواطي ، ثم يوسف بن تاشفين الذى عرض الشقندى بجهله للغة العربية في تهكم واضح حيث جعله لا يفقه أى معنى للشعر ،

رغم ما مدح به . بل يرى أنه لولا توسط ابن عباد له لدى الشعراء ماقالوا فيه أى شيء مطلقا(1).

وبعد ذلك أخذ في استعراض مشاهير العلماء الذين أنجبتهم الأندلس في كل فنّ متحديا المغاربة أن يأتوا بأمثالهم .

وقد ركز في رسالته هذه على المفاخرة بالأدباء خاصة منهم الشعراء حيث انتقى لهم أحسن ماقالوه من أبيات في جميع الأغراض مباهيا بما ولدوه فيها من أفكار جديدة وما ابتكروه من معاني لم يسبقوا اليها وهو لا يكتف في كل ذلك عن تحدى المغاربة أن يأتوا بمثلها . وقد يعمد أحيانا الى أشهر شاعر لهم فيتسقط زلاته ويبرزها في صورة "كاريكاتيرية" على أنها من أحسن ماقاله . ثم ينقدها بأسلوب ساخر مزر ينمّ على مدى الاحتقار والمهانة التي يكنّها لهؤلاء القوم . نستشف هذا من قوله ، معرضا بشعراء المغرب بعد أن عدّد مزايا شعراء الأندلس : " من شاعركم الذى تقابلون به شاعرا ممّن ذكرت ، لا أعرف لكم أشهر ذكرا ، وأضخم شعرا من أبي العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجحدوا فخره وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة :

اذا كان أملاك الزمان أراقما   فانك فيهم دائم الدهر ثعبان

فما أقبح " ثعبان " وما أضعف ماجاء " دائم الدهر " . ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال لا ينكر هذا على مثل الجراوى فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب في الثقالة "(3).
وكأن الجراوى لم يقل في المدح غير هذا البيت ؟!

وقد تجمح به العاطفة ، أحيانا ، فنراه يعرّض حتى بمشاهير شعراء المشرق ، كما فعل بالنسبة لعمر بن أبي ربيعة عندما قارن معنى

(1) المقرى : النفح : ج . 3 . ص : 191 .
(2) يعرض نسبه اليهودى ـ أنظر ماقاله ابن سعيد عن ذلك في الغصون اليانعة : ص : 98 .
(3) المقرى : النفح : ج . 3 . ص : 209 ـ 210 .

تناوله هذا الأخير بأبيات قالها ابن شهيد (1) ، فقال : " وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه ، فعارض الصهيل بالنهاق ، وقابل العذب بالزعاق ، فقال ، وليته سكت :

ونفضت عني العين أقبلت مشية الـ حباب وركني خيفة القوم أزور

وأنا أقسم لو زار جمل محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن المنفض للعيون "(2).

— ثم ينتقل بعدها الى المفاخرة بما ضمته أقاليم الأندلس من حواضر ثقافية كانت ولا تزال بمثابة مراكز اشعاع بالنسبة لكل بلدان المغرب منوها بما انجبته من علماء وأدباء وشعراء ، ثم يذكر ما احتوت عليه عواصمها ، ومدنها الكبرى من منشآت حضارية وصناعية ، وما حباها الله به من حدائق وجنات وعيون وأنهار ، مفاخرا بما وصل اليه أهلها من الرفاهية والرقي الحضاري مشيدا برقة الحياة التي يحيونها ، منوها بتقديرهم للجمال ، وحبهم للغناء وتذوقهم للموسيقى ، واعتنائهم بتطويرها حتى أصبح لهم فيها من الآلات ما لا يحصى كثرة بالمقارنة بما للمغاربة من آلات بدائية متخلفة .

وقد يباهي بمرح الأندلسيين وحبهم للخلاعة ، معددا ما كانت تزخر به مدنهم من منتزهات ودور اللهو . فقد عدّ من مفاخر " بياسة " ما كانت تتوفر عليه " من أصناف الملاهي والراقصات المشهورات بحسن الانطباع والصنعة " (3).

بل ويفاخر حتى بانتاج بعض المدن للشراب الراقي ، فقد عدّ من ميزات " مالقة " أنها " خصت بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالقي "(4).

---

(1) الأبيات التي قالها ابن شهيد هي :

ولما تملأ من سكره ونام ونامت عيون الحرس
دنوت اليه على رقبة دنو رفيق درى ما التمس
أدب اليه دبيب الكرى وأسمو اليه سموّ النفس
أقبل منه بياض الطّلى وأرشف منه سواد اللعس
فبت به ليلتي ناعما الى أن تبسم ثغر الغلس

المقري : نفح الطيب : ج . 3 . ص: 198 .

(2) المصدر السابق . (3) المصدر نفسه : ص : 217 .

(4) نفس المصدر : ص : 219 .

وقال عن "اشبيلية" "إن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيها غير منكر، لا ناه عن ذلك ولا منتقد، مالم يؤد السكر الى شرّ وعربدة "[1].

— ثم يختم مفاخرته في النهاية بشهادة أحد فضلاء خراسان، وقد سأله عن رأيه في علماء الأندلس، وكتّابهم وشعرائهم، فردّ عليه مستشهدا بقول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت   منها الشموس وليس فيها المشرق[2].

— فالرسالة من حيث محتواها تعدّ من أحسن ماكتب في النقد الأدبي وتاريخه في العهد الموحدى . فهي على قصرها، قد تعرضت لذكر أشهر علماء الأندلس منذ عهد الولاة، واستعرضت أحسن ماكتبوه من مؤلفات في كل الفنون مقارنة أياها بما كتب قبلها وما استحدث بعدها في المشرق، فلخصت لنا بذلك الحياة الثقافية بالأندلس بطريقة محكمة واضحة، وأعطتنا صورة كاملة على مدى ما وصل اليه الفكر الأندلسي من رقي في شتّى الميادين خاصة منها الميدان الأدبي .وهذا بما عرضته لشعرائها من نماذج غاية في الرقة والجمال، فدلت بذلك على رهافة حسهم وعلو ذوقهم، كما سلطت الضوء على كثير من الجوانب الاجتماعية بما شرحته من عادات وتقاليد، وشتى الطرق المعاشية التي كان يتوخاها أهلها، بعيدة عن كل تزمت مصطنع، أو تستر وراء شعارات زائفة .

— ولم يكن يكتفي الشقندى بسرد المصنفات وعرض النماذج الأدبية التي كان ينتقيها، عرض المستشهد الناقل فحسب، وانما كان يشفع كل ذلك بالنقد والتمحيص، والتحليل العلمي والمقارنة بما قيل في الموضوع أو في نفس المعنى . وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على ماكان يتمتع به الرجل من غزارة علم، وسعة اطلاع، اضافة الى

---

(1) المصدر السابق، ص: 212.
(2) المصدر نفسه، ص: 222.

ما أتيــه من رهافــة حسّ فائق ، وذوق أدبــيّ رفيــع ، دلّ عليهما ما عرضــه علينا من مخـتـارات شعريـة ومنتخبات أدبـيـة .

ــ الا أن ما يعيـب مـفاخرته هذه هي تـلك الروح العنصرية التي طغت عليـه في كتابتها ، فجعلته يـنساق ، في كثير من الأحيان وراء العاطفة ، فتـبعده عـن الصواب في أحكامه التي كان يـصدرها في حـقّ المغاربـة .

والواقع أن رسالة الشـقنـدى كانت قد أنشئـت أساسا على نوع من العرقـيـة الممـقوتة . يدلّنا على ذلك قوله لابن المعلم أثناء مناقشته له أمام والي سبتـة : " لولا الأندلس لم يذكر برّ العدوة ولا سارت عنه فضـيلة ولولا التوقير للمجلـس لـقلت ما تـعلم "(1) وقد تـفطّن الوالي لما تـنطوى عليه هذه الجملة الأخيرة، فقال له : " أتريد أن تـقول كون أهـل برّنـا عربا ، وأهل برّكـم بربـر ، فقال حاشا للّه فقال الأمير ، والله ما أردت غير هذا ، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك "(2).

تـظهر لنا هذه العنصرية واضحة في تعـريض الشـقندى بالأصل البربـرى للحكّام المغاربـة ، وافتخـاره بالأصل العربي الذى يرجـع اليه كل الأندلسيين غلـطا . وهذا في قولـه : " ان كان الآن كرسـي جمـيع بلاد المغرب عنـدكـم بخـلافـة بني عبد المؤمـن ، أدامهـا اللـه تعالـى ، فقـد كان عنـدنا بخلافـة القـرشـي "(3).

ــ ويـظهر أيضـا تعـريضـه بهم في تهكمـه بملوكهـم ورمـيه أيامهم بالفحـش وذلك في قولـه عنهم : " وهل منكـم من مدح بمعنى ، فبلـغ به النهاية من المدح، ثم نـقله الى الهجاء فبلـغ به النهايـة في الذم وهو اليـكي في قوله مادحا :

قوم لهم شرف العـلا في حمـيـر	واذا انـتمـوا لمتونـة فهم هـم
لما حووا احـراز كل فـضـيـلـة	غـلب الحيـاء عليهم فتـلثـموا

وفي قولـه هاجيـا :

ان المرابـط باخـل بنوالــه	لكنـه بعـيـا لـه يـتكـرم
الوجـه منـه مخـلّق بقـبيـح مـا	يأتـيه ، فهو من أجله يتـلثـم (4)

---

(1) المـقرى: نفح الطيـب : ج . 3 . ص : 176 .
(2) المـصدر نـفسـه .
(3) المـصدر نـفسـه ، ص : 188 .
(4) المـصدر نـفسـه ، ص : 205 ــ 206 .

ويتهكم ببساطة معيشتهم الساذجة وأذواقهم البداية فيقول عن الحمص الملون الذى اشتهرت به سواحل "المرية" كان يجعله رؤساء مراكش في البرار بسد "[1].

ـ ومن تهكماته التي تجنى فيها على المغاربة قوله ، وهو بصدد وصف تين "بليش" : " قيل لبربرى كيف رأيت تين "بليش" قال : لا تسألني عنه وصب في حلقى بالقفة ، وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها "[2]. فهذا تمويه سافر ومغالطة مفضوحة ، لأن ما عرف به المغرب من أنواع التين الجيّد لا يكاد يحصى .

وفيما عدا هذه النزعة العنصرية التي وسمت هذا الأثر الفني فان الرسالة في حدّ ذاتها تعدّ من أرقى ماكتب في بابها .

ـ وهناك مفاخرة أخرى أجراها أبو بحر صفوان بن ادريس بين مدن الأندلس جعل المحور الذى تدور عليه المنافسة بينها مواثبات استحقاقها لا يواء أحد الأمراء ، فأخذت كل مدينة تتباهي بما تمتاز به من محاسن لا توجد في غيرها ، وكان الهدف الذى يرمي اليه الكاتب من وراء هذه المحاورة هو مدح الأمير طبعا . الا أنه اتخذ ذلك وسيلة للتنويه بما تختص به كل مدينة من مزايا . غير أن هذه المفاخرة ، رغم ما تحتوى عليه من معلومات ، تبدو لنا أقل قيمة من الناحية الفنية ، من تلك التي ذكرناها آنفا[3].

والملاحظ أن القاسم المشترك الذى يربط بين كل هذه المفاخرات على اختلاف أزمنة نشأتها كان دائما المباهاة بما وصل اليه الأندلسيون من الرقي الفكرى والحضارى . ومبعث كل هذا ، حسبما يبدو لنا يرجع خاصة الى الشعور بالنقص الذى كان يحس به العلماء المغاربة

---

(1) المصدر نفسه : ص : 220 ـ البرا ريد : ج . برادة ـ اناء يتخذ لتبريد الماء ـ بقصد انهم كانوا يزينون برابيدهم بهذا الحمص الملون .

(2) المصدر نفسه : ص : 219 .

(3) انظر رسالة ابي بحر صفوان بن ادريس عند المقرى : نفح الطيب: ج . 1 . ص: 170 ومابعدها .

بصفة عامة ازاء زملائهم المشارقة . ومانطقت به مفاخراتهم هذه التي بين أيدينا صريح في التعبير عن هذا الشعور . لذلك نجد الاندلسيين عندما يفخرون بما أنتجوه في أي فن كان، يقارنون آثارهم بما أنتجه أساطين المشرق في نفس الموضوع . نرى ذلك مثلا في قول ابن حزم وهو يفاخر بعلماء الاندلس : " وألفت عندنا تآليف في غاية الحسن ، لنا خطر السبق في بعضها فمنها كتاب الهداية لعيسى بن دينار . . . وفي تفسير القرآن كتاب ابي عبدالرحمن بقي ابن مخلد ، فهو الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثني فيه أنه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره "(1).

— كما نرى ذلك أيضا في قول الشقندى عند ذكره لمقطوعة شعرية لابن دراج حيث علق عليها بقوله : " وأنا أقسم بما حازت هذه الابيات من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذى ساد على كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ماتفنن فيه كل ناظم وناثر"(2).
وهذا الشعور نفسه هو الذى دفع بهم ، في مفاخراتهم ، الى بسط القول في المؤلفات المشرقية وتصنيفها ، وتبويبها ، واختصارها ونقدها أحيانا ، وهذا كله لاثبات قدرتهم على الاستيعاب والحوصلة والتلخيص من جهة ، والتباهي بسعة اطلاعهم وكثرة معارفهم من جهة أخرى.

والواقع أن هذه المنافسة التي تجلت مظاهرها بين علماء الاندلس وغيرهم هي ظاهرة طبيعية نجدها بين علماء كل عصر . فقد عبر ابن حزم عن حدة التنافس الذى كان يعاني منه علماء الاندلس في عصره ، وعن النظرة التي كان ينظر بها بعضهم الى البعض الاخر بقوله : " . . . أما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر " أزهد الناس في عالم أهله "

---

(1) المقرى : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 168.
(2) المصدر نفسه : ص : 195.

ولاسيما أندلسنا فانها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلا لهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد ، ان أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدّع ، وان توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط ، وان باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ، ومتى تعلّم ؟ وفي أيّ زمن قرأ ؟ ولأمه الهبل !... "(1)

ذلك ما يمكن قوله عن محتوى هذه المفاخرات . أما قيمتها الحقيقية فهي تكمن ، في الواقع ، فيما حفظته لنا من أسماء العلماء وما ذكرته لهم من مؤلفات ، منها ما وصلنا ، ومنها مالا يزال بعد في حكم المفقود .

— أما بالنسبة للأسلوب الذي كتبت به هذه المفاخرات كلها باستثناء مفاخرة أبي بحر صفوان ، فهو ذلك الأسلوب الأدبي الذي يجنح الى الرصانة ، ويعتمد على الازدواج في تقطيع جمله ولا يتصيد السجع ولا يجري وراء المحسنات البديعية . فهو أقرب ما يكون الى الأسلوب الجاحظي منه الى شيء آخر . وهذا هو الأسلوب الذي اعتمدته بعض الرسائل الاخوانية كما سبق أن رأينا ذلك من قبل .

هذا ولا يفوتنا أن نشير الى أن هناك نوعا آخر من النثر لا يدخل ضمن الأنواع الآنفة الذكر ، ونعني به النثر التأليفي الذي يتوخاه أغلب المؤلفين في كتابة مصنفاتهم المطولة ، كالكتب التاريخية والتراجم ، والشروح الأدبية والمؤلفات النحوية واللغوية ، والمصنفات العلمية والرياضية ، وما الى ذلك من هذه المواضيع التي تقوم أساسا على وصف الحقائق ، وتوضيح المشاكل ، وتقرير القواعد . فان الأسلوب الذي تكتب به هذه المصنفات يمتاز بالدقة العلمية ، والابتعاد عن الترادف ، والتكرار والحشو ، والتنميق اللفظي ، وكل ما يمت الى الزخرفة بصلة ، كما سنرى ذلك عند عرضنا لبعض النماذج من المؤلفات العلمية المغربية فيما يأتي .

---

(1) المقري : نفح الطيب : ج . 3 . ص : 166 — 167 .

— ب — 1) النشر التأليفي :

بقي علينا أن نقول كلمة أخيرة عن نتائج ذلك التفاعل الذي خضعت له كل من العدوتين : الأندلسية والمغربية طوال هذه الفترة ، وعما استطاعت أن تخلفه حركة المد والجزر التي سادت شعوب هتين الضفتين من آثار ثقافية في أبناء المغرب .

فمما لا شك فيه أن الثقافة المغربية قد بلغت أوج ازدهارها في العهد الموحدي ، وذلك لما لاقته من رعاية فائقة من طرف الحكام من جهة ، ولما توفر لها من أسباب النمو والتفتح من جهة أخرى .

وقد استفاد المغاربة ، خاصة ، بكل ما نقل اليهم من تيارات فكرية أندلسية ومشرقية ، بواسطة من هاجر اليهم من العلماء ، واستطاعوا أن يستوعبوا كل ما وصل اليهم من علوم وفنون في فترة قصيرة ، رغم حداثة عهدهم ، النسبية ، بالحياة الثقافية ، فبرهنوا بذلك على كفاءتهم العلمية النادرة ، وقدرتهم الخارقة على الاستعاب والفهم ، بل والابداع ، خاصة ، اذ لم يقفوا عند حدّ تلقي العلوم عن غيرهم ، والتفقه فيها فحسب ، ولكنهم جاروا أساتذتهم في أغلب ما أخذوه عنهم فبرزوا في كثير من الميادين . وقد شهدت لهم بذلك مؤلفاتهم التي خلفوها لنا ، وأقرّ لهم المنصفون بالتفوق في كثير مما كتبوه في مختلف الفنون .

ونحن لا نريد ، في هذه الصفحات التي تبقت لنا ، أن نعدد كل ما كتبه المغاربة في هذه الفترة من مؤلفات ، وانما المقصود أن نذكر منها بعض العينات التي تدل على ثقافة العصر من جهة ، لنستشف من خلالها مدى ما وصل اليه هؤلاء العلماء من قدرة وكفاءة ونضج في ميدان التأليف ، أيضا ، ونطلع على ما ساهموا به من جهود في اثراء الثقافة العربية ، بصفة عامة ، في منطقة المغرب الاسلامي من جهة ثانية .

لـذا فنحـن لن نعـرض الا لذكر نخبة قليلـة جـدّا من هؤلاء المؤلفـين الذين تجاوزت شهرتهـم حدود بـلاد المغـرب ، كما سـنكتـفي بعرض بعـض النمـاذج من هذه المؤلـفـات لا لندرسهـا بعمـق ، ولكن لنطـلـع من خلالهـا علـى طريـقـة التـألـيـف المغربـي في ذلك العـهـد .

وقـبـل أن نتعـرض لهذه النماذج ، نـريد أن نذكر ، فقـط ، بما سبـق أن ذكرناه ، مبثوثـا في ثـنـايا الفـصول السابـقـة ، من بعض المؤلـفـات المغربـيـة التي ظهـرت في شـتى الفنون في هـذا العصـر ، وهذا لنـتمكـن من تـكوين صورة تقـريـبـيـة عن حركـة التألـيـف في هذا العـهـد بـصـفة شامـلـة .

ــ فـلـعل أكبر شاهـد على تـفوق علماء المغرب في اللغـويات ، مـثلا ، هـو ما تـركه لنا أبو موسـى عيسـى الجزولي المراكشـي من آثـار في مـيدان النحو ، حيـث عـدت مـقدمتـه التي ألفهـا في هذا الفـنّ مرجعـا لكـلّ اساطين هـذا العلم في المـشـرق والمغـرب معـا . وكان قد سمـى مـقدمتـه هذه بالقانون واشتهـرت بالجزوليـة . قال عنهـا ابن خلكـان في الوفيـات : " لقد أتـى فيهـا بالعـجائـب ، وهـي في غايـة الايجـاز ، مع الاشتمـال على شيء كثـير من النحـو ، ولم يـسـبـق الى مـثلهـا "(1). وقال عنها ابن مالك أول شرحـه عليهـا : " ان كتـا ب القانون في النحو وان كان صغـير الحجم لكنه كثير العلم ، مـستقصـى على الفهـم ، مـشتمـل على لبـاب الأدب منطو على سرّ كـلام العـرب متضمن للنكـات الغريـبـة التي خلا منهـا أكثر شروح النحو . . "(2)

وقال بعضهـم عنهـا : " ليس فيها نحو , وانما هي منـطـق لحدودها وصناعتهـا ، العقلـيـة "(3).

---

(1) ابن خلكان : الوفيـات : ج . 3 . ص : 157 ــ المنونـي : العلوم : ص : 62 .

(2) حاجـي خليفـة : كشـف الظنون : ج . 3 . ص : 505 ــ المنونـي : العلـوم : ص : 62 .

(3) السيوطي : بغيـة الوعـاة : ج . 2 . ص : 236 .

لهذه الأهمية الكبرى اشتهرت الجزولية . وقد قرئت على مؤلفها في كل من المغرب والأندلس[1] ، كما وضعت عليها عدة شروح كتبها مغاربة وأندلسيون وغيرهم ، وفي مقدمتهم الجزولي نفسه حيث شرحها في مجلد ضخم[2]، كما شرحها امام نحاة الأندلس أبو علي الشلوبين عمر بن محمد . ت . 645 وتلميذه أبو الحسن علي بن عصفور . ت . 659 [3].

ولم تقتصر مؤلفات الجزولي على هذه المقدمة فحسب بل كانت له مصنفات أخرى ، منها شرح أصول ابن السراج [4].

— ومن المؤلفين المغاربة في علم النحو أيضا ، نذكر أحمد بن محمد البكرى السلاوى المتوفي سنة 641 الذى وضع هو الآخر شرحا على " المفصل " وشرحا على الجزولية [5] أيضا .

— ومنهم محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي المتوفي سنة570، له كتاب "الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل" وكتاب اصلاح ما وقع في شواهد سيبويه وسردها — للاعلام — من الوهم والخلل "، وكتاب " لحن العامة " وشرح "الفصيح " لتعلب[6].

— أما بالنسبة للآداب ، فقد سبق أن أشرنا الى بعض المصنفات التي ظهرت في عصر المنصور الموحدى مثل كتاب" مختصر الأغاني " الذى جمعه أبو الربيع سليمان الموحدى وكتاب " صفوة الأدب ونخبة كلام العرب " الذى ألفه الجراوى بأمر من الخليفة نفسه وغير ذلك من الكتب النثرية والدواوين الشعرية الكثيرة .

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 95 ، ص : 54 .
(2) ابن خلكان : الوفيات : ج . 3 . ص : 158 — المنوني :العلوم: ص: 62—63 .
(3) السيوطي : بغية الوعاة : ج . 2 . ص: 210 .
— اختلف المؤرخون في سنة وفاته فجعلوها في : 659 — و 663 — و667 و— 669 .
(4) السيوطي : بغية الوعاة : ج . 2 . ص : 236 .
(5) عبد الهادى : مظاهر النهضة : ص : 89 .
(6) ابن الأبار : التكملة رقم 1053 — السيوطي : البغية : ص : 19—20 .

— أما المؤلفات التي ظهرت في العلوم القرآنية فيكفي أن نذكر، على سبيل المثال منها، تفسير أبي الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المراكشي المتوفي سنة 687 الذى سماه " مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل " والذى ابتدع فيه قواعد جديدة في علم التفسير لم يسبق اليها. وله عدة مؤلفات في شتى فنون المعرفة[1].

— ومنهم أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي الفاسي الذى صنف تفسيرا جليل القدر، وان لم يكمله، حيث وصل فيه الى سورة الفتح. وقد كان من أبدع التفاسير التي ألفت في ذلك العهد، وله مؤلفات أخرى عديدة في شتى الفنون[2].

— ومنهم أبو العباس أحمد بن فرحون، السلمي الفاسي المتوفي سنة 660 هـ. الذى ألف كتاب " الاستدراك والاتمام " استدرك فيه على الامام السهيلي في كتابه " التعريف والاعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام "[3].

— وممن ألف في القراءات من المغاربة نذكر أبا عبدالله محمد بن حسن الفاسي المتوفي سنة 665، وقد سمى كتابه "اللآلى الفريدة، وضعه في جزئين كما صنف شرح الشاطبية"[4].

— أما بالنسبة للأصوليين، فهناك أبو عبدالله محمد الفندلاوى الفاسي المتوفي سنة 596 هـ. الذى ألف أرجوزة في أصول الفقه حيث كان يعدّ اماما فيه وفي علم الكلام[5].

— ومنهم أبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الأشبيلي الأصل الفاسي الدار يعرف بابن الحصار توفي سنة 611. صنف في أصول الفقه كتبا قيمة منها " الناسخ والمنسوخ " وكتاب "البيان في تنقيح البرهان" كما نظم أرجوزة في أصول الدين شرحها في أربع مجلدات[6].

---

(1) انظر ماقاله الغبريني : في عنوان الدراية ص : 144 عن تفسيره هذا.
(2) ابن القاضي : جذوة الاقتباس : ص : 138.
(3) قنون : النبوغ المغربي ص : — المنوني : العلوم: ص: 44.
(4) عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص : 77.
(5) ابن الأبار : التكملة رقم : 1062.
(6) المصدر السابق : رقم 1918 — ابن الزبير : صلة الصلة : رقم 242.

— أما المؤلفات التي ظهرت حول علم الحديث فقد كانت كثيرة جدا نظرا لما حظي به هذا العلم من رعاية وتشجيع فائقين من طرف الحكام في ذلك العهد، يكفي أن نذكر منها ما ألفه فيها علامة عصره القاضي عياض الذي أربت تآليفه على الثلاثين كتابا فهو وان عدّ في علماء العصر المرابطي، الا أن مؤلفاته قد لاقت رواجا كبيرا في العهد الموحدى خاصة منها ما ألفه في علم الحديث.

— ومن المحدثين الذين اشتهرت مؤلفاتهم في هذا العهد، نذكر أيضا علي بن محمد الخزرجي السهتي المعروف بابن الحصار الذى اشتهر بكتابه المسمى "المدارك في رفع الموقوف ووصل المقطوع من حديث مالك"(1).

— هذا بالنسبة للعلوم النقلية، أما بالنسبة للعلوم العقلية فيكفي أن نذكر من بين من لمعت أسماؤهم في هذا العهد أبا اسحاق نور الدين البطروجي المراكشي الذى تعدت شهرة مؤلفاته حدود بلاد المغرب والأندلس بما ابتكر فيها من أشياء جديدة لم يسبق اليها بل قد توصل الى نقض كثير من النظريات القديمة التي أقرها أساطين هذه العلوم من قبل، واستطاع أن يصححها بنظريات حديثة لا يرقى اليها الشك (2).

— ومن هؤلاء العلماء، أيضا، ابوعبدالله محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي المتوفي سنة 601 هـ. اشتهر، خاصة، بمنظومته في الجبر والجذور (3).

— كما ألف علي بن محمد بن فرحون القيسي المتوفي سنة 601 كتابا في الحساب والفرائض سماه "لباب اللباب"(4).

— والف علي بن موسى بن علي الانصارى كتاب "شذور الذهب في الكيمياء كان يقال عنه "ان لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب".

---

(1) ابن الزبير : صلة الصلة رقم 262.
(2) بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي : ص: 456.
(3) عبدالهادى : مظاهر النهضة ص: 150 — المنوني :العلوم ص: 104.
(4) المرجع السابق.

— كما ألف أبو علي المراكشي أشهر كتاب في علم الرياضيات سمّاه " جامع المبادئ والغايات في الحساب والجبر والمقابلة "[1].

— وكانت لأحمد بن التميمي المعروف بابن الكماد التونسي تآليف في علم الفلك، وقد كان رصادا بمراكش في مستهل القرن السابع[2].

— هذا، وقد اخترنا من بين كل هذه المؤلفات بعض النماذج رأينا أن نخصها بشيء من التفصيل لنطلع من خلالها على نوعية الأسلوب الذى كان يستعمله هؤلاء الكتاب، ونتعرف منها على مستوى تفكيرهم، وقد حصرنا هذه النماذج في أربعة كتب، قدرنا أنها من أحسن ما يمثل التأليف الأدبي في ذلك العصر، وهي على التوالي :

1) كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " للشريف الادريسي .
2) كتاب" المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي .
3) كتاب " الاستبصار في عجائب الأمصار " لمؤلف مراكشي مجهول .
4) ثم أخيرا كتاب " التشوف الى رجال التصوف " لابن الزيات التادلي .

— كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق :

نحن لا نعرف عن الشريف الادريسي ـ كاتب نزهة المشتاق ـ الا الشيء القليل . لأن كل أصحاب التراجم والمؤرخين الذين تكلموا عن علماء عصره قد سكتوا عنه سكوتا يكاد يكون تاما، باستثناء ماقاله عنه كل من الصفدى وكتابه الوافي[3] وابن أبي أصيبعة

(1) عبدالهادى : مظاهر النهضة : ص: 150.
(2) المرجع السابق .
(3) صلاح الدين الصفدى : الوافي بالوفيات : ج .1.ص: 163.

في " عيون الأنباء " (1) ، وهذا رغم التنويه الذي حظيت به كتبه . ورغم اشادة المؤرخين بما حققه من اكتشافات ، خاصة في علم الجغرافية ، وما توصل اليه من معلومات لم يسبق اليها من قبل .

وقد أرجع الأستاذ كنون سكوت المترجمين عنه الى طول غربته ، وهجرته لبلده صغيرا ، ولجوئه الى البلاد الأجنبية واستقراره بها . الا أن الأستاذ كنون يقرّ ، من جهة أخرى ، أن الادريسي لم ينظمّ لبلاط " روجر " الايطالي الا في حدود سنة 533 هـ . حسبما قدر ذلك المستشرق الألماني " ميلر " الذي يعدّ من أكبر الباحثين الذين اعتنوا بآثاره . أي أن الأدريسي لم يلجأ الى ايطاليا الا بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، وقد كان قبل ذلك يتجول بين الأندلس والمغرب ومصر والشام ، وآسيا الصغرى ، وهذا منذ سنة 510 هـ . كما صرح بذلك هو بنفسه في مقدمة كتابه (2) ، وهذا يعني أنه عاش بين أهله وذويه أكثر من أربعين عاما ، يحتك بعلماء المشرق والمغرب على السواء وهو لم يهجر البلدان الاسلامية ، ويلجأ الى روجر الا بعد أن نضج ولمع اسمه ، واشتهر ذكره ، فلا يعقل ، اذن ، والحالة هذه أن يكون سكوت المترجمين عن ذكره هو لمجرد السهو أو النسيان لطول الغربة !

— أما المستشرق "كترمير " فقد فسر تجاهل المترجمين للأدريسي بعدم رضاهم عن تصرفاته التي تجلت في تحيزه السافر للمسيحيين وانضمامه لبلاط ملكهم روجر ، في وقت تكالب فيه الصليبيون على المسلمين في كل من المشرق والأندلس . وقد عدّ بعض الفقهاء المتشدّدين ، حسب قول " كترمير " عمل الأدريسي هذا بمثابة خيانة أو مروق من الدين . خاصة ، وانه ينتمي الى العائلة الشريفة حيث ينتسب للرسول (ص) عن طريق علي وفاطمة (3) .

---

(1) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء : ص : 501 .
(2) عبدالله كنون : ذكريات مشاهير رجال المغرب : الشريف الادريسي : ص : 10 .
(3) مقدمة كتاب : وصف افريقية واسبانية : ص : 2 . الذي استخرجه دوزى من كتاب : نزهة المشتاق للادريسي .

ـ ومهما يكن من أمر ، فان كل ما نعرفه عن الادريسي ينحصر في شجرة النسب التي أوردها له الصفدي حيث قال عنه : " هو محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي ابن عبدالله بن عمر بن ادريس (بن ادريس) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب "(1).

ـ كما نعرف عنه أنه ولد بسبتة سنة 493 هـ . حيث تثقف بها ثقافته الأولى ، ثم ارتحل في جولته السياحية وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره وبعدها لا نعرف عنه شيئا الى أن ظهر مع كتابه في ايطاليا سنة 548 هـ . فنحن اذاً ، نجهل كل شيء عن شبابه وكهولته الأولى ، كما نجهل كل شيء عن ثقافته وتكوينه ، وممن تلقى علومه . وبأي البلاد أتمّ تعليمه . فكل ما نعرفه عنه إنه كان مغرما بعلم الجغرافية حسبما يصفه الصفدي(2) ، وهذا ، ولا شك ، ناتج عن كثرة التجوال والسياحة التي أمضى فيهما جلّ حياته حيث كان مولعا بالأسفار حسبما يفهم من قوله :

دعني أجل ما بدت لي سفينة أو مطية
لا بد يقطع سيري أمنية أو منية (3)

الا أن الذي يهمنا من الأدريسي ، في الواقع ، هو ما خلفه لنا من آثره الفكرية المكتوبة وفي مقدمتها كتابه " نزهة المشتاق " الذي الفه لروجر . غير أن الكتاب لايتم الكلام عنه الا اذا تناولنا ، ضمن كل العمل الفني الذي حققه الأدريسي مجموعا ، ونعني بذلك الخرائط التي ألحق بها الكتاب كوسيلة ايضاح .

فالذي امتاز به الأدريسي عن بقية زملائه الجغرافيين الذين سبقوه كان ينحصر ، في الواقع ، في الجانب التقني الذي تجلى خاصة في رسمه لخريطة

---

(1) الصفدي : الوافي : ج . 1 . ص : 163 ـ 164 ـ اسقط " ابن ادريس " الثاني سهوا .
(2) المصدر السابق .
(3) نفس المصدر ـ العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر : (قسم المغرب) ص : ت . محمد المرزوقي .

العالم التي استنزفت منه كل جهوده . فقد بناها على دراسة علمية ميدانية ، كان قد ساعده عليها فنيون قاموا برصد المعلومات له وجمعها من شتى الأقطار التي كان يوجههم اليها . وكان هو يقوم بعملية التمحيص والاختيار لكل المواد التي تتجمع عنده مستنيرا في ذلك بما كتبه الأقدمون في هذا الفن ، من أمثال : المسعودى وأبي نصر الجيهاني ، وابن خرداذبة ، وأحمد بن عمر العذرى وابن حوقل البغدادى ، وخاناخ بن خاقان الكمياوى ، واليعقوبي واسحاق المنجم ، وقدامة البصرى ، وبطلموس الأقلودى ، وأرسيوس الأنطاكي (1) وغيرهم . وكل ما اقتنع بصحته ، وأيدته النصوص أثبته في خريطته الى أن تم له ما أراد .

ـ وقد بدأ أول الأمر بدراسة شكل الأرض حيث تصورها كروية على هيأة بيضة كما كان يتصورها أغلب علماء عصره ، وقد قسمها في خريطته الى قسمين : شمالي وجنوبي ، وحصر العمران كله في القسم الشمالي منها ، أما القسم الجنوبي فهو ، في نظره ، غير معمور لشدة حرارته . ثم أثبت عليها درجات العرض ووزع عليها الأقاليم السبعة التي كان يحتوى عليه ذلك الجزء من البلدان ، والأودية والخلجان والمسالك والطرق الرئيسية ، والمسافات التي تفصل بين المدن وما الى ذلك . ومن مجموع هذه الخرائط السبعين تكونت خريطة العالم الكاملة التي نقشت بعد ذلك على الكرة الأرضية الفضية التي صممها لها الادريسي للحفاظ عليها من التلاشي والضياع . الا أن هذه الكرة لم يكتب لها أن تعيش أكثر من سبع سنوات من يوم أن أفرغت ، حيث تسلط عليها بعض الثوار في احدى الفتن ، فا قتطعوها وقسموها فيما بينهم . وبقيت الخرائط المرسومة على الورق محفوظة لحسن الحظ مع الكتاب . الى أن جاء ميلر المستشرق الألماني فجمعها ودرسها على ضوء ما جاء في كتاب "النزهة" وأخرجها لأول مرة في طبعة ملونة ممتازة سنة 1931م. (2)

---

(1) ذكر الادريسي في مقدمة نزهة المشتاق أنه استعان بكل ما كتبه هؤلاء في الجغرافية .

(2) كنون : مشاهير رجال المغرب : الأدريسي : ص: 25.

الا أن التعليقات التي كانت عليها جاءت باللاتينية ، فاضطر المجمع العلمي العراقي الى اعادة النظر فيها ، فانتدب لها عضوين من علمائه وهما الأستاذ محمد بهجت الأثري ، ود / علي جواد . فأعاداها الى أصلها العربي ، واستدركا فيها على " ميلر " بعض الملاحظات ، بعد مقابلتها على خمس نسخ من كتاب " نزهة المشتاق " ، فأعاد المجمع اخراجها مرة ثانية سنة 1951 م.(1)

— والذي يهمنا من هذا العمل الجليل الذي قام بتحقيقه الأدريسي هو جانبه الأدبي الذي يتجلّى في الأسلوب الذي كتب به كتابه " نزهة المشتاق " وان كان الذي حقق منه حتى الآن ينحصر في القسم الذي يخص وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، الذي أخرجه المستشرقان : " دوزي و " دي كوج " وطبعاه في ليدن سنة 1866 م . الا أن ذلك كاف لأن يعطينا فكرة عامة عن الأسلوب الذي كتبت به كل أجزاء الكتاب .

ولعلّ من الأليق أن نبدأ ، أولا ، بعرض بعض أجزاء المقدمة لنطلع على أسلوبها ، ونتعرف من خلالها على محتويات الكتاب . يقول الادريسي في ديباجته ما يلي :

" الحمد لله ذي العظمة والسلطان ، والطول والامتنان ، والفضل والانعام والآلاء الجسام ، الذي قدر فحكم ، ورأف فأنعم ، وقضى فأبرم ، ودبر فأتقن ... فمن آياته خلق السماوات والأرض ، فأما السماء فرفع سمكها ونظم سلكها ، وزينها بالنجوم ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين يستضاء بهما في الليل والنهار ، ليعلم بمجاريهما تعاقب الدهور والأعصار ، وأما الأرض فبسط مهادها ، وأرسى أطوادها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وأسكنها خلقهم فبوّأهم أملاكها ، وأجرى لهم أفلاكها ، وعرّفهم مسالكها ، وعلّمهم منافعها ومضارها ، وهداهم الى السير فيها برّاً وبحرا ، وسهلا ووعرا ، كل ذلك منه ، جلّت قدرته ، بحكمة وتدبير ، ومشيئة وتقدير ، فتعالى من هذا ملكه وسلطانه ، وصنعه وبرهانه ... "(2)

---

(1) المرجع السابق : ص : 26 .
(2) اعيد تصوير الكتاب في ليدن سنة 1968 .
(3) ابن تاويت : الوافي بالأدب ص : 272 .

— فعلى الرغم من أن هذه المقدمة كان المقصود بها هو "روجر" ملك النصرانية، كما هو معلوم، الا أن ذلك لم يمنع المؤلف أن يستهلها باظهار قدرة الله تعالى التي تجلت في خلق السماوات والأرض، وما خلده فيهما من آيات تدل على عظمته وتقر بوحدانيته، فان كل ما في السماء من نجوم وأجرام، وما يدور في فلكها من كواكب سيارة وغيرها تتحكم في سير الزمن وتعاقب الليل والنهار، وما أرساه في الأرض من أطواد، وبسطه فيها من وهاد، وما أجراه من أنهار، وأخرجه فيها من مراعي، وما أقره من بحار، ومده فيها من صحاري، قد سخره للانسان ليتدبر في ملكوته ويتخذ ذلك "سبيلا الى معرفته، وسلما الى علم قدمه وأزليته"[1]. فالذى أراد أن يثبته الأدريسي، بهذا الكلام هو أن كل ما في الوجود انما هو من صنع الله وخلقه وحده، وكلما يتوصل اليه الانسان من اختراع انما هو اكتشاف لظواهر الطبيعة ليس الا. فما توصل اليه هو، اذن، انما هو اكتشاف لبعض أسرار الكون توصل الى معرفتها بفضل الاجتهاد المضنى الذى أخذ به نفسه في المثابرة والدرس والتنقيب والملاحظة المستمرة.

— ونراه قد وفق كل التوفيق في استهلال لمقدمته بالحديث عن ملكوت السماوات والأرض، فقد كانت تشكل المحور الرئيسي الذى دارت عليه كل دراساته في الكتاب.

وعلى الرغم مما يبدو من سيطرة الروح الدينية على هذه الديباجة، الا أن الكاتب عرف كيف يختار ما يناسب موضوعه الأساسي، كما عرف كيف يمهد بذلك للتخلص لاطراء ممدوحه بحب العلم والتعلق بالمعارف التي كانت بمثابة القاسم المشترك الوحيد الذى يربطه شخصياً بالملك المسيحي روجر.

— ثم تكلم بعد ذلك عن الأسباب التي دعته للتفكير في تأليف كتاب جغرافي يكون شاملا لكل الأقاليم السبعة التي يحتوى عليها العالم، يصف فيه كل ما يتعلق بأراضيها: سهولها، وجبالها، بحارها وأنهارها.

---

(1) مقدمة نزهة المشتاق.

ويذكر فيه كل ما تغله أقطارها من محاصيل ، وما تنتجه من صناعات ، وما الى ذلك . " مع ذكر أحوال أهلها وهيآتهم ، وخلقهم ومذاهبهم، وزيتهم وملابسهم ولغاتهم "[1] ، فأنشأ كتاب " نزهة المشتاق" مشتملا على كل هذه المعلومات في الجغرافية الطبيعية والسياسية ، والبشرية ، والاقتصادية ، كما اشتمل على كثير من الجوانب التاريخية والحياة الاجتماعية لكل الشعوب القديمة التي تعرض لذكرها .

— أما بالنسبة للأسلوب الذي كتبت به هذه المقدمة فهو أسلوب منمق ، كما هو واضح ، اعتمد فيه كاتبه على الازدواج في تقسيم جمله ، كما ركز فيه على استعمال كل ألوان البديع ، من مقابلة وجناس ، وطباق ، وما الى ذلك . الا أن قدرة المؤلف على حسن استعمال هذه المحسنات جعلت أسلوبه يبدو ، رغم تنميقه ، سلسا مستساغا حتى عند أولائك الذين ينفرون عادة من هذه الزخارف .

وقد ضمن الأدريسي ديباجته هذه بعض الآيات القرآنية ، كما نلاحظ ذلك في قوله : ان في بعض ما خلق " لعبرة لأولي الأبصار " . وفي قوله : " فمن آياته خلق السماوات والارض " . ثم في قوله فأما السماء " فرفع سمكها " وأما الأرض فبسط مهادها وأرسى أطوادها " وأخرج منها ماءها ومرعاها " .

هذا الى جانب ما يلاحظه القارئ من بعض التعابير القرآنية المبثوثة في ثنايا المقدمة . وتلك سمة طبعت كل أنواع الكتابات التي يرجع تاريخها الى هذا العهد ، وذلك لتغلب الروح الدينية على كل ألوان الثقافة في ذلك العصر ، كما سبق أن أوضحنا ذلك من قبل .

— هذا ما يمكن أن نلاحظه بالنسبة للأسلوب الذى كتبت به المقدمة . أما الذى كتب به الكتاب نفسه فهو أسلوب سهل ، بسيط ، خال من كل تعقيد ، لم يجنح فيه كاتبه الى الزخرفة اللفظية ، الا لماما ، ولا

---

(1) مقدمة نزهة المشتاق .

تكلف فيه الاقتباس والتضمين ، ولا استعمل التلميح والتعريض والاشارة ، وما الى ذلك من هذه الظواهر التي لمسناها في كل أنواع الكتابات السالفة الذكر . وانما كان يعتمد فيه على الدقة والوضوح في كل ما يدلي به من معلومات وهذا هو الأسلوب التأليفي العلمي الذي أشرنا اليه فيما سبق وقلنا عنه أنه يزن الأشياء بمعاييرها الحقيقية دون افراط او تفريط . نرى ذلك ، مثلا ، في هذه النماذج التي نقتبسها للادريسي من كتابه " نزهة المشتاق".

يقول في وصف وهران والمرسى الكبير ما يلي : " ووهران على مقربة من ضفّة البحر ، وعليها سور تراب متقن ، وبها أسواق مقدرة ، وصنائع كثيرة ، وتجارات نافقة وهي تقابل مدينة " المرية " من ساحل برّ الأندلس ، وسعة البحر بينهما مجريان ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس ، ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا ، ولها على ميلين منها " المرسى الكبير " وبه ترسى المراكب الكبار ، والسفن السفرية ، وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر ، وشرب أهلها من واد يجري اليها من البر ، وعليه بساتين وجنات ، وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب ، والعمل بها موجود ، وكذلك السمن ، والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ، ومراكب الأندلس اليها مختلفة وفي أهلها دهقنة وعزّة أنفس ونخوة ... "(1)

فالأسلوب الذي استعمله في وصفه هذا خال من كل زخرفة بلاغية ، كما نرى ، الا أنه أسلوب مسبوك واضح ، استطاع أن يصور به كل ما أراد أن ينقله الينا بكل دقة ودون أي ابهام أو تعقيد ، كما استطاع أن يفيدنا بمجموعة كبيرة من المعلومات بألفاظ قليلة في جمل محدودة ، فقد أعطانا وصفا جغرافيا كاملا لمدينتين ومرسيين ، وحدد لنا المسافة التي تفصل بينهما وما يقابلهما من مدن الأندلس

---

(1) الأدريسي : صفة المغرب : " نزهة المشتاق " ص : 84 . ت . دوزي : ليدن سنة 1968 .

من جهة الشمال ، وتكلم لنا عن خصوبة أراضيها وما تغله من فواكه وخضر وماتنتجه من لحوم وألبان ومشتقاتها ، ثم أعطانا فكرة عن أسعارها وعن نشاط مراسيها وتبادل تجاراتها مع الأندلس ثم ختم أخيرا بوصف أخلاق سكانها ، وهذا كله في بضعة سطور لم تتجاوز العشرة . وذلك هو الأسلوب الذى توخاه في جميع أجزاء كتابه . الا أن طريقته في الوصف لم تكن واحدة بالنسبة لكل المدن التي تعرض لذكرها . فهو لم يتقيد بمنهج دقيق في كيفية تدرجه في الوصف كأن يبدأ مثلا بالتحديد الجغرافي للمدينة أولا ، ثم يثني بذكر منتوجاتها الزراعية والصناعية ثم يتطرق بعدها للناحية الاقتصادية ، فالحياة الاجتماعية وهلم جرا ، لكنه كان يخلط بين كل ذلك أحيانا ، يبدأ من أى نقطة عنت له ، وقد يستطرد منها الى ذكر تعليق أو نبذة تاريخية تتصل بالموضوع ، ثم يعود لاتمام ما بدأ ولكن دون افراط ولا إطالة .

يقول مثلا في وصفه لمدينة "سبتة" "فأما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء ، وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض ، معمورة ، طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل ، ويتصل بها من جهة المغرب ، على ميلين منها جبل موسى ، وهذا الجبل منسوب لموسى ابن نصير ، وهو الذى كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الاسلام ، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر واترج يتجهز به الى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ، ويسمى هذا المكان الذى جمع هذا كله "بليونش" وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون مطردة ، وخصب زائد ...."(1)

وبعد وصفه لمنتجات بليونش الزراعية يعود لاتمام وصفه مدينة سبتة فيقول : " ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال

---

(1) الأدريسي : وصف المغرب : ص : 167 .

يسمى جبل الميدنية وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر عندما جاز اليها من الاندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى أعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنيان أسوارها ، وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالميدنية ، فمكثوا بمدينتهم ، وبقيت الميدنية خالية وأسوارها قائمة .... ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها الا من ناحية المغرب ، فان البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما الا أقل من رمية سهم ، واسم البحر الذي يليها شمالا يسمى بحر الزقاق ، والبحر الآخر الذي يليها من جهة الجنوب يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن يرسى به فيكن من كل ريح ... "(1)

ثم يعود مرة ثانية لذكر منتجات سبتة فيصف ما اشتهرت به من أنواع الأسماك خاصة منها "التن" الذي برع السبتيون في اصطياده ، كما يصف طريقة اقتنائهم لشجر المرجان الذي يعدّ مع "التن" من أهم الصادرات التي ترتكز عليها اقتصاديا سبتة ، فيقول : " وبمدينة سبتة مصائد للحوت لا يعد لها بلد في اصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من الأسماك نحو مائة نوع ، وتصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير ، وصيدهم له يكون زرفا بالرماح ، وهذه الرماح لها في أسنتها اجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيّها شرائط القنب الطوال ، ولهم في ذلك دربة وحكمة ، سبقوا فيها جميع الصياديين لذلك . ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه ومنها يتجهز به الى سائر البلاد ، وأكثر ما يصل الى غانة ، وجميع بلدان السودان لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا "(2).

---

(1) الادريسي : وصف المغرب : ص: 167.
(2) نفس المصدر ، ص: 168.

لاشك أن هذه الاستطرادات الخفيفة التي كان يلجأ اليها الادريسي ، والطريقة التي كان يعرض بها معلوماته الجغرافية مطعمة ببعض النبذ التاريخية حينا ، و بوصف الحياة الاجتماعية للأمم التي يتعرض لذكرها غالبا ، هي التي خففت من حدة ظهور سيطرة الجانب التقني الجاف على كتابه وأبعدته عن الرتابة المملة . لكن الشيء الذى يحمد عليه الادريسي خاصة هو توفيقه لتجريد كتابه هذا من كل الخرافات والأساطير التي الفنا أن نجدها في أمثال هذه المصنفات ، خاصة اذا ما تعلق الأمر بوصف المدن الأزلية القديمة .

فالادريسي ، حتى وان اضطر للتعرض لبعض هذه الأساطير ، لتواترها واشتهارها ، فهو لايذكرها الا باقتضاب . يقول مثلا في وصف طليطلة وهي من المدن الأزلية التي حيكت حولها أساطير لا تصدق : " ومدينة طليطلة كانت من أيام الروم مدينة الملك ، ومدار لولاتها ، وبها وجدت مائدة سليمان بن داود مع جملة ذخائر يطول ذكرها ... "(1) ويقف عند هذا الحدّ . بينما نجد أغلب المؤرخين والجغرافيين الذين تكلموا عن هذه المدينة يذكرون عن مائدة سليمان هذه وما وجد معها من ذخائر اشياء لا يصدقها العقل كما يروون عن المدينة وعن سكانها في القديم أخبارا هي أقرب الى الخرافات منها الى شيء آخر(2) .

ونرى الأدريسي عندما يشير لشيء من هذا النوع ينسبه لرواته دون أن يدخل في تفاصيله ، وقد يعتذر عن نقله لعدم معقوليته كما فعل في وصفه لجزيرة " لغوس " حيث قال : " وحكى صاحب كتاب العجائب أن في هذه الجزيرة دواب هائلة وأن فيها أمورا تطول أوصافها ، وتمتنع العقول عن قبولها "(3) .

---

(1) الادريسي : وصف المغرب : ص : 173 — 174 .
(2) انظر ماقاله عن طليطلة كل من : يا قوت : معجم البلدان : ج . 8 . ص : 545 ، وعبدالمنعم الحميرى : الروض المعطار : ص : 130 وما بعدها . والمقرى : نفح الطيب : ج . 1 . ص : 135 .
(3) الأدريسي : وصف المغرب : ص : 28 .

خلاصة لكل ما تقدم نقول ان كتاب " نزهة المشتاق" يمثل أقصى ما وصل اليه المفكر الانساني في علم الجغرافية في القرن السادس الهجري ، ولا أدل على ذلك من الشهادات القديمة والحديثة التي أشادت بالكتاب ونوهت بمقدرة صاحبه وكفاءته العلمية .

فالادريسي وان عدّ من علماء العهد المرابطي ، الا أن كتابه هذا قد ألفه في العصر الموحدى كما ألف كتبا أخرى ، ذكر لنا المؤرخون منها كتاب "روض الأنس ونزهة النفس" وهو كتاب في الجغرافية أيضا ألفه للملك "غليوم" ولد روجر ، وقد اشتهر تحت اسم " الممالك والمسالك " الا أنه ضاع ، ولن يصلنا منه الا ما نقله منه أبو الفدا في تاريخه [1] .

كما ذكر ابن اصيبعة أن له "كتاب الأدوية المفردة " وقال عنه : " كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ، ومنافعها ، ومنابتها وأعيانها "[2] .

وقد كان الى جانب ذلك مشاركا في فنون الأدب ، فقد أورد له كل من العماد الأصفهاني والصلاح الصفدى مقطوعات شعرية تدل على موهبة سليمة . وقد ذكر ابن بشرون أنه روى عنه جلّ ماأثبته في كتابه من أدب الأندلسيين ، مما يدلّ على سعة باع الرجل في هذا الميدان أيضا . فالشريف الادريسي على هذا النحو ، لم يكن عالما جغرافيا فحسب ، ولكن كان عالما بالمفهوم القديم لكلمة عالم ، أى أنه أخذ من كل علم بطرف ، ولكنه برز خاصة في علوم الجغرافية ، وقد كان في كل ماكتبه من أشرف من يفاخر بهم العهد الموحدى .

---

(1) ذكر بمشاهير رجال المغرب : ص : 28 .
(2) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء : ص : 501 .

- كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب :

لم يرد اسم مؤلف هذا الكتاب في أيّ مصدر من المصادر التاريخية القديمة التي بين أيدينا . فكل ما نعرفه عنه استفدناه مما أورده هو نفسه مبثوثا في ثنايا كتاب المعجب . فاسمه الكامل ، حسبما جاء على الغلاف هو : محي الدين أبو محمد عبدالواحد بن علي[1]

أما ولادته ، فقد كانت بمراكش حسبما ذكر ، وهو بصدد الحديث عن هذه المدينة ، حيث قال : " وكان مولدي بها لسبع خلون من ربيع الآخر سنة 581 هـ . في أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبدالمؤمن بن علي . ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام الى مدينة فاس ، فلم أزل بها الى أن قرأت القرآن وجودته ، ورويته عن جماعة كانوا هناك مبرزين في علم القرآن والنحو .

ثم عدت الى مراكش فلم أزل مترددا بين هاتين المدينتين ، ثم عبرت الى جزيرة الأندلس في أول سنة 603 هـ . فأدركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ، فلم أحصل ، بحمدالله ، من ذلك كله الا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم ، انفردوا دوني بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم "[2].

- فهو ، اذن ، قد تثقف ثقافته الأولى في كل من فاس ومراكش ، حيث بقي يتنقل بينهما مدة سنين قبل أن يلتحق بالأندلس لاتمام ثقافته العالية بها .[3]

- ويبدو أن أسرته كانت من الأسر المقربة للبلاط ، الأمر الذى سهل له الاتصال بكثير من الشخصيات السياسية والعلمية المرموقة ، وهذا منذ حداثته .

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 22 .
(2) المصدر السابق : ص : 446 .
(3) المصدر نفسه ، ص : 379 .

فقد ذكر أنه التقى بأبي بكر بن زهر بمراكش عندما جاء هذا الأخير لتجديد بيعته للخليفة محمد الناصر سنة 595 هـ . وكان عبدالواحد ، آنذاك لم يتجاوز سنه الرابعة عشر ، فجلس اليه ابن زهر رغم حداثته وأنشده من شعره [1].

كما كان له اتصال ببعض أمراء الموحدين منهم ابراهيم بن يعقوب المنصور ، الذي عرفه عندما كان واليًا على اشبيلية ، وقد مدحه بقصيدة أورد منها بعض المقتطفات في كتابه ، وقد كان من المعجبين به حيث كان يراه خير ولد المنصور " وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على ايثار الحق واطرح الهوى "[2].

ويبدو أن العلاقة التي كانت تربط بينهما قد تجاوزت حدود الرسميات ، مع الأيام ، لتصبح علاقة صداقة وثيقة خالية من كل كلفة حسبما صورها عبدالواحد نفسه بقوله : " وكان يقول لي (أي الأمير) في أكثر الأوقات ، والله اني لأشتاقك اذا غبت عني أشدّ الشوق وأصدقه "[3].

— كما كانت له علاقة وطيدة ، أيضا ، بالأمير يحي بن يوسف بن عبدالمؤمن حيث قال عنه : " وكان يحي هذا ، رحمه الله ، لي صديقا ، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم ، ولم أر في الملوك ولا في السوقة مثله رحمة الله عليه . وما استجزت لفظة الصداقة ، مع أن الواجب لفظ الخدمة ، الا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إليّ أخي وصديقي ، في بعض الأوقات ، وولي في بعضها ، اجتمعت عندي بخطه رقع كثيرة خلع على فيها فضله ، وحلاني بها بما لم أكن استحقه "[4].

— ولم تقتصر علاقاته برجال البلاط على الأمراء وحدهم . بل كانت له صلة بالخليفة نفسه ، حيث ذكر أنه لقي يوسف المستنصر

---

(1) المراكشي : المعجب : ص: 145.
(2) المصدر السابق ، ص: 387.
(3) المصدر نفسه ، ص: 388.
(4) المصدر نفسه ، ص: 317.

" وجلس بين يديه خاليا به "[1] على حدّ تعبيره ، وذلك في غرة سنة 611 . وهذا كله يعني أن الرجل لم يكن عاديا ، كما لاحظ ذلك الأستاذ سعيد العريان محقق الكتاب[2]. لأن العلاقات التي كانت تربطه بهؤلاء الرسميين تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الرجل كان من بعض المسؤولين الذين كان لهم نفوذ ما في البلاط.

وعلى هذا لا يستبعد أن يكون الذي اضطره لمغادرة بلاده والهجرة الى المشرق في هذه السن المبكرة مع كل ما كان يتمتع به من عز انما كان لأمر سياسي نتيجة لعثرة لسان أوزلة قلم . وهذا ما رشحه الاستاذ سعيد العريان بناء على عدة ملاحظات استخلصها من ثنايا كتابه[3].

ولم يكن عبد الواحد مرتاحا في غربته ، حسبما يفهم من بعض الاشارات التي وردت في كل من مقدمة[4] وخاتمة كتابه[5] ، لكنه لم يفكر ، رغم ذلك ، في الرجوع الى موطنه ، مما يدلّ على أن هناك موانع قاهرة كانت تضطره للبقاء بعيدا .

والذي يحيرنا أكثر من أمر عبد الواحد هو هذا الصمت الذي ضربه المؤرخون حوله ، مع أنه لم يكن انسانا عاديا ، في ثقافته على الأقل ، — فقد كان مؤرخا وشاعرا وأديبا — في حين نجدهم يذكرون من هم أقل منه شأنا بكثير ، وينوهون بما خلفوه من انتاج على تهافته أحيانا .

فقد يفسر سكوت العلماء المغاربة المعاصرين له بخوفهم من السلطات التي نفته — ان صحّ افتراض هذا الظن — أو لأنهم لم يتصلوا

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 409.
(2) المصدر السابق ، مقدمة المحقق : ص : 10.
(3) انظر ماقاله سعيد العريان في مقدمته : ص : 10 — 14.
(4) المصدر السابق : ص : 23 — 24.
(5) نفس المصدر ، ص : 414.

بكتابه المعجب الذى ألفه ونشره في المشرق ـ وإن كنا نشك أن يكون ذلك هو كل ما كتبه في حياته ـ ولكننا لا نجد أى تفسير لسكوت المشارقة عنه ، وقد نشر كتابه بين ظهرانيهم . فهو لم يكن من الكتب العادية المبتذلة ، من حيث مادته ، على الأقل ، وما كان يحمله من معلومات ، حتى يمكن أن يقال أنه ضاع في زحمة المصنفات الأخرى المشابهة له ، بل كان كتابا فريدا من نوعه ، تناول فيه صاحبه تاريخ ، وأدب منطقة لا يعرفون عنها الكثير .

لقد أنشأ المراكشي كتابه هذا استجابة لرغبة وزير من وزراء الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذى كان قد طلب منه " املاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب ، وهيئته ، وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ، وخصوصا ملوك المصامدة من بني عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم ... "

كما طلبه منه أن يشفع ذلك بذكر من لقيه أو روى عنه من الشعراء والعلماء وأهل الفضل . فألف كتابه على هذا النسق فجاء من أحسن ما صنف في بابه .

فالموضوع الأصلي الذى وضع من أجله الكتاب كان تاريخ الموحدين الا أن المؤلف مهد لذلك بخلفية متناول فيها أوضاع الأندلس ، باختصار ، منذ الفتح حتى القرن السادس باعتبارها جزءا من الامبراطورية الموحدية . كما تناول أوضاع المغرب في العهد المرابطي لفرط تداخل هذه الدولة بالدولة الموحدية ، وقد اعتمد في كتابه ذلك على ما صنف قبله ، طبعا ، وكان يروي أخباره بالنسبة لهذه الفترة عن كتاب "جذوة الاقتباس" لأبي نصر الحميدي . أما ما كتبه عن الفترة الموحدية ، فقد كان يصدر فيه عن مشاهداته الشخصية أو عما كان يرويه عن معاصريه ، كما يستفاد ذلك من قوله : " ... لم يصحبني من كتب هذا الشأن شيء

اعتمد عليه وأجعله مستندا ، كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصا فلم يقع اليّ لأحد فيها تأليف أصلا ، خلا أني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجموع لا أعرفه الا سماعا "[1].

وقال في موضع آخر " لم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها الا ما حققته نقلا عن كتاب أو سماعا من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسي ."[2]

وهذا يعني أن الرجل كان يعتمد اعتمادا كليا على ذاكرته في كل ماكان يرويه من أشعار ، ويورد من رسائل وقطع نثرية أخرى . وتلك قدرة عجيبة لا يستطيعها الا أفذاذ الأدباء الحفاظ . ولم يكن ، رغم ذلك ، راضيا كل الرضى عن محفوظاته تلك لاضطرابها بسبب ماكان يعانيه من قلق نفسي حسبما يفهم من قوله في المقدمة : "ان محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ، أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وهموم تستغرق الفكر ..."[3]

والذى يمتاز به المراكشي خاصة هي الخطة التي درج عليها في كتابة تاريخه هذا . فهو ، لم يكن يعتمد على الطريقة السردية التي عودنا عليها قدماء المؤرخين ، ولكنه كان يتدخل دائما بطريقة من الطرق ، اما لتمحيص خبر أو للتعليق على حادثة أو لابداء رأى في حكم ما ، وما الى ذلك .

نراه مثلا عند ذكره لحادثة حرق كتب " علم الفروع " التي نفذها يعقوب المنصور ، يعلق عليها بقوله : " وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك ، وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 24 .
(2) المصدر السابق ، ص : 414 .
(3) المصدر نفسه ، ص : 24 .

في القرآن والحديث . وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، الا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب هذا "(1).

ويستشهد على ذلك بما قاله يوسف بن عبد المؤمن لشيخ فقهاء المالكية أبي بكر ابن الجد ، عندما لاحظ اختلاف الفقهاء في المسألة الواحد وانقسامهم الى أربعة أو خمسة آراء ، حيث أفهمه أن لا سبيل لمحاربة هذا الخلاف الا بالرجوع الى الكتاب والسنة ولو حمل الناس على ذلك بحدّ السيف (2).

ويظهر لنا هذا التدخل أيضا في تحليله لأسباب الهزيمة النكراء التي تعرض لها المسلمون اثر غزوة "العقاب" بالأندلس .
وتتجلى لنا شخصية عبد الواحد في هذا الكتاب - خاصة - من خلال آرائه النقدية وأحكامه التي كان يصدرها على الكتّاب والشعراء الذين كان يطفح بهم كتابه ، حتى ليظنه المرء ، أحيانا ، أنه مصنف في النقد الأدبي أو " مجموع " في المختارات الشعرية والنثرية لا كتابا في التاريخ .

وهذا ان دلّ على شيء فانما يدلّ على مدى سعة ثقافة الرجل وتنوعها ، كما يدل على اطلاعه عن كل ما كان يصدر في ميدان الأدب في ربوع كل من المغرب والأندلس .

- فمن آرائه النقدية هذه ما وصف به أبا بكر بن القصيرة عندما تعرض لذكره حيث قال عنه : " أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتاب من ايثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني ، من غير التفات الى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم الا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به ، ليس على خاطري منها شيء "(3).

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 355 .
(2) المصدر السابق ، ص : 354 - 355 .
(3) المصدر نفسه ، ص : 228 .

فهذا يدل على أن الكتابة الديوانية في القرن السادس كانت على نوعين :

ـ نوع قديم سلك فيه أصحابه نهج الجاحظ وابن زيدون ، وهو الذى ينتمي اليه ابن القصيرة .

ـ ونوع مستحدث ينتهج طريقة القاضي الفاضل وأضرابه ، وهو الذى توخاه أغلب الكتاب الآخرين .

الا أننا ـ من جهتنا ـ لم نجد في الواقع أى فرق بين الرسائل التي كتبها ابن القصيرة في المغرب وتلك التي كتبها زملاؤه من أمثال : ابن أبي الخصال ، وابن عبدون وأضرابهما من حيث اصطياد السجع والجرى وراء المحسنات البديعية ، لهذا لا نستطيع أن نجارى المراكشي فيما ذهب اليه ، اللهم الا أن يكون ابن القصيرة قد غيّر من أسلوب كتابته عندما نزح الى المغرب ، لأنّ المراكشي ، في الواقع ، قد حكم على الرسائل التي رآها له وهو بالبلاط الاشبيلي عند بني عباد .

ـ ومن تدخلاته النقدية أيضا ماوصف به ابن حبوس ، عندما تعرض لذكره حيث قال عنه " كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هاني الأندلسي ، في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وايثار التقعير ، الا أن محمد بن هاني كان أجود منه طبعا وأحلى مهيعا "(1) .

فهذا النوع من التدخلات ، على اقتضابها ، يدل دلالة واضحة على مدى تعلق المراكشي باثبات شخصيته في الكتاب ، وتلك ظاهرة يحمد عليها ، اذ هو لا يقف عند حدّ السرد أو الرواية عن غيره ، بل كان يشفع ذلك غالبا بتدخل ما من جانبه ، يعبر فيه عن رأيه الشخصي في الموضوع . الا أن هذا لايعنى انه كان محقا في كل ما كان يدلى به من أحكام بل كثيرا ما نرى الصواب يجانبه خاصة في آرائه النقدية التي تتصل بالأدباء المغاربة .

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 282 ـ 283 .

وتلك ظاهرة ملفتة للانتباه حقا . فقد رأينا حكمه الآنف الذكر على ابن حبوس رغم اعتراف كل الذين ترجموا له بالفضل والتفوق.

وعندما تعرض لذكر الحصري وهو أحد مشاهير أدباء المغرب أيضا قال عنه : "كان هذا الرجل — أعني الحصري الأعمى — أسرع الناس في الشعر خاطرا، الا أنه كان قليل الجيد منه "(1).

هذا اضافة الى ما وصفه به من "قبح الكدية وافراط الالحاف" عند لقائه بابن عباد "بطنجة" وهو في طريقه الى منفاه "بأغمات "(2) . مع أن ما قاله ابن بسام فيه يوحي بعكس ما ذهب اليه المراكشي تماما، على الأقل من حيث جودة شعره، فقد قال عنه : "وكان الحصري المكفوف القروي قد طرأ على الأندلس في مدة ملوك طوائفها، فتهادته تهادي الرياض للنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم "(3).

أما أبو الربيع سليمان الموحدي الأمير الشاعر، فقد اتهمه صراحة بانتحال شعر كاتبه ابي عبدالله محمد بن عبد ربه، حيث قال : "ولأبي عبدالله هذا اتساع في صناعة الشعر الا أنه نحل كثيرا من شعره السيد الأجل أبا الربيع سليمان بن عبدالمؤمن أيام كتابته له . . ." ثم يقول : " . . . وعرفت ذلك بعد مفارقته اياه، لأني فقدت شعر السيد أبي الربيع، واختلف عليّ كلامه ورأيت بخطه أشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدّا، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه "(4).

— أما بالنسبة لأبي العباس الجراوي الذي يعدّ في افذاذ شعراء العهد الموحدي بلا منازع، فقد أهمله تماما ولم يشر اليه بأية اشارة على اشتهار ذكره وغزارة انتاجه . وذلك تصرف غريب من طرف المراكشي في حق مواطنيه الأدباء لم نجد له أدنى تفسير .

---

(1) المراكشي : المعجب : ص : 206.
(2) المصدر السابق : ص : 205
(3) ابن بسام : الذخيرة : ق : 2 — م 1 — ص : 66.
(4) المراكشي : المعجب : ص : 378.

على أن مواقفه بالنسبة للشعراء الأندلسيين الذين تعرض لذكرهم كانت ، كلها ، مواقف اعجاب ، ومدح ، واطراء [1].

ومهما يكن من أمر ، فان هذا لايمكن أن يحط من قيمته كأديب أو يغض من قدره كمؤرخ نزيه ، فهو قد عبر عن آرائه الشخصية بالنسبة لانتاج هؤلاء الأدباء انطلاقا من ذوقه الخاص فأحكامه لا تعني أبدا الالزام أو الفرض ، ولكنها اجتهادات وكل اجتهاد معرض للخطأ والصواب .

ـ هذا بالنسبة للجانبين : التاريخي والأدبي اللذين احتوى عليهما الكتاب وهناك جانب ثالث ، تكلف الكاتب اقحامه فيه استجابة لرغبة ولي نعمته الذي طلب منه ذلك ، وهو الجانب الجغرافي .

يبدو أن المراكشي لم يكن متحمسا للتحدث في هذا الموضوع ، لأن هذا الباب ، كما يقول " خارج عن مقصود تصنيفه ، وداخل في باب المسالك والممالك ، وقد وضع الناس فيه كتبا كثيرة ". وله الحق في أن يتحرج من الكلام في مثل هذا الموضوع ، لأن الوصف الجغرافي يعتمد ، في الواقع ، على المشاهدة الحسية ، والعمل الميداني ، وهو لم يكن من الرحالين حتى يستطيع أن يقول شيئا في الموضوع أو يأتي فيه بجديد . لذلك اضطر للاعتماد على ما كتبه المتخصصون في هذا الفن ، كالبكري وابن فياض ، وابن خرداذبة ، فاقتصرت مهمته في هذا الجزء من الكتاب على الرواية والنقل ، واعادة ماقاله الآخرون . الا أن ما نقله عنهم كان خاليا من كل الخرافات والأساطير التي تطفح بها كتب الجغرافيين القدماء . وتلك ميزة يحمد عليها المراكشي .

هذا كل ما يمكن أن يقال عن محتويات الكتاب . أما بالنسبة للأسلوب الذي كتبت به ، فهو أسلوب ادبي بسيط جيد العبارة سهل المأخذ

---

(1) انظر ماقاله المراكشي مثلا عن : ابن وهبون ص : 159 ـ وعن ابن عمار : ص : 169 ، وعن الرصافي ص : 290 ، وعن أبي بكر الداني ص : 111 ، وعن ابن حزمون ص : 370 .

(2) المصدر السابق : ص : 431 .

لا تكلف فيه ولا تعقيد خال من كل زخرف وتأنق باستثناء المقدمة التي توجه فيها الكاتب للوزير الذى الف له الكتاب .

وقد رأينا بعض العينات من هذا الأسلوب من خلال المقتطفات التي كنا نستشهد بها أثناء عرضنا لمادة الكتاب ، وهذا نموذج آخر يصف فيه عبدالواحد مدينة فاس : " ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، اذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان ـ كما ذكرنا ـ بعيث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الأقليم ، وما زلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب...(1) "

ـ وخلاصة لكل ما تقدم نقول : ان كتاب " المعجب " يعدّ من أرقى الكتب التاريخية التي الفت في العهد الموحدى ، لا بالنسبة لبلدان المغرب وحدها ، ولكن بالنسبة لكل العالم الاسلامي ، وهذا سواء فيما يتعلق بمنهجه أو بأسلوبه الذى الف به . فهو يعكس بحق ما وصلت اليه الثقافة الموحدية في ذلك العهد كما يعطينا صورة تقريبية عن جدية رجال العلم ونزاهتهم في ذلك العصر ممثلة في شخص مؤلفه عبدالواحد المراكشي .

ـ الاستبصار في عجائب الأمصار :

كتاب " الاستبصار في عجائب الأمصار " هو كتاب في الجغرافية والتاريخ . الف من طرف مغربي مجهول في حدود أواخر القرن السادس الهجرى

(1) المراكشي : المعجب : ص : 443 .

حسبما يفهم منه . وقد ألفه صاحبه لوزير من وزراء الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ، وهو أبو عمران بن أبي يحيي بن وقتين[1] .
الا أن محتوى الكتاب والطريقة التي كتب بها لايدلان على تضلع صاحبه في ميدان المعرفة ، ولا حتى على تمكنه من مادة التاريخ التي الف فيها كتابه . فهو يعتمد كثيرا على عنصر الخرافة فيما يرويه من أحداث ، ولا يكاد يمحص شيئا من مروياته الا نادرا ، لذلك جاءت أخباره ، فيما يتعلق ببعض المدن القديمة التي تعرض لوصفها ، أقرب الى الأساطير منها الى الواقع المعقول .
ـ نراه ، مثلا ، في وصفه لمدينة " بسكرة " يقول عنها : " ... وبسكرة دار فقه وعلم ، فيها العلماء ، ومن قرى بسكرة قرية تسمى مسلون ، ومنها كان أبو عبد الملك السلوني وكان عالما فقيها يحمل عنه العلم ، والذى أخبر في طريق بسكرة جبلا وفيه كهف فيه رجل قتيل لم يعرف أحد من أى عهد هو ، ولم يغيره الدهر ، ولا تقادم الأزمان ، كأنما جراحه تقطر دما ، كأنه قد قتل من يومين ، وتخبر الكافة والخلف عن السلف ، انهم كانوا عرفوه مذ كانوا ، وقد نقلوه أهل تلك النواحي ودفنوه بأ فنيتهم تبركا به ثم لم يلبثوا أن وجدوه في الكهف على حالته ، يحدث بذلك ثقات أهل النواحي ويقال انه من الحواريين ، ذكر محمد بن يوسف في كتابه أن هذا القتيل في شق جبل شرقي عين أوبان وهذه العين عظيمة بين مدينة مرماجة وبين مدينة سبيبة ، وذكر أنه يخيل لرائيه أنه كما ذبح من يومه ، وأنه هناك من قبل فتح افريقية ... "[2]

---

(1) انظر مقدمة كتاب الاستبصار ـ وابن تاويت الوافي بالأدب ص : 285 .
(2) الاستبصار في عجائب الامصار : ص : 61 ـ 62 ـ طبعة فينا سنة 1852 ـ نقل هذه القصة عن البكرى انظر كتابه المغرب : ص : 53 .

فالأسلوب ، كما يبدو ، في غاية الضعف والركاكة ، والبضاعة رديئة مهلهلة لا يكاد يطمئن اليها القارئ في شيء للشروح الأسطورية التي طغت عليها .

وهذه هي الطريقة التي توخاها الكاتب في وصفه لأغلب الحواضر الأزلية القديمة ، والمدن الصحراوية الضاربة في الجنوب ، كالواحات التي توجد بين صحراء افريقية وجنوب مصر ، حيث ذكر أن بها مدنا مبنية بالنحاس الأحمر ، لا يهتدى اليها الا من ضل طريقه في تلك الفيافي الشاسعة ، وذكر أن " بين بلاد الواح وبلاد الجريد من افريقية رمال عريضة فيها بقاع تعرف بالجزائر ، وهي كثيرة النخل والعيون لا عمران فيها ولا أنيس بها يقال أنها يسمع فيها ابدا عزف الجنّ " ثم يعلق على ذلك بقوله : " ولا أشك أنها كانت بلادا عامرة "[1] .

وقد تجلت هذه النزعة الأسطورية في كتابه خاصة عند وصفه لمصر القديمة وتعرضه لحياة الفراعنة وما خلفوه فيها من آثار[2] .

— أما بالنسبة لما يتصل بالأحداث التي يرجع تاريخها الى ما بعد الفتح الاسلامي أولئك التي عاصرها المؤلف شخصيا ، فان أغلبها كان صحيحا ومطابقا لما جاء في كتب التاريخ المشهورة التي كان ينقل عنها . وكان يعتمد خاصة على البكرى الذى كان معجبا به حسبما يبدو ، حيث كان يقلده في طريقة عرضه وفي تطعيم أخباره ببعض المختارات الشعرية وما الى ذلك .

أما بالنسبة لما يتعلق ببلدان المغرب التي عاش فيها ، وتجول في أقطارها فان ما رواه عنها كان أكثر واقعية ومعقولية ، خاصة بالنسبة لما يتعلق بذكر محاصيلها ومنتوجاتها ، وطرقها ، والمسافات التي تفصل بين مدنها لأنه كان يصدر في كل ذلك عن تجربة ومشاهدة .

---

(1) الاستبصار : ص : 33ـ 36 .
(2) المصدر السابق ، ص :

أما اذا تعلق الأمر بالناحية التاريخية فقد تخونه سذاجته الفطرية أحيانا ، حتى بالنسبة لهذه المناطق التي يعرفها حق المعرفة ، فينساق وراء العنصر الخرافي في رواية بعض الأحداث دون أي تروّ أو تمحيص لما يورده من أخبار أو يستشهد به من أحاديث ، كما يلاحظ ذلك مثلا بالنسبة للأحاديث التي رواها بشأن مدينة تهودة . وكيف أن الرسول (ص) كان ينهى عن سكناها لأنّ رجالا مسلمين سيقتلون بها وهم يجاهدون . وقد أحاط كل ذلك بخرافات ساذجة لا يقبلها العقل[1] .

وفيما عدا هذا ، فان الأخبار التي كان يوردها استطرادا عن بعض الدول التي نشأت بالمنطقة ، كانت مفيدة ، خاصة بالنسبة لتلك التي تتعلق بالمغرب الأقصى الذي ركز عليه اهتمامه أكثر .

— وقد تجلى اعتناء المؤلف في تصنيف كتابه هذا بالناحية التاريخية أكثر من الناحية الجغرافية على الرغم من أن تصميمه له يوحي بأنه كتاب في الجغرافية حيث بناه أساسا على وصف المدن ونشأتها لا على قيام الدول وتتابعها كما هو الشأن غالبا في كتب التاريخ ، لكنه لم يستطع أن يركز فيه على الناحية الجغرافية لقلة بضاعته في هذا الفن حيث أن هذا العلم يعتمد اعتمادا كليا على المشاهدة الشخصية ، وهو ، حسبما يبدو ، لم يكن من الرحالين الجغرافيين الكبار أمثال : ابن حوقل ، والبكري ، والادريسي ، حيث لم تكن له الا رحلة واحدة حجّ فيها ، فبنى كتابه على ما شاهده في تلك الرحلة قاصرا اياه على منطقة شمال افريقية والبقاع المقدسة التي زارها . لذلك جاءت معلوماته الجغرافية في الكتاب ضحلة جدا . وان كان في الواقع ، قد نبه في مقدمة مصنفه أن الذي يرمي اليه ، هو تأليف كتاب " يجمع بين الأخبار والصحائف ، ويأخذ بطرف في شرائد الطرائف "[2] لكنه لم يتبع الطريقة المألوفة في تأليف كتب

---

(1) الاستبصار : ص : 62 .
(2) الاستبصار : المقدمة .

التاريخ ، لذلك جاءت معلوماته فيه غير متسقة ، حيث كان ينطلق من وصف المدينة فيستطرد منها الى وصف ما شهدته المنطقة من أحداث تاريخية . فهو يقول ، مثلا ، في وصف القلعة : " وهي قلعة ابي حماد وهي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم ، كثيرة الزرع وجميع الخيرات ، وهي في جبل عظيم وهي حصينة منيعة ، لا تمكن بقتال وكانت دار مملكة بني حماد "[1]. ثم يستطرد بعد هذا الوصف السطحي الموجز ، الى ذكر تاريخ دولة بني حماد فيقول : " وهم كانوا ملوك افريقية فلما رحلوا الى بلاد مصر ولّوا على افريقية زيرى بن مناد الصنهاجي فكان كذلك على طاعتهم الى أن مات ، ثم ولّي بعده ابنه حبوس فكان كذلك على طاعتهم الى أن مات ، فولّى بعد ابنه باديس ثم ولّي بعده ابنه المعز وهو الذى خلع طاعة الشيعة وقتلهم بافريقية قتلا ذريعا "[2]. ثم يتعرض بعد ذلك لذكر الخلافات التي نشبت بين الصنهاجيين : حكام افريقية من جهة وحكام المغرب الأوسط من جهة أخرى ، ويذكر ما كان لهم من حروب مع العرب الهلاليين ، ثم يعود مرة أخرى لذكر مناد ابن حماد الصنهاجي مؤسس القلعة فيصف فطنته ودهاءه في شبه حكايات شعبية ، ثم يختم كل ذلك بذكر ماكانت تنتجه القلعة من الأكسية الرقيقة التي ليس لها مثيل في الجودة والاتقان[3] .

تلك هي الطريقة التي درج عليها المؤلف في كل أجزاء مصنفه وهذا الكتاب في عمومه ، متوسط سواء ذلك فيما يتعلق بشكله أو بمضمونه ، فهو لا يمثل المستوى الحقيقي الذى وصلت اليه الثقافة المغربية في هذا العهد ، خاصة في مدة التاريخ ، وأن كان يمثل ثقافة العصر من حيث تغلب الروح الدينية عليه . وقد رشح ابن تاويت أن يكون المؤلف من بعض كتاب الدولة الموحدية

---

(1) الاستبصار : ص : 55 .
(2) المصدر السابق ، ص : 55 .
(3) المصدر نفسه ، ص : 55 ـ 58 .

الا أن المتمعن في الأسلوب الذى كتب به الكتاب يستبعد أن يكون ذلك . مع الملاحظة أن الأسلوب الذى كتبت به المقدمة أعلى بكثير من ذلك الذى كتب به الكتاب نفسه . مما يحملنا على افتراض أن الذى قدم للكتاب هو شخص آخر غير المؤلف . ونحن نرشح أن يكون الكاتب من بعض العامة المحبين للثقافة ، قام برحلة الى البقاع المقدسة ، فسجل ما رآه في طريقه الى الحج في شكل كتاب ، تقرب بإهدائه لمخدومه ابى عمران بن أبي يحي بعد أن قدم للكتاب أحد الأدباء البارزين .

— كتاب التشوف الى رجال التصوف :

سبق أن تحدثنا عن الصبغة الدينية التي اتسمت بها الحركة الفكرية بصفة عامة في العهد الموحدى ، ورأينا من خلال ما عرضناه من ألوان الثقافة في الفصول الماضية ، كيف أن أغلب العلماء الذين اشتهروا في هذا العصر كان أكثرهم فقهاء ومحدثين وأصوليين ، وما الى ذلك ، فحتى اولائك الأدباء الذين اشتهروا بدواوينهم الشعرية ورسائلهم النثرية ، كانوا في أصل تكوينهم فقهاء قبل أن يكونوا أدباء . وهذا الحكم يصدق أيضا حتى على العلماء الذين تخصصوا فيما كان يسمى بعلوم الحكمة كالفلسفة والطب ، والهندسة ، والتنجيم ، وغيرها .

فلا نعجب اذن اذا نحن لاحظنا نوعا من الميل الفطرى من علماء هذا العصر لحياة التصوف التي كانت قد عمت كل بلدان المغرب آنذاك واستشرت بين كل طبقات المجتمع ، لأن تكوينهم الأصلي هو الذى هيأهم نفسيا للتجاوب مع هذا النوع من المعيشة أكثر من غيره لما كان يحمله في طياته من بذور الزهد والتقشف والعزوف عن زخارف الحياة .

والذى زاد من تعميق هذا الشعور الديني في نفوس المغاربة أكثر ، هو ما منيت به الأمة الاسلامية في القرنين : السادس والسابع الهجريين من كوارث جسيمة حلت بها على يد المسيحيين ابان الحروب الصليبية، فازدادت ، لذلك ، نظرتهم قتامة لكل ماهو دنيوى ، فأقبلوا على الآخرة يدعون اليها بكل ما أمكنهم من وسائل ، فانتشرت ، لذلك ، الكتابة في الزهديات والمواعظ انتشارا كبيرا ، وازدهرت الحياة الصوفية ، فكثر الطرقيون والأولياء والصالحون بشكل لم يسبق له مثيل . فأصبح هؤلاء الزهاد يكونون ظاهرة متميزة في المجتمع الموحدى فبدأ أصحاب التراجم يهتمون بتتبع أخبارهم ، فألفت حولهم عدة كتب وصلتنا منها مجموعة صالحة . منها ما طبع ومنها ما لا يزال مخطوطا نذكر من بينها كتاب التشوف الذى نحن بصدد عرضه ، ومنها " المصدر الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف " لعبد الحق الباديسي ، ومنها المنهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد الصالح " لأبي العباس أحمد بن ابراهيم الماجرى المغربي ، ومنها " أنس الفقير وعز الحقير " لابن قنفد القسنطيني وغيرها . والذى يهمنا من كل هذه التراجم هو كتاب التشوف الذى يعد أقدم هذه المؤلفات في رجال التصوف ببلدان المغرب ، حيث ألفه القاضي أبويعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي المشهور بابن الزيات في حدود سنة 617 هـ.[1] وقد كان هو نفسه من الفقهاء المتصوفين تثقف ببلده واشتغل بالقضاء ، ولم يدخل الأندلس قط ، يقول عن الأسباب التي دفعته لتأليف كتابه هذا ما يلي : " ولما خفي عن كثير علم من كان بحضرة مراكش من الصالحين ومن قدمها من أكابر الفضلاء ، رأيت أن أفرغ لذلك وقتا أجمع فيه طائفة أدوّن أخبارهم ، وأضيف الى ذلك من كان في أعمالها وما اتصل بها من أهل هذه العدوة الدنيا ..."[2]

---

(1) ابن الزيات : التشوف : ص: 13.
(2) المصدر السابق ، ص: 3.

فالكتاب ، حسبما يفهم من هذه المقدمة ،قد وضع في زهاد ومتصوفي مراكش وأعمالها فقط دون غيرها من بلدان المغرب . الا أن الذين تناولهم فيه ابن الزيات هم خليط من "أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والورعين ..."(1) باعتبار أن "اسم الصوفي يصدق على جميعهم"(2) كما يقول .

فالذين ترجم لهم في كتابه هذا ليسوا ، اذن ، كلهم صوفيين بالمعنى الحرفي للكلمة ، انما هم صوفيون في سلوكهم ومعاملاتهم بصفة خاصة .

وهو لم يذكر في كتابه هذا أيّ أحد من الزهاد الأحياء بل قصره على من توفاه الأجل منهم فحسب ، وقد مهد لذكرهم بمدخل يحتوى على سبعة أبواب هي عبارة عن تعريفات موجزة لهؤلاء الأولياء وما يجب في حقهم من معاملة ، مدعمة بما ورد فيهم من أحاديث وما أثر عن السلف الصالح فيهم .

فكان الباب الأول في صفة الأولياء ، والباب الثاني في حفظ قلوبهم وترك التكبر عليهم ، والباب الثالث في محبتهم ، والباب الرابع في زيارتهم ومجالستهم ، والباب الخامس في حسن الثناء ووضع القبول لهم في الأرض والباب السادس في اثبات أحوالهم ، والباب السابع في اثبات كراماتهم . وذيل كل ذلك بعدة فصول قصيرة تحدث فيها عما أثر من كرامات بعض الصحابة والتابعين . ثم شرع بعد ذلك في الترجمة للأولياء فترجم لمائتين وسبعة وسبعين شخصا، منهم العلماء والفقهاء المعروفون بأسمائهم ومنهم الزهاد المجهولون الذين لم يعرفوا الا بما أثر عنهم من كرامات .

وكانت الطريقة التي اتبعها في تأليف كتابه هذا هي أن يبدأ بتعريف صاحب الترجمة فيذكر أصله ، وموطنه ، وأين ، ومتى توفي وما اشتهر به من أعمال ، ثم يذكر ما اتصف به من أنواع العبادات وكيف

---

(1) ابن الزيات : التشوف : ص : 4 .
(2) المصدر السابق .

كانت طريقته في الزهد ، وما أثر عنه من كرامات ، مطعما كل ذلك بأبيات من الشعر في الزهد والتصوف لشعراء من مختلف العصور، ولكن دون أن ينسبها لأصحابها وهي كثيرة جدا ، مما يدل على كثرة محفوظات الرجل في الشعر الديني ، وكان أغلب ما استشهد به من النوع الجيد الرفيع .

أما الأخبار التي كان يسوقها عن هؤلاء الأولياء فقد كانت مفيدة جدّا ، خاصة تلك التي تتعلق ببعض العلماء ، وان كان أغلبها يدخل في باب الكرامات والمعجزات التي تنسب عادة للأوتاد والأبدال من المتصوفين والزهاد .

أما بالنسبة للأسلوب الذى كتب به الكتاب فهو أسلوب مشرق سلس ، متين اللغة جيد السبك ، خال من كل تكلف . ولا غرو أن يكون كذلك ، فان ابن الزيات يعدّ من أكبر الأدباء اللغويين في العهد الموحدى ، فقد شرح مقامات الحريري قبل أن يشرحها الشريشي [1] وألف كتبا أخرى غير " التشوف " منها كتاب خصصه لصلحاء المغرب [2] ومنها كتاب آخر ألفه في مناقب الشيخ أبي العباس أحمد السبتي [3].

وهذا نموذج اقتبسناه من بعض تراجمه نسوقه كدليل على ما وصفنا به طريقته في الكتابة .

يقول في ترجمة أبي يعقوب يوسف بن علي المؤذن هو " من أهل " داى " وبه مات في رمضان عام سبعة وخمسين وخمسمائة . كان عبدا صالحا ورعا كثير البكاء والاجتهاد صلى حتى تقطرت قدماه . حدثني عيسى بن علي قال : حدثني عبد الرحمن بن موسى قال : أذن أبو يعقوب بصومعة " داى " أربعين سنة ، فما طلع عليه الفجر الا وهو على الصومعة .

---

(1) ابن تاويت : الوافي : ص : 311.
(2) المرجع السابق ، ص : 314.
(3) نفس المرجع ، ص : 307.

وسمعت أبي ، رحمه الله ، يقول : كان أبو يعقوب رجلا طوالا جهير الصوت ، يسمع صوته على بعد فان كان في السحر ينشد فوق الصومعة :

يا طويل الرقاد والغفلات — كثرة النوم تورث الحسرات
ان في القبر ان دفعت اليه — لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه — بذنوب عملت أو حسنات

ثم يبكي فلا يسمع أحد صوته الا بكى لبكائه .... "(1)

فهذه الطريقة التي صيغ بها الكتاب تدل دلالة واضحة عما كان يتمتع به ابن الزيات من قدرة فائقة على الكتابة والتأليف في هذا الميدان .

ومصنفه هذا يعكس في عمومه جانبا من أبرز الجوانب الثقافية التي عرفها العهد الموحدى ، وهي الثقافة الدينية التي تتصل بحياة الزهد والتصوف . كما ينمّ عن مدى ما وصل اليه تعلق الناس في ذلك العهد بالمتصوفين والأولياء والزّهاد لما كانوا يرجونه من صلاح على أيديهم . عندما يئسوا من صلاح القادة ورأوا عجزهم التام عن النهوض بأعباء مجتمعاتهم لتفككها وانحطاطها .

— تلك نظرة موجزة عن النثر التأليفي الذى ساد بين كتاب هذا العصر . وقد حاولنا أن نطلع ، من خلالها ، على طريقتهم في التفكير ، ومنهجيتهم في التعبير فهي وان لم تكن شاملة لكل أنواع المعرفة ، حيث قصرناها على بعض الكتب فحسب ، الا أنها كافية أن تعطينا فكرة ، واضحة عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى .

---

(1) ابن الزيات : التشوف : ص : 146 — 147 .

الخاتمة :

وبعد ، فلعل فيما أوردناه من نماذج في شتى فنون المعرفة مايكفي لاعطائنا صورة كاملة عما وصلت اليه الثقافة المغربية في القرنين : السادس والسابع الهجريين ، فهي لم تبلغ ما بلغته طفرة ، ولكن بعد جهود مضنية ومراحل شاقة امتدت منذ الفجر الاسلامي الأول .

— فقد رأينا فيما سبق ، كيف كافحت بلدان المغرب طوال القرون الخامسة الأولى في سبيل اقرار نوع من الأمن يكفل لأبنائها شيئا من الطمأنينة يستطيعون معها ان يتفرغوا لتكوين أنفسهم ، والنهوض بمجتمعاتهم للحاق بمصاف الدول المتحضرة .

ولقد عانوا الأمرين في سبيل توفير أسباب هذه النهضة التي تجلت مظاهرها ، أول الأمر ، في التحرر من التبعية ، ومكافحة الخلافات المذهبية ، والعصبيات القبلية التي كانت تمزق وحدتها . ثم في محاولة نشر اللغة والتعليم بواسطة تمصير الأمصار ، وانشاء المراكز الثقافية على اختلاف أنواعها .

وقد تجلى هذا العزم ، خاصة ، في توحيد العدوتين وضمهما في شكل دولة واحدة تسهيلا للتبادل الثقافي . وكان ما جناه المغاربة من هذه الخطوة الأخيرة التي أقدموا عليها في منتصف القرن الخامس الهجري يعادل أضعاف ما جنوه طوال القرون الخمسة الأولى . اذ ما كادت تتم الوحدة بين العدوتين حتى غمرت الثقافة الأندلسية جميع بلدان المغرب من أقصاها الى أقصاها . ولا أدل على ما نقول من تلك الأعداد الهائلة من أسماء العلماء والأدباء الذين سجلتها لنا كتب الطبقات والتراجم التي اهتمت بهذه الفترة .

— والواقع ، أنه ما كان للثقافة المغربية ان تتطور بهذه السرعة المذهلة ، ولا أن تنمو بهذا الشكل العجيب لولا ما أصاب كلا من

افريقية والأندلس، من محن واحداث سياسية خطيرة، اضطر ازاءها علماء كل من القطرين الى الهجرة والتنقل الى بلدان المغرب طلبا للأمن والاستقرار . فكان ذلك سببا في تلاقي الثقافتين : المشرقية التي حملها القيروانيون من افريقية والاندلسية التي حملها الأندلسيون من كل أقطار الجزيرة الى بلاد العدوة .

وقد أفاد المغاربة بهذا التمازج والتلاقح اللذين وقعا بين الثقافتين فوائد جمّة . فحاولوا تنميتهما بكل ما أمكنهم من وسائل. غير أن بصمات الثقافة الأندلسية بدت واضحة بشكل أكثر من غيرها في كل ما خلفوه لنا من انتاج خاصة فيما يتعلق بالأدب الذي يهمنا بالدرجة الأولى . وهذا راجع، ولا شك ، الى تغلب العنصر الأندلسي في الآونة الأخيرة ، من جهة ، وشدة ارتباط الشعبين : المغربي والأندلسي ، بعد أن أزيحت بينهما الحواجز السياسية ، من جهة أخرى .

ـ على أن التفرقة بين الأدبين : المغربي ، بمفهومه الواسع ، وما اصطلح على تسميته بالأدب المشرقي، لا يمكن الا أن تكون تفرقة شكلية ليس غير . اذ ليس هناك ، بينهما فروق جوهرية يمكن أن تعزل أحدهما عن الآخر . لذا فان أقصى ما يمكن أن يقال عنهما أنهما فرعان لجذع مشترك واحد ، هو ما نسميه بالتراث العربي القديم .

ونحن لا نقصد بهذا أن ننفي كل ظاهرة يتميز بها أدب قطر عن أدب القطر الآخر ، فلا شك أن هناك سمات متنوعة كثيرة تطبع كلا من الانتاجين وذلك حسب البيئة التي نشأ فيها والظروف التي اكتنفته ، والعصر الذى ينتمي اليه ، الا أن هذه الفروق في نظرنا ، هي فروق عرضية لا يمكن أن تمس جوهر الأدب في شيء .

— والحديث عن الفرق بين الأدبين : المغربي والمشرقي يجرنا حتما الى الحديث عن الفرق بين الأدبين : المغربي والأندلسي ، ترى، ماهي الخصائص الفنية التي تميز أحدهما عن الآخر ؟

لا شك أن هناك سمات عامة يختص بها كل من الأدبين ، الا أنها ، في الواقع ، لا ترقى لدرجة الخصائص الفنية الواضحة التي يمكن أن تتخذ أساسا لعزل الأدب المغربي عن الأدب الأندلسي .

فلو جئنا نستقصي كل الأجناس الأدبية التي ما رسها المغاربة في العهد الموحدي ، وحاولنا أن نقارن ما قالوه فيها بما انتجه الأندلسيون في نفس الفترة لما وجدنا بين الانتاجين الا فروقا طفيفة جدًّا لا يمكن بأية حال أن تتخذ أساسا للتمييز بين الأدبين .

فلو أخذنا قصيدة المدح التقليدية ، كمثال ، من بين كل هذه الأجناس الأدبية ، وحاولنا أن نقابل ما قاله أبو بكر بن مجبر الأندلسي ، مثلا ، في مدح يعقوب المنصور الموحدي ، بما قاله أبو العباس الجراوى المغربي في مدح نفس الخليفة لما وجدنا أية ميزة بين المديحين ، اللهم الا ما يمكن أن يلاحظه الدارس من فروق بسيطة فيما يتعلق باللغة التي يستخدمها كل من الشاعرين من حيث جزالة الألفاظ وسهولتها . وهذا ولا شك راجع الى طبيعة تكونهما الأول . أما بالنسبة للخيال ، والصور الشعرية ، واستعمال البديع وما الى ذلك . فلا يكاد أحدهما يختلف عن الآخر في شيء الا نادرا . وهذا الحكم ينطبق أيضا على كل الأغراض الشعرية الأخرى .

— وما يقال عن الشعر التقليدى ، يسرى كذلك على الموشحات ، والأزجال بل وعلى كل أنواع النثر أيضا . وهذا أمر طبيعي جدا مادمنا مقرين أن الثقافة التي كانت تسود كلا من القطرين في ذلك العهد كانت واحدة ، فلا عجب اذاً في أن يتشابه الأدبان هذا التشابه المفرط .

بل لا عيب في أن يحذو المغاربة حذو الأندلسيين فيحاكونهم في كل شيء، في هذه المرحلة الأولى، على الأقل، التي تعتبر بالنسبة لهم مرحلة تكوّن واستيعاب وهضم — اذا ما اعتبرنا بداية نهضتهم، هذه، جاءت مع توحيد القطرين — .

لهذا نرى أن كل ما أنتج من أدب في تلك الفترة — بغض النظر عن الاقليم الذى قيل فيه — كان المفروض أن نطلق عليه اسم الأدب الموحدى ليس غير . لأنه في الواقع هو نتاج مشترك بين اقليمين يخضعان لدولة واحدة .

فهو، وان قيل أغلبه من طرف أندلسيين في مواضيع أغلبها تخص الجزيرة الا أننا لا نستطيع أن ننفي عنه كل أثر للمغاربة فيه، خاصة، بعد أن خضعت الأندلس لحكمهم المباشر، وهذا منذ منتصف القرن الخامس الهجرى . وقد قويت دواعي هذا التأثير بصفة أشد مع مجيء الموحدين حيث أظهر هؤلاء اهتمامهم المتزايد بالأدب . وبدوا ينظمون نوعا من التنشيط لبعث حركة التأليف ويقومون بالتوجيه المباشر لسير الثقافة في كل البلاد التي كانت تخضع لحكمهم .

يكفي أن نذكّر، مثلا، بما سبق أن أشرنا اليه من المواقف النقدية لبعض الخلفاء، كعبدالمومن بن علي، ويعقوب المنصور، وغيرهما . فقد رأينا كيف كان هذا الأخير يقترح على الأدباء بعض المواضيع ويظهر اعجابه بأوزان خاصة للشعر ويقترحها عليهم، وكان هؤلاء يحرصون كل الحرص على تنفيذ رغباته ويسارعون لامتثال أوامره . ولا أدل على ذلك مما قاله عبدالواحد المراكشي عن أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عياش الكاتب الأندلسي المشهور حيث وصف امتثاله لتطبيق توجهاته بقوله :
" ولم يكتب لهم (أى للموحدين) منذ أن قام أمرهم — اعني من كتبة الانشاء — من عرف طريقتهم وصب في قالبهم وجرى على

مهيعهم وأصاب ما في أنفسهم، كأبي عبدالله بن عياش، هذا، فان القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة "(1).

وهذا ان دلّ على شيء، فانما يدل على مدى تأثير المغاربة في أدب عصرهم، ومشاركتهم في وضع خصائصه الفنية التي أصبحت تميز الأدب الموحدى بمفهومه الواسع عن بقية الآداب الأخرى.

نخلص من كل ما تقدم الى أن الشخصية الأدبية المغربية وان بدأت تظهر معالمها في غضون هذا العهد الذى كنا بصدد دراسته، لكنها لم تستكمل مقوماتها الأساسية، وتستقل الاستقلال الكامل، الا في الفترة التي تلت العهد الموحدى أي بعد انقراض الحكم الاسلامي بالأندلس وانقسام بلدان المغرب بين المرينيين والزيانيين والحفصيين.

فمن خلال هذا المفهوم الواسع للثقافة الموحدية، يظهر لنا أن بلدان المغرب، لم تبلغ يوما ما بلغته من ازدهار العلوم واتساع المعارف، وهي تحت ظل هذه الامبراطورية الشاسعة التي استطاعت أن توحد تحت لوائها بين كل أجزاء المغرب والأندلس لأول مرّة في التاريخ.

ففي عهدها ظهرت ألمع أسماء العلماء والأدباء الذين عرفهم تاريخ الثقافة الاسلامية من أمثال: ابن طفيل، وابن رشد، وابن زهر، من الحكماء، والبتروجي وابن الكماد، وابن البنا، من العلماء، وابن خروف، وابن مضاء والجزولي، والشلوبين وابن عصفور، من النحاة، والرعافي وابن سهل، والجراوى وابن مجبر من الشعراء. وابن عطية، وابن محشرة، وابن عميرة وابن عياش من الكتاب، وابن سعيد وابن دحية،

---

(1) المراكشي: المعجب: ص: 339.

وا بن الأبار من المترجمين . وكلهم كانوا أقطابا في تخصصا تهم مما يدلك على تنوع عناصر الثقافة الموحدية وغزارة انتاجها ، وهذا رغم طغيان الاتجاه الديني الذى عرف به العصر خاصة في الآونة الأخيرة . الا أن ذلك لم يقف أبدا حجر عثرة في سبيل تطور العلوم والآداب ونموها .

— وقد كان الشعر من أوسع الألوان الأدبية انتشارا وأخصبها نتاجا لما لاقاه من تشجيع ، ووجده من مناخ صالح للنمو . وقد تجاوب مع كل أحداث عصره وتفاعل معها ، وعبر عنها بكل صدق واخلاص .

ولم يقلل من قيمته الا ما تفرع عنه من الموشحات والأزجال التي استفحل أمرها في الآونة الأخيرة ، حيث استقطبت اهتمام كل الطبقات واستمالت اليها كل الأذواق لخفتها وطرافتها . ولولا ما أصابها من تحجر وجمود ، نتيجة الركود الذى عمّ كلّ الأجناس الأدبية آنذاك ، ولولا انزلاقها نحو الزهد والتصوف لكان لها شأن آخر غير الذى آلت اليه .

وبعد ، فان دولة استطاعت أن تحقق كل هذا التقدم في الميدانين : العلمي والحضاري في ظرف قرن من الزمن لهي دولة جديرة بكل اعجاب وتقدير .

المصادر والمراجع

أولا — المصادر والمراجع باللغة العربية :

— ابن الأبار محمد :
— اعتاب الكتاب ت . صالح الأشطر ط . الأولى ، دمشق المطبعة الهاشمية 1961 .
— التكملة لكتاب الصلة . ت . الفريد بيل وابن أبي شنب الجزائر 1919 .
— التكملة لكتاب الصلة . ط . عزت العطار مكتبة الخانجي القاهرة 1956 .
— الحلة السيراء ، ت . حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة القاهرة 1963 .
— المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، مطبعة روخس ، مدريد ، 1885 .

— ابن أبي دينار :
— المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ت . محمد شمام ، ط : الثالثة المكتبة العتيقة ، تونس 1967 .

— ابن أبي زرع علي بن عبدالله :
— الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ت . عبدالوهاب بلمنصور ، دار المنصور للطباعة — الرباط 1972 .

— ابن أبي أصيبعة :
— عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ت . نزار رضا ، مكتبة الحياة بيروت 1965 .

— ابن الأثير علي بن أبي الكرم :
— الكامل في التاريخ — دار صادر بيروت ، ط . الثانية 1966 .

— ابن بسام علي بن محمد :
— الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ت . ا . عباس ، الدار العربية للكتاب بيروت 1975 .

ـ ابن شكوال خلف بن عبدالملك :
ـ الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، القاهرة 1955.

ـ ابن بطوطة محمد بن ابراهيم اللواتي :
ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ المطبعة الرحمانية 1345/1927.

ـ ابن تاويت محمد :
ـ تاريخ سبتة ـ الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر الدار البيضاء 1982.
ـ سبتة ودورها في اثراء الفكر الاسلامي ، مقال ضمن كتاب المهرجان الثقافي الثالث الصادر بالمغرب سنة 1928.

ـ ابن جبير محمد بن أحمد :
ـ رحلة ابن جبير ، ط : دار صادر بيروت 1959.

ـ ابن حوقل أبو القاسم النصيبي :
ـ كتاب صورة الأرض ، ط . الثانية ليدن 1928.

ـ ابن حزم الأندلسي :
ـ التقريب لحد المنطق ، ت . ا . عباس.

ـ ابن خاقان الفتح :
ـ قلائد العقيان ، نسخة مصورة عن طبعة باريس .
ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، ط . الأولى قسطنطينية 1884 وط. السعادة بمصر .

ـ ابن خفاجة ابراهيم بن أبي الفتح :
ـ ديوان ابن خفاجة ، ط. الاسكندرية . ط . دار صادر 1961.

ـ ابن خلدون عبدالرحمن :
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ط . دار الكتاب اللبناني 1959.

- ابن خلكان أبو العباس :
  - وفيات الأعيان ، وأنباء الزمان ، ت . أ . عباس .
ط . محي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة القاهرة 1948 .
- ابن دحية عمر بن حسين :
  - المطرب في أشعار أهل المغرب ، دار العلم للجميع بيروت بدون تاريخ .

- ابن رشيق :
  - العمدة ، ط . الأولى — القاهرة 1925 .

- ابن الزبير :
  - صلة الصلة ، ت . ليفي بروفنصال ، الرباط 1938 .

- ابن زيدون :
  - ديوان ابن زيدون ورسائله ت . علي عبدالعظيم القاهرة 1957 .

- ابن سحنون محمد التنوخي :
  - أدب المعلمين ، ت . ح . ح . عبدالوهاب .

- ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية .
  - جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس — بدون تاريخ .

- ابن القطان :
  - نظم الجمان . ت . محمود علي مكي .

- ابن قنفد أحمد بن الحسن بن علي القسنطيني .
  - الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية . ت . النيفر ، والتركي .
  - أنس الفقير وعز الحقير ، ت . محمد الفاسي وأدولف فور الرباط 1966 .

- ابن القوطية القرطبي :
  - تاريخ افتتاح الأندلس ، ت . عبدالله أنيس الطباع — دار النشر للجامعيين بيروت 1957 .

— ابن الكرديوس :

— تاريخ الأندلس ، ت . مختار العبادي مدريد 1971 .

— ابن مضاء أبو العباس اللخمي القرطبي :

— الرد على النحاة ، ت . محمد ابراهيم البنا دار الاعتصام 1979 .

— ابن منظور :

— لسان العرب .

— أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي :

— زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، ت . عبدالقادر محداد دار الرائد العربي بيروت 1970 .

— أبو تمام :

— ديوان أبي تمام ش . الخطيب التبريزي ، ت . عبده عزام ، ط . الثانية دار المعارف بمصر القاهرة 1969 .

— ابن سعيد علي بن موسى :

— المقتطف في ازاهر الطرف — نشره الأهواني ضمن أعمال مهرجان ابن خلدون القاهرة 1962 .
— الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، ت . ابراهيم الأبياري دار المعارف بمصر بدون تاريخ .
— المغرب في حلى المغرب ت . شوقي ضيف — القاهرة بدون تاريخ .
— اختصار القدح المعلى ، ت . ابراهيم الأبياري القاهرة 1959 .

— ابن سناء الملك هبة الله جعفر :

— دار الطراز ، ت . جودت الركابي بيروت 1949 .

— ابن شريفة محمد :

— أبو المطرف بن عميرة — حياته وآثاره . جامعة محمد الخامس الرباط 1966 .

- ابن صاحب الصلاة :
- المن بالامامة . ت. عبدالهادي التازي العراق 1979.

- ابن الصغير :
- أخبار الأئمة الرستميين ـ ت . محمد ناصر وبحاز ابراهيم بدون تاريخ .

- ابن طلموس أبوالحجاج يوسف بن محمد :
- المدخل الى صناعة المنطق ،ط . مدريد 1916.

- ابن عبد ربه :
- العقد الفريد ،ط . القاهرة 1962.

- ابن عبدالملك المراكشي :
- الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة ،ت . أ . عباس ومحمد بن شريفة دار الثقافة بيروت بدون تاريخ .

- بنعبدالله عبدالعزيز :
- مظاهر الحضارة المغربية ، ط . الأولى القسم الثاني 1958.

- ابن العربي أبوبكر :
- أحكام القرآن ،ط . البجاوي .

- ابن عربي محي الدين :
- ترجمان الأشواق ،دار صادر بيروت 1961 .

- ابن عذاري المراكشي :
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ت . كلا ن ليفي بروفنصال ـ ا . عباس .

- أبو حيان التوحيدي :
- الامتاع والمؤانسة ـ بيروت ـ 1953.

- أبو الربيع سليمان الموحدي :
  - ديوان أبي الربيع ، ت . ابن تاويت ، وسعيد أعراب ومحمد ابن العباس القباج — كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط ، بدون تاريخ .

- أبو الضياف مصطفى :
  - القبائل العربية في المغرب — ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

- الألبيري أبو اسحاق :
  - ديوان الألبيري ، ت . أميليو غاسية قومس مدريد 1944

- احسان عباس :
  - تاريخ الأدب الأندلسي — عصر الطوائف والمرابطين لبنان 1962 .
  - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط . الأولى بيروت 1971 .

- أحمد شلبي :
  - تاريخ التربية الاسلامية — دار الكشاف للنشر والطباعة 1954 .

- اسماعيل العربي :
  - دولة الأدارسة — دار الغرب الاسلامي بيروت 1983 .

- الاستبصار في عجائب الأمصار ، لمؤلف مراكشي مجهول ، نشر الفريد دي كريمير فيينة 1852 ، وط . سعد زغلول الأسكندرية 1958 .

- أشباخ يوسف :
  - تاريخ الأندلس عصر المرابطين والموحدين — مطبعة الخانجي القاهرة 1958 .

- الأهواني عبد العزيز :
  - الزجل في الأندلس — معهد الدراسات العربية القاهرة 1955 .

ـ الأهواني أحمد فؤاد :
ـ التربية في الاسلام ـ القاهرة 1955.

ـ بالنثيا آنخيل جنثالث :
ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط . الأولى القاهرة بدون تاريخ .

ـ بحاز ابراهيم :
ـ الدولة الرستمية ـ مطبعة لافوميك الجزائر بدون تاريخ .

ـ البحتري :
ـ ديوان البحتري ، ت . حسن كامل الصيرفي ، ط . الثانية دار المعارف القاهرة 1963.

ـ بدر أحمد :
ـ تاريخ المغرب والأندلس ، المطبعة الجديدة ـ دمشق 1980 ـ 1981.

ـ البكري أبو عبيد :
ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك ، نسخة مصورة ـ مطبعة الحكومة بالجزائر دوسلان 1955 .

ـ البيدق أبو بكر الصنهاجي :
ـ أخبار المهدي بن تومرت ، ت . ليفي بروفنصال ثم طبعة الرباط بتحقيق عبدالوهاب بلمنصور ـ دار المنصور للطباعة .

ـ التادلي أبو يعقوب يوسف (ابن الزيات) :
ـ التشوف الى رجال التصوف ، ت . أدلف فور ، الرباط 1958.

ـ الثعالبي أبو منصور :
ـ يتيمة الدهر ـ مطبعة الصاوي 1934 .
ـ نثر النظم وحل العقد ، ط. الأولى القاهرة 1317 هـ .

ـ الجاحظ أبوبحر عمرو :
ـ البيان والتبيين ، ت . عبدالسلام هارون ، ط . الثانية مكتبة الخانجي القاهرة 1960 .

ـ الجراري عباس :
ـ القصيدة (الزجل في المغرب) الرباط 1965 .
ـ أبوالربيع سليمان الموحدي .
ـ موشحات مغربية دار النشر ـ الدار البيضاء 1973 .

ـ الجزنائي أبوالحسن علي :
ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، ت . ألفريد بيل الجزائر 1922 .

ـ الجنحاني الحبيب :
ـ القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية بالمغرب العربي ـ الدار التونسية للنشر 1968 .

ـ جودت عبدالكريم يوسف :
ـ العلاقات الخارجية للدولة الرستمية (اطروحة ماجستير) .

ـ جودت الركابي :
ـ في الأدب الأندلسي ـ دار المعارف القاهرة 1960 .

ـ حاجي خليفة :
ـ كشف الظنون .

ـ حسن أحمد محمود :
ـ قيام دولة المرابطين ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1957 .

ـ حسن حسين عبدالوهاب :
ـ ورقات عن الحضارة المغربية بافريقية ، مكتبة المنار تونس 1964 .
ـ الامام المازري ـ منشورات لجنة البعث الثقافي تونس 1955 .

- حسين مؤنس :
  - معالم تاريخ المغرب والأندلس — دار مطابع المستقبل القاهرة 1980 .
  - فجر الأندلس، ط. الأولى القاهرة 1959 .

- الحلل الموشية في الأخبار المراكشية — لمؤلف مجهول ، ت . سهيل زكار وعبدالقادر زمامة — دار الرشاد الدار البيضاء 1979 .

- الداية رضوان :
  - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس — بيروت 1934 .

- الدباغ عبدالرحمن بن محمد :
  - معالم الايمان في معرفة أهل القيروان — تونس 1320 هـ .

- دبوز محمد علي :
  - تاريخ المغرب الكبير — القاهرة 1963 .

- الرقيق القيرواني :
  - تاريخ افريقية والمغرب ، ت . المنجي الكعبي تونس بدون تاريخ .

- الزبيدى محمد المرتضى :
  - تاج العروس ، دار لبيبا للنشر والتوزيع بدون تاريخ .

- الزركشي أبوعبدالله محمد بن ابراهيم :
  - تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ت . محمد ماضور تونس 1966 .

- الزركلي خير الدين :
  - الاعلام — ط . الثانية 1959 .

- زكي مبارك :
  - النثر الفني في القرن الرابع ، ط . دار الكتب بدون تاريخ .

ـ السلاوي أبو العباس احمد بن خالد الناصري :
ـ الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، ط . دار الكتاب الدار البيضاء 1954.

ـ سليم الخوري :
ـ الموشحات الأندلسية ـ نشأتها وتطورها ، مكتبة الحياة بيروت 1965.

ـ السيوطي جلال الدين :
ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ت . ابو الفضل ابراهيم مطبعة الحلبي 1966.

ـ الشريف الأدريسي :
ـ وصف افريقية الشمالية والصحراوية ، ت . هنري بريز ـ الجزائر 1957 ـ وط . ليدن المعاد تصويرها سنة 1968.

ـ الششتري أبو الحسن :
ـ ديوان الششتري ، ت . علي سامي النشار دار المعارف الأسكندرية 1960.

ـ الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد :
ـ كتاب السير ـ قسنطينة ـ بدون تاريخ .

ـ الشهرستاني :
ـ الملل والنحل ، المنشور على هامش كتاب " الفصل " القاهرة 1347 هـ .

ـ شوقي ضيف :
ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط . الخامسة دار المعارف مصر 1960.

ـ الصفدي صلاح الدين :
ـ توشيع التوشيح ، ت . ألبير جيب ، ط. الأولى دار الثقافة بيروت 1966.

ـ صفي الدين الحلي :
ـ العاطل الحالي والمرخص الغالي ، ت . حسين نصار مصر 1981.

ـ الضبي أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة :
ـ بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس ، ط. مدريد 1884.

ـ طمار محمد :
ـ تاريخ الأدب الجزائري ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1969.

ـ عباس بن ابراهيم المراكشي :
ـ الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام فاس 1936.

ـ العبدري :
ـ رحلة العبدري ، ت. محمد الفاسي ، ط. وزارة الشؤون الثقافية الرباط 1968.

ـ عبدالحميد يونس :
ـ دائرة المعارف الاسلامية .

ـ عبدالهادي أحمد الحسيني :
ـ مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي تطوان 1982.

ـ عبدالواحد المراكشي :
ـ المعجب في أخبار أهل المغرب ، ت. محمد سعيد العريان ط. الثالثة ـ القاهرة 1963.

ـ علي عبد الوافي :
ـ فقه اللغة ، القاهرة 1968.

ـ العماد الأصبهاني :
ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب) ت. محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي .

ـ غسان محمد زكريا .
ـ الموشحات الأندلسية ـ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 1980.

— عنان محمد عبدالله :
- دولة الاسلام في الأندلس ، ط . الثالثة القاهرة 1960.
- عصر المرابطين والموحدين ، ط . الأولى القاهرة 1964.

— عياض بن موسى :
- ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك — وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب — بدون تاريخ .

— غارسية قوميز :
- الشعر الأندلسي — ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة القاهرة 1956.

— الغزالي محمد :
- أحياء علوم الدين ، ت . بدوى طبانة القاهرة 1957.

— القلقشندى أحمد :
- صبح الأعشى — ط. دار الكتب المصرية القاهرة 1913.

— قنون عبدالله :
- النبوغ المغربي ، ط . الثانية دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1961.
- الشريف الادريسي (سلسلة مشاهير المغرب .
- أبو حفص عمر الأغماتي (سلسلة مشاهير المغرب ، تطوان المغرب بدون تاريخ .

— الكريم مصطفى عوض :
- فنّ التوشيح — دار الثقافة ، ط. الأولى بيروت 1959.

— الكعاك عثمان :
- مراكز الثقافة بالمغرب ، معهد الدراسات العربية القاهرة 1958.
- موجز التاريخ العام للجزائر تونس 1344 هـ .

- الكلاعي محمد بن عبدالغفور :
  - أحكام صنعة الكلام ، ت . رضوان الداية ، دار الثقافة بيروت 1968 .

- لسان الدين بن الخطيب :
  - الإحاطة في أخبار غرناطة ، ت. عبدالله عنان القاهرة 1955 .
  - أعمال الأعلام (القسم الثالث)
  - جيش التوشيح ، ت . هلال ناجي مطبعة المنار تونس 1967 .

- لبيد بن معمر:
  - ديوان لبيد ، ت . أ . عباس ، الكويت 1962 .

- ليفي بروفنصال :
  - مجموع رسائل موحدية ، الرباط 1941 .

- ليون الافريقي :
  - وصف افريقية .

- المتنبي :
  - ديوان المتنبي ، ش . العكبري ، ط. الثانية القاهرة 1956 .

- محمد مجيد سعيد :
  - الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس دار الرشيد للنشر العراق 1980 .

- مومول محمد الصالح :
  - السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية — ديوان المطبوعات الجامعية — الجزائر 1983 .

- المقري شهاب الدين أحمد التلمساني :
  - أزهار الرياض في أخبار عياض ، ت . مصطفى السقا ابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي القاهرة 1942 .
  - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ت . ا . عباس دار صادر بيروت 1968 .

- المقريزي أحمد بن علي :
  - الخطط المقريزية ، ط . لبنان دار العرفان بدون تاريخ

- طين محمد الرشيد :
  - عصر المنصور الموحدي — دار الثقافة والنشر المغرب 1946.

- المنوني محمد :
  - العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ، تطوان المغرب 1950/1369.

- النجار عبد الحميد :
  - المهدي بن تومرت — دار الغرب الاسلامي ، ط . الأولى بيروت 1982.

- هويدي يحي :
  - تاريخ فلسفة الاسلام — مكتبة النهضة المصرية 1966 .

- الوهراني محمد بن محمد بن محرز :
  - منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، ت . ابراهيم شعلان ، ومحمد نغش ، ط . دار الكتاب العربي فرع مصر 1968 .

- ياقوت الحموي :
  - معجم البلدان ، ط . ليزيج 1968 .

- يلس جلول وأمقران الحفناوي :
  - الموشحات والأزجال — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1975 .

- المهدي بن تومرت :
  - أعز ما يطلب ، نشر لشياني الجزائر 1903 .

الــــدوريــــات

- مجلــة كليــة الآداب بالقاهــرة ــ المجلــد ، 11 ديسمبر 1949 ــ
مــقال لحسـين مؤنـس تحـت عـنوان :
الـثغـر الأعـلـى الأندلسـي في أيام المرابطـين .

- مجلــة المعهـد المصـري للدراسـات الاسلاميــة 1955 ــ مـقــال لحسـين مؤنـس " نصوص سياسـيـة عن فـترة الانتـقــال من المرابطين الى الموحديــن .

- مجلــة المجمــع العلمــي العربـي ــ دمشـق ــ ج . 4 ــ سـنـة 1953
مــقال لحســن ح . عبدالوهــاب تحت عنوان : الثقافــة في تــونــس .

- مجلــة الأندلـس مجلـد ــ 13 ــ عــدد ــ 1 ــ مــقال للدكتور عبدالعزيز الأهوانـي عن كتــاب المـقـتـطـف لابن سعـيــد .

- مجلــة الثـقافــة المغربيــة ــ نوفمبر ــ ديسمبر 1961 مـقال لمحمــد الفاســي تحت عـنوان الشاعــر ابن حــبوس .

- مجلــة اللقـاء المغربـيــة ، العدد الرابـع سنة 1968، مـقال تحــت عــنوان الـثـقــافــة والتعــليم في العـهـد الادريــسـي .

المخــطـوطـــات

- مخـطـوط الأسكريــال رقــم 520 (مدريــد)
الفهرس للقاضــي عــياض مخطوط الخزانــة العامــة بالربـاط)

- جذوة الاقتـبـاس مخـطـوط الخزانـة العامـة بالرباط (ضمن مجموع)
غـصن البـان في تـاريخ ورجـلان (مخطـوط خـاص) .

الفهـــــرس

- OUVRAGES ETRANGERS -

AUGUSTIN (E.) - Le Maroc - ed. Felix Alcan - Paris - 1936.

BASSET (A.) - " Mélanges berberes " - Revue des Etudes Islamiques - 1936.

- " Les quelques textes inédits en vieux berbère" - R.E.I.- 1934.

BOUSQUET - Les berbères -

BOUYGE (M.) - Essai de chronologie des oeuvres de AL Ghazali - ed. M. Allard- Beyrouth.

DOZY - Recherches - Histoire des Abbadith- Vol II.

GATIER (E.F.) - L'Afrique Blanche
- Le passé de l'Afrique du nord. -
Paris - 1952.

GLODZIHER (M.D.) - Ibn Tumurt et la théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI° siècle.

GZELL (S.) - Histoire ancienne de l'Afrique du nord.

LESSARD (J.M.) - Histoire de l'Algerie.
- La berbérie musulmane et l'orient au moyen âge - ed. Montaigne- Paris. 1925.

MARCAIS (W.) - -" Comment l'Afrique du Nord a été arabisée"- Annales de l'Institut d'Etudes orientales - Tome IV - 1938.

PERES (H.) La Poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades- Hesperis- 1934.

GRAND LAROUSSE -Encyclopédique- Vol.6 - " Limas ".

ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM .

" ARZEW "
" ORAN ".